

تاریخ
الأدب
العربی

دكتور شوقي ضيف

عصر
الدول والإمارات
الآنندلس



دار المعارف

تاريخ
الأدب العربي

عصر
الدول والإمارات
الأندلس

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف

عصر
الدول والإمارات
الآنندلس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالأندلس في عصر الدول والإمارات ويشتمل على خمسة فصول، أولها يتناول تاريخها السياسي منذ فتح العرب لديارها سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م إلى خروجهم منها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م مع عرض لتكوين مجتمعتها وظواهره وما تسرب إليه من تشيع وسري فيه من زهد وتصوف. ويوضح الفصل كيف أن أسس الحضارة الأندلسية تكاملت منذ عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م - ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) وكانت قد استقرت منها ثلاثة أسس قبله، هي أسس الدين الحنيف والعربية والعلوم بشعبها اللغوية والدينية، وضمَّ عبد الرحمن الأوسط إلى هذه الشعب شعبة علوم الأوائل من الرياضيات وغير الرياضيات، وأرسى في تلك الحضارة قواعدها المادية عن طريقين: طريق زاوله بنفسه، إذ شغف باقتناء أدوات الترف والتحف المشرقية، وجاراه الأندلسيون في هذا الشغف، وطريق زاوله مغنيه زرياب تلميذ إسحق الموصلي الوافد على قرطبة في أول عهد عبد الرحمن إذ سنَّ للمجتمع الأندلسي سنناً ظلت راسخة فيه، سنناً عمت المأكُل والملبس وما يتصل بها من هيئة الأندلسيين رجالاً ونساءً وما يتخذون من صور التزين. وأرسي عبد الرحمن قواعد الحكم متخذاً له مجلس وزراء يدير شئون الدولة ومصالح الرعية على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحضرة. وقد استطاع زرياب إرساء أسس فنية قومية لنهضة موسيقية رائعة كان لها - فيما بعد - تأثير واسع في الموسيقى الإسبانية والأوربية. وحظيت المرأة في هذا المجتمع الأندلسي بمكانة رفيعة لم تحظ بها أختها المشرقية.

ويوضح الفصل الثاني كيف أن إيبيريا - قبل الفتح العربي - لم يكن لها دور حضارى بارز في الحضارة العالمية، والعرب هم الذين أتاحوا لها - حين استوطنوها - أن تنهض بدور عظيم في هذا المضمار، ويعرض الفصل نشوء الحركة العلمية الأندلسية

وتطورها على مر العصور العربية هناك وإسهام المرأة الأندلسية فيها وما أضافه علماء الأندلس في مختلف العلوم الرياضية وغير الرياضية من مثل البُطْرُوجي وهو - لاكبلر (Kepler) الألماني - الأب الحقيقي لعلم الفلك الحديث، ومثله الزهراوي في الجراحة العالمية وعبد الملك بن زهر في الطب الإكلينيكي وابن البيطار في الصيدلة. وناهيك بازدهار الفلسفة في الأندلس وتلمذة الغربيين لفلاسفتها وخاصة ابن رشد الذي ظل يُدرّس قروناً متعاقبة في جامعاتهم منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وكان أثره العميق في الفكر الأوربي حاسماً، وخاصة في حركة التحرر والإصلاح الديني.

وأوضح الحديث عن النشاط اللغوي بالأندلس اكتشاف ابن حزم وابن سيده لعلم فقه اللغة المقارن بين اللغات السامية قبل اكتشاف الغربيين لهذا العلم بقرون عديدة. وتبين في الفصل ما لعلء مصر من أستاذية لغير عالم أندلسي في اللغة والنحو والتاريخ والقراءات وحمل الأندلسيين فيها لقراءة ورش المصري، وحملهم لفتاوى عبد الرحمن بن القاسم ونظرائه المصريين في الفقه. وأشار الحديث في الفصل إلى التقاء المبدئين الأساسيين في فلسفة ديكرت بأفكار المعتزلة والمتكلمين، وهما مبدأ الشك في حقائق الأشياء حتى يتضح وجه اليقين، ومبدأ أنا أفكر فأنا موجود، مما يقتضى وجود الخالق رب العالمين.

والفصل الثالث يعرض نشاط الشعر والشعراء، ويستهل بالحديث عن تعرب سكان الأندلس جميعاً: مَنْ أسلم منهم وأبنائهم المولدين وَمَنْ ظل على دينه المسيحي ولم يدخل في الإسلام. وتدل على تعرب المسيحيين هناك أقوى دلالة صرخة القس البرو المشهورة التي يتحسر فيها على إهمال الشبان المسيحيين في إيبيريا للغة آبائهم اللاتينية الدارجة وازدراهم لما ألف فيها من كتابات مسيحية، بينما يقبلون في شغف على تعلم العربية واتخاذها أداة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم نثراً وشعراً. ويؤكد بالنتيجة في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي تلك الصيحة ويدعم دلائلها بوثائق كنسية لاتينية تحمل قصائد عربية وأيضاً بكتابات لاتينية لنصارى الإسبان - حتى بعد خروج العرب من الجزيرة - على هوامشها شروح وتعليقات باللغة العربية. وفي ذلك ما يؤكد - بوضوح - خطأ نظرية المستشرق الإسباني ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون اللاتينية الدارجة لغة خطاب في حياتهم اليومية، وهم إنما كانوا يستخدمون في تلك الحياة عامة عربية أندلسية، وزعم ريبيرا - خطأ - أن الأزجال الأندلسية نظمت باللاتينية الدارجة

وهي إنما نظمت بعامية عربية أندلسية أتاحت لها أن تُروى في المشرق وتداول به وتحاكى فيه، وقد كتب فيها علماء اللغة الأندلسيون - مثل الزبيدي - كتباً مختلفة. وامتازت الأندلس بكثرة الشعراء فيها كثرة مفرطة، ويدل على ذلك وفرة ما وُضع فيهم هناك من كتب، وخاصة كتاب الذخيرة لابن بسام بمجلداته المقصورة على عصر أمراء الطوائف، وقد ترجم لأكثر من مائة شاعر أندلسي في هذا العصر القصير الذي لا يكاد يتجاوز ثمانين عاماً، فما بالنائب وراءهم من الشعراء في قرون الأندلس الثانية. ومن يرجع إلى كتاب نفع الطيب يجد المقرئ يترجم فيه لعشرين شاعرة كن مشهورات، ووراءهن كثيرات لم تكن لهن شهرتهن. ونفذت الأندلس في أثناء هذا النشاط الشعري الجم إلى ابتكار فن شعري جديد هو فن الموشحات، وذهب غير مستشرق إسباني إلى أن هذا الفن نشأ في الأندلس من المزج بين الشعر العربي وبعض الأغاني الرومانسية في اللاتينية الإسبانية الدارجة، وليس في أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا بها دَعْوَاهم في هذا المزج المزعوم. والصحيح أن الموشحات صورة أندلسية حديثة تطورت عن المسمّطات المشرقية المعروفة في الشعر العربي، وهي تتألف من أدوار، وكل دور فيها يُختمُ بشطر تغاير قافيته قوافي الشطور السابقة له في الدور بينما تتحد مع قوافي جميع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة، وكل ما بين المسمّطات والموشحات من خلاف أن الشطر الأخير المتحد القافية في أدوار المسمّطات تعدد في الموشحات مما يقطع - دون أدنى ريب - بأنها تطورت تطوراً طبيعياً عن المسمّطات. ويؤكد ذلك أن من أنشأوها وطوّروها في الأندلس كانوا من أصول عربية خالصة فقد أنشأها عربي في أواخر القرن الثالث الهجري هو مقدم بن معافي، وطوّرها في القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس عربيان هما يوسف بن هرّون الرمادي الكندي وعبادة بن ماء السماء الخزرجي الأنصاري. وألم هذا الفصل الثالث بكبار الوشاحين وترجم لنفر منهم، كما ألم بالأزجال التي نظمت بالعامية على غرار الموشحات مع الترجمة لناظمها الأندلسي المشهور: ابن قزمان. واستعرض الفصل - بعد ذلك - روائع شعراء المديح في الأندلس على مر العصور مع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وبالمثل استعرض روائع شعر الفخر مع الترجمة لثلاثة منهم وروائع شعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائيين، كما استعرض روائع أصحاب الشعر التعليمي مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعرض الفصل الرابع روائع الأغراض في بقية الشعر الأندلسي مع الترجمة لبعض شعراء الأندلس المبدعين، وأول غرض عرضه الغزل، وفيه تتفوق الأندلس - في رأينا -

على جميع البلدان العربية بما بثت فيه من لوعات وجَد لحب عذرى عفيف ظلت جذوتها تتقد وتوهج في أشعار الغزلين الأندلسيين قروناً متوالية، وبلغ من توهج تلك اللوعات أن امتد شررها الساطع إلى الأدبين الإسباني والفرنسي وبالتالي إلى الآداب الأوربية، ويتضح هذا الشرر - بقوة - عند الإسبان في قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) وكأنها قصة محب عذرى عربى فتن بمحبوبته حتى جُنَّ أو كاد يُجَنَّ، وسرفانتس في سطورها الأولى ينسبها إلى عربى حدثه بها، مما يؤكد أنه استلهم فيها أقاصيص الحب العذرى عند الأندلسيين، ونغضى معه في القصة فنرى الحب العنيف يخرج دأماً عن طوره إذ يعيش هائماً على وجهه والجنون يصيبه أحياناً وكلما أفاق منه تغنى بحبه مفتوناً بصاحبته مثله الأعلى في الجبال البارع. ويعم شرر هذا الحب عند شعراء التروبادور الفرنسيين في القرن الثاني عشر الميلادى. إذ نراهم مفتونين بمحوباتهم فتنة تدفعهم إلى التذلل لها وتمجيدها لما تستشعره من عفة وجمال مثل قرينتها الأندلسية. وما أثر به الغزل الأندلسى العفيف في هؤلاء الشعراء تردد ذكرهم للوشاة والرقباء، وأيضاً ظهور القافية في أشعارهم لأول مرة في الشعر الأوروبى. وللمرأة الأندلسية في هذا الغزل العفيف الملتاع مشاركة واضحة، وتغزلت أحياناً في أختها الأندلسية الفاتنة، وكانت لبعضهن ندوات يؤمها بعض الشعراء ورجال الأدب والفكر. وعكس غير شاعر عواطفه في عناصر الطبيعة من حوله، مدوّناً في شعره بدقة مشاعره وروعة تصاويره.

وتحوّل الفصل من الغزل إلى الطبيعة والخمر، وبنوّه البحث دائماً بتفوق الأندلس على البلدان العربية في شعر الطبيعة، لما كان يتملّى به الشاعر من جمال هذا الفردوس بجناته ورياضه وأزهاره ورياحينه وأنهاره وما يجرى فيها أو يتهادى من زوارق تزدان بالشموع ليلاً، وكأن أهل الأندلس كانوا في عُرْسٍ دائم ليلاً ونهاراً. وقد تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال هذا الفردوس الأرضى وما يسكب في النفوس من سحر يروع القلوب والألباب على نحو ما هو معروف عن ابن خفاجة، وتفجّونا عنده وعند أضرابه من شعراء الطبيعة - بل عند جميع شعراء الأندلس في كل الأغراض الشعرية - صور في منتهى الروعة.

وعرض الفصل - بعد ذلك - رثاء الأفراد وما لشعراء الأندلس من فرائد في التفجع على الأبناء والزوجات والأصدقاء، وبلغ التأثير بالقارئ منتهاه في مراثيهم للشهداء الأبرار في حروب أعدائهم من حملة الصليب الشاليين، ومن أروعها مرثية لابن الزقاق بكى فيها شاباً استشهد في عنفوان شبابه بعد أن أبلى في حرب أعداء دينه بلاء عظيماً،

ولا تقل عنها روعةً موشحة على بن حزمون في بكاء بطل بلنسية أبي الحملات قائد الأعنة حين استشهد في معركة ضارية مع حملة الصليب بعد أن مَزَّق كثيرين منهم تمزيقاً. ويتميز ابن وهبون في مراثيه بتأملات عميقة في حقائق الموت والحياة. وبجانب مراثي الأفراد مراث للدول الأندلسية حين تغرب شمسها وتدور عليها الدوائر مثل مراثي ابن اللبانة لدولة المعتمد بن عباد حين استولى يوسف بن تاشفين على إمارته بإشبيلية ونفاه إلى أغات بالمغرب، ولابن عبدون مرثية طويلة لدولة المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس حين فتك به المرابطون على أبواب مدينته، وفيها يسوق ابن عبدون الأمثال من الملوك الغابرة والدول الدائرة وكل ما على الأرض من حيوان كاسر وطير جارح فإن كل ذلك إلى فناء. وأنشد الفصل خواطر شتى في الزهد وخاصة لأبي إسحق الإلبيري كما أنشد خوالج وجدانية متنوعة في التصوف الفلسفي الإسلامي عند ابن عربي وغيره. وتكاثرت المدائح النبوية على لسان كثيرين مثل ابن جابر الوادي آشي. ومنذ سقوط طليطلة في حجر حملة الصليب يستصرخ أهل الأندلس المغاربة والعرب لرد عدوانهم، ويكثر هذا الاستصراخ منذ القرن السابع الهجري حين أخذت تسقط المدن الكبرى: قرطبة وأخواتها في حجور النصارى الشماليين على نحو ما هو معروف من استصراخ ابن الأبار وأبي البقاء الرُنْدَى.

والفصل الخامس خاص بالنثر وكتابه، وبيتدى بعرض روائع الأندلسيين في الرسائل الديوانية مع الترجمة لأهم كتابها الرسميين، وجعلهم جهادهم الدائب للنصارى الشماليين ونزالهم الضارى لهم يكثرُونَ في تلك الرسائل من تصوير مواقعهم معهم والتحول بتلك الرسائل أحياناً إلى ما يشبه منشورات حربية تستثير حمية أهل الأندلس والمغرب لسحق أعداء الدين الحنيف سحقاً لا يبقى منهم ولا يذر، ومن أروع تلك الرسائل المنشور الذي وجهه أبو محمد بن عبد البر إلى أهل الأندلس لحمل السلاح والأخذ بثأر مدينة «بَرْبَشْتَر» حين نكّل بها النورمانديون ونصارى الشمال على حين غفلة من أهلها سنة ٤٥٦هـ وتوالت مثل هذه الصيحات، ومُزَّق المغيرون شرمزق. ولابن القصيرة رسالة ديوانية بديعة يصور فيها انتصار ابن تاشفين والأندلسيين في موقعة الزلاقة وقد بلغ من كثرة قتلى النصارى فيها أن كان الناس يصنعون من رءوسهم صوامع يؤذنون عليها. ولابن أبي الخصال منشور حربي ملتهب للحض على خوض معركة حامية الوطيس، ولابن الخطيب تصوير حماسي لمنازلة أمير غرناطة الغنى بالله النصارى في جيّان. وحرى بالعرب في كل عصر أن يرفعوا هذه الرسائل الديوانية الأندلسية وما يماثلها شعارات

لمجدهم الحربى على توالى العصور. وتلى الرسائل الديوانية فى الفصل الرسائل الشخصية مع الترجمة لأهم كتبها الناهين وقد استطاعوا أن يتحولوا بها من باب المناسبات وما يتصل به من مثل التهنة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والاستمناح إلى لوحات أدبية لوصف البطولة الحربية فى جهاد النصارى. وأكثروا من وصف الطبيعة على نحو ما نجد عند ابن خفاجة فى وصف نزهة، وأبى القاسم بن الجدى فى وصف مطر بعد جذب شديد، وابن أبى الخصال فى وصف ليلة قاسية البرد. وعقدوا فى بعض رسائلهم مناظرات رائعة بين الأزهار والرياحين، عقدها ابن برد وحبيب وأبو عمر الباجى وابن حسداى وحوّل الفقيه ابن سراج رسالة له فى الشفاعة لشخص يسمى الزُّرَيْرِيزِ إلى دعاية مرحة أودعها كل ما يميز طائر الزُّرُور مما يتصل بريشه وأجنحته وهيئته وأفراخه وأعشاشه، وطارت الرسالة فى الأندلس وحاكاها كثير من الكتاب أمثال أبى القاسم بن الجدى وأبى بكر عبدالعزيز بن القبطورنه. وبذلك كله استحالت الرسائل الشخصية فى الأندلس على أيدى كتابها المجلّين - فى بعض جوانبها - إلى لوحات أدبية بارعة.

وتتميز الأندلس بكثرة الرسائل الأدبية الخالصة، ويعرض الفصل طائفة طريفة منها فى مقدمتها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، مع إثبات أن لا علاقة لها برسالة الغفران لأبى العلاء وأن ابن شهيد استوحاها من إحدى مقامات بديع الزمان، ومع بيان أن ابن شهيد استطاع بها أن يبتكر قصة رائعة يدور الحوار بها فيها وراء الطبيعة فى عالم الجن وأن يضمها نظرات نقدية وغير قليل من الفكاهة المستملحة. ويُلَمُّ الفصل برسائل ابن برد الأدبية فى المناظرة بين السيف والقلم وفى وصف بخيل صاحب نخلة شحيح منتهى الشح، وتصوير صديق له يدافع بحرارة عن تفضيله لأهـب الشاء - أو بعبارة أخرى جلود المعز - على البسط صيفا وشتاء، وقد استوحاها من رسالة سهل بن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ وبيانه لفضل البخل وشح النفس على الجود والكرم. وتحدّث الفصل عن رسالتى ابن زيدون الهزلية والجدية، وأولاهما فى السخرية - على لسان ولادة مهوى فؤاده - بغريمه فى حبها: ابن عبدوس، وثانيتها فى استعطاف أبى الحزم جمهور حين زجّ به فى غياهب السجون، وهما أثران أدبيان بارعان. ويُلَمُّ الفصل برسالة ابن غرسية الذميمة فى الشعوبية والردود المفجحة عليها، كما يُلَمُّ بالرسائل النبوية التى ضمّنها كبار الكتاب من أمثال ابن الجنان شوقاً حاراً إلى زيارة الرسول ﷺ وطلب الشفاعة. وتكاثرت المواعظ على نحو ما هو معروف عن منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى.

ويعرض الفصل أعمالاً نثرية متنوعة لكتاب الأندلس المبدعين، وفى مقدمتهم ابن حزم

وكتابه «طوق الحمامة» والكتاب دراسة تحليلية نفسية بديعة للحب العذرى العفيف وتجارب ابن حزم فيه وتجارب معاصريه في غير موارد بل في صراحة مستحبة، صراحة تسمو فيها العاطفة الإنسانية الخالدة، عاطفة الحب، وترتفع عن صفائر الغريزة النوعية. والكتاب ترجم من قديم إلى اللاتينية وتأثر به دانتي في كتابه «الحياة المتجددة» وبالمثل تأثر به بعض شعراء الإسبان.

ومن الأعمال النثرية الأندلسية الرائعة كتاب المقتبس لابن حيان في تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، وهو نموذج فريد في كتابة التاريخ كتابة تحليلية بصيرة لامثيل لها عند العرب قبله ولا بعده، وعلى شاكلته كتاب الذخيرة لابن بسام في كتابة التراجم الأدبية لعصره كتابة تاريخية تحليلية نقدية بارعة. ومن الطرف النثرية الأندلسية مذكرات الأمير عبدالله بن بلقين آخر أمراء غرناطة من بنى زيرى، وفيها يتحدث عن إمارة أسرته بتلك المدينة، وكذلك عن إمارته قبل نفى يوسف بن تاشفين له إلى المغرب، وهو حديث صريح كل الصراحة حتى لتصبح تلك المذكرات شبيهة بكتب الاعترافات عند الغربيين.

ومن أروع الأعمال النثرية الأندلسية، بل العربية عامة، قصة حى بن يقطان لابن طفيل الوادى آشى القيسى وهى قصة رمزية، أراد بها ابن طفيل التوفيق بين الفلسفة والدين، وقد أدارها على طفل نشأ في جزيرة مهجورة غما فيها وحده ونما معه عقله، حتى أدرك حقائق الأشياء على نحو ما يدركها الفلاسفة، واستنبط أن للكون خالقا وشعر بحاجته إلى الاتحاد به، وما زال يحاول ذلك حتى تحقق له هذا الاتحاد. وابن طفيل بذلك يثبت أن التأمل الفكرى المحض، كالإيمان الحقيقى الصادق عن طريق الأنبياء، يؤدى مثله إلى الاتصال بالله والاتحاد به، وإذن فلا تعارض ولا تنافر بين الفلسفة والدين. وتصادف أن عثر غرسية غوميس في مخطوطة موريسكيه بمكتبة الإسكوريال في مدريد كتبت في القرن السادس عشر على قصة تسمى قصة الصنم والملك وابنته تتشابه في إطارها الخارجى مع قصة ابن طفيل التى كتبها في القرن الثانى عشر، وبدلا من أن يستنتج أن مؤلف هذه القصة الموريسكية اطلع على قصة حى بن يقطان أو استلهمها إما في أصلها العربى وإما في ترجمة لاتينية أو قشتالية قديمة زعم العكس وأن ابن طفيل هو الذى استلهم هذه القصة أو أصلها القديم الذى كان شائعا في زمنه، وهكذا بنى زعمه على مقدمات وهمية. وتنبيه جوتييه في مقدمة ترجمته الثانية لقصة حى بن يقطان لما وقع فيه غرسية من خطأ. وبالمثل أخطأ پالنتيا في توهمه تأثر ابن طفيل بالمسيحية في القصة وأن يقطان فيها رمز الله وبالتالي «حى» رمز المسيح ابن الله، والقصة تكتظ بالآيات

والتعبيرات القرآنية والروح الصوفية الإسلامية. وهى بحق عمل فريد أصيل لابن طفيل لاسابقة له فى الآداب العالمية، وقد تأثر به الأدب الإسباني كما يتضح فى قصة الصنم والملك وابنته الموريسكية التى ذكرها غرسية وأيضاً فى قصة الناقد (الكريتيكون) الإشبانية لجراثيان المنشورة فى منتصف القرن السابع عشر والتى يقول منندث بيلايو عنها إنها تتطابق مع قصة حى بن يقظان تطابقاً واضحاً. وقد كتب على هُذَاهَا فى سنة ١٧٠٩ الكاتب الإنجليزى دانييل ديفو قصته المعروفة: «روبينسن كروزو».

وتحدث الفصل بعد ذلك عن فن المقامات بالأندلس والتحامه بمقامات الحريرى المعتمدة على الكدية أو الشحاذة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطى وخصائصها فى الأسلوب والمضمون، ومع بيان تأثير هذا الفن فى الأدب الإشباني خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، إذ نشأ عند الإشباني - على هده - ما سُمى بالقصص البيكارسية أو قصص الشطارة والسطار، وبطلها «البيكارو» يعيش - كبطل المقامات - على التسول والشحاذة مستخدماً لذلك حيلاً وخُدَعاً شتى.

وَألمَّ الفصل برحلات الأندلسيين مبيناً أنها تعددت عندهم بسبب أدائهم لفريضة الحج سنوياً، وللإمام بمراكز الثقافة فى المشرق، وللسفارة الخارجية إلى ممالك النصارى الشمالية، وللسفارة الداخلية إلى الإمارات الأندلسية، ولزيارة ما وراء البلدان العربية فى آسيا وشرقى أوروبا، ولمرافقة أمراء غرناطة فى عهد الأندلس الأخير فى رحلاتهم وكذلك فى مرافقة بعض سلاطين المغرب فى رحلاتهم. ومن أطرف رحلات الأندلسيين رحلة ابن جبير المتميزة بحسن العرض وجمال الأسلوب المرسل العذب.

وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربى فى الأندلس أثناء ثمانية قرون طوال جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من المصادر والمراجع الأندلسية المتصلة بكتب التاريخ والتراجم وكتب علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية وكتب الشعر ودواوينه وكتب النثر وأعمال كتّابه، كما رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين والباحثين محاولاً - بقدر ما أستطيع - أن أرسم هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس مع تصحيح الأحكام المخطئة التى من شأنها الغُصّ من مكانته الرفيعة ومن المدى الخطير الذى أثر به فى الأدب الإشباني والآداب الأوروبية. والله - وحده - ولى الهدى والتوفيق.

القاهرة فى أول مايو سنة ١٩٨٩ م.

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

التكوين الجغرافي والبشرى^(١)

تقع شبه جزيرة إيبيريا في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية، وتتصل بالقارة عن طريق جبال شاهقة وعرة، هي جبال البرينيه التي تكون حاجزا منيعا بينها وبين أوروبا، ولا يمكن لأحد اجتيازها إلا من ممرين يخترقانها في الشرق والغرب، وبينها ممرات متعرجة ملتوية ضيقة سهاها العرب باسم الأبواب مما جعلهم يسمون تلك الجبال جبال الأبواب. وفي وسط الجزيرة هضبة كبرى تنحدر نحو الشرق مطلة على البحر المتوسط مهد الحضارات القديمة الكبرى: المصرية والفينيقية واليونانية والرومانية، كما تنحدر نحو الغرب مطلة على المحيط الأطلسي، وهو يطوق شاليها الغربي في خليج بسكاي ويتصل في جنوبها بالبحر المتوسط عن طريق مضيق الزقاق الذي سُمي بعد الفتح العربي إلى اليوم باسم مضيق جبل طارق. وتمتد في هضبة إيبيريا الوسطى سلاسل جبال من الشرق إلى الغرب تصعب التواصل بين أجزائها في الداخل. وبها أنهار كثيرة وخاصة في الغرب حيث تصب في المحيط، وهي من الشمال إلى الجنوب نهر المنيو ثم نهر دويرة، وهو كثير الفروع غزير المياه خصب التربة، ويليه نهر تاجه وتقع عليه مدريد وطليلة ويصب عند أشبونة، ثم نهر آنه وتقع عليه بطليوس، فنهر الوادي الكبير وتقع عليه قرطبة وإشبيلية ومنه يتفرع نهر شنيل مادًا ذراعا له إلى غرناطة، وجنوبيه نهر لكه ويصب في المحيط بالقرب من قادس. وتصب في البحر المتوسط أنهار أقل أهمية ما عدا نهر إبرو في

الأولى من كتاب فجر الأندلس للدكتور مؤنس وكتاب دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان وكتاب الإسلام في إسبانيا للدكتور لطفي عبد البديع.

(١) انظر في التكوين الجغرافي لإيبيريا كتب الجغرافية العربية القديمة وخاصة التراث الجغرافي الأندلسي والتعريف به في كتاب الجغرافية والجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس. وراجع في التكوين البشري لإيبيريا الصفحات

الشمال وهو متعدد الفروع غزير المياه، وينبع من شرقي إقليم قشتالة ويمر بإقليم أراجون بإقليم سرقسطة في الثغر الأعلى بإقليم قطالونية ويصب عند طرطوشة جنوبي برشلونة. ويليه جنوباً نهر الوادي الأبيض ويصب عند بلنسية، فنهر شُقر بأوديته وفروعه الخصبة ويصب شمالاً دانية، ثم نهر شقورة وعليه تقع مرسية، ويليه نهر أندرش ويصب عند المرية، فنهر البُشُرَات ويصب عند شلوبينيه.

والمناخ في إيبيريا متباين لاختلاف أقاليمها، فهو في الجبال وشمالى البلاد بارد، وهو دافئ في الوديان بالوسط وفي الجنوب. ومناخ الأقاليم في الشرق مناخ البحر المتوسط وتخضع له تلك الأقاليم في نباتاتها وحيواناتها، بينما تخضع الأقاليم في الغرب لمناخ المحيط الأطلسي ونباتاته وحيواناته وغاباته. وإيبيريا لاتساع مساحتها وقيام الجبال والهضاب فيها متعددة المناخ، فمناطق جبلية بها غابات وأحيانا معادن ويسفوحها مراعى، ووديان وسهول بها زروع وبساتين، وهضاب بها قفار ومراعى، وأحواض أنهار بها حبوب وبقول وحدائق ذات بهجة. ومن يعيشون في تلك الأحواض وما بها من زرع وضرع تجرى حياتهم سهلة هينة، ومن يعيشون في الجبال يتأثرون بوعورتها ومن يعيشون في سفوحها والقفار ومراعيها يتأثرون بما يتأثر به أهل البوادي. وعلى هذه الشاكلة بينما نجد في إيبيريا أهل مدن متحضرين نجد أهل جبال بائسين كما نجد رعاة متبدين، مما حال من قديم بين أهل إيبيريا وبين قيام وحدة جغرافية تؤلف بينهم وتجمع أشتاتهم.

وهذا الاختلاف في أقاليم إيبيريا رافقه - منذ أقدم الأزمنة - اختلاف في العناصر والأجناس البشرية التي كوّنت سكانها، وأول من سكنها الإيبيريون وهم قبائل من غالة والبسك، وسرعان ما أخذت أجناس وأمم تغد عليها، وكان أول الوافدين الفينيقيين، وفدوا عليها في القرن العاشر قبل الميلاد للتجارة، وأقاموا بشواطئها الجنوبية مؤسسين على البحر المتوسط مدينة مالقة وعلى المحيط مدينة قادس، ووفد عليها بعدهم الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد وأقاموا بشواطئها الشرقية الشمالية وهم الذين سموها إيبيريا وقد أسسوا بها مدينة برشلونة على البحر المتوسط، ووفد عليها بعدهم بنحو قرنين القرطاجنيون وأسسوا في شرقيها مدينة قرطاجنة. واستولت عليها روما في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، وكان جيشهم الفاتح لها خليطا من شعوب أوربية مختلفة إيطالية وغير إيطالية واستوطنتها بعض أسر رومانية، وأطلقت عليها روما اسم إسبانيا، وأشاعت فيها حضارتها ولغتها حتى إذا تنصرت أدخلتها معها في النصرانية. وظلت خاضعة لها، حتى

إذا أقبل القرن الخامس الميلادي وأقبلت معه غارات المتبربرين من الألمان وغيرهم على الدولة الرومانية الغربية وقضت عليها كان من سابقهم إلى إسبانيا قبائل، الوندال، وزحزحتهم إلى الجنوب قبائل ضخمة من القوط وُسِّمَ باسمهم: «فاندالوسيا» وعُرب الفاتحون من العرب هذا الاسم إلى الأندلس وسموا به جميع إيبيريا من الجنوب إلى أقصى الشمال. وظل القوط يحكمون البلاد متخذين طليطلة - كما اتخذها الرومان - عاصمة لهم، ونزلها في عهد القوط يهود كثيرون، وازداد عددهم بها حتى كانت لهم مدن خاصة بهم مثل أليسانة قرب قرطبة وكثروا في إلبيرة وغرناطة.

وأضاف الفتح العربى إلى هذه العناصر البشرية الكثيرة في المجتمع الإيبيرى عناصر جديدة آسيوية من العرب وإفريقية من البربر. وكان عدد العرب في الفتح لا يتجاوز ثمانية عشر ألفا، وسموا باسم البلديين تمييزا لهم من فوج عربى نزل الأندلس سنة ١٢٣ للهجرة مع واليها بلج بن بشر القشيري، وكان تعدادهم عشرة آلاف وسموا باسم الشاميين تمييزا لهم من البلديين، ونزلها في سنة ١٢٥ للهجرة مع واليها أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي فوج عربى ثان، وسمع العرب بخيراتها فارتحل إليها كثيرون منهم. وكانت كثرة الفاتحين من البربر حتى إذا تم الفتح أخذت بعض القبائل والعشائر البربرية تهاجر إلى الأرض الجديدة واتخذوها سكنا ومقاما لهم. وبجانب البربر والعرب نجد عنصرا ثالثا فسخ له حكام الدولة الأموية في الأندلس والمقام بها منذ أفضى زمام تلك الدولة إلى الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) إذ استكثر من شراء الصقالبة، وهم رقيق أوربى كان يُخَصَّى ويبيع، وأصل نشأته في بلغاريا شرقى أوربا، ولذلك قيل له صقلبي، وعم الاسم في الأندلس الرقيق الأوربى جميعه من ألمانيا وغير ألمانيا. وكان حكام الدولة الأموية يشترون هؤلاء الصقالبة شبانا ويدخلونهم في الإسلام ويعلمونهم العربية وآداب المجتمع الأندلسى ويدربونهم على الفروسية واتخذوهم حرسا وخداما في قصورهم، وألحقوا نفرا منهم بجيوشهم وازدادوا حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفا في عهد عبد الرحمن الناصر، وسنراهم يستقلون ببلنسية ودانية والمرية في عهد ملوك الطوائف.

وواضح أنه شاركت في التكوين البشرى لإيبيريا أجناس كثيرة منها الآسيوى والإفريقى والأوربى، وبذلك أصبحت في دمايتها القارات القديمة الثلاث، مما حال دون قيام وحدة سياسية فيها، إذ أخذ كل إقليم من أقاليمها يشعر أن له وجودا ذاتيا وأن من حقه التمتع بالاستقلال، ومن ينظر إلى خريطةها اليوم يرى فيها أمتين مستقلتين تمام الاستقلال: الأمة الإسبانية والأمة البرتغالية، ولكل منها نظامها السياسى الخاص.

الفتح - عصر الولاة

(أ) الفتح^(١)

أتم موسى بن نصير وإلى المغرب منذ سنة ٨٦ هـ / ٧٠٦ م فتح بلاد المغرب حتى المحيط الأطلسي غربا وجبال السوس الأقصى جنوبا، واتبع موسى سياسة حميدة: أن يرسل مع الجيوش الغازية طائفة من الفقهاء ليدخلوا البربر في الدين الحنيف ويلقنهم تعاليمه، مما عمل على تعريبهم سريعا، وأسس في بلاد المغرب الأوسط ولاية جعل حاضرتها تلمسان، وأسس في بلاد المغرب الأقصى ولاية ثانية جعل حاضرتها طنجة المطلة على مضيق الزقاق، وولّى عليها أحد قواده من البربر هو طارق بن زياد. وأبقى موسى على سبته شريقها على الزقاق لواليتها الرومي البيزنطي يوليان، وكان قد سارع إلى موسى حين وصوله إلى إقليم طنجة سنة ٨٩ هـ / ٧٠٩ م فأعلن له ولاءه وطاعته. ويظن أنه أغراه حينئذ بغزو إيبيريا، وكان ملكها غيطشة Witiza قد توفي سنة ٧٠٨ م وأبى الأشراف أن يخلفه على العرش أحد أبنائه، وأجلسوا عليه لذريق Roderic حاكم قرطبة، ونشبت حروب بينه وبين أبناء غيطشة، وانتصر عليهم، ويبدو أنهم استغاثوا ببوليان حاكم سبته البيزنطي حليف أبيهم، ورأى أنه لا قبل له بلذريق وفكر أن يستعين عليه بالعرب، فأغري موسى بن نصير - حين لقيه في طنجة - بغزوها. أما ما يقال من أن دافع يوليان إلى حث موسى على هذا الغزو مسألة شخصية هي عدوان الملك الجديد لذريق على ابنته في قصره وأنه أراد أن يثأر لانتهاك عرضه بحض العرب على غزو إيبيريا ففي رأينا أن ذلك من باب الأساطير، والمعقول أن يكون الباعث الحقيقي لموسى بن نصير على غزوها

وما بعدها ونزهة المشتاق للإدرسي بتحقيق دى جويه ودوزي (طبع ليدن) ص ١٧٧ وتاريخ إسبانيا الإسلامية لبروئنسال ٨/١ وما بعدها والصفحات الأولى من دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ٥٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى ص ٤٣ وما بعدها.

(١) انظر في الفتح الصفحات الأولى من أخبار مجموعة (طبع مدريد) وتاريخ افتتاح الأندلس لابن حبيب وأيضا لابن القوطية والجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذارى والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري وتاريخ ابن خلدون (طبع مطبعة بولاق) ١١٦/٤ وما بعدها ونفع الطيب (طبعة إحسان عباس) ٢١٥/١ - ٢٢٠، ٢٣١

أو بعبارة أدق على فتحها أنه سأل عنها وعرف كثيرا من أحوالها الجغرافية والسياسية وأن ليس بها جيش حقيقى يحميها، فتطلع للاستيلاء عليها ونشر الإسلام بها، وشاور في ذلك الخليفة، وكان الوليد بن عبد الملك، وكان مثله شديد الطموح للفتوح وكانت جيوشه تتغلغل في أقصى الشرق: في أواسط آسيا وفي الهند، فشجع موسى، غير أنه أمره بالتمهل حتى يرسل حملات استكشافية، يتبين بها أين ينزل الجيش الفاتح وكيف يتحرك. وندب موسى لهذه المهمة قائدا من قواده هو طريف فعبر - مع أربعائة من الجند ومائة فارس - إلى الشاطئ الإيبيرى في سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م ونزل في موضع أقيمت به بلدة سميت باسمه، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وقام طريف بعدة غارات تبين له منها أنه لا توجد بجنوبي إيبيريا وسائل دفاع تحميها. واستدار العام فرأى موسى أن يرسل حملة أكثر عددا بقيادة طارق بن زياد وإلى طنجة، فعبر في سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م مضيق الزقاق بجيش عداة سبعة آلاف، وتجمعوا عند جبل سُمي فيما بعد إلى اليوم جبل طارق. ويقال إن عبور هذه الحملة للمضيق - مثل عبور سابقتها - إنما كان بسفن أعدها يوليان، ويدحض ذلك أنه كان لموسى بن نصير والعرب حينئذ أسطول يحمى شواطئ إفريقيا من الأسطول البيزنطى وأقيمت له دار صناعة كبيرة بتونس، وما دام موسى قد عزم على فتح إيبيريا فلا بد أنه أمر أسطوله بالتوجه غربا ليعبر - بحملة طريف ثم بحملة طارق - مضيق الزقاق، أما قصة عبور الحملتين على سفن يوليان فلا يؤيدها منطق الأحداث، وهى - فى رأينا - تكملة لما نسجه الخيال الشعبى من سخط يوليان على لذريق بسبب اعتدائه المزعوم على ابنته. ومما يتصل بهذا القصص الأسطورى عن فتح الأندلس الخطبة البليغة التى أضيفت إلى طارق، وقيل إنه ألقاها على جنوده بعد عبورهم مباشرة مفتتحا لها بقوله: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر» والخطبة من روعة البيان بحيث يبعد أن ينشئها مغربي تعرب حديثا مثل طارق، غير أنها شاعت بين الأندلسيين شيوعا أعده الخيال الشعبى ليضيف إليها أسطورة إحراق طارق للسفن التى جاز بها مع جنده إلى الشاطئ الإيبيرى، وهى لو صحت لكانت عملا طائشا، وهو عمل لا يمكن أن يقدم عليه أى قائد يقدر مسؤولياته وتبعاته. ومما يؤكد أنها مختلقة ومن نسج الخيال الشعبى أنها لم تروى في كتب التاريخ الأندلسى طوال خمسة قرون وأن أول من رواها الإدريسى الجغرافى المتوفى سنة ٥٦٠ للهجرة فى كتابه نزهة المشتاق.

وانحدر طارق بجيشه غربا ماراً برأس بارز على الزقاق، أقيمت به - فيها بعد - مدينة الجزيرة الخضراء، وتابع مسيرته على المحيط، وعلم أن لذريق يعدّ جيشاً للقائه، فأرسل إلى موسى بن نصير يستمده، فأمدّه بخمسة آلاف بقيادة طريف، جازوا المضيق في سفن عربية، ولم يلبث طارق أن التقى مع لذريق في السهول المنبسطة شرقي قادس وهزمه هزيمة ساحقة، جعلت كثيراً من مدن إيبيريا تفتح أبوابها لطارق وجنده، بينما فرّ لذريق إلى الشرق، وقُتل على نهر شقورة. وأرسل طارق أحد قواده إلى قرطبة فاستولى عليها. وتماذى طارق في الفتح حتى طليطلة عاصمة لذريق والقوط، فألقت له عن يد، وفرّ منها الأسقف والقساوسة يحملون مذبح كنيستها، ولحقت بهم كتيبة عربية عند بلدة صغيرة واستولت منهم على المذبح وذخائر كثيرة، وقيل لهم إنه مائدة سليمان، فسميت البلدة بعد ذلك باسم المائدة. وأخذت تشيع - منذ فتح طليطلة - أسطورة شعبية، مؤداها أنه كان بها بيت مطمّس عليه أقفال كثيرة أمر بفتحه لذريق، فوجده فارغاً إلا من تابوت مغلق وجد فيه لفائف مدرجة رسمت فيها صور عرب مدججين بالسلاح وفي أعلاها كتابات بالعجمية تشير إلى أن أمة الرجال المصورين ستغلب على الأندلس حين تكسر أقفال هذا البيت، ووضح أنها أسطورة مختلقة ولا أساس لها من حقيقة.

ولما بلغ طارق طليطلة في وسط إيبيريا رأى موسى بن نصير أن يسير إليه في قوة كبيرة ليشد أزره. ويثبت فتحه ويمكن له، وحين نزل بجنده الجزيرة الخضراء بنى بها مسجداً، وظل كلما دخل بلدة كبيرة أسس بها بيتاً من بيوت الله، وكان قد استقدم معه مهندسا معماريا لبناء تلك البيوت أو المساجد، واتبع في إيبيريا ما اتبعه في المغرب من تكليف بعض الفقهاء الداخلين معه تعليم أهل إيبيريا القرآن الكريم وفرائض الإسلام. ومضى بجيشه غربا يتمم فتوح طارق واستولى على شذونة وإشبيلية وقرمونة وماردة ولقنت وانتهى إلى طليطلة، ويقول بعض المؤرخين خطأ إنه كان قد امتلأ غيظاً وحقدًا على طارق لما فتح الله على يديه من البلاد، وزعموا أنه حين لقيه - بدلاً من تهنئته بانتصاراته - شدّ وثاقه وهمّ بقتله، وكل ذلك يخالف الأحداث، ولم يكن موسى من الطيش والحمق بأن يصنع ذلك بطارق الجدير بكل شكر وثناء. ويدل أقوى الدلالة على صحة ما نقول أن طارقاً ظل الساعد الأيمن في استكمال الفتح.

وأقام موسى مع طارق في طليطلة طوال الشتاء في سنتي ٩٤، ٩٥ هـ/ ٧١٣ - ٧١٤ م. وضرب للبلاد عملة جديدة تحمل على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله، وبذلك كان أول عربي حكم قطراً أوريباً، وجاءه نبأ بانتفاض إشبيلية فأرسل إليها ابنه عبد العزيز

فأخذ الانتقاضة، واستولى غريبها على لُبلة وباجة. وكان مما كتب به موسى بن نصير إلى الخليفة يبشره بالفتوح قوله: «إنها ليست الفتوح ولكنه الحُشْر ولكنها الجنة». وخرج في ربيع سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م - ومعه طارق - بالجيش إلى الشمال لإيبيريا قاصدا سرقسطة مفتاح منطقة وادي نهر إبرو، واستولى عليها كما استولى على لاردة شرقيها، وجاءه حينئذ أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بوفوده عليه مع طارق لتقديم تقرير مفصل إليه عن الفتوح، ورأى أن يؤخر الوفود عليه بضعة أشهر حتى يستكمل فتح إيبيريا، إذ رأى بلدانها ومعقلها في الشمال تستسلم له دون مقاومة تذكر. وللإسراع بالفتح أمر طارقاً أن يتجه بجنده إلى الشمال الشرقي فاستولى على أراجون، واتجه موسى إلى الشمال الغربي، ولحق به طارق بعد استيلائه على أراجون، واستولى في طريقه على ليون بمنطقة قشتالة، وتوغل موسى في مسيرته وعبر جبال كنتبريه، واستولى على حصن أُبيط في أقصى الشمال، ووصل إلى خليج بسقاية (بسكاي) على المحيط. وأحس أنه أنهى فتح إيبيريا إذ استولى مع طارق على أقاليم قطالونيا في الشرق وأراجون والبشكنس وقشتالة وجليقية في الشمال إلى أقصى الغرب. فرأى أن يلبي مع طارق أمر الخليفة بوفودها عليه، وأتاب عنه في حكم البلاد ابنه عبد العزيز. ومن سوء حظها أن الموت كان قد أسرع إلى الخليفة الوليد، وخلفه أخوه سليمان فلم يحسن لقاء الفاتحين العظمين، ولم يعودا بعد ذلك إلى إيبيريا، ولا عُرف مصيرهما، ويقال إن موسى حجَّ مع سليمان سنة ٩٧ هـ وأنه توفي بالطريق في المدينة أو في وادي القرى، أما طارق فيبدو أنه عاد إلى موطنه مكثفياً بما أدى في سبيل الله من جهاد وفتوح عظيمة.

وكان موسى وطارق قد استوليا على أهم البلدان في إيبيريا، وبقيت فيها بلدان وجهات لم تخضع لهما، فأخضعها ابنه عبد العزيز في ولايته القصيرة قبل مقتله: (٩٥ - ٩٧ هـ). وكان قد اتخذ إشبيلية عاصمة له، واتجه منها إلى الغرب فاستولى على باجة وبأيرة وشترين وقلمرية، وبذلك استكمل فتح غرب إيبيريا، وكانت لاتزال في الجنوب الشرقي جهات وبلدان لم تخضع للعرب خضوعاً تاماً، فرأى عبد العزيز أن يخضعها، وبدأ بالقة فاستولى عليها كما استولى على غرناطة، وولى وجهه نحو إقليم مرسية، ولم تكن أنشئت فيه إنما أنشئت فيما بعد، وكانت أريولة عاصمة هذا الإقليم، وكان يحكمه قائد قوطي تسميه المصادر العربية تدمير، فامتنع في مدينته وصمد لحصار المسلمين، حتى إذا لم يبق في قوُس صبره منزع لجأ إلى حيلة، هي نشر نساء مدينته لشعورهن ووقوفهن على سور المدينة وبأيديهن القضبان إيهاما للمسلمين بأنه لا يزال في المدينة عدد

ضخم من الرجال البواسل المتهين لمواصلة القتال، وخرج هو وطلب لقاء قائد المسلمين عبد العزيز، فاستأمنه، فأمنه، وعقد له الصلح ولأهل بلده على إتاوة وجزية يؤدونها. وفي رأينا أن هذه الحيلة للاستئمان تُعدّ - بدورها - من أساطير الفتح الشعبية الكثيرة التي كانت تتداول في إيبيريا. إذ يكفي أن يخرج هذا القائد بعد حصار طويل لقائد المسلمين المحاصرين لبلده ويطلب الأمان له ولمدينته فيجيب إلى طلبه كما حدث كثيرا في الفتح الإسلامية.

(ب) عصر^(١) الولاة (٩٥ هـ/٧١٤ - ١٣٨ هـ/٧٥٥ م)

عملت عوامل متعددة على كثرة الاضطرابات في هذا العصر، منها كثرة العناصر التي تكوّن منها الشعب في الأندلس، إذ كان منه أسبان مختلفو الجنسيات كما أسلفنا ويهود، وحلّ به بربر كثيرون وهم ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: البتر والبرانس، كما حلّ به العرب وهم ينقسمون بدورهم إلى عدنانية أو مضرية ويمينية أو قحطانية، وكانت بينها خصومات قديمة أشعلتها في العصر الأموي حروب قيس المضرية وكلب اليمينية في موقعة مرج راهط، واستعادت القبائل العربية في الأندلس هذه الخصومات سريعا. وكان البربر البتر يأخذون صفّ العدنانية والقيسية، بينما البربر البرانس كانوا يأخذون صفّ القحطانية وكلب اليمينية، وكان الوالي على الأندلس إذا كان يمينا أو كلبيا تعصب لقومه، وبالمثل إذا كان عدنانيا أو قيسيا مماهيا لكثرة الاضطرابات والقلاقل في تلك البلاد. وعامل ثان هيا لها هو كثرة تعيين الولاة هناك حتى بلغوا في نحو أربعين عاما اثنين وعشرين واليا، فلم يكن الوالي يشعر بشيء من الاستقرار. وعامل ثالث هيا بدوره لكثرة الاضطرابات في الأندلس هو بعدها عن السلطة المركزية في دمشق، فكان الخلفاء الأمويون لا يعرفون شتونها معرفة واضحة، مما جعلهم يكلون تعيين ولايتها إلى ولايتهم على المغرب، مع أنها كانت أكثر من المغرب ثراء وخراجا، وكانت تنعم بغير قليل من الحضارة، بينما أهل المغرب كانوا - وخاصة في الداخل بعيدا عن الشواطئ - بدوا غير متحضرين، وكان أهل الأندلس يأنفون من هذه التبعية، والخليفة الوحيد الذي تنبه إلى

وما بعدها ١٤/٣ وما بعدها وفجر الأندلس
لحسين مؤنس ص ١٢٢ وما بعدها والتاريخ
الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ص ١٣١
وما بعدها.

(١) انظر في ولاة الأندلس بعد الفتح كتاب
الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس لابن القوطية
والجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذارى
وتاريخ ابن خلدون ١١٨/٤ ونفع الطيب ٢٣٤/١

ذلك هو عمر بن عبد العزيز، إذ فصل ولاية الأندلس عن ولاية المغرب، وولّى عليها سنة مائة للهجرة السمح بن مالك، فطبق سياسة عمر في إنصاف الإسبان المغلوبين والمساواة في الحقوق بينهم وبين المسلمين من العرب والبربر، ودفع الناس بقوة إلى الجهاد في سبيل الله وراء جبال البرينية في غالة (فرنسا) وتوالت انتصاراته حتى مدينة تولوز، وثبتت أقدام المسلمين في ولاية سبتمانية جنوبي فرنسا وعاصمتها أربونة بحذاء البحر المتوسط، ولم يلبث أن استشهد في آخر سنة ١٠٢ للهجرة.

وكان عمر بن عبد العزيز قد توفي قبل السمح فعادت الأندلس تابعة لوالى المغرب، فولى عليها عنيسة الكلبي، واقتدى بالسمح في متابعة الجهاد وراء جبال البرينية واستولى على قرقشونة في داخل سبتمانية، وتوغل في وادي نهر الرون حتى سانس على بعد ٧٠ كيلو مترا من باريس واستشهد سنة ١٠٧ وولّى عليها والى المغرب يحيى بن سلمة الكلبي وظل عليها حتى سنة ١١٠ وكان شديد العصبية - مثل عنيسة الوالى قبله - لقبيلته كلب اليمنية، ولقيت قيس المضرية منها الأمرين، وولى بعدها ولاة قيسيون كالوا لكلب الصاع صاعين أهمهم الهيثم الكلابي وله بلاء حسن في الجهاد بأرض غالة، ويقال إنه توغل فيها حتى ماسون شمالى ليون. ووليها عبد الرحمن الغافقى فأعاد إلى الأندلس الهدوء والنظام وقاد جيشا كبيرا لغزو غالة، وواصل انتصاراته بين نهري جرونه ودوردوني، ومضى في اتجاه اللوار وكان شارل مارتل قد حشد له جيشا كثيفا من الفرنج والألمان وشعوب الشمال الأوربي، والتقى به لسنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م بين تور وبواتييه على بعد مائتي كيلو مترا من باريس، وصمد المسلمون عشرة أيام ينازلون أعدادا ضخمة، وفجأهم استشهاد قائدهم عبد الرحمن في المعركة فانسحبوا. وولّى الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى لمدة سنتين وخلفه عليها سنة ١١٦ عقبه بن الحجاج القيسى وظل يليها خمس سنوات محمود السيرة، ورابط في جليقية بأقصى الشمال الغربي من إيبريا حتى لم يبق فيها قرية إلا فتحت ماعدا حصن بلاى بالقرب من خليج بسكاى لوعورة الطريق إليه، وتخطى جبال البرينية إلى سبتمانية وعسكر بجيشه في عاصمتها أربونة وتقدم على نهر الرون واستشهد في قرقشونة. وباستشهاده يتوقف هذا المد العربي الإسلامى وراء جبال البرينية في غالة (فرنسا) بعد استمراره عشرين سنة أو تزيد، سجل فيها العرب صفحات انتصار مجيدة بجانب انتصاراتهم وفتوحاتهم العظيمة في إيبريا.

وإنما عاق العرب عن المضى في هذه الفتوحات والانتصارات ما أفضوا إليه في الأندلس - منذ أول العقد الثالث في القرن الثاني - من عصبيات عنيفة أخذت تضطرم

اضطرابا شديدا لا بين العرب المضرية واليمنية فحسب، بل أيضا بين العرب أنفسهم والبربر وكانت قد اندلعت العصبية بينها في المغرب، واضطر هشام بن عبد الملك أن يرسل جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيري وابن أخيه بلج بن بشر لإخماد ثورة ضارية للبربر، فهزم الجيش مرارا، واضطرت قوات منه تبلغ عشرة آلاف كان يقودها بلج بن بشر أن تلجأ إلى مدينة سبتة، وحاصرها البربر وأصابها جوع قاتل فكتب بلج بن بشر والى الأندلس أن يسمح له بدخولها مع جنده، فتردد، وكان قد تطاير شرر كثير من فتنة البربر بالمغرب إلى إخوانهم في الأندلس لإبعاد العرب لهم عن أداة الحكم ولما ينزلونه بهم من عسف، فثاروا في بلدان كثيرة هناك وخشى والى مغبة ذلك فسمح لبلج بن بشر أن يدخل الأندلس سنة ١٢٣ بآلافه العشرة. وتعاون مع والى في القضاء على ثوراتهم، مما جعلهم يتنادون - وخاصة في شمال البلاد - بالرجوع إلى موطنهم في المغرب. وكانت من البربر كثرة في جليقية وحوض نهر الدويرة وفي الأراضى الواقعة شمالي نهر تاجه، فتركوا تلك الديار جميعا تنعى أهلها، وكان لهذه الهجرة البربرية الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام لا في الأندلس وحدها بل أيضا في ساحات الجهاد والفتوح خلف جبال البرينيه في غالة، فقد توقف هذا الجهاد، وليس ذلك فحسب، إذ ضاعت جليقية وأراضى حوض نهر الدويرة أو أشرفت على الضياع، فقد تركها المغاربة لنصارى الشمال، وأوشك أن يكون ما تركوه وخسره الإسلام نحو ربع إيبيريا، تركوه للنصارى دون حرب أو ما يشبه الحرب، ليتجمع النصارى فيه ويعمره ويغيروا على المسلمين منه طوال القرون التالية ويخرجوهم من ديارهم وفردوسهم الأرضى.

ولم يلبث بلج بن بشر أن اشتبك بعد ذلك مع جنوده الشاميين في حروب مع والى الأندلس وجنوده من العرب الفاتحين، وسموا أنفسهم البلديين تمييزا لهم من هؤلاء الشاميين الطارئین. وانتصر بلج ولم يلبث أن توفي وعادت الحرب جذعة بين العرب الشاميين والعرب البلديين ومن انضم إليهم من البربر المستقرين في الأندلس إذ كانوا يرون أنفسهم - مثل العرب البلديين - أحق بالأندلس وخيراتها. وهاجت الفتنة والحروب بين الفتنين، وولى - من قبل والى المغرب - أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وحاول أن يعيد إلى الأندلس الهدوء والنظام، غير أنه أفرط في التعصب لقومه من كلب واليمنية ضد القبائل المضرية والقيسية ونشبت فتنة ضارية، فخلع سنة ١٢٨، ولم تهدأ البلاد، فقد احتدمت الفتنة بين اليمنية والمضرية وأيضاً بين العرب الشاميين والبلديين، واستطاع الصميل بن حاتم زعيم المضرية أن يضم تحت لوائه قومه ومعهم

العرب الشاميون بينما انضوى اليمينيون والعرب البلديون والبربر تحت لواء يوسف بن عبدالرحمن الفهرى، واتفق الطرفان سنة ١٢٩ أن تكون ولاية الأندلس ليوسف ويتخذ الصميل مستشاراً له ووزيراً، وبذلك عاد الأمن والنظام إلى الأندلس حتى سنة ١٣٨ ولكنها لم تعد إلى الجهاد في غالة (فرنسا) ولا إلى الحفاظ على ما أضاعته من الأندلس الهجرة البربرية الكبرى، مما أتاح الفرص لنصارى الشمال أن يقيموا لهم دُولاً ما زالت تناضل المسلمين قروناً متطاولة إلى أن سقطت غرناطة آخر معاقلهم بتلك الديار.

٣

الدولة الأموية^(١)

لا نصل إلى أواخر السنة الثانية والثلاثين بعد المائة حتى يقضى العباسيون على الدولة الأموية في المشرق وقد مضوا يستأصلون الأمويين في مذابح جماعية، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا منهم على وجه الأرض باقية. في هذه الأثناء فرَّ شاب أموى في التاسعة عشرة من عمره إلى إفريقية هو عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، واستطاع أن يدخل الأندلس - ولذلك سُمي عبد الرحمن الداخل - وأن يقبض على زمام الحكم بها ويجعله وراثياً في أسرته لمدة ثلاثة قرون متوالية. وبذلك أثبت أن الدولة الأموية إذا كانت سقطت في المشرق فقد قامت في الأندلس وكل ما هناك أن العاصمة انتقلت من دمشق إلى قرطبة.

وأُحيط فرار عبد الرحمن إلى إفريقية ودخوله إلى الأندلس بكثير من المبالغات والأساطير، من ذلك أنه كان بإحدى قرى العراق مع أختين له وأخ صغير في الثالثة عشرة من عمره حين كان العباسيون ينكّلون بأفراد أسرته، وحاصرت جنودهم القرية،

والمقتبس من أنباء أهل الأندلس: الأجزاء المنشورة بتحقيق الدكتور مكى والحجى وشالميتا ومعه رفيقان. وراجع دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى.

(١) انظر في الدولة الأموية بالأندلس البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثانى وأخبار مجموعة والجزء الأول من المغرب وأعمال الأعلام لابن الخطيب، والذخيرة لابن بسام في خلفاء الحقبة الأخيرة للدولة الأموية ونفح الطيب في مواضع مختلفة وتاريخ ابن خلدون ١١٦/٤ وما بعدها

فاصطحب عبد الرحمن أخاه وحمل ما استطاع من المال وأوصى أخته أن يرسلها إليه بموضع عينه لها في الشام مولاه بدرا ومولاهما سالما. وحين كان بهم مع أخيه بعبور الفرات لحقتهما جنود العباسيين وعرضت عليهما الأمان، وكان التعب قد أخذ بخناق أخيه فاستجاب لهم. أما هو فألقى بنفسه في الفرات، وبمجرد أن وصل إلى الشاطئ رأى سيوف الجند العباسي تنوش أخاه، فحمد الله أن نجا بنفسه، واتجه إلى الموضع الذي عينه لأخته بالشام فوجد بدرا وسالما في انتظاره ومعها مال وجواهر. ومضى معها مسرعاً إلى إفريقيا وأخذ يتنقل فيها بين قبائل البربر، واستقر عند أخواله من قبيلة نفزة بالقرب من طنجة. وكان سالم قد أعياء طول التنقل فعاد إلى الشام أما بدر فظل مع مولاه. وتساوق مع هذه الأسطورة أسطورتان تزعم أولاهما أن والي المغرب أحسّ بخطر عبد الرحمن فأرسل في طلبه، وكاد أن يقع في يد طالبيه، لولا أن خباته امرأة من قبيلة نفزة في ثيابها، وتزعم الأسطورة الثانية أن عم أبيه مسلمة بن عبد الملك كان على علم بالنجوم وأنها أخبرته أن الأمير عبد الرحمن سيحقق الأمر على يده. ولم يكن مسلمة على شيء من العلم بالنجوم، إنما هي أسطورة كالأسطورتين السابقتين وكأساطير أخرى تتصل برحلة عبد الرحمن وجميعها وضعها قصاص شعبيون بعد أن عظم شأن عبد الرحمن وبيته في الأندلس. وتساوق أخبار كثيرة عن إرسال عبد الرحمن بمولاه بدر إلى موالى أسرته الأموية في الأندلس واستجابتهم له واستجابة اليمينية التي طالما أيدت أسرته في صفين وفي مرج راهط. ودخل عبد الرحمن الأندلس وكوّن سريعاً جيشاً للقاء والي يوسف الفهري ومستشاره الصميل على مشارف قرطبة. واندحر جيشها وأسر الصميل ومات في السجن خنقاً، أما يوسف ففرّ إلى طليطلة وفي إحدى قراها لقي حتفه.

وفي مساء هذا الانتصار في اليوم العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨ للهجرة دخل عبد الرحمن القصر بقرطبة وصلّى بالناس وخطب في الجند معلناً ميلاد الدولة الأموية في الأندلس، وأخذ يحاول جاداً أن تكون دولته في قرطبة امتداداً لدولة آبائه في دمشق، وكان أول ما مهّد به لذلك قطعه الخطبة للعباسيين بعد عشرة أشهر من استيلائه في الأندلس على صولجان الحكم، وحاول بعض دعاة العباسيين أن يثوروا به في أول أمره، فقبض عليهم وحزّ رؤسهم، وقيل إنه وضعها في جواليق (أوعية) وعلى رأس كل منهم بطاقة تحمل اسمه وأرسلها إلى والي العباسيين في القيروان، وقيل: بل أرسلها إلى المنصور، فقال: الحمد لله الذي جعل بيني وبين عبد الرحمن صقر قریش بحراً. وأخذ عبد الرحمن يعمل على تثبيت الحكم بالأندلس في بيته وأن يكون وراثياً في أبنائه وأحفاده، وبذلك حمى

الأندلس لمدة ثلاثة قرون من الاضطرابات والحروب الأهلية وأن تتوزع إلى أندلسات كثيرة. كما حدث في القرن الخامس الهجرى لعهد ملوك الطوائف.

وهذا الحكم الوراثى حاكى فيه عبد الرحمن وأبناؤه وأحفاده حكم أسلافهم الأمويين في دمشق، وكانوا - مثلهم - حكاماً مستبدين لا يشركون في حكمهم أحداً، فكل أزمة الحكم بأيديهم، وسنرى عوامل في الأندلس تلطف هذا الحكم الاستبدادى وتحففه، إذ كان علماء الدين والقضاة والعامّة يأبون في أحوال كثيرة إلا أن يُسمَعَ لهم ويؤخذ بوجهات نظرهم، ولا نصل إلى عهد عبد الرحمن بن الحكم حتى ينشئ في الأندلس نظاماً للوزارة يشبه نظمها الحديثة. وعلى نحو ما كان الخلفاء الأمويون في دمشق يتخذون لأبنائهم المؤدبين والمعلمين كذلك اتخذ عبد الرحمن الداخل وأبناؤه المعلمين والمؤدبين لأبنائهم في قرطبة، وكان لذلك أثره في رعاية الأمويين في الأندلس للأدب وأهله وأيضاً للعلم وأصحابه على نحو ما كان أسلافهم في دمشق يرعونهم. وأستتوا سنة أسلافهم في بناء القصور بالبادية على نحو ما نعرف عن هشام جد الأسرة من بنائه لنفسه قصرًا بعيداً عن دمشق في البوادي سباه الرصافة أو منية الرصافة، وحاكاه في قرطبة حفيده عبد الرحمن الداخل فبنى لنفسه قصرًا شامى قرطبة سوى قصره المواجه لجامعها الكبير اتخذهُ للتنزه ولسكنه في كثير من أوقاته، وتبعه أبناؤه يبنون لأنفسهم قصوراً خارج قرطبة، وكانوا كذلك يبنون دوراً لأبنائهم يعلمون فيها ويؤدّبون. واقتدى عبد الرحمن بأسلافه في بناء الجوامع والمساجد، وقد بدأ بناء جامع قرطبة الكبير وظل الأمراء بعده يزيدون فيه حتى أصبح يضارع الجامع الأموى الكبير في دمشق، إن لم يتفوق عليه، وبنى مسجداً في إشبيلية وفي بلدان أخرى متعددة. وعُنى عبد الرحمن الداخل بالتنظيم الإدارى والشئون المالية على نحو ما كان يعنى أسلافه الأمويون في دمشق. ومن تنمة هذه المحاكاة لأسلافه اتخذه داراً للسكة وضرب العملة فيها باسمه، واتخذه مذهب الأوزاعى فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة أساساً للفتوى والقضاء في الأندلس، ومن تنمة ذلك أيضاً أن نجده يسمى وزيره عبد الواحد بن مغيث الغسانى حاجباً بالضبط كما كان يسمى أسلافه في دمشق وزراءهم، وظل ذلك بعده فترة.

وشغل عبد الرحمن الداخل - وأبناؤه بعده - بثورات داخلية كثيرة على نحو ما شغل أسلافهم في دمشق بثورة ابن الأشعث في العراق وثورات الخوارج والشيعة، وكانت ثورات الأندلس دائماً حادة عنيفة بسبب ما كان بها من عصبية - تحدثنا عنها - بين اليمينية والمضرية، وبين العرب البلديين والشاميين، وبين العرب والبربر، وأخذت تظهر

عصبية جديدة هي عصبه المولدين من أبناء وأحفاد من أسلموا من الإِسبان وانضم إليهم المسالمة (المسلمون الجدد من الإِسبان) وكذلك المسيحيون ممن استعربوا وغير المستعربين، وقد تنادوا بأن البلد بلدهم وهم أحق بها وأخذوا يثرون، وشبت بسبب ذلك كله ثورات في الجزيرة الخضراء وباجة وإشبيلية وطليطلة وأخمدها عبد الرحمن جميعاً. وبجانب هذه الحروب الداخلية كانت هناك حروب في الشمال مع الإمارات الإِسبانية، وعلى نحو ما حوّل أسلافه في دمشق الحرب بينهم وبين بيزنطة، إلى حرب صوائف، وهي حملات صيفية كانت توجّه إلى حدود بيزنطة كذلك صنع عبد الرحمن وخلفاؤه في قرطبة. وبذلك توقفت حركة الفتوح التي رأيناها في عصر الولاة والتي كانت قد توغلت في جنوبي فرنسا الغربي حتى بواتيه ونهر الرون، إذ أخلى عبد الرحمن كل ما كان بأيدي العرب من أرض شمالي جبال البرينيه بفرنسا واقتصر على ما بيده من الأندلس. وكان بنفس عليه سلطانه واليان عريبان هما واليا سرقسطة وبرشلونة عاصمة قATALونيا وبلغا من خيانتها أن اتصلا بشارلمان ملك الفرنجة وإمبراطور الغرب وأغرياه بغزو الأندلس سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م واقتحم جبال البرينيه وحاصر سرقسطة طويلاً واضطر إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى بلاده، ولكن بعد أن أنشأ ولاية في قATALونيا مهدت لاستقلال تلك المنطقة. وفي أثناء عودته أخذ الأندلسيون وحلفاؤهم من البشكنس ينقضون على مؤخرته ومزقوها تمزيقاً هي وقائدها رولان الذي تكونت حوله - فيما بعد - ملحمة شعبية باسم ملحمة رولان.

وتوفي عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ وخلفه ابنه هشام بعهد منه، وقد بايعته العامة بقرطبة، مما يدل على أن الحاكم الأموي هناك كان يضع في اعتباره رضاها عنه، وليس ذلك فحسب. فقد اتخذ هشام مستشارين له من الفقهاء أو مشاورين يرجع إليهم في تدبير الأمور، ويروى أن مصعب بن عمران قاضي قرطبة حكم على أحد رجال هشام بحكم فشكاه إليه، فقال له: والله لو أمرني بالخروج عن مقعدى (إمارتى) لخرجت عنه. وعلى هذا النحو كان يخفف من حدة استبداد الحاكم الأموي في قرطبة الرعية التي كان يخشاها والقضاة والفقهاء أو علماء الدين، وظل ذلك مرعياً طوال أيام الأمويين في الأندلس حرصاً على طلب السمعة وحسن الأحذوثة بين الرعية. وظلت جيوش هشام تقضى على ثورات المسيحيين في الشمال إلى أن توفي سنة ١٨٠ للهجرة.

وولى بعده ابنه وولى عهده الحكم، وكان في السادسة والعشرين من عمره، وهو أول من استكثر من الصقالبة، إذ بلغوا في عهده خمسة آلاف. ومع حزمه كان يأخذ بشيء من

اللهو ويخرج للصيد، ولم تعجب سيرته الفقهاء والعامة، وكثر تعرض الناس له في الطريق بالسباب، فصلب في سنة ١٩٠ نفرًا من الفقهاء، مما جعل مراجل الغضب عليه تغلى في قرطبة إلى أن انفجرت ثورة ضده في جنوبيها كان يقودها الفقهاء، واتسعت فشملت قرطبة، وتحركت جموع الشعب نحو قصره تطالب بعزله، فسُلط عليهم جنده من الصقالبة فسفكوا دماء كثيرين وتبعوهم في دورهم بالهدم والإحراق وهدموا الریض الجنوبي منشأ الثورة ومركزها. وبعد ثلاثة أيام أعلن الحكم الأمان للثائرين على أن يخرجوا من قرطبة، فخرج منهم جمهور إلى طليطلة، وخرج جمهور ثان إلى دار الحرب في الشمال وجمهور ثالث ركب البحر إلى الإسكندرية يبلغ نحو خمسة عشر ألفًا، وأنزلهم عبدالله بن طاهر وإلى مصر للمأمون جزيرة كريت سنة ٢١٢ وأنشأ فيها دولة إسلامية ظلت بها إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ للهجرة. وكانت جيوش الحكم ماتى غادية رائحة لحرب المسيحيين في الشمال، واستطاع البشكنس بقيادة ونقة الاستيلاء على مدينة بنبلونة سنة ١٨٣ وأقاموا من حينئذ مملكتهم نبارة وظلت وراثية في أبناء ونقة. وحاصرت في سنة ١٩٠ قوات فرنسية مدينة برشلونة، وسقطت بعد مقاومة عنيفة، وبذلك ضاع من أيدي العرب في الشمال الشرقي إقليم قطلونية كما ضاع إقليم بنبلونة، وكان قد ضاع في عهد عبد الرحمن الداخل إقليم جليقية وأشتوريش. ويقول ابن سعيد في المغرب إن الحكم كان من أشد بني أمية في الأندلس إقداما إلى ما جمع من جودة الضبط وحسن السياسة وكان يشبه بالمنصور العباسي في شد الملك وقهر الأعداء وتوطيد الدولة، وتوفي سنة ٢٠٦ للهجرة.

وولى بعده بعهد منه ابنه عبد الرحمن، ويسمى عبد الرحمن الأوسط لتوسطه بين جده عبد الرحمن الداخل وحفيده عبد الرحمن الناصر، وفي عهده تكاملت أسس الحضارة العربية في الأندلس، وكانت ثلاثة أسس من أسسها أخذت في الاستقرار هناك هي الدين الحنيف ولغته العربية ودعوته إلى العلم والتعلم وكانت الأندلس قد سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية والدينية، فدفعها عبد الرحمن الأوسط إلى العناية بعلوم الأوائل، وضم إلى ذلك أساسا رابعا هو الجانب المادى للحضارة الأندلسية، إذ شغف ببناء القصور وأثاثها ورياشها الفاخرة وحاكاه الأندلسيون مما جعل التجار يحملون إلى الأندلس نفائس المشرق وطرائفه، وانضم إلى ذلك أساس خامس فيما اكتمل للمجتمع من تكوين فني وحضارى عن طريق وفود زرياب المغنى تلميذ إسحق الموصلى على قرطبة في أول عهد الأمير عبد الرحمن وقيادته هنالك نهضة للغناء والموسيقى وبثه في المجتمع الأندلسي

جوانب حضارية جديدة في الملبس والمأكل والهيئة.

وبنى عبد الرحمن بقرطبة دارا للسكة وضرب الدراهم باسمه، وهو الذى وضع أساس الحضارة الأندلسية من وجهة تنظيم الحكم وضبط قواعده إذ اتخذ مجلس وزراء جعل له رئيسا باسم الحاجب، وجعل له ولراءوسيه من الوزراء بيتا فى قصره يجلسون فيه على فرش منضدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شئون الدولة فوزير للمال ويسمى الخازن ووزير للمظالم ووزير للثغور أو الحرب، وعدّ ابن حيان وزراءه وبلغ بهم ستة عشر طوال أيامه. وكان الوزراء يجتمعون مع رئيسهم يوميا، وكل منهم يعرض مسأله ويتشاورون فيها، وإذا قضوا بأمر عرضه الحاجب على الأمير، فإن قبله فيها وإلا ردّ إلى مجلس الوزراء لإعادة النظر فيه. وعلى نحو ما عني عبد الرحمن بتنظيم الوزارة عني بالخطط، وقد تكون للوزارة خطة واحدة كخطة المظالم وخطة الثغور، وكانت أهم الخطط خطط القضاء وأجلها خطة قضاء الجماعة بقرطبة، ويليه خطة صاحب الرد فيما استرا به الحكام وردوه عن أنفسهم، وخطة الشرطة الوسطى (وقد تسمى الكبرى) وكان لصاحبها الضرب على أيدي أصحاب المناصب والجاه في الظلمات، وخطة الشرطة الصغرى وكان صاحبها خاصا بالعامّة، وخطة السوق لصاحب الحسبة المشرف على الأسواق. وبذلك كله أحكم عبد الرحمن النظام الإدارى للدولة، وظل هذا النظام بعده إلى نهاية أيامها. وكان لا يصدر فى أمر إلا بعد الرجوع إلى مجلس الوزراء، وكان له مستشارون من القضاة والفقهاء لا يحد عن مشورتهم، وبذلك كله أرسيت قواعد الحكم الأموى فى قرطبة، إذ أصبح الحاكم يحكم عن طريق مجلس الوزراء والقضاة ورجال الدين، مما جعل الحكم هناك شوريا إلى حد كبير. وكان يقال لأيامه أيام العروس لما شمل الناس فيها من أمن ورخاء، وزاد فى جامع قرطبة رواقين فى الجنوب وبنى فى الأندلس جوامع كثيرة، وتولع مثله بيناتها جواريه.

وفى أيامه نشبت فتنة بين اليمانية والمضرية فى تدمير (مرسية) ظلت سبع سنوات إلى أن أخذت، وكثيرا ما كانت جيوشه تغزو المسيحيين فى الشمال، وأحيانا كان يقود تلك الحملات بنفسه ويغنم غنائم كثيرة. وغزا النورمان (سكان إسكنديناوة) شواطئ الأندلس الغربية عند أشبونة وقادس فى آخر سنة ٢٢٩ وصعدوا من مصب الوادى الكبير إلى إشبيلية، ونكل بهم قواده وولت فلولهم إلى المحيط. وأرسل إليه إمبراطور بيزنطة بهدية، فأرسل إليه الشاعر القرطبي يحيى الغزال بهدية ماثلة، ويقال إنه قضى فى بيزنطة ثلاث سنوات، ولما عاد أرسله بهدية إلى ملك النورمان، ونجح فى السفارتين

أوالوفادتين جميعا، وعن عبد الرحمن الأوسط ببناء أسطول لحراسة الثغور على المحيط الأطلسي وعلى البحر المتوسط وفتح به سنة ٢٣٤ جزائر البليار ميورقه ومنورقة ومما يُذكر له بنيانه ثغر مُرسية على مقربة من ساحل البحر المتوسط. وفي أواخر أيامه أشعل المتعصبون من أحبار النصارى فتنة دينية ضد الإسلام والمسلمين، وأثاروا بعض القسس والشباب فكانوا يجاهرون بسبِّ الدين الحنيف ومقدساته حتى إذا لم يبق في قوس الصبر منزع طلب عبد الرحمن إلى رئيس الأساقفة عقد مجمع كنسى في قرطبة للنظر في هذه المحنة، وعُقد المجمع وأصدر قرارا باستنكار هذه الفتنة الحمقاء وتحريم سب الإسلام. وهدأت الأمور، ولم يلبث عبد الرحمن أن لبى نداء ربه في سنة ٢٣٨ للهجرة.

وولى بعده ابنه محمد بعهد منه، وطالت إمارته في الأندلس حتى وفاته سنة ٢٧٣ للهجرة، وكان محبا للعلوم مؤثرا لأهل الحديث حسن السيرة، وزاد في ترتيب الأداة الحكومية مستكثرا من الوزراء حتى بلغوا ثلاثة وعشرين في عهده. وكان مثل آبائه يعامل المسيحيين معاملة حسنة، وفسح للمستعربين منهم ممن اتخذوا العربية لسانا لهم في مناصب الدولة، من ذلك تعيينه لقومس بن أنتيان متولى جمع الضرائب من أهل الذمة للدولة كاتباً له سنة ٢٤٦ ولم يلبث أن أسلم وحسن إسلامه ويُذكر أنه استعفى الأمير محمداً أثناء اعتناقه النصرانية من العمل يوم الأحد، فأعفاه وأعفى جميع الموظفين، وأصبح ذلك بعده - كما يقول ابن حيان - عاماً في الأندلس. وفي سنة ٢٤٥ أغار النورمان غارتهم الثانية على شواطئ الأندلس الغربية على المحيط وشواطئها الشرقية على البحر المتوسط وصدهم الأسطول ونكّل بهم، فلم يعودوا بعد ذلك للإغارة على الأندلس. وكثرت الفتن والحروب في عهد الأمير محمد كما كثرت الثورات، وفي مقدمتها ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي في بطليوس بالغرب سنة ٢٦٠ وثورة عمر بن حفصون في مالقة سنة ٢٦٧ ودخل في هذه الثورات عناصر جديدة من المسالمة (المسلمين الجدد) والمولدين (أبناء وأحفاد من أسلموا من الإسبان) وتحيّزت النصارى إلى هؤلاء الثوار وصاروا إلّبا على العرب يقولون نحن أولى بحكم الأندلس لأنها بلدنا ووطننا. وظلت الثورتان المذكورتان محتدمتين وظلت جيوش الأمير محمد تحاول القضاء على هذه الفتن مع خروجها من حين إلى حين لحرب المسيحيين في الشمال. وكان مشغولاً بالبنيان فزاد قصور آبائه فخامة، وبنى لنفسه قصراً أنيقاً في الجنوب الغربى لقرطبة.

وخلف محمداً في حكم الأندلس ابنه المنذر لمدة عامين شغل فيها بحرب عمر بن حفصون في قلعة بُبشتر بين مدينتي رُنْده ومالقة، وحصره فيها، غير أن الأجل وافاه أثناء

الحصار، فعاد به أخوه عبد الله إلى قرطبة في صفر سنة ٢٧٥ وولى الإمارة بعده. وكان عبد الله يكثر من تلاوة القرآن والتهجد وصلاة الجماعة مع العامة، وكان مجلسه يحفل بطبقات أهل الآداب والعلوم، وفتح للعامّة باباً في قصره لأخذ رقاعهم والنظر في ظلاماتهم، وبذلك انتعشت الرعية في عهده، غير أن الثورات والفتن تفاقمت تفاقماً شديداً في أيامه، حتى لقد كادت تعم كُور الأندلس، إذ ماجت جميعها بالفتنة والثورة بين المولدين والمسالمين والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أو بين البربر والعرب أو بين العرب بعضهم وبعض فبجانب ثورتي عبد الرحمن بن مروان الجليقي وابن حفصون كانت هناك ثورات عبد الملك بن أبي الجواد في باجة وابن وضاح في لورقة بكورة مرسية وغيرهما كثيرون، سوى من ثار من البربر أمثال بنى ذى النون في شنتبرية. وفي أثناء هذه الفتن والثورات التي امتدت في عهد الأمير محمد وطوال عهد ابنه المنذر وعبد الله استطاع ألفونس الثالث ملك ليون والجلالفة أن يوسع رقعة مملكته حتى شملت الحوض الممتد بين نهري الدويرة والتاجه وأنشأ به عدداً كبيراً من الأديرة والكنائس، وأسكن هذه الأراضي الجديدة المستعربين من نصارى الإسبان الذين قدموا عليه من أرجاء الأندلس وتوفي عبد الله سنة ٣٠٠ للهجرة.

وكان لا بد للأندلس من حاكم قوى حازم يعيد إليها وحدتها، ويبدو أن الأمير عبد الله شعر بذلك في عمق مما جعله يعد للأمر عدته برعايته لحفيد له صنعه على يديه هو عبد الرحمن، اتخذها ولياً لعهد، وكان يملك قلبه وقلوب الحاشية والرعية والجند، وكان شاباً له اثنتان وعشرون سنة، وهاله ما رأى في الأندلس من كثرة الثورات، وفي مقدمتها ثورة عمر بن حفصون ومن قادهم من المولدين والمسالمين والعجم، فقاد إليه جيشاً في أول سنة من سني حكمه، واستولى في طريقه إلى مركز ثورته في بيشتر بالقرب من مالقة على سبعين حصناً، وأعاد الكرة إليه في السنة التالية وردّ إلى طاعته إشبيلية وشذونة ومالقة. ولم يجد ابن حفصون مفراً في السنة الثالثة من إعلان طاعته والانقياد إليه، وتوفي سنة ٣٠٥ وتبين أنه كان قد تنصر إذ دُفن في كنيسة بيشتر، وثار أبناؤه على عبد الرحمن وقضى على ثوراتهم نهائياً سنة ٣١٤ وحوّل كنيسة البلدة إلى مسجد، واستخرج منها جثة ابن حفصون وصلبه بقرطبة، وعاد جنوب البلاد جميعه إلى طاعته. واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى غربي الأندلس وعبد الرحمن بن مروان الجليقي، ولم تكد تدخل سنة ٣١٨ حتى كان الغرب كله قد استسلم، واستسلمت طليطلة وجميع البلدان في إقليمها. وبذلك محا عبد الرحمن فكرة الثورة في الأندلس وعاشت في أمن ورخاء. وأخذ منذ السنوات الأولى من حكمه يفرض

هيئته على من جاوره من المسيحيين الإسبان في الشمال وأذعنت له بالولاء مملكتنا الجلالقة والقشتاليين واتخذتا منه الحكم المطاع فيما ينشأ بينهما من خلاف، وفزع إلى سُدته ملوكهما وأمرأؤهما يلتمسون رضاه، وطار صيته في أوروبا، فوفدت منها سفارات كثيرة محملة بالهدايا: من إمبراطور بيزنطة والبابا في روما وإمبراطور المملكة الجرمانية وهيو ملك الفرنجة وكونت برشلونة وماركيز توسكانيا وماركيز بروفنسا: قلدو الذي أصبح - فيما بعد - ملكا على إيطاليا. وكانت تعقد لهذه السفارات في قصره حفلات فخمة^(١). وكانت الدولة الفاطمية قد قامت في القيروان قبيل حكمه بقليل وقضت على الدولة الرستمية في المغرب الأوسط فأخذ يرسل المال والسلاح للأدارسة في المغرب الأقصى حتى يستطيعوا الوقوف في وجه الفاطميين واستولى على طنجة وسبتة، ورأى بثاقب فكره وقد أعلن عبيد الله المهدي الخلافة الفاطمية في القيروان ولم يعد للعباسيين وجود في المغرب أن يبادر إلى إعلان نفسه خليفة للمسلمين في أواخر سنة ٣١٦ وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر. وبذلك فصل الأندلس عن العالم العربي بعد أن ظلت طويلا تخضع لسلطان العباسيين الروحي قبله، إذ رأى هذا السلطان يتقلص في إفريقيا، وبذلك تكاملت للأندلس شخصيتها السياسية، وأصدر في ذلك منشورا قرىء على الناس في مساجد الأندلس، وفيه أعلن تمسكه بنصرة أهل السنة والجماعة، مع استنكاره الشديد لعقيدة ابن مسرة المتوفي سنة ٣١٩ أى بعد منشوره بنحو سنتين، وكان قد مزج في عقيدته بين مبادئ المعتزلة والمتفلسفة والصوفية.

وبلغ من احتفاء الناصر بأبهة الملك أن بنى لنفسه وحواشيه وجنده مدينة الزهراء على سفح جبل العروس المطل على قرطبة. وتأنق غاية التأنق في قصره بها وأبهائه، ولم ينشأ له ولد إلا بنى له فيها قصرا مقرونا ببستان واختار له بعض الكفاة للقيام بشئونه وبعض المعلمين لتربيته وتعليمه. وعُني بالمسجد الجامع في قرطبة، فأضاف إليه في اتجاه الجنوب زيادة ضاعفت حجمه. وعنى بعمده وزخرفته وأقواسه وأقام به محرابا بديعا. ومن إنشاءاته الضخمة بناؤه مدينة سالم في الثغر الأوسط بمواجهة مملكتي نبالة والجلالقة في الشمال لتكون مركزا للجيوش المجاهدة هناك. وبنى أيضا مدينة المريّة على البحر المتوسط لتكون قاعدة لأسطوله. ويُعدّ عهده أعظم عهد مرّ بالأندلس، بما أتاح لها من الاستقرار

و ٢٧٢/٢ وما بعدها.

(١) انظر في ذلك تاريخ ابن خلدون ١٣٧/٤.

١٤٢ وما بعدها، وأزهار الرياض ٢٥٨/٢

والوحدة والمنزلة العليا بين الدول الغربية والعربية، وأعانتة على ذلك حنكته في السياسة وتدبير الحكم وخبرته الدقيقة في اصطفاء الرجال واختيار القواد، كما أعانه خلق إسلامي عربي كريم من التسامح والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد لكل من استسلم من الثوار مع حسن المعاملة. وطالت مدة حكمه إلى سنة ٣٥٠ إذ استغرقت خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ويقال إنه عدّد أيام السرور التي صَفَتْ له في هذه المدة الطويلة من حكمه، فكانت أربعة عشر يوماً.

وخلفه بعهد منه ابنه الحكم المستنصر وكان في السابعة والأربعين من عمره، وظلت الأندلس في عهده موحدة وظلت للخلافة الأموية هناك هيبتها في الداخل والخارج، وأخذت سفارات^(١) ممالك النصرى في الشمال وممالك أوربا تفد على قرطبة. وحاول البشكنس في بنبلونة والجلالقة في ليون الإغارة على بلاده فأوغلت جيوشه سنة ٣٥٢ في أراضيها، وأرغمتها على العودة إلى إعلان ولائها لقرطبة. وتابع سياسة أبيه في إمداد الأدارسة بالمغرب الأقصى بالمال والسلاح، وأمدهم بالجنود ضد الفاطميين. وفي عهده عاد النورمان إلى الإغارة على شواطئ الأندلس الغربية في المحيط والشرقية في البحر المتوسط ونكل بهم الأسطول غرباً وشرقاً. وكان قد تعهده العلماء في شبابه فشغف بالعلوم على اختلاف ألوانها واستحال جامع قرطبة لعهد إلى جامعة كبرى، وعُنى عناية واسعة بمكتبته ومكتبة القصر. وكان أبوه توفي قبل إتمامه للزيادة في الجامع فأتمها. ووقع في خطأ كبير إذ أوصى بالحكم من بعده لابنه هشام الملقب بالمؤيد وكان لا يزال طفلاً صغيراً في الثانية عشرة من عمره حين وفاته سنة ٣٦٦ وبذلك عرّض الدولة لحكم الحجاب الأوصياء وبالتالي لزلزلة لا بد أن تنزل بها سريعاً.

وقام بأمر المؤيد في أول خلافته جعفر المصحفي حاجب أبيه، وأشركت معه فيها «صبح» أمه محمد بن أبي عامر المعافري صاحب خطة الشرطة والسكة بقرطبة وكان قد ازدلف إليها في عهد الحكم بحسن الخدمة والقيام بمواقع الإرادة، وأخذ يُعدُّ سريعاً لتفرده بالحجابة، فأغرى المصحفي بالصقالية وأخذ ما في أيديهم من الأموال العظيمة، واستعان بالبطل غالب صاحب مدينة سالم على جعفر فسجنه حتى هلك في سجنه، ثم بجعفر بن على الأندلسي أمير الزاب بالمغرب الأوسط على غالب ثم بعبد الرحمن بن هاشم التجيبى على جعفر، ثم فتك بعبد الرحمن، وخلصت له الحجابة، وكان المؤيد متخلفاً شديد

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ١٤٥/٤ وما بعدها
وأزهار الرياض ٣٨٨/٢ وما بعدها.

التخلف إلى حد البله، فانفرد بالسلطان المطلق في الحكم، ونقل الأموال المخترنة في قصر الخلافة إلى داره. وذكر ابن حزم في رسالته نقط العروس أنه فكر في عزل الخليفة هشام وتنصيب نفسه خليفة، واستشار نفراً من الفقهاء فاختلفوا بين مؤيدين ومعارضين، فرجع عن ذلك واكتفى بلقبه المنصور. وكان له مجلس معروف في أحد أيام الأسبوع يجتمع فيه إلى أهل العلم. ورأى أن يتخذ لنفسه جيشاً من البربر، فاستقدم منهم آلافاً أعانوه في غزواته الكثيرة ضد البشكنس أصحاب نبارّه والجلالة أصحاب ليون، ويقال إن غزواته أربت على عشرين غزوة وقيل بل على خمسين، واستولى في إحداها سنة ٣٧٧ على برّشلونة.

وقد أخطأ ابن أبي عامر في تكوينه الجيش البربري الذي أنزله في قرطبة إذ سيكون له - فيما بعد - أثر سيء في فتنتها التي طالت سنين متعاقبة انتهت بالقضاء على الدولة الأموية. ودامت دولة ابن أبي عامر ستاً وعشرين سنة إذ توفي سنة ٣٩٢ بمدينة سالم في الثغر الأوسط للبلاد. وتولى الحجابة بعده هشام المؤيد ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر، ونوّه ابن حيان بحسن ضبطه للأندلس وأن الناس سكنوا منه إلى عفة ونزاهة فأخذوا في المكاسب والرفاهية وارتفعت نفائس الأعلّاق والتحف الثمينة، ورام صهره ابن القطاع الاستيلاء على أزمّة الدولة ففطن له وقتله. وسار بسيرة أبيه في الجهاد وكثرة الغزو للجلالة والبشكنس واحتل بنبلونة عاصمة الآخرين سنة ٣٩٧ وتوفي في غزوة كبيرة له سنة ٣٩٩. وخلفه في الحجابة أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر وكان نحساً على نفسه وعلى المؤيد هشام وعلى أهل الأندلس، إذ انفتح منه - كما يقول ابن سعيد - باب الفتنة العظمى وفسد التاموس، لما انهمك فيه شرباً وزندقة وطعناً في الدين الحنيف قولاً وفعلاً، وطلب من هشام أن يوليّه العهد بعده ففعل، وخرج لحرب المسيحيين في الشمال، فتارت عليه الأسرة الأموية، وكان في طليطلة، فرجع إلى قرطبة ليتدارك الأمر فتلّقه جند سفكوا دمه في جمادى الأولى سنة ٣٩٩. وبذلك انتهت دولة بني عامر.

واتفق بنو أمية على خلع هشام المؤيد ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وتلقيه بالمهدى، وكان طائشاً: فرأى - بغير روية - مناصبة جند العامريين من البربر العداء، فاجتمع بهم بظاهر قرطبة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فبايعوه في ربيع الأول سنة ٤٠٠ للهجرة ولقبوه بالمستعين، ونهضوا به إلى طليطلة وهناك استنصر بالجلالة فنصروه، وكان ذلك أول إسفين دق في ضياع

الأندلس، وحاصر البربر وجوع الجلالة قرطبة وبرز إليهم المهدي في كافة أهلها، وهُزم مع أنصاره هزيمة ساحقة، فرُّ على إثرها إلى طليطلة، فاستعان بالجلالة - مثل المستعين - فأعانوه، ودخل قرطبة، غير أن أهل القصر قتلوه وأعادوا هشامًا إلى خلافته، وحجبه واضح الصقلي، وحاصر البربر مع المستعين قرطبة وأرسل إلى الجلالة ليمدوه، وبعث إليهم هشام وحاجبه واضح بالتنازل لهم عن ثغور قشتالة التي استولى عليها المنصور بن أبي عامر، فلم يلبوا المستعين. واستطاع البربر اقتحام قرطبة سنة ٤٠٣ وفتكوا بهشام المؤيد، وعاد للمستعين صولجان الحكم.

وكان من قواد البربر على بن حمود وأخوه القاسم وهما من أسرة الأدارسة العلوية، وعقد المستعين لعلى بن حمود على طنجة وعملها وللقاسم على الجزيرة الخضراء، وظل في الحكم طوال خلافته ست سنوات وعشرة أشهر كانت كلها شدة مشنومات، ويكفي دولته ذلاً وذلماً أن أنشأها ونهتها الجلالة حتى سنة ٤٠٧ إذ يهاجم على بن حمود قرطبة ويستولى على أداة الحكم ويقتل المستعين. وكان واضح الصقلي قد فر إلى شاطبة وفر كثير من الصقالبة بزعامه خيران إلى المريّة ومُرسية ونزلت جماعة منهم دانية، ولم يلبث غلمان على بن حمود أن قتلوه سنة ٤٠٨ فخلفه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ونازعه في سنة ٤١٢ يحيى ابن أخيه على وكان والياً لسبتة واستولى على قرطبة وتلقب بالمعتلى وفرّ المأمون إلى إشبيلية وعاد ببعض البربر إلى قرطبة ولحق المعتلى بالقة واستولى على الجزيرة الخضراء. وثار على المأمون أهل قرطبة وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار سنة ٤١٤ وقرب البربر منه فوثب عليه العامة بعد ٤٧ يوماً من حكمه، وبايعوا محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر وتلقب المستكفي بالله ويقال إنه لم يجلس على كرسى الخلافة أيام الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ كان أسير الشهوة عاهر الخلوة. وفي أيامه استؤصلت بقية قصور جده الناصر في الزهراء، ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن تحرك سنة ٤١٦ للاستيلاء على قرطبة. فهرب المستكفي ومات ببعض الثغور واستولى يحيى على مقاليد الأمور، وثار عليه أهل قرطبة سنة ٤١٧ وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الجبار وظل يتردد في الثغور ثلاثة أعوام، ثم سار إلى قرطبة وتلقب بالمعتد، وفي سنة ٤٢٢ خلعه أهلها، وبذلك انتهت الدولة الأموية في الأندلس.

أمراء الطوائف - المرابطون - الموحدون - بنو الأحمر في غرناطة

(أ) أمراء الطوائف^(١)

تقوُّض الصرح الشامخ الذى شاده بالأندلس أمراء البيت الأموى وخلفاؤه، ونشأ عن ذلك تفكك الدولة واستقلال مدنها الكبرى بأعمالها وقيام النظام المسمى بنظام أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف، وقد بدأ منذ زمن الفتنة (٣٩٩-٤٢٢ هـ) إذ أخذت العناصر المختلفة تقتسم تلك البلدان، فكان للصقالبة أكثر بلدان الشرق وللعرب والبربر بلدان الوسطة والغرب والجنوب. وتنافست هذه البلدان تنافساً أدى إلى طور حضارى راق كما أدى إلى نهضة واسعة في الأدب والعلم. وفي الوقت نفسه أخذت تتحارب فيما بينها، بل أدهى من ذلك أن بعض أولئك الأمراء أدى الجزية صاغرا لمسيحيي الشمال مما قوى في نفوسهم فكرة استرداد الأندلس من العرب المسلمين. ونفق قليلاً عند أهم المدن التي تكوَّنت فيها هذه الإمارات.

وأول مدينة نفق عندها قرطبة وقد اجتمع الملاً فيها أو كبار رجالاتها ووقع اختيارهم على أبي الحزم جهور ليكون أميناً على حكمها، وبذلك تأسَّس فيها نظام جمهوريَّ ارستقراطي يرأس الحكم فيه أبو الحزم جهور، ويساعده مستشارون يأخذ بمشورتهم في المسائل المهمة، وخلفه في الحكم سنة ٤٣٥ ابنه أبو الوليد محمد باتفاق الملاً، وفوَّض

أمراء غرناطة (طبع دار المعارف) ودول الطوائف لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والصقالبة للعبادى (طبع مدريد) والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال (ترجم إلى العربية) طبع القاهرة والتاريخ الأنديلسي لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادى (طبع بيروت).

(١) انظر في هؤلاء الأمراء الذخيرة لابن بسام والمغرب لابن سعيد في بلدانهم والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والحلة السيرة لابن الأبار في تراجمها، وكذلك التكملة، والجزء الثانى والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والثانى من أعمال الأعلام (طبع بيروت) وكذلك الرابع بتحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ونفع الطيب للمقرى (بتحقيق إحسان) في مواضع مختلفة والتبيين: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر

التدبير إلى ابنه عبد الملك، فأساء السيرة وحاصره المأمون بن ذى النون، فاستغاث بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فوجه إليه ابنه الظافر سنة ٤٦٢ في عسكر كثيف ففك ابن ذى النون حصاره، وغدر الظافر بعبد الملك فخلع بنى جهور عن قرطبة ونفاه مع أبيه إلى شلطيّش في الجنوب الغربى للأندلس، واغتال حريز بن عكاشة الظافر ليلاً، فأقبل المعتمد بجنوده وهرب ابن عكاشة ولحقته خيل فقتلته، ودخل المعتمد قرطبة وولى عليها ابنه المأمون فظل يدير شئونها إلى أن قتله المرابطون سنة ٤٨٤ للهجرة.

وتعدّ إمارة إشبيلية أهم إمارات الطوائف لما قادت من حركة أدبية وعلمية كبرى ولما صار إليها من بلدان كثيرة في شرقي الأندلس وغربيها، وأول من جمع زمام الحكم بيده بها قاضيه محمد بن إسماعيل اللخمي منذ سنة ٤١٤ إلى أن توفى سنة ٤٣٣ وخلفه ابنه عباد الملقب بالمعتضد وكان جباراً سفاكاً للدماء وأحاط نفسه بكوكبة كبيرة من الشعراء واتسع بسلطانه على حساب جيرانه من العرب والبربر بينما كان يرهّب المسيحيين في الشمال رهبة شديدة حتى ليدفع لهم الجزية صاغراً، وبذلك كان معولاً كبيراً لهدم الإسلام والعروبة في الأندلس. وتوفى سنة ٤٦١ فخلفه ابنه المعتمد وفي عهده بلغت الإمارة الذروة في السلطان إذ دان له كثير من البلدان في غربي الأندلس مثل قرمونة وشريش وشلب وفي شرقيها مثل مالقة ومرسية، وظل مثل أبيه يدفع الجزية صاغراً لملك ليون وقشتالة، وكان شاعراً واجتمع له من الشعراء ما لم يجتمع لأى حاكم أندلسى، وكان مولعاً بالشراب ومجالس الغناء، وعزله يوسف بن تاشفين في عبوره سنة ٤٨٤ ونفاه إلى أغيات في المغرب، وبها توفى سنة ٤٨٨ للهجرة.

وقامت في الجنوب إمارة ثالثة هى إمارة غرناطة تملكته صنهاجة وأول أمرائهم بها زاوى بن زبرى الذى اشتهر بهزيمة لخيران أمير المرية حين بايع المرتضى الروانى بالخلافة وزحف به على غرناطة. وخاف الكرة عليه من أهل الأندلس فرحل بما حازه من الأموال والذخائر إلى موطنه في المغرب، وخلفه بغرناطة ابن أخيه حبّوس بن ماكسن (٤١٠ - ٤٢٩ هـ) وورثه ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكان من أبطال الحروب وعظم سلطانه بهزيمة لزهير صاحب المرية وقتله سنة ٤٢٩ هـ وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين، وظل على غرناطة، إلى أن سلمها ليوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ للهجرة.

وقامت في الثغر الأعلى إمارة سرقسطة، ثار بها منذر بن يحيى التجيبى مدحوح ابن درّاج، وتوفى سنة ٤١٤ فخلفه عليها ابنه المظفر يحيى وبعده ابنه منذر، وكان له ابن عم متهور كثير الحسد له فدخل عليه قصره وقتله، فانتهاز الفرصة واليه على لاردة - وقيل

على تُطيلة - سليمان بن أحمد بن هود وانقضَّ على سرقسطة سنة ٤٣١، فهرب القاتل وخلصت له ولعقبه، ووليها بعده ابنه المقتدر أحمد وهو عميد بني هود وكان فارسا مغوارا وله غزوات مشهورة للمسيحيين في الشمال، وكان شاعرا وممدِّحا للشعراء. وجمع ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة جيشا ضخما للاستيلاء على سرقسطة وباءت حملته بالإخفاق الذريع فأعاد الكرة سنة ٤٥٦ وفاجأ النورمانديون بلدة بربشتر على مسافة ٦٠ كيلو مترا في الشمال الشرقي من سرقسطة واقتحموها وأنزلوا بأهلها مذبحة بشعة وسبوا منها خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهن في الأسواق ببيع الإماء، وبارك البابا إسكندر هذا العمل الوحشي الفظيع. واستعاد المقتدر البلدة حين استدار العام ومزَّق المعتدين شر ممزق، ودانت له وشقة في الشمال الغربي من بربشتر وطُرُوشة في الجنوب الشرقي من سرقسطة، وأخرج إقبال الدولة بن مجاهد من دانية على البحر المتوسط وأدخلها في إمارته، وتوفي سنة ٤٧٤ وخلفه ابنه المؤتمن يوسف وكان شجاعا بأسلا وحاميا للعلماء والشعراء وتوفي سنة ٤٧٨ فولى بعده ابنه المستعين أحمد، وحين استولى يوسف بن تاشفين على ديار أمراء الطوائف رأى أن يتركه حاجزا بينه وبين المسيحيين في الشمال، وتوفي شهيدا في حروبه معهم سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه عماد الدولة عبد الملك، وحاول على بن يوسف بن ناشفين أخذ الإمارة منه، فاستعان بالنصارى وتملكها المرابطون حتى سنة ٥١٢ إذ حاصرها النصارى واستولوا عليها وأخذوا في تملك بلاد الثغر الشمالى الأعلى إلى أن ملكوها جميعا.

ومن الإمارات المهمة في مَوْسطة الأندلس إمارة طُلَيْطلة ثار فيها زمن الفتنة في أواخر الدولة الأموية قاضيا ابن يعيش، وتوفي سنة ٤١٩ فتملكها إسماعيل بن ذى النون وأسرته البربرية طوال حقبة أمراء الطوائف، وتوفي سنة ٤٢٩ فخلفه فيها ابنه المأمون يحيى، وهو أعظم أمرائها قدرا، اجتمع عنده جُلَّة من الشعراء والكتاب، وعنى ببناء قَصْر له تأنق فيه غاية التأنق مما جعل الأدباء والشعراء يطنبون في وصفه، وتوفي سنة ٤٦٧ وخلفه حفيده القادر يحيى وكان قصير النظر سيِّء التدبير، وفقر ألفونس السادس فاه على ثغوره وجعل يطويها - كما يقول ابن سعيد - طى السجل للكتاب، فثار عليه أهل طليطلة وهرب إلى بعض حصونه وتملكها المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس لمدة عشرة أشهر، واستردها القادر بمعونة ألفونس السادس، وأسلمها له سنة ٤٧٨ على أن يساعده في أخذ بلنسية، فأخذها لمدة عامين إلى أن قتل سنة ٤٨١. وكان قد تملكها زمن الفتنة صقليَّان هما مبارك ومنظفر وصارت لحفيد للمصور بن أبي عامر يسمى عبد العزيز

سنة ٤١٧ وظل يدبر شئونها حتى سنة ٤٥٢ ووليها بعده ابنه المظفر عبد الملك، واستولى عليها القادر وثار عليه قاضيها ابن جحاف، وأخذ فارس نصراني يغير عليها هو السيد القنبيطور واستسلمت له سنة ٤٨٧ فنكل بأهلها وذبح الآلاف منهم وأحرق قاضيها حيًّا، ومات سنة ٤٩٢ واستولى عليها المرابطون سنة ٤٩٥.

ومن إمارات الشرق المهمة - بجانب إمارة بلنسية - إمارة دانية تملكها أول الأمر في مدة أمراء الطوائف مجاهد الصقلي منذ سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٣٦ وكان محبا للعلماء مجزلا العطاء لهم وللشعراء، وكان قد تملك مع دانية جزر البليار، وخلفه ابنه على الملقب بإقبال الدولة ومنه تسلم دانية المقتدر صاحب سرقسطة سنة ٤٦٨ وخلفه على ميورقة مولاه أغلب وتولاها بعده مبشر الصقلي وآلت إلى المرابطين.

ومن الإمارات المهمة في الشرق مُرْسِيَّة، وهي - كما أسلفنا - من بنيان عبد الرحمن الأوسط، وثار بها في زمن أمراء الطوائف المرتضى الرواني وبايعه الصقالبة الذين تغلبوا على الشرق وذهبوا به إلى غرناطة، فهزمهم زاوي بن زيري وقتل المرتضى في المعركة، وخلفه على مرسية أبو عبد الرحمن بن طاهر، وثار عليه أهلها وراسلوا المعتمد بن عباد فأرسل إليهم وزيره ابن عمار الشاعر فأخذها من يده وثار بها لنفسه، وثار عليه القائد عبد الرحمن بن رشيق، وتملكها أبو الحسن بن اليسع باسم المعتمد بن عباد ثم صارت للمرابطين. ومن إمارات الشرق أيضا المرية وهي من بنيان الناصر على البحر المتوسط وقد تملكها الصقالبة ثم معن بن صادح إلى أن توفي سنة ٤٤٣ وورثها ابنه المعتصم، وكان شاعرا وكريما جزل العطاء للشعراء، توفي سنة ٤٨٤ وجيش المرابطين يحاصره.

ومن إمارات الغرب المهمة إمارة بطليوس، تملكها زمن أمراء الطوائف الأفطس عبد الله حتى سنة ٤٣٠ فورثها عنه ابنه المظفر وهو من أعلم أمراء الطوائف وأدبهم، وخلفه عليها ابنه المتوكل سنة ٤٦٠ ويؤثر له أنه انتدب أبا الوليد الباجي كبير فقهاء الأندلس في زمنه ليدعو أمراء الطوائف إلى توحيد كلمتهم ضد نصارى الشمال، غير أن دعوته - بسبب أطماعهم - ذهبت أدراج الرياح، ومن يد المتوكل أخذ المرابطون هذه الإمارة وما كان يتبعها من المدن مثل أشبونة.

(ب) المرابطون^(١)

رأينا ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة يغير على ثغور طليطلة وما يليث أن يستولى عليها سنة ٤٧٨ وهى نتيجة طبيعية لتفتت الأندلس وتوزعها بين أندلسات أو إمارات تتناحر وتتحارب بينما تودى الإتاوات لألفونس السادس وأمراء أراجون ونبارة وبرشلونة، تودىها إشبيلية وبطليوس وغيرها. وأحس أمراء الأندلس وفي مقدمتهم المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس أن ما أصاب طليطلة أصبح قاب قوسين أو أدنى إلى إصابة إماراتهم، فتقع فريسة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة أو لغيره من الأمراء المسيحيين في الشمال، وأجمعوا أمرهم على أن يستغيثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب، وأرسلوا إليه نفرا من قضاة مدنهم الكبرى يستنفرونه - واستنفره كثير من الفقهاء - للوقوف معهم في وجه أعدائهم الشماليين من المسيحيين، وكان المرابطون قد نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام بالصحراء الكبرى والسنغال. واستمع يوسف إلى القضية، وهاله الأمر، فجهز سريعا جيشا جرارا وأعد له أسطولا عبر به في سنة ٤٧٩ الزقاق، واتجه إلى إشبيلية، وانضم إليه المعتمد صاحبها تواء، وبالمثل عبد الله بن بلقين أمير غرناطة والمتوكل أمير بطليوس، وعلم ألفونس بمقدمه فاستغاث بملوك النصرى في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجاءته سيول من الفرسان، والتقى الجمعان في الزلاقة بالقرب من بطليوس، ودارت معركة حامية الوطيس سحق فيها جيش ألفونس، وفر على وجهه مع الفارين. وتصادف أن توفى ابن ليوسف بن تاشفين فعاد إلى المغرب بعد هذا النصر المبين ولو تابع تقدمه لاسترد طليطلة، وكأنه اكتفى بتقليم أظافر العدو، وسرعان ما عاد ألفونس للإغارة على شرقى الأندلس، وعلم بذلك ابن تاشفين، فجاز إلى الأندلس جوازه الثانى سنة ٤٨١ وكاد ينزل بألفونس ما أنزله به في الزلاقة،

للنصرى وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادى (طبع بيروت) وعصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى (طبع دار القلم) ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د. لطفى عبد البديع (نشر مكتبة النهضة المصرية).

(١) انظر في المرابطين: الجزء الثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والرابع (طبع بيروت بتحقيق إحسان عباس) والثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء بالمغرب) ونفح الطيب للمقرى وتاريخ ابن خلدون والحلة السيرة والتكملة لابن الأيثار والمعجب للمراكشى ونظم الجبان لابن القطان (تحقيق د. مكى - طبع الرباط) والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى

غير أن الشتاء دخل فعاد إلى المغرب بعد أن ترك في الأندلس حامية. وسرعان ما دبَّ الشقاق بين أمراء الطوائف فجاز يوسف إلى الأندلس مرة ثالثة سنة ٨٤٣ مصحبا - بمشورة الفقهاء الأندلسيين - على إنهاء حكم هؤلاء الأمراء، واستسلم له سريعا أمير غرناطة، واضطر إلى العودة إلى المغرب وترك لصره سير بن أبي بكر تنفيذ الخطة، فاستنزهم جميعا ومن أبي أخذه أسيرا مثل المعتمد بن عباد الذي نُفي إلى أغات بالمغرب، أو قتله بعد حصاره مثل المتوكل صاحب بطليوس. وبذلك أظل حكم ابن تاشفين الأندلس ما عدا سرقسطة، فإنه تركها لبني هود لتكون حاجزا بين الأندلس ونصارى الشمال، وعبر إلى الأندلس مرة رابعة سنة ٤٩٠ لأخذ البيعة لابنه على وتوفي سنة ٥٠٠ للهجرة.

وتولى على ابنه الحكم بعده فحاول الاقتداء بأبيه في الجهاد فعبر إلى الأندلس سنة ٥٠١ ووجه أخاه تيمنا بجيش إلى أقليم شرقى طليطلة، والتقى بألفونس وأوقع به هزيمة ساحقة قُتل فيها ولى عهده - وكان ابنه الوحيد - فتوفي متأثرا بفقده، واستولى تميم على أقليم شنتبرية. وفي سنة ٥٠٣ غزا جيش للمرابطين أراضي طليطلة واستولى على طلبيرة غريبها، واستعاد المرابطون جزائر البليار سنة ٥٠٩. وكان على بن يوسف قصير النظر فحاول أخذ سرقسطة من بني هود، واستولى عليها كما مر بنا، وسرعان ما أخذها منه النصارى سنة ٥١٢. واشتبك المرابطون سنة ٥١٤ مع ألفونس الأول ملك أراجون في معركة بكتندة ولم يكتب لهم النصر. وفي سنة ٥١٩ استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول للاستيلاء على بلدهم فاندفع إلى الجنوب، وردّه المرابطون على أعقابهم، وأجلّوا عن غرناطة من كانوا سببا في استدعائه من النصارى إلى سلا ومكناسة بمراكش. وفي سنة ٥٢٨ وجه على بن يوسف جيشا بقيادة يحيى بن غانية وإلى بلنسية ومرسية إلى إفراغة شرقى سرقسطة، ولقى جيشا لألفونس ملك أراجون فمزقه شر ممزق. وتوفي على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ٥٣٧ وخلفه ابنه تاشفين وكان ضعيفا مما آذن بنهاية تلك الدولة.

وقد حمل كثير من المستشرقين في مقدمتهم دوزي وروغنسال على تلك الدولة زاعمين أنها كانت دولة بدو جفاة لا عهد لهم بالحضارة، وفاتهم أن أهل المغرب اعتنقوا الدين الحنيف من قديم وأخذوا بقسط من حضارته الإسلامية وكل ما اتصل بها من علوم وآداب، فليس بصحيح أنهم كانوا بدوا جفاة وقد فتح سلاطينهم أبوابهم في مراكش للعلماء والشعراء الأندلسيين واختاروا لرياسة دواوينهم في حاضرتهم أبا بكر بن القصيرة كبير

كتاب الإمارة العبادية بإشبيلية، حتى إذا توفي سنة ٥٠٧ خلفه زميل له من كتاب تلك الدولة هو أبو القاسم بن الجدة، وتوفي سنة ٥١٥ خلفه الكاتب الأندلسي البارع ابن أبي الخصال، وكان يساعد الثلاثة جميعاً كتاب من الأندلس. وقد ازدهرت في عهد المرابطين العلوم اللغوية وعلوم الدراسات الإسلامية وكذلك الدراسات الفلسفية ولمع فيها فيلسوف كبير هو ابن باجة. وشجّع حكام المرابطين في الأندلس الحركتين العلمية والأدبية وفتحوا أبوابهم على مصاريعها للشعراء، على نحو ما يوضح ذلك ديوان ابن خفاجة ومدايح فيه لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف الفتح بن خاقان باسمه كتابه قلائد العقيان، وكذلك مدائحه لأخيه تميم حاكم غرناطة ثم إشبيلية والأندلس ولأخيها سلطان المرابطين: على ولابن تيفلويت حاكم سرقسطة راعى ابن باجة والحركة الفلسفية ولأبي عبد الله محمد بن الحاج حاكم قرطبة وابنه أبي بكر. وتبرز من نسلهم راعيات للأدب مثل مريم زوجة تميم بن يوسف ممدوحة ابن خفاجة، وأهم منها السيدة حواء زوجة أهم قوادهم سَير بن أبي بكر حاكم إشبيلية مدداً متطاولة ممدوحة الأعمى التطيلي، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة يحضرها كبار الشعراء والمتفلسفة، وتحاورهم في الشعر ونقده على نحو ما حدث فيما بعد بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وظهور سيدات متأدبات فيها على غرارها، وكان لهن صالونات يتحاور فيها أدباء باريس النابهن.

وحقا كان لفقهاء المالكية سطوة كبيرة في عصر المرابطين، وهي سطوة لا ترجع إلى المرابطين ذات أنفسهم، وإنما ترجع إلى أن هذا العصر أتى بعد عصر فساد في الحكم انتشر فيه اللهو، وأصبحت الأندلس أندلسات وإمارات كثيرة بل شراذم، والجيران والإخوان يتحاربون، والعدو فاغراً فاه، يكاد يلتهمهم جميعاً، مما جعل الفقهاء يستغيثون بالمرابطين وابن تاشفين كي ينقذوا الأندلس مما تحولت إليه من دار هو كبيرة ممزقة، واستنقذها. المرابطون ومن ورائهم ومعهم الفقهاء يؤيدون ويساعدون، فكان طبيعياً أن يعظم شأنهم في هذا العصر بالقياس إلى عصر أمراء الطوائف عصر اللهو والفساد. وكان من أخطاء بعضهم أن أفنوا بأن الغزالي مجدد الإسلام المصلح يعد من المبتدعة، مما أدى إلى ظهور حركة دينية إصلاحية جديدة هي حركة الموحدين التي عجلت بسقوط دولة المرابطين. وفي هذه الأثناء انتهز نفر من رؤساء المدن في الأندلس الفرصة فاستقلوا بها، وكان أولهم ابن حديد قاضي قرطبة وتبعه في بطليوس ابن قسي وفي المرية يوسف بن مخلوف ثم الرميمي وفي مرسية عبد الله بن عياض ثم صهره ابن مردنيش وتبعته بلنسية وطرطوشة

وجيان وظلت الجزر الشرقية مع بنى غانية حتى سنة ٥٨٠ إذ صارت لدولة الموحدين.

(ج) الموحدون^(١)

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت، وهو مصلح ديني مغربي زار المشرق وتعلمذ على أساتذته من الأشعرية وغيرهم، وعاد إلى المغرب فنظم فيه ثورة واسعة ضد المرابطين وفقهائهم المالكية الذين كانوا يهتمون في دراسة الفقه بالفروع دون الأصول، وتبعه خلق كثيرون وجعلهم طبقات: الطبقة الأولى سباهها الجماعة، وسمى الطبقة الثانية باسم الموحدين وألف منهم جيشاً ضخماً واقع به المرابطين سنة ٥٢٤. وتوفي سريعاً فخلفه عبد المؤمن بن علي حتى وفاته سنة ٥٥٨ للهجرة، وهو يعد المؤسس الحقيقي للدولة، إذ استطاع القضاء نهائياً على دولة المرابطين، وتبعه المغرب من طرابلس إلى المحيط، وتم له ملك أكثر الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وكان ابن الرنك صاحب قلورية شمالي نهر تاجه بالقرب من المحيط قد استولى على أشبونة وشنترين وقصر أبي دانس، وهو يعد أول ملوك البرتغال بينما استولى ابن مردنيش على شرقي الأندلس وولى صهره إبراهيم بن همشك على جيان، فنازلها الموحدون وقضوا عليهما في الستينيات، وكان النصراني قد استولوا على المرية من يد ابن الرمي فاستعادوها. وتوفي عبد المؤمن فخلفه ابنه يوسف، وكان مثقفاً ثقافة واسعة أتاحت له في أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذة إشبيلية عاصمة له، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت تائراً على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل والأقيسة ومعتقاً لمذهب أهل الظاهر، وعبر إلى الأندلس في سنة ٥٦٦ لجهاد النصراني، وأعاد عليهم الكرة في سنة ٥٨٠ وهي سنة وفاته وخلفه ابنه يعقوب، وكان متعصباً للمذهب الظاهري تعصباً شديداً، وفي السنة الثانية من حكمه توفي ابن الرنك ملك البرتغال واستولى ابنه شانجه على مدينة شلب، واستردها يعقوب في السنة التالية ومعها قصر أبي دانس في الجنوب الشرقي لأشبونة. وعبر إلى الأندلس سنة ٥٩١ في جيش

والثالث من الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للنصري وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت والمغرب) وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروفتسال بمراجعة د. لطفى عبد البديع.

(١) انظر في الموحدين بالأندلس الجزء الثاني والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) ونفع الطيب وتاريخ ابن خلدون ١٦٥/٤ والمعجب للمراكشي (طبع القاهرة) وكتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحديّة والحفصية للزركشي (طبع تونس) والجزءين الثاني

جرار، وعلم به ألفونس الثامن ملك قشتالة فجمع له جموعاً كثيرة تزيد على مائتي ألف راجل وخمسة وعشرين ألف فارس، والتقى عند حصن الأرك في وسط الطريق بين قرطبة وطليطلة، ومُنِيَ ألفونس وجيشه بهزيمة ماحقة وتنادوا الفرار الفرار، وفر ألفونس ناجياً بنفسه. وعاد يعقوب إلى إشبيلية مبتهجاً بكثرة الأسلاب والغنائم، وأصلح مسجدها وبنى مئذنته التي عرفت باسم الخير الداء، وكان حرياً أن يتبع ألفونس إلى طليطلة ويستولى عليها حتى يفيد الفائدة المرجوة من هذا النصر العظيم، غير أنه اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات. وتوفي سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر وكان ضعيفاً وشغلته ثورات مختلفة في المغرب كما شغله استيلاؤه على جزائر البليار من يد بني غانية، بينما كان ألفونس يعد العدة لمعركة فاصلة بينه وبين الموحيدين وأعان ملوك النصراري في الشمال والبابا والأساقفة في جنوبي فرنسا واعدن مساعديه بالغفران وجاءه عُبَاد الصليب من كل فجٍّ، والتقى سنة ٦٠٩ بالناصر وجيش الموحيدين في حصن العقاب إلى الجنوب الشرقي من حصن الأرك، وهُزِمَ الناصر وجيشه هزيمة مرة، ولم تُدرِ السنة حتى توفي وخلفه ابنه المستنصر حتى سنة ٦٢٠ وأخوه المأمون حتى سنة ٦٢٩ وفي أيامه أعلن استقلاله ابن أبي حفص واليه على تونس، وولى بعده ابنه الرشيد حتى سنة ٦٤٠ وفي عهده استقل بنوزيان بتلمسان (المغرب الأوسط) وخلفه ابنه السعيد وفي أيامه عظم شأن بني مرين في المغرب الأقصى واستولوا على فاس ومكناس وأيضاً على سلا والرباط على شاطئ المحيط ودخلوا مراكش سنة ٦٦٤ وبذلك انتهى عهد الموحيدين.

ومنذ زمن المأمون الموحدى أخذ بعض النافرين في الأندلس يعلنون استقلالهم، وفي مقدمتهم ابن هود الملقب بالمتوكل الناصر بمرسيه سنة ٦٢٥ ومَلَكَ قرطبة وإشبيلية وغرناطة فضلاً عن مالقة والمرية، ولقيه النصراري في ماردة شرقي بطليوس سنة ٦٢٦ فهزمه وأخذوها، واستولى صاحب برشلونة على جزائر البليار سنة ٦٢٧، ولم يلبث ملك قشتالة أن استولى على قرطبة جوهره الأندلس الكبرى سنة ٦٣٣ وقتل ابن هود وزيره ابن الرميمي غيلة في المرية، وثار زيان بن يوسف بن مردنيش ببلنسية سنة ٦٢٦ وأخذها منه ملك أراجون سنة ٦٣٥ وسقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ ودانية سنة ٦٤١ وشاطبة سنة ٦٤٤ واستولى فرناند الثالث ملك قشتالة على إشبيلية عروس الأندلس سنة ٦٤٦. وآلت مرسية لعلم المتوكل بن هود بفريضة للنصارى وخدمة، وثار عليه عزيز بن خطاب سنة ٦٣٥ وهُزِمَ في وقعة مع النصراري فاستدعى أهل مرسية زيان بن يوسف بن مردنيش فدخلها وقتله سنة ٦٣٦ وعاد أهل مرسية فثاروا على ابن مردنيش وأخرجوه من بلدتهم،

فعدت لبني هود، وما زال فرناند الثالث ملك قشتالة يغاورها ويحاصرها حتى استولى عليها سنة ٦٦٤ للهجرة.

(د) بنو الأحمر^(١) في غرناطة

تتنمى هذه الأسرة إلى حفيد الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج لعهد الرسول ﷺ وهو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر والملقب بلقب الغالب بالله، وكان فارساً مقداماً، رأس في قريته أرجونة شمالي جيان واستولى على جيان سنة ٦٢٩ من ابن هود ثم على بسطة ووادي آش شمالي غرناطة، ثم على غرناطة نفسها سنة ٦٣٥ واتخذها عاصمة وامتد سلطاناه في الشرق إلى مالقة والمرية، غير أنه اضطر إلى التخلي عن جيان سنة ٦٤٣ لملك قشتالة، وعقد معه معاهدة التزم فيها بتقديم عون له في استيلائه على إشبيلية سنة ٦٤٦ واتسع بسلطاناه شمالي مالقة والمرية حتى لورقة وجنوبياً حتى جبل طارق والجزيرة الخضراء وحتى لبلة وشريش وشذونة في الجنوب الغربي لغرناطة، ومكّن له من تثبيت ملكه حنكته السياسية وطول مدة حكمه حتى سنة ٦٧١. وخلفه ابنه محمد الملقب بالفقيه، وسرعان ما هاجمه ألفونس العاشر ملك ليون فاستنجد بالمنصور عبد الحق سلطان المرينيين بالمغرب فأرسل إليه قوة كبيرة، والتقى الجمعان عند إستجة جنوبي قرطبة سنة ٦٧٤ وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً. واتفق محمد الفقيه سلطان غرناطة وسلطان بني مرين على أن تقيم في مملكة غرناطة قوة مرينية يرأسها قائد مريني يسمى شيخ الغزاة يدخل في عداد كبار الشخصيات بغرناطة، واتفق على أن تكون مالقة قاعدة للقوات المرينية، وعبر المنصور المريني مراراً وظل يشترك مع القشتاليين حتى أذعنوا لمسالمة محمد الفقيه، وتوفي سنة ٧٠١ وخلفه ابنه محمد المخلوع سنة ٧٠٨ وولى بعده أخوه نصر حتى سنة ٧١٣ إذ تنازل لابن عمه إسماعيل، والتقى بالقشتاليين سنة ٧١٨ ودارت عليهم الدوائر، وله فضل في إقامة بعض منشآت قصر الحمراء واغتيل سنة

(١) انظر في بني الأحمر بغرناطة أو بني نصر كتاب اللوحة البديرة في الدولة النصرية والإحاطة في أخبار غرناطة (في تراجم أمرائهم) وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ونبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمجهول (طبع المغرب) والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٠٩/٢ والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابن أبي زرع (طبع

الرباط) وتاريخ ابن خلدون: الجزء الرابع ونفح الطيب للمقرئ (انظر الفهرس) ويوسف الأول سلطان غرناطة لمحمد كمال شبانة (طبع القاهرة) ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين لمحمد عبد الله عتار (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس.

٧٢٥ وخلفه ابنه أبو الحجاج يوسف الأول، وفي أيامه استولى القشتاليون على طريف المشرقة على جبل طارق، وحدث وباء كبير سنة ٧٤٩ ولابن خاتمة الشاعر رسالة في وصفه. واغتيل أبو الحجاج يوسف الأول سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه محمد الخامس الغني بالله وله القسط الأوفر من منشآت قصور الحمراء، وتوفي سنة ٧٩٣ وكانت علاقته حسنة بملك القشتاليين وبالمثل علاقات ابنه يوسف وحفيديه محمد ويوسف المتوفى سنة ٨٢٠ وتلا يوسف أمراء ضعاف دب الخلاف بينهم وبين أبناء عمومتهم، ولم يلبث القشتاليون أن استولوا على جبل طارق سنة ٨٦٧ وبذلك أصبحت إمارة غرناطة محاصرة بالقوات النصرانية، بالإضافة إلى ما نشب من حروب بين أبناء الأسرة الحاكمة كانوا يستعينون فيها بملوك قشتالة. وأخذ ذلك ينذر بنهاية إمارة غرناطة وعجل بها زواج فرناند ملك أراجون من إيزابيلا ملكة قشتالة، فتعاونوا على القضاء على الإمارة، وقدموا بقوات ضخمة استولوا بها على بعض المدن الصغرى، ثم حاصروا غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس، واستسلم أبو عبد الله الصغير وسلم مفاتيح الحمراء لفرناند سنة ٨٩٧ للهجرة ونصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ المسلمون في غرناطة والأندلس بكامل حقوقهم وبمساجدهم وإقامة شعائرهم الدينية، ولكن الأسبان ضربوا بكل ذلك عرض الحائط ومضوا يضطهدون المسلمين المتبقين أسوأ اضطهاد وسموهم المدجنين، بينما سموا من تنصر منهم ظاهرا الموريسكيين وعقدوا لهم محاكم التفتيش المشهورة إلى أن أصدر الملك فيليب الرابع سنة ١١١٧ هـ / ١٦٠٩ م أمراً بخروجهم من إسبانيا. ومن الغريب أن هذا التعصب الديني المقيت الذي أخرج المسلمين من الأندلس هو الذي أتاح لأوروبا استكشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند فإن فردناند الذي ساعد أرسطو كولمب على اكتشاف أمريكا كان متأثراً - بعد استيلائه على غرناطة - بفكرة حصر الإسلام والمسلمين بين نارين، وتأثر بنفس الفكرة البرتغاليون في اكتشافهم لطريق الهند.

المجتمع^(١)

رأينا - فيما مر بنا - كيف كان التكوين البشرى لسكان إيبيريا مزيجاً معقداً من عناصر جنسية كثيرة إذ نزلها قديماً قبائل من بلاد الغال في الشمال، ثم نزلتها عناصر فينيقية ويونانية وقرطاجنية ورومانية وجرمانية، ونزلها كثيرون من اليهود ثم نزلها مع الفتح العربُ والبربر. وجلب إليها حكام الدولة الأموية كثيرين من الصقالبة المنتمين إلى شرقي أوروبا وفرنسا وألمانيا. ومن كل هذه العناصر تألف المجتمع الأندلسي مشتركة في تكوينه القارات القديمة الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآسيا. ودخل كثير من أهل إيبيريا في الإسلام وكانوا يُسمَّون: «مسالمة» وُسِّمَ أبناؤهم باسم المولدين، وظل كثيرون على مسيحيتهم مع اصطناعهم لحياة المسلمين وعاداتهم وتعلم العربية والتكلم بها وُسِّمُوا باسم المستعربين.

وأخذت تعمل عوامل في المزج السريع بين المسلمين والمسيحيين، منها كثرة المصاهرة فقد تزوج كثيرون في الجيش الفاتح من الإسبانيات. وظل ذلك فيما بعد، إذ كان كثيرون من العرب والبربر يؤثرون الإسبانيات الشقراوات، وكان البيت الأموي يكتظ بهن. ومن تلك العوامل أيضاً روح التسامح الديني الذي بثه الإسلام في أتباعه فكان أهل الذمة من النصارى واليهود يعاملون بالحسنى معاملة كريمة. ومرت بنا في غير هذا الموضوع فتنة دينية لعهد عبد الرحمن الأوسط أثارها بعض قساوسة النصارى ورهبانهم، وسرعان

ومقدمته وصفة الأندلس (من: نزعة المشتاق) للإدرسي نشر دوزي ودي جويه (طبع ليدن) ونفع الطيب وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ١٨٥/٢ حيث ينقل التيفاشي عن ابن سعيد نصاً مهماً عن الموسيقى الأندلسية، وراجع تراث الإسلام: الجزء الأول طبعة القاهرة وانظر طبعته المتجددة في الكويت وبحثاً قيماً عن المجتمع القرطبي للدكتور الطاهر مكى في كتابه: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» ص ١٥ وما بعدها وص ٢٤٧ وما بعدها.

(١) انظر في المجتمع الأندلسي مواضع مختلفة من المقتبس لابن حيان بأجزائه المنشورة والصلة لابن بشكوال والحلة السراء والتكملة لابن الأبار والذخيرة لابن بسام وكتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر (طبع تونس) وكذلك نشرة صحيفة المعهد المصري بمريد: المجلد الرابع، والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (طبع دار المعارف) ورسالة الحسبة لابن عبدون وصورة الأرض لابن حوقل ونقط العروس في نوادر الأخبار لابن حزم نشر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة العدد الثاني من المجلد الثالث عشر وتاريخ ابن خلدون

ما انتهت وحل محلها تعصب وطني استشره المسألة والمولدون والمسيحيون إذ داخلهم عصبية التعصب لوطنهم والشعور بأن العرب والبربر الأندلسيين غرباء أجنب، مما هيا لثورات عبد الرحمن بن الجليقي في بطليوس وعمر بن حفصون في بيشتر وكثيرين غيرهما، واستطاع عبد الرحمن الناصر القضاء على هذه الثورات واستعادة وحدة الأندلس. ونتوقف قليلا بإزاء الحضارة والغناء والمرأة في الأندلس.

الحضارة

كانت حياة أهل إيبيريا قبل الفتح العربي أقرب إلى حياة البداوة، وظل المسيحيون في القسم الجبلى بالشمال يعيشون هذه الحياة لوعورة موطنهم، ولما تقوم عليه حياتهم من شظف وخشونة، وظل العرب والبربر وأهل الأندلس جميعاً يعيشون نفس هذه المعيشة المتبدية زمن الولاة، غير أنهم أخذوا في التحضر زمن الدولة الأموية لما ساد حياتهم من أمن واستقرار، وأخذوا يخطون في ذلك خطوات قوية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ). بسبب شغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما دفع تجار قرطبة إلى استيراد أدواتها ونفائسها، وفي ذلك يقول ابن سعيد في ترجمته بكتاب المغرب: «في أيامه دخل الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب لكون ذلك نفق عليه وأحسن لجاليه، ووافق زمنه انتهاب الذخائر التي كانت في قصور بغداد عند خلع الأمين فجلبت إليه». وحاكاه أهل قرطبة والأندلس في العناية بالفرش والرياش وأدوات الزينة، ولم يلبث أن أنشأ بقرطبة دار طراز لصنع المنسوجات والملابس الأنيقة، وأخذت تنشأ هناك صناعة الحلى والحقاق والتحف والأواني والأثاث. وسرعان ما أخذ المجتمع القرطبي يتحضر في المعاش والحياة الاجتماعية وآدابها في المأكول والملبس والتزين وكان من أهم العوامل في ذلك وفود زرياب غلام إسحق الموصلى في أول عهد عبد الرحمن الأوسط الذى احتفل به احتفالاً عظيماً وقد علم الأندلسيين الأكل على الموائد بالملاعق والسكاكين بدلاً من الأصابع مع تفضيل آنية الزجاج، وأضاف إلى أطعمتهم ألواناً جديدة من أطعمة بغداد، وعلم المرأة الأندلسية كيف تزين وما تتخذ من عطور ومن ضروب الثياب وكيف تتفنن في تصفيفات شعرها وكيف تسدله على جبهتها وجوانب وجهها، وعلم الرجال آداباً مختلفة في اتخاذ الثياب وتقصيرها وتضييق الأكمام وإرسال شعرهم وراء آذانهم، وأيضاً كيف يتأنقون في فرشهم وتأثيث بيوتهم.^(١)

(١) انظر في هذا الدور الحضارى لزرياب النفح وما بعدها.

للمقرى (تحقيق د. إحسان عباس) ١٢٧/٣

وأخذت الأندلس تخطو خطوات واسعة في الحضارة المادية، وساعدها على ذلك ثراؤها لوفرة الأنهار فيها والثمار والضرع والزرع والبساتين وكثرة المعادن، ولاحظ ذلك كل من زاروها من رحالة المشرق فقالوا إن خيراتها كثيرة وليس بها شحاذ ولا متسول، وهياً هذا الثراء فيها وما كان يجنيه حكامها من الضرائب للتفنن في بناء القصور منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد حتى إذا كنا في عهد عبد الرحمن الناصر وجدناه لا يبنى قصرًا أو قصورًا متعددة فحسب، بل يبنى مدينة الزهراء بجوار قرطبة على سفح جبل العروس وقد ظل عشرة آلاف عامل ينهضون بينائها لمدة خمسة وعشرين عامًا، وكانت الطبقة الدنيا فيها بساتين وحدائق، وفي الطبقة الوسطى دور الموظفين، وفي الطبقة العليا قصره وقاعته الكبيرة المزدانة بأعمدة الرخام وحليها الذهبية وجوهرة كبيرة تتلألأ في وسطها سوى ما كان بالمجلس المعروف بمجلس المؤنس من تماثيل لحيوانات من الذهب الخالص. وكان القصر يمتد طولاً في نحو ثلاثة آلاف ذراع وعرضاً في نحو ألف وخمسمائة، وكان به نحو أربعة آلاف عمود من الرخام. ويتضح ثراء الحكم الأموي وأهله في بناء المسجد الجامع بقرطبة. ولا تزال روعته ماثلة إلى اليوم على الرغم مما اقتطع منه لكاتدرائية وكنيسة، وقد استغرق وصف روعة المعمار فيه نحو عشرين صحيفة في كتاب الفن العربي في إسبانيا وصقلية لفون^(١) شك. وبنى المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد بدوره مدينة الزاهرة. ولا يتضح ثراء الحكم الأموي في بناء الجامع الكبير الذي ظل يعنى الحكام الأمويون حتى عهد المنصور بزخرفته والاتساع به ولا في بناء القصور وبناء المدن فحسب، فمن أهم صوره الهدايا الفاخرة التي ذكر ابن حيان أن عبد الرحمن الناصر^(٢) كان يرسل بها إلى أمراء المغرب مثل هديته إلى موسى بن أبي العافية سنة ٣٢٢ وما كان بها من قطع البزّ العجيب الصنعة والطرف الأنيقة من ثياب وغير ثياب وطيب وغير طيب. وذكر ابن خلدون في ترجمته للناصر هدية^(٣) وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد وما حمل إليه فيها من الذهب، وقد بلغ خمسمائة ألف مثقال وحمل من التبر مثله، سوى كميات كبيرة من سبائك الفضة والعود الهندي والمسك الذكي والعنبر والكافور والثياب الحريرية المرقومة بالذهب والفراء الثمين والملاحف المذهبة للخيول والأبسطة، وأيضاً سوى عشرين جارية بكسوتهن وزينتهن وأربعين وصيفاً، وسوى ما لا يكاد يحصى من السلاح وعتاق الخيل الكريمة.

(١) انظر الكتاب بترجمة الدكتور الطاهر مكى (طبع دار المعارف) ص ٢٢.
(٢) المقتبس ٢٣٨/٥.
(٣) تاريخ ابن خلدون ١٣٨/٤. وانظر أزهار الرياض ٢٦١/٢.

وظل كثير من صور هذا الثراء الواسع ماثلاً في عهد أمراء الطوائف، وهو يتضح في تنافسهم في بناء القصور والتفنن في كل ما يتصل بها من أناقة وتنميق على نحو ما يصور ابن بسام ذلك في وصفه لقصر المكرم للمأمون بن إسماعيل بن ذى النون حين احتفل فيه بإعذار لحفيده يحيى، ونشعر كأننا انتقلنا إلى قصر مسحور من قصور ألف ليلة وليلة لكثرة ما فيه من ضروب الديباج والطنافس والستائر المزركشة وأزر الحيطان المرمرية وما عليها من تماثيل وصور لحيوانات وأطياف وأشجار وثمار، سوى بحيرتين في القصر صفت عليهما تماثيل أسود من الذهب والمياه تنساب من أفواهها. ونعجب أن ينفق أمير طليطلة - وهو أقرب أمراء الأندلس إلى ملوك قشتالة والنصارى عامة - هذه القناطير المقنطرة من الذهب على قصره المكرم، ولا يكاد يبقى في خزائنه ما لا يشتري به سلاحاً للقاء أعدائه، وما هي إلا سنوات حتى سقطت طليطلة من يد حفيده يحيى في حجر ألفونس السادس ملك قشتالة. ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يقل عن المأمون في طليطلة إسرافاً في بناء قصوره والإنفاق على حظاياه ومجالس أنسه الكبيرة وكان مشغولاً بزوجه اعتياد الرميكية وفي نفح الطيب أنها رأت يوماً بإشبيلية نساء البادية حولها يبعن اللبن في القرب، وهن رافعات - في الطين - ثيابهن عن سوقهن، فقالت له: أشتى أن أفعل مثلهن أنا وجوارى فأمر بعنبر ومسك وكافور وماء ورد، وصير كل ذلك طيناً في القصر ومعه قربٌ وحبال من حرير، وخرجت - هي وجوارها - يخضن في ذلك الطين. ويحكى عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة أنه حين تنازل عن أمواله ليوسف بن تاشفين كان بينها سَفَط ذهب فيه عشرة عقود من أنفس الجواهر، وتنازلت أمه عن خمسة عشر عقدًا نفيساً. وعلى هذا النحو ظل أمراء الطوائف ينعمون بهذا الترف على حساب الشعب، وحقاً كانت هناك طبقة وسطى من التجار والصناع ممن كانوا يقدمون أدوات الترف والتنعيم للطبقة الحاكمة وحواشيها من الوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة، غير أنه كان وراءها طبقة من العامة تكدح وتنصب لطائفة استأثرت لنفسها بزيينة الحياة.

على أنه ينبغي أن لا نبالغ في صور ما كانت تعيش فيه الطبقة العامة من شظف في الحياة أو بؤس لكثرة ما كان في الأندلس من طبيبات الرزق، وقد ظلت تنعم بما فيها من ثراء لعهدى المرابطين الموحيدين ونرى آثاره في بناء السلطان يعقوب الموحدى للجامع إشبيلية ومثذنته «الخير الداء» التي لا تزال قائمة إلى اليوم، أما الجامع فأحاله المسيحيون إلى كنيسة، وما كان أحراهم أن يبقوه متحفاً - على مر الزمن - يعرض مهارة الفنان الأندلسي في المعمار والزخرفة. وحرى بنا أن نذكر أنه كان بالأندلس غابات كثيرة هيأت

لصناعة الأساطيل وازدهار صناعة الأثاث، واشتهرت طرطوشة بصنوبر أحمر صافي البشرة، ومن عيدانه اتخذ خشب المسجد الجامع بقرطبة. وكانت المعادن كثيرة، ومن أهمها معدن الزئبق في شمالي قرطبة، ويقول الإدريسي في القرن السادس الهجري إنه كان يعمل فيه ما يزيد على ألف عامل، وازدهرت صناعات الحلى والأواني والحِقاق والطرف المعدنية والبرونزية والفضية والملابس والثياب الحريرية، ويقول الإدريسي إنه رأى في المربة ثمانمائة دار طراز للحريز تصنع فيها الحلل والثياب والستائر والبسط. ويقول ابن خلدون في مقدمته عن الأندلس وصناعاتها وقد نزلها في أواخر القرن الثامن الهجري: «إنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش والرياش وحسن الترتيب والأوضاع في بناء القصور وصوغ الآنية من المعادن والحزف وجميع المواعين وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم، وهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار لما قدمناه من رسوخ الحضارة أيام الدولة الأموية ودول الطوائف»^(١). ومن أكبر الأدلة على استمرار ازدهار الصناعات ومظاهر الحضارة المادية في الأندلس قصر الحمراء الذي شاده بغرناطة أمراؤها في الحقب العربية الأخيرة بها، وليس قصرًا فحسب بل معرضًا خلابًا لما وصلت إليه الحضارة الأندلسية من ازدهار، وبه يحيط سور يعلوه شرف للحراسة، وتلقاك بداخله جنة العريف، وهي حديقة كأنها اقتطعت من الفردوس بنافوراتها ومياهاها المتدفقة وأشجار البرتقال والريحان بها والأزهار الأرجة، ومن ورائها القصر الفخم وقد فُرشت أرضه بالرخام وازدانت حيطان قاعاته وردهاته وغرفته بالآيات القرآنية والأشعار وآلاف الزخارف، وتلقاك أسود في قاعة حاملة حوضًا من الماء ينسكب من أفواهها، وقد استغرق وصف هذا القصر وجنته في كتاب «الفن العربي في إسبانيا وصقلية» لفون شاك أكثر من خمسين صفحة، وإنه ليقول وقد أخذت روعته بلبه: «سعيد من يستطيع زيارة الحمراء إذ سوف تستيقظ في روحه الأحلام المكبوتة وتحيا الآمال الضائعة»^(٢).

(٢) انظر الفن العربي في إسبانيا وصقلية لفون شاك ص ١٨٢.

(١) المقدمة (تحقيق د. علي عبد الواحد وافي) ص ٩٣٨ وما بعدها.

الغناء

وكان الغناء يشيع في الأندلس منذ وفود زرياب غلام إسحق الموصلي على الأمير عبد الرحمن الأوسط واحتفاله به احتفالاً عظيماً، إذ جعل له راتباً مائتي دينار في الشهر وأقطعه من الدور والضيايح ما يقدر بأربعين ألف دينار غير صلات سنية. وأقام زرياب في قرطبة معهداً يتدرب فيه الفتيان والفتيات على الغناء، واشتهر بأنه أضاف إلى أوتار العود وترّاً خامساً اخترع له مضرباً من قوادم النسر^(١)، وجعل للغناء تقاليد انفردت بها الأندلس فكان يبدأ بالنشيد ويخرج منه إلى البسيط ويختتم بالمحركات والأهازيج^(٢)، وينقل التيفاشي عن ابن سعيد أنه لم يكن بالأندلس قبله سوى طريقة حُدادة العرب وترانيم الكنائس دون قانون^(٣) فيها أى دون رُقْمٍ (نُوت) موسيقية. وزرياب بذلك يفتتح حركة الغناء والموسيقى في الأندلس. وخرّج زرياب كثيرين من الشباب والمجواري منهم منفعة أهداها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ومنهن بنانة وقلم وعلم وشفاء. وأخذ الغناء في الأندلس يزدهر بعده ومن أتقنوه عباس بن فرّناس المتوفى سنة ٢٧٤ واتسع التعلق به، حتى أصبح الشغل الشاغل لكثير من المدن، ويحكى التجيبى شارح أشعار كتاب المختار من شعر بشار للخالدين في مقدمة شرحه أنه بات ليلة في سنة ٤٠٦ بمالقة ساهراً لما كان يخفق حوله من أوتار العيدان والطناير والمعازف من كل ناحية. وكل بلاد الأندلس كانت مثل مالقة عزفاً وغناء، واتسعت الموجة زمن أمراء الطوائف وخاصة في إشبيلية وطُليطلة. ومن اشتهر بعد زمنهم بجودة التلحين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وهو الذى أخذ أهل إفريقية الألحان الأندلسية عنه، وكان يعاصره الفيلسوف ابن باجة وكان إمام الأندلس الأعظم في الموسيقى والألحان، وخلفه عليها تلميذه أبو عامر بن الحمارة وكان يصنع عود الغناء بيده وينظم الشعر ويلحنه عليه ويغنى^(٤) به، شأن المغنين الأوربيين المعاصرين الذين ينظمون الشعر ويلحنونه ويغنونه. ويبدو أنه كان يقترن الرقص بالغناء منذ زرياب، وقد رقى بدوره فنوناً من الرقى حتى لتجد ابن كسرى المالمقى المتوفى سنة ٦٠٣ للهجرة يصف حركات راقصة تسمى نزهة على هذا النمط^(٥):

(٤) المغرب ١٢٠/٢.

(١) النفح ١٢٦/٣.

(٥) تحفة القادم نشر الفريد البستاني بمجلة

(٢) النفح ١٢٨/٣.

المشرق ببيروت العدد ٤٠، ٤١ سنة ١٩٤٧ م رقم

(٣) انظر كتاب ورقات عن الحضارة العربية

٥٧.

بإفريقية التونسية (طبع تونس) ١٧٩/٢.

إذا رقصت أبصرت كلٌ بديعةً تُرى ألفا حيناً، وحيناً هي النونُ

فهى تتحرك في رقصها حركات شتى، تارة تُرى معتدلة، وتارة تتثنى وتبالغ في التثني حتى لتصبح مثل القوس أو مثل النون. ويرسم لنا على بن يوسف بن خروف القرطبي نفس الصورة فيقول في راقص ولعلها راقصة^(١):

ومنوع الحركات يلعب بالنهى لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأوداً كالغصن وسط رياضه متلاعباً كالظبي عند كِناسه^(٢)
بالعقل يلعب مُقبلاً أو مُدبراً كالذَّهر يلعبُ كيف شاء بناسه
ويضمُّ للقدمين منه رأسه كالسيف ضمَّ ذُبابه لرأسه^(٣)

واشتهر في القرن السابع أبو الحسن المرسى وكل تلحين بالأندلس والمغرب في شعر متأخر فهو من صناعته. وقد أخذ ملوك قشتالة منذ القرن الخامس الهجرى يجذبون إليهم بعض المغنين والمغنيات الأندلسيات ويقيمون لهم الحفلات وكان لذلك أثره البعيد في نشأة الموسيقى عند الاسبان، إذ لم يكن يعرفون قبل الغناء العربى وما صحبه من موسيقى سوى ترانيم الكنائس كما يقول ابن سعيد، فعرفوا آلات الموسيقى العربية الكثيرة ورقمها الموسيقية، تدل على ذلك أكبر الدلالة أسماء تلك الآلات في اللغة الإسبانية، فقد انتقلت إليها بأنغامها وألحانها العربية وهو دين كبير للموسيقى الأندلسية العربية على الموسيقى الأوربية فقد أخرجتها من عالم الترانيم الكنسية إلى عالم الموسيقى المؤلفة في رُقْمٍ (نوت) موسيقية بتقديرات لحنية زمنية دقيقة.

المرأة

ولم نتحدث حتى الآن عن المرأة في المجتمع الأندلسى، وكانت تحظى فيه بشيء من الحرية قلما كانت تحظى به أختها في المشرق، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجدها تركب مع الأمير في موكبه إذ نرى ابن حيان يروى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط قال لحاجبه عيسى بن شهيد يوماً وكان قد طال عليه المرض والمكث في قصره دون خروج:

(٣) ذباب السيف: طرفه القاطع - رأس السيف:

مقبضه.

(١) المغرب ١٣٧/١.

(٢) متأوداً: مثنيا - كناس الظبي: مأواه في

الشجر.

«إن بعض كرائمتنا سألننا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للنزهة على مقتضى العادة، فاخرج من فورك فانظر في إقامة ما يحتاج إليه للنزهة على مقتضى العادة واعجل بذلك فإننا متحركون صبيحة^(١) غد» ويبدو أن الأميرات كن يبرزن للشعب سافرات يدل على ذلك ما ذكره ابن حزم في رسالته: «نقط العروس» من أن رسيس كانت سيدة مهيبة اتصلت بعبد الرحمن الناصر ونالت عنده مكانة رفيعة مما جعله يُركبها في موكب له ذات يوم على بغل خلفه سافرة بقلنسوة وشقّ بها الربض الغربي كله بقرطبة إلى مدينته: الزهراء^(٢). ومما يدل على ما كان للمرأة الأندلسية من منزلة أن نجد بينهن كاتبات أو كما نقول الآن سكرتيرات للأمراء والخلفاء مثل مُرّنة كاتبة عبد الرحمن الناصر كما يقول صاحب^(٣) الصلة، وأيضاً كاتبة كتان^(٤) كما يقول صاحب الذيل والتكملة، ومثل لبنى^(٥) كاتبة ابنه الحكم المستنصر كما في الصلة. واشتهرت في الأندلس غير شاعرة حتى ليترجم المقرئ لعشرين منهن، وسنلم بذلك في الفصل التالي. ويبدو أن كثيرات من النساء وخاصة في البيت الأموي كن يتقن أرقى الآداب الاجتماعية مع حيازتهن للثقافة ونظمهن للشعر مما أعدّ لظهور ولادة بنت الخليفة المستكفي واتخاذها في قصرها ندوة أدبية كان يحضرها ابن زيدون وغيره من الشعراء والأدباء. وظل ذلك في الأندلس، فكانت هناك سيدات من البيوت الرفيعة تحذو حذو ولادة في اتخاذ ندوة أدبية لها، حتى في عهد المرابطين الذين يقال عنهم إنهم كانوا محافظين، إذ نجد سيدة شريفة من بيتهم هي السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر - الذي مهّد بحسن قيادته ليوسف بن تاشفين حكم الأندلس وظل حاكماً على إشبيلية اثنين وعشرين عاماً - تتخذ لنفسها ندوة مماثلة لندوة ولادة، وسنعرض لها في ترجمتنا للأعمى التطيلي ومدحه لها بقصيدة بديعة. وعلى شاكلتها وشاكلة ولادة تلقانا حفصة الركونية وندوتها الأدبية في عصر الموحدين وسنترجم لها مع أبي جعفر بن سعيد في حديثنا عن الغزل.

(٣) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٥٤.
 (٤) الذيل والتكملة للمراكشي (طبع المغرب) ٤٩١/٢/٨.
 (٥) الصلة رقم ٦٥٣ وبغية الملتبس رقم ١٥٨٩
 وكانت بارعة الخط نحوية عروضية شاعرة.

(١) انظر المقتبس (بتحقيق د. مكي - طبع بيروت) ص ٢١.
 (٢) راجع نشرتنا لتلك الرسالة في الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٧٣ - ٧٤.

التشيع - الزهد والتصوف

(أ) التشيع^(١)

من الخطأ أن نظن أن ثورة أحد أحفاد من ناصروا عليا في صفين كانت ثورة شيعة كما حدث في عهد عبد الرحمن الداخل وبالمثل ثورة حفيد لعمار بن ياسر عليه، ويقال إن عمر بن حفصون اتصل - في أثناء ثورته بالفاطميين - وكانوا لا يزالون في القيروان ولم يكن اتصال ولاء إنما كان اتصالا سياسياً كيدياً للأمير عبد الله بن محمد. ودعا ثائر أموى لنفسه سنة ٢٨٨ للهجرة هو أحمد بن معاوية وتلقب بالمهدى، فظن خطأ - لهذا اللقب - أن لثورته علاقة بالتشيع وكل ما هناك أنه استعار هذا اللقب من دعاة الشيعة. ونجد ابن عبدربه المتوفى سنة ٣٢٨ يتحدث في كتابه «العقد الفريد» عن الشيعة وفرقهم وليس معنى ذلك أنه كان شيعياً، فقد كان متشيعاً للأمويين متعصباً لهم.

وحاول آسين بلاسيوس أن يرد بعض آراء ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ إلى آراء الإسماعيلية من الشيعة لمقامه فترة في القيروان عاصمة الفاطميين قبل انتقالهم إلى مصر. غير أنها ترد - كما سنرى في غير هذا الموضع - إلى الاعتزال والتصوف والفلسفة، فلا علاقة بينه وبين التشيع، وبالمثل لا علاقة بين منذر بن سعيد خطيب عبد الرحمن الناصر وبينه. وحقا أرسل الفاطميون بعض جواسيسهم للتعرف على الأندلس والدعوة لهم مثل ابن حوقل، غير أن ذلك لم يأت بطائل، إذا استثنينا تشيع ابن هاني الشاعر الأندلسي وإيمانه بالعقيدة الإسماعيلية، وربما كان أبوه من دعاة السريين في الأندلس.

ووجدت في الأندلس زمن الفتنة الأموية فرصة للشيعة كي ينشطوا للدعوة إلى أنفسهم هناك حين استولى على بن حمود - من أسرة الأدارسة في المغرب - على مقاليد الخلافة الأموية سنة ٤٠٧ غير أن غلبانه قتلوه - كما أسلفنا - في السنة التالية، وولى

الفريد لابن عبدربه والمغرب في مواضع مختلفة والتشيع في الأندلس للدكتور محمود مكى ومصادره.

(١) انظر في التشيع بالأندلس صورة الأرض لابن حوقل وأحسن التقاسيم للمقدسى والعقد

بعده أخوه القاسم، ونازعه ابن أخيه المعتلى - كما مر بنا - ولم يلبث أن لحق بمالقة، وبها قتل سنة ٤٢٧. ولم يأخذ هؤلاء الحموديون الفرصة كي ينشروا في الأندلس دعوة شيعية، وهم أنفسهم لم ينظموا هذه الدعوة هناك. وتنشأ صلة في عهد أمراء الطوائف بين أمير دانية على بن مجاهد والفاطميين غير أنها لا تتعدى تبادل بعض الرسائل. ويربط بعض الباحثين بين ما حظى به اليهود - لعهد الطوائف - من مكانة في غرناطة وبين ما كان في أمرائها بنى زيرى من نزعة شيعية، وكأنما للتشيع صلة باليهودية، وهو ربط بعيد، والصحيح أن اليهود حظوا بهذه المكانة عند بنى زيرى لقدرتهم الاقتصادية مما جعل بنى زيرى يولون أحدهم - وهو ابن النغيلة - الوزارة

ونستطيع أن نزعّم أن الأندلس كانت محصنة ضد التشيع ودعائه، حتى ليقول المقدسى في أواخر القرن الرابع الهجرى إن الأندلسيين إذا عثروا على متشيع ربما قتلوه. وحتى بعد انتهاء الدولة الأموية نجد كبار المؤرخين في الأندلس مثل ابن حيان وكبار المفكرين هناك مثل ابن حزم يتعصبون للأمويين ضد الشيعة تعصبا شديدا. وكل ما يمكن أن يكون للتشيع في الأندلس إنما هو بعض الأصداء في مدائح الشعراء للحموديين في قرطبة ومالقة لمدة ربع قرن، وهى أصداء ضعيفة جدا إذ قلما صدر الشعراء في شعرهم عن تشيع حقيقى لآل البيت. وسنرى في حديثنا عن الرثاء أن الأندلسيين أخذوا منذ عصر المرابطين يستوحون مأساة الحسين في نظم بعض مراث له، بل لقد أقاموا له أحيانا مآتم يندبونه فيها، وكأنما كانوا يندبون مأساتهم ومأساة رجالهم في الأندلس. ونخلص من كل ما قدمنا إلى أنه لم تظهر في الأندلس موجة حادة للتشيع، وكل ما حدث أن أفرادا قد يتشيعون، وهو تشيع لا يعدو - غالبا - حب آل البيت.

(ب) الزهد^(١) والتصوف

أخذت تنمو في الأندلس نزعة مبكرة إلى الزهد في متاع الحياة الدنيا والإقبال على العبادة، وكان مما يزيكها في نفوس الأندلسيين الوعاظ في المساجد الذين كانوا يعظونهم

لا بن حيان والإحاطة في أخبار غرناطة والنفع وأزهار الرياض (انظر الفهارس) والمرقبة العليا للنباهي والطبقات الكبرى للشعراني وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا

(١) انظر في الزهد والتصوف بالأندلس وأعلامها المذكورين هنا الصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار والمغرب لابن سعيد والفصل في الملل والنحل لابن حزم والذيل والتكملة للمراكشى والمقتبس

دائما ويذكرونهم بالله واليوم والآخر وأنهم معروضون على ربهم يوم القيامة فإما إلى الجنة والنعيم، وإما إلى النار والجحيم. وزكاها أيضا أن الحكام الأمويين كانوا يلتزمون الصلاة في المسجد الجامع وكانوا يأخذون أبناءهم ونساءهم بآداب الإسلام والقيام بفرائضه وواجباته، ومنذ عبد الرحمن الأوسط كانت تعنى زوجاتهم ببناء المساجد على نحو ما كانوا يعنون هم أنفسهم وكنَّ يقفن بعض أموالهن للجهاد في سبيل الله، واشتهرت طروب زوجة عبد الرحمن الأوسط ببنائها مسجدا في الرض الغربي من قرطبة، واشتهرت ابنته البهاء بزهدا ونسكها وكتابتها لمصاحف وقفتها في مسجد لها بين مساجد الرض الغربي.

ومن أوائل من يلقانا من زهاد الأندلس وعُباها أيوب البلوخي. ويروى أن السماء شحَّت بمطرها لأول عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وفزع الناس إلى قاضيه مسرور بن محمد كي يصلى بهم صلاة الاستسقاء لما يعرفون من صلاحه، فلباهم حتى إذا وقف ليخطب خطبة الاستسقاء نادى: يا أيوب البلوطي! عزمت عليك حيث كنت لتقومن، فلم يقم إلا بعد أن أقسم عليه في الثالثة، وقال حين قام: يا هذا أشهرتني أما كنت أدعو حيث أنا؟ ثم رفع القاضى رأسه فقال: اللهم إنا نستشفع إليك بوليِّك هذا، وألحَّ بالدعاء، وكثر الضجيج والبكاء، فلم ينصرفوا إلا وأخذتهم في أيديهم من كثرة المطر. وطُلب أيوب بعد ذلك فلم يوقَفْ له على أثر. ويدل هذا الخبر على أنه كان لأهل الأندلس اعتقاد حسن في التَّسَاكُ الزَّهَاد. ومَن كان يفرط في زهده ونسكه كانوا يظنون أنه من أولياء الله وأنه مجاب الدعوة. وكان يعاصر أيوب إمام في المذهب المالكي هو عيسى بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ وكان في الذروة من العبادة والزهد، ويقال إنه صلَّى أربعين سنة الصبح بصلاة العتمة أو العشاء. واشتهر بالزهد من قضاة عبد الرحمن الأوسط معاذ بن عثمان المتوفى سنة ٢٣٤ وقيل إنه كان مجاب الدعوة. ومن الزهاد أيام عبد الرحمن الناصر أبو وهب عبد الرحمن العباسي المتوفى سنة ٣٤٤ وسنعرض له بين شعراء الزهد. ويلقانا في زمن الفتنة الزاهد عبد الرحمن بن مروان القنازعي المتوفى سنة ٤١٣ نسب إلى ما كان يكتفى به لسد رمقه من صنع القنازع التي كان يتخذها الأندلسيون لغطاء رءوسهم مما يشبه القلنسوة، وكان صَوَّامَ النهار قَوَّامَ الليل راضيا بالقليل من كسبه، ولم ينحط يوما إلى مسألة أحد. ومن الزهاد في عصر أمراء الطوائف الفقيه المحدث ابن الطلاع، واشتهر بأنه لقي المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، فوعظه ووبَّخه على حياته الماجنة اللاهية. ويؤلف ابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ كتابا في زهاد الأندلس وأئمتها، وتظل نزعة الزهد حية مطردة فيها حتى خروج الإسلام والمسلمين

منها في نهاية القرن التاسع الهجري

وأخذت موجة من التصوف ترافق هذا الزهد منذ أيام عبد الرحمن الناصر، وكان أول من بعثها ودفعها دفعا قويا في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ للهجرة، وكان قد حج وطُوف ببلدان المغرب ومصر والشام والحجاز ولا بد أن سمع بمحنة الحلاج وصَلَّيه سنة ٣٠٩ ببغداد وعاد إلى موطنه، واعتزل مع تلاميذه في منزله بجبل قرطبة، وأخذ يلقنهم تعاليمه، وكانت مزيجا من آراء الصوفية والمعتزلة ومر بنا استنكار عبد الرحمن الناصر لعقيدته، وذكر ابن حيان في الجزء الخاص بالناصر إرساله سنة ٣٤٠ إلى البلدان المختلفة في الأندلس منشورا يندد فيه بعقيدة ابن مسرة ويتوعد أتباعه، مما يدل على أنها كانت قد أخذت تشيع وتتألف حولها فرقة. وتماذى الطلب لأفرادها بقيَّة عهد الناصر وفي عهد ابنه الحكم المستنصر، مما جعلهم يضطرون للاختفاء حتى إذا أظلم عهد هشام المؤيد عادوا إلى الظهور والنشاط في الدعوة لعقيدتهم مما اضطر القاضي محمد ابن يبقى بن زُرْب المتوفى سنة ٣٨١ للهجرة إلى الكشف عنهم واستتابتهم، وتابت على يديه منهم جماعة. غير أن هذه العقيدة الصوفية استمرت، ويذكر ابن حزم في كتابه «الفصل» من معتنقيها في النصف الأول من القرن الخامس الهجري إسماعيل بن عبد الله الرُّعَيْنِي، ويقول إنه أدخل على عقيدة ابن مسرة بعض التعديل، من ذلك أنه ذهب إلى أن العالم لا يفنى وأنه مستمر إلى ما لا نهاية. ولم تضمحل هذه العقيدة الصوفية في الأندلس لعهد أمراء الطوائف بل ظل لها أتباع في قرطبة وإشبيلية والمرية وغيرها من المدن الأندلسية،

وأخذ التصوف ينشط في عهد دولة المرابطين، ومن أهم المتصوفة لعهدا أبو العباس ابن العريف المتوفى بمراكش سنة ٥٣٦ وهو من أهل المرية وله في التصوف كتاب محاسن المجالس نشره آسین بلاسيوس مع ترجمة فرنسية، وكانت تقوم طريقتة على الزهد في منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية والكرامات وما يتصل بها من المنن التي يَنُّ الله بها على النفس الإنسانية. ويقول إن طريقتة هي طريقة الخواص التي تقف عند الفناء في محبة الذات الإلهية، وكأنه لا يقول بوحدة الوجود إنما يقول بالفناء في المحبة الإلهية، وهو بذلك يعد من أصحاب التصوف السني، وكأنه يبتعد عن مراتب التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود خطوة أو خطوات. ومن معاصريه في الأندلس ابن برَّجان الإشبيلي عبد السلام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٣٦، وأيضا ابن قَسَى أبو القاسم أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٥٤٦ والذي قاد ثورة بغرب الأندلس ضد المرابطين حين ساءت

أحوالهم وأوشكت على نهايتها، وكان يتزعم في ثورته طائفة كبيرة من المريدين أى المتصوفة. ويلقانا في عصر الموحدين غير متصوف أندلسى ينزع بقوة نحو التصوف الفلسفى مثل أبى عبدالله الشوذى وتلميذه ابن دهاق المالقى المتوفى سنة ٦١١ للهجرة وينشأ فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى محبى الدين بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) بإشبيلية، ويأخذ فيها تصوفه الفلسفى المعروف عن شيوخ متعددين يذكرهم من ترجوا له كما يأخذه عن عجوز تسمى نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية لزمها سنتين خادما ومريدا. وأشهر من جاءوا بعده فى التصوف الفلسفى أبو الحسن الششتري المتوفى سنة ٦٦٨ وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩. ويلقانا فى القرن الثامن ابن عباد الرندى المتوفى سنة ٧٣٣ وقد طاف ببلدان المغرب، وكأنما وجد فى العقيدة الشاذلية السنية مأربه فانضم إلى أتباعها، وعُنى بشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى ووصف فى شرحه رياضاته ومجاهداته النفسية.

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

لم يكن لإيبيريا دور حضارى فى العالم القديم، إذ ظل سكانها قرونا متطاولة يستقبلون الحضارات ولا ينفذون من خلالها إلى حضارة لهم متميزة، وكان أول ما استقبلوا من الحضارات الحضارة الفينيقية إذ غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا بها مملكة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسى، وبعد نحو خمسة قرون استقبلوا الحضارة اليونانية إذ غزاها اليونانيون وأسسوا فيها مدينة برشلونة على البحر المتوسط وسموها إيبيريا، وحدثت حروب بينهم وبين الفينيقيين واستعان الفينيقيون ضدهم بأبناء عموماتهم من القرطاجنيين، فأعانوهم. واستقبلت إيبيريا حضارتهم وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط نفس اسم مدينتهم فى إفريقيا، ونشبت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد وانتصر الرومان واستولوا سريعا على إيبيريا، ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ومن سمع بخيراتها فى إيطاليا ورحل إليها - لغتهم اللاتينية، وحين اعتنقت روما المسيحية نشرتها فيها، وهى التى سمتها بإسم إسبانيا.

وأخذت إسبانيا تشارك روما بعض المشاركة فى حياتها السياسية بفضل من نشأوا فيها أو ولدوا بها لأسر إيطالية وخاصة من القياصرة مثل تراجان وابن أخيه هديران. وكانت الخطابة مزدهرة فى روما بسبب ما كان لديها من مجلس شيوخ أعد بقوة لهذا الازدهار، كما أعد لكثرة الأساتذة الذين كانوا يعلمون الشباب فنون البلاغة الخطابية، وشاركت إسبانيا فى هذا النشاط الخطابى باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذى نشأ فى قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها فن الخطابة، وسنيكا الابن الذى ولد بقرطبة فى العام الرابع قبل الميلاد، وجيء به إلى روما وتلقى تعليمه على أبيه ومن بها من الفلاسفة

الرواقين، وأصبح فيلسوفا رواقيا ومعلما كبيرا للخطابة، وعلمها نيرون، وله مسرحيات اتخذها كورنيّ وراسين مثلها المسرحى الأعلى، وحكم عليه نيرون بالموت لاثامه باشتراكه في مؤامرة ضده. ورحل إلى روما شاب إسباني هو كونتليان ليتعلم فن الخطابة، وبرع فيها هناك وأنشأ مدرسة لتعليمها، وألف فيها كتابا كان - ولا يزال - المرجع الأساسي للأوربيين في التعرف على الخطابة الرومانية. واشتهر بروما حفيد لسنیکا، هو «لوكان» الشاعر، وكان قد وُلد بقرطبة سنة ٣٩ للميلاد ونشأ بروما وأصبح شاعرا متألقا بما نظم من ملحمة قصصية من طراز ملحمة الإنيادة لفرجيل، وقد وصف فيها الحرب الأهلية بين قيصر وبومبي، واتهمه نيرون باشتراكه مع عمه في مؤامرة ضده وحكم عليه بالموت وعمره لا يتجاوز السادسة والعشرين^(١).

وواضح أن من شاركوا من إسبانيا قديما في الأدب اللاتيني أفنوا شخصياتهم فيه، وهم لم ينتجوه في إسبانيا، بل أنتجوه في روما، وهو لذلك أدب لاتيني روماني خالص. وإسبانيا - بذلك - لاتزال في العهد الروماني كما كانت في العهود الفينيقية واليونانية والقرطاجنية لا تستطيع أن تضيف إلى الحضارة الإنسانية أعمالا إسبانية متميزة القسما، بل ظلت روما ترعاها وتتعهدها في الحضارة كما تعدها ورعاها من قبل القرطاجنيون واليونان والفينيقيون، حتى إذا دخلت في القرن الخامس للميلاد أغارت عليها القبائل الجرمانية المتبربرة التي قضت على الدولة الرومانية الغربية ونزلها منهم الفندال ثم القوط الذين حكموها إلى أن تسلمها العرب منهم. ولم يكن للقوط حضارة، وقد قضوا على ما كان بإسبانيا من حضارة رومانية، ولا يحفظ التاريخ كتابا من أيامهم سوى مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٤٦ للميلاد، وهو يعرض فيها تصويره الساذج للتاريخ والعلوم الطبيعية مع تفسيرات مجازية للكتاب المقدس، ويقول ديورانت في قصة الحضارة إنها تكتظ بأخطاء في الحقائق، وتدل على ما كان فاشيا في عهد القوط بإسبانيا من الجهالة^(٢)، وليس لهذه المجموعة أى ذكر في كتابات الأندلسيين.

ومعنى ذلك أن العرب حين فتحوا إسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء، وبحق ما يقوله صاعد في كتابه طبقات الأمم من أن هذا القطر لم يُعرف في

وما بعدها و١٩٩ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة لول ديورانت ١٩٤/١٢ وما بعدها.

(١) انظر في سنیکا وأسرته وكونتليان ولوكان قصة الحضارة لول ديورانت: (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٦٣/١٠ وما بعدها وكذلك ١٧٤

العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم، وظل مغلقا في وجه الحكمة إلى أن فتحه العرب^(١). وكان فيه - كما مر في الفصل الماضي - يهود ولكن لم يكن لهم أى كتاب علمي، وأيضا لم يكن لهم دور في الحركة العلمية لأيام العرب، إنما دورهم يقوم فقط على تمثل العلم العربى ثم على المساهمة في ترجمته إلى اللاتينية فيما بعد حين جدَّ الغرب في طلب العلم الأندلسى والوقوف عليه. ومثل اليهود - في ذلك - الصقالبه الذين مرَّ ذكرهم في غير هذا الموضع والذين جلبهم الحكام الأمويون إلى الأندلس منذ عهد الحكم الرُبضى، وكانوا يتعلمون العربية ويتثقفون ثقافة عربية إسلامية، ولم يكن لهم أى دور في الحركة العلمية بالأندلس إلا أن يصبح أحدهم حاكما لإحدى المدن في عصر أمراء الطوائف، ويجزل العطاء للعلماء. أما أهل إسبانيا فإنهم - كما قلنا - لم يحملوا إلى الحركة العلمية في الأندلس تراثا لاتينيا، وكل ما لهم أن من أسلموا منهم وسلالاتهم من المولدين أسهموا في تلك الحركة العلمية العربية، وعروبتها لا ترجع إلى اللسان الذى استخدمته فحسب، بل ترجع - أيضا - إلى أنها أُسست - ونهضت كما سنرى - على أصول عربية مشرقية.

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل قطر وبلد إلى العلم والتعلم، ومرَّ بنا أن موسى ابن نصير فاتح الأندلس ومكمل فتح المغرب كان يرسل دائما مع الجيوش فقهاء يعلمون أهل الديار المفتوحة الإسلامَ ويحفظونهم بعض القرآن ويبصرونهم بالدين الحنيف وتعاليمه. ولما كان تعليم الناشئة المسلمة القرآن شعارا من شعائر الدين أخذ به المسلمون في جميع بلدانهم فإن الأندلس - بدورها - أخذت بهذا التعليم، وافتتحت له الكتاتيب منذ عصرها الأول عصر الولاة^(٢)، واطرد ذلك طوال الحقب التالية، ويؤثر عن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أنه أنشأ بقرطبة سبعة وعشرين كتابا في عهده، جعل ثلاثة منها بجوار المسجد الجامع والباقي في أماكن مختلفة من أحياء قرطبة.^(٣) وكانت قرطبة تكتظ بكتاتيب أخرى قبل كتاتيبه. وكان معلم الكتاتيب يسمى مؤدِّبا، وكان يأخذ أجرا على تعليمه الناشئة^(٤)، ولم يكن تعليمه لها يقتصر على تحفيظها القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوى بل كان يتسع ليشمل تعليمها النحو وإحسان الكتابة والخط مع

(٣) البيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت)

٢٤٠/٢.

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (طبع

القاهرة) ص ٢٧٨.

(١) طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة)

ص ٩٧.

(٢) افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد)

ص ٤٠.

تحفيظها بعض النصوص من الأشعار والرسائل البارعة، وينوّه ابن خلدون بتعليم الناشئة في الأندلس قائلا: «وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والرسائل ومدارسة العربية (النحو) من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي»^(١). وابن خلدون يثني - بذلك - على مؤدبي الأندلس وأنهم استطاعوا أن يغرسوا في الناشئة - فضلا عن حفظ القرآن الكريم - الملكة العربية بما مرنوهم عليه من قواعد النحو وما حفظوهم من منتخبات الشعر والنثر، مما أعدّهم ليصبحوا أهل أدب بارع. ومنهم من كان يؤدّب أبناء الخاصة من الحكام الأمويين والأشراف من الأسرة الأموية والوزراء وغيرهم، ومنهم من كان يؤدّب أبناء العامة في المساجد أو في دور ملحقة بها أو في دور مستقلة بهم أو في دورهم الخاصة.

وكان الناشئ حين يُنهي هذا التعليم الأول على أيدي المؤدبين يتحول إلى حلقات الشيوخ في المساجد ليتسع في دروس العربية إن شاء أو ليتزود من هذا العلم أو ذاك من العلوم الدينية إما الفقه وإما التفسير وإما الحديث النبوي، وقد يجمع بين هذا كله. ومنذ عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية يقود حكامها الحركة العلمية. واستقر منذ أول هذه الدولة أن العالم في أي علم من علوم العربية أو الدين لا يتم له علمه على الوجه الأكمل إلا إذا رحل إلى يناعيه الأساسية في المشرق، وحتى مؤدبو الكتائب تُذكر لهم رحلات إلى البصرة والكوفة وبغداد على نحو ما نقرأ عن جودي^(٢) النحوي المتوفى سنة ١٩٨ والغازي^(٣) بن قيس المتوفى سنة ١٩٩. وكانت الرحلة في طلب الفقه والعلوم الدينية أوسع، واشتهر الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) بتحببها إلى الشباب القرطبي وتشجيعهم عليها، ورحل في عهده كثيرون إلى المدينة لحمل فقه الإمام مالك وموطئه. وتصبح الرحلة في طلب العلم إلى المشرق تقليدا متبعا منذ هذا التاريخ، ويكثر الراحلون إليه من شباب العلماء الأندلسيين، ويفرد المقرئ لمشاهيرهم فصولا طويلة في نفحه، وهي تدل على أنها ظلت تقليدا متبعا قرونا متوالية. ونحن لا نصل إلى عصر الحكم الرضوي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) حتى يكثر الفقهاء لعهد كثرة مفرطة، كما تدل على ذلك ثورة أهل الرض القبلية عليه بقرطبة، فقد ألّبهم كثيرون من الفقهاء عليه، حتى إذا أخفقت الثورة أمر بأن يرحل الثائرون ومؤلّبوهم عن قرطبة،

فرحل فريق إلى دار الحرب وفريق إلى طليطلة ورحل إلى الاسكندرية ١٥ ألفا وأنزلهم أميرها عبدالله بن طاهر جزيرة كريت على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي.

وبلى الإمارة بعد الحكم ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ويقول عنه ابن سعيد في المغرب، كما مر بنا: «عنى أبوه بتعليمه وتخريجهم في العلوم الحديثية والقديمة، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، وكان يداخل كل ذى علم في فنه»^(١) ويقول ابن خلدون: «كان عالما متبحرا في علوم الدين والفلسفة»^(٢) ويقول ابن القوطية: «التزم إكرام أهل العلم وأهل الأدب والشعر في دولته وإسعافهم في مطالبهم كلها»^(٣) وسنرى في غير هذا الموضع أنه هو الذى دفع الأندلس إلى الاهتمام بعلوم الأوائيل. وأقبل الطلاب لعهده على حلقات العلماء - وكانوا يعدون بالآلآت - في المسجد الجامع بقرطبة، وكانت حلقة عبد الملك بن حبيب كبير الفقهاء لزمه بعد يحيى الليثى تضم ثلاثمائة طالب^(٤). وخلف عبد الرحمن الأوسط ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) ويقول ابن حيان نقلا عن الرازى: «كان مكرما لأعلام الناس مقدما على طبقاتهم ذوى الفقه والعلم منهم يرفع مجالسهم ويزلف وسائلهم ويسعف في رعايتهم ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم»^(٥) ويذكر ابن حيان موقفين عظيمين له^(٦)، هما موقفه من بقى بن مخلد وموقفه من محمد بن عبد السلام الخشنى فقد رحلا إلى المشرق وجلب أولهما كتاب مصنف ابن أبى شيبة في الحديث فأنكر جماعة من الفقهاء ذلك عليه وسلطوا عليه العامة ليمنعوه من قراءته، وعلم بذلك الأمير فحماء منهم ونهاهم أن يتعرضوا له. وجاء الثانى أيضا من المشرق حاملا كتاب التاسخ والمنسوخ لأبى عبيد، فأنكر الفقهاء عليه إملاءه الكتاب على الطلاب فى المسجد الجامع، فنهاهم الأمير محمد عن تعرضهم له. ويقول ابن حيان عن ابنه الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) إنه «كان كثير التلاوة للقرآن مثابرا على درسه متصرفا فى فنون العلم متحقيقا بلسان العرب بصيرا بلغاتهم وأيامهم حافظا للغريب والأخبار آخذا من الشعر بحظ وافر، وكان مجلسه أعمر مجالس الملوك بالفضائل وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم، وكان لا يقدم أمرا ولا يؤخره إلا بمشورة أهل

دار التراث بالقاهرة) ٨/٢.

(٥) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - طبع

بيروت) ص ٢٤٥.

(٦) المقتبس ص ٢٤٨ وما بعدها.

(١) المغرب (طبع دار المعارف) ٤٥/١.

(٢) تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٤.

(٣) افتتاح الأندلس (طبع مدريد) ص ٨٥.

(٤) الديباج المذهب لابن فرحون. (نشر مكتبة

العلم والفقه باسط اليد على الفقراء وأهل الحاجة وذوى الزمانة^(١) « وفي ذلك ما يؤكد بسطة يده على العلماء من كل صنف وإغداقه عليهم الأموال الجزيلة.

وتولّى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). وتبلغ الأندلس في عهده الذروة المنتظرة في قوة السلطان، وتزدهر الحركة العلمية في أيامه، وكان قد انتدب لرعايتها ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، واستنّ له الإغداق على العلماء، ويكفى أن نعرف أنه أرسل إلى محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكي بالفسطاط - وهو أندلسي الأصل - عشرة آلاف دينار^(٢) ليفرقها على شيوخ المالكية بمصر لتتصور مدى ما كان ينثر حينئذ من الأموال على فقهاء الأندلس وعلمائها من كل صنف، واستنّ لابنه الحكم أيضاً إكرام العلماء القادمين من المشرق لينشروا في الأندلس علمهم، ووفد عليه من بغداد أبو على القالى^(٣) سنة ٣٣٠ فبالغ في الحفاوة به، وقاد أبو على في الأندلس - كما هو معروف - حركة لغوية ضخمة بمؤلفاته اللغوية وبمن تخرج على يديه هناك من تلاميذه اللغويين الكثيرين. وكما عُنى الناصر بعلماء الدين واللغة عُنى بمن يدرسون علوم الأوائل، ونرى إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يرسل إليه بهدية بينها كتاب ديوسقوريدس في الصيدلة باليونانية، ولم يكن في قرطبة حينئذ من يعرف تلك اللغة، فطلب الناصر من الإمبراطور أن يرسل إليه أحد العارفين بها، فأرسل إليه الراهب نيقولا سنة ٣٤٠ وكان يعرف اليونانية واللاتينية جميعاً، وألف الناصر لجنة لمساعدته في ترجمة الكتاب إلى العربية^(٤).

واقصدى الحكم بأبيه منذ كان ولياً لعهد وأسند إليه الإشراف على الحركة العلمية، فنهض بها في أيامه، حتى إذا خلفه في الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) عُنى بتلك الحركة إلى الذروة، وقد طرّز القالى باسم أبيه واسمه كتابه الأمالى ونوّه بها طويلاً في مقدمته للكتاب، ونرى مؤلفين كثيرين في الأندلس وفي المشرق يقدمون إليه مؤلفاتهم، من ذلك كتاب الاستيعاب^(٥) في فقه مالك لأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبيد الله القرشى،

(١) انظر المقتبس (طبع دارالمعارف) الفصل الخاص بالثناء على الأمير عبدالله وتقرّظه.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ٣١٣/١ - ٣١٤.

(٣) انظر في وفادة أبي على القالى على الناصر ومقامه بقرطبة طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٢٠٤ وإنباه الرواة ٢٠٤/١ ومعجم الأدياء لياقوت ٣٠/٧ وبغية الملتبس للضبي ص ٢١٦

وجذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص ١٥٥.

(٤) انظر طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل تحقيق فؤاد سيد (طبع المعهد الفرنسى بالقاهرة) ص ٢٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبعة دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٤٩٣ وما بعدها.

(٥) الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد) رقم ٣٦.

ووصلها بجائزة كبيرة، ومن ذلك كتاب الحقائق لأحمد بن فرج الجياني الذي ألفه له، وقد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني، وكان ابن داود ذكر في كتابه مائة باب في كل باب مائة بيت فجعل الجياني كتابه مائتي باب في كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير شعراء الأندلس شيئاً^(١)، وسمع الحكم بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني فأرسل إليه ألف دينار ذهباً ليعث إليه بنسخة من الكتاب، فأرسل إليه نسخة منه منقحة، وأرفقه بكتاب في أنساب أسرته الأموية موشحاً بمناقبهم، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة، وصنع نفس الصنيع مع القاضي الأبهري المالكي حين طلب إليه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم في الفقه المالكي^(٢).

ويقول ابن الأثير: «لم يُسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها^(٣)» ويقول ابن خلدون: «اجتمعت بالأندلس لعهد خزان من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده^(٤)». وكان له ورّاقون أو بعبارة أخرى جُلّاب كتب بأقطار البلاد وعواصمها مثل الإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد ينتخبون له نفائس الكتب، ويقال إن عدد الفهارس بمكتبته في القصر كانت أربعاً وأربعين فهرساً في كل فهرس عشرون^(٥) ورقة - وفي رواية خمسون ورقة - وكانت الدار التي اتخذها لمكتبته أشبه بجمع علمي، وكانت تزخر بالحدائق في صناعة النسخ والتجليد^(٦) وبالعلماء الدارسين من كل صنف وبالمحققين الذين يقابلون مخطوطات الكتب المهمة بعضها على بعض مستخلصين منها للمكتبة نسخاً منقحة غاية التنقيح. ويذكر الحميدى في الجذوة أن الحكم مرّ يوماً بأبي على القالي وبمجموعة من العلماء يقابلون نسخ معجم العين وبينها نسخة القاضي منذر بن سعيد التي أخذها بالفسطاط عن عالم مصر اللغوي ابن ولاد، ومكث معهم قليلاً يسألهم عن نسخ الكتاب^(٧). ويقول ابن الأثير منوها بثقافة الحكم ومعرفته بالكتب ومؤلفيها: «كان كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة

(٥) المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٨٦/١ وراجع ترجمته في الحلة السرياء وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٠٠.

(٦) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ ويقال كان بمكتبة الحكم أربعائة ألف كتاب.

(٧) جذوة المقتبس للحميدى ص ٤٧ وما بعدها.

(١) انظر الجذوة ص ٩٧ وبغية الملتبس ص ٤٠ وابن دحية في المطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٣) انظر ترجمة الحكم في الحلة السرياء لابن الأثير (طبع القاهرة) ٢٠٠/١ وما بعدها.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

لفوائدها، وقلما تجد له كتابا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما في أوله أو في آخره أو في تضايفه - نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وأنساب الرواة له، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته.. وصار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به^(١). وطبيعى أن تبلغ الحركة العلمية بالأندلس في عهده كل ما كان يؤمل لها من ازدهار لا بفضل ما وضعه تحت أعين العلماء من أمهات الكتب في العلوم اللغوية والدينية وعلوم الأوائل من طب وغير طب فحسب، بل أيضاً بفضل المتخصصين الذين يحاضرون الطلاب في المساجد، بل كان يعممها في المؤدبين الذين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين في الكتاتيب^(٢) ومراً بنا أنه أنشأ في قرطبة سبعة وعشرين كتاباً، سوى ما كان بها قبله من الكتاتيب، ويقول ابن الأبار إنه أفاء على العلم بما بسط عليه من المال، ونوّه بأهله ورفع ذكركم، ورغب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء البلدان النائية عن بلده^(٣).

وولى بعد الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد، وكان في الحادية عشرة من عمره، واستبد بالسلطان وتدير الدولة حاجبه أو رئيس وزرائه المنصور بن أبى عامر، لا ينازعه في ذلك منازع طوال حياته، وله وقائع كثيرة مع النصارى في الشمال انتصر فيها دائماً واستولى منهم على برشلونة وحصونا وبلدانا أخرى كثيرة، مما حُبب الناس فيه. وأعلى مراتب العلماء وجعل لهم في كل أسبوع يوماً يجلس لهم فيه ويتناظرون بين يديه^(٤)، وكان يجزل الرواتب والعطايا لهم، ووفد عليه بعض علماء المشرق فأكرم وفادتهم عليه، على نحو ما هو معروف من وفادة صاعد بن الحسن البغدادي اللغوى، وألف له في اللغة كتباً مختلفة نال بها منه أموالاً جمة، منها كتابه الفصوص ألفه على شاكلة كتاب الأمالى لأبى على القالى، وحين قدمه إليه أمر له تواباً بخمسة آلاف دينار^(٥). وكان يعنى بالفقهاء

(١) ترجمة الحكم في ابن الأبار ٢٠٢/١ ويقول القاضى عياض في كتابه ترتيب المدارك (طبع الرباط ٢٢/١): «كان الحكم ممن طالع الكتب ونقر عن أخبار الرجال تنقيراً لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم».

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ٣٥٨/٢.

(٣) ابن الأبار في الحلة السيرة ٢٠١/١.

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (طبع القاهرة) ص ٨٣ والحميدى ص ٧٢.

(٥) الصلة لابن بشكوال ٢٣٥/١ وإنباه الرواة للقفطى (طبع القاهرة) ٨٩/٢.

والمحدثين عنايته بصاعد اللغوى واللغويين. وكان شديد الطموح فأمر أن يجيئ بتحية الملوك، وقعد على سرير الملك. وطمح - كما مرّ بنا في الفصل الماضى - إلى تنصيب نفسه خليفة، ورأى - تقرباً للعامة - أن ينكل بتلامذة ابن مسرة الصوفى المتفلسف المعتزلى^(١)، ودفعه هذا التقرب إلى أن يأمر بإحراق كل ما كان فى مكتبة الحكم المستنصر بالقصر من كتب الفلسفة والفلك والتنجيم^(٢) حتى يرضى العامة، غير أن ذلك لم يقف الحركة العلمية التى ازدهرت فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقد ظلت فى مدّها، إذ كانت أقوى من أن يعصف بها هذا الحادث. وسرعان ما تنشب بعد ابن أبى عامر الفتنة أو الفتن التى ظلت أكثر من عشرين عاماً وانتهت بالقضاء على الدولة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢ للهجرة، وكان من آثار هذه الفتن أن هاجر من قرطبة إلى مدن الأندلس المختلفة كثير من علمائها. وهاجر معهم إلى تلك المدن كثير من الكتب العلمية التى كانت مخزنة فى مكتبة الحكم وغيرها من مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة.

وأعدّ ذلك من بعض الوجوه لأن تنشط الحركة العلمية فى المدن الكبرى التى تأسست فيها إمارات أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف كما كانوا يسمونهم، إذ انتثر عقد الأندلس وأصبحت أندلسات أو قل إمارات كثيرة، ففى كل مدينة كبيرة فرد أو أسرة تحكمها، وتنافست هذه المدن، فكل مدينة تريد أن تتفوق على أخواتها فى العلم والفلسفة والأدب، وكل أمير لمدينة يريد أن يظفر بقصب السبق على نظرائه فى السلطان والشئون المادية والثقافية والفنية، وكأنما أعيدت فى هذه الحقبة سيرة المدن اليونانية القديمة: أثينا وإسبرطة وأخواتها وما كان بينها من تنافس هياً لعصر من أزهى العصور اليونانية فى الفلسفة والفن والعلم والأدب، مما جعل حقبة أمراء الطوائف من أزهى الحقب فى تاريخ الأندلس، ومن يرجع إلى إشبيلية سيجد حاكميها المعتضد عباد وابنه المعتمد يتحولان بها إلى ما يشبه سوقاً كبرى للشعر والشعراء، بينما يجد بنى الأفطس فى بطليوس بغربى الأندلس وقد صعدوا بالتأليف فى الثقافة والآداب إلى الأوج على نحو ما يصور ذلك المظفر بن الأفطس فى موسوعته التى سبها كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ، وكانت

ص ٣٣٠.

(٢) طبقات الأمم لصاعد ص ١٠٣ ونسبة إحراق الكتب للخليفة هشام المؤيد خطأ وانظر البيان المغرب لابن عذارى ٤٣٧/٢.

(١) يدفنا إلى اعتقاد ذلك أن قاضى الجماعة محمد ابن يبقى فى صدر دولة ابن أبى عامر هو الذى تولى محاكمة هؤلاء التلاميذ ولا بدّ أن كان ذلك بإيعاز منه. انظر النباهى فى تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٨ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالثيا (الترجمة العربية)

نحو مائة مجلد^(١). وبث بنو ذى النون في طليطلة حركة علمية وأدبية واسعة وخاصة في عهد أميرهم المأمون يحيى بن إسماعيل، ويقول ابن سعيد: «لم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الأجلاء^(٢)». ونهضت سرقسطة في أقصى الشمال بحركة علمية نشطة في الرياضيات والفلك وبالمثل نشطت في دراسة الفلسفة، وخاصة على عهد أميرها المؤتمن من بنى هود وله في العلوم الرياضية تأليف مثل الاستهلال والمناظر^(٣) وكان مألفا للعلماء والأدباء والشعراء. وازدهرت في المرية شرقى الأندلس نهضة علمية وأدبية واسعة قادها أحمد بن عباس الوزير لزهير الصقلبي أول أمرائها، وكان كاتباً مبدعاً وشغف بجمع الكتب واقتنائها حتى قالوا إنه اقتنى منها أربعمئة ألف مجلد^(٤)، وصارت الإمارة سريعاً إلى بنى صُهاح فانتعش بهم العلم والشعر وخاصة في عهد أميرها المعتصم وكان شاعراً مجيداً كما كان ممدّحاً أكثر الشعراء من مديحه^(٥). وتكاثر العلماء والشعراء المبدعون في مرسية وبلنسية في شرقى الأندلس وقاد مجاهد صاحب دانية هناك حركة علمية وأدبية، وكان عالماً بالعربية وعلوم القرآن، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، ووفد عليه العلماء الأجلاء والشعراء الأفذاذ، وشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلماه^(٦). وكان لغرناطة في جنوبى الأندلس ما لأخواتها الأندلسيات من النشاط العلمى والأدبى، وظلت قرطبة تفوح بشذاها العطر في الفلسفة والعلوم والآداب.

واستولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ٤٧٨ للهجرة، واستقر في نفوس أمراء الطوائف أن لا حول لهم ولا قوة إزاءه وإزاء المسيحيين بالشمال فاستغاثوا ببيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب فلباهم، وأوقع بألفونس وجيوشه هزيمة ساحقة في وقعة الزلاقة المشهورة، ورأى من الخير أن يضم شتات الأندلس ودويلاته المتنازعة تحت لوائه، لما ثبت له من فساد حكمهم وعجزهم عن مقاومة المسيحيين في الشمال وبذلك أظل الأندلس حكم دولة المرابطين إلى أواخر العقد الرابع من القرن الخامس، وعظم شأن

(٥) انظر ابن الأبار في الحلة السيرة ٨٢/٢ ويقول كان يجلس يوماً في كل أسبوع للفقهاء والخواص فيتناظرون بين يديه في التفسير والحديث.
(٦) المغرب ٤٠١/٢ وأعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب (نشر بروفنسال) ص ٢٥٦ والبيان المغرب ١٥٧/٣.

(١) المغرب لابن سعيد ٣٦٤/١ ويذكر أنه اجتمع عنده ابن شرف حسنة القيروان وعبدالله بن خليفة المصرى الحكيم وأبو الفضل البغدادى الأديب.

(٢) المغرب ١٢/٢.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٢/٤.

(٤) المغرب ٢٠٦/٢.

الفقهاء في هذه الدولة منذ ابن تاشفين وأجرى الرواتب على كثيرين منهم طوال أيام حكمه^(١)، واحتذاه في ذلك ابنه على خليفته في الحكم. ولا تلبث دولة الموحدين أن تحل في المغرب والأندلس محل دولة المرابطين، وتدين الأندلس لمؤسسها عبد المؤمن وكان فقيها عالمًا مشاركًا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية^(٢) وكان مؤثرًا لأهل العلم ويجرى عليهم الرواتب الواسعة^(٣) وخلفه ابنه يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ). وكان قد درس في إشبيلية على فقهاءها وعلمائها اللغويين، وقيل إنه كان حُفَظَةً حتى ليقولون إنه حفظ البخارى بأسانيده، وشغف بالفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر^(٤)، وولى بعده ابنه يعقوب وكان مثقفا مثله ثقافة واسعة وكان يعقد المناظرات بين يديه للعلماء والفلاسفة^(٥). وكل ذلك يشهد بأن الحركة العلمية والفلسفية ظلت مطردة النمو في الأندلس طوال عصر دولتي المرابطين والموحدين.

وأخذت المدن الأندلسية الكبرى تسقط في أيدي المسيحيين الشماليين منذ العقد الثالث في القرن السابع الهجري، واستطاع محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر أن يؤسس في غرناطة سنة ٦٣٥ إمارة ظلت حتى سنة ٨٩٧ للهجرة وقد استطاعت بعلمائها وأدبائها ومن آوى إليها من أدباء المدن الأندلسية الساقطة في حجر النصارى أن تستتم نهضة العلوم والآداب الأندلسية، وهاجر كثير من الأدباء والعلماء الأندلسيين إلى مراكش والمشرق ونشروا بها آدابهم وعلومهم وذاع صيتهم. وكان لغرناطة والمدن التابعة لها مثل مالقة الحظ الأوفر في الحركتين العلمية والأدبية ونرى أمراءها منذ الأمير محمد الفقيه (٦٧١ - ٧٠١) يرعون العلماء والشعراء، وعُرف باسم الفقيه لدراسته الفقه أيام أبيه وشغفه به، ويبدو أنه كان شغوفًا بكل فروع العلم حتى علوم الأوائل، يدل على ذلك استقدامه من مرسية لمحمد بن إبراهيم الأوسى ومحمد بن أحمد الرقوطى كى يدرسا للطلاب في غرناطة العلوم الطبية والفلسفية^(٦) ولعل أكبر أمير من بني الأحمر نشطت دراسة العلوم في عهده هو أبو الحجاج يوسف الأول

(٥) انظر كتابنا الرد على النحلة (طبع دار المعارف) ص ١٥.

(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (تحقيق عنان - طبع القاهرة). ٦٧/٣ - ٦٨.

(١) روض القرطاس لابن أبي زرع (طبع الرباط) ص ٣٨.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (طبع القاهرة) ١٥٨/١.

(٣) المعجب ص ٢٦٩.

(٤) المعجب ص ٣١٠.

(٧٣٣ - ٧٥٥) الذى أنشأ لأول مرة في غرناطة - بل ربما أيضا في الأندلس - مدرسة سهاها المدرسة^(١) النصرية. ومعروف أنه لم يكن لأهل الأندلس مدارس لتعليم فروع العلم، بل كانوا يدرسونها جميعا في المساجد أو في دور العلماء أنفسهم، إذ كان كثيرون منهم يعلمون الطلاب في منازلهم، ولم يكن ذلك قاصرا على أصحاب علوم الأوائل بل كان عاما عند أصحاب العلوم اللغوية والدينية وأيضا عند بعض معلمى الكتاتيب. ومع أن الأندلس لم تعرف المدارس قبل القرن الثامن الهجرى فإن الحركة العلمية ازدهرت بها ازدهارا عظيما كما رأينا سواء في المساجد أو في منازل العلماء التي كانت تتحول إلى ما يشبه المدارس منذ القرنين الثاني والثالث الهجريين.

وحظيت المرأة في هذه الحركة العلمية بغير قليل من العلم والتعليم، ومعروف أن الإسلام يلزم أتباعه رجالا ونساء بأخذ قسط من التعليم فكان طبيعيا أن تقبل المرأة الأندلسية عليه حتى تتعرف على فروع دينها وخاصة من العبادات وحتى تحفظ أجزاء من القرآن وقد تحفظه جميعه. وكانت تتعلم بداخل الدور، وكان الأمراء يختارون المؤدين لبناتهم ولجواريهن وكانت قصورهم تكتظ بهن، ومثلهم الوزراء وأصحاب الثراء. وتذكر كتب التراجم بجانب المؤدين مؤديات كن يتفرغن لتأديب الصبيان في الصغر مثل ابنة حزم التي كانت تشترك مع أبيها وأخيها في تأديب الناشئة بدار واحدة^(٢) وكان قيام المؤدين بهذه المهمة أوسع، ولم يكن هناك عالم في أى فرع من فروع العلم إلا يأخذ بناته بالتعليم المبكر. وكثيرات كن لا يكتفين بتعلم القراءة والكتابة وشيء من الحساب مع حفظ بعض المختارات من الشعر، بل كن يحاولن استيعاب العلوم ويتفرغن لإتقانها، واشتهرت البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) بأنها كانت زاهدة عابدة متبته وكانت كما مر بنا تكتب المصاحف وتقفها على القراء بالمساجد^(٣) وكانت تعاصرها أم الحسن بنت سليمان بن وانسوس وزير الأمير محمد والمنذر وعبد الله وقد تتلمذت للمحدث بقى بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ وروت عنه سماعا منه وقراءة عليه، وصحبته، وكان لها يوم في الجمعة تنفرد فيه به لأخذ العلم عنه بداره،

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى (طبع أكاديمية المملكة المغربية - تحقيق محمد بن شريفة) ٤٨٤/٢/٨.

(١) راجع هذه المدرسة في ترجمة رضوان النصرى في الإحاطة ٥٠٨/١ وبها لوحة تحدد تاريخ الانتهاء من بنائها بسنة ٧٥٠.

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٩٧ وانظر رقم ٣١٢.

وحجت وسمعت هنالك الحديث والفقه وعادت إلى الأندلس^(١). ومن لداتها ورفيقاتها رقية بنت تمام بن عامر وزير الأمير محمد وكان أديباً شاعراً وأحسنت ابنته رقية الكتابة حتى اتخذتها ابنة الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) كاتبة لها^(٢). ومر بنا في الفصل الماضي ثلاث من جوارى القصر الأموي كانت اثنتان منهن: مزنة وكتبان تكتبان للناصر، وكانت الثالثة بُنَي تكتب للمستنصر، وكانت نظام كاتبة بقصر الخلافة أيام هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وكانت أدبية بليغة تحسن تحبير الرسائل ومن إنشائها الرسالة التي عزى فيها هشام المؤيد حاجبه المظفر بن المنصور بن أبي عامر عن أبيه وجَدُّ له العهد بالحجابة^(٣) سنة ٣٩٢. ويدل على ما كان للجواري في قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم من ثقافة أنهم اللاتى كن يقمن على تربية النشء في تلك القصور وهو ما يشهد به ابن حزم أحد أبناء الوزراء في العهد الأموي إذ يقول عن نشأته في أواخر القرن الرابع الهجري بكتابه طوق الحمامة: «إننى رُيِّيت في حجور الجواري ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين بَقَل^(٤) وجهى وهن علمننى القرآن ورويننى كثيراً من الأشعار»^(٥). وتلقانا في كتب التراجم من حين لآخر عالِمات متعمقات في العلم مثل ابنة فائز زوجة أبي عبد الله بن عتاب، وقد أخذت عن أبيها التفسير واللغة والعربية والشعر وعن زوجها الفقه ورحلت إلى دانية لأخذ القراءات السبع عن أبي عمرو الداني المرقئ وكان قد سبقها إليه الموت فأخذت تلك القراءات عن تلميذه أبي داود بن نجاح في آخر سنة ٤٤٤ للهجرة^(٦). وكانت تعاصرها إشراق السويداء وقد برعت في العربية واللغة والآداب واشتهرت بتقدمها في علم العروض وعنها أخذها أبو داود المرقئ وقرأ عليها كامل المبرد وأمالى القالى^(٧) واشتهرت في تلك الحقبة جارية الطبيب ابن الكتانى بحسن الغناء وبإحسانها لعلم الطب وتشريح الأعضاء مما يقصر عنه كثيرون من أصحاب الصناعة^(٨). وتلقانا في القرن السادس أم العز^(٩) راوية قراءة ورش عن أم معفر إحدى زوجات محمد بن سعد بن مردنيش

أحمد مكى طبع دار المعارف) ص ٧٩.

(٦) التكملة رقم ٢١١٨ والمراكشى ٤٩٤/٢/٨.

(٧) التكملة رقم ٢١١٥ والمراكشى ٤٨٠/٢/٨.

(٨) المجلد الأول من القسم الثالث من الذخيرة

لاين يسام (تحقيق احسان عباس) ص ١١٢.

(٩) التكملة رقم ٢١٢٥ والمراكشى ٤٨٣/٢/٨.

(١) المراكشى ٤٨١/٢/٨.

(٢) نفس المصدر ٤٨٥/٢/٨.

(٣) المراكشى ٤٩٣/٢/٨.

(٤) يقال بقل وجه الغلام حين ينبت شعر خده ولحيته.

(٥) طوق الحمامة لابن حزم (تحقيق د. الطاهر

أمير شرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٨ هـ) كما تلقانا أم عمرو بنت عبد الملك بن زهر الطبيب وأخت أبي بكر وكانت تحذق الطب مثل أبيها وأخيها وكثيرين من أسرتهما، وكانت الطيبية لنساء الأمراء من بني عبد المؤمن بإشبيلية وأطفالهم وجوارهم، وكانت تُستَفَى في الطب لرجالهم فتزید حظوة^(١) عندهم، وتوفيت بعد سنة ٥٨٠ وتعد بحق - جدة الطبيبات العربيات المعاصرات. وكثيرات هن العابدات المتبتلات اللاتي كن يعظن النساء هناك مثل ناسكة تسمى رشيدة كانت تتجول في بلدان الأندلس مذكرة للنساء وواعظة.^(٢) ويذكرون عن محبى الدين بن عربي الصوفي المشهور أن من أهم من دفعوه إلى اعتناق التصوف زوجته مريم بنت محمد بن عبدون بما كان يسمعه من مواعظها ويشاهده من ورعها، وأهم منها في دفعه إلى التصوف نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية، وقد لزمها سنتين خادما ومريدا، مأخوذا بما كانت تذكره من تنبؤات غريبة. وسنلم في موضع آخر بإقبال المرأة الأندلسية على التشقف بالشعر، مما هيا لظهور شاعرات أندلسيات كثيرات.

٢

علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا (أ) علوم الأوائل

لم يكن في إسبانيا قبل فتح العرب لها شيء واضح من علوم الأوائل في الرياضيات وغير الرياضيات، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافا منها منذ أواخر القرن الثاني الهجري مما ترجم في بغداد عن اليونانية وغيرها، إذ يقول ابن سعيد في ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) إن أباه الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) عني بتعليمه وتخريجهم في العلوم الحديثة والقديمة، حتى إذا استولى على صولجان الحكم بعد أبيه رأى أن يحدث في الأندلس نهضة علمية بالتعرف الدقيق على علوم الأوائل مع رعاية الدولة لها، إذ يمضى ابن سعيد في ترجمته قائلا إنه: وجّه عباس بن ناصح إلى العراق في

ابن زهر، وكانت ابنتها طيبية مثلها.
(٢) انظر المراكشي ٤٨٥/٢/٨.

(١) انظرها في الذيل والتكملة للمراكشي ٤٨٣/٢/٨ وراجع طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة في ترجمة أخيها الطبيب أبي بكر

التماس الكتب القديمة، فأتاه بكتاب السند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرف أهلها بها، ونظر هو فيها»^(١). وعبد الرحمن الأوسط - بذلك - لم يدخل الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من مثل كتاب السند هند المترجم عن السنسكريتية الهندية والخاص بعلم الحساب والهيئة والجداول الفلكية فحسب، بل إنه دفع الأندلسيين إلى تعلمها والتثقف بها. وكان ذلك فاتحة عصر جديد في الأندلس: عصر دراسة علوم الأوائل، وسرعان ما نجد أندلسيا في زمنه يقبل على دراسة علم الفلك والهيئة ويصبح منجما له هو عبد الله بن الشَّمر، وكان شاعرا فكان الأمير عبد الرحمن الأوسط يجري عليه راتبا للشعر وراتبا للتنجيم، وكان رئيس المنجمين لعهد، وله معه في التنجيم أخبار طريفة^(٢).

وابن الشمر رمز لاهتمام الأندلسيين في القرن الثالث الهجري منذ فواتحه بالفلك والتنجيم وما يتصل بها من الرياضيات، وأخذوا سريعا يهتمون بالكيمياء والفلسفة، واشتهر بذلك كله عباس^(٣) بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤ للهجرة في أوائل أيام الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ)، وفيه يقول ابن سعيد: «كان فيلسوفا حاذقا وشاعرا مفلقا مع علم التنجيم، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة.. وكان كثير الاختراع والتوليد واسع الحيل حتى نسب إليه السحر وعمل الكيمياء» ويقول ابن حيان في المقتبس: «أبدع عباس بن فرناس عندنا في فنون التعاليم القديمة والحديثة وتفلسف وأغرب في غير مذهب من الحكمة وخدمة الموسيقى وضرب العود وصوغ اللحون». وبلغ من علمه بالفلك أن صنع في بيته قبة على هيئة السماء تراءى للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، ويقول ابن سعيد إنه احتال في تطيير جثثانه، فكسا نفسه الريش على سَرَق (شقق) الحرير فتهيا له أن طار في الجو من ناحية الرصافة بقرطبة واستقل في الهواء فحلّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة. وتأخذ علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة في النمو منذ عصر الأمير محمد

والجذوة للحميدي رقم ٥٠٥ وبغية الملتبس رقم ٨٤٥.

(٣) راجع في ابن فرناس المغرب ٣٣٣/١ والمقتبس ص ٢٧٩ والجذوة رقم ٧٣١ والبغية رقم ١٢٤٧.

(١) انظر المغرب (طبع دار المعارف) في ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط ٤٥/١.

(٢) انظر في ابن الشمر المغرب ١٢٤/١ والمقتبس (تحقيق د. مكّي) ص ٦٥، ٤٧٧ وابن الفرضي رقم ٦٨٩ والزبيدي ص ٢٨٠ والبيان المغرب لابن عذاري ٨٥ وما بعدها والقضاء للخشي ص ٨٣.

(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ.)، ولم يبق حينئذ كتاب مهم في علوم الأوائل ببغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية إلا جُلب وأكَّب العلماء عليه يدرسونه. وطبيعي لذلك أن يظهر في عهد المستنصر مسلمة^(١) المجريطي المتوفى سنة ٣٩٨ وهو يفتح سلسلة الرياضيين الأندلسيين العظام، وسرعان ما يصبح أستاذ مدرسة رياضية أندلسية، ومن أعماله شرحه لقبة الفلك لبطليموس وقد تُرجم إلى اللاتينية في بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦ بعنوان: «سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها» وبالمثل ترجمت له إلى اللاتينية رسالة في الأسطرلاب وزيج محمد بن موسى الخوارزمي أوجداوله الفلكية وقد حوَّها من التاريخ الفارسي إلى التاريخ العربي وزاد فيها جداول حسنة، وله ملخص لزيج البتاني ساه تعديل الكواكب. وخلفه في الرياضيات كثير من التلاميذ مما يدل على أن أمر المنصور بن أبي عامر في زمن حجابته باحراق كتب علوم الأوائل - كما مرَّ بنا - كان حدثا عارضا، وظل لعلوم الأوائل رياضيات وغير رياضيات نشاطها في بلدان الأندلس.

ومن أهم تلاميذ مسلمة الرياضيين أبو القاسم^(٢) أصبغ بن محمد بن السمع الغرناطي المتوفى سنة ٤٢٥ وكان رياضيا بارعا في الحساب والهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله «المدخل إلى الهندسة» في تفسير كتاب إقليدس وكتب مختلفة في الحساب وكتابان في الأسطرلاب أحدهما في التعريف بصورة صنعتها والآخري في العمل به، وله أيضا زيج فلكي انتفع به وبكتابات الفلكية ألفونس العاشر وعلماؤه. ومن تلاميذ مسلمة ابن الصَّفَّار^(٣) أحمد بن عبدالله الغافقي، وله زيج جيد ورسالة في العمل بالأسطرلاب، وكان يعلم في قرطبة علوم العدد والهندسة والنجوم، وهاجر منها - زمن الفتنة في أوائل القرن الخامس الهجري - إلى دانية لعهد صاحبها مجاهد العامري وظل بها إلى وفاته سنة ٤٢٤. ومن تلاميذ مسلمة أيضا الكرمانى^(٤) عمرو بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٤٥٨ عن تسعين

(٢) راجع طبقات صاعد ص ١٠٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٣ وبالنشأ ص ٤٤٩ وألدومبيلي ص ٣٥١.

(٣) انظر في ابن الصفار طبقات صاعد ص ١٠٨ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٤ وبالنشأ ص ٤٥٠ وألدومبيلي ص ٣٥١ وبروكلمان ٢٢٧/٤.

(٤) راجع في الكرمانى طبقات صاعد ص ١٠٩ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٤ وبالنشأ ص ٤٥٥ وألدومبيلي ص ٣٥١ وبروكلمان ٢٢٨/٤.

(١) انظر في مسلمة المجريطي طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة بالقاهرة) ص ١٠٧ وابن أبي أصيبعة (نشر مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٨٢ وتاريخ الفكر الأندلسي لبالنشأ (ترجمة د. حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة) ص ٤٤٨ والعلم عند العرب لألدومبيلي (ترجمة د. عبد الحليم النجار) ص ٣٥١ وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣٢٣/٤.

عاما وقد رحل إلى المشرق وجلب معه - لأول مرة - إلى الأندلس - رسائل إخوان الصفا، واستقر بسرقسطة عند بنى هود في رعاية المقتدر بالله بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) وكان يشغف بالرياضيات والفلك والفلسفة، وخلفه ابنه يوسف المؤتمن إلى أن توفي سنة ٤٧٨ هـ وكان يكبُّ على الرياضيات وله فيها كتاب المناظر، وله أيضا كتاب الاستهلال في الفلك^(١).

ولعل في التلامذة السابقين لمسلمة المجريطى ما يدل من بعض الوجوه على أن أمراء الطوائف كانوا يأخذون أنفسهم بتشجيع العلماء، وكانت منافسة حميدة بينهم، ولا يلبث أن يظهر في عصرهم عَلمُ الرياضيات الزُّرقالى^(٢) القرطبي المتوفى سنة ٤٧٢ هـ وهو من أعظم علماء الفلك العرب، وله زيج أو جداول فلكية وأسطرلاب وابتكر له أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة. وابتكر في الفلك نظرية جديدة مهمة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، واستخدم ألفونس العاشر وعلماءه من مؤلفاته رسالة في العمل بأسطرلاب الصفيحة، وكما تُرجمت إلى الإسبانية القديمة أو القشتالية ترجمت إلى اللاتينية ومثلها كتابه «طريقة في عمل أسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها».

وينتهى عصر أمراء الطوائف وتدخل الأندلس في حوزة المرابطين منذ سنة ٥٨٤ للهجرة ويكون للفقهاء سلطان كبير في عهدهم ولكنه لا يعوق نشاط الرياضيين والفلكيين وغيرهم من أصحاب علوم الأوائل والفلسفة، ويظل المرابطون في الأندلس حتى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ويلمع في عصرهم اسم جابر^(٣) بن أفلح الإشبيلي وله كتاب في حساب المثلثات، عرضها فيه بطريقة مبتكرة، وأهم منه كتابه في علم النجوم الذى ساه إصلاح المجسطى، وفيه عرض ملاحظات دقيقة عن منازل الشمس وحركات الكواكب، وهو أحد الكتب التى تعد بالعشرات مما ترجمه إلى اللاتينية جيرار دى كريمونا المتوفى بطليطلة سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م. وتختلف دولة الموحيدين دولة المرابطين في الأندلس منذ العقد الخامس في القرن السادس الهجرى، ويتألق في عهدهم بالنصف الثانى من القرن اسم عالم رياضى إشبيلي عربى يُعدُّ في طليعة الرياضيين

(٢) انظر الزرقالى في طبقات صاعد ص ١١٧ وبالتنثيا ص ٤٥١ وألدومبيلي ص ٣٥٩ (انظر الفهرس).

(٣) انظر في جابر بالتنثيا ص ٤٥٦ وألدومبيلي ص ٣٨٣.

(١) تاريخ ابن خلدون ١٦٣/٤ وبالتنثيا ص ٤٥٥. وعاش في بلاط بنى هود من تلامذة مسلمة المجريطى ابن البغونش انظر فيه طبقات صاعد ص ١٢٧ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٥ وبالتنثيا ص ٤٥٣.

العالمين، ونقصد البِطْرُوجِي^(١) أبا إسحق نور الدين (من أهل النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي) وأصله من بطروج قرية كبيرة بقرب قرطبة، وترجع شهرته وأهميته إلى كتابه الفلكي في علم الهيئة، إذ قَوَّض فيه نظرية بطليموس في كتابه المجسطي عن الكواكب السيارة قائلا إنها تتحرك في مدارات إهليلجية أو بيضاوية حول الشمس، وترجم هذا الكتاب الفلكي سريعا إلى اللاتينية ميشيل سكوت حين نزل طليطلة وأطلع عليه حوالى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م وبذلك أدخل نظرية البطروجي الفلكية مبكرا إلى العالم الغربي وترجمها إلى العبرية موسى بن طَبُّون سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م ونقلها عن العبرية إلى اللاتينية قالينيموس بن داود سنة ٩٣٥ هـ/١٥٢٩ م ونشرت ترجمته في البندقية سنة ٩٣٧ هـ/١٥٣١ م. وبدون ريب اطلع كبلر^(٢) الألماني (١٥٧١ - ١٦٣٠ م) على تلك النظرية الفلكية وصاغ منها نظريته الفلكية التي استخرج منها نيوتن قانون الجاذبية، وبذلك عُدَّ كبلر أبًا لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعي، فأبوه الشرعي الحقيقي هو البِطْرُوجِي الإشبيلي العربي. وتوقف هذا النشاط في الدراسات الفلكية بإشبيلية منذ سقطت في يد فرناند ملك القشتاليين سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م.

ولم تسقط إشبيلية وحدها في أيدي المسيحيين الشماليين من الإسبان بل سقطت قرطبة وغيرها من مدن كثيرة في الأندلس، وأخذ النشاط في علوم الأوائل ينحسر عن أكثر تلك المدن وينحاز إلى إمارة غرناطة التي ظلت للعرب في الجنوب نحو قرنين ونصف وقد هاجر إليها من مدينة مرسية الرُّقُوطِي^(٣) محمد بن أحمد وتوفي بها سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٤ م وكان قد اشتهر بحذقه بالرياضيات في مسقط رأسه وتوافد عليه الطلاب من كل ملة، وسمع به أمير غرناطة محمد بن يوسف بن الأحمر المعروف باسم الأمير محمد الفقيه فاستدعاه لتدريس الرياضيات للطلاب في حاضرتة، ولَبَّاه سريعا، ويحتمل الرياضيين الأندلسيين في نهاية القرن التاسع الهجري القلصادي^(٤) على بن محمد القرشي وقد بارح غرناطة قبيل سقوطها إلى بلاد المغرب وتوفي ببجاية سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦ م وظلت كتبه تتدارس في المغرب طويلا وخاصة كتابه كشف الجلباب عن علم الحساب.

(٤) راجع في القلصادي ترجمة واسعة في نفح الطيب ٦٩٢/٢ وانظر الضوء اللامع للسخاوي ١٤/٥ وبالنشأ ص ٤٥٧ وما بعدها والدومبيلي ص ٤١٢. ومقدمة رحلته المطبوعة بتونس بتحقيق الأستاذ محمد أبو الأجفان.

(١) راجع في البطروجي ابن أبي أصيبعة ص ٤٨٢ وبالنشأ ص ٤٥٦ والدومبيلي ص ٣٨٣ وما بعدها.

(٢) راجع بالنشأ ص ٥٣٥.

(٣) انظر في الرقوتي بالنشأ ص ٤٥٧ والاحاطة ٦٧/٣ وما بعدها.

وازدهر الطب في الأندلس - مثل علوم الرياضة والفلك - ويقول ابن جلجل إنه لم يكن للنصارى الإسبان بَصْرٌ بالطب ولا بالهندسة والفلسفة حتى عهد عيد الرحمن الأوسط^(١) (٢٠٦-٢٣٨) ويمكن أن نعزم ذلك في الأندلسيين بعامة، كما مرّ بنا آنفاً، فإنهم انتظروا في ذلك كله حتى جلب لهم هذا الأمير علوم الأوائل من بغداد والمشرق. وكان أول من اشتهر ببراعته في الطب لعهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) طبيب يسمى حمدين^(٢) بن أبان وكان - كما يقول ابن جلجل - طبيبا حاذقا، ووفد على قرطبة حينئذ طبيب من المشرق يسمى الحراني^(٣) اشتهر بدواء لأوجاع الجوف سباه المغيث، ويذكر ابن جلجل في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) طبيبا يسمى إسحق وآخر يسمى ابن ملوكة^(٤). ثم أخذ علم الطب في الازدهار لعهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) إذ كثّر دخول الكتب الطبية من المشرق إلى الأندلس، ومن الأطباء الذين اشتهروا في صدر دولته يحيى^(٥) بن إسحق الطبيب السالف، وكان يعالج بنات الناصر وجواريه، وله في الطب كتاب في خمسة أسفار. ومن أطباء العيون حينئذ سليمان^(٦) بن باج، وكان يعاصره سعيد^(٧) بن عبدالرحمن ابن أخى عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد، توفي سنة ٣٤٢ وكان حاذقا في علاج الحميات، وله كتاب في الصيدلة. ومن الأطباء لعصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أحمد^(٨) بن يونس وأخوه عمر وكانا قد رحلا إلى المشرق سنة ٣٤٠ وتتلما لثابت بن سنان بن قرة الطبيب المشهور ببغداد وقرأ عليه كتاب جالينوس، واختلفا إلى ابن وصيف الحراني وأخذاه عنه علاج أمراض العيون، وعادا إلى قرطبة سنة ٣٥١ فاستخلصهما المستنصر لنفسه، وتوفي عمر، وظل المستنصر حفيا بأحمد وأسكنه قصره بمدينة الزهراء وكان ماهرا في علاج أمراض

وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٨.
(٦) راجع في ابن باج ابن جلجل ص ١٠٢ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٩
(٧) انظر في سعيد ابن جلجل ص ١٠٤ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٩ والمغرب لابن سعيد ١٢٠/١ والتكملة لابن الأبار رقم ١١٩٥ وبالنتيا ص ٤٦٢.
(٨) راجع في أحمد وأخيه عمر ابن جلجل ص ١١٢ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٧ وبالنتيا ص ٤٦٤

(١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٩٢.
(٢) انظر فيه ابن جلجل ص ٩٣ وبالنتيا ص ٤٦١.
(٣) انظر في الحراني ابن جلجل ص ٩٤ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦.
(٤) راجع في ابن ملوكة وإسحق ابن جلجل ص ٩٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦ ويقول ابن جلجل كان على باب دار ابن ملوكة ثلاثين كرسيا لفعود الناس.
(٥) انظر في يحيى بن إسحق ابن جلجل ص ١٠٠

العيون كما كان صيدلانيا حاذقا، وكان يعاصره محمد^(١) بن عبدون الجبلى وكان قد رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ وأقام بالفسطاط ودبرَ مارساتها وعاد إلى قرطبة سنة ٣٦٠ وخدم المستنصر وابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبي عامر.

وتتَّوج النهضة الطبية حينئذ بالزهرأوى^(٢) أبى القاسم خلف بن عباس، وهو منسوب إلى الزهراء مدينة الناصر التى بناها غربى قرطبة، وقد خدمه - فيما يبدو - وخدم ابنه المستنصر وحفيده المؤيد وتوفى سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م وقد ألف موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين جزءا، بعنوان كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وجعلها أقساما ثلاثة: قسما فى الطب العام والأمراض وقسما فى الصيدلة وقسما فى الجراحة، وعُنى جيراردى الكرىجوى فى القرن الثانى عشر بترجمة قسم الجراحة من الكتاب إلى اللاتينية وترجم أجزاء أخرى منه. وعكف آخرون بعده على ترجمة بعض أجزاءه. وتمت ترجمة قسم الصيدلة إلى اللاتينية سنة ١٢٢٨. وأخذت هذه الترجمات تنتشر فى البلدان الغربية، حتى إذا ظهرت المطبعة فى القرن الخامس عشر اتسع انتشار الكتاب فى الغرب، وظل يدرس فى الجامعات الأوروبية من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر وخاصة قسم الجراحة منه، إذ ظل الجراحون الأوروبيون يعدُّون الزهرأوى إمامهم فى الجراحة سواء فى جراحة العظام أو فى جراحة الحصى والمثانة والمهبل والشق عنها وتفقيتها وعمليات الفتق والدوالى وأمراض النساء والعيون وطب الأسنان وزرعها. وضمن هذا القسم تصوير آلات الجراحة، وهى تتوالى عنده بالعشرات مع بيان كيفية استعمالها، وهو بكل ذلك يعد أبا للجراحة العالمية، كما يعد البطرُوجى السالف الذكر أبا لعلم الفلك العالمى.

ويظل علم الطب فى الأندلس مزدهرا فى عصر أمراء الطوائف وكذلك فى عصر المرابطين والموحدين، ويتوارث فى بعض البيوت مثل بيت بنى زهر بإشبيلية، وقد أنجب سلسلة من الأطباء المشهورين فى القرنين الخامس والسادس للهجرة يتقدمهم عبد الملك^(٣) جدهم وكان ماهرا فى صناعة الطب، وطارت شهرته بها فى عصر أمراء

(١) انظر فى ابن عبدون ابن جلجل ص ١١٥ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٢.

(٢) راجع فى الزهرأوى الصلة لابن بشكوال ٣٦٨ وابن أبى أصيبعة ص ٥٠١ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣٠٠/٤ وما بعدها وبالنثيا ص ٤٦٥

والدوميليل ص ٣٥٣، ٣٥٥.

(٣) انظره فى طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٩ والتكملة رقم ١٦٩١ وابن أبى أصيبعة ص ٥١٧ والذيل والتكملة للمراكشى تحقيق د. إحسان عباس ٣٧/١/٥.

الطوائف إلى أن توفي سنة ٤٦٧ للهجرة، وعنه تلقن الطب ابنه أبو العلاء^(١) طبيب المعتمد بن عباد ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وابنه على إلى أن توفي سنة ٥٢٥ للهجرة، وله في الطب تصانيف متعددة، ذكرها ابن أبي أصيبعة، وقال إن أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين أمر بجمعها ونسخها في السنة التالية لوفاة، ومن أهمها كتاب التذكرة (ويسمى أحياناً باسم كتاب النكت) وقد نشره جبريل كولان بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١ وعليه تتلمذ ابنه عبد الملك^(٢) طبيب المرابطين ثم الموحيدين إلى أن توفي سنة ٥٥٧ للهجرة ولم يكن بزمانه من يماثله في صناعة الطب واشتغل الأطباء بمصنفاته وقد بقي منها ثلاثة إلى اليوم، هي: كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد وهو في الطب الباطني، وكتاب الأغذية والأدوية وهو في الصيدلة والأدوية المفردة، وكتاب التيسير، وقد كتبه تلبية لطلب من ابن رشد، وهو في الطب العملي، وترجم إلى اللاتينية، وطبعت الترجمة في البندقية سنة ١٤٩٠ للميلاد، ويقول ألدوميلي: «يُعد عبد الملك بن زهر أعظم طبيب عربي عملي (كلينيكي) بعد الرازي». وأخذ عنه صناعة الطب ابنه أبو بكر بن زهر الوشاح والشاعر المشهور، الذي انفرد بالإمامة في الطب لزمه إلى أن توفي سنة ٥٩٥ ومراً بنا في غير هذا الموضع أن أخته - الملقبة باسم أم عمرو - كانت طبيبة ماهرة، وكانت تعالج نساء الموحيدين. واتصل الاهتمام بصناعة الطب في هذا البيت، فكان عبد الله^(٣) بن أبي بكر بن زهر طبيباً حاذقاً وخدم الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) إلى أن توفي سنة ٦٠٢ وورث صناعة الطب عنه ابنه أبو العلاء. واشتهر لأبي الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المتوفى سنة ٥٩٥ كتاب الكليات في الطب، ويعرض فيه التشريح ووظائف الأعضاء، كما يعرض الأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية والعلاج وحفظ الصحة، وقد ترجم إلى اللاتينية في منتصف القرن الثالث عشر وطبعت الترجمة سنة ١٤٨٢ وتكررت بعد ذلك طبعاته مع كتب أبي العلاء زهر، وتلقن صناعة الطب عن ابن رشد ابنه أبو محمد^(٤) عبد الله وخدم بها الناصر

(١) طبعة كوديرا بمديرد) رقم ١٧١٧ وبالنشيا ص ٤٧١ وألدوميلي ص ٣٩٧ وما بعدها وكتاب كولان عن حياته ومؤلفاته.
(٢) راجع ابن أبي أصيبعة في ترجمة أبيه ص ٥٢٩.
(٣) انظر أيضاً ابن أبي أصيبعة بعد ترجمة أبيه ص ٥٣٣.

(١) راجع أبا العلاء في التكملة رقم ٢٥٥ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ص ٢٠٣ وفيه أنه تطيب زماناً طويلاً بالمشرق وتولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان وعاد إلى الأندلس وبذ بها أهل زمانه.
(٢) انظر في عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر ابن أبي أصيبعة ص ٥١٩ والتكملة لابن الأبار

الموحدي. وتظل عناية الأندلسيين بالطب متصلة زمن بني الأحمر بغرناطة، ويؤلف ابن خاتمة المتوفى سنة ٧٧٠ رسالة في وصف وباء الطاعون الذي اجتاحت مدينة المرية سنة ٧٤٩، ٧٥٠ يصف فيها العدوى وأسبابها ومرض الطاعون وصفا طبيا. ويؤلف معاصره لسان الدين بن الخطيب في الطب كتابا في جزئين عن الأمراض والحميات والجراحة.

وكان طبيعيا أن ينشط علم الأدوية أو الصيدلة مع علم الطب إذ هما صنوان، غير أن نشاطه يتسع منذ ترجمة كتاب ديوسقوريدس في الحشائش والأدوية لعهد عبد الرحمن الناصر، على نحو ما مرّ بنا، وكان له تأثير بعيد في نهضة علم الصيدلة والأدوية بالأندلس. ومر بنا ذكر أحمد بن يونس طبيب العيون لعهد المستنصر، وكان حاذقا في صناعة الأدوية والأشربة، ويقول ابن جلجل في ترجمته إنه تولى خزانة الطب في قصر المستنصر، ورتب لها اثني عشر صيّبا صقالية طبّاخين للأشربة صانعين للمعجونات. وملتقى في عصر المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر بصيدلى يسمى عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم، إذ ذكر له ابن أبي أصيبعة^(١) كتابا يسمى كتاب الكمال والتّمام في الأدوية المسهلة والمقيّئة. وأعظم صيادلة القرن الرابع أبو داود سليمان بن حسان المعروف باسم ابن جلجل^(٢) مؤلف طبقات الأطباء والحكماء الذى يتردد ذكره في الهوامش، وأهم كتبه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، وقد فسرّها في الكتاب وأفصح عن مضمونها، وله مقالة في ذكر أدوية لم يذكرها ديوسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب، ومقالة ثانية في أدوية الترياق. وكان يعاصره حامد بن^(٣) سمّجون وله كتاب في الأدوية المفردة والعقاقير حظى بغير قليل من الشهرة. واطرد نشاط الصيدلة في عصر أمراء الطوائف، وأهم صيدلى في عصرهم ابن^(٤) وافد عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وفيه يقول صاعد: «تمهّر في علم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره، وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وله

(٣) انظر في ابن سمّجون ابن أبي أصيبعة

ص ٥٠٠ وبالنشيا ص ٤٦٧

(٤) راجع في ابن وافد طبقات الأئم لصاعد

ص ١٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٦ وبالنشيا

ص ٤٦٧.

(١) راجع ابن أبي أصيبعة ص ٤٩٣.

(٢) انظر في ابن جلجل طبقات الأئم لصاعد

وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٣ وجذوة المقتبس

للحميدى (طبع القاهرة) ص ٢٠٨ وبغية الملتبس

للضبي (طبع مدريد) ص ٢٨٥ وبالنشيا ص ٤٦٥

والدوميلي ص ٣٥٤.

نوادير محفوظة في الإبراء من العلل الصعبة بأيسر العلاج وأقربه. وقد استوطن طليطلة، ووزر فيها - حتى وفاته - لأمرها المأمون بن ذى النون. وتُسند كتب الصيدلة حينئذ كتب ألف في الفلاحة والنباتات والأشجار، من أهمها كتاب المقنع في الفلاحة لابن^(١) حجاج الإشبيلي المؤلف سنة ٤٦٧ وقد نشره مجمع اللغة العربية الأردني. وهو يفيض في بيان الزراعة والغراسة لمختلف البقول والفواكه والثمار وخاصة الزيتون مع بيان معالجة الآفات والأمراض، وعلى شاكلة هذا الكتاب في الفلاحة كتاب لأبي عبيد البكري الجغرافي المتوفى سنة ٤٨٧ وهو في نباتات الأندلس وأشجارها، وكتاب لابن بصال المتوفى سنة ٤٩٩ بعنوان: «القصص والبيان».

ونغضى إلى القرن السادس الهجري، وملتقى فيه بصيدلى كبير هو أحمد^(٢) بن محمد الغافقى المتوفى سنة ٥٥٩ للهجرة صاحب كتاب الأدوية المفردة في العقاقير والأعشاب، وسقط الكتاب من يد الزمن، غير أن ابن البيطار احتفظ في كتبه بنحو مائتي نقل عنه، وأيضاً فإن ابن العبري المتوفى سنة ٦٨٤ كان قد وضع له مختصراً ونشره جورج صبحي وماكس مايرهوف بالقاهرة. وملتقى بعده بابن^(٣) العوام أبي زكريا يحيى بن محمد صاحب كتاب الفلاحة المنشور بمديرد، وهو موسوعة تاريخية نفيسة في علم النبات، وقد عدّد منه ٥٨٥ نوعاً منها أكثر من خمسين من الأشجار المثمرة. ومن تعمقوا في دراسة النباتات في الكتب الإغريقية والعربية أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بلقبه ابن الرومية^(٤) الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٧ وقد نزل مصر في طريقه إلى الحج سنة ٦١٣ وتجوّل في الشام والعراق وعاد إلى موطنه، وله تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، ومقالة في تركيب الأدوية، وأعظم ما أهداه إلى الصيدلة تلميذه ابن البيطار^(٥) أهم صيادلة العرب أندلسيين وغير أندلسيين، وهو ضياء الدين عبدالله بن أحمد، وقد تجوّل في نواحي المغرب والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والروم، واستقر بالقاهرة وجعله السلطان الكامل

(٤) انظر في ابن الرومية بقية التكملة لابن الأبار طبع الجزائر رقم ٣٠٤ وابن أبي أصيبعة ص ٥٣٨ وبالثلثيا ص ٤٧٨ وألدوميلي ص ٤١٤.
(٥) راجع في ابن البيطار ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وفوات الوفيات لابن شاکر (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ٤٣٤/١ وبالثلثيا ص ٤٧٨ وألدوميلي ص ٤١٤.

(١) انظر ابن حجاج في المغرب ٢٥٦/١ وبالثلثيا ص ٤٦٨ ومقدمة كتابه المقنع في الفلاحة.
(٢) راجع في الغافقى ابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ وبالثلثيا ص ٤٧٢ وألدوميلي ص ٤٠١.
(٣) راجع في ابن العوام بالثلثيا ص ٤٧٥ وألدوميلي ص ٤٠١ وأعمال مؤتّر المستشرقين في استوكهلم (١٨٨٩ م) ٢/٢١٥-٢٥٧ ودائرة المعارف الإسلامية.

رئيسا على العشَّابين بمصر، وظل يرأسهم في عهد ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أن توفي بدمشق سنة ٦٤٦ ويقول ابن أبي أصيبعة عنه: أُوحد زمنه في معرفة النبات ومواضعه ونعته وماهيته. وأهم كتبه كتابان ألفهما باسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وهما: كتاب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» المطبوع ببولاق في أربعة مجلدات وهو معجم أبجدي للأدوية والأغذية يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع منها كل ما ذكره السابقون من اليونان والعرب عن الأدوية وزاد عليهم ثلاثمائة دواء لم يذكرها أحد قبله، ويذكر أسماء الأدوية باليونانية، ويضيف كثيرا أسماءها بالفارسية والبربرية والإسبانية الداريجة. والكتاب الثاني المغنى في الأدوية، وفيه يتحدث عن الأعشاب من حيث العلاج بها فقط لا من حيث التاريخ الطبيعى. وأخذت كتبه تدرس بعده في العالم الإسلامى دراسة واسعة، وقد ترجم كتاب الجامع إلى الفرنسية والألمانية، وهو بحق خاتم صيادلة العرب العظام. وربما كان أهم صيدلى فى الأندلس بعده محمد بن^(١) السراج الغرناطى المتوفى سنة ٧٢٩ للهجرة، وقد ترك موطنه إلى مراكش ووضع فى الأدوية والأعشاب كتباً كثيرة، سقطت جميعها من يد الزمن.

(ب) الفلسفة

لم نتحدث حتى الآن عن الفلسفة، وقد تأخرت العناية بها فى الأندلس، وأول شخص تضاف إليه محمد بن^(٢) عبد الله بن مسرة المولود بقرطبة سنة ٢٦٩ للهجرة، ويبدو أنه اعتنق مبكرا بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه فى عقيدته، وكأنما خشى على نفسه، فرحل فى سنة ٢٩٩ إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، واختلّف فى رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتفلسفة والمتصوفة، وعاد إلى موطنه، فاعتزل فى ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه فى عزلته، وآمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف، أما الاعتزال فقد كان يردد فيه فكرة أن القرآن مخلوق وفكرة استطاعة الإنسان وحرية فى إرادته ووجوب إنفاذ الوعيد على الله. وأما الفلسفة فكان يردد فيها بعض مبادئ المدرسة

الخامس من المقتبس لابن حيان ص ٢٠ وما بعدها
وكتاب الناصر فى التنديد بذهبه ص ٢٥ والفصل
فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم (طبع القاهرة)
١٩٨/٤ وبالنسبة ص ٣٢٦.

(١) انظر فى ابن السراج بالنسبة ص ٤٨٢.
(٢) راجع فى ابن مسرة تاريخ علماء الأندلس
لابن الفرضى (طبع القاهرة) رقم ١٢٠٢ وأخبار
الحكماء للقفطى (طبع ليبزج) ص ١٦ والجزء

الأفلاطونية الحديثة المنسوبة خطأً إلى إنباذوقليس والقائلة بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية، وأنها أول صورة للعالم العقلي المؤلف من الجواهر الخمسة. وأما التصوف فكان يردد فيه أفكار أمثال ذى النون المصرى الذى كان يتحدث عن الأحوال والمقامات وعلم الصوفية الباطن، وألّف فى ذلك كله كتابين هما التبصرة والحروف. وكان يقده فى أحاديث الشفاعة ويؤوّل آيات القرآن. وكان يسُترّ دعوته بالتقشف والورع والنسك وكان تلامذته يتناقلون آراءه سرا، ويبدو أن أتباعه أخذوا يتكاثرون بعد وفاته سنة ٣١٩ ولا نصل إلى سنة ٣٤٥ حتى نجد عبد الرحمن الناصر يأمر بأن يُتلى على الناس فى قرطبة والبلدان الأندلسية المختلفة كتاب توضّح فيه نحلّتهم وأنهم خرجوا على الجماعة بمعتقداتهم وخاصة الاعتزالية وأنهم يستحلّون دماء المسلمين مع تحريف التأويل لآى القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين، وأمر من يتولون الأحكام بتتبعهم واستتابتهم. ويعودون إلى الظهور فى عهد ابنه المستنصر لما شاع لزمّنه من التسامح الفكرى حتى إذا توفى وولى ابنه المؤيد وأصبح زمام الحكم بيد المنصور بن أبى عامر حاجبه - وكان يستشعر الحمية للدين - أمر قاضى قرطبة محمد بن يبقى بالقبض على كل من يؤمن بتعاليم ابن مسرة، فأخذ يتعقبهم وتاب على يده كثيرون منهم. وألّف ابن يبقى ضد هذه التعاليم كتابا ينقضها، وحاكاه فى ذلك الزبيدى اللغوى. ويظل لابن مسرة أتباع مستترون. ويذكر ابن حزم فى كتابه الفصل - كما مر بنا - داعيا كبيرا لتلك التعاليم كان يعاصره فى القرن الخامس الهجرى، وكان يرى أن البعث إنما يكون بالأرواح لا بالأجساد وبمجرد الموت تحاسب الروح فيما إلى الجنة وإما إلى النار، واسمه إسماعيل بن عبد الله الرعيني، وكان يقول إن العالم لا يفنى أبدا، إلى غير ذلك من آراء جعلت أتباع المذهب يبرءون منه^(١). وظلت تعاليم ابن مسرة حية فى الأندلس طويلا، إذ هيأت - من بعض الوجوه - لاعتناق بعض الأفراد مذهب الاعتزال وعناية أفراد آخرين بالتصوف إلى أن انتهى - فيما بعد - إلى ابن عربى، وأيضا عناية كثيرين بالفلسفة، وإن كانوا لم يستمروا فى اتجاهه أو بعبارة أخرى فى اتجاه المدرسة الأفلاطونية الحديثة، فقد أخذوا يتجهون إلى المدرسة المشائية وفيلسوفها الكبير أرسططاليس.

وكثر هذا الاتجاه فى عهد أمراء الطوائف، وكان قد كثر دخول الكتب الفلسفية إلى

الأندلس، وكثر معها الإقبال على الدراسات المنطقية، ويشير صاعد بن أحمد الطليلي المتوفى سنة ٤٦٢ في كتابه طبقات الأمم مرارا إلى من أكبوا على دراسة المنطق من مثل أبي الوليد القشيري الطليلي وابن الجلاب السرقسطي وابن سيده المرسى، وفيه يقول: «عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيه تأليفا كبيرا مبسوطا». وعلى الرغم مما يقال من أن عصر المرابطين كان عصر الفقهاء المحافظين نجد الدراسات المنطقية والفلسفية تنشط فيه ويشتهر بها غير منطقي ومتفلسف، ويلقانا ممن عكفوا على دراسة المنطق أبو الصلت أمية^(١) بن عبد العزيز الداني المتوفى سنة ٥٢٩ وله في المنطق كتاب تقويم الذهن المنشور بمدير مع ترجمة إسبانية. ويلقانا من المتفلسفة ابن^(٢) السيد البطليوسي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وهو عالم لغوي وله في الفلسفة رسالة مطبوعة في القاهرة بعنوان: «كتاب الحقائق في المطالب الفلسفية العويصة» وفيه يتحدث عن ترتيب الموجودات عن السبب الأول وأن صفات الله - جل شأنه - لا يصح أن يوصف بها إلا عن طريق السلب وأن نفس الإنسان الناطقة لا تبقى - بل تبقى - بعد موته. ويذكر ابن السيد في الكتاب بعض أقوال لأرسطو وزينون وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان، وقد أورد فيه لأفلاطون فقرا من محاوره تيمائوس ونقل بالثنيا عن آسين بلاسيوس أنها لا تتفق مع النص اليوناني المعروف لتلك المحاور.

وأهم من ابن السيد معاصره ابن^(٣) باجة المتوفى سنة ٥٣٣ للهجرة، وهو أول فيلسوف أندلسي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وقد انحدر من أسرة في سرقسطة شاملى الأندلس كانت تحترف الصياغة، ولا تذكر المصادر التي عنت بالترجمة له شيئا عن نشأته ودراسته، ويبدو أنه أكب مبكرا على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، كما أكب على علم الألحان والغناء، وبلغ فيه كما بلغ في الفلسفة وعلم الأوائل مبلغا عظيما. وكان شاعرا مبدعا كما كان ناثرا بليغا، مما جعل أبا بكر^(٤) بن تيفلويت حين حكم سرقسطة من قبل

القلاند ص ٣٠٠ وابن خلكان ٤٢٩/٤ ونفع الطيب (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٧/٧ والواقى بالوفيات للصفدي (طبع إستانبول) ٢٤٠/٢ والحريدة للعباد الأصبهاني (قسم شعراء المغرب والأندلس) طبع الدار التونسية ٣٣٢/٢ وبالثنيا ص ٣٣٥.

(٤) انظر ترجمته في الإحاطة ٥٠٤/١.

(١) انظر في مصادر أمية ترجمته في الفصل الرابع.

(٢) راجع في ابن السيد الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد ١٨٨٢) رقم ٦٣٩ والمغرب ٣٨٥/١ وقلاند العقبان لابن خاقان ص ١٩٣ وابن خلكان ٩٦/٣ وأزهار الرياض ٥٦/١، ١٠١/٣ وبالثنيا ص ٣٣٤.

(٣) انظر في ابن باجة القفطى ص ٤٠٦ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٥ والمغرب ١١٩/٢ والفتح في

المرابطين لأواخر سنة ٥٠٣ للهجرة يتخذه كاتباً له ووزيراً، حتى إذا توفي هذا الحاكم سنة ٥١٠ أكثر من مرثيته وتغنى بها في ألحان مبكية كما يقول ابن سعيد، ولم يطب له فيها المقام بعده، فهاجر منها إلى المرية ثم إلى غرناطة، وظل بها فترة ثم رحل عنها إلى فاس عاصمة المرابطين في المغرب، وقيل بل إلى جيان وانقطع للدرس والتأليف حتى وفاته سنة ٥٣٣. وكان من أهم ما انقطع له الفلسفة المشائية وأستاذها أرسطو وتعمقها أدق تعمق حتى ليقول ابن أبي أصيبعة: إذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا بان لك الرجحان في أقاويله، وقد عنى عناية واسعة بشرح كثير من أعمال أرسطو، فشرح كتابه السماع الطبيعي أو سمع الكيان، وجزءاً من كتابه الكون والفساد، والمقالات الأخيرة من كتابه عن الحيوان، وجزءاً من كتابه عن النبات. وشرح المنطق للفارابي والأدوية المفردة لجالينوس وأيضاً لابن وافد. وله تصانيف في الرياضيات والهندسة والفلك فاق فيها المتقدمين. وله في الفلسفة كتاب في البرهان وكتاب في النفس وكتاب في العقل الفعال إلى غير ذلك من كتب لم يبق منها إلا بعض رسائل وإلا كتابه تدبير المتوحد المنشور بمدير وفيه يتخيل مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث: لا أطباء البدن لأن أهلها لا يرتكبون أى رذيلة تسبب لهم المرض، ولا أطباء العدالة لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء، ولا أطباء النفوس لأن أهلها كاملون. ويفيض في بيان الصور الروحية والعقلية وأن غاية المتدبر اتحاد عقله بالعقل العلوى الفعال حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية، وبذلك وصل بين التأمل العقلى وبين عَوْنِ علوى، محالوا الوصل بذلك بين الفلسفة والدين، وخلفه ابن طُفَيْل وابن رشد^(١)، فبلغا بالفلسفة الإسلامية في موطنها الغاية التى ليس وراءها غاية.

وابن طُفَيْل^(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك - وقيل ابن عبد الله - القيسى، ولد سنة ٥٠٦ للهجرة في بُرْشانة من أعمال المَرِيَّة، وقيل في وادى آش من أعمال غرناطة، وقيل بل في تاجلة من أعمال جِيَّان، وقد أكبَّ على كتب الفلسفة والطب مبكراً، وخاصة كتب ابن باجة أكبر فيلسوف في زمنه، وتبعه يشرح بعض كتب أرسطو مثل كتابه الآثار العلوية، كما تبعه يؤلف في الفلسفة مثل كتاب له في النفس، واشتغل بالطب في غرناطة

وما بعدها والمغرب ٨٥/٢ وتحفة القادم (الموجز - عدد أيلول سنة ١٩٤٧) رقم ٤٣ والإحاطة ٤٧٨/٢ وبالتياص ٣٤٨ والميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل للدكتور عاطف العراقي. (طبع دارالمعارف).

(١) انظر في تلمذة ابن طفيل لابن باجة المعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٣١١ وفي تلمذة ابن رشد له ابن أبي أصيبعة في ترجمة ابن باجة ص ٥١٦.

(٢) راجع في ابن طفيل المعجب ص ٣١١

وببعض الأعمال الإدارية فيها وفي سبته وطنجة، ثم صار طبيباً لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، واتخذته مستشاراً، فجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، ومن جلبه إليه صديقه ابن رشد، وما زال يوسف حفيماً به إلى أن توفي قبله بقليل في مراكش سنة ٥٨٠، بينما توفي ابن طفيل سنة ٥٨١ وكانت له في الطب والفلك مؤلفات سقطت في يد الزمن، ويقول البطروحي أكبر علماء الفلك الأندلسيين إنه أخذ عنه قوله في الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية. وقد اشتهر في عصره إلى اليوم بقصته: حى بن طفيل، وسنخصصها بحديث مفرد في الفصل الأخير.

وابن رشد^(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد سليل أسرة فقهية قرطبية، وُلد لها في العقد الثاني من القرن السادس الهجري، وتولى مثل أبيه وجده القضاء فكان قاضياً في إشبيلية سنة ٥٦٥ وفي قرطبة سنة ٥٦٧، مما يدل على أنه أكْبُ على دراسة الفقه في بواكير حياته، وله فيه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو منشور بالقاهرة. وكان - ولا يزال - مرجعاً مهماً في الفقه وفتاويه. واهتم بعلوم الأوائل، فدرس الفلك وله فيه رسالة عن حركته وأخرى عن النجوم الثابتة، ودرس الطب وله فيه كتاب الكليات المنشور بطنوان، وترجم في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى اللاتينية وطبع في البندقية سنة ١٤٨٢ وترجم له أيضاً إلى اللاتينية شرح على أرجوزة لابن سينا في الطب طبع أيضاً في البندقية بعد كتابه الكليات بستين. وله تلخيصات لكتب جالينوس الطبية مثل: كتاب المزاج وكتاب القوى الطبيعية وكتاب العلل والأعراض وكتاب الحميات وكتاب الأدوية المفردة. وشغف بالفلسفة وعرف فيه ذلك صديقه ابن طفيل، وكانت له حظوة عند السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ - ٥٨٠ هـ) فشكا إليه قلق عبارات أرسطو في كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص، وسأله أن يقوم بذلك، فاعتذر بعلو سنه، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن

بالقاهرة) ص ٣٠٥ وما بعدها وكتاب ابن رشد والرشدية لرينان ومقالة كرادى فو عنه في دائرة المعارف الإسلامية وراجع كتاب مؤلفات ابن رشد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (طبع الجزائر) وكتابي د. عاطف العراقي عن النزعة العقلية والمنهج النقدي في فلسفة ابن رشد. (طبع دارالمعرف).

(١) راجع في ابن رشد ابن أبي أصيبعة ص ٥٣٠ والمعجب ص ٣١٤ وما بعدها وابن الأبار في كتابه التكملة رقم ٨٥٣ والوافى بالوفيات للصفدي (طبع إستانبول) ١١٤/١ وابن فرحون في الديباج المذهب ٢٥٧/٢ والمغرب ١٠٤/١ وابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة ١٥٤/٦ وابن العماد في الشذرات ٣٢٠/٤ وبالثيا ص ٣٥٣ وترات الإسلام (طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر

ينهض بهذا العمل فنهض به على خير وجه، وظل حاسدون يسعون ضده عند السلطان يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) حتى إذا انتصر في موقعة الأرك المشهورة ضد نصارى الإِسبان سنة ٥٩١ أخذته الحمى للدين فكلف طائفة من الفقهاء ببحث كتبه وهل فيها ما يخالف الدين، ورأوه يقول بقدّم العالم بالقوة موفقا بين الفلسفة والدين وأن البعث سيكون بالأجسام كما قال الدين ولكن لا بعينها ولكن بأجسام تشبهها أكثر كمالا، فاتهموه لذلك بالزندقة. وعرف السلطان خطأه في سنة ٥٩٥، فاستدعاه إلى مراكش لإعلان رضاه عنه، واسترضاه ولم يلبث كل منهما أن لبى نداء ربه.

وقد وضع ابن رشد شروحا مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو، ويقول صاحب المعجب: «رأيت له تلخيص كتب أرسطو في جزء واحد في نحو مائة وخمسين ورقة لخص فيه كتبه: سمع الكيان، والسماء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، ثم لخصها وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء» ويقول بالثبث إنه وضع شروحا مطولة لكتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعي وكتاب السماء والعالم، وكتاب النفس وكتاب ما وراء الطبيعة، ووضع شروحا متوسطة لهذه الكتب، وللمنطق وللكون والفساد والآثار العلوية، وللأخلاق وللحس والمحسوس أو الطبيعيات الصغرى، وللأجزاء التسعة الأخيرة من كتاب الحيوان. وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية والعبرية وترجمت إليها أيضا مؤلفاته الأصلية في الفلسفة وفي مقدمتها تهافت التهافت الذي يرد فيه على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة مدافعا بحرارة عن الفلسفة وأرسططاليس. وله شروح على كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، وتُرجم إلى اللاتينية أيضا كتاباه: «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة» و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ومن قوله فيه: «الحكمة (أى الفلسفة) صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتان بالجواهر والغريزة، ويقرر ما قاله صديقه ابن طفيل في قصة حى بن يقظان من أن الفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة.

وكان يذهب إلى أن عقول الأفلاك تصدر عن الله، وكل فلك أو كل عقل يحدث الحركة فيما دونه إلى أن نصل إلى العقل الفعال، وفي كل إنسان قيس منه، وإذا ازداد اتصاله به ساء إلى حالة الكشف الصوفى. وأدته محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة إلى التأويل في النصوص الدينية حتى يتاح للإنسان فهم الحقائق العليا. وحاول أن يوفق بين

رأى أرسطو والفلاسفة المشائين بأن العالم قديم ورأى الغزالي وعامة المتكلمين بأنه محدث، فقال إن قدمه إنما هو بالقوة لا بالفعل، ثم وُجد وتشكّل فهو قديم ومحدث، وكذلك المادة قديمة ومحدثة. وقال إن الله يعقل الأشياء في ذاته لا كما نعقلها نحن على وجه كلي أو جزئي، إذ هو علة الموجودات جميعا والمحرك لها من القوة إلى الفعل.

ومنذ أخذ مترجمو ابن رشد إلى اللاتينية: جيرار الكريموني (١١٨٧ م) وميشيل سكوت الإنجليزي (١٢٣٥ م) وهرمان الألماني (١٢٧٢ م) يذيعون أعماله أخذت تُدرّس في الجامعات الأوروبية بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا بينما كانت الكنيسة تقاومها وخاصة رهبان الدومينيكان، وصبت الكنيسة لعناتها على سيجر البرابانتى الأستاذ بجامعة باريس وطرده من رحابها في سنة ١٢٦٦ إذ عدته زنديقا رشديا، وعلى الرغم من أن الراهب الدومينيكانى الألمانى ألبرت الكبير وتلميذه الراهب توماس الأكوينى هاجما بعض الآراء والتعاليم المنسوبة إليه خطأ فقد انتفعا أكبر انتفاع بأدلته وبراهينه في التوفيق بين الفلسفة أو العقل وبين الدين، حتى ليسيّران معه في طريق واحدة متبعين خطاه فيها قرر من وحدانية الله لوحدة العالم وتنزيهه عن كل نقیصة. وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس في الغرب منذ القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أن مجمع لاتران البابوى قرّر سنة ١٥٠٢ لَعَنَ كل من ينظر في فلسفة ابن رشد ظل له أنصار كثيرون وظل يدرس في الجامعات الغربية حتى العصر الحديث. ومما لا ريب فيه أنه كان لفلسفته وأفكاره أثر بعيد في قيام حركة التحرر والإصلاح الدينى في النهضة الأوروبية، ويقول بالنتيـا إن تأثير ابن رشد في تاريخ الفكر الأوروبى كان حاسما، وهو تأثير يحتاج بيانه إلى مجلدات طوال وهو يُعدّ - بحق - خاتمة الفلاسفة والمفكرين العظام في الأندلس.

(جـ) علم الجغرافيا

تابع الأندلسيون المشاركة في الاهتمام بعلم الجغرافيا لمعرفة مسالك العالم وممالكه مما أتاح لهم جغرافيون يصفون جزيرتهم، وقد يصفون معها المغرب والعالم العربى والإسلامى، وقد يصفون أنحاء من أوروبا الغربية والشرقية، وأضافوا إلى ذلك وصف رحلات لهم كثيرة. والعرب بطبيعتهم رحالة، وبدأوا ذلك في جاهليتهم حين كانوا يكثرّون من الرحلة وراء الكلاّ ومساقط الغيث ولغرض الحج، وجعل الإسلام الحج جزءا لا يتجزأ من عبادتهم ومَنسكهم، ثم كانت فتوحهم الإسلامية وهجراتهم الطويلة شرقا

إلى أواسط آسيا وغربا إلى الأندلس والمحيط الأطلسي، فكان طبيعيا أن يولعوا بالرحلات والأسفار والتعرف على البلدان القريبة والبعيدة والمسالك المؤدية إليها. وطبيعي لذلك أن يكون لكل بلد عربي جغرافيوه ورحالته، وأن تشارك الأندلس في ذلك بحظ أو حظوظ، وأول جغرافي مهم نلتقى به فيها أحمد^(١) بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة، وهو مؤرخ وجغرافي، ولم يبق من أعماله سوى قطعة في جغرافية الأندلس احتفظت بها ترجمات إسبانية وبرتغالية، ويظن أنها كانت مقدمة لكتابه: «أخبار ملوك الأندلس» وهو فيها يتحدث عن موقع الأندلس وهيئتها ومناخها في قسميها الغربي والشرقي وأنهارها وجبالها وكورها ومدنها وإنشائها وحدودها وحصونها. وقد استشهد ابن حيان في كتابه - وكذلك ابن سعيد في كتاب المغرب - بفقرات من هذه المقدمة الجغرافية. ويبرز من الجغرافيين بعده أبو^(٢) عبد الله محمد بن يوسف التاريخي القيرواني نزيل الأندلس في عصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) المتوفى سنة ٣٦٣ وله كتاب عن مسالك إفريقية وممالكها انتفع به أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك. ويلقانا في عصر أمراء الطوائف أحمد^(٣) بن عمر بن أنس العذري الدلائلي المريّ المتوفى سنة ٤٧٦ وله كتاب نظام المرجان في المسالك والممالك وفيه يعرض كُور الأندلس وأجزاءها والطرق السالكة إليها، وبه انتفع أيضا أبو عبيد البكري^(٤)، وهو عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة، كان أباه أمراء ولّية وشلطيش بعد سقوط الخلافة، وأخذها منهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، ونشأ أبو عبيد بقرطبة وتلمذ على ابن حيان المؤرخ المشهور، وبعد وفاته سنة ٤٦٩ نزل المريّة، وأرسله ابن صُباح صاحبها في رسالة إلى المعتمد بإشبيلية، فأثر المقام عنده، حتى إذا خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هاجر إلى قرطبة وبها توفي. وله في الجغرافية كتابان: المسالك والممالك، والقسم الخاص بالمغرب منه

(٤) راجع في أبي عبيد البكري الذخيرة لابن بسام، المجلد الأول من القسم الثاني (تحقيق د. إحسان عباس) ص ٢٣٢ والقلائد للفتح بن خاقان (طبع بولاق) ص ١٩١ والصلة لابن بشكوال ص ٢٨٢ وابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ والمغرب ١/٣٤٧ والحلة السيرة (طبع القاهرة ١٨٠/٢) ومؤنس ص ١٠٨ وما بعدها وتاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ص ٣٠٩ وما بعدها والدوميلي ص ٣٦٠.

(١) انظر في الرزي جذوة المقتبس للحميدي (طبع القاهرة) ص ٩٧ وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم ١٣٥ وكتاب الجغرافية والجغرافيين في الأندلس لحسين مؤنس (طبع مدريد) ص ٥٦.
(٢) راجع في أبي عبد الله التاريخي الحميدي رقم ٩٠ وبقية الملتبس للضبي رقم ٩٠ والتكملة لابن الأبار رقم ٣٤٤ ومؤنس ص ٧٣.
(٣) انظر في الدلائلي الحميدي رقم ٢٣٦ والضبي رقم ٤٤٦ ومؤنس ص ٨١.

مطبوع، والكتاب الثانى معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع فى جزيرة العرب، طبعه وستنفلد قديما، ثم طبعه الأستاذ مصطفى السقا طبعة علمية محققة فى أربع مجلدات ضخمة بالقاهرة، ويقول أبو عبيد فى مقدمته: «هذا كتاب ذكرت فيه جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محدّدة ومبوّبة على حروف المعجم مقيدة» واستهله بوصف الجزيرة العربية وحدودها الجغرافية وأقسامها: الحجاز وتهامة ونجد واليمن مع بيان مفصل عن قبائلها وما يتصل بها من التنقّلات والوقائع والأيام.

ونلتقى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى بجغرافى يسمى محمد^(١) بن أبى بكر الزهرى عاش فى المرية أو غرناطة، وله كتاب جغرافى فى وصف ما سواه «الخارطة المأمونية للعالم» وفيه يتحدّث عن أقاليم الأرض السبعة وطبيعتها وسكانها ويعنى بالأندلس ووصف مدنها. وقد نشرت منه مقتطفات عن الأندلس ومراكش وصقلية، ويكتظ بالعجائب والغرائب حتى ليتمكن أن يوصف بأنه جغرافيا شعبية.

وتلقانا فى الأندلس كتابات جغرافية عند بعض المؤرخين يضعونها فى مقدمات كتبهم عن تاريخ الأندلس أو عن رجالها مثل مقدمة كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس لابن غالب^(٢) من مؤرخى القرن السادس الهجرى وهى تعرض كور الأندلس وما تضمه من مدن وحصون وقرى ومسالك وما تشتهر به من صناعة وزراعة مع تفصيل القول عن قرطبة ومسجدها الجامع ومقصورتها ومحاربه ومنبره ومع بيان الجبال فى الأندلس والأنهار. ولابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٢ مقدمة جغرافية نفيسة للقسم الأندلسى من كتابه المغرب، سقطت أوراقها منه، غير أن المقرئ احتفظ بها فى النفخ، وله فى الجغرافيا كتاب يحمل سواه «كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض»، ويقول الدكتور حسين مؤنس: «يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقعة على أطوالها وعروضها فى دقة^(٣)» والأرض عنده تسعة أقاليم مقسمة إلى عشرة أجزاء تبتدىء من جزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى، وتنتهى بجزائر السّيلي أى اليابان.

المجلد الأول فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وانظر كتاب د. مؤنس ص ٤٥٢ وما بعدها.
(٣) انظر د. مؤنس ص ٥٠١ وكتاب بسط الأرض لابن سعيد نشر بتطوان.

(١) انظر فى الزهرى د. مؤنس فى كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٣٥٨ وما بعدها.

(٢) راجع فى ابن غالب ومقدمته تحقيق الدكتور لطفى عبدالبديع لها وقد نشرها فى الجزء الثامن من

وللسان الدين بن الخطيب مقدمات جغرافية في وصف غرناطة لكتابه: الإحاطة في تاريخ غرناطة واللمحة البدرية في الدولة النصرية. وحرى بنا أن نذكر محمد^(١) بن عبد المنعم الحميري المتوفى سنة ٩٠٠ للهجرة وكتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، وهو معجم جغرافي نشر منه بالقاهرة المادة الخاصة بالأندلس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

كان طبيعياً أن تعنى الأندلس مبكرة بقيام مؤبدين على تعليم الناشئة الفصحى وقواعدها وتحفيظها القرآن الكريم أو سوراً منه وبعض الأحاديث النبوية، وبالمثل تعليم من دخلوا في الدين الحنيف من الإسبان وأبنائهم حتى يستطيعوا جميعاً النطق بالفصحى وبعض آيات القرآن الكريم في صلاتهم. وملتقى في القرنين الثاني والثالث للهجرة بكثير من هؤلاء المؤبدين، وهم يعدون بالعشرات في كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ومن أوائلهم الغازي^(٢) بن قيس المؤدب بقرطبة حين دخلها عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية هناك سنة ١٣٨ للهجرة وتوفي الغازي سنة ١٩٩ ونراه يرحل إلى المشرق، ويلتقى بالأصمعي ونظرائه في اللغة بالبصرة ويأخذ عن مالك الموطأ في الفقه، وهو إشارة واضحة إلى أن المؤبدين بالأندلس في القرن الثاني والثالث للهجرة كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة لغوية ودينية واسعة، وكانوا يرحلون للقاء أئمة اللغة والدين في القراءات والفقه والحديث النبوي. وعلى شاكلته في الرحلة والأخذ عن الأصمعي ومالك وغيرها من الأئمة معاصره أبو موسى^(٣) الهواري، وله كتاب في القراءات وكتاب ثان في التفسير. ومن معاصريها جودي الراحل إلى المشرق المتوفى سنة ١٩٨ وهو تلميذ الكسائي إمام النحو الكوفي وأول من أدخل كتابه إلى قرطبة، وله تأليف في النحو، وكان يعاصره محمد^(٤) بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضي الراحل بدوره إلى المشرق.

أبي الفضل إبراهيم (طبع ونشر الخانجي)
ص ٢٧٦.

(٣) انظر في الهواري الزبيدي ص ٢٧٥.

(٤) راجع الزبيدي ص ٣٠٦.

(١) راجع في الحميري كراتشكوفسكي ص ٢٩٥
وبالنسبة ص ٣١١ ود. مؤنس ص ٥٢٩.

(٢) انظر في الغازي كتاب طبقات النحويين
واللغويين للزبيدي بتحقيق الأستاذ محمد

ويذكر الزبيدي في طبقاته عشرات من لغويي الأندلس في القرن الثالث الهجري، منهم عثان^(١) بن المثنى القيسي تلميذ ابن الأعرابي، لقي أبا تمام وأخذ عنه ديوانه وأقرأه بقرطبة، ومنهم الرشاش سعيد^(٢) بن الفرّج وكان من أقوم العلماء في زمانه على لسان العرب وأحفظهم للغة وأعلمهم بالشعر وكان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، ومنهم محمد بن عبدالله حفيد الغازي السالف ذكره، تتلمذ للغويي العراق من أمثال الرياشي وأبي حاتم وجلب إلى الأندلس علما كثيرا من اللغة والعربية، وعنه روى الأندلسيون الأشعار المشروحات كلها، ومنهم ثابت^(٣) بن عبد العزيز وابنه قاسم وهما أول من أدخل معجم العين المنسوب إلى الخليل بالأندلس، وأدخله بعدهما القاضي منذر بن سعيد بسماحه من أبي العباس بن ولاد المصري المتوفى سنة ٣٣٢ ويبدو أنه كانت قد وصلت إلى الأندلس نسخ مختلفة من هذا المعجم مما جعل الحكم المستنصر يكلف أربعة من العلماء اللغويين بمقارنة هذه النسخ من العين بعضها على بعض لاستخلاص نسخة دقيقة الضبط^(٤).

وينزل قرطبة أبو علي^(٥) القالي اللغوي الكبير سنة ٣٣٠ لعهد عبد الرحمن الناصر، فيكون نزوله فيها فاتحة عهد لغوي عظيم، ويستقبله الناصر استقبالا كريما، ويوالى هو وابنه الحكم رعايته وإغداق المال عليه، ونشط في التأليف والتدريس بقرطبة وضاحيتها الزهراء حتى وفاته سنة ٣٥٦ وكان مما أملاه على الطلاب من مؤلفاته كتابه «الأمالي» وهو مجلدان من مختارات شعرية ونثرية مع شرح ما جاء فيها من الغريب، وأتبع هذا الكتاب بكتاب على شاكلته سماه «ذيل الأمالي والنوادر» وأملى أيضا من تأليفه كتابه المقصور والممدود والمهموز وكتبا في الأمثال سوى مؤلفات أخرى، وأهم من ذلك شروحه للمعلقات وروايته هناك للمفضليات والنقائض وشعر الهذليين وإدخاله دواوين النابغة الذبياني وعلقمة والأعشى والحطيئة والشاخ والنابغة الجعدي وأوس بن حجر والقطامي

إبراهيم) ٢٦٢/١.

(٤) الحميدي ص ٤٧.

(٥) راجع في القالي الزبيدي ص ٢٠٢ وابن

الفرضي ٨٣/١ والقفطي ٢٠٤/١ وبغية الملتبس

٢١٦ ومعجم الأدباء ٢٥/٧ والأنساب للسمعاني

٤٣٧ ب وابن خلكان ٢٢٦/١ والحميدي في الجذوة

١٥٤ وفهرسة ابن خير ص ٣٩٥ وفي مواضع

مختلفة وشذرات الذهب ١٨/٣.

(١) انظر في ابن المثنى الزبيدي ص ٢٨٨ وابن

الفرضي ٨٨/١ والمغرب ١١٢/١.

(٢) راجع في الرشاش الزبيدي ص ٢٨٤ وابن

الفرضي ص ١٤١ والحميدي ص ٢١١ والمغرب

١١٤/١.

(٣) انظر في ثابت وابنه قاسم الزبيدي ص ٣٠٩

وابن الفرضي ٨٨/١ وبغية الملتبس للضبي ٢٣٨

وإنباه الرواة للقفطي (تحقيق محمد أبي الفضل

والأخطل وذى الرمة إلى غير ذلك من دواوين الجاهليين والإسلاميين سوى معجمه «البارع» وإن لم يتمه. وهو بذلك كله دفع الأندلس إلى حركة لغوية خصبة، وكانت قد بدأت هذه الحركة وأخذت في النمو أثناء القرن الرابع الهجري على نحو ما يشهد بذلك ابن القوطية محمد بن عمر المتوفى سنة ٣٦٧ وقد امتدحه القالى في اللغة، ومن مؤلفاته فيها كتاب تصارييف الأفعال طبعه جويدى فى ليدن باسم كتاب الأفعال وتصارييفها ويقول ابن خلكان هو الذى فتح للعلماء الكتابة فى هذا الموضوع، وله كتاب فى المقصور والممدود يقول ابن خلكان جمع فيه ما لا يحصى ولا يوصف، وفاق من تقدمه. وأهم من ابن القوطية فى القرن الرابع الزبيدى^(١) محمد بن الحسن تلميذ القالى المتوفى سنة ٣٧٩ وفيه يقول ابن خلكان: «كان واحد عصره فى حفظ اللغة وعلم النحو وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر ولم يكن بالأندلس فى فنه مثله فى زمانه» واختاره الحكم المستنصر لتأديب ابنه وولى عهده المؤيد، وولاه القضاء، وولاه المؤيد الشرطة، ونال فى عهدهما دنيا عريضة، وفى مقدمة كتبه اللغوية مختصر معجم العين للخليل ويشهد له القدماء بأنه يفضل أصله لحذفه منه الأبنية المصحفة والمختلة وزيادته فيه كثيراً من المواد التى يفتقر إليها المعجم مع استدراكه الأخطاء الواقعة فيه، وقد ذهب إلى أن هذا المعجم ليس من صنع الخليل، لما فيه من رواية عن أناس متأخرين عن الخليل بحيث لا يمكن أن يروى عنهم، ولأن جميع ما فيه من مسائل النحو إنما هو على مذهب الكوفيين والخليل نحوى بصرى، بل هو إمام المدرسة النحوية البصرية. وله فى لحن العوام من أهل الأندلس مصنف طريف نشره الدكتور رمضان عبدالنواب، وهو لا يقصد بالعوام الدهماء من الناس وإنما عوام المثقفين، وما يجرى فى ألسنتهم من أخطاء. ومن لغوى القرن الرابع السرقسطى^(٢) سعيد المعافى المتوفى بعد سنة ٤٠٠ للهجرة، وهو تلميذ أبى بكر ابن القوطية، وقد روى عنه كتابه الأفعال، ورأى أن يبسطه فى كتاب مطول ويزيد فيه بنفس اسميه وقد نشره مجمع اللغة العربية فى أربعة مجلدات. ومن تلاميذ الزبيدى ابن الإفليل^(٣) إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٤٤١ روى عن أستاذه كتاب الأمالى للقالى، وله

(٢) راجع فى السرقسطى الصلة رقم ٤٧٤ ومقدمة نشرة كتابه الأفعال.

(٣) انظر فى ابن الإفليل الذخيرة لابن بسام (طبعة إحسان عباس) ٢٨١/١ والصلة ٩٤ والإنباه ١٨٣/١ ومعجم الأدباء ٤/٢ وابن خلكان ٥١/١.

(١) انظر فى الزبيدى ابن الفرضى ٩٢/٢ والحמידى ٤٣ والمغرب ٢٥٥/١ وبغية الملتبس رقم ٨٠ وإنباه الرواة ١٠٩/٣ ومعجم الأدباء ١٨٠/١٨ وابن خلكان ٣٧٢/٤. وكتابه طبقات النحويين واللغويين من مراجعنا فى الهوامش.

شرح جيد على ديوان المتنبي. ومن لغوي القرن الخامس ابن سيده^(١) على بن إسماعيل الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ وفي المغرب لابن سعيد: «لا يُعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تأليفا، تفخر مدينة مرسية به أعظم فخر» وله معجمان ضخمان: المحكم وهو على شاكلة كتاب العين مرتب حسب مخارج الحروف، والمعجم الثاني المخصص وهو موزع على الموضوعات والمعاني في سبعة عشر مجلدا، ويذكر في مقدمته مصادره، وهي تتوالى بالعشرات، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يبق في اللغة كتاب لعالم لغوي قبله إلا اطلع عليه، وقد تنبه ابن سيده في هذا المعجم بوضوح إلى القرابة اللغوية بين بعض اللغات السامية وبين العربية، إذ يقول: «كنعان بن سام بن نوح، إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع (تشابه) العربية».^(٢) وهو ما قرره علماء اللغات السامية حديثا من أن الكنعانية تعد إحدى اللغات السامية المتفرعة - مثل العربية - من أم واحدة. ونجد ابن حزم معاصره يتنبه بقوة إلى أن السريانية والعبرية والعربية بينها جميعا لحمة قرابة وثيقة كقرابة اللهجات في لغة واحدة، يقول في كتابه الأحكام في أصول الأحكام: «إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة - لا لغة حمير - هي لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي.. وهكذا في كثير من البلاد، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله.. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل».^(٣) وواضح أن ابن حزم يرى أن العربية والعبرانية والسريانية كانت جميعا لغة واحدة، ويتفرق أهلها وهجرتهم من الجزيرة شالا وغربا أخذت تحدث عند كل قوم تغيرات أعدت لحدوث لغاتهم، وهو نفس ما يقرره علماء اللغات السامية حديثا، وكأن ابن حزم وابن سيده وأمثالهما من الأندلسيين هم الذين نبهوا الأوربيين - بذلك - إلى علم فقه اللغات السامية وما يطوى فيه من مناهج لغوية علمية مقارنة. وبذلك كانوا المكتشفين لفقه

٣/٣٠٥ والديباج المذهب ٢٠٤ والمغرب ٢/٢٥٩.

(٢) انظر المخصص لابن سيده ١٦٧/١٣.

(٣) راجع الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم

(طبع القاهرة) ١/٣٠.

(١) راجع في ابن سيده الحميدى وبغية الملتبس

رقم ٢٠٥ والمطلع ٦٠ والصلة ص ٤١٠ ومعجم

الأدباء ٢٣١/١٢ وابن خلكان ٣/٣٣٠ والإنباه

٢/٢٢٥ ونكت الهميان ٢٠٤ وشذرات الذهب

اللغات المقارن بين اللغات السامية التي ترجع إلى أم أو لغة واحدة. وقد مضى الأوروبيون يطبقونه على مجموعات اللغات اللاتينية والسكسونية وغيرها من الأسر اللغوية، شأنهم في ذلك نفس شأنهم الذي مر بنا في قيام علومهم وفلسفاتهم الحديثة على أساس الفلسفات والعلوم الأندلسية. وكان يعاصر العلمين الأندلسيين السابقين: ابن حزم وابن سيده الأعلام الشنتمرى^(١) يوسف بن سليمان المتوفى سنة ٤٧٦ شارح الدواوين الستة لأعلام الشعر الجاهلي: امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، وهو يحتفظ في شرحه لتلك الدواوين برواية الأصمعي، وبعد أن ينتهي منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وعلى هداه كتب أبو بكر عاصم^(٢) بن أيوب البطلوسى المتوفى سنة ٤٩٤ شرحاً لنفس الشعراء الستة المذكورين، وكان يعاصره أبو عبيد البكرى المذكور بين الجغرافيين، وله كتاب اللآلئ في شرح أمالي القالى نشره عبد العزيز اليمنى بالقاهرة، وكتاب فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام نشره إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بالخرطوم. ومن لغويى الأندلس المهمين ابن السيد^(٣) البطلوسى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وله الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة وشرح سقط الزند لأبي العلاء وهو منشور مع مجموعة شروح السقط طبع دار الكتب المصرية وأيضاً شرح على مختارات من لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء نشره بالقاهرة الدكتور حامد عبد المجيد، وكان يعاصره الأشركونى أبو الطاهر محمد بن يوسف المتوفى سنة ٥٣٨ وله كتاب المسلسل في الألفاظ العربية وهو منشور بالقاهرة، ويلقانا في أوائل القرن السابع الشريشى أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ وشرحه لمقامات الحريرى منشور بمصر.

ونشاط الأندلس في النحو لا يقل عن نشاطها في اللغة إن لم يتفوق عليه إذ كان المؤدبون في القرنين الثانى والثالث للهجرة كما يعلمون الناشئة اللغة كانوا يعلمونها العربية أو النحو، ومراً بنا أن جوديا المتوفى سنة ١٩٨ أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائى، وله تأليف في النحو، وروى أن للفقيه عبد الملك بن حبيب السلمى المتوفى سنة ٢٣٨ كتاباً في إعراب القرآن، وملتقى في أواخر القرن الثالث الهجرى بالأقشنتين^(٤)

(٣) انظر مصادره في ص ٨٤ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٩٤.
(٤) انظر في الأقشنتين الزبيدى ص ٣٠٥ وابن الفرضى ٣٢٩/١ والإنباه ٢١٦/٣.

(١) انظر في الشنتمرى الصلة رقم ١٣٩١ والمطمح ٦٤ وابن خلكان ٨١/٧ ومعجم الأدباء ٦٠/٢٠ ونكت الهميان ٣١٣ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٣.

(٢) راجع في عاصم الصلة رقم ٩٦٦.

محمد بن موسى المتوفى سنة ٣٠٧ وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها بالفسطاط عن أبي جعفر الدينورى كتاب سيبويه، وكان يدرس في قرطبة لطلابه. وولتقى بعده بمحمد^(١) بن يحيى الرباحى المتوفى سنة ٣٥٨ تلميذ أبي جعفر النحاس بالفسطاط، وعليه درس كتاب سيبويه، وحذق مسائله ومشاكله وعاد إلى قرطبة يدرسه لطلابه، وهو يفتح في الأندلس دراسة كتاب سيبويه والنحو دراسة تستوفى دقائق العربية وغوامضها والتعليل لمسائلها كما يقول الزبيدى، وهو أستاذه في النحو وعليه درسه وتمثله وألف فيه كتابه الواضح الذى نشره بالأردن الدكتور عبد الكريم خليفة. وكان ابن الإفيلى المار ذكره بين اللغويين يقرئ تلاميذه - مع ما يهتم به من شرح الشعر - كتاب سيبويه رواية عن العاصمى عن الرباحى. ولابن سيده الذى تحدثنا عنه أنفا بين اللغويين شرح مشكل أبيات المتنبي، وبنوه فى مقدمة معجميه: المخصص والمحكم بأنه أودع فيها مواد نحوية كثيرة من كتابات النحاة، ويذكر من بينهم خاصة أبا على الفارسي وابن جنى، مما يدل على أن نحاة الأندلس أخذوا يتعمقون - بجانب تعمقهم فى نحو المدرستين البصرية والكوفية - فى نحو المدرسة البغدادية وينهجون نهجها من المزج بين آراء المدارس النحوية المختلفة. ومن النحاة الشنتمرى الذى عرضنا له بين اللغويين ويقول ابن مضاء إنه كان شغوفا بعلم النحو المعقدة، وقد روى كتاب سيبويه عن ابن الإفيلى وأقرأه لطلابه مذلا لهم صعابه ومشاكله، وتوفر الأندلسيون - بفضل نسخة الرباحى من كتاب سيبويه التى ذكرناها آنفا - على الكتاب يدرسونه ويفسرون غوامضه واشتهروا بذلك شهرة جعلت الزمخشري يرحل فى شبابه من خوارزم إلى مكة لقراءة الكتاب على نحوى أندلسى كان مجاورا بها هو عبدالله^(٢) بن طلحة المتوفى سنة ٥١٨. ولتلقى باين السيد البطلبوسى المار ذكره بين اللغويين، وكان يعنى بشرح كتاب الجمل للزجاجى، وله كتاب فى النحو سباه المسائل والأجوبة، وهو فى آرائه النحوية بغدادى الاتجاه، يختارها أحيانا من المدارس النحوية السابقة وأحيانا ينفذ إلى آراء جديدة، ومثله فى ذلك معاصره ابن^(٣) البادش

تاريخ البلد الأمين للفاسى (طبع القاهرة ١٨٢/٥).

(٣) راجع فى ابن البادش بغية الملتبس ص ٤٠٦ والإنباه ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى ٥١٨/١ والديباج المذهب ١٠٧/٢ وكتابتنا المدارس النحوية ص ٢٩٥ والإحاطة ١٠٠/٤.

(١) راجع فى الرباحى الزبيدى ص ٣٣٥ وابن الفرضى ٣١٤/١ والإنباه ٢٢٩/٣ وابن خلكان ٣٧٢/٤.

(٢) انظر فى ابن طلحة تفسير البحر المحيط لأبى حيان ٣٧٢/٤ وبغية الوعاة للسيوطى ص ٢٨٤ وانظر التكملة رقم ١٣٣٠ والعقد الثمين فى

على بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٨ وله شروح على كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد والأصول لابن السراج والإيضاح لأبي على الفارسي، وعلى شاكلته وشاكلة صاحبه ابن الطراوة^(١) سليمان بن محمد معاصرها المتوفى سنة ٥٢٨.

ويسود هذا الاتجاه في النحو الأندلسي من انتخاب أفذاذ النحاة لآرائهم من آراء نحاة المدارس المختلفة مع النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة على نحو ما نرى عند السهيلي^(٢) عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١ في كتابه «تنتائج الفكر» وكان يشغف بمحاولة الإكثار من العلل النحوية كما يقول ابن مضاء، وعلى شاكلته عيسى^(٣) الجزولي المتوفى سنة ٦٠٧ وله مقدمة في النحو وحواش على كتاب الجمل للزجاجي، ومثله ابن خروف^(٤) على بن يوسف المتوفى سنة ٦١٠ ويشتهر بشرح له على سيبويه وشرح ثان على كتاب الجمل للزجاجي، وحرى بنا أن نذكر ابن مضاء أحمد^(٥) بن عبد الرحمن القرطبي قاضي قضاة دولة الموحدين المتوفى سنة ٥٩٢ وهو صاحب كتاب الرد على النحاة الذي نشرته مع تحليل لآرائه التي هاجم فيها نظرية العامل عند النحاة وما انطوى فيها من تعليقات وتقديرات، ومع محاولة لوضع أسس في تيسير النحو وتبسيطه للناشئة على هدى آرائه. ومن أهم نحاة القرن السابع الأندلسيين الشلوبين^(٦) عمر بن محمد المتوفى سنة ٦٤٥ وله شرح على مقدمة الجزولي المسماة بالجزولية وكتاب في النحو سماه التوطئة، وكان يعاصره ابن عصفور^(٧) على بن مؤمن المتوفى سنة ٦٦٣ حامل لواء العربية في زمنه بالأندلس، وله الممتع في التصريف والمقرب في النحو وهما منشوران،

المدارس النحوية ص ٣٠١.

(٥) انظر في ابن مضاء بقية التكملة رقم ٢٣٤ وبقية الملتبس ص ١٩٢ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٠٨/١ والمدخل لتحقيقنا كتابه الرد على النحاة.

(٦) راجع في الشلوبين التكملة ص ٦٥٨ والمغرب ١٢٩/٢ والإنباه ٣٣٢/٢ وابن فرحون في الديباج ٧٨/٢ وابن خلكان ٤٥١/٣ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٢.

(٧) انظر في ابن عصفور بقية الوعاة للسيوطي ص ٣٥٧ وعرضنا لآرائه في كتاب المدارس النحوية ص ٣٠٦.

(١) انظر في ابن الطراوة بقية الملتبس ص ٢٩٠ والتكملة لابن الأبار ص ٧٠٤ والمغرب ٢٠٨/٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٦.

(٢) راجع في السهيلي بقية الملتبس ص ٣٥٤ والإنباه ١٦٢/٢ وطبقات القراء ٣٧١/١ وابن خلكان ص ١٤٣ والمدارس النحوية ص ٢٩٩. (٣) انظر في الجزولي الإنباه ٣٧٨/٢ وابن خلكان ٤٨٨/٣ والمدارس النحوية ص ٣٠٠.

(٤) راجع في ابن خروف التكملة ص ٦٧٦ ومعجم الأدباء ٧٥/١٥ وابن خلكان ٣٣٥/٣ والذيل والتكملة للمراكشي ٣١٩/٥ والفوات ١٦٠/٢ وصلة الصلة (طبع الرباط) ١٢٢ وكتابنا

وكانت له ثلاثة شروح على كتاب الجمل للزجاجي. وولتقى بعده بابن^(١) مالك محمد بن عبد الله إمام النحاة المتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وهو صاحب الألفية المشهورة في النحو وله مصنفات نحوية كثيرة منها التسهيل وشرحه وشرح الكافية لابن الحاجب المصري وشرح الجزولية وإعراب مشكل صحيح البخارى سوى مصنفات أخرى في النحو تبلغ نحو الثلاثين، وكان يعاصره ابن الضائع^(٢) على بن محمد المتوفى سنة ٦٨٠ وله شروح مختلفة على كتاب سيبويه والإيضاح لأبي على الفارسي والجمل للزجاجي، وخاتمة أئمة النحو في الأندلس أبو حيان^(٣) محمد بن يوسف تلميذ ابن الضائع المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ وعلى يديه تخرج جيل من النحاة المصريين وله شروح على كتاب سيبويه وكتابي ابن عصفور: المقرب والمتع وألفية ابن مالك وكتابه التسهيل، وله أيضا في النحو كتاب ارتشاف الضرب أى غسل النحل في ستة مجلدات، وصنع له مختصراً في مجلدين، ويقول السيوطى في البغية: «لم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف بين النحاة».

وبجانب علوم النحو واللغة عُنت الأندلس بالبلاغة العربية، وظلت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى تعتمد في ذلك على رواية النصوص الأدبية للناشئة والتعرف على كتابات المشاركة في البيان العربى، واستطاع المؤدبون في أثناء ذلك أن يدفعوا الناشئة للإكباب على الأدب الجاهلى والإسلامى والعباسى بفرعيه من الشعر والنثر حتى استقامت لهم ألسنتهم وحتى تمثل كثيرون خصائص البيان العربى، وأصبحوا شعراء وكتابا نابهين. ويبدو - بوضوح - أنهم ظلوا يكتفون بكتابات الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز وأضربهم من أصحاب الاتجاه العربى في البلاغة وبذلك ظلوا - آمادا - بعيدين عن مناحى الاتجاه البلاغى المجدد الغالى في التجديد^(٤) والذي كان يتخذ من البلاغة اليونانية - كما يمثلها كتابا الخطابة والشعر لأرسطو - معايير للبلاغة العربية.

(٣) راجع في أبى حيان طبقات الشافعية للسبكي ٣١/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢ والإحاطة ٤٣/٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٠٢/٤ وفوات الوفيات ٣٥٢/٢ ونكت الهميان ص ٢٨٢ وبغية الوعاة ص ١٢١ والشذرات ١٤٥/٦ والمدارس النحوية ص ٣٢٠ وما بعدها.

(٤) انظر في هذا الاتجاه وسابقه كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ طبع دار المعارف ص ٦٢-٦٦.

(١) راجع في ابن مالك طبقات الشافعية لسبكي ٢٨/٥، ٢٥٧ وفوات الوفيات ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى ١٨٠/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٧ وبغية الوعاة ص ٥٣ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥ وفي كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وما بعدها عرض لأرائه النحوية.

(٢) انظر في ابن الضائع الإحاطة ١٢٠/٤ وبغية الوعاة ص ٣٥٤ والمدارس النحوية ص ٣١٨.

ويلقانا في مطالع القرن الخامس الهجرى كتابان عن التشبيه أحدهما سقط من يد الزمن واسمه «الفوائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية» لعل^(١) بن محمد بن أبي الحسين المتوفى قريبا من سنة ٤٣٠ ويدل اسمه على أنه كان مختارات من التشبيهات لشعراء الأندلس، والثانى على شاكلته، واسمه «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لابن الكتانى^(٢) أبى عبد الله محمد المتطبب المتوفى سنة ٤٢٠ وكان من أهل المنطق والفلسفة، ومع ذلك لم يعن بدراسة تلك التشبيهات دراسة علمية على نحو ما صنع ابن طباطبا المشرقى المتوفى سنة ٣٣٢ فى كتاب «عيار»^(٣) الشعر» وتقسيمه للتشبيه فيه من حيث المادى الحسى والمعنوى الذهنى ومن حيث الصورة واللون والهيئة والتركيب، وإنما عُنِيَ بعرض أبيات مختارة للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وهى موزعة على أكثر من ستين بابا، استهلها بأبواب فى وصف الطبيعة من سماء ونجوم وكواكب ورياح وأمطار ورياض، وأتبع تلك الأبواب بأبواب فى وصف الخمر والغناء والمغنين وآلاتهم فأبواب للجمال الإنسانى والحب ومشاعره، ثم أبواب تتضمن صور الصراع بين الإنسان والطبيعة من مثل قطع المفاوز والبحار وصيد الحيوان وكذلك الصراع بين الإنسان والإنسان فى الحرب وما يتصل به من آلات الحضارة ومن الأخلاق الفردية والاجتماعية مع العبرة بالشبخوخة والفناء. وتعرض فى كل ذلك التشبيهات الطريفة فى رأى ابن الكتانى لشعراء الأندلس. وعلى شاكلة هذا الكتاب كتاب البديع فى وصف الربيع لأبى الوليد إسماعيل بن حبيب الحميرى الملقب بحبيب^(٤) المتوفى بعد ابن الكتانى بنحو عشرين عاما قريبا من سنة ٤٤٠ للمهجرة، وكلمة البديع فى العنوان لا تعنى البديع بمعناه البلاغى الاصطلاحى، وإنما تعنى المستطرف المستحسن من الشعر والنثر للأندلسيين من أهل عصره مما يتصل بالربيع ويتفوق به الأندلسيون على أهل المشرق، كما يقول فى مقدمة الكتاب «لما لهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أهل المشرق مقامهم فيه». وحقا للأندلسيين أشعار بديعة فى وصف الربيع والطبيعة، أما أنهم يتفوقون

لكتابه (طبع دار الثقافة بيروت).
(٣) انظر تحليلنا لهذا الكتاب وحديثنا عن التشبيه فى كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٢٣.
(٤) انظر فى حبيب ومصادره وترجمته الفصل الخامس. وكتابه البديع نشر فى الرباط بتحقيق هنرى بيريس وفى السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

(١) راجع فى ابن أبى الحسين واسم كتابه الحميدى ٢٩٠ والصلة رقم ٨٨٠ وبغية الملتبس رقم ١١٩٣ والحلة السراء طبعة حسين مؤنس بالقاهرة ٢٢٤/١.

(٢) انظر فى ابن الكتانى طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٥ وابن جليل ص ١٠٩ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩١ ومقدمة الدكتور إحسان عباس لتحقيقه

فيهما على المشاركة فقول يحتاج إلى نظر، ويكفى المشاركة أن يكون من بينهم ابن الرومي أكبر مبدع في وصف الطبيعة والربيع. ويورد الحميري في كتابه مختاراته الشعرية والنثرية في ثلاثة أبواب: باب جعله في وصف الربيع ورياحينه وباب ثان في وصف أزهاره، وباب ثالث في وصف كل زهرة منفردة على حدة، ويشفع ذكره لبعض القطع بمثل قوله مقدما لها: «ومن غريب الرصف في عجيب الوصف» وقوله: «ومن جيد التشبيه وحسن التمثيل» وقوله: «ومن السحر المتحل والكلام المتخل». وتلى مثل هذه التعبيرات المقطوعات الشعرية. والكتاب بذلك - مثل سابقه - كتاب مختارات من النثر والشعر الأندلسيين وليس كتاب بلاغة. وكأن الأندلس حتى عصر أمراء الطوائف لم تكن تعنى بالكتابة في البلاغة، إنما كانت تعنى بعرض المختارات الشعرية، وقد أکبت كما مر بنا على دواوين الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وأخذت في أواخر العصر تعنى بمختارات للأندلسيين أنفسهم، مكتفية بما نقل إليها من كتابات المشاركة في البلاغة، وكان مما نقل إليهم كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني سنة ٤٦٣ وفيه دراسة مفصلة عن فنون البديع ومحسناته وهي تضم عنده الصور البيانية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية، ويبدو أنهم عكفوا عليه بالدرس، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد محمد^(١) بن عبد الملك الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٥ للهجرة يصنع تلخيصا له مع بيان أغلاط فيه.

وربما كان أول كتاب للأندلسيين عنى بمباحث أساليب الكتابة البلاغية وفصل القول فيها كتاب إحكام صنعة الكلام للكلاعي^(٢) أبي القاسم محمد بن عبد الغفور المتوفى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى، وقد جعل كتابه في مقدمة تحدث في فصولها عن صور من محاكاته لأبى العلاء ومضى يعلى النثر على الشعر ثم أفاض القول في بابين: باب خصه بالكتابة وآدابها، وباب خصه بضروب الكلام قدم له بحديث مفصل عن الإيجاز والإطناب والمساواة، وهو باب كبير من أبواب علم المعانى، ومن الطريف أنه نفذ إلى مصطلح المساواة المتوسطة بين الإيجاز والإطناب على نحو ما شاع ذلك بعده عند المشاركة منذ بدر^(٣) الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ كما نفذ إلى تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، ويبدو أنه رأى أن يعدل عن الحديث في الصور البيانية والمحسنات البديعية لأنها

كتابه إحكام صنعة الكلام طبع بيروت بتحقيق محمد رضوان الداية.

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٥.

(١) راجع التكملة ص ١٩١ رقم ٦٦٠.

(٢) انظر في الكلاعي المطمح ص ٢٩ وابن الأثير

في التكملة ص ١٨٧ والمغرب ٢٤٢/١ ومقدمة

قُتلت بحثاً عند المشاركة وأيضاً عند ابن رشيقي، فأفرد فصولاً لأنواع الأسلوب في الكتابة وهي عنده سبعة: الأسلوب العاطل وهو الخالي من الأسجاع، والحالي وهو المحلى بالسجع والصور البيانية، والمصنوع وهو المسجوع الموشح بمحسنات البديع، والمرصع وهو ما حُلِيَ بالأخبار والأمثال والأشعار والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمغصن وهو ما تتضمن فيه السجعتان المتقابلتان سجعات داخلية تتقابل في كل سبعة طويلة مع قريبتها في السجعة الطويلة التالية، وكأنما أصبح للسجعتين الأساسيتين في الأسلوب أغصان وفروع مثل: «ومن السلام سلام وإن لاح جوهره»، ومن الكلام كلام وإن فاح عنبره» والمفصل وهو ما تعقب فيه الأبيات الشعرية الجمل النثرية على شاكلة كتاب ملقى السبيل لأبي العلاء ولبديع الزمان الهمداني رسالة مشهورة من هذا النوع، والأسلوب السابع المبتدع وهو ما تقرأ فيه سطور الكلمات والكلمات نفسها من جهتين أو أكثر، وهي صورة من التعقيد ليس فيها فن ولا جمال. وبعد فراغه من كل ذلك يتحدث عن فنون الكتابة من التوقيعات والخطب والحكم والأمثال والمقامات والحكايات والتوثيقات والمؤلفات، وهي أول مرة يتحدث فيها ناقد بإفاضة عن فنون النثر المختلفة.

وكان يعاصره المواعيني محمد^(١) بن إبراهيم بن خيرة المتوفى سنة ٥٦٤ وله كتاب ربحان الألباب وريعان الشباب، جمع فيه ما يحتاج إليه الشاعر والكاتب من فنون وجعلها في سبعة مراتب وتهمنا في حديثنا عن مباحث البلاغة بالأندلس المرتبة الرابعة من هذه المراتب إذ جعلها للفصاحة والبلاغة وإنشاء الصناعة، وفيها أسهب في بيان شروط الفصاحة مستمداً من كتابات المشاركة فيها وخاصة ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة» واستمد منه ومن الجاحظ في حديثه عن عيوب الكلام من المعاطلة وغيرها، ويتحدث عن أنواع البديع متأثراً فيها بقدامة في كتابه نقد الشعر والحاتمي في كتابيه: حلية المحاضرة وسر الصناعة.

ونغضى في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فنرى البلاغة تلتحم في الأندلس بالفلسفة عند ابن رشد إذ يتصدى لكتابي الخطابة والشعر لأرسطو، فيلخصهما ويشرحهما بفكره العبقري الناصع، وكان ابن سينا قد وضع لكتاب الخطابة تلخيصاً، وتحول ابن رشد بهذا التلخيص إلى شرح موسع للكتاب ونصوصه مورداً لكل مبدأ بلاغي فيه أمثلة من الشعر العربي على نحو ما يتضح في قسمه الثالث الخاص بالعبارة.

(١) راجع في المواعيني ابن الأبار في التكملة

وهو فيه يفصل الحديث في أبواب علم البيان المعروفة: التشبيه والاستعارة والكناية، أما التشبيه^(١) فيتحدث فيه عن أدواته وأن لكل أمة تشبيهاتها المستمدة من بيئتها، ويحذر من التشبيهات النائية ملاحظاً أن التشبيه ينبغي أن ينعقد بين أشياء متجانسة، ويلم بالتشبيهات التمثيلية المركبة، ويتحدث عن الاستعارة ويلاحظ - متأثراً بأرسطو - أن الاستعارة المكنية لا تقوم - مثل التصريحية - على التشبيه، ويعرض صوراً مختلفة من الكناية. ويلاحظ أن الصور البيانية تتفاوت حسناً وقبحاً كقول القائل في وصف امرأة مخضوبة اليد بالحناء إنها وردية اليد وقول آخر إنها دموية اليد، فشتان - في رأيه - بين الوصفين، ويلاحظ أيضاً تفاوت البيان في التعبيرات الحقيقية، وأن صور البيان البارعة تعرض مشاهد تامة، بل حية نابضة. وكل ذلك لم يفد منه البلاغيون بعد ابن رشد، ويتحدث عن الإيجاز والإطناب والطباق والمقابلة وعن المبالغة ويقول إنها تقبل في الشعر ولا تقبل في النثر خطابة ورسائل، ومثلها الألفاظ الغريبة. وكان ابن سينا قد صنع قبل ابن رشد تلخيصاً لكتاب الشعر، فعمد ابن رشد إلى إعادة تلخيصه وشرحه، بحيث أصبح عمله في هذا الكتاب أشبه بتعريب له، ووقف فيه عند التشبيه وأنه قد يكون تشبيه محسوس بمحسوس أو تشبيه معنوي بمحسوس ملاحظاً أنه ينبغي أن لا يكون بالأشياء الخسيسة، ويعرض أمثلة للاستعارة المكنية عند أبي تمام، ويهاجمها متأثراً بالأمدى في كتابه الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحرّى. ويعود إلى فكرة الصورة أو الصور المتكاملة في بيتين أو ثلاث مما يصور مشاهد حية حافلة بالحركة والحياة، وعرض للكناية وللجناس التام والناقص وللطباق وللمراعاة النظير، ويهاجم المبالغة في الشعر التي تخرج إلى حد الاستحالة، بخلاف المبالغة المحمودة التي تعتمد على أصل من الواقع والحقيقة. ولم ينتفع البلاغيون بعده بملاحظاته الدقيقة.

ويجىء بعد ابن رشد بنحو قرن أبو البقاء^(٢) صالح بن شريف الرندى المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة، وله كتاب مخطوط في المكتبة التيمورية، يسمى: «الوافى في نظم القوافي» وهو في أربعة أجزاء أولها في فضل الشعر، والشعراء وطبقاتهم، وعمل الشعر وأغراضه

(١) انظر في آراء ابن رشد البلاغية مقالنا: البلاغة عند ابن رشد في الجزء الثاني والأربعين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٥. وراجع في الحركة النقدية وأعلامها التاليين بالأندلس كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٧٠ وما بعدها.

(٢) انظر في مصادر أبي البقاء الرندى ترجمته في الفصل الرابع ص ٣٨٨ وانظر تحليل كتابه: الوافى في كتاب تاريخ النقد الأدبي في الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية (طبع بيروت) ص ٤٣٣ وما بعدها وقد لاحظ تأثره الشديد بابن رشيق في كتابه العمدة وراجع د. إحسان عباس ص ٥٣٨.

وآدابه، وهو يتأثر فيه بابن رشيق في كتابه العمدة، والجزء الثانى فى محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، والثالث فى سرقات الشعراء، والرابع فى حد الشعر والعروض. والجزء الثانى فى الكتاب يلتقى فى وضوح مباحث البلاغة المعروفة عند المشاركة، إذ يتناول فيه الصور البيانية من تشبيه واستعارة وغيرهما، كما يتناول المحسنات البديعية، وقد أضاف إليها نحو ثلاثين محسناً. ومن أهم ما تحدث عنه من المحسنات الطباق والمقابلة والتجنيس والتصدير والتضمين والتتميم والتسهييم والترصيع والمبالغة، وفى كل ذلك يتأثر بابن رشيق وكتابه العمدة. وقبلنا نلتقى بعد الرندى فى الأندلس بكتب مستقلة فى علوم البلاغة، وكأنها ارتضت أن تعيش فيها على ما يكتبه المشاركة.

وأخذت الكتابات النقدية تنشط فى الأندلس منذ القرن الخامس الهجرى على نحو ما يتضح فى رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ للهجرة وسنفضل القول فى هذه الرسالة^(١) فى الفصل الأخير وبها كثير من الآراء النقدية، ونحن نسوقها مرتبة بترتيب ابن بسام لها، فمن ذلك ذهابه إلى أن اللغويين والنحاة القائمين على تعليم الناشئة البيان لا يصلحون للقيام على هذا التعليم وبهاجم فى رسالته شيخهم ابن الإقليل، لأنهم يفقدون فى رأيه الملكة الأدبية أو كما يقول الطبع والذوق الأدبى، وينوه بروعة الكلام وجمال نسقه قائلاً: «إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلمات فإذا جاور النسب النسب قريب ومازج قريب قريب طابت الألفة وحسنت الصحبة». ويلاحظ على أبى تمام كثرة الجناسات ويرى من الخير للشاعر أن لا يفرق فيها، بل ينحو منحى الاعتدال، ويشيد بالطبع وحسن البديهة والجمع بين المعانى الخفية الدقيقة والأساليب الناصعة البينة. ويعرض لسرقات الشعراء للمعانى بعضهم من بعض، وينصح الشاعر إذا أخذ معنى سبقه إليه غيره أن يحسن صياغته، ونحس دائماً عنده رهاقة الذوق الأدبى ودقة الإحساس بالجمال الفنى. ويعرض ابن حزم بعده لمراتب البلاغة، وينوه بالبلاغة المكونة من الألفاظ المألوفة عند عامة المثقفين كبلاغة الجاحظ كما ينوه بالبراعة فى الشعر ويقصد بها إيراد المعانى الدقيقة البعيدة ويقول إن الشعر مبنى على الإغراق والمبالغة.

ونغضى إلى القرن السادس الهجرى ونلتقى بابن خفاجة ومقدمته لديوانه، وفيها ينوه

(١) ١٩١/١ وراجع كتابه تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٤٧٥.

(١) انظر فى الرسالة وآراء ابن شهيد ترجمته فى الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس)

بالتخييل في الشعر ويعيب على نقاد عصره تمسكهم بالجزالة حتى في الغزل مع أن الرقة مستحسنة فيه على نحو ما يلاحظ في شعر عبد المحسن الصوري والشريف الرضي ومهيار. وكان يعاصره الأشركوني الذي مر ذكره بين اللغويين وله مقامات سنعرض لها في غير هذا الموضع ونراه في مقامتين من مقاماته يصدر أحكاما سريعة على أعلام الشعر المشرقي حتى زمن مهيار، وهي أحكام منثورة في كتب النقد عند المشاركة وليس فيها نظرات جديدة. ويلقانا ابن بسام بكتابه الضخم: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» من الشعراء والكتاب، وصفحات مجلداته الثمانية تكتظ تراجم الشعراء فيها ببيان كثرة ما أخذوا من المعاني المبتوثة في أشعار المشاركة، وبذلك يفتح دراسة واسعة لتحويرات شعراء الأندلس لمعاني الشعر المشرقي وصوره وأخيلته، ونراه يحمل^(١) على من يضمن شعره بعض ألفاظ فلسفية مثل المتنبي أو بعض معان إلحادية مما نسب إلى أبي العلاء، كما يحمل على الاستعارات البعيدة مما يؤكد نزعة المحافظة. ويلقانا عند الكلاعي الذي تحدثنا عنه بين البلاغيين كتاب له باسم الانتصار لأبي الطيب غير أنه مفقود. ويخرج المواعيني في كتابه ريحان الألباب شعر المواعظ والحكم من الشعر بمعناه الدقيق.

وكل ما قدمنا من نشاط نقدي كان يركز على نقد المشاركة، وقلما التحم منه شيء بالنقد المشوب بالفلسفة اليونانية وما نقل عن اليونان في كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، وكأنما احتفظ النقد الأندلسي بذلك لناقد متأخر هو حازم^(٢) القرطاجني المتوفى بتونس سنة ٦٨٤ وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمي وهو في النقد الأندلسي يقابل ابن رشد في البلاغة الأندلسية الذي سبقه بنحو قرن، وقد وُلد حازم - ونشأ - بقرطاجنة شرقي الأندلس، وهاجر منها - حين سقطت في حجر الروم - إلى المغرب وعاش في ظل الدولة الحفصية. وله في النقد كتاب يسمى «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، سقط منه قسمه الأول وكان يتناول - كما ذكر محققة - القول وأجزائه والأداء وطرقه وأثر الكلام في السامعين، وسلمت منه ثلاثة أقسام تتناول صناعة الشعر وطريقة نظمه وتتعمق في بحث المعاني والمباني والأسلوب، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزع على أربعة أبواب، ويسمى حازم كلا منها باسم منهج وكل باب أو منهج يتألف من فصول اختار لكل منها

النقدية مقدمة محققة الدكتور محمد الحبيب بن
الحوجة، وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب
للدكتور إحسان ص ٥٣٩.

(١) الذخيرة ٤٧٩/٢ وما بعدها تحقيق د. إحسان
عباس ص ٥٠٣ وما بعدها.
(٢) انظر في كتابه منهاج البلغاء ومصادره وآرائه

اسم مَعْلَم أو معرف، ومعنى المعلم بالتفريعات المنطقية غالبا بينا يعنى المعرف بالدلالات النفسية، وكل فصل يختم بملاحظات سماها مأمأ أى مقصدا، وكل فصل تتناثر فيه كلمات إضاءة وتنوير، والإضاءة بسط لفكرة فرعية، والتنوير بسط لفكرة جزئية. وقد حقق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة الأقسام الثلاثة الباقية من الكتاب تحقيقا علميا سديدا وقدم لها بمدخل علمى قيم تناول فيه مصادر حياة حازم وحياته ومصنفاته وتحليل كتابه ومميزاته ومنزلته بين كتب النقد العربية.

وحازم في كتابه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدها عند اليونان، وقد ذكر من أصحاب البلاغة والنقد العربى الجاحظ صاحب البيان والتبيين أربع مرات، وذكر ابن سنان الخفاجى صاحب سر الصناعة مرارا وأكثر من ذكر قدامة صاحب نقد الشعر. وأما اليونان فعول فيهم على أرسطو من خلال تلخيص ابن سينا لكتابه عن الشعر في الفن التاسع من كتاب الشفاء وقد أشار إليه في الكتاب أربع عشرة مرة كما أشار إلى تلخيص الفارابى للكتاب مرتين، ويصرح بأنه ذكر من تفاصيل صنعة الشعر ما جاء عند ابن سينا خاصة عنه. وهو في أكثر كتابه يعد شارحا لما جاء عنده من أقاويل أرسطو، وقد سيطرت عليه فكرة أرسطو المشهورة؛ أن الشعر محاكاة لأعمال الناس، وغاب عنه أنه كان يتحدث عن الشعر اليونانى والمأساة فيه وأنها تمثل أفعالا وأفعالا للناس. وجعله ذلك يظن أن المحاكاة هى تشبيه الأشياء. ومع سيطرة هذه الفكرة في الكتاب نفذ حازم إلى كثير من الآراء البصيرة الدقيقة عن الشعر. وهو في القسم الثانى أول الأقسام المنشورة من كتابه يبحث في الشعر وقيامه على التخيل في المعانى والتصرف فيها وطرق اجتلابها وتأثيرها في النفوس دافعا عن معانى الشعر ما لا يلائمها من المعانى العلمية مع بيان طريقة انتقاء الشعراء لمعانيهم ووجوه تأليفها وبيان ما ينبغى لكل عمل فنى من مهيآت وأدوات وبواعث، وألم بما رآه في البلاغة والنقد العربيين من الحديث عن المطابقة والمقابلة والتقسيم والتفسير والتفريع، ويقول إنه لابد في الشعر من إثارة الإغراب والتعجب، ونفى عن الشعر ما يقال بسبب المبالغة فيه من انطوائه على الكذب، ويقول إنه أكثر صدقا من الخطابة القائمة على إيقاع الظن إيقاع اليقين، وينبه على أهمية الاستعارة والتشبيه، وينوّه بأراء علماء البلاغة والنقد من العرب. وفي القسم التالى يبحث في الملكة الشعرية ومقوماتها وفي أوزان الشعر واستخدامها وأعاريضها ويحاول أن يصور مدى تناسبها مع الأغراض الشعرية، ويقول إنه لابد في القصيدة من ترابط أجزائها ويشيد بالمتنبى وصنيعه المحكم في قصائده. وفي القسم الأخير قسّم الشعر

إلى جدى وهزلى وتحديث عن موضوعات الشعر العربى ونوه بالشريف الرضى ومهيار وابن خفاجة، كما تحدث عن الأساليب الشعرية ونوه بابن المعتز والبحترى والمنتبى وأبى تمام وابن الضحاك وأبى سعيد المخزومى ويقول إن وظيفة الناقد صعبة وإنه تصعب المفاضلة بين الشعراء إلا إذا كانوا ممتازين ولكل منهم امتيازته وتفردته الواضح. وحازم يحتتم النشاط النقدى فى الأندلس، فلم يظهر فيها بعده ناقد كبير.

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المؤدبون فى الأندلس يحفظون الناشئة سورا من القرآن الكريم منذ استقرار المسلمون هناك، ومراً بنا أنه كان من أوائل هؤلاء المؤدبين الغازى بن قيس الذى كان يؤدب الناشئة قبل دخول عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ للهجرة وذكرنا أنه رحل إلى المشرق طلباً للعلم وقد أخذ عن نافع مقرئ أهل المدينة وأحد القراء السبعة المشهورين قراءته، وهو أول من أدخلها - كما يقول الزبيدى - إلى الأندلس، وكان ابنه عبد الله يقرئ بها - بعده - الناشئة والناس، وكان يعاصر عبد الله بن الغازى أبو عبد الله محمد بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ويقول الزبيدى إن له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ورش عثمان بن سعيد القبطى الأصل المصرى تلميذ نافع قراءته، وأخذت تشيع هذه القراءة فى الأندلس كما أخذت تشيع فى المغرب عن طريق تلاميذ آخرين لورش، ولا تزال شائعة فيه إلى اليوم. ومن حين إلى آخر طوال العصر يلقانا من اشتهروا بهذه القراءة مثل عبد الله^(١) بن محمد القضاعى الذى كان يقرئ الناس بقراءة ورش فى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) حتى توفى سنة ٣٧٨. وما نكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس حتى نجد نفراً من الأندلسيين يأخذون القراءات - وخاصة القراءات السبع - عن المشاركة ومحاولون التأليف فيها مقتدين بهم فى ذلك إذ نجد بقرطبة مؤلفاً كبيراً فى القراءات هو أبو عمر^(٢) الطلمنكى المولود سنة ٣٤٠ وقد رحل إلى المشرق فأخذ القراءات عن أئمتها فى الشام

لابن الجزرى ٧١/١ وكتابه طبقات القراء

(١) طبقات القراء ٤٥٦/١.

١٢٠/١.

(٢) انظر فى الطلمنكى النشر فى القراءات العشر

ومصر، وخاصة عن عبد المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد في القراءات السبع وشيخ المقرئين بالقاهرة، وعاد إلى قرطبة يعني بدراستها حتى توفي سنة ٤٢٩ وله فيها كتاب الروضة. وكان يقرئ الناس معه بقرطبة مكى^(١) بن أبى طالب المعروف بحموش القيروانى منذ نزلها سنة ٣٩٣ إلى أن توفي سنة ٤٣٧ وهو تلميذ عبد المنعم بن غلبون مثل الطلمنكى، وعد له ابن خلكان في القراءات واختلاف القراء تصانيف كثيرة منها كتاب التبصرة في خمسة أجزاء، وكتاب في أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه في جزئين وكتاب في تصحيح المدّ لورث في ثلاثة أجزاء. ومن القراء المهمين حينئذ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني^(٢) المولود بقرطبة سنة ٣٧١ وقد رحل إلى مصر سنة ٣٩٧ وأخذ القراءات عن شيوخها وعاد إلى قرطبة يقرئ بها القرآن إلى سنة ٤٠٣ إذ تركها سبعة أعوام إلى سرقسطة في الشمال وعاد إلى قرطبة وتركها سريعا إلى المرية ورحل عنها إلى جزيرة ميورقة فأقام بها ثمانية أعوام، ثم غادرها إلى دانية سنة ٤١٧ واتخذها سكنا ودار إقامة إلى أن توفي سنة ٤٤٤ للهجرة، وهو أحد الأئمة في قراءات القرآن وتفسيره وعلموه، وله فيها مصنفات حسان يطول تعدادها، منها كتاب التيسير في القراءات السبع وعليه عوّل الأندلسيون وهو منشور، وله كتاب إيجاز البيان في قراءة ورش عن نافع، ونشر له في دمشق كتاب المحكم في نقط المصاحف. ويلقانا بعده محمد^(٣) بن شريح الإشبيلي المتوفى سنة ٤٧٦ وكتابه الكافي في القراءات. وأهم قراء الأندلس بعد الداني الإمام الشاطبي^(٤) الضرير القاسم بن فيره نزيل القاهرة المتوفى بها سنة ٥٩٠ نزلها سنة ٥٧٢ ورتبه القاضي الفاضل وزير صلاح الدين بمدرسته متصدرا لإقراء القرآن الكريم وقراءاته، وله قصيدة «حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات» وعدّها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وعليها عوّل القراء في زمنه وبعد زمنه حفظا وقراءة وتفسيرا، ولها شروح كثيرة، يقول ابن خلدون: «استوعب الشاطبي ما دونه

(٣) راجع النشر في القراءات العشر ١/٦٧ وابن خلكان ٨٢/٧.

(٤) انظر في الشاطبي التكملة لابن الأبار رقم ١٩٧٣ وطبقات القراء ٢/٢٠ والذيل والتكملة للمراكشى ٥/٥٤٨ ومعجم الأدباء ١٦/٢٩٣ ونكت الهميان ص ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكي ٧/٢٧٠ ونفح الطيب ٢/٤٥.

(١) راجع في مكى طبقات القراء ٢/٣٠٩ وبغية المتلصص ٤٥٥ ومعجم الأدباء ١٩/١٦٧ وإنباه الرواة ٣/٣١٣ وابن خلكان ٥/٢٧٤.

(٢) انظر في الداني طبقات القراء ١/٥٠٣ والصلة رقم ٨٧٣ ومعجم الأدباء ١٢/١٢١ وبغية المتلصص ٣٩٩ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٩٨ وطبقات المفسرين للسيوطي ١٥٩ وإنباه الرواة ٢/٣٤١ والنفح ٢/١٣٥.

الداني في القراءات بقصيدته وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس^(١)». وخاتمة قراء الأندلس أبو حيان الغرناطي الذي مر ذكره بين النحاة، ويقول في مقدمة تفسيره إن له في القراءات منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين ويذكر من ترجموا له أن له كتابا في كل قارئ من القراء السبعة وأيضا كتابا في قراءة زيد بن علي إمام الزيدية.

ومعروف أنه تكونت حول القرآن علوم كثيرة تتناول نقطة ورسمه والإملاءات فيه والإدغام والوقف والابتداء كما تتناول مشكل معانيه وناسخه ومنسوخه وأحكامه، وللقارئ: الداني ومكي في ذلك كتب مختلفة. وظلت الأندلس تعنى بتلك العلوم وظل الأندلسيون يؤلفون فيها مثل المشاركة، ويطول بنا الحديث لو تعقبنا ما كتبوا فيها. وحسبنا أن نتحدث عن نشاطهم في تفسير الكتاب العزيز، ومن أقدم ما ألف فيه هناك كتاب بقي^(٢) بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وفيه يقول ابن حزم: «هو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله: لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره» وابن حزم يضعه فوق تفسير الطبري أهم التفاسير المشرقية للذكر الحكيم حتى زمنه في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. وولتقى بعد بقي بمحمد^(٣) بن عبد الله بن أبي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ وله مختصر في التفسير منه مخطوطة بمكتبة القرويين، ولمكي المذكور آنفا تفسير ضخيم سماه: «الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه» وكان في سبعين جزءاً، وسقط من يد الزمن. وأهم تفسير أنتجته الأندلس بعد تفسير بقي التفسير الكبير لابن عطية^(٤) أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية قاضي المريّة المتوفى سنة ٥٤٢، وولى أبوه قبله قضاء غرناطة، فهو من بيت علم وفضل، وكان فقيهاً ناهياً عارفاً بالأحكام والحديث، وكتابه المحرر الوجيز في التفسير من أحسن التأليف فيه وأبدع التصنيف على مر الأزمنة، وسماه الوجيز تواضعاً، وهو في مجلدات ضخمة، وفيه لخص - كما يقول

بشكوال، رقم ١٠٤٧ والبغية ٧٧ وطبقات المفسرين للسيوطي رقم ١٠٢ والوفاء للصفدي ٣٢١/٣ وابن فرحون ٢٣٢/٢.
(٤) راجع في ابن عطية الفتح في القلائد ص ٢٠٨ وتاريخ القضاة للنباهي ص ١٠٩ والصلة رقم ٨٢٥ وابن فرحون في الديباج ٥٧/٢ والمغرب ١١٧/٢.

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور وافي ١٠٣٠/٣.
(٢) راجع في بقي ابن الفرضي ١٠٧/١ والحميدي ١٦٧ ونفع الطيب (تحقيق إحسان عباس) ١٦٨/٣ والصلة رقم ٢٧٧ والبغية للضبي ٢٢٩ ومعجم الأدباء ٧٥/٧ وتذكر الحفاظ للذهبي ٦٢٩.
(٣) انظر في ابن أبي زمنين الحميدي ٥٣ وابن

ابن خلدون - التفاسير الماثورة كلها وتحري الأقرب إلى الصحة منها، وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس^(١). وينسب لمحيى الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ تفسير مطبوع، وأكبر الظن أن نسبته له غير صحيحة، وملتقى بعده بالقرطبي^(٢) محمد بن أحمد نزيل مصر الذي اختار المنيا بالصعيد سكنا إلى أن توفي سنة ٦٧١ وله تفسيره المشهور المسمى: «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن» وهو في عشرين مجلدا، سار فيه على نهج ابن عطية في تفسيره^(٣). ويختتم نشاط الأندلسيين في تفسير القرآن العظيم بكتاب البحر المحيط لأبى حيان الذي مر بنا ذكره بين النحاة وهو في ثمانى مجلدات ضخام، ويذكر في مقدمته مصادره في اللغة والنحو والبلاغة والحديث النبوى وأصول الفقه وعلم الكلام وكتب القراءات والتفسير ويشيد بتفسير عبدالحق بن عطية موطنه وتفسير الزمخشري، ويذكر من روى عنهم هذين التفسيرين خاصة لأنه كثير النقل عنها والمراجعة لها في تفسيره، ويعنى فيه عناية واسعة بوجوه الإعراب وبيان لغات العرب كما يعنى بالقراءات السبع وما وراءها مما يكمل القراءات الأربع عشرة والشاذة.

ونشطت الأندلس في علم الحديث نشاطا واسعا منذ محدثها وقاضيه معاوية^(٤) بن صالح المتوفى سنة ١٧٨ سواء في روايته أو في التصنيف فيه وفي رجاله. ويتسع هذا النشاط منذ القرن الثالث الهجرى، وملتقى فيه ببقى بن مخلد الذى مر ذكره بين المفسرين، وله في الحديث النبوى مصنف يقول فيه ابن حزم: «له في الحديث مصنفه الكبير الذى رتبته على أسماء الصحابة رضى الله عنهم، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابى ونيف، ثم رتب حديث كل صحابى على أسماء الفقه وأبوابه فهو مصنف ومسند» أى أنه مصنف في الفقه وأحكامه ومسند على طريقة مسند ابن حنبل يراعى فيه الصحابى الراوى للحديث عن رسول الله ﷺ ومع كل حديث سنده، ويقول ابن حزم: «ما أعلم أحدا سبق بقى بن مخلد إلى مثل ذلك مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله وجودة شيوخه،

والحميدى رقم ٧٩٦ ومعجم الصدفى لابن الأبار ص ١٨٠ وترتيب المدارك للقاضى عياض ٣٤٩/١ وابن القوطية ص ٤٣ والمغرب ١٠٢/١ والقضاة للخشنى (طبعة ريبيرا) ص ٣٠ وتهذيب التهذيب لابن حجر (طبع حيدر آباد) ٢٠٩/١٠

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٢) انظر في القرطبي طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨ وابن فرحون ٣٠٨/٢ والوافى للصفدى ١٢٢/٢ وشذرات الذهب ٣٣٥/٥.

(٣) ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٤) راجع في معاوية ابن الفرضى رقم ١٤٤٣

فإنه روى أحاديثه في المصنف عن مائتي رجل وأربعة وثمانين ليس فيهم عشرة ضعاف وسائرهم أعلام مشاهير»^(١) ويقول ابن حبان في المقتبس به انتشر الحديث بالأندلس ورسا أصله، ثم تلاه محمد^(٢) بن وضاح المتوفى سنة ٢٨٧ - وله رحلتان إلى المشرق - في نشر الحديث وسعة الرواية، «فاستوسع أهل الأندلس في الحديث من يومئذ وصارت دار حديث ومعدن سند»^(٣) وهما لم يدفعا الأندلس إلى السعة في الحديث وروايته فحسب، بل دفعها أيضا إلى معرفة طرقة وعلمه. ويلقانا بعد بقي وابن وضاح تلميذها ثابت^(٤) بن عبدالعزيز السرقسطي المتوفى سنة ٣١٣ وابنه قاسم المتوفى قبله سنة ٣٠٣ وقد رحلا إلى المشرق في طلب الحديث وعادا إلى قرطبة، فعنى قاسم بتأليف كتاب في غريب الحديث سماه «الدلائل» وحال الموت بينه وبين تمامه فأتمه أبوه، ويقول ابن حزم إن كتاب الغريب المصنف المشهور في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام لا يتميز عليه إلا بالتقدم في زمن تأليفه فحسب. ومن أهم المحدثين في القرن الرابع قاسم^(٥) بن أصبغ تلميذ بقي بن مخلد وابن وضاح المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ، وكتاب المجتبى ويشيد ابن حزم بعلو سنده، ويقول: له في الحديث مصنف، وكذلك لمعاصره محمد^(٦) بن عبد الملك بن أين (المتوفى سنة ٣٣٠) وهما مصنفان رفيضان احتويا من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من كتب المصنفات. ويلقانا في آخر القرن الرابع ابن فطيس المتوفى سنة ٤٠١ وينوه ابن بشكوال في كتابه الصلة بحفظه للحديث وعلمه، ومعرفته بأساء الرواة: المعدلين منهم والمجرحين^(٧). وملتقى في القرن الخامس بكتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي^(٨) صاحب جذوة المقتبس التي نرجع إليها في الهوامش المتوفى سنة ٤٨٨. ويتكاثر المصنفون لكتب الحديث النبوي في القرن السادس الهجري، ومنهم رزين^(٩) السرقسطي المتوفى سنة ٥٢٤ وله كتاب التجريد في الجمع بين الموطأ والصحيح الخمس: البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي، وقد

(١) نفح الطيب ١٦٨/٣.

(٦) الفرضي رقم ١٠٦٨.
(٦) راجع في ابن أين النفح ١٦٩/٣ والحميدي.

(٢) انظر في ابن وضاح ابن الفرضي رقم ١١٣٤ والحميدي رقم ١٥٢ والضبي رقم ٢٩١.

رقم ٩٨ وابن الفرضي رقم ١٢٢٨.

(٣) المقتبس (تحقيق د. محمود مكي - نشر بيروت) ص ٢٦٤.

(٧) انظر الصلة رقم ٦٧٩.

(٨) راجع في الحميدي الصلة رقم ١١١٤ ومعجم الأدباء ٥٨/٧ وابن خلكان ٢٨٢/٤ وما به من مصادر والوافي للصفدي ٣١٧/٤.

(٤) راجع في ثابت وقاسم ابنه مراجعهما في هامش ص ٩٢ وأيضا النفح ١٧٠/٣ والحميدي رقم ٣٤٥، ٧٧١.

(٩) انظر في رزين الصلة رقم ٤٢٤ والضبي ٧٤١.

(٥) انظر في ابن أصبغ النفح ١٦٩/٣ وابن

دوت شهرته في المغرب والمشرق وعليه اعتمد ابن الأثير في كتابه «جامع الأصول». وجاء بعده الرشاطي^(١) عبدالله بن علي المتوفى سنة ٥٤٢ وله كتاب في أنساب رواة الحديث على نهج كتاب الأنساب للسمعاني،

وجاء بعده ابن قُرُقول^(٢): إبراهيم بن يوسف المتوفى سنة ٥٦٩ وله كتاب مطالع الأنوار وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض في غريب الحديث. وكان يعاصره عبد الحق^(٣) الإشبيلي المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٥٨١ وله كتاب الجمع بين الصحيحين: البخاري ومسلم، وله أيضا كتاب في الجمع بين الصحاح الستة وكتاب في المعتل من الحديث وكتاب في غريب القرآن والحديث ضاهى به الغريبين للهروي وثلاث نسخ من كتاب له في الأحكام: كبرى ووسطى وصغرى. ومن أهم المحدثين بالأندلس في القرن السابع الهجري ابن القطان^(٤) علي بن محمد المتوفى بفاس سنة ٦٢٨ وكان من أبصر العلماء بالحديث وعلمه ورجاله ورأس طلبة الحديث بمراكش قاطية، ويذكر ابن الأبار أن له تأليف مختلفة في الحديث. وخاتمة المحدثين بالأندلس أحمد بن^(٥) فرح الإشبيلي نزيل دمشق وبجامعها حدث إلى أن توفي سنة ٦٩٩ وله قصيدة غزلية ضمن أبياتها أكثر مصطلحات الحديث. وللأندلسيين معاجم مختلفة في رجال الحديث ورواته، من أهمها كتاب أنساب الرواة للرشاطي المار ذكره، ومن أهمها أيضا كتاب طبقات المحدثين وطبقات أئمة الفقهاء لابن الدباغ^(٦) يوسف بن عبدالعزيز الأندى المتوفى سنة ٥٤٦ وكان من أعرف المحدثين بثقات الرواة وضعفائهم.

وللأندلس نشاط خصب في الفقه ودراساته، وكانت تعتمد فيه أولا على مذهب الإمام الأوزاعي فقيه الشام المشهور المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة، إذ كان أكثر العرب الفاتحين للأندلس والقادمين إليها من الشام، فكان الفقهاء يفتون الناس به، وفي مقدمتهم صعصة^(٧) بن سلام تلميذه المتوفى سنة ١٩٢ وهو الذي أفتى الناس هناك - أخذا برأى

(٤) راجع ابن القطان في التكملة رقم ١٩٢٠

(٥) انظر ابن فرح في طبقات الشافعية (الطبعة

الجديدة) ٢٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٨٦/٤

وشذرات الذهب ٤٤٣/٥ والنجوم الزاهرة

١٩١/٨.

(٦) راجع ابن الدباغ في الصلة رقم ١٣٩٥

(٧) انظر في صعصة ابن الفرضي رقم ٦٠٥

والحميدي رقم ٥١٠.

(١) راجع في الرشاطي الصلة رقم ٦٤٨ وتذكرة

الحفاظ للذهبي ١٣٠٧ والمطرب لابن دحية (طبع

القاهرة) ٦١، ١٢٠ وابن خلكان ١٠٦/٣

(٢) راجع في ابن قُرُقول بقية التكملة رقم ٣٩٤

وابن خلكان ٦٢/١

(٣) انظر في ابن الخراط عبد الحق التكملة رقم

١٨٠٥ وتذكرة الحفاظ ١٣٩/٤ والمراكشي في

المعجب ص ٣٤٧ وفوات الوفيات ٥١٨/٢.

أستاذه - بغرس الشجر في صحن المسجد الجامع بقرطبة، وظل به العمل في المساجد الجامعة بالأندلس^(١) بعد انصرافها عن مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك^(٢) بن أنس إمام المدينة، إذ كانوا يرحلون في كل عام إلى الحجاز للحج، وكانت المدينة حتى وفاة مالك سنة ١٧٩ تُعدّ دار الفقه ويؤمها ويؤم إمامها مالك التلاميذ من كل فجّ، فكان طبيعياً أن يكون بين هؤلاء التلاميذ أندلسيون، وخاصة أنه كان لمالك سمعة مدوّية في العالم الإسلامي، وأيضاً فإن عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) وابنه هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ) دفعا الطلاب للرحلة إلى مالك لأنه كان مغاضباً للعباسيين منذ أفتى أهل المدينة بالتحلل منبيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبدالله سليل الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٤٥ ولم يلبث واليها جعفر بن سليمان أن دعا بمالك سنة ١٤٦ بعد القضاء على ثورة النفس الزكية، وجردّه وضربه بالسياط عقاباً له على فتواه^(٣). وهو ما جعل - في رأينا - عبدالرحمن الداخل وابنه هشام يتشيعان لمالك ومذهبه الفقهي نصرته له ضد العباسيين وصاحبهم أبي حنيفة وتلاميذه، مما أشعل الحماسة في نفوس طلاب العلم الأندلسيين للتلمذة على مالك وحمل كتابه الموطأ إلى الأندلس ودراسته للطلاب بقرطبة وغير قرطبة، ومن أوائل من أدخله إلى الأندلس - إن لم يكن أول من أدخله - الغازي بن قيس الذي مر بنا بين المؤيدين والقراء، يقول ابن القوطية: «في أيام عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقراءة نافع، وكان له مكرماً ومتكرراً عليه بالصلة في منزله»^(٤) ويقول الحميدى: كانت تدور الفتيا على الغازي بن قيس في عهد هشام إذ كان مشاوراً مع مصعب بن عمران^(٥). ومن أوائل من أدخلوا الموطأ أيضاً إلى الأندلس شبطون^(٦): زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٠٤ وفي بعض الروايات أنه أول من أدخل الموطأ إلى

(١) انظر في هذه المسألة تاريخ قضاة الأندلس للنباهي (طبع القاهرة) ص ٥١.

(٢) ظلت في الأندلس بقية لمذهب الأوزاعي في الفقه، يدل على ذلك أن نجد زهير بن مالك المتوفى سنة ٢٥٠ فقيهاً على مذهبه. انظر الحميدى ص ٢٠٥ وابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (طبع مدريد) ص ١٨١.

(٣) راجع ترجمة مالك في ابن خلكان ٣٥/٤.

(٤) انظر افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد، ص ٣٥).

(٥) الحميدى ص ٣٠٥.

(٦) راجع في شبطون ابن الفرضي رقم ٤٥٦.

والحميدى رقم ٤٣٩ والقضاة للخشنى ص ١٤، ٣٣ وابن فرحون ٣٧٠/١.

الأندلس. وأول فقيه أندلسي مالكي يُعَدُّ - بحق - بين أئمتها المالكيين عيسى^(١) بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ ويقول ابن حيان في المقتبس: «رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك، وسمع من عبد الرحمن بن القاسم رئيس المدرسة المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ واقتصر عليه فاعتلت في الفقه المالكي طبقته.. وكان محمد بن وضاح يقول: «هو الذي علّم أهل الأندلس الفقه» ويقول أيضا ابن حيان: «كان لا يُعَدُّ في الأندلس أفقه منه في نظرائه» وله في الفقه المالكي كتاب الهداية، وفيه يقول ابن حزم إنه من أرفع الكتب وأجمعها في معناها على مذهب مالك وتلميذه عبد الرحمن بن القاسم^(٢). وتألّف في الفقه المالكي بالأندلس بعد ابن دينار نجم يحيى^(٣) اللبثي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد سمع الموطأ في أول نشأته بالأندلس من شبطون ورحل في الثامنة والعشرين من عمره إلى المشرق ولحق الليث بن سعد فقيه مصر، كما لحق مالكا وسمع الموطأ منه إلا بعض أبواب سمعها في الفسطاط من عبد الرحمن بن القاسم. وكان أقرب الفقهاء إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضي (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وكان يلتزم من إعظامه وتكرمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ويقول ابن حزم: «إنه كان لا يولّي قاضيا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه المالكي وبذلك انتشر مذهب مالك في الأندلس». ولم يقبل تولى القضاء إذ فرغ نفسه للدراسة ولقاء طلابه الكثيرين.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنوضح - من بعض الوجوه - مدى ما كان للفقهاء المصريين من تأثير في الفقه المالكي وفقهائه في الأندلس فإن إمامهم عيسى بن دينار تخرّج في الفقه المالكي على يد عبد^(٤) الرحمن بن القاسم، وتخرّج مثله على يده سحنون

(٤) يُذكر كثيرا في النصوص الأندلسية أن الفقهاء كانوا يلتزمون بأراء عبد الرحمن بن القاسم المصري الفقيه حتى ليقول أبو الوليد الشقندي في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس واحتفظ بها المقرئ في النفع (طبعة د. إحسان عباس) ٢١٦/٣: «أهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية حتى إنهم كانوا لا يولون قاضيا إلا بشرط أن لا يعدل في أحكامه عن مذهب ابن القاسم».

(١) انظر في ابن دينار ابن الفرضي رقم ٩٧٣ والحميدي ص ٢٧٩ والضبي ص ٣٨٩ والمقتبس لابن حيان (طبعة بيروت - تحقيق مكى) ص ٧٨، ٩٩.

(٢) النفع ١٦٧/٣ وترتيب المدارك للقاضي عياض (طبعة الرباط) ١٧/١.

(٣) راجع في يحيى المقتبس ص ٤٢ و ٨٣ وما بعدها وابن الفرضي رقم ١٥٥٤ والحميدي رقم ٩٠٨ وابن خلكان ١٤٣/٦ والمغرب ١٦٣/١ وترتيب المدارك لعياض (طبع بيروت) ٥٣٤/١.

فقيه القيروان الذي حمل عنه مدونته^(١) وأذاعها بموطنه، فنُسبت إليه، وهى من عمل ابن القاسم وإملاءاته^(٢) على طلابه. وقد تتلمذ عليه من فقهاء قرطبة كثيرون ويدور اسم ابن القاسم تاليا لاسم مالك فى كتب الفقه المالكي الأندلسي، ومثل لذلك بكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار، فقد ذكر مالكاً فى فتاويه وأحكامه نحو تسعين مرة وذكر ابن القاسم ٥٤ مرة. ويذكر أيضا فى تلك الكتب اسم كبار الفقهاء المالكيين بمصر ممن تتلمذ لهم الأندلسيون مثل أشهب بن عبد العزيز رئيس المدرسة المالكية بعد ابن القاسم إلى أن توفى سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج رئيس تلك المدرسة بعد أشهب إلى أن توفى سنة ٢٢٥. ويذكر أيضا فيها الإمام الليث المذكور آنفا الذى قال فيه الشافعى: «الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به» يقصد تلاميذه المصريين. ونرى يحى الليثي عميد الفقهاء المالكيين فى الأندلس المذكور آنفا والذى كان لا يفتى إلا برأى مالك يترك رأيه فى القنوت فى الصبح لرأى الليث، كما يترك رأيه فى الأخذ باليمين مع الشاهد لرأى الليث فى إيجاب شاهدين والمسألة الأخيرة من المسائل الثلاث^(٣) التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا الإمام مالكا مؤثرة رأى الليث، والمسألة الثانية مسألة الخلطة وهى الشركة غير المميزة كأن يكون لرجل فى غنم مائة وعشر ولآخر فى نفس الغنم مائة وعشر فهل تؤخذ الصدقة على مجموعهما فيكون عليها ثلاث شياه أو تؤخذ من كل منهما على حدة فيكون على كل واحد منها شاة واحدة، والفقهاء يختلفون هل تؤخذ الصدقة على الجمع أو على التفريق. والمسألة الثالثة التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا مالكا إلى رأى الليث هى مسألة كراء الأرض للفلاح بجزء مما يخرج منها بالنصف أو الثلث مثلا وهو نظام معروف فى مصر إلى اليوم، وكأن المصريين أخذوا بفتوى الليث على مر الأزمنة كما أخذ بها الأندلسيون. ومررنا أنهم أخذوا بمذهب الأوزاعى فى غرس الشجر فى المساجد مخالفين فى ذلك رأى مالك. وخلف يحى الليثي فى رئاسة المدرسة المالكية بالأندلس عبد^(٤) الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ للهجرة، وله كتاب

(٣) راجع فى هذه المسائل التى خالف فيها مالكية الأندلس مذهب مالك النباهى ص ٥١.

(٤) انظر فى عبد الملك بن حبيب ابن الفرضى رقم ٨١٤ والزبيدى فى طبقات النحويين واللغويين ص ٢٨٢ والحامدي رقم ٦٢٨ والمغرب ٩٦/٢ والمطبع لابن خاقان ص ٣٦ وابن فرحون فى الديباج ٨/٢ وتذكرة الحفاظ ١١٢/٢.

(١) ابن خلكان ١٨١/٣ إذ يقول أصل المدونة أسئلة سأل عنها فقيه القيروان أسد بن الفرات ابن القاسم فأجابها عنها، وجاء بها إلى موطنه فكتبها عنه سحنون ورحل بها إلى ابن القاسم سنة ١٨٨ فعرضها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان سنة ١٩١.

(٢) انظر المقتبس ص ٨٤.

الواضحة في الفقه المالكي الذي اشتهر في الأندلس وبلدان المغرب. ومن كبار الفقهاء بعده ابن عتبة^(١) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٢٥٤ وهو تلميذ يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب، رحل إلى المشرق ومصر وسمع بها أصبغ بن الفرج، وله كتاب المستخرجة وتسمى العتبية نسبة إليه، وطارت شهرتها في الأندلس والمغرب. وكان يعاصره يحيى^(٢) بن مزين المتوفى سنة ٢٥٩ وله كتاب في تفسير الموطأ للإمام مالك أشاد ابن حزم به وبإستقصائه لمعاني الموطأ، كما أشاد بكتاب ثان له في رجال الموطأ. ومن الفقهاء المؤلفين بعده يحيى^(٣) بن عبد الله حفيد يحيى الليثي المتوفى سنة ٣٦٧، وكان يملئ على الطلاب بقرطبة الموطأ وكتاب سماع ابن القاسم وحديث الليث وعشرة^(٤) جدّه يحيى الليثي. وفي ذلك ما يدل على أن كتابا في الأندلس كان يروى عن ابن القاسم يسمى سماعه وهو يقابل كتاب المدونة رواية سحنون في القيروان، كما كان يُروى كتاب آخر عن الليث يسمى حديثه، فكان لكل من هذين الفقيهين المصريين كتاب متداول هناك. وجاء بعد ذلك ابن أبي زمنين^(٥) المتوفى سنة ٣٩٩ وله المغرب في اختصار مدونة سحنون وكتاب في الشروط وشرح كبير على الموطأ.

ونلتقى في زمن أمراء الطوائف بالفقيه المالكي الأندلسي الكبير ابن عبد^(٦) البر يوسف النمري المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة وله «كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمن الموطأ من معاني الرأي والآثار» شرح فيه الموطأ على نسق أبوابه وكلامه شرحا بديعا، وله «كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» رتبته على أساء شيوخ مالك على حروف المعجم، قال ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا، وله كتب لا مثيل لها، منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر جزءا». واشتهر بعده في القرن الخامس أبو الوليد^(٧) الباجي

(١) راجع ابن عتبة في ابن الفرضي رقم ١١٠٢

والحميدي رقم ٥ وابن فرحون ١٧٦/٢.

(٢) انظر في ابن مزين ابن الفرضي رقم ١٥٥٦

والحميدي رقم ٨٨٠ وابن فرحون ٣٦١/٢ والنفع

١٦٨/٣.

(٣) راجع في يحيى بن عبد الله ابن الفرضي رقم

١٥٩٥.

(٤) يريد بعشرة جدّه كتباً عشرة له كان يروها

عن شيوخه وخاصة شيطون.

(٥) انظر مصادر ابن أبي زمنين بين المفسرين

ص ١٠٨

(٦) راجع في ابن عبد البر المطمح ص ٦١

والحميدي ص ٣٤٤ والصلة رقم ١٣٨٦ وتذكرة

الحفاظ ١١٢٨ وابن فرحون ٣٦٧/٢ والمغرب

٤٠٧/٢ وترتيب المدارك ٨٠٨/٤.

(٧) انظر في أبي الوليد الباجي الصلة رقم ٤٤٩

وقلاند العقيان ص ١٨٨ والنباهي ص ٩٥ والمغرب

٤٠٤/١ ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١ وابن خلكان

٤٠٨/٢ وابن بسام المجلد الأول من القسم الثاني

ص ٩٤.

سليمان بن خلف المتوفى سنة ٤٧٤ رحل وسمع منه خلق كثير غربا وشرقا وله كتاب الاستيفاء شرح الموطأ، والمنتنقى مختصره، والإيماء مختصر المنتقى، وكتاب في الأصول باسم إحكام الفصول في أحكام الأصول، وأيضا كتاب المقتبس من علم مالك بن أنس والمهذب في اختصار مدونة سحنون. ويلقانا في القرن السادس ابن^(١) رشد الجد أبو الوليد محمد بن أحمد أشهر فقهاء المالكية في زمنه المتوفى سنة ٥٢٠ وله «البيان والتحصيل لما في المستخرجة (العتبية) من التوجيه والتعليل» بسط فيه الأحكام الفقهية لمذهب مالك بحسب ما جاءت في المستخرجة، وكتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة. وجاء بعده الفقيه المتبحر أبو^(٢) بكر بن العربي محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٥٤٣ وله كتاب القيس في شرح موطأ مالك بن أنس، وشرح عليه ثان باسم ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك، سوى كتب أخرى كثيرة في شرح كتب الصحاح في الحديث وفي أحكام القرآن. ويختم القرن السادس بابن رشد المتفلسف حفيد ابن رشد الفقيه، وله في الفقه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد ويقول ابن الأبار: ذكر فيه أسباب الخلاف وعُلل ووجه فافاد وأمتع به، ولا يعلم في فنه أنفع منه ولا أحسن مساقا^(٣). ولا تكاد الأندلس بعد ذلك تخرج فقيها مالكيا كبيرا باستثناء ابن حرب محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤١ وله كتاب الفوائد الفقهية في المذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية في ثلاثة مجلدات وجاء بعده ابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٢٩ وله أرجوزة في الفقه المالكي في نحو ١٦٩٠ بيتا وهي منشورة في باريس منذ القرن الماضي، وكان الطلاب يدرسونها في جامعة فاس إلى عهد قريب.

ولعل فيما سبق ما يدل على مدى ازدهار المذهب المالكي في الأندلس، وكان من أهم الأسباب في ذلك أن جُمع له القضاء، فكان له غير قليل من السلطان والرياسة، والناس سراع إلى طلب الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. ولذلك قل من اعتنق مذهب^(٤) أبي حنيفة، إذ عُدَّ مذهب العباسيين خصوم الأمويين في الأندلس، ومثله المذهب

فرحون ٢٥٢/٢.

(٣) التكملة رقم ٨٥٣.

(٤) ممن ذكر عنه أنه تأثر بالفقه الحنفي محمد بن عيسى الأعشى وكان من الفقهاء المشاورين في عهد عبد الرحمن الأوسط. انظر ابن الفرضي رقم ١١٠٠ والمقتبس (طبع بيروت) ص ٤٢.

(١) انظر في ابن رشد الجد الصلة رقم ١١٥٤

والنباهي ص ٩٨ والديباج ٢٤٨/٢

(٢) راجع في ابن العربي الضبي رقم ١٧٩

والنباهي ص ١٠٥ والمغرب ٢٥٤/١ والصلة رقم ١١٨١ وابن خلكان ٢٩٦/٤ وتذكرة الحفاظ رقم ١٢٩٤ وأزهار الرياض ٨٦/٣ - ٩٥ وابن

الحنبلي البغدادي، أما المذهب الشافعي فعنى به بعض الفقهاء ممن كانوا ينزلون مصر، وكثرتهم كانت تتلمذ لأصحاب مالك من مثل عبدالرحمن بن القاسم وأشهب وأصبع ومن جاء بعدهم، وقلة منهم كانت تتلمذ لأصحاب الشافعي من مثل المزني ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وإبراهيم بن المنذر وأبي الطاهر أحمد بن عمرو ويونس بن عبدالأعلى والحارث بن مسكين وإبراهيم بن محمد ابن عم الشافعي ومن جاء بعدهم. وأول فقيه شافعي يلقانا بقرطبة هو قاسم^(١) بن محمد بن سيار المتوفى سنة ٢٧٦ تتلمذ لبعض من سميتهم من أصحاب الشافعي بالفسطاط ولزم منهم خاصة محمد بن عبدالله بن عبدالحكم للتفقه والمناظرة وصحبه وتحقق به، وعاد إلى الأندلس فعنى بنشر مذهب الشافعي عن طريق التأليف والتدريس، ومما ألف كتاب الإيضاح في الرد على ابن عتية وابن مزين الفقيهين المالكيين المار ذكرهما في ترك التقليد والأخذ بالحجة والنظر، والتف حوله بعض الشباب من الفقهاء أمثال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة وسعيد بن عثمان الأعناقى. وكان يعاصره بقى بن مخلد، ولم يكن يعيش لمذهب الشافعي مثله غير أنه كان يدعو إلى النظر فيه بجانب مذهب مالك والمذاهب الفقهية الأخرى، وكان قد رحل وتلمذ لشافعيين مختلفين ولأحمد بن حنبل. ويذكر ابن الفرضي من فقهاء الشافعية يحيى بن عبدالعزيز المعروف بابن الخراز^(٢) المتوفى سنة ٢٩٥ تتلمذ بمصر للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم أصحاب الشافعي وليونس بن عبدالأعلى، ومما سمعه من ابن عبدالحكم مختصر المزني ورسالة الشافعي. ومن شافعية الأندلس تلميذ لبقى وقاسم هو أبو الخيار هرون^(٣) بن نصر القرطبي المتوفى سنة ٣٠٢ وكان قد تفقه بكتب الشافعي. ومن فقهاء الشافعية في القرن الرابع الهجري أسلم^(٤) بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣١٩ وقد رحل إلى المشرق وتلمذ للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم أصحاب الشافعي، وعاد إلى قرطبة، وولى بها قضاء الجماعة مرتين في أيام عبدالرحمن الناصر وكان يقضى بين الناس بما عليه الجماعة هناك من مذهب مالك..

فرحون ٣٦٠/٢

(٤) انظر في أسلم ابن الفرضي رقم ٢٧٨ والحميدى رقم ٣٢٢ والقضاة للخشنى ص ١٥٥ وابن فرحون ٣٠٨/١ والإحاطة (نشر عنان) ٤٢٧/١.

(١) راجع ابن سيار في الحميدى ٣١٠ وابن الفرضي ٣٩٧/١ والسبكي في طبقات الشافعية (طبعة الحلبي الجديدة) ٣٤٤/٢.

(٢) راجع في يحيى ابن الفرضي رقم ١٥٦٨.

(٣) انظر في هرون ابن الفرضي رقم ١٠٤٧ وابن

وكان عبد الله بن عبد الرحمن الناصر شافعيًا، وثبت لأبيه أنه يدبر مؤامرة ضده، فأمر بقتله سنة ٣٣٩ ولو قدرت له الحياة لأعان على انتشار المذهب الشافعي في الأندلس. ووفد في عصر المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) فقهاء يحملون المذهب الشافعي فأكرمهم وتوسع لهم في العطاء والرواتب مثل عبيد^(١) الله بن عمر المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٠ وكان إمامًا في الفقه على مذهب الشافعي كثير التصنيف فيه وفي القراءات والفرائض. ومن فقهاء الشافعية المهمين في القرن الرابع الأصيلي^(٢) عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ وله كتاب في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة سباه كتاب الدلائل على أمهات المسائل. ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن الرابع ابن^(٣) أمية الحجاري وله كتاب في أحكام القرآن نوه به ابن حزم قائلًا إنه كان بصيرًا بالكلام، وقلما نسمع بعد عصر بني أمية عن فقهاء شافعيين مهمين.

وعرفت الأندلس مبكرًا مذهب الظاهرية في الفقه لصاحبه داود بن خلف الظاهري المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ إذ تتلمذ له أندلسي هو عبد الله بن محمد بن قاسم المتوفى سنة ٢٧٢، وقد نسخ كتيبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس واجتهد في نشر المذهب، ولم يكتب له النجاح فيما ابتغى إذ لقي معارضة شديدة من فقهاء المذهب المالكي. ونمضى إلى القرن الرابع الهجري، وتلتقى بمنذر^(٤) بن سعيد المتوفى سنة ٣٥٥ وقد رحل إلى المشرق ودرس على شيوخه من الفقهاء واللغويين، وعاد إلى بلده يحمل معجم العين للخليل عن ابن ولاد المصري واختلاف العلماء رواية عن ابن المنذر النيسابوري، كما يحمل مذهب داود الظاهري، وكان خطيبًا مفوهًا، وولاه عبد الرحمن الناصر الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ثم ولاه قضاء الجماعة وظل يليهما في عهد ابنه الحكم وكان شديدًا في دينه لا تأخذه في الله لومة لائم، وله مع الناصر عظات محمودة، وكان مذهبه الفقهي المذهب الظاهري وكان يحتج له ويحامي عنه ويؤثره، حتى إذا جلس مجلس القضاء قضى بمذهب مالك الذي عليه العمل في بلده ولم يعدل عنه، ويقول ابن حزم إنه كان قويًا على الانتصار للمذهب الظاهري، وله كتاب في أحكام القرآن غاية في بابه. ويلقانا في القرن

(٣) راجع في ابن أمية الحميدى ص ٣٨٠ وقد سباه ابن أمية وانظر في كلمة ابن حزم عنه النفع ١٦٩/٣.
(٤) انظر مصادر منذر في ترجمته بالفصل الخامس.

(١) راجع في عبيد الله بن عمر ابن الفرضى رقم ٧٦٩.
(٢) انظر في الأصيلي ابن الفرضى رقم ٧٨٥ وابن فرحون ٤٣٣/١

الخامس إمام مذهب الظاهرية في الأندلس على^(١) بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ، وكان من أسرة نابهة، إذ كان أبوه وزيراً للمنصور بن أبي عامر، ونشأ نشأة مترفة، ولم تلبث الفتنة أن هبت على قرطبة منذ سنة ٤٠٠هـ فخرج من قرطبة وعاد إليها مراراً وأقامه المستظهر وزيراً سنة ٤١٤هـ ولم يلبث المستظهر أن قتل فصم ابن حزم على اعتزال السياسة والتفرغ للعلم والأدب، وكان قد عكف على دراسة المذهب المالكي، ورأى العدول عنه إلى مذهب الشافعي ثم عدل عنه إلى دراسة المذهب الظاهري على أبي الخبار مسعود بن مفلت المتوفى سنة ٤٢٦هـ واعتنقه مؤمناً به، وألف فيه كتاب الإبطال وفيه يبطل الأصول الخمسة التي أخذ بها الأحناف والشافعية، وهي القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، فكل ذلك ينبغي إبطاله والاكْتفاء بالكتاب والسنة. وله كتاب في أصول المذهب المالكي القائمة على التقليد، وكتاب ثان يناقش فيه أصول المذهب الشافعي وفروعه. ومعروف أن المذهب الظاهري ازدهر في عصر دولة الموحدين إذ كانت تعتنقه مذهباً فقهياً لها من دون المذاهب المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل واتخذ ذلك شكل ثورة عنيفة في عهد يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥) حتى لنجده يأمر بحرق كتب تلك المذاهب، وكان طبيعياً لذلك أن تصبح كثرة القضاة من فقهاء المذهب الظاهري يتقدمهم قاضي القضاة ابن مضاء^(٢) أحمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٢هـ وابن^(٣) حوط الله عبد الله المتوفى سنة ٦١٢هـ وكان قد ولي القضاء ببلدان أندلسية كثيرة مثل إشبيلية وقرطبة ومثلها ابن^(٤) خطاب الإشبيلي على بن عبد الله قاضي إشبيلية المتوفى سنة ٦٢٩هـ وابن الرومية المار ذكره بين الصيادلة. ويعود المذهب المالكي بعد زوال دولة الموحدين - بقوة - إلى سلطانه القديم وقلما نسمع عن أتباع للمذهب الظاهري، ويتحول عنه كثيرون على نحو ما تحول أبو حيان المار ذكره بين المفسرين فقد بدأ حياته ظاهرياً ثم تحول إلى المذهب الشافعي.

ولم نعرض لفقهاء القضاء المالكيين في الأندلس لأن لهم كتباً متعددة مطبوعة تعنى بهم مثل كتاب القضاة للخشني ولابن عبد البر كتاب مائثل وكذلك للنباهي، وإنا يهمننا من دفعوا الحركة الفقهية المالكية في الأندلس إلى الازدهار بدراساتهم المذهب للطلاب

(٣) راجع في ابن حوط الله النباهي ص ١١٢ والتكملة ٨٣٨/٢.

(٤) انظر في ابن خطاب التكملة رقم ١٩٠١.

(١) راجع في مصادر ابن حزم ترجمته في الفصل الخامس.

(٢) مرت مصادر ابن مضاء في ص ٩٧.

ومؤلفاتهم النفيسة. على أنه ينبغي أن أشير إلى أن النظام القضائي بالأندلس رافقته ثلاث ظواهر لا يعرفها نظيره في المشرق، أولها أنه كان هناك - منذ أول الأمر - هيئة استشارية^(١) من الفقهاء يرجع إليها القضاة للتشاور وإبداء الحكم السديد في القضايا المشكلة، وهى تشبه ما نعرف في قضائنا المعاصر من قيام هيئة استشارية بجانب محاكم مجلس الدولة للرجوع إليها في القضايا الملتبسة ودراستها وإبداء الحكم فيها وقد نقلنا ذلك عن القضاء الفرنسى. والظاهرة الثانية ظاهرة هيئة المحامين من الفقهاء عن أصحاب الدعاوى والمتهمين على نحو ما نعرف في قضائنا اليوم، وكان من يوكل عنه محامياً يثبت ذلك في عقد بينه وبين المحامى^(٢) وكان للمحامى الحق في أن ينيب من يترافع عنه في القضية أمام القاضى، ويثبت ذلك أيضاً في عقد بينها^(٣). والظاهرة الثالثة وضع كتب باسم الوثائق يضعها كبار الفقهاء تبين للناس كيفية العقود وصيغها القانونية، وهى كتب بالغة الأهمية في بيان الأحوال الاجتماعية في الأندلس إذ تعرض علينا عقود المعاملات في المزارعات وغيرها من الاستتجارات، ومن الطريف أن نعرف أنه كانت هناك محلات لاستتجار الخيل والسلاح للحرب واستتجار الثياب والحلى والكتب^(٤)، وكان لابد لإسلام نصرانى أو يهودى من وثيقة يقدمها للقاضى وعليها شهادة شهود بأنه أسلم غير مكره ولا فاراً من شىء ولا متوقع لأمر، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذى لا يقبل الله سواه، وأنه أسلم على يد فلان القاضى أو صاحب الشرطة أو المدينة أو السوق^(٥).

ولم تعرف الأندلس الخلافات الكلامية الكثيرة التى عرفها المشرق، ولذلك لم تنشأ فيها فرق المرجئة والجبرية والقدرية أو المعتزلة أو بعبارة أدق لم تجد لها أنصاراً فيها إلا ما كان من الاعتزال بسبب قراءة بعض الراحلين إلى المشرق لكتابات الجاحظ المعتزلى ونقلهم لها إلى الأندلس، فأخذ الناس يقرءون كتاباته وأخذوا يحاولون التعرف على الاعتزال منذ القرن الثالث الهجرى ومن المعتزلة القدامى حينذاك عبد الأعلى بن وهب

(١) يتردد أسماء هذه الهيئة في مقتبس ابن

حيان لمعهد بنى أمية ويسميهام المشاورين.

(٢) انظر في ذلك كتاب الوثائق والسجلات لابن

الطار الأندلسى المتوفى سنة ٣٩٩ (طبع مدريد)

ص ٤٩٨. وراجع ترجمة ابن الطار في الديباج

المذهب ٢٣١/٢.

(٣) ابن الطار ص ٥٠٠.

(٤) راجع ابن الطار ص ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٦.

(٥) ابن الطار ص ٤٠٥، ٤٠٩.

القرطبي المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة وكان يقول بحرية الإرادة^(١) للإنسان، وكان يعاصره معتزلى مثله هو خليل الغفلة، وكان يقول مثله بحرية الإنسان^(٢) في أفعاله، وتابعه في اتجاهه الاعتزالي ابن السمينة^(٣) يحيى المتوفى سنة ٣١٥ إذ يقول صاعد إنه كان معتزلياً. وأول معتزلى أندلسى دعا إلى الاعتزال بمعناه الكامل ابن مسرة الذى أُلْمِنَا به فى أول حديثنا عن الفلسفة ملاحظين من كتاب أمر الناصر فى سنة ٣٤٥ بتلاوته على الناس لبيان خروجه هو وتلاميذه عن العقيدة السنية للجماعة بترويجها لأفكار المعتزلة من مثل قولهم بخلق القرآن وبأن الانسان حر فى إرادته ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد على الله. ومع ذلك ظل له تلاميذ يرددون آراءه الاعتزالية، واضطروا إلى الاختفاء - كما أسلفنا - فى عهد الناصر وعادوا إلى الظهور فى عصر ابنه الحكم لما نشر من التسامح إزاء الاعتزال وغيره من العقائد. ولم يلبث أن خلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبى عامر الذى أظهر التشدد فى كل ما يخالف آراء أهل الأندلس، ومع ذلك كان حكم بن منذر بن سعيد فى عهدهما رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم كما يقول^(٤) ابن حزم، واضطرت شيعة ابن مسرة إلى الاختفاء ثانية فى عهد ابن أبى عامر وعادت إلى شىء من النشاط فى عصر أمراء الطوائف على نحو ما مرَّ بنا - فى حديثنا عن ابن مسرة - وداعية تعاليمه إسماعيل الرعيني. ولا نسمع بعده عن نشاط اعتزالي أو كتب اعتزالية لأندلسيين. ويبدو أن كثيراً من كتابات المعتزلة والمتكلمين عامة تسرب إلى الغرب عن طريق ما حملته الأندلس من تلك الكتابات على نحو ما حملت إليه من علوم الطب والرياضيات والصيدلة مما هيا لقيام التأليف العلمى فى أوروبا ولنهضتها العلمية، كما هيا لقيام التفكير الفلسفى فيها. ومن أقوى الدلالات على تأثير المعتزلة فى التفكير الأوروبى أن نجد ديكارت (١٥٩٧ - ١٦٥٠ م) أباً الفلسفة الغربية الحديثة يقيم فلسفته على مبدئين يلتقيان بأفكار المعتزلة والمتكلمين وهما مبدأ الشك فى حقائق الأشياء حتى نتبين فيها وجه اليقين ويردد الجاحظ هذا المبدأ عن أستاذه النظام فى كتابه الحيوان مستشهداً بقوله: «لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك». وكان حرياً بالأستاذ الدكتور طه حسين حين نوه بهذا المبدأ فى أوائل كتابه «فى الأدب الجاهلى».

الفرضى رقم ٥٧٨، والنفع ٣/٣٧٥ وبالنشيا
ص ٣٢٥.

(٤) طوق الحماية (تحقيق د. الطاهر مكى) ص
٧٢.

(١) انظر ترجمته فى ابن الفرضى رقم ٨٣٥ وابن
فرحون ٥٥/٢ وبالنشيا ص ٣٢٥.

(٢) راجع ترجمته عند ابن الفرضى رقم ٤١٧
وبالنشيا ص ٣٢٥.

(٣) انظر فيه طبقات الأئم لصاعد ص ١٠١ وابن

وأضافه إلى ديكرات أن يضيفه إلى أصحابه الحقيقيين من المعتزلة. والمبدأ الاعتزالي أو الكلامي الثاني أشار إليه بيير دانييل هويه إذ قال إن ديكرات أخذ عن أهل الفكر والجدل الإسلاميين مبدأه الفلسفي: «أنا أفكر فأنا موجود»^(١) مما يقتضى وجود الله، وحديث المتكلمين والمعتزلة عن وجود الإنسان الممكن ووجود الله الواجب علة وجوده معروف. وبذلك يكون المبدأ أن الأصلان الأساسيان للفلسفة الأوربية اجتلبهما ديكرات اجتلاباً مما ترجم في اللاتينية من كتابات الكلاميين الإسلاميين وخاصة المعتزلة. وقد ذكر المقرئ في^(٢) النفح عن شخص يسمى محمد بن خلف أنه كان متكلماً متحققاً برأى الأشعرية، وأنشد له بيتين في مديح إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ للهجرة، وإعلانه حبه له وإيمانه بعقيدته ومعروف أنه إمام كبير من أئمة الأشعرية.

وإذا كانت الأندلس لم تنتج في الاعتزال والدراسات الكلامية بحوثاً خصبة، فإنها أنتجت عند ابن حزم أروع تاريخ ناقد للأديان والفرق والمذاهب الدينية من إلهية ووثنية بكتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وهو عرض باهر لكل ما يتصل بعلم الكلام في الإسلام، وفيه ينقض نقضاً دقيقاً مذاهب الزنادقة وعقائد المجوسية، كما ينقض عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة: السامرية والصدوقية والقراءة والربانية والعيسوية أتباع أبي عيسى الأصبهاني، وينكر صحة العقيدة المسيحية وقواعدها الأخلاقية قائلاً إنها جميعاً من صنع البشر. ويرى أن الكلمات في التوراة وفي الإنجيل بعهديه - القديم والجديد - حُرِّفت عن مواضعها على أيدي أصحابها من اليهود والنصارى. وينتهي من دراساته المتعمقة في التوراة والإنجيل وعقائد الوثنيين والمجوس والزنادقة إلى أن الدين الصحيح المنزل من السماء هو الإسلام، ويدلل - ببراهين قاطعة - على صحته وصحة النبوة المحمدية والوحى الإلهي، وكيف أن الله نسخ بالإسلام ما أوحى به قبله إلى أنبياء بني إسرائيل بما فيهم عيسى، إذ يعده - كما يعده المسلمون عامة - نبياً مرسلًا.

للدكتورين أحمد أمين وزكي نجيب محمود ١٠٠/١.
(٢) النفح ٣/٣٥٣.

(١) بالنسبة ص ٥٣٤. وانظر في مبدأ ديكرات
الفلسفي ترجمته في قصة الفلسفة الحديثة

التاريخ

نشطت الأندلس - منذ القرن الثالث الهجري - في الكتابة التاريخية سواء منها ما اتصل بالتاريخ العام للأندلس وغيرها من الدول العربية أو بالتاريخ الخاص لتلك الدول ومدنها وأعلامها أو بالسيرة النبوية العطرة أو بكتب التراجم من كل لون، ومع كثرة ما فقد في هذه الجوانب لا تزال بقية كبيرة منها. ويتضح في كتب التاريخ العام تأثر المؤرخين هناك بالمؤرخين المصريين من أمثال ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر والمغرب. وأول ما يلقانا من هذه الكتب كتاب لعبد الملك بن حبيب رئيس المدرسة المالكية بعد يحيى الليثي الذي مر بنا ذكره بين فقهاءها، وهو يتحدث فيه عن ابتداء خلق الدنيا وخلق آدم وحواء وقصة إبليس معها وتاريخ الأنبياء وخاتمهم المصطفى ﷺ وألم بالخلفاء وافتتح الأندلس وولاتها وحكامها إلى زمنه في عهد عبد الرحمن الأوسط، ومنه مخطوطة بمكتبة بودليانا في أوكسفورد^(١). وملتقى بعده بعريب^(٢) المتوفى سنة ٣٣١ وكتابه صلة تاريخ الطبري وهو مثله على السنوات بادئاً بسنة ٢٩١ حتى سنة ٣٢٠ وفيه أضاف أخبار إفريقيا والأندلس. ولابن حزم المار ذكره بين الفقهاء والمترجم له في الفصل الأخير رسالة تدخل في التاريخ العام سماها نقط العروس في تواريخ الخلفاء ونوادير أخبارهم نشرتها في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥١. ولابن الخطيب المترجم له بين الكتاب كتاب إعلام الأعلام في تاريخ الأندلس والمغرب. وتكثر الكتب الخاصة بتاريخ الأندلس وفي مقدمتها أخبار ملوك الأندلس لأحمد^(٣) بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ وكتاب الموعب لابنه عيسى، والكتابان مفقودان. وملتقى بكتاب الأخبار المجموعة، لمؤلف مجهول، ويمتد التاريخ فيه من الفتح إلى زمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) مما يؤكد أنه ألف في أيامه، كما نلتقى بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية المار ذكره بين اللغويين، وهو يعرض في الكتاب تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهاية أيام الأمير عبد الله

الخامس من كتاب الذيل والتكملة للمراكشي
ص ١٤١ وكتابه منشور بدار المعارف.
(٣) انظر مصادر ترجمة الرازي بين الجغرافيين
ص ٨٩.

(١) راجع مقال د. مكى عن هذا المخطوط في
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بالمجلد الخامس
ص ٢٢١، ١٩٨٩.
(٢) انظر في ترجمة عريب القسم الأول من الجزء

(٣٧٥-٣٠٠هـ). وملتقى في عصر أمراء الطوائف بآبن حيان كبير مؤرخى الأندلس المتوفى سنة ٤٦٩ وموسوعتيه التاريخيتين الكبيرتين: المقتبس والمتين وسنلم بهما فى الفصل الأخير، وليحيى^(١) بن الصيرفى المتوفى سنة ٥٥٧ كتاب فى تاريخ دولة لمتونة (المرابطين) وجاء بعده ابن صاحب^(٢) الصلاة المتوفى سنة ٥٧٧ وله فى تاريخ الموحدين كتاب باسم «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدي إمام الموحدين». ويلقانا عبد الواحد^(٣) المراكشى المتوفى بعد سنة ٦٢١ ومع أنه مغربى درس فى الأندلس وعنى بكتابة تاريخها منذ الفتح إلى سنة ٦٢١. وجاء بعده أبو الحجاج البياسى^(٤) يوسف بن محمد صاحب كتاب الحماسة المغربية المتوفى سنة ٦٥٣ وله تاريخ ذيل به على تاريخ ابن حيان إلى عصره. ويلقانا بعده لسان الدين بن الخطيب، المترجم له فى الفصل الأخير وله كتاب اللوحة البدرية فى الدولة النصرىة، وهو تاريخ لبني الأحمر حكام غرناطة، ومثله كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمجهول.

وتكثر الكتابة فى السيرة النبوية الزكية على هدى سيرة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٢١٨ للهجرة ولا بن حزم فيها «جوامع السيرة النبوية» ولا بن عبد البر الفقيه المار ذكره فيها كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير، وهما منشوران بدار المعارف. وللقاضى عياض كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ وهو سبقي، وأولى لذلك أن نذكره فى الجزء الخاص بالمغرب، وللکلاعى^(٥) سليمان بن موسى المتوفى سنة ٦٣٤ كتاب الاكتفاء، بما تضمنه من مغازى رسول الله ﷺ ومغازى الثلاثة الخلفاء وهو منشور بالقاهرة، ولا بن^(٦) سيد الناس الإشبلى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ فى السيرة النبوية «عيون الأثر فى فتون المغازى والشهائل والسير» وهو منشور بالقاهرة من قديم فى مجلدين.

وتتكاثر كتب تراجم العلماء من كل صنف والأدباء من شعراء وكتاب، ومن الكتب

واختصار القدرح المعلق (طبع القاهرة) بتحقيق الأستاذ الإيبارى ص ٩٤.

(٥) انظر فى الكلاعى التكملة رقم ١٩٩١

والمغرب ٣١٦/٢ وتحفة القادم رقم ٩٠ وابن

فرحون ٣٥٨/١.

(٦) راجع فى ابن سيد الناس الدرر الكامنة

للسيوطى ٢٠٨/٤ والنجوم الزاهرة ٣٠٣/٩.

(١) راجع فى ترجمة ابن الصيرفى التكملة رقم ٢٠٤٥ والمغرب ١١٨/٢.

(٢) انظر ترجمة ابن صاحب الصلاة فى التكملة رقم ١٧٢٦ وكتابه منشور.

(٣) راجع فى ترجمة عبد الواحد مقدمة كتابه المعجب لمحققه محمد سعيد العريان.

(٤) انظر فى ترجمة البياسى المغرب ٧٣/٢.

العامة كتاب الاستيعاب لابن عبد البر في تراجم الصحابة، وكتاب جهرة أنساب العرب لابن حزم وهو مفيد في تراجم الأندلسيين والكتابان منشوران. ومن كتب تراجم الأندلسيين العامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي^(١) عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ وكتاب طبقات الأمم لصاعد^(٢) المتوفى سنة ٤٦٢، وجذوة المقتبس للحميدى^(٣) محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٨٨ وينتهى به عند المتوفين سنة ٤٤٩ وكتاب الصلة لابن بشكوال^(٤) المتوفى سنة ٥٧٨، وكتاب بغية الملتبس للضبي أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ وقد اعتمد على الحميدى في جمهور تراجمه، وكتاب التكملة لابن الأبار المترجم له في الفصل الرابع المتوفى سنة ٦٥٨ وهو تكملة لكتاب الصلة، وله كتاب الحلة السيرة في تراجم العلماء والأدباء والأمراء الذين نظموا الشعر في الأندلس والمغرب وله أيضاً معجم الصدفى وشيوخه وأصحابه، وللملاحى^(٥) محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦١٩ كتاب في علماء البيرة وغرناطة، وكتاب صلة الصلة لابن الزبير^(٦) أحمد بن إبراهيم الغرناطى المتوفى سنة ٧٠٨ وهو صلة وتنمة لكتاب ابن بشكوال. وأخيراً كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة وعلمائها وأدبائها لابن الخطيب وهو في أربعة مجلدات. ومن كتب تراجم الفقهاء والقضاة كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى^(٧) المتوفى سنة ٣٦١ والمرقبة العليا للنباهى^(٨) المتوفى سنة ٧٩٣. ومن كتب تراجم الأطباء طبقات الأطباء والحكماء حتى عصر المستنصر لابن جلجل المتوفى سنة ٣٧٧ ومراً ذكره بين الصيادلة. ومن كتب تراجم اللغويين طبقات النحويين واللغويين للزبيدي المار ذكره، وألفت في أخبار الشعراء بالقرن الرابع كتب مختلفة مفقودة منها كتاب لعبادة بن ماء السماء المترجم له بين الشعراء، ويلقانا كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب

(٦) راجع في ترجمة ابن الزبير الذيل والتكملة للمراكشى ٣٩/١ والإحاطة ٨٨/١ والدرر الكامنة ٨٤/١ والمنهل الصافي ١٩٧/١ وطبقات القراء ٣٢/١ وابن فرحون ١٨٨/١.

(٧) انظر في الخشنى ابن الفرضى رقم ١٣٩٨ والضبي رقم ٩٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٣ والأنساب للسمعاني الورقة ٢٠٠.

(٨) راجع في النباهى الجزء الثانى من أزهار الرياض ونيل الانتهاج لأحمد بابا ص ٣٠٥ وشذرات الذهب ١٠٨/٦.

(١) انظر في ابن الفرضى كتاب الصلة رقم ٥٦٧ والحميدى ٢٣٧ والمغرب ١٠٣/١ والذخيرة ٦١٤/٢.

(٢) راجع في صاعد الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥.

(٣) انظر مصادر الحميدى بين المحدثين ص ١١٠.

(٤) راجع ابن بشكوال في التكملة رقم ١٧٩ ومعجم شيوخ الصدفى لابن الأبار رقم ٧٠ وابن فرحون وابن خلكان ٢٤٠/٢.

(٥) انظر في الملاحى التكملة رقم ٩٦٠ والمغرب ١٢٦/٢.

(الأندلس) لابن دحية^(١) المتوفى سنة ٦٣٣. وتكثر الكتب الخاصة بالأدباء من شعراء وكتاب، وفي مقدمتها قلائد العقيان والمطمح للفتح^(٢) بن خاقان والذخيرة لابن بسام وهي في ثمانية مجلدات. وسنلم بها في الفصل الأخير، ولابن الأبار غير كتاب ومن كتبه الحلة السيرة المذكورة آنفاً وكتاب تحفة القادم في تراجم الشعراء ونشر منتخب له بمجلة المشرق في العديدين الثالث والرابع من سنتها الحادية والأربعين، ولابن^(٣) سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب المغرب وقد نشرت القسم الخاص بتراجمه الأندلسية في جزءين بدار المعارف، وله الغصون الياضعة في محاسن شعراء المائة السابعة وهو منشور بالدار أيضاً، ونشر له بالقاهرة اختصار كتابه القدح المعلى وبه طائفة كبيرة من شعراء الأندلس في النصف الأول من القرن السابع. ولابن الخطيب كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ولابن^(٤) الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. وقبل أن نختم الحديث عن نشاط الأندلسيين في كتابة التاريخ ينبغي أن نشير إلى أن لهم رسائل سجلوا فيها روائع علمائهم وأدبائهم مثل رسالة فضل الأندلس لابن حزم المدونة في نفع الطيب، وأهم من ذلك كتب الفهرسة بأسماء الشيوخ وما حُمل عنهم من الكتب مثل فهرسة^(٥) ابن خير المتوفى سنة ٥٧٥.

دار المعارف).
(٤) انظر في ابن الأحمر درة المجال لابن القاضي
(طبع الرباط) ١١٦/١ وجذوة الاقتباس ٦٩ ونيل
الابتهاج ٩٩.
(٥) راجع في ابن خير التكملة رقم ٧٨٠ والضبي
٦٥ والذيل والتكملة للمراكشي (تحقيق د. محمد بن
شريفه) ٢٩٩/٨ وطبقات القراء لابن الجزري
١٣٩/٢.

(١) انظر في ابن دحية التكملة رقم ١٨٣٢ وصلة
الصلة ٧٣ وابن خلكان ٤٤٨/٣.
(٢) انظر في الفتح بن خاقان معجم الصدقي:
٣٠٠ والمغرب ٢٥٩/١ ومعجم الأدباء ١٨٦/١٦
والذيل والتكملة للمراكشي ٥٢٩/٥ وابن خلكان
٢٣/٤.
(٣) راجع في ابن سعيد الإحاطة ٢٣٠/١
والفوات لابن شاذلي ١٨١/١ ومقدمتنا لنشر
القسم الأندلسي من كتابه المغرب (طبع

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الأندلس - كثرة الشعراء

(أ) تعرب الأندلس

مرّ بنا أنه كان بالأندلس قبل الفتح العربي الإسلامي عناصر جنسية مختلفة، منها الأوربي من الغالة والبسك والجلالقة والإغريق والرومان والقانдал والقوط، ومنها الآسيوي من الفينيقيين والقرطاجنيين واليهود، ونزلها مع الفتح عرب من آسيا: قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضيرون ونزلها معهم بربر كثيرون من أفريقيا وكانوا ينقسمون مثل العرب إلى قبيلين كبيرين: بُتر وكانوا ينحازون إلى العرب العدنانيين، وبرانس وكانوا ينحازون إلى العرب القحطانيين، وجلب الحكام الأمويون إلى الأندلس كثيرين من الصقالبة، وبذلك كله كانت الأندلس مجمعا لعناصر جنسية شتى. وذكرنا - فيها أسلفنا من حديث - أن الرومان أدخلوا فيها المسيحية، وأن بعض أهلها شاركوا في الأدب والفكر اللاتينيين ولكن لا في موطنهم بالأندلس، وإنما في روما نفسها حين نشأوا فيها أو هاجروا إليها. والأندلس بل جميع شبه جزيرة إيبيريا لم تستطع في تاريخها القديم أن تضيف إلى تاريخ الحضارة الإنسانية شيئا ذا بال يذكر لها. ونزلتها منذ أوائل القرن الخامس للميلاد قبائل جرمانية متبربرة من القندال والقوط قضت - أو كادت - على ما كان بها من حضارة رومانية، وأنزلت بها ضروبا من العنف والظلم حتى كاد أهلها يستحيلون إلى ما يشبه الرقيق، سوى ما نشروا في البلاد من الجهل، مما جعل الأندلس تلقى العرب والبربر الفاتحين بلهجة رومانسية عامية مجدبة من كل ما يتصل بالعلم والفكر والدين إلا ما كان من مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد وقد أشرنا إليها في الفصل الماضي وقلنا إنها تعرض صورة ساذجة للتاريخ والعلوم ولبعض تفسيرات للكتاب المقدس، كما قلنا إنها تمتلئ بأخطاء كثيرة، وتدل - بوضوح - على ما كان يعم الأندلس وإيبيريا عامة من جهالة مطبقة وتخلف شامل في مضمار الدين

والفكر والعلوم مع ما كان يعمها من فقدان الحرية والعدل الذى لا تطيب حياة أى شعب بدونها بل إنها تصبح نُكْرا وشرا خالصين مع ما كان يجثم عليها من الظلم والقهر البشع والبؤس التعس.

وكأنما كُتب للأندلس - حينئذ - أن تتخلص من كل هذه الخطوب المدهمة بنزول العرب فيها حاملين إلى أهلها تعاليم دينهم السماح في معاملة أهل الكتاب من النصارى واليهود بمنتهى الرفق، بحيث تُكْفَل لهم حريتهم الدينية في عباداتهم وما يتخذون لها من كنائس وبيوت وشعائر دون أى تدخل، وبحيث يُرْفَع عنهم ثقل الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم القوط وأحالوا بها حياتهم إلى صور بغیضة من البؤس والظلم والهوان. وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة التى حررت أهل الأندلس من جُور القوط بعد أن كانوا مسترقين لهم استرقاقا قبيحا، والتى ملأت الأندلس بالعدل الذى يعطى لصاحب الحق حقه دون أى حيف، والذى يسوى بين الناس في مواجهة الحياة بقسطاس مستقيم، سببا قويا في أن يعتنق كثيرون من مسيحيي الأندلس الإسلام لما يرون فيه من مُثلٍ إنسانية رفيعة، ومن دين قويم لا تشوبه أى شائبة من فكرة التثليث المعقدة في الدين المسيحى، مع ما يتيح لمعتنقه من سعادة في دنياه وآخرته، وأيضا لأن من كان يعتنق الدين الحنيف منهم يصبح له جميع حقوق العربى الفاتح لدياره، فله كل ما للمسلمين الفاتحين من هذه الحقوق. وهى ذلك سريعا في الأندلس لأن تدخل أفواج متلاحقة في الإسلام وكانوا يسمون المسالمة، وسُمِّي أبناؤهم باسم المولدين. وينبغى أن نذكر أنه لم يحدث في تاريخ العرب بالأندلس أن أكره أحد على الإسلام، فقد كانت الحرية الدينية مكفولة للنصارى واليهود إلى أقصى حد، وكان من أسلم من أهل الكتاب لابد أن يعلن ذلك أمام قاض من قضاة المسلمين في قرطبة وغيرها من البلدان، وأن يسجل إعلانه لذلك في وثيقة يُشهد عليها شاهدين، قائلا فيها إنه يعتنق الإسلام بعد أن وقف على شريعته «طائعا آمنا، غير فارٍّ من شيء ولا مكره، وأنه يحمد الله على أن هداه للإسلام شاكرا له نعمته على هدايته له»^(١).

وطبيعى أن يُقبل من أسلم من أهل الأندلس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تُعدّ جزء لا يتجزأ من اعتناقه، وبالمثل دفعوا أبناءهم إلى هذا التعلم، ومعنى ذلك أن شطرا كبيرا من أهل الأندلس تعربوا تعربا كاملا: ديناً ولغة،

(١) كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار (طبع

مدريد) ص ٤٠٥ وما بعدها.

وقد بقي وراءهم شطر ظل على مسيحيتهم، وكان يتخذ لهجة لاتينية عامية أو رومانسية لغةً في مخاطبه اليومي، غير أنه شعر سريعاً بما ذكرناه آنفاً من أنها لغة مجدبة فقيرة، وخاصة حين يقرنها إلى العربية، إذ ليس لها تراث أدبي كتراث العربية، وأيضاً ليس لها مثلها تراث ثقافي ولا حضارى، تستطيع أن تثبت به أمامها، فضلاً عما لأهل العربية في البلاد من عزة وقوة وسلطان وغلبة، ومعروف أن المغلوب دائماً يحاول أن يحاكي الغالب، فما بالنا إذا ظل هذا الغالب يستعلى على مسيحيي الأندلس ويهودها ثقافياً وأدبياً وحضارياً لا قرناً ولا قرنين بل قروناً متعاقبة من القرن الثامن الميلادى حتى نهاية القرن الخامس عشر، وهم طوال هذه الحقب كانوا يقفون مشدوهين أمام هذا الفكر العربى الباهر فى العلم والأدب والفلسفة، ويصور ذلك «ترند» فى مقاله بـتراث الإسلام قائلاً: «كانت قرطبة فى القرن العاشر الميلادى أكثر المدن الأوربية حضارة، وكانت فى ذلك الحين مثار إعجاب العالم، وبلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونبأه وبرشلونه كانوا يقصدون إليها كلما مستهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معمارى أو مطرب كبير»^(١). ومنذ أواسط القرن الحادى عشر تتحول طليطلة وبعض المدن الأندلسية التى استولت عليها الإمارات المسيحية الشالية إلى مؤسسات^(٢) ترجمة ضخمة لكل ما هو عربى من علم وفلسفة وأدب، ويؤم طليطلة طلاب العلم من مختلف البلاد الأوربية: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية فضلاً عن البلاد الإسبانية يحمل كل منهم بمقدار طاقته وجهده أقباساً عربية إلى مدنه وبلدانه، وظل ذلك حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكانت هذه الأقباس من أكبر العوامل فى نهضة أوربا وخروجها من ظلام العصور الوسطى إلى أضواء العصر الحديث. وإنما قلت ذلك كله لأتخذ منه الدليل الساطع على أن من بقى من المسيحيين فى الأندلس على دينه تعرب - مثل زميله الذى اعتنق الدين الحنيف - بحكم ما كان للعربية والعرب من تفوق حضارى وثقافى، وأيضاً بحكم ما كان لهم من شعر وأدب رفيع قصص وغير قصص، بينما كانت اللهجة الرومانسية الدارجة فى التخاطب «اليومى» للمسيحيين فى الأندلس وفى شمال إيبيريا فقيرة فقراً شديداً، بحيث لا نستطيع أن نجد مبرراً كافياً لما ذهب إليه المستشرق الإسبانى ريبيرا فى نظريته^(٣) الجديدة المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمونها فى

ص ٥٣٦ وما بعدها وفى مواضع مختلفة.
(٣) راجع هذه النظرية فى بالنتيا ص ١٤٢ وما بعدها.

(١) تراث الإسلام (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٧.
(٢) انظر فى ذلك تاريخ الفكر الأندلسى لبالنتيا

المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها، وكانوا في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم يستخدمون لهجة من اللاتينية الدارجة أو الرومانسية، ويقول: إن هذا الازدواج في اللغة كان الأصل في نشوء طراز شعرى مختلط تترج فيه مؤثرات غربية وشرقية. واتخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين هما الزجل والموشحة وهما فن شعرى واحد، غير أن الزجل سوقى دارج والموشحة عريية فصيحة. وفي رأينا أن ريبيرا بالغ في كل ذلك مبالغة أدته إلى نظريته المخطئة.

وقد يشهد لها أن يروى الخشنى عن بعض القضاة بقرطبة أنه كان يعرف اللاتينية الدارجة أو كما كانوا يسمونها العجمية، إذ ذكر عنه أن شخصا صاح عليه بالعجمية وهو منصرف من مجلس قضاء ليقف له، فقال لمن معه قولوا له بالعجمية إن القاضى قد أدركته الملاة والسامة^(١). وواضح أنه فهم مراده من صياحه بالعجمية، مما يدل على أنه كان يعرفها. وأوضح من ذلك في الدلالة على معرفة بعض القضاة للاتينية الدارجة ما ذكره الخشنى من أن رجلا من شهود أحد القضاة يسمى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لجامها طوال النهار على باب المسجد، فتقدمت امرأة إلى هذا القاضى في مجلسه بالمسجد، فقالت له بالعجمية: يا قاضى انظر لشقيتكَ هذه (تقصد نفسها) فقال لها بالعجمية: - كما يقول الخشنى - لست أنت شقيتى إنما شقيتى بغلة ابن عمار التى تلوك لجامها على باب المسجد طوال النهار^(٢). وكان بين القائمين على الشهادة عند القضاة بقرطبة شيخ أعجمى اللسان مقبول الشهادة عندهم^(٣). وهذه الأخبار جميعا عند الخشنى لا تدل دلالة قاطعة على أنه كانت بقرطبة فضلا عن الأندلس لهجة لاتينية دارجة يستخدمها العرب في لغة التخاطب لأنها أخبار فردية، ويمكن أن يكون القاضيان السالفان رُزقا لأُميين أعجميتين، فتلفظ كل منهما الأعجمية عن أمه، أما اتخاذ القضاة لشاهد أعجمى اللسان فيدل على أنهم كانوا في حاجة إليه وأنهم كانوا لا يعرفون اللاتينية الدارجة التى يلوكلها بعض الأعاجم، فاحتاجوا إلى مترجم يترجم ما يقولون سواء أكانوا من أصحاب الدعاوى أو المتهمين، حتى يحكم القضاة في قضاياهم عن حسن فقهٍ بها ودقة فهم لها. وهو بذلك خبر ينقض ما يقال من أن لغة التخاطب في قرطبة كانت لهجة لاتينية دارجة، إذ لم تكن كثرة القضاة بها تعرفها. وما يدل به أيضا أنصار نظرية ريبيرا أن بعض الألقاب

(١) قضاة قرطبة للخشنى (طبعة مصر) ص ٩٦. (٢) الخشنى ص ٨٤.

(٣) الخشنى ص ١١٨.

اللاتينية ظلت تلاحق بعض أعلام الأسر الإسبانية التي دخلت في الإسلام، وهو شيء طبيعي أن يظل اللقب اللاتيني القديم ملحقا ببعض الأعلام لأنه رمز الأسرة، وقد يقولون: إننا نجده يَلْحَقُ بعض أبناء العرب أنفسهم من الشعراء وغيرهم، من ذلك أن الشاعر مؤمن بن سعيد المتوفى سنة ٢٦٧ لُقِبَ زميله عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي الشاعر بلقب النَّذْل كما في المقتبس لابن حيان^(١)، وفي التكملة لابن الأبار أنه لُقِبَ بالقملة ولعلها تحريف لكلمة القنلة Canalla باللاتينية أى النذل^(٢)، وكأما شاع عليه اللقب بالعربية واللاتينية. ويلقانا بعده شاعر يسمى محمد بن يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٣٠٢ وكان هجاء كبيرا قدر الثياب دائها، فلقبه بعض معاصريه انتقاما منه بلقب القلقاط، و Calafate باللاتينية الدارجة دهان السفن بالقار، نبزوه بذلك - كما يرى الدكتور مكى - لفضارة ثيابه. وكان سعيد بن عثمان المرواني شاعر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع يُنَبِّزُ بلقب البَلْبِينَة^(٤) Ballena وهو باللاتينية الدارجة - كما قال ابن سعيد - الحوت لضخامته. ومثل هذا النبز بالألقاب العجمية لأبناء العرب في قرطبة والأندلس كان محدودا إذ لا يتجاوز المعروف منه الواضح في دلالاته على النبز عدد أصابع اليدين إن لم يكن عدد أصابع اليد الواحدة، ولذلك لا نستطيع أن نتخذة دليلا على شيوع اللاتينية الدارجة في تخاطب العرب بالأندلس.

وقد يقول أصحاب نظرية ريبيرا إن في أيدينا برهانا قويا على صحتها هو ما ذكره ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» عن قبيلة بَلْبَى بالأندلس، إذ قال: «دارهم في الموضع المعروف باسمهم بشمالى قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم (في القرن الخامس الهجرى) على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللاتينية لكن بالعربية فقط: نساؤهم ورجالهم»^(٥). ويقولون واضح من هذا النص لابن حزم أن قبيلة بَلْبَى وحدها في الأندلس دون القبائل العربية الأخرى لم تكن تحسن الكلام باللاتينية الدارجة، بخلاف سواها من القبائل، إذ كانت تتكلم بها وتتخاطب في لغتها اليومية. وابن حزم إنما تحدث عن بَلْبَى وحدها، دون أن ينسب بوضوح إلى غيرها من القبائل أنها كانت تحسن الأداء عما في نفسها باللاتينية. ولعل مما يؤكد أنه كان وراءها قبائل بل مدن لا تتكلم إلا بالعربية على

(٣) راجع المغرب ١/١١١.

(٤) المغرب ١/١٩٧.

(٥) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (طبع دار المعارف) ص ٤٤٣.

(١) انظر المقتبس (تحقيق د. مكى طبع بيروت).

ص ٩٨ وقابل بالمغرب ١/١١٣.

(٢) التكملة (طبع مدريد) رقم ١٢٤٠ وراجع في

ذلك تعليق د. مكى في المقتبس ص ٥٠٤.

شاكلتها ما جاء عند ياقوت بالقرن السابع في كتابه معجم البلدان عن أهل شلب إذ يقول: «قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ومن لا يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح فيها خلف محراثه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبت منه»^(١). وفي الروض المعطار للحميرى المتوفى سنة ٩٠٠: «مدينة شلب في الجنوب الغربى للأندلس» ويقول: «إن سكانها وسكان قراها ظلوا يحافظون على اللغة العربية الفصيحة إلى عهود متأخرة»^(٢). وكأنما ظل يعيش في الأندلس ببعض مدنها وديارها عرب لم يفارقوا لغتهم الفصيحة حتى عصور متأخرة، فكيف يذهب باحث إلى أن العرب - أو كثيراً منهم - هناك زابت العربية أماكنها من ألسنتهم وعقولهم وقلوبهم وحلت محلها اللاتينية الدارجة في تخاطبهم اليومي، بينما كانت الفصحى لغة السياسة والسلطان والحكم ولغة الدين والثقافة والفكر والأدب؟!

وما يدل على خطأ نظرية ريبيرا أيضا - من بعض الوجوه - صيحة الأبرو القرطبي المشهورة التى يأسى فيها لولع نصارى الإسبان بالأدب العربى ولغته العربية، فما بالناس بولع المسلمين من العرب والإسبان بهذه اللغة وأدبها الرائع، يقول، والحسرة تقطع نياط قلبه: «إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأنجيل المقدسة؟! ومن - سوى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟! يا للحسرة! إن المهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها، ويصرحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جدية بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة بلغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا»^(٣).

(٣) راجع نص هذه الصيحة فى بالثيا ص ٤٨٥ وما بعدها.

(١) انظر مدينة شلب فى معجم البلدان لياقوت.
(٢) الروض المعطار للحميرى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٦.

وَأَلْبَرُو يصرخ - بأعلى صوته - إن شبان النصارى فى الأندلس لزمناه أصبحوا يشغفون شغفا شديدا بلغة العرب وآدابها الرائعة، حتى لقد نسوا لروعتها الباهرة لغتهم اللاتينية، فإذا هى تملك منهم الألسنة والقلوب وتسيطر على العقول والمشاعر والأحاسيس، وإذا هم يعكفون عليها قارئین متخذين منها أمثلتهم فى الكتابة المنمقة ونظم الأشعار البديعة. ويؤكد بالنتىيا تلك الصيحة لأَلْبَرُو قائلا: «إن كل ما ذكره حقيقى تؤيده تلك القصائد التى نجدها فى خاتمة مخطوط محفوظ فى المكتبة الأهلية بمديرى، وهو يضم مجموعة من القوانين الكنسية، وقراراتها مرتبة أبوابا على حسب موضوعاتها ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قُسِّ يسمَّى بِنَجْنِسِيْس، والكتاب مُهْدَى إلى الأسقف عبد الملك، ونظمت عبارات الإهداء فى قصيدة شعرية عربية لا تفرق فى شىء عما ينظمه العرب المسلمون فى هذا المقام شكلا ومضمونا». ويسوق بالنتىيا أربعة أبيات بديعة من تلك القصيدة، ثم يقول: «والكثير من الكتب اللاتينية التى كتبها المستعربون (من نصارى الإسبان) تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية.. وقد ظلوا يستخدمون العربية زمنا طويلا بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة (فى طليطلة وغيرها من المدن الأندلسية الوسطى والغربية والشرقية) وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائعهم ويتسمَّون بأسماء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التى خلفها لنا مستعربو طليطلة»^(١).

ويشهد لبالنتىيا وأَلْبَرُو أن نجد بين الإسبان المسيحيين من بلغ من إتقانهم العربية أن عَيَّنُوا كتابا فى دواوين الدولة الأموية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى مثل قومس بن أتنبيان الذى مرَّ ذكره فى الفصل الأول لعهد الأمير محمد بن عبدالرحمن. وإذا كان أَلْبَرُو يشهد بتعرب الإسبان المسيحيين بحيث أصبحوا يستحبُّون العربية على لغتهم اللاتينية الدارجة فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعرَّبت - فى ظننا - كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الأندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس وشعرائها وموسيقييها ووشاحيها، وقد ترجم ابن سعيد فى كتابه المغرب لسبعة منهم، هم: إسماعيل بن يوسف بن النغيلة وزير باديس بن حبوس فى غرناطة وكان سيئ السيرة، وكذلك لابنه يوسف وكانا شاعرين، ولعاصرها حسداى بن يوسف بن حسداى كاتب بنى هود بسرقسطة، وقد أقاله الله من دينه، فأسلم وحسن إسلامه، وكان أديبا مجيدا شعرا ونثرا، وله ترجمة طويلة فى كتاب الذخيرة وكان أبوه كاتباً عند بنى هود قبله، وعين

(١) انظر بالنتىيا ص ٤٨٦ وما بعدها.

عبد الرحمن الناصر جده حَسْدَاى كاتبا في دواوينه. ومن ترجم لهم ابن سعيد بين شعراء المائة السادسة إلياس بن صَدُود الطبيب وإسحق بن شمعون وكان يحسن الغناء والضرب على الآلات الموسيقية الأندلسية. وترجم ابن سعيد لشاعر يهودى طليطلى مستعرب هو إبراهيم بن الفخار رسول ألفونس إلى الأئمة في دولة الموحدين. وترجم ابن سعيد في القرن السابع أيضا لإبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي الذى أثر الإسلام دينا وعقيدة، وكان شاعرا نابها ووشاحا مجيدا. وما يدل على اتساع التعرب بين يهود الأندلس أن نجد بين نسايم شاعرات مجيدات مثل قَسْمُونَة بنت إسماعيل اليهودى وكان أبوها - كما يقول المقرئ - شاعرا واعتق بتأديبها، وكانت تطارحه الشعر، وكان ربما نظم قسما من موشحة، فأتمتها هى بقسم آخر. وما يؤكد أن الكثرة من يهود الأندلس تعربت تعربا كاملا أنه حين أخذ الإسبان والغريون يطلبون ترجمة الثقافة العربية إلى الإسبانية الدارجة واللاتينية كان لهم في ذلك دور ضخم، سوى ما تمثلوه من تلك الثقافة في لغتهم العبرية، حتى ليقول بالنشأ: «نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية الأندلسية بصفة مباشرة»^(١).

ولعل في ذلك كله ما ينقض - بوضوح - على خطأ نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية، لأن في ذلك ما يخالف الحقائق الكبرى التى قدمناها. وأيضاً فإنه لا يستطيع أحد أن يقول إن نصارى الإسبان في الأندلس ويهودها لم يكونوا يستخدمون في مخاطبتهم اليومى العامية العربية الأندلسية، بينما سموا مستعربين وهو اسم لصق بهم طوال امتزاجهم بالعرب قرونا متوالية. وكل ما يستدل به ريبيرا على نظريته المخطئة ظهور طراز جديد من الأدب الشعبى في الأندلس اتخذ صورتين هما الموشحة والزجل، ومعروف أن الموشحة سبقت في نشأتها الزجل بأكثر من قرنين على الأقل وأنها كانت تنظم بالعربية الفصحى في جمهورها، إلا ما قد يتظرف به ناظمها في الحين بعد الحين من ذكر كلمات رومانسية في نهايتها، على نحو ما سنوضح ذلك فيما بعد، ومعروف أيضا أن الزجل لا ينظم بلاتينية دارجة، إنما ينظم بعامية أندلسية تترأى فيها أحيانا ألفاظ من اللغة اللاتينية الدارجة، وهى ليست عامية لاتينية، إنما هى عامية عربية، شأنها شأن العاميات التى نشأت في جميع البلاد العربية من التقاء الفصحى فيها بلغات أهلها

(١) راجع دور اليهود في ترجمة الثقافة الأندلسية

عند بالنشأ ص ٤٨٨ و ٥٣٧.

الوطنية، وقد دخلتها في كل بلد عربي بعض خصائص تلك اللغات في النبر والتصريف، كما دخلتها ألفاظ منها كثيرة. وهو ما حدث في الأندلس على نحو ما يتضح في أزجالها، فهي منظومة بعربية عامية تتخللها من حين إلى حين ألفاظ من اللهجة الرومانسية التي كانت مستقرة في الأندلس قبل الفتح العربي وظلت حية فيها وراءها من الإمارات المسيحية في الشمال، وبالمثل في الأندلس على ألسنة بعض النصارى والجواري الإسبانيات والمسترقين من الإسبان في الحروب، وانزلت منها بعض ألفاظ في الأزجال. وبين أيدينا نصوص لا تكاد تحصى أو تستقصى من هذه الأزجال المنظومة بالعامية، وليس فيها أى نص مكتوب أو منظوم باللهجة الرومانسية الدارجة في الأندلس، مما يؤكد أن نظرية ريبيرا المفضية إلى شيوع تلك اللهجة على ألسنة عرب الأندلس مخطئة وكل ما يمكن أن يقال أن بعض عرب الأندلس كانوا يعرفون تلك اللهجة أو يلمنون بشيء منها بجانب الفصحى والعامية العربية الأندلسية المتداولة في الألسنة. ولم يكتب الزجالون بتلك العامية أزجالهم وحدها، بل كتبوا معها أيضا قصائد نظموها على أوزان العروض العربي، على نحو ما يلقانا عند أبي عبدالله أحمد بن الحاج المعروف باسم مدغليس، وهو من شعراء القرن السادس الهجري، إذ ذكر صفى الدين الحلى في كتابه: «العاطل الحالى» أنه قرأ له في ديوانه بجانب أزجاله ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربي، وقد سُمى أوزان عشر قصائد منها، وهى أربع من وزن المديد، واثنان من وزن الرمل، وآخران من وزن الخفيف، وقصيدة من وزن المتقارب وأخرى من وزن مَخْلَع البسيط، وأنشد من كل قصيدة مجموعة غير قليلة من أبياتها العامية^(١). ومن المؤكد أن الأزجال عند مدغليس وغيره كانت مثل هذه القصائد العامية تنظم على أوزان الشعر العربي كما سيتضح - فيما بعد - في تعليقنا على ما ننشده من بعض الأزجال.

والأندلس - بذلك كله - لم يتداول أهلها من العرب في ألسنتهم لهجة لاتينية دارجة كما توهم ريبيرا، إنما تداولوا فيها عامية عربية، كان يتداولها العامة بالأندلس في تخاطبهم اليومي بالأسواق وغير الأسواق، واشترك معهم فيها أوساط المثقفين مع تمسكهم بالفصحى وآدابها الرفيعة، يستوى في ذلك المسلمون والمسلمة، كما يستوى المسيحيون المستعربون ممن تحدث عنهم الأبرو أنفاً. والشعب الأندلسي - في هذا الصنيع - يلتقى

(١) المصرية العامة للكتاب بالقاهرة) ص ١٥ وما بعدها.

(١) راجع كتاب العاقل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى بتحقيق حسين نصار (نشر الهيئة

بجميع الشعوب الإسلامية في البلدان العربية المختلفة، إذ كانت الأوساط الثقافية فيها جميعاً متمسك بالفصحى وتتمثل آدابها وتشارك فيها بما تنتج من شعر ونثر، وفي الوقت نفسه تتحدث هذه الأوساط بلغة عامية دارجة مثلها في ذلك مثل العامة من حولها، وهى لغة أهمل فيها الإعراب، ودخلتها بعض خصائص وألفاظ من اللغات القديمة التى كانت سائدة فى تلك البلدان قبل أن ينزلها العرب ويستقروا فيها ويتخذوها أوطاناً جديدة لهم. وكما أن العامة بمختلف البلدان العربية بدّلت فى بعض ألفاظ العربية تبديلات مختلفة فى حركاتها وانزلت من كلماتها السوقية والعامية بعض ألفاظ إلى كتابات الكتاب وقصائد الشعراء مما جعل بعض اللغويين فى المشرق يؤلف كتباً فى لحن العامة، حتى يحتنبه الأدباء وينحوه عن كتاباتهم وأشعارهم على نحو ما نعرف عند الكسائى البغدادى المتوفى سنة ١٨٩ للهجرة كذلك ألف الزبيدى القرطبي الذى مرّ ذكره بين اللغويين الأندلسيين فى القرن الرابع الهجرى كتاباً فى لحن العوام حتى ينبّه الكتاب والشعراء إلى ما أفسدته العامة من ألفاظ العربية ودخل أحياناً فى كتاباتهم وأشعارهم حتى يتبينوه ويحتموه^(١).

وإذن فقد كانت تشيع عامية عربية فى الأندلس على ألسنة العرب والمستعربين لا لاتينية دارجة أو رومانسية، كما ظن ريبيرا، وهى عامية كانت تهمل الإعراب وتفسد أحياناً النطق السليم لبعض ألفاظ العربية شأن العاميات التى نشأت فى البلدان العربية الأخرى، وقد كتب فيها - كما ذكرنا - العلماء اللغويون من أمثال الزبيدى كتباً، ونظم فيها زجالون أزجالاً كثيرة، وأحياناً دواوين زجلية، وأضاف بعض الزجالين إلى أزجالهم قصائد عامية، وهو تراث عربى أندلسى عامى ضخم، وهو لا يقاس من حيث الضخامة إلى ما خلفت العربية هناك من تراث فصيح هائل ثقافى وأدبى وعلمى وفلسفى، بحيث نستطيع أن نقول بحق إن العرب أنشأوا فى الأندلس شعباً عربياً كبيراً ظل بها ثمانية قرون متعاقبة، وظل عربى اللغة فصيحاً وعاميةً، وظل عربى الدين والحضارة كما ظل عربى الثقافة والعقل والفكر والشعور والوجدان.

(ب) كثرة الشعراء

كان طبيعياً أن يظل نشاط الشعر بالأندلس محدوداً زمن الولاة (٩٢ - ١٣٨ هـ) وصدر الدولة الأموية هناك حتى عهد الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) لأن أكثر العرب الفاتحين للأندلس كانوا يمنية، والشعر إنما ينشط على ألسنة العدنانيين، وربما نُظمت أشعار في تلك الفترة لم يسجلها الرواة، ومع ذلك فقد حدثونا عن شاعر مضرى مبكر في عصر الولاة لم يلحق زمن الدولة الأموية هو جَعُونَةُ الكلابي كان مَدَّاحاً للصَّمِيل بن حاتم مستشار يوسف بن عبد الرحمن الفهري وإلى الأندلس منذ سنة ١٢٩ للهجرة، وأنشدوا بعض شعره، كما أنشدوا أشعاراً لعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية وابنه الأمير هشام وحفيده الحكم الربضي. ويظل الرواة ينشدون أشعاراً لأمرء البيت الأموي. وقد أخذ هذا البيت القرشي في رعاية الشعر منذ أول ولايته في الأندلس، ويذكرون من الشعراء في عصر الداخل قاضيه معاوية بن صالح وابن عم جده بشر بن عبد الملك المرواني الداخل إلى الأندلس في صدر أيامه وحبيب بن عبد الملك المرواني وكانت له عند الداخل مكانة عليّة. واشتهر من الشعراء في عهد الأمير هشام أبوالمخشيّ عاصم بن زيد المتوفى في دولة ابنه الحكم الربضي، واشتهر لزمن الحكم غريب بن عبد الله الثقفي الطليطلي المتوفى في أول دولة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وعهده يُعدّ - كما مر بنا - بدء الازدهار الحضاري والثقافي بالأندلس، وأيضاً بدء الازدهار الأدبي، وحظي بنزول زرياب في قرطبة لأول حكمه، ودَفَّعه لنهضة غنائية وموسيقية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع. ورافق ذلك نشاط واسع للشعر وإعزاز لمكانته ورعاية متصلة من عبد الرحمن الأوسط لشعرائه، ونعد من مشهورهم عباس بن ناصح قاضي الحكم الربضي على شذونة والجزيرة، ومرّ بنا - فيما أسلفنا - أن عبد الرحمن الأوسط وجّه به إلى العراق في التماس الكتب القديمة التي تحمل علوم الأوائل فجلب منها إلى الأندلس كنوزاً كثيرة أكبَّ عليها الأندلسيون، وبدءوا نهضتهم في إساعة تلك العلوم ثم الإضافة إليها - فيما بعد - إضافات باهرة. ومن مشهورى الشعراء أيضاً في هذا العهد يحيى الغزال الذي بدأ ظهوره في عهد الحكم الربضي وعاش طويلاً حتى سنة ٢٥٠ للهجرة، ومثله عباس بن فرناس صاحب قصة الطيران المشهورة، وقد نجم في عهد الحكم وعاش حتى سنة ٢٧٤. وكان يعاصرهما عبد الله بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط ونديمه وعثمان بن المثني مؤدب أبنائه، ومثله

عبد الله بن بكر الكلاعى الملقب بالنذل، ومثلها أبو عثمان سعيد بن الفرّج الملقب بالرشاش، وكان من آدب الناس فى زمانه وأقومهم على لسان العرب، يقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة. ومن مشهورى الشعراء لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفى جليسه، ووزيره عبد الملك بن أحمد بن شهيد وعامر بن عامر بن كليب، ومحمد بن عبد العزيز العتبى وله مدائح كثيرة فى الأمير وابنه القاسم ووزيره هاشم بن عبد العزيز، ومؤمن بن سعيد كبير شعراء قرطبة كما يقول ابن حيان، ولكل هؤلاء تراجم وأشعار فى المغرب والمقتبس. ومن تدور أسماؤهم من الشعراء فى المقتبس لعهد الأمير محمد طاهر بن حزم وقام بن أحمد بن عامر وعبد الله بن محمد المورورى وأحمد بن محمد بن فرج البلوى. ومن الشعراء المشهورين لعهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) حسب تعداد ابن حيان لهم فى المقتبس ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، ويقول إنه زعيمهم وسابق حلبتهم وعبيد الله بن يحيى بن إدريس وسيحظى عبد الرحمن الناصر بمدائحها له حتى وفاتها لعهد، وعِدَاد ابن عبد ربه فى بيوتات المولدين ومثله عِدَاد ابن إدريس فى بيوتات المولدين لعهد الدولة المروانية كما يقول ابن حيان. ومضى يعد من شعراء الأمير عبد الله مقدم بن معافى القبرى مخترع الموشحات وهو عربى صليبة كما سنعرف فيما بعد وقاسم بن عبد الواحد العجلى وأحمد بن قلزم وإسحاق المنادى وزيد بن ربيع وسعيد بن عبد ربه المطبّب ابن أخى الشاعر ابن عبد ربه وعبيدس بن محمود، وكان كاتباً فى القصر وله مدائح كثيرة فى الأمير عبد الله، ثم خرج إلى عبيد الله بن أمية المعروف باسم ابن الشاليه النائر بجيآن فكتب له وامتدحه بشعر كثير، كما امتدح زميله النائر مثله على الدولة ابن حفصون. ومن أهم الشعراء حينئذ القلقاط محمد بن يحيى المار ذكره وله مدائح فى الأمير عبد الله وأيضاً فى كثيرين من الثوار على الدولة. ومر بنا فى الفصل الأول أن الفتن كانت قد تفاقمت لعهد الأمر عبد الله فى ديار كثيرة بالأندلس بين المستعربين والمسالة والمولدين من جهة وبين العرب من جهة ثانية وكانت من الديار التى حدثت فيها هذه الفتنة البيرة ومعها غرناطة، ونشبت بين الطرفين فيها حروب ووقائع كثيرة. والمهم أن ذلك أدى إلى ظهور شعراء ينتصر كل منهم لجماعته وهجو متوعدا الجماعة المقابلة، واشتهر من هؤلاء الشعراء بين العرب سعيد بن سليمان بن جودى وإلى الأمير عبد الله على غرناطة، وشعره يفيض بحمية قوية للعرب وتوعد شديد لخصومهم، وأدار شاعران: عربى هو الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق، ومولّد من أبناء المسالة هو العبلى عبد الله مناقضات، يناضل فيها كل منهما عن قومه.

ونفر غير قليل من شعراء الأمير عبد الله عاشوا في عهد حفيده عبد الرحمن الناصر
الذى امتد خمسين عاما حتى سنة ٣٥٠ للهجرة يقول ابن حيان: «اجتمعت له حلبة من
فحول الشعراء أمراء الكلام افتتوا في تقريظه وتوسعوا في ذكر عدالته وساحته كفه
وشجاعة قلبه وجزالة رأيه وثقوب فهمه وبصره بتدبير حروبه واتصال فتوحه.. فأبدعوا
فيما تناولوه به من ذلك بفضل اقتدارهم ومكانهم من صناعتهم فزادوا دولته حسنا وبهاء
وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خناذيد^(١) مقدّمهم معلمه في الصبا ابن عبد ربّه ،
ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس وعبد الملك بن سعيد المرادى
وإسماعيل بن بدر وأغلب بن شعيب وحسن بن حسان السّناط وغيرهم من كبار
الطارئين عليه من المشرق مثل طاهر بن محمد البغدادى ومحمد بن الحسين الطّنبى
الإفريقى^(٢). ويذكر ابن حيان في الجزء الخامس الخاص بالناصر من المقتبس لهم مدائح
كثيرة كانوا يهنتونه فيها بانتصاراته وخاصة لابن عبد ربّه وابن إدريس ولشعراء آخرين
مثل جعفر المصحفى ومحمد بن أضحى صاحب الحامّة وعبد الملك بن جهور وزيره
وأحمد بن محمد الرازى الذى مر ذكره بين المؤرخين. وكثير من هؤلاء الشعراء باستثناء
الأولين يدخلون في عداد شعراء ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) وفي مقدمتهم
جعفر المصحفى مولاه وحاجبه ومحمد بن الحسين الطّنبى ومن شعرائه المهمين وزيره
أحمد بن عبد الملك بن شهيد ويحيى بن هذيل ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج
الحيّافى صاحب كتاب الحداثق. وكان الحكم مثل أبيه الناصر - شاعرا، وأنشد له صاحب
المغرب أشعارا بديعة، وكذلك أنشد لأخوته عبد الله ومحمد وعبد العزيز ولابن أخيه
محمد بن عبد الملك بن الناصر. ويخلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) ويحجب له
المنصور بن أبى عامر ثم ابنه المظفر والناصر، وتصبح الدولة دولتهم، وليس للمؤيد
حول ولا طول، وتنشب بقرطبة فتنة تظل نحو عشرين عاما، ويُقضى فيها على الحكم
الأموى قضاء مبرما. ومن مشهورى الشعراء في الدولة العامرية والسنوات العجاف
بعدها عبد الملك بن أحمد بن شهيد، وابنه أحمد صاحب رسالة التوابع والزوابع المشهور
بجودة نثره وشعره، والبلّينه سعيد بن عثمان الروافى وهو من مداح المنصور بن
أبى عامر، والقائد يعلّى بن أحمد بن يعلّى وعبد الملك بن إدريس الجزيرى كاتب المنصور
وابن النظام عبد الرحمن بن محمد والمطرف بن عمر الهشيمى وعبد الله بن أبى الحسن

(٢) راجع الجزء الخامس من المقتبس (طبع المعهد
الأسباني العربى للثقافة بمدريد) ص ٤٠ وما بعدها.

(١) الخناذيد جمع خنذيد، وهو من الشعراء: المجيد
الحسن.

ومحمد بن شخيص شاعر المستنصر ويوسف بن هرون الرمادى المتوفى سنة ٤١٣
ومحمد بن الحسين الطُّبِّي وجعفر بن أبي على القالى، وعيسى بن الحسن، وعبادة بن ماء
السماء المتوفى سنة ٤١٩ وابن الكتّانى محمد بن الحسن المذحجى المطبّب وابن دراج
القسطلى وأمية^(١) بن غالب المورورى.

وما يدل بوضوح على كثرة الشعراء فى زمن الدولة الأموية منذ القرن الثالث أن نجد
كثيرين من الأندلسيين يعنون بالترجمة لشعرائهم منذ صدر القرن الرابع الهجرى، على
نحو ما نجد عند عثمان بن ربيعة المتوفى سنة ٣١٠ واسم كتابه «طبقات الشعراء
بالأندلس» وتتوالى بعده المصنفات التى تعنى بتاريخ الشعراء الأندلسيين وعرض
أشعارهم مثل شعراء الأندلس لابن سعيد الكتّانى المتوفى سنة ٣٢٠ وأخبار شعراء
الأندلس لمحمد بن هشام الأموى فى زمن عبد الرحمن الناصر، والشعراء من فقهاء
الأندلس لقاسم بن نصير المتوفى سنة ٣٣٨ وشعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرؤوف
الأزدى المتوفى سنة ٣٤٣ وشعراء البيرة لمطرف بن عيسى الغسانى المتوفى سنة ٣٥٧
وكتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجيانى، ومرّ بنا فى الفصل الماضى أنه ألفه للحكم
المستنصر معارضا به كتاب الزهرة لابن داود البغدادى وكان ابن داود وزّع كتابه على
مائة باب وأودع فى كل باب مائة بيت، فجعل ابن فرج كتابه - كما مرّ بنا - فى مائتى
باب وفى كل باب مائتا بيت، افتخارا بذلك لأهل موطنه وبياناً لتفوقهم فى الشعر
وبراعتهم فيه. وألف بعده ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ كتاباً فى أخبار شعراء الأندلس،
وبنفس العنوان ألف عبادة بن ماء الساء كتاباً مماثلاً، وألف ابن الكتّانى «كتاب
التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» وهو نماذج من التشبيهات البديعة اختارها للشعراء
الأندلسيين حتى زمنه، وقد ألمنا به فى حديثنا عن عناية الأندلسيين بالبلاغة العربية فى
الفصل الماضى. وفى سرد تلك الكتب العشرة ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء
الأندلسيين كثرة مفرطة زمن الدولة الأموية.

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف، وقد أدّت المنافسة بينهم إلى أن يجمع كل منهم حوله
كوكبة من الشعراء ولعل إمارة لم تُعَنَّ بجذب الشعراء إليها كما عُينت إمارة بنى عباد
بإشبيلية، فقد أكثروا من إغداقهم على الشعراء، وليس ذلك فحسب، فقد أحالوا إشبيلية

(١) انظر تراجم هؤلاء الشعراء فى المغرب
وخاصة فى كتاب مدينة الزاهرة ١٩٧/١-٢١١.

إلى دار غناء ضخمة، وكانت مجالس المعتضد وابنه المعتمد ندوات كبيرة لالتقاء الشعراء وإنشادهم مدائحهم في الأميرين، وكانا شاعرين، وخاصة المعتمد إذ كان شاعرا كبيرا وله ديوان شعر منشور. ويترجم ابن بسام في الذخيرة وابن سعيد في المغرب لشعراء إشبيلية والوافدين عليها في عهد المعتضد والمعتمد، وهم يعدون بالعشرات، نذكر منهم لعهد المعتضد أبا عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح في وصف حقيقة الراح ألفه للمعتضد وإسماعيل بن عامر الحميري الملقب بحبيب صاحب كتاب البديع في وصف الربيع وأبا جعفر أحمد بن الأبار وأبا حفص عمر بن الحسن الهوزني وعلي بن غالب بن حصن ومحمد بن ديسم وأحمد بن محمد الإشبيلي وإبراهيم بن خيرة بن الصباغ وعبد الله بن حجاج وأبا القاسم محمد بن عبد الغفور وابن زيدون القرطبي الذي اتخذه وزيرا ومديراً لشئون دولته منذ نزوله بإشبيلية سنة ٤٤١. وكان ابنه المعتمد راعيا كبيرا للشعر والشعراء، ومن شعرائه أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم وزيره وكاتبه وأبو القاسم بن الجعد وأبو القاسم بن مرزقان وابن المرعزي النصراني الإشبيلي. وكاد أن لا ينجم في بلد من بلدان الأندلس شاعر كبير إلا ويفد عليه ويقدم مدائحه إليه من مثل ابن عمار الشلبي الذي وفد على أبيه، وانعقدت بينه وبين المعتمد صفة حتى إذا أفضت الإمارة إليه جاءه فتلقاه بأعظم قبول، وظلت الصلة بينهما وطيدة إلى أن أفسدها ابن عمار. ومن كبار شعراء الأندلس الوافدين عليه من البشراة في البيرة ابن القزاز محمد بن عبادة، ومن المريّة يوسف بن عبد الصمد، ومن مرسية عبد الجليل بن وهبون الذي تغنى طويلا بانتصاره مع يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة، ومن دانية ابن اللبانة الذي تفجع على دولته تفجعا مريرا حين نفاه ابن تاشفين إلى أغات براكش. ومن وفد عليه أيضا ومدحه ابن حمديس شاعر صقلية المشهور.

ولعل في هذا العرض السريع للشعراء المستوطنين والوافدين على إمارة إشبيلية ما يصور - من بعض الوجوه - كثرة الشعراء في عهد أمراء الطوائف وحقا لم تبلغ إمارة من إماراتهم ما بلغته إشبيلية من رعاية الشعراء حينئذ، غير أنه لم تكد تخلو إمارة من شعراء يحفون بها وبأمرائها، ولناخذ مثلا المريّة، فقد كان من أمرائها راع كبير للشعر هو المعتصم بن ضادح الذي ظل على إمارتها نحو أربعين سنة وكان شاعرا، وكذلك كان أبناؤه أبو يحيى وأبو جعفر أحمد وأبو محمد عبد الله وأختهم أم الكرم وكانت تنظم الشعر والموشحات، ومن مداحه يوسف بن عبد الصمد الوافد على المعتمد في إشبيلية، وأبو حفص بن الشهيد، وابن الطراوة سليمان بن محمد، ومن كبار الشعراء الوافدين

عليه من الأندلس وغيرها الأشكركي يوسف بن محمد وابن القزاز محمد بن عبادة الإلبيري الذي كان يفد على المعتمد بإشبيلية وابن الحداد محمد بن أحمد الوادي آشي والأسعد بن بليطة الطليطلي وابن شرف القيرواني. وتكتظ الذخيرة وكتاب المغرب بشعراء إمارات الطوائف المختلفة.

وكان تعدد هذه الإمارات سببا في أن تتعدد بالأندلس المراكز التي تُفدُّ على الشعراء فيها الأموال والعطايا الجزيلة، مما لم يكن مألوفا زمن الدولة الأموية، إذ كانت قرطبة وحدها هي التي تنثر الدنانير، أما في هذا العصر فقد أخذت منها هذه المكانة - أو قل بزتها فيها - مدن كثيرة من مثل إشبيلية والمرية ومُرسية ودانية وبطليوس وطليلة وسرقسطة وغرناطة، ودفع ذلك إلى ظاهرة مستجدة في هذا العصر هي ظاهرة الشعراء الجوالين الذين يرحلون من إمارة إلى إمارة أو من أمير إلى أمير في طلب النوال والمال مثل أسعد بن بليطة الطليطلي وابن القزاز محمد بن عبادة وأبي عامر بن الأصيلي وكان جواب آفاق وعبد الرحمن بن مقانا الأشبوني المبدع، ورأى أن يرجع أخيرا إلى موطنه «القَبْدَاق» ويشغل فيها بالزراعة بعد أن كَلَّت قدماءه وأضناه التطواف على الإمارات والأمراء^(١). وأخذت تشيع حينئذ ظاهرة غريبة هي ظاهرة المداحين المتسولين من أهل الكُذبة الذين يسميهم ابن بسام في الذخيرة باسم القوالين، وهم لا ينظمون شعرا ولا مديحا، وإنما ينشدون غرر القصائد على الأبواب وفي الأسواق يَسْتَجِدُّون بها الناس بما يسمعونهم من شعر رائع يمتعونهم به، ويذكر ابن بسام من ذلك الشعر قصيدة ابن مُقانا:

أَلْبَرْقِ لَا نَحْجِ مِنْ أَنْدَرِينَ ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ بِالْدمْعِ الْمَعِينِ^(٢)

ويقول إن طائفة القوالين في الأندلس كانوا يتداولون أكثر أبياتها لما تشتمل عليه من عذوبة في اللفظ وسلاسة^(٣).

وينتهي عصر الطوائف وأمرائه، وتدخل الأندلس في عصر المرابطين (٤٨٤ - ٥٤١ هـ) وكانوا مشغولين بحرب النصاري في الشمال، ولم يكن لهم اهتمام بالشعر والأدب، غير أنهم لم يلبثوا - وخاصة ولاتهم في الأندلس - أن أشربوا روح الأندلس وثقافتها وعنايتها بالشعر، وطبيعي أن ظل يعيش في عصر المرابطين شعراء كثيرون ممن نشأوا في عصر أمراء الطوائف، ومن الشعراء في هذا العصر عبد الله بن سارة وابن أبي

(١) الذخيرة ٧٨٧/٢.

(٣) الذخيرة ٧٩١/٢.

(٢) أندرين: قرية بالشام.

الخصال الكاتب وابن الزقاق وابن خفاجة وعبد العزيز بن القبطورنة وعلى بن الإمام
ومحمد بن الجراوى الغرناطى وعبد الرحمن بن مالك ويحيى بن الصيرفى وله كتاب فى
تاريخ الدولة اللمتونية أو دولة الملتمين أو المرابطين ومحمد بن أحمد بن حجاج وجعفر بن
الحاج وأمية بن أبى الصلت والفتح بن خاقان صاحب القلاند والمطمح وابن بسام صاحب
الذخيرة وأيوبكر المخزومى الأعمى وأبو العلاء بن الجنان وابن عائشة الكاتب
وأيوبكر بن العربى وابن العريف وأبو أمية بن عصام وعبد الحق بن عطية
وعبد المجيد بن عبدون وجعفر بن محمد بن الأعلم ومحمد بن الروح وابن الفخار
الأصولى المالمقى، ومن كبار الشعراء الوشاحين فى العصر الأعمى التطيلي ويحيى بن بقى
واليكى يحيى بن سهل والأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو عبد الله بن أبى
الفضل بن شرف وأبو الحسن بن نزار وابن باجة الفيلسوف. ولكل هؤلاء الوشاحين
والشعراء تراجم وأشعار فى كتاب المغرب لابن سعيد، وأيضاً فإنه ترجم لابن قزمان
الواضع النهائى لفن الزجل الأندلسى وديوانه منشور منذ القرن الماضى وقد توفى سنة
٥٥٥ بعد عصر المرابطين بنحو خمسة عشر عاماً، وهو لذلك حرى بأن يلحق بعصرهم.

ونمضى إلى عصر الموحدين ونرى ابن سعيد فى كتابه المغرب يترجم فيه لأكثر من
أربعين شاعراً نذكر منهم أحمد بن شطرية القرطبى وابن خروف على بن يوسف ومحمد بن
الصفار الأعمى القرطبى والهيثم بن أحمد بن الهيثم ومحمد بن عياض اللبلى والخراز
البسطى وابن طفيل الفيلسوف وأبا عامر محمد بن الحمارة تلميذ ابن باجة ومحمد بن
عبد الواحد الملاحى مؤرخ غرناطة وعبد البر بن فرسان وعبد الله بن عذرة وأحمد بن
عبد الملك بن سعيد وصفوان بن إدريس صاحب زاد المسافر والكتندى محمد بن
عبد الرحمن وأحمد بن عتيق الفيلسوف المعروف بابن الذهبى والرصاصى محمد بن غالب
وأحمد بن طلحة ومرج الكحل وأبا عامر بن ينق الشاطبى ويحيى الجزار السرقسطى.
وترجم ابن سعيد بجانب هؤلاء الشعراء وأشعارهم لطائفة من الوشاحين مع إنشاده
لبعض موشحاتهم، منهم أحمد بن حنون وأيوبكر بن زهر وابن حبيب القصرى
الفيلسوف وعلى بن المربى وابن هرودس وعلى بن الفضل وعلى بن حريق
وعبد الرحيم بن الفرس وابن موهّد الشاطبى. وبالمثل ترجم لطائفة من الزجالين مع
إنشاده لبعض أزجالهم منهم أبو عمرو بن الزاهر الإشبلى والبلارج القرمونى وابن
الدباغ ومدغليس وابن ناجية اللورقى. ومما يدل بقوة على ازدهار نهضة الشعر فى
الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى كثرة ناظميه بين الفقهاء واللغويين والنحاة والأطباء

والرياضيين والمتفلسفة وحتى بين العامة وأهل الريف على نحو ما مرّ بنا عن أهل شلب مما حكاه ياقوت. ومن أكبر الأدلة على هذا الازدهار أن المرأة الأندلسية أسهمت فيه إسهاما واسعا برّزت فيه أخواتها في البلاد العربية الأخرى، مما جعل كتب التراجم الأدبية الأندلسية من مثل المغرب تترجم لغير شاعرة، وقد ترجم المقرئ في النفح لأكثر من عشرين شاعرة، منهن في القرن الثالث حسانة التميمية بنت الشاعر أبي المخشّ عاصم بن زيد، ومنهن في القرن الرابع حفصة بنت حمدون الحجازية وعائشة بنت أحمد القرطبية والشاعرة الغسانية البجائية، ومنهن في القرن الخامس ولادة بنت الخليفة المستنكى ومهجة بنت التّيانى القرطبية ومريم بنت أبي يعقوب الإشبيلية وأم العلاء بنت يوسف الحجازية والعبادية جارية المعتضد بن عباد واعتاد المعروفة باسم الرُّمَيْكِيّة زوجة ابنه المعتمد وأم أبنائه وغاية المنى جارية المعتصم بن صمّاح صاحب المرية وأم الكرم ابنته وحواء زوجة القائد المراتبى سير بن أبى بكر والى إشبيلية حتى وفاته، وكانت لها ندوة أدبية تجلس فيها للشعراء تحاضرهم فيها وتستمع إلى أحاديثهم وأشعارهم وتبدي بعض انتقادات على ما تسمع. ومن ترجم لهن المقرئ في القرن السادس نزهون بنت القليعى وحمة بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية وورقاء بنت ينتان القرطبية والشاعرة الشلبية وأسماة العامرية، وترجم المقرئ في أواخر عصر الموحدين بالنصف الأول من القرن السابع لأم السعد بنت عصام القرطبية وأختها مهجة. وهو عدد وفير من الشاعرات الأندلسيات لم يتح لأى إقليم عربى، مما يدل بوضوح على شغف الأندلسيين الشديد بفن الشعر شغفا أذكى في نفوسهم نساء ورجالا جذوة الشعر مما جعل الأندلس تملأ شاعرات وشعراء.

وما إن ينحسر لواء دولة الموحدين عن الأندلس حوالى سنة ٦٢٥ حتى يأخذ هذا الازدهار الذى رافق الشعر الأندلسى قرونا متعاقبة فى التقلص والنحول، إذ أخذ كثير من ينابيع الحياة التى كان يستمد منها فى الجفاف بسبب ضياع الشطر الأعظم من الأندلس فقد سقطت الحواضر الكبرى فى وسط الأندلس وشرقيها وغربيها فى حجور المسيحيين، ولولا أن أتيح للشطر المتبقى القائد العربى ابن الأحمر حفيد سعد بن عبادة الأنصارى الصحابى لضاعت الأندلس نهائيا من أيدي العرب، ولكنه استطاع أن يصمد للنصارى الشماليين وأن يكون دولة فى غرناطة والأجزاء الجنوبية من الأندلس ظل أبنائهم وأحفاده يقومون عليها حتى غلبوا على أمرهم لسنة ٨٩٧ للهجرة وخرجوا - وخرج معهم جمهور العرب - من الجزيرة. ومنذ واقعة العقاب سنة ٦٠٩ واندحار جيش

الموحدين فيها أحسَّ الأندلسيون أن الخطر تفاقم وأن ديارهم لن تثبت طويلا أمام ضربات العدو، وهو ما أخذ يترأى لهم سريعا، وكان ذلك سببا في أن يغادر الأندلس كثيرون من أهلها إلى البلاد المغربية والمشرقية فاستقروا بها حاملين معهم علومهم وآدابهم التي أثروا بها تأثيرا عميقا في البلاد المغربية، خاصة في مراكش وبجاية وتونس.

ولابن سعيد صاحب كتاب المغرب المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب نُشر مجمل له باسم اختصار القُدَح المَعْلَى وهو يعرض فيه شعراء الأندلس في المائة السابعة من جالسهم في الأندلس وقيد عنهم بعض أشعارهم أو جالسهم في البلدان المغربية وخاصة تونس أو في البلدان المشرقية في الإسكندرية أو في القاهرة أو في دمشق، وقد بلغوا في كتابه اثنين وسبعين شاعرا، وتراجهم أكثر تفصيلا وأشعارا من ترجماته في كتاب المغرب، ومن يذكره بينهم أبو الوليد الشَّقْنَدِي صاحب الرسالة المشهورة في فضل الأندلس وتفوقها الثقافي والأدبي، ويذكر إبراهيم بن محمد بن صناديد الجياني ويقول إن أباه ممدوح مدغليس في أزجاله. ويتوسع في الحديث عن علماء اللغة والنحو: الشلوين والدباج والأعلم البطليوسى منشدا بعض أشعارهم وكان قد أقام بتونس طويلا، ولذلك عني بالحديث عن نزل فيها من الأدباء والشعراء الكبار مثل ابن الأبار صاحب التكملة والحلة السيرة وتحفة القادم ومعجم الصدفى وبها توفي سنة ٦٥٨ ومثل أبي المطرف أحمد بن عميرة وأبي الحجاج يوسف البياسى وابن هَشَك محمد بن يحيى. ومن ذكر أنهم رحلوا إلى مصر أبو الحجاج يوسف الإشبيلي المطبَّب وقد عيَّنه المصريون في مارستان القاهرة. وكانت مصر دائما ترحب بالمهاجرين إليها من الأندلس مثل ابن دِحْيَة الذى أسند إليه السلطان الكامل رئاسة مدرسة الحديث ومثل ابن البيطار الذى جعله رئيسا للعشَّابين أو الصيدالة في القاهرة، وهاجر إلى دمشق ابن عربى المتصوف وتوفى بها سنة ٦٣٨ وهاجر تلميذه ابن سبعين إلى مكة وبها توفي سنة ٦٦٩. وكتاب اختصار القُدَح المَعْلَى مهم لأنه يعرض علينا جمهرة كبيرة من شعراء الأندلس في المائة السابعة. ونلتقى بعده بكتاب «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» للسان الدين بن الخطيب وبه ترجمات لمائة شاعر وثلاثة، بدأهم بالوعاظ والمتصوفة من مثل ابن عباد النفزى المتوفى سنة ٧٩١ وتلاههم بالمقرئين والمدرسين من الشعراء مثل أبى حيان المهاجر إلى القاهرة، وذكر فى إثرهم طبقة القضاة ثم طبقة الكتاب والشعراء من أمثال ابن خاتمة وابن زمرك. ويكمل كتاب لسان الدين فى شعراء الأندلس فى المائة الثامنة كتاب تثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ وقد

عاش بعد لسان الدين المتوفى سنة ٧٧٦ ثلاثين عاماً، وهو يلتقى معه في طائفة من تراجمه غير أنه يضيف إليه بعض تراجم جديدة، بينها ترجمة لسان الدين بن الخطيب وترجمة لنفسه.

ولعل في كل ما قدمت ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء في الأندلس منذ اكتمل تعريبها في القرن الثالث الهجرى كثرة مفرطة، وظل الشعر حياً بل مزدهراً في الأندلس حتى الأنفاس الأخيرة من حياة العرب هناك، وكأنه توأم روحهم، فكلماً وجدوا تغنوا بالشعر وصد حوا به معبرين عن مشاعرهم ووجداناتهم، يشترك في ذلك علماءهم من كل صنف ورجالهم ونساؤهم وشيوخهم وشبانهم، ومتقوهم وعامتهم، حتى الأميون منهم وأصحاب الحرف كالخراز والجزار اللذين مر ذكرهما ومثلها مرج الكحل الشاعر البلسنى فقد نشأ ينادى في الأسواق ويتعشش من بيع السمك، وأخذت همته تترقى قليلاً قليلاً في حب الشعر إلى أن نظمه وأجاده. ومثله ابن جاح الصباغ البطليوسى.

٢

الموشحات والأزجال

(أ) الموشحات

الموشحات جمع موشحة، وهى مشتقة من الوشاح وهو - كما في المعاجم - خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر. والتسمية دقيقة إذ الموشحة تتألف من قفل يسمى مركزاً، وتتعدد أجزاؤه أو شطوره، ويليه غصن متعدد الأجزاء أو الشطور، وبينما تتحد أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها في القفل الأول سواء في الوزن أو القافية تختلف أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغصن الأول في قافيته، فلكل غصن قافية تتحد في أجزائه أو شطوره مع اتفاق أجزاء الأغصان جميعاً في الوزن. والموشحة - بذلك - تتألف من مجموعتين من الأجزاء أو الشطور، مجموعة تتحد أجزاؤها المتقابلة في الأقفال المتعاقبة في الوزن والقافية، ومجموعة تتحد أجزاؤها في الوزن وحده دون القافية فإنها تتخالف فيها دائماً، وهما - بهذه الصورة - يشبهان الوشاح المذكور آنفاً أدق الشبه.

واشتهرت الأندلس بأنها هى التى ابتكرت فن الموشحة، ويُظن أنه كان لاتساع موجة الغناء والموسيقى منذ زرياب في عهد عبد الرحمن الأوسط على نحو ما مرُّ بنا في الفصل

الأول أثر كبير في نشوء الموشحة بقصد الغناء بها مع العازفين، وكأنها تتألف من فقرتين: فقرة للمنشد وفترة ترد بها الجوقة. وكان بدء ظهورها في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) يقول ابن سعيد: «ذكر الحجارى في كتاب المسهب في غرائب المغرب أن المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتها»^(١). ويسمى ابن بسام في ترجمته لعبادة بن ماء الساء مخترعها خطأ باسم محمد بن حمود القبرى الضرير، ويقول: «كان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة»^(٢) وظن بعض الباحثين - وخاصة من المستشرقين الإسبان - أن ذلك يدل على أن الموشحة لم تكن تنظم في نشأتها بالفصحى على أعاريض الشعر العربى وأوزانه إنما كانت تنظم على أعاريض المقاطع مثل الشعر الأوربى^(٣)، وهو خطأ فى الفهم إذ أن كلمة «الأعاريض المهملة غير المستعملة» عند ابن بسام لا تفيد ذلك، إنما تفيد ما رده العروضيون المشاركة والمغاربة من أن الدوائر الخمس التى ضبط بها الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة أعاريض الشعر العربى تفسح لأوزان مهملة لا تنحصر لم يستخدمها العرب فى أشعارها، واستخدمها فى عصره - كما يقول صاحب الأغانى - تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمِيدَع البصرى، وأخذ ذلك عنه وحاكاه فيه رُزَيْن العروضى وأتى فيه ببدايع جمّة، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس^(٤) وقد أنشد ياقوت قصيدة له فى مديح الحسن بن سهل، وأشار إلى أنها خارجة على أوزان الشعر العربى وأنها إنما تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة، وهو - فى رأينا - عكس وزن المنسرح. ويعد أبو العتاهية أهم شاعر عباسى ثان نظم أشعارا له مختلفة على تلك الأوزان المهملة على نحو ما يصور ذلك كتابنا «العصر العباسى الأول»^(٥).

ومعنى ذلك كله أن كلمة الأعاريض المهملة غير المستعملة التى أشار ابن بسام إلى أن أشطار أكثر الموشحات نظمت عليها لا يقصد بها أنها أعاريض أعجمية، إنما يقصد بها

مكى فى كتاب أثر العرب فى النهضة الأوربية ص ٥٠ وما بعدها.

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦.

(٥) العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٥.

(١) راجع كتاب المقتطف من أزهار الطرف لابن سعيد بتحقيق د. سيد حنفى حسنين (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٢٥٥.

(٢) الذخيرة ٤٦٩/١.

(٣) انظر بالنتيها فى تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٤٢ وما بعدها وراجع فصل الأدب للدكتور

أنها من أعاريض دوائر الخليل المهمة التي لم يستعملها العرب، وقد يقال إنك اقتطعت كلمة ابن بسام من بقية لها تدل على ما نقول، إذ يذكر ابن بسام عن منشئها - في رأيه - محمد بن حمود القبري الضرير أنه كان: «يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة» وهو يقصد قفلها الأخير الذي يأتي في الخاتمة. وربما كان ذلك مادعا «رييرا» إلى القول بأن الموشحة طراز شعري يمتزج فيه الشرق بالغرب. ويتسع المستشرق الإسباني المعاصر غرسية غوميس بالفكرة ويقول مستدلا بكلمة ابن بسام إن الخرجات (الخواتيم) الرومانسية في الموشحات الأولى كانت أجزاء مقتبسة من أغان شعبية إسبانية أعجب بها الوشاح الأول، واتخذها قاعدة بُنى على شاكلتها موشحته مرصعا لها بذلك الجزء كما يرصع الخاتم بفص من الجواهر الكريمة. وليس في يد غرسية دليل على أن الخرجة عند الوشاح الأول كانت تقتطع من أغنية رومانسية، فهو مجرد ظن، وأقرب منه وأصح منطقيا أن يكون قد حدث أحيانا عند الوشاح الأول ومن حاكوه اقتباس صيغة عامية أو أعجمية في نهاية الموشحة على سبيل النظر، كما حدث ذلك مرارا عند بعض الشعراء العباسيين^(١). وحتى بعد أن ازدهر هذا الفن في القرن الخامس وما بعده لم يستطع باحث بين المستشرقين الإسبان أن يرد خرجة رومانسية إلى أغنية رومانسية كانت متداولة في الأندلس أو تغنى، فالقول بذلك إنما هو - في رأينا - مجرد ظن لا دليل عليه.

أما لماذا استمر الوشاحون يحنون أحيانا في بعض موشحاتهم إلى اختتامها بصيغة رومانسية أو أعجمية فقد ذكر ابن سناء الملك السبب الأهم فيه إذ قال: «الخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة إلى ابن حجاج شاعر بغداد المفرط في المجون) من قبل السخف، قزمانية (نسبة إلى ابن قزمان الزجال) من قبل اللحن حارة محرقة من ألفاظ العامة.. ويُجْعَلُ الخروج إليها وثبا واستطرادا وقولا مستعاراً على بعض الألسنة وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران، ولا بد في البيت قبل الخرجة من قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت»^(٢). وواضح أن ما تحمله الخرجة أحيانا - أو ما يريد لها الوشاح أن تحمل - من مجون زائد

(١) العصر العباسي الأول ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر دار الطراز لابن سناء الملك بتحقيق الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٣٠.

(١) انظر في ذلك فصلا فتحه الجاحظ في البيان والتبيين (طبعة هرون) ١٤١/١ - ١٤٤ لمن كان يتملح بإدخال ألفاظ فارسية في شعره من الأعراب فضلا عن كانت أصولهم فارسية، وراجع كتابنا

عن الحد وأنها قد تقال على لسان المرأة كان السبب في استخدام الوشاح الأندلسي أحيانا للخرجات الرومانسية فراراً من التصريح بألفاظ مفحشة نابية. ومن يرجع إلى ما ذكره الدكتور عبد العزيز الأهواني من خرجات الموشحات في كتابه - الزجل الأندلسي - يلاحظ أن كثيراً من الخرجات العجمية التي ذكرها تشكو فيها الفتاة لأنها تباريح حبها لمن سلبها روحها وفؤادها متذلة لعاشقها تذلاً شديداً، وقد يصاغ ذلك في خرجات عامية ولكن في تلميح غالباً دون أن يخدش حياء الفتاة، أما ما كان يظن الوشاح أنه يخدش حياءها فكان يصوغه في عبارة لاتينية دارجة أو رومانسية وهذا - في رأينا - هو الباعث على وجود الخرجات الأعجمية في بعض الموشحات لا أنها نشأت على أساس بعض الأغاني الرومانسية الأعجمية. ومما يؤكد - بل يقطع - بأن الموشحات عربية خالصة أن من يقرنها إلى المسمطات العباسية التي ظهرت منذ القرن الثاني الهجري على لسان أبي نواس وأضرابه يلاحظ توا أن المسمطات قصائد تتألف من أدوار تقابل الأغصان في الموشحة وكل دور - مثل الغصن - يتألف من أربعة شطور أو أكثر تتفق في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغيرة، وهو يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في كل دور من أدوار المسمط، ويسمى - من أجل ذلك - عمود المسمط فهو القطب الذي يدور عليه. وهو يقابل بوضوح المركز أو القفل في الموشحة، وكل ما بينهما من فروق أن الشطر في نهاية أدوار المسمط واحد بينما هو في مراكز الموشحة متعدد، وسنرى عما قليل أنه كان في الموشحات الأولى شطرا واحداً. وقد أحس الأندلسيون من قديم بالمشكلة الشديدة بين الموشحة والمسمط كما يتبين من الاسم الذي اختاروه لها اشتقاقاً من الوشاح كما أسلفنا إذ وجدوا العباسيين يشتقون لفظ المسمط من السمط، وهو القلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقى جميعاً عند جوهرة كبيرة، على شاكلة التقاء كل دور في المسمط مع الأدوار الأخرى في قافية الشطر الأخير. لذلك - رأوا - أى الأندلسيين - بدورهم أن يشتقوا الموشحة من وشاح المرأة الذي يمتد فيه خيط مرصع باللؤلؤ وخيط مرصع بجواهر متنوعة يخالف بينها ويُعطَف أحدهما على صاحبه. وهي تسمية بارعة للموشحة وما تحمل من لآلئ الأقفال وجواهر الأغصان.

ومن أكبر الأدلة على أن الموشحة بدأت محاكاة للمسمط أن القبرى وشاحها الأول كان - كما يقول ابن بسام - يجعل اللفظ العامى أو العجمى مركزاً أو كما سُمي فيما بعد قفلاً ويضع عليه أشطارا، والمركز بذلك كان عند الوشاح الأول شطرا واحداً بالضبط كما كان في المسمط. ويقول ابن بسام إنه كان يبنى على هذا المركز أو الشطر أقطار الأشعار،

وكان أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستعملة، وهي الأعاريض التي أشار إليها الخليل بن أحمد في دوائره العروضية الخمس وما أخضعها له من فكرة التباديل والتوافيق الرياضية^(١) بحيث يمكن أن يستخرج منها ما لا يحصى من أوزان مهمة لم يستخدمها العرب، وكأن الوشاح الأول في الأندلس كان يقوم من تلك الأوزان أو الأعاريض مقام ابن السميدع ورزين العروضي وأبي العتاهية في بغداد، ممن عنوا - كما أسلفنا - بالنظم على الأعاريض المهمة. ومضت الموشحة على هذه الصورة عند الوشاح الأول الذي ابتكرها ومن خلفوه عليها، حتى ظهر يوسف بن هرون الرمادي الكندي المتوفى سنة ٤٠٣ فأحدث فيها تطورا مهما يقول ابن بسام في نفس النص السابق: «فكان أول من أكثر في الموشحة من التضمنين في المراكز» يريد أنه أول من أحدث في الموشحة تعدد الأجزاء أو الشطور في المراكز، ولم تحتفظ كتب الأدب له بموشحة تصور لنا بدقة صنيعة. ثم يقول ابن بسام إنه نشأ بعده عبادة بن ماء السباء الخزرجي، الأنصاري المتوفى سنة ٤١٩ فأضاف إلى الموشحة تطورا جديداً هو تضمينه مواقع الوقف في الأغصان أو بعبارة أخرى دقة التجزئة في أشكال الأغصان، وبذلك تمت للموشحة صورتها التي حملتها العصور التالية، وصور ذلك ابن بسام قائلا: «كانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة بن ماء السباء منادها، وقوم ميلها وسنادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولا أخذت إلا عنه». وإذا كانت الكتب الأدبية لم تحتفظ للرمادي بإحدى موشحاته فإن فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي احتفظ لعبادة بن ماء السباء بموشحتين تتقابل فيهما أجزاء المراكز أو الأقفال، وبالمثل تتقابل الأجزاء في كل غصن تقابلا دقيقا على نحو ما نرى صنيعة في هذا الغصن متغزلا^(٢)

لَيْلِيَّةُ الذَوَائِبِ	وَوَجْهَهَا نَهَارٌ ^(٣)
مَصْقُولَةُ التَّرَائِبِ	وَرَشْفُهَا عُقَارٌ ^(٤)
أَصْدَاغُهَا عَقَارِبُ	وَالْحَدُّ جُلْنَارٌ ^(٥)

وتتوالى الأغصان على هذه الصورة مجزأة إلى ستة شطور، تتحد الثلاثة الأولى منها في القافية، وبالمثل الثانية. وأصبح ذلك تقليدا ثابتا في الموشحات بعده. والوزن في هذا

(٣) الذوائب = الضفائر.

(٤) العقار = الخمر.

(٥) جلنار: زهر الرمان.

(١) راجع في ذلك ترجمة الخليل في كتابنا المدارس

النحوية (طبع دار المعارف) ص ٣١.

(٢) راجع الموشحة في الفوات ٤٢٨/١.

الغصن والأغصان بعده مستفعِلن فعولن، وكأنه تجزئة من وزن الرجز، وموشحته الأخرى
التي أنشدها ابن شاعر من وزن الرمل أقفاها وغصونها، ومطلعها:
مَنْ وَلِيَّ فِي أُمَةٍ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلْ يَعْزَلْ
إِلَّا لِحَاطِ الرُّشَا الْأُكْحَلِ

وظلت الموشحات بعد ابن ماء السماء تُنظَّم إما على أعاريض الشعر العربي المستعملة
وإما على أعاريضه المهملة، وموشحاته تتألف من ستة أقفال وخمسة أغصان، ويغلب في
الموشحات بعده أن تتخذ هذه الصورة وقد تطول أكثر أو تنقص فيزيد فيها عدد الأقفال
والأغصان إلى ثمان أو تنقص إلى أربع، وقد يبدأ الموشح بغصن ويسمى - حينئذ -
أقرع، وقد يتألف القفل من جزئين أو ثلاثة وقد يطول إلى ثمانية أجزاء وبالمثل الغصن.
ويسمى القفل الأخير باسم الخرجة وقد تكون ألفاظه أعجمية أو عامية كما مر بنا،
ويكثر أن تكون عربية بلغة سهلة مألوفة تقرب قربا شديدا من اللغة الدارجة.

ويقبل على نظم الموشحة غير شاعر من شعراء أمراء الطوائف، نذكر منهم القزاز
محمد بن عبادة وسنخصه بكلمة مستقلة، ومنهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن
ذى النون أمير طليطلة، ووزيره أبو عيسى بن لبون، وابن اللبانة محمد بن عيسى، وكان
هو والقزاز فرسي رهان في العصر، وسنترجم له بين الشعراء لأنه كان يجيد الشعر
كما كان يجيد الموشحات، وأغلب موشحاته مدائح في المعتمد بن عباد أمير إشبيلية
وأبنائه، وهو يستهلها دائما بغزل رقيق من مثل قوله في موشحة مدح^(١) بها المعتمد:

يَفْتَرُّ عَنْ لَوْلُو فِي نَسَقٍ مِنْ الْأَقَاخِ بِنَسِيمِهِ الْعَبَقِ
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لِرَشْفِ الْقُبَلِ
هِيَهَاتَ مِنْ نَيْلِ ذَاكَ الْأَمَلِ
كَمْ دُونَهُ مِنْ سُيُوفِ الْمُقَلِ
سُلْتُ بِلَحْظٍ وَقَاحٍ خَجَلِ

والقفل يتكون من أربعة أجزاء أولها على زنة: مستفعِلن فعِلن مُستَعِلن. والثاني على
زنة: مُتَفَعَلَاتُ والثالث على زنة: متفاعِلن. والرابع على زنة فعِلن. واجتماع هذه التفاعيل
تخرج القفل عن أعاريض العرب المستعملة وتجعله من أعاريضهم المهملة، أما الغصن

(١) انظر الموشحة في دار الطراز ص ٥٤ وفي

فيطرد على زنة: مستفعلن فاعلن مستفعلن، وهو وزن عربي مستعمل بكثرة ونقص وزن البسيط، واستخدمه ابن اللبانة في موشحاته مرارا لعدوئته.

وتتسع موجة الوشاحين في عصر المرابطين، ومن أهمهم في عهدهم، بل من أهم الوشاحين الأندلسيين عامة الأعمى التطيلي المتوفى حول سنة ٥٢٥ ويحيى بن بَقِيّ المتوفى سنة ٥٤٠ وسنخسه بكلمة ولم يكن الأعمى التطيلي يقل عنه براعة، غير أن له ديوانا كبيرا مما جعلنا نخصه بترجمة بين الشعراء، ويكفي لبيان مهارته في صنع الموشحات ما يروى من أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا لإنشاد موشحات لهم في مجلس بإشبيلية بينهم يحيى بن بَقِيّ والأعمى التطيلي، وقدموا الأعمى للإنشاد، فلما افتتح موشحته بقوله:

ضاحكٌ عن بُحَّانٍ سافرٌ عن بَدْرٍ
ضاقٌ عنه الزمانُ وحواه صَدْرِي

مَرَّق ابن بَقِيّ موشحته وتبعه الباقون^(١) لما فجأهم به التطيلي في موشحته من عذوبة في اللفظ وروعة في التصوير، والقفل السالف مكون من أربعة أجزاء، والجزآن: الأول والثالث المتقابلان على زنة: فاعلاتن فعول، والجزآن الثاني والرابع المتقابلان على زنة: فاعلاتن فَعْلَن، وتمضى جميع الأقفال بهذه الزنة بينما تمضى الأغصان على زنة: فاعلن فاعلن أو بعبارة أخرى على وزن المتدارك على شاكلة قوله في الغصن الأول:

آهِ مِمَّا أَجِدُ شَفْنِي مَا أَجِدُ
قَامَ بِي وَقَعْدُ بَاطِنٌ مَتَّيْدُ

وكان التطيلي تعمد أن يكون القفل من أعاريض العرب المهملة، إذ مزج فيه بين تفاعيل من أوزان أو بحور مختلفة، بينما نظم الغصن من وزن المتدارك، وقد ينظم الوشاح موشحته جميعها أقفالا وأغصانا من وزن عربي مستعمل واحد كالرجز أو البسيط أو السريع أو المجتث، وكل ذلك نجد له أمثلة في موشحات التطيلي الملحقة بديوانه كقوله في موشحة نظمها من الوزن الأخير:

حُتُّ الكُنُوسِ رَوِيَّةٌ عَلَى رُؤَاةِ البَسَاتِينِ مِنْ قَهْوَةٍ بِابِلِيَّةٍ
أَرْقُ مِنْ دَمْعٍ مَحْزُونٍ
خَلَعْتُ عِزِّي وَدِينِي فِي أَهْيَفِ الْقَدِّ لَدْنِهِ

يَسْطُو بِسَيْفِ الْمُنُونِ مَا جَفَنهُ غَيْرَ جَفْنِهِ
يَا قَسْوَةَ الْحَبِّ لِيَنِي وَلَوْ بِرُمَّانٍ غَضَّشَهُ

وأجزاء الأقفال والأغصان تطرد هكذا عل وزن المجث: مستفعِلن فاعلاتن. وعاصر التطيلي من الوشاحين الناهيين أبو بكر بن باجة الفيلسوف المار ذكره في الفصل الماضي وهو أحد من طوروا الموسيقى الأندلسية، وكانت له تلاحين مشهورة، ويحكى أنه صنع موشحا في مديح ابن تيفلُويت المرابطي الوالي على شرقي الأندلس وسرقسطة ليوسف بن تاشفين، ولحنه وألقاه على قينة، فلما غنت ابن تيفلُويت به صاح: واطرباه، وحلف بأيمان مغلظة أن لا يمشی ابن باجة في طريقه إلى داره إلا على الذهب، وتلطف ابن باجة فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه. ومن الشعراء الوشاحين البارعين في عصر المرابطين الأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري وأبو بكر بن رُحيم ويحيى بن الصيرفي المؤرخ وأبو الحسن بن نزار وله موشح بناء من مخلع البسيط مستخرجا دائما الجزء الثاني من أغصانه وأقفاله من آخر كلمة في الجزء الأول على هذا النمط^(١):

يَا رَبَّةَ الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ مِيلِي
رَأَيْتُ فِي وَجْهِكَ السَّعِيدِ عَيْدِي

وتظل الموشحات مزدهرة في عصر الموحدين (٥٤٠ - ٦٣٤ هـ) بل تبلغ غاية ازدهارها على لسان ابن هرودس كاتب عثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة كما يتضح في موشح له بديع^(٢) مستخرجا الجزء الثاني من أقفاله - على شاكلة ابن نزار - بعد نهاية الجزء الأول كقوله في مطلعته:

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَالسُّعُودِ بِاللَّهِ عُودِي

والجزء الأول من القفل - مثل سابقه عند ابن نزار - على زنة مخلع البسيط، وزنة الجزء الثاني مستفعِلان، والأغصان جميعها من مخلع البسيط: مستفعِلن فاعِلن فعولن، ومن كبار الوشاحين على بن المربني وفي المغرب له موشحة^(٣) بارعة. وسابق الحلبة - كما يقول ابن سعيد - أبو بكر بن زهر، وسنخصه بكلمة، ومن المشهور أنه لما سمع قول عبد الرحيم بن الفرّس في إحدى موشحاته:

(٣) المغرب ٢/٢١٨.

(١) المغرب ٢/١٤٧.

(٢) المغرب ٢/٢١٥.

ورداء الأصيل تطويه كف الظلام

قال لمن حوله: أين كنا نحن عن هذا الرداء^(١)؟ وهى صورة رائعة، ودخل عليه أبو الحسن سهل بن مالك، ولم يكن يعرفه، حتى إذا أنشده موشحة من مجزوء البسيط يقول فيها:

كُحِلُّ الدَّجَى يَجْرَى مِنْ مُقْلَةِ الْفَجْرِ عَلَى الصَّبَاحِ
وَمِعْصَمُ النَّهْرِ فِي حُلَلِ خُضِرٍ مِنْ الْبِطَاحِ

طرب لهذا القفل منها طربا شديدا^(٢) لغذوية ألفاظه وحسن صوره. ومن كبار الوشاحين حينئذ على بن حزمون الهجاء، وله موشحة^(٣) بديعة يرثى بها أبا الحملات قائد الأعنة بيلنسية، وقد استشهد في الدفاع عنها في إحدى معاركه المحتدمة مع النصارى وستنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرناء. وكان يعاصر ابن حزمون على بن الفضل الإشبيلي المتوفى سنة ٦٢٧، وله في إحدى موشحاته^(٤):

وَأُقِرِدْتُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرِّضَا وَبِتُّ عَلَى جَمَرَاتِ الْغَضَا
أَعَانْتُ بِالْفَكْرِ تِلْكَ الطُّلُولُ وَالْتَمْتُ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومُ

وأغصان الموشحة وأقفاها من بحر المتقارب، وزنته: فعولن أربع مرات. وتفضى الأندلس بعد الموحدين إلى التفكك وسقوط مدنها الكبرى في حجر النصارى، وقلما يظهر وشاح مبدع إلا من نشأوا في عصرهم من تلاميذ من سميناهم فيه من مثل إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، وأشهر موشحاته^(٥):

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الْحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهْ عَنْ مَكْنَسٍ
فَهَوَ فِي حَرٍّ وَخَفَقَ مِثْلَهَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

وقد صاغه أقفالا وأغصانا من بحر الرمل وزنته: فاعلاتن فاعلاتن فاعلن. ويقبل المتصوفة على صنع الموشحات ويهاجر كثيرون بها إلى المشرق مثل ابن عربي والششتري. وولتقى في غرناطة بابن زمرك ولسان الدين بن الخطيب، وله موشحة

(١) المقتطف ص ٢٦٠.

يستوقد بخشبه.

(٢) المقتطف ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٣) ديوان ابن سهل الإشبيلي (طبع بيروت)

(٤) المغرب ٢١٧/٢.

ص ٢٨٣ ومكنس الظبي: مأواه في الشجر ليستتر

(٥) المغرب ٢٨٩/٢ والغضا: من أشجار نجد.

به. القبس: شعلة النار.

مشهورة عارض بها موشحة ابن سهل المارة مفتتحا لها بقوله^(١):

جادك الغيثُ إذا الغيثُ هَمِيَّ يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلُك إلا حُلماً في الكرى أو خِلْسَةً المختلسِ

وكانها كانت مسك الختام لفن الموشحات بالأندلس. وحرى بنا أن نفى بما وعدنا من كلمات مجملة عن ثلاثة من كبار الوشاحين بالأندلس، هم ابن عبادة القزاز وابن بقي وابن زهر.

ابن عبادة^(٢) القزاز

هو أبو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، ترجم له ابن سعيد في المغرب وقال إنه من حصن بلّور من إقليم غرناطة وطنه ابن خاتمة من أهل مالقة، واشتهر بأنه شاعر المعتصم بن صمادح أمير المرية، وله فيه مدائح شعرية وموشحات، وفيه يقول:

ولو لم أكن عبداً لآل صمادح وفي أرضهم أصلى وعيشى ومولدى
لما كان لى إلا إليهم ترحُّلٌ وفي ظلهم أُمسى وأضحى وأغتدى

وكان يلم بالمعتمد بن عباد وله أيضا فيه موشحات ومدائح، ويصفه ابن بسام بقوله عنه: «من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما ذكر اسمه وحُفظ نظمه في أوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الأندلس وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، ورقم ديباجه، ورصّع تاجه، وكلامه نازل في المديح، أما ألفاظه في التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف». وربما قسا ابن بسام عليه في حكمه على مديحه لروعة موشحاته روعة فاق بها كل أقرانه في زمنه حتى قالوا إنه لم يشق غباره واحد من معاصريه، وهو أحد خمسة أدار عليهم ابن سناء الملك حديثه واختياراته من الموشحات في كتابه: دار الطراز، هو ومعاصره ابن اللبانة ثم التطيلي ويحيى بن بقي من عصر المرابطين وأبو بكر بن زهر من عصر الموحدين، ومن أروع موشحاته موشح غزلى يتكون قفله من ستة أجزاء بينما يتكون غصنه من أربعة أجزاء، ونكتفى منه بغصن بهر أبا بكر بن زهر، حتى أثر عنه أنه

٢٥٢/٢ والخزيرة ٨٠١/١ وما بعدها والخزيرة
(طبعة تونس) ١٨٢/٢ ودار الطراز لابن سناء
الملك: الموشحات أرقام ٩، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٣

(١) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف والترجمة
والنشر) ٢١٣/٢ وهى: سقط مدرارا.

(٢) انظر في ابن عبادة القزاز القلائد للفتح بن
خاقان: ١٤ والمغرب ١٣٤/٢ وأزهار الرياض

قال: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيها اتفق له من قوله:

بَذَرْتُمْ شَمْسُ ضَحَى غُصْنُ نَقَا مِسْكُ شَمْ
مَا أَنْتُمْ مَا أَوْضَحَا مَا أَوْزَقَا مَا أَنْتُمْ
لَا جَرَمَ مِنْ لَحَا قَدْ عَشِقَا قَدْ حَرِمَ

والألفاظ رشيقة رشاقة لا تُحَدِّد، رشاقة كأنما تطير بها في خفة فتحدث عَبَقًا، وهو عبق مصدره الدقة في انتخاب الألفاظ وانتخاب الوزن، إذ هي مشتقة من بحر البسيط الرقيق العذب، إذ تتوالى الأجزاء في كل سطر على: فاعلن، مستعلن مستعلن فاعلن. وليس هذا بالضبط عروض البسيط فعروض الأجزاء الأربعة المتوالية فيه مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن، وقدم القزاز في الجزئين الأولين فاعلن على مستفعلن. وبمثل ذلك وبما قدمنا من تكوين الوشاح لعروض بعض موشحاته من تفعيلتين إحداها من بحر والثانية من بحر آخر على نحو ما مرُّ بنا في قفل موشحتين للتطيلي وابن اللبانة قال ابن بسام إن أكثرها يجري على الأعاريض المهملة غير المستعملة فظن «رييرا» ومن تبعه خطأ بأنه يقصد أعاريض أعجمية لا يعرفها العرب، وهو إنما كان يقصد الأعاريض المهملة غير المستعملة عند العرب التي نص عليها الخليل بن أحمد، بما وضع في دوائر العروض الخمس من تفاغيل أدارها فيها مقدِّما ومؤخرا في أسبابها وأوتادها ومستخدما إشارات من النقط والحركات تصور ما يحدث في التفعيلات من زحافات بحيث تجمع الأعاريض أو الأوزان العروضية عند العرب وما يمكن عقلا أن يستخدم من أوزان جديدة أهملها العرب ولم يودعوا فيها من أشعارهم شيئا. وكانت هذه الدوائر وما يداخلها من أعاريض مهمة وكيفية استحداث تلك الأعاريض معروفة للأندلسيين منذ بدأوا في نظم الموشحات بدليل أن ابن عبد ربه المعاصر للقبرى الوشاح الأول أثبتتها مفصلة في كتابه العقد الفريد. ولابن عبادة بجانب الموشحة التي أنشدناها والتي أعجب ابن زهر بأحد أغصانها إعجابا شديدا أربع موشحات إحداها غزلية، والثانية في وصف عَرَضٍ لأسطول المعتصم في البحر المتوسط يوم المهرجان، وفيها نفس العذوبة والرشاقة التي رأيناها في الموشحة السابقة كقوله يصف سفن الأسطول في أحد الأغصان:

وجاريات تجولُ مثلَ الجياد السابقة
إنشاءً من في المحولُ يُنشئُ السحابَ الوادِقه^(١)

(١) المحول: الجذب. الوادقة: المطرة. وهو يشيد بجود المعتصم وقد أشاد طويلا ببسالته الحربية.

سَمْتُ عَلَى النّجْم طَوْلُ مِنْهَا فِرْعُ بِاسِقَهٗ^(١)

والموشحة تُرَدُّ إلى بحر الرجز وزحافاته. والموشحة الثالثة جمع فيها بنفس السلسلة والانسباب بين مديح المعتصم بن صامح والمعتد بن عباد ، وفي أحد أقفاها يقول فيها:

بَحْرًا نَعَمْ لِمَنْ وَرَدَ ظَمَانٌ سِيفًا نَقَمَ لِمَنْ مَرَدَ^(٢) أَوْحَانُ

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نهج ابن عبادة القراز وأنه كان يعنى بتقصير أجزاء القفل والغصن حتى يتيح لموشحته كل ما يمكن من عذوبة النغم وحلاوته، وعادة لا يكتفى بذلك بل يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه، بحيث تعبق الموشحة بأريج عطر من النغم البديع.

يحيى^(٣) بن بقی

هو أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبي القيسي المشهور باسم ابن بقی نسبة إلى جد أبيه، وقد ترجم له الفتح في القلائد، فقال عنه: «هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعة، وأظهر روائعه، وصار عصي طائعه، إذا نظم أُرْزَى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رَقَم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، فصار قعيد صهوات، وقاطع فلوات، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلب دهر كواهي الجُمان» وهو أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقلاقه وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن كثيرا من الأبواب أغلقت دونه مما جعله ينشد:

وَعَلْتُ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى فَأَعْجَزَنِي نَيْلُ الرِّغَائِبِ حَتَّى أُبْتُ بِالْندَمِ

ولم يلبث أن فُتِحَ له باب كبير هو باب بنى عَشْرَةَ قِضَاة سَلَاً بالقرب من الرباط

ومعجم السلفى ٥٠ وانغريدة (طبع تونس) ٢٣٦/٢ ونفح الطيب في الجزئين الثالث والرابع (انظر الفهرس) وأزهار الرياض ٢٠٨/٢ ودار الطراز أرقام: ١٧، ١٩، ٢٠، ٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٣ وله موشحة في المغرب وثانية في معجم الأدباء واقتتح ابن الخطيب كتابه «جيش التوشيح» بطائفة من موشحاته.

(١) باسقة: عالية. يقصد الصوارى وما يرفع عليها ويمتد من القلاع.

(٢) مرد: عتا وجاوز الحد.

(٣) انظر في يحيى بن بقی القلائد ٢٧٩ والذخيرة

٦١٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١/٢٠ والتكملة رقم

٢٠٤٢ وابن خلكان ٢٠٢/٦ والمغرب ١٩/٢

والإحاطة ٤١٨/٤ والمقتطف ص ٢٥٦ وما بعدها

الحالية عاصمة المملكة المغربية، وكانوا بحارا فياضة في الجود فغمروه بجودهم وخاصة يحيى بن علي بن القاسم وأخاه أحمد قاضى سلا، فمكث في رحابها طويلا، وأضفى عليها من شعره وموشحاته دُررا كثيرة، وأول ما نقف عنده من موشحاته فيهم الموشحة التي مدح بها القاضى أحمد، والتي قال في خرجتها أو خاتمها أبو بكر بن زهر: ما حسدت وشاحا على قول إلا ابن بقى حين وقع له:

أما ترى أحمد في مجده العالى لا يلحقُ
أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرقُ

وهو لم يحسده في رأينا على جمال صياغته فحسب، بل حسده أيضا على روعة تصويره في الفقرة الثانية إذ جعل القاضى أحمد كوكبا يبرز في المغرب ولا مثيل له في المشرق. ويتضح إبداعه في تصويره إذ يقول في أحد أغصان هذا الموشح متغزلا بصاحبتة:

عطا بليتَيْهِ ومُرُّ كالظَّبْيِ لِبَيْدِهِ^(١)
فدلاً عليه تكسُر الحَلَى بِجِيدِهِ
تفتيرُ عَيْنَيْهِ يُسرِع في بَرَى عَمِيدِهِ

وهو يجعلها كأنها طيبة حقيقية تمد عنقها لتناول الأوراق في الشجر مصورا بذلك جمال جيدها، ويقول إنه إنما رآها لمحا أو كاللمح إذ مرّت سريعا إلى منزلها، ويصوره كأنه يبداء فلن يعود يراها. ويعود إلى نفسه فليست من الأطباء بل هى من النساء إذ سمع صوت الحلى بجيدها. ويقول إن تفتير عينيهَا الجميلتين يسرع في ضنا محبوبها، ولا يزال يأمل من البليد والفلوات ردّها. والموشحة من مجزوء البسيط. وواضح أن نسبتها إلى ابن بقى لا يشوبها شك فقد نسبها إليه أبو بكر بن زهر وكذلك ابن سعيد في كتابه «رايات المبرزين» والمقرى في أزهار الرياض ومع ذلك نجدها في ديوان التطيلي خطأ^(٢) كما نجد أغثا لها في ديوانه أيضا وهى في مديح يحيى بن القاسم ممدوح ابن بقى الذى تقيًا ظلّاله.

(١) الليث: صفحة الجيد وجعلها تطو بها وقدها، (٢) انظر ديوان التطيلي ص ٢٧٠ وقارن برايات المبرزين ص ٧٩ وأزهار الرياض ٢٠٩/٢. كناية عن طولها.

وينص ابن سناء الملك في مقدمته لدار الطراز على نسبتها إليه^(١) وينشدها كاملة بين ما اختاره من الموشحات الأندلسية، وفيها يقول:

صبرتُ والصَّبْرُ شِيمَةُ العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفاني
لما جَنَى الوَرْدُ مِلءَ كَفِّهِ تشوّفتُ وردتان إليه
فحلّتا في رياض خَدَيْهِ

ويقول ابن سناء الملك إن هذه الموشحة من وزن المنسرح، ما عدا نهاية القفل: «معذبي كفاني» لأن وزنه مستفعّلن فعولن، والأولى تفعيلة الرجز والثانية تفعيلة المتقارب. وألفاظ القفل بعدوبتها كأنها اقتطعت من اللغة الأندلسية الدارجة لتخفف عن قارئها متاعبه. وصورة الورد في حدود صاحبه تنقلنا إلى عالم شعري حالم مكتظ برؤى بديعة. ويلاحظ ابن سناء الملك أن موشحته:

يا وَنِجَ صَبُّ إلى البرِّقِ له نَظْرُ وفي البكاءِ مع الوُرُقِ له وَطْرُ

من وزن البسيط أقفالا وأغصانا، وهو يضم في الوزن الجزئين الأولين والتالين بعضها إلى بعض، ويقول من موشحة:

إن لم يكن إليك سبيلُ فالصَّبْرُ بالجميل جميلُ

والوزن في أقفالها وأغصانها مستفعّلن فعولن فعولن، فهو مكون من تفعيلة الرجز وتفعيلة المتقارب ويكثر هذا الوزن بين الوشاحين. وتكثر هذه السهولة المفرطة في كثير من أغصان ابن بقي وخرجاته كقوله في موشحة من وزن الرجز:

ليلٌ طويلٌ ولا مُعينٌ يا قلبَ بعضِ الناسِ أما تَلينُ

وقوله في خرجة موشحة ثانية مستخدما لغة عامية كأنما تفصل من قلوب سامعيه فتؤثر فيهم تأثيرا بعيدا:

اختلطت بموشحات التظليل وخاصة في كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب على نحو ما يلاحظ في نسبة الموشحات الثلاث المذكورة إلى التظليل وعنه ألحقها د. إحسان عباس بالديوان حين حققه مع إشارته إلى ذلك!

(١) راجع ديوان التظليل ص ٢٦٩ وقارن بدار الطراز لابن سناء الملك ص ٣٤ ونسب أيضا ابن سعيد في المغرب ٢٥/٢ الموشحة: ما الشوق إلا زناد إلى ابن بقي وقد أضيفت إلى التظليل في ديوانه ص ٢٧٩ مما يدل على أن موشحات ابن بقي

سَافِرٌ حَبِيبِي سَحَرٌ وَمَا وَدَّعْتُ يَا وَحْشَ قَلْبِي فِي اللَّيْلِ إِذَا افْتَكَرْتُ

وكلمة وحش حذف منها التاء لضرورة تفعيلة الرجز: مستفعلن مع زيادة سبب فيها أحيانا إذ تصبح مستفعلاتن. وهذه الألفاظ الغزلة المفرطة في السهولة وبما كانت تتضمنه موشحات ابن بقي من صور بديعة طارت شهرته في عصره وبعد عصره، وقد لبى نداء ربه سنة ٥٤٠ للهجرة.

أبو بكر^(١) بن زهر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك، وهو سليل أسرة طبية ألعنا بها بين الأطباء في الفصل الماضي، ولد سنة ٥٠٧ بإشبيلية، وأخذ علم الطب عن أبيه وجده، وانفرد بالإمامة في عصره، ويقول ابن الأبار إنه كان يحفظ صحيح البخاري أسانيد ومتونا، وكان له حظ وافر من الآداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحديث بمقامات الحريري عن أبيه، ويقول صاحب المطرب. كان بمكان من اللغة مكين، كان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب مع معرفة جميع أقوال أهل الطب. وكان له منزلة عليا عند الموحدين وخاصة عند الأمير يعقوب بن يوسف سلطان الموحدين (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وتوفي في آخر سنة ٥٩٥ وصلى عليه السلطان الناصر بن يعقوب ودفن بروضه الأمراء في مراکش. ويقول صاحب المطرب إن الذى انفرد به وانقادت إليه طباعه وأصارت النبهاء أتباعه الموشحات، وقد طار في المغرب والمشرق موشحه :

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
وَنَدِيمٍ هُنْتُ فِي غُرَّتِهِ
وَسَقَانِي الرَّاحَ مِنْ رَاحَتِهِ
كَلِمَا اسْتَيْقِظَ مِنْ سَكْرَتِهِ
جَذَبَ الزُّقَّ إِلَيْهِ وَاتَّكَى وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعِ

لصفوان (طبع بيروت) ص ٧١ والواقى للصفدى ٢٩/٤ وراجع في موشحاته المغرب ومعجم الأدباء وابن أبي أصيبعة وتوشيح التوشيح للصفدى (انظر الفهرس) وبالمثل جيش التوشيح لابن الخطيب.

(١) انظر في أبي بكر بن زهر التكملة رقم ٨٥٥ والمغرب ٢٧١/١ والمطرب لابن دحية ص ٢٠٣ وما بعدها والمعجب ص ١٤٢ وابن أبي أصيبعة ص ٥٢١ ومعجم الأدباء ٢٥٦/١٨ وزاد المسافر

والموشحة من وزن الرمل، وهى تسيل خفة ورقة وعذوبة ورشاقة فى نسق من بديع الألفاظ المختارة، وكأنها لا تتلاقى فحسب، بل تتعانق آخذاً بعضها بتلابيب بعض. وله من موشحة هذا الغصن وقفله:

هل تستعاد	أيأمنأ بالخليج	أو ليالينا
إذ يُستفاد	من النسيم الأريج	مِسْكُ دارينا ^(١)
وإذ يكاد	حُسْنُ المكان البهيج	أن يحيينا
نهرٌ أظله	دَوْحٌ عليه أنيق	مورقُ فينان ^(٢)
والماء يجرى	وعائِمٌ وغريق	من جَنَّا الرِّيحانُ

والغصن والقفل جميعاً يزخران بشجى يثير فى القلب حنيناً بل جذوة متقدة من الحنين لأيام سعيدة هنيئة مرت وكأنها حلم من الأحلام لن يعود. لن تعود تلك الأيام والليالى ولا ما كان فى حداثتها البهيجة من النسيم العطر حتى لكأنما كل شىء فيها كان يلقاهام بالتحيات والبسات، وماء نهر إشبيلية يجرى من تحتهم وفروع الأشجار وأغصانها المورقة تظللهم، والرياحين والزهر بين سابح وغريق. كل ذلك سقط من يد ابن زهر وهو موله مشوق أعظم شوق، حتى لكأنما انتزع منه انتزاعاً. وزنة الجزء الأول فى القفل والغصن مستفعلاتن، وزنة الجزء الثانى مستفعلن فاعلان، وزنة الجزء الثالث فى القفل فاعلان وفى الغصن فعْلن، وبذلك يُردّ وزن الموشحة إما إلى البسيط وإما إلى السريع مع زيادة سبب إلى التفعيلة الأولى داتها وكذلك إلى التفعيلة الأخيرة، وهذه التغيرات فى تفاعيل هذه الموشحة وما مائلها مما أشرنا إليه هو ما جعل ابن بسام يقول إن الموشحات تجرى أحياناً على أعاريض مهملة أى من أعاريض الشعر العربى كما أسلفنا مراراً لا من أعاريض الشعر الأعجمى الوهمية، كما ظن «ريبيرا» وتلاميذه. ولا بن زهر موشحة صاغها على طريقة ابن نزار هكذا:

قلبي من الحب غير صاح	صاح
وإن لحانى على الملاح	لاح
وإن درى قصتى وشانى	شانى

والجزء الأول فى الغصن والقفل من مخلع البسيط، والجزء الثانى على زنة فعْلن تفعيلة

(٢) فينان: كثير الفروع والأغصان.

(١) دارين: قرية كانت على الخليج العربى ينسب إليها المسك والطيب.

المتدارك وصاح الأولى: مستيقظ، والثانية: ترخيم صاحب، واللاحى: العاذل اللائم،
 وشانى الأولى: مخففة من شأنى والثانية: المبغض. واستمر ابن زهر فى هذه الموشحة
 يستخرج الجزء الثانى من الجزء السابق له أو يكرره بمعنى جديد، مما يفجأ به قارئه
 ويدخل عليه غير قليل من المتاع الشعرى. وكان كثيرا ما يفجأ قارئه بصور طريفة
 كقوله فى الموشحة التى أنشدها له ياقوت فى معجم الأدباء:
 طرقت والليل ممدودُ الجَنَاحُ مرحبًا بالشمسِ من غير صباح

فجناح الليل ممدود على الكون من حوله، وزارته صاحبتة فأضاءت فى هذا الليل كأنها
 شمس تطلع دون صباح مما يلقي فى نفسه غير قليل من العجب، والموشحة جميعها أقفالا
 وغصونا من وزن الرمل، وأنشد له ابن دحية فى المطرب موشحة من وزن المتقارب
 افتتحها على هذه الصورة:

سَدَلْنَ ظِلَامَ الشُّعُورِ عَلَى أَوْجِهِ كَالْبَدُورِ
 سَفَرْنَ فَلَاحَ الصُّبَاحِ
 ضَحَكْنَ ابْتِسَامَ الْأَقَاحِ
 كَانَ الذِّى فِي النُّحُورِ تَحْيُرْنَ مِنْهُ الثُّغُورُ

والصور طريفة إذ يجمع فى غزله والإعجاب بجمال صواحيبه ظلام الشعور وبدور
 أو أقبار الوجوه ويضيف أنهم سفرن ونحين النقاب عن وجوههن فأضاء الصباح،
 وضحكن وابتسمت ثغورهن ابتسام زهر الأقاح الذى طالما شبه به الشعراء الثغور
 لنصاعة بياضه. ويفجئون ابن زهر بما ملأ نفسه حيرة، إذ ينتقل بصره بين ثغورهن وعقود
 اللآلى التى تزدان بها نحورهن فيخال كأنهن تحيرون ثغورهن من تلك اللآلى البهيجة.

وواضح من كل ما قدمت أن موشحات ابن زهر وابن بقی وابن عبادة القزاز
 وغيرهم من الوشاحين الأندلسيين تموج بالنغم، وحقا خالفوا بين قوافى الأقفال وقوافى
 الأغصان، ولكن الأقفال تتجدد قوافيها فى كل موشحة كما تتحد قوافى الأجزاء فى كل
 غصن. فالقافية لم تهمل فى الموشحة إنما تنوعت فى الأغصان، وظلت موحدة فى أجزاء
 الأقفال، وكان حريا أن يسقط بذلك شيء من وفرة الأنغام المعروفة فى القصيدة العربية
 غير أنهم تلافوا ذلك باختيارهم لموشحاتهم أرقى الألفاظ العربية وأكثرها عذوبة
 وسلاسة وصفاء، وليس ذلك فحسب، فقد قصروا الشطور فى أجزاء الأقفال والأغصان،
 حتى أصبحت أنغام أى موشحة لا تقل عن أنغام القصائد وفرة، بل إنها لتتفوق عليها فى

كثير من الأحيان بسرعة التدفق والانسياب، حتى لتصبح روائعها وكأنها يم من الأنغام تفرق الأذن في خضمه. وليس بصحيح ما زعمه بعض المستشرقين الإسبان من أنها وضعت في نشأتها - وظلت توضع أحيانا - على أسس إيقاع لأنغام أغنيات باللغة الإسبانية أو الرومانسية الدارجة، ليس ذلك بصحيح، إذ هو وهم تبادر إليهم - كما أسلفنا - من كلمة ابن بسام : إن أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستعملة، وهو إنما يقصد أعاريض الشعر العربي المهمة التي حاول بعض العباسيين أن ينظم فيها أشعاره أو بعض أشعاره، ثم جاء الأندلسيون من أصحاب الموشحات بعدهم فظفروا في دوائر الخليل وتحريكه فيها للتفاعيل بالزيادة والنقص، فاستغلوا ذلك في موشحاتهم أحيانا بزيادة سبب في بعض التفاعيل أو نقصه مع اطراد ذلك في الموشحة، بحيث تدخل بدقة في أعاريض الشعر العربي وإيقاعه، فضلا عن أن كثيرا منها - إن لم تكن كثرتها - صيغت كما رأينا عند كبار الوشاحين من نفس أعاريض الشعر العربي وأوزانه المستعملة من قديم.

(ب) الأزجال

الأزجال جمع زجل^(١)، وهو في اللغة التطريب، وقد سمي به الأندلسيون الفن الشعري العامي المقابل للموشحة. وفي اسمه الذي اختاره الأندلسيون ما يدل على أنه نشأ للتغنى به في الطرقات والأسواق والمحافل العامة، وظل ذلك شأنهم على توالى الزمن، ونرى ابن قزمان يصرح بذلك في بعض أزجاله^(٢)، وتلتقى بعده بابن عبد الرؤوف ورسالته في الحسبة، ونراه يقول إنه ينبغي أن يمنع الذين يمشون في الأسواق بالأزجال إلا أن تكون نفيرا للجهاد أو تهليلا لحج بيت الله الحرام والسفر إلى الحجاز^(٣). وحين رأى المستشرق الإسباني «ريبيرا» أن صورتها لا تختلف في شيء عن صورة الموشحة من حيث الأقفال والأغصان قرنها بها في نشأتها منذ أواخر القرن الثالث الهجري قائلا إنه نشأ حينئذ طراز شعري شعبي تمتاز فيه مؤثرات غربية وشرقية متخذًا صورتين هما

وما بعدها.

(٢) انظر الزجل رقم ٦١ في ديوانه.

(٣) راجع رسالة الحسبة لابن عبد الرؤوف في

ثلاث رسائل نشر بروفنسال.

(١) راجع في هذا الموضوع كتاب الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني (نشر معهد الدراسات العربية العالية في الجامعة العربية) وكتاب تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٥٢

الموشحة الفصيحة والزجل السوقى الدارج^(١)، ويسط غرسية غوميس فكرته قائلا إنه «قدّم براهين جلية على وجود لغة رومانسية كان يتكلمها أهل الأندلس وهى اللغة التى كتب بها ابن قزمان شاعر القرن الثانى عشر الميلادى أزجاله.. وكانت اللغة الدارجة الجارية على الألسن فى قرطبة»^(٢). والشعبتان جميعا كما يراها ريبيرا تحتاجان إلى مراجعة، إذ ينقصهما البرهان اليقضى، أما أنه كانت تشيع فى الأندلس لغة دارجة رومانسية كتبت بها الأزجال فإن الأزجال نفسها تنقضها لأنها كانت مكتوبة بلغة عامية عربية لا رومانسية بدليل أن أبواب البلدان العربية جميعا فتحت لها وتناشدها الناس فيها، وأكّبوا على روايتها ودراستها، حتى ليقول ابن سعيد إنه رأى أزجال ابن قزمان إمام الزجل الأندلسى مدونة ببغداد أكثر مما رآها مدونة بحواضر المغرب^(٣). ومن الطريف أن نعرف أن الأندلسيين لم يكتبوا فيها بحثا ولا دراسة، وأن أول من بحثها ودرسها وحاول أن يعرض شيئا من تاريخها وخصائصها العروضية واللغوية بغدادى هو صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ فى كتابه «العاطل الحالى والمرخص الغالى» ولو أنها كانت منظومة بلغة رومانسية أو لاتينية كانت دارجة فى الأندلس ما استطاع فهمها ولا درّسها دراسة علمية قيمة على نحو ما نقرأ فى كتابه السالف، الذى لا أبالغ إذا قلت إن أحدا لا يستطيع أن يدرس الأزجال الأندلسية دراسة علمية بصيرة دون الاعتماد عليه. ولم يبن دراسته للزجل على دراسة ديوان ابن قزمان وحده بل لقد استعرض معه طائفة من دواوين الزجالين الذين جاءوا بعده حتى القرن السابع مما يدل - بوضوح - على أنها كانت متداولة جميعا فى المشرق وأنها كانت منظومة بعامية عربية لا لاتينية دارجة أو رومانسية، ولا ننكر أنه تتخلل بعض الأزجال وخاصة عند ابن قزمان بعض ألفاظ رومانسية بحكم أنها دخلت العامية الأندلسية، بالضبط كما حدث لمثيلات لها فى لغات الشعوب التى فتحها العرب والتى استحدثت فيها عاميات مختلفة، ولكن ذلك لا يخرجها جميعا - كما لا يخرج العامية الأندلسية - من عالم العاميات العربية.

وبالمثل الشعبة الثانية من رأى «ريبيرا»، وهى أن الزجل نشأ مع الموشحة منذ أواخر القرن الثالث الهجرى فى حاجة أيضا إلى مراجعة، إذ لا تذكر المراجع الأندلسية أى شىء عن زجل أو أحد الزجالين قبل القرن السادس الهجرى، مما ينعنا علميا أن ننسب نشأة الزجل إلى القرن الخامس فضلا عن القرن الرابع وما قبله. ونفس ابن قزمان

(١) انظر بالنشأ ص ١٤٢.

ص ١٨٦.

(٢) المقتطف ص ٢٦٣.

(٣) دراسات أندلسية للدكتور الطاهر مكى

المتوفى في منتصف القرن السادس يحدثنا في مقدمة ديوانه بأن الزجالين الذين عاشوا في زمنه أو قبله بقليل لم تستقر عندهم القاعدة الأساسية للزجل، وهى أن يكون بلغة عامية تخلو من الإعراب ومن التفاصيل بالألفاظ العربية المجزلة، ويقول إن أول من اتخذ هذه القاعدة أساسا للزجل أخطئ بن غماره وحده دون غيره ممن سبقوه فإن ألفاظ أزجاله ملحونة وسلسة. ويدل على أن أصول الزجل وقواعده لم تكن قد وضعت نهائيا قبل ابن قزمان، أنه عاد يأخذ على ابن غماره تفاصيله ببعض الألفاظ التي لا تجرى في العامية الأندلسية، وحمل بسبب ذلك على زجال يسمى يخلف بن راشد حملة عنيفة. وهذا يؤكد أن نشأة الزجل متأخرة وأنه لم يأخذ مقوماته وخصائصه الكاملة إلا على يد ابن قزمان، ويشهد بذلك ابن سعيد إذ يقول إن الأزجال قيلت بالأندلس قبل ابن قزمان ولكن لم تظهر حُلَاهَا، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا في زمانه^(١). ويجزم ابن خلدون بأنها ظهرت متأخرة محاكاة للموشحة، يقول: «لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا، واستحدثوا فنا سموه بالزجل»^(٢).

ومعنى ذلك أن تصور «رييرا» ومن تابعه مثل غرسيه غوميس أن الزجل نشأ مبكراً مع الموشحة وأنه نُظِمَ بلغة رومانسية دارجة كانت تشيع على ألسنة أهل الأندلس تصور مخطئ أشد الخطأ، فقد نُظِمَ بلغة عامية عربية لا لاتينية دارجة، أو رومانسية، ونُظِمَ محاكاة للموشحة بعد أن شاعت وذاعت وازدهرت في عصر الطوائف وما بعده كما يقول ابن خلدون. وسنخصص ابن قزمان بكلمة. وينبغي أن نعرف أن الزجل مثل الموشحة يكثر فيه الغزل ووصف المتاع بالخمر ووصف الطبيعة والإعجاب بجبالها الفاتن والمديح والهجاء والرثاء وجميع أغراض الشعر العربي، وكان كثير منه يُنشد في الحث على جهاد النصارى وفي المناسبات الدينية. وأكبر زجال في الجيل التالى لابن قزمان هو أحمد بن الحاج المشهور باسم مَدَغْلِيس^(٣)، وهو من أهل المريّة، وله أزجال كثيرة في مديح الأمراء والقواد، ويقول ابن سعيد إن أزجاله مطبوعة إلى نهاية، ويقول المقرئ في نفح

(١) المقتطف ص ٢٦٣.

(٣) انظر في مدغليس المغرب ٢١٤/١ وتعلقنا

على ترجمته في الهامش.

(٢) مقدمة ابن خلدون (تحقيق د. على

عبد الواحد وافي) ص ١٣٥٠.

الطيب: كان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ومدغليس بمنزلة أبي تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان (يريد أنها كانا ينظمان الشعر الفصيح) ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه^(١) وكان ديوانه يُروى في المشرق وحصل صفى الدين الحلى على مخطوطة منه، وأدار عليه وعلى ابن قزمان أكثر ملاحظاته على عروض الزجل الأندلسي وخصائصه اللغوية، وذكر له كما أسلفنا - ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربي، وذكر له قطعاً من أزجاله وأروعها الزجل الذي أنشده له ابن سعيد، وفيه يقول:^(٢)

ثلاث آشيا فالبساتين	لَسْ تُجَدُّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
النسيم والخضرة والطير	شِمٌّ وَأَنْزَرَةٌ وَإِسْمَعٌ
ورذاذاً دقٌّ ينزل	وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفيض	وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر	والقصون ترقص وتطرب

ويشيد في نهاية الزجل بغناء أم الحسن. والزجل مفعم بالسلاسة والعدوبة والتساوير الرائعة الملحنة على أنغام وزن الرمل المرقص المطرب، وكأنما تحمل إلينا الألفاظ أنفاس البستان وأريج رياحينه. ومع أن مدغليس لم يوحد القوافي بين الأجزاء الأولى المتقابلة في قوافل هذا الزجل وأغصانه واكتفى باتحادها في الأجزاء الثانية أسوة بابن قزمان في بعض أزجاله يوج زجله بجرس يلذ الأذن ويمتع النفس لدقته في اصطفاء ألفاظه وحسن ذوقه في انتخابها حتى لكأننا نستمع فيها إلى لحن موسيقى. وربما كان هو أول من ابتكر صياغة القصائد العامية التي أسلفنا الحديث عنها، وكأنما رأى أن يقيس القصيدة على الموشحة، فكما صاغوا الزجل قياساً على الموشحة صاغ القصائد العامية قياساً على قصائد الفصحى بنفس أعاريضها المستعملة عند العرب - كما مر بنا - من مديد وخفيف وغير ذلك. ومن كبار الزجالين بعده أبو الحسن علي بن محمد الشاطبي، وقد أنشد له صاحب العاقل الحالى قطعة من زجل يبدو أنه كان من أزجال الاستنفار للجهاد وأنه قاله عقب انتصار، يقول فيه واصفاً حال العدو:^(٣)

(٣) انظر العاقل الحالى ص ٣٤ و ٨٠.

(١) النفع ٣/٣٨٥.

(٢) المغرب ٢/٢٢٠.

كَلِمَارَا السِّیُوفُ إِلَیْهِ تَجَرَّدُ صَاحٌ وَیَشْكُو وَثَمَّ لَمْ یَرْتَفِدْ^(١)
یَنْبَحُ الْكَلْبُ إِذْ یَرَى الْأَسَدَ وَالْأَسَدُ لَسَ یَهْزُو ذَاكَ النَّبَاحَ

وَرَجَاعَتْ عَلَیْهِ جُنُودٌ وَوَبَالَ وَمَالَ النَّحْسُ مَا عَوْ كَفَّ مَامَالَ
لَمْ تَنْجِیْهِ وَصِیَّةُ الْكَرْدِیْنَ وَلَ فَادَتْ نَصِیْحَةُ النَّصَاحِ

وواضح أن الزجل من وزن الخفيف. ويذكر ابن سعيد في المغرب طائفة من الزجالين وطرائفهم الزجلية، وقد نقل كثيرين منهم عن كتاب ملح الزجالين لابن الدباغ المالقي، ومنهم زجالو إشبيلية: أبو عمرو الزاهر وأبو بكر الحصار وأبو عبد الله بن خابط وأبو بكر بن صارم ومنهم ابن^(٢) ناجية اللورقي. وقد أضاف ابن سعيد إليهم طائفة من زجالي القرن السابع أمثال البُلَّارِجِ القرموني ويحيى بن عبد الله بن البجضة. وترجم لابن الدباغ^(٣) المذكور آنفاً وقال إنه لقيه بمالقة وأنه إمام في الهجو على طريقة الزجل، وذكر له بعض أزجاله. ونشعر أن الزجل - مثل الموشحة - انتهى عصر ازدهاره بانتهاء عصر الموحدين لولا ما أتيح له من حيوية وروحانية بعد ذلك على لسان المتصوفة من أمثال الششتري المتوفى بدمياط سنة ٦٦٨ للهجرة. ومن الزجالين المهمين ابن عمير، وقد أنشد له صاحب العاقل من زجل قوله^(٤):

يَا حَبِيبُ قَلْبِي تَعْطَفُ بَعْضُ هَذَا الْهَجْرِ يَكْفَا
فَدُمُوعَ عَيْنِي مَا تَرَقَّا وَهَيْبُ قَلْبِي مَا يَطْفَا

والزجل من وزن الرمل، ويقول ابن خلدون إنه نزل بمدينة فاس في المغرب ونظم لهم نوعاً من الشعر الملحون في أعاريض مزدوجة فأولعوا بالنظم فيه وسموه عروض^(٥) البلد. ويذكر ابن خلدون من الزجالين في عصره ابن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة) وكان يعاصره إمام في الزجل هو محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وينشد له ابن خلدون قطعة من زجل عارض به زجلاً لمدغليس استهله بقوله:

حَلَّ الْمَجُونُ يَا أَهْلَ الشُّطَارَا مَذْ حَلَّتِ الشَّمْسُ بِالْحَمَلِ

وجدير بنا أن نقف قليلاً عند ابن قزمان إمام الزجل الأندلسي وتحدث عن بعض أزجاله.

(١) يرتفد: يريد أنه لم يدعم بمدد من قومه.

(٢) انظر في هؤلاء الزجالين فهرس المغرب.

(٣) المغرب ١/٤٣٨.

(٤) العاقل الحالي ص ٥٦.

(٥) المقدمة ص ١٣٥٧.

ابن قزمان^(١)

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، ولد حول سنة ٤٨٠ وعاش في عصر المرابطين إلى أن توفي بعده سنة ٥٥٥ للهجرة في صدر دولة الموحدين (٥٤٠ - ٦٤٠ هـ) وفي المغرب أنه من بيت عريق بقرطبة وأن أفراد أسرته لم يزالوا بين عالم ووزير ورئيس. وقد نشأ مثل أترابه في قرطبة نشأة علمية أدبية، وهي نشأة أهلته ليكون أديباً وكاتباً وثائق كما يكون شاعراً ووشاحاً^(٢)، أما شعره فروى له منه ابن الأبار بعض مقطوعات في كتابه تحفة القادم، وروى له ابن سعيد مقطوعة من قصيدة في مديح يحيى بن غانية وإلى غربي الأندلس من قبل علي بن يوسف بن تاشفين ومقطوعة ثانية نظمها وقد رقص في مجلس شراب، فأطفاً فيه السراج بأكامه. ولعل في ذلك ما يدل على أنه اتجه مبكراً للمتاع بالخمير واللهو. وأما التوشيح فقد روى له صاحب العاقل الحالئ موشحة غزلية غزلاً مادياً صريحاً^(٣). وفي المغرب أنه «كان في أول شأنه مشغلاً بالنظم العرب (شعراً وتوشيحاً) فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس». وقد طارت شهرته في الزجل لا بقرطبة وحدها، بل في كل مدن الأندلس، وأيضاً في المغرب والمشرق، حتى لتحتفظ العصور بمخطوطة من ديوانه كتبها نسّاخ بمدينة صفد في فلسطين قبل سنة ٦٨٣ هـ/١٢٣٤ م وقد نشرها المستشرق جنزبرج سنة ١٨٩٦ مصورة في لوحات، وعُنى في سنة ١٩٣٣ المستشرق التشيكي «نيكل» بنشره بحروف لاتينية مع دراسة عن ابن قزمان، وصدرت هذه النشرة في مدرسة الدراسات العربية بمديرد وغرناطة، وانتقد المستشرق كولان هذه النشرة وقال إنها مليئة بأخطاء كثيرة، ونشر الديوان من جديد المستشرق غرسية غوميس بحروف لاتينية مع ترجمة إلى الإسبانية، غير أنه أخطأ في رأينا خطأ كبيراً حين حاول أن يطبق على أوزاله أعاريض الشعر الغربي القائمة على النبر والمقاطع كأوزان الشعر الإسباني بحجة أن الزجل نظم على تلك الأوزان لا على الأوزان العربية، وهي حجة لا دليل

(١) انظر في ابن قزمان المغرب ١٠٠/١ و ١٦٧

(٢) راجع الزجل السابع في الديوان.

(٣) العاقل الحالئ ص ٨٢.

وما بعدها وتحفة القادم لابن الأبار في مجلة المشرق

عدد ٣ سنة ١٩٤٧ رقم ٢٥ ص ٣٧٥ والإحاطة

٤٩٤/٢ والعاقل الحالئ لصفى الدين الحلبي (انظر

عليها أى دليل، بل كل شىء ينقضها نقضاً فقد صيغت الأزجال محاكاة للموشحات كما لاحظ ابن خلدون، وهى لذلك تلتقى بها فى أوزانها العربية وتفاعيلها المعروفة على نحو ما أوضحنا فى تحليلنا العروضى لطائفة من الموشحات، بل لقد أوضحنا ذلك فى الأزجال المارة إذ ذكرنا معها أعاريضها وأوزانها العربية. ولو أن غرسية غوميس درس أعاريض الشعر العربى ودوائر الخليل التى أثبتتها ابن عبد ربه فى العقد الفريد وتأثى فى قراءة أزجال ابن قزمان لعرف أنها جميعاً لا تخرج عن الأعاريض العربية، وكيف كان يمكن لناسخها فى صدد قديماً أن ينسخها، وكيف كان يمكن لصفى الدين الحلى أن يدرسها فى كتابه العاقل الحالى، وهى على أعاريض الأشعار الأوربية أو الأندلسية: أعاريض النبر والمقاطع. ونفس صفى الدين يشهد فى كتابه بأنها جمعت بين أصول الطرب وصحة أوزان العرب^(١). ونضيف كيف كان يمكن للبلدان العربية أن تحاكيها وأن تزدهر فيها إلى اليوم لو أنها كانت على أعاريض الشعر الأوربى؟ إن كل ذلك يقطع بأن الزجل نظم - مثل الموشحة على الأعاريض العربية، سواء عند ابن قزمان أو عند غيره من الزجالين. والديوان - بدون ريب - كنز نفيس لأن الزمن لم يحتفظ لنا من دواوين الأزجال الأندلسية إلا به، وفيه غنية عن سواء لأنه ديوان إمام الزجالين فى الأندلس غير مدافع، ويترأى لنا فيه ابن قزمان ماجناً عاكفاً على اللذات من الخمر والنساء والغلمان لا يرعوى ولا يزدجر، وهو يعلن ذلك مراراً مجاهراً به فى غير حياء، ويبدو أنه كان يهبط أحياناً إلى صور من العبث والمجون جعلت ابن المناصف القاضى يأمر بسجنه، ويستغيث بالثقات المرابطى محمد بن سير فيرد إليه حريته. وطبيعى لمن يعيش هذه المعيشة الماجنة المسرفة فى المجون أن يتلف كل ما ورثه من مال وأن لا يبقى على مال يصل إلى يده، مما جعله فى أزجاله مداحاً كبيراً للأمراء والولاة وسلاطين المرابطين والقضاة ووجهاء قرطبة وغير قرطبة إذ كانت له رحلات إلى إشبيلية وغير إشبيلية، يستجدى العطاء فى إلحاح. وهو يهبط فى هذا الاستجداء حتى ليطلب الثياب والدقيق والفحم والزيت وأجرة البيت الذى يسكنه مصوراً فى تضاعيف ذلك يؤسه وحرمانه وما هو فيه من تعاسة وضنك ومسغبة حتى ليدنو من صورة أصحاب الكدية والتسول. وهو جانب ننكره عنده كما ننكر إسرافه فى اللهو وما ملأ به أزجاله من مجون وإثم. غير أننا إذا نحننا ذلك كله عن ابن قزمان يظل عندنا الزجال الفنان الكبير الذى أعطى للزجل صورته العامة

الأقفال والأغصان من غير أن يُخسروا فى الميزان.

(١) العاقل الحالى ص ٢٢ ويؤكد صفى الدين ذلك قائلاً إنهم خالفوا أحياناً بين الأوزان فى

التامة وسلاسته وعذوبته المكتملة بحيث أصبح يخلب الألباب بخفته ورشاقتها من مثل هذه الفقرة الأخيرة من الزجل رقم ٥٨ في الديوان:

لَأَنْسِيَتْ إِذْ زَارَنِى جُبِّى وَاِنْجَلَى هِمَى وَزَادَ كَرْبِى قُلْتُ لَهُ وَقْتًا أَخَذْ قَلْبِى
قَالَ مَتَى تَجِينِ قُلْ غَدَا وَغَدَا لِلنَّاضِرِينَ قَرِيبُ

والزجل من وزن الرمل مع تعديل طفيف في جزئى القفل. والجزء الثانى فى الغصن: «وانجلى همى وزاد كربى» يدل على عمق شاعرية ابن قزمان وأحاسيسه، فحين زال همه زاد كربيه، وهى صيغة لا يقولها إلا من شفه العشق. ويقتطف صفى الدين الحلى هذا المطلع من أحد أزجاله^(١):

قَالُوا عَنِّى بِأَنْى فَيْكَ عَاشِقُ إِشْ تَقُلْ يَصْدُقُوا
يَا حَبِيبِ لَقَيْتُ كَثِيرٌ فِى النَّاسِ بِالصَّوَابِ يَنْطِقُوا
هَذَا شَىْءٌ وَالنَّبِىُّ يَانُورُ عَيْنِى مَا تَحْدُثُ بِهِ
وَلِىَّ بِاللَّهِ خَطَرٌ عَلَى بَالِى لَا وَلَا خُضْتُ فِيهِ

والزجل من وزن المقتضب: مفعولات مستفعلن فعَلَن. والفقرة رقيقة رقة شديدة، مع غير قليل من الرفق والعطف والحب الذى يكظمه فى نفسه ويشيع - دون إرادته - من حوله وحول محبوبته. وأنشد له ابن سعيد فى المغرب طائفة من أزجاله الماجنة، وتتخللها أحيانا قطع أو فقر بديعة فى وصف الربيع والطبيعة مثل قوله:

الرَّبِيعُ يَنْشُرُ عَلَامُ مِثْلَ سُلْطَانٍ مُؤَيَّدُ
وَالثَّمَارُ تَنْشُرُ حَلِيَّه بِشَيَابٍ بِحَلِّ زَرْجَدُ
وَالرِّيَاضُ تَلْبَسُ غِلَالَا مِنْ نَبَاتٍ فَحَلَّ زَمْرَدُ
وَالْبَهَارُ مَعَ الْبِنْفَسِجْ يَا جَمَالَ ابْيَضَ فِى أَزْرَقُ

واستمر يذكر الندى يترقق على الفصون وأزهار الخيرى والآس، والماء يجرى، والظل يمتد يمينا ويسارا. ويستطرد إلى الحديث عن الخمر وإلى غزل يصور فيه غريزته النوعية. وواضح أنه صاغ هذا الزجل من وزن الرمل المرقص المطرب. وإذا كانت تشوب أزجاله أحيانا كلمات أو صيغ رومانسية فإنها جاءت من العامية الأندلسية، وهى أشياء محدودة لا تخرج صياغة أزجاله إلى صياغة لاتينية أو رومانسية كما ظن «ريبيرا»

وغرسية غوميس، فالصياغة المطردة في أزجاله صياغة عامية عربية هي عامية الأندلس على نحو ما يلاحظ فيما أنشدناه من أزجاله. وبحق لاحظ صفى الدين الحلى أنه على الرغم من أنه دعا إلى أن تكون ألفاظ الزجل ملحونة وأن لا تكون من الألفاظ العربية المجزلة الرصينة فإن بأزجاله كثيرا من الألفاظ والصيغ العربية الرصينة المصقولة وأيضا من الألفاظ المعربة بالحركات والحروف، واستشهد صفى الدين لذلك كله وما يماثله بشواهد كثيرة من أزجاله.^(١) ولا نبالغ إذا قلنا إن أحدا لا يستطيع أن يدرس أزجال ابن قزمان ولا الأزجال الأندلسية دراسة لغوية وعروضية دون الرجوع - كما أسلفنا - إلى دراسة صفى الدين لها في كتاب العاقل الحالى، إذ لم يتصدَّ أحد لدراستها دراسة علمية خصبة قبله، وسيظل كتابه منجما لا ينفد للدارسين لها والباحثين.

وحرى بنا أن نشير إلى أنه أصبح من الثابت بين علماء الاستشراق أن صيغة الزجل ونظامه وما اقترن به من الموسيقى الأندلسية، كل ذلك أثر تأثيرا واسعا في الغرب، إذ على هديه ظهرت الطُّرُز الشعرية المقفاة عند أوائل التروبادور البروفانسيين. ويتحدث بالنتيا حديثا مفصلا عن مدى تأثيره في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال بدليل ما نشأ عندهم من أغان مقفاة على شاكلة القوالب الزجلية، وليس ذلك فحسب فإنها تأثرت بمضامين الزجل الغزلية وما فيها من تصور للعشق، وأيضا بما كان يرافقها من موسيقى. ويمضى بالنتيا في الحديث عن تأثير الزجل في الأغاني الإسبانية بطرازه الشعرى وموسيقاه، ويذكر أن دواوين نظمت أكثر أغانيها وأناشيدها في قالب الزجل، منها ديوان ألفونس العاشر في القرن الثالث عشر (١٢٢١ - ١٢٨٤ م) الذى سباه أناشيد لمريم العذراء المقدسة وهو يتضمن أربعائة وعشرين أنشودة منها نحو ثلاثائة على نسق الأزجال الأندلسية وقوالبها المعروفة، ومثل هذا الديوان ديوان القس هيتا في القرن الرابع عشر الميلادى الذى سباه: «الحب الطيب» ويقول بالنتيا إن التشابه بين مقطوعاته وبين الأزجال لا يرقى إليه شك، ويمثل ببعض مقطوعاته.

شعراء المديح

طبيعي أن يأخذ شعراء المديح في الظهور منذ تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية بقرطبة، وهم يأخذون في التكاثر منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) كما مرُّ بنا، ويخلفه ابنه محمد ويظل من عاش في عصره من الشعراء يدبج القصائد في مديحه مثل مؤمن بن سعيد وطاهر بن حزم، وربما كان أهم مداحه عباس^(١) بن فرناس ويقال إنه مدح أباه عبد الرحمن وجده الحكم، وينوه ابن حيان بإبداعه في التفلسف وفنون التعاليم القديمة والحديثة وحذقه للموسيقى والضرب على العود وصوغه للألحان، وله في تهنئة الأمير محمد عند قفوله مظفرا سنة ٢٥٩ من غزوته الكبرى لأهل بنبلونة في نبأته بأقصى الشمال قصيدة بديعة، وكان صادف اقتران قفوله منها بعيد الفطر مما جعله يقول^(٢):

مُكْرَمِينَ عَلَى الدُّنْيَا عَزِيزِينَ	إِنَّ الْقُفُولَ الَّذِي أَوْفَى بَعِيدِينَ
قُدُومُ فِطْرٍ فَكَانَا خَيْرَ عِيدِينَ	قُدُومُ أَكْرَمٍ مَنْ فِي الْأَرْضِ قَاطِبَةً
تَوَرَّدَا فِي بَيَاضٍ بَيْنَ صُدُغَيْنِ ^(٣)	طَابَا كَتِفَاخَتِي خَذِي مُنْعَمَةً
مَكْحُولَتَيْنِ بِسِحْرِ الْبَابِلِيِّينِ ^(٤)	أَوْ مُقَلَّتِي رَشِيًا فِي طَرْفِهِ حَوْرٌ

ونلتقي بعده بشعراء ابنه الأمير عبدالله وفي مقدمتهم ابن عبد ربه، وعبيد^(٥) الله بن يحيى بن إدريس وهو من بيوتات الشرف في المولدين. وللشعراء فيه مدائح كثيرة سجلها ابن حيان في قسم المقتبس الخاص به، من ذلك قول عبيدالله بن يحيى بن إدريس يهنئه بفتح حصن لك:

(٤) البابليان: هاروت وماروت المشهوران بالسحر.

(٥) انظر في ابن إدريس الحميدي رقم ٥٨٢ وابن الفرضي رقم ٧٦٥ والضيبي رقم ٩٧٤. واختار له ابن حيان في الجزء الخاص بعيد الرحمن الناصر أشعارا كثيرة (انظر الفهرس) وبلغ من إعجاب الناصر به أن أسند إليه الوزارة، وكان متواضعا حتى قالوا إنه كان يؤذن في مسجده وهو وزير.

(١) انظر في عباس بن فرناس المقتبس لأبي حيان (تحقيق د. مكي - طبع بيروت) ص ٢٧٩ والزبيدي ص ٢٩١ والحميدي رقم ٣٧١ والمغرب ٣٣٣/١ وبغية الملتبس رقم ١٢٤٧ وله وللشعراء المذكورين أشعار كثيرة في المقتبس.

(٢) المقتبس ص ٣٣٩.
(٣) الصدغ: الشعر على جانب الوجه من الأذن إلى العين.

قد جاءك الفتحُ في العيد الكبير فما رأيتُ مثلها في اليوم عيدين
يا فرحةً من رأى في الغزو طالعتها وشاهدَ الفتح لم يأسف على البين
ألذ في السمع من بُشْرِى الحميم إذا وأفى ومن منظر المعشوق في العين

ومدح البيت الأموى الجدير بكل مديح وثناء عبد الرحمن الناصر الذى أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ وقد ظل صولجان الحكم بيده خمسين سنة، كانت قرطبة فيها عاصمة الحضارة والثقافة في أوروبا، وعادت إلى الأندلس وحدتها التى تفككت في عهد جده عبد الله، ودان حكام نباله وقشتالة وبرشلونة وليون له بالولاء، ومر بنا حديث ابن حيان عن كثرة الشعراء في زمنه. وكانت غزواته طوال حكمه متصلة فاتصل مديح شعرائه جميعاً بها وفي مقدمتهم ابن عبدربه وسنفرده بكلمة، وبالمثل اتصل بها مديح عبيد الله بن يحيى بن إدريس وله يقول في مدحة ميمية: ^(١)

يَهْنا الخلافة سَعَى خيرِ إمام لله مَسْعاهُ وإِسلام
لِيُعزَّ دينَ الله في كَفِّ العُلا ويذبُّ عن حَرَمِ الهدى ويُحامي
مستنجِزاً وعد الإله بِنَصْرِهِ في شِيعَةِ الإِشراك والإِجرام

وكان الناصر قد غزا نصارى الشمال في شهر رمضان وأدركه عيد الفطر في بلاد العدو فلم ينكل ولم يتراجع بل صمد - كما يقول ابن حيان - للقاء العدو ومزق جموعه تمزيقا. ولا بن إدريس يذكر زيادته في جامع قرطبة وبناءه لمدينة الزهراء بجوارها: ^(٢)

سَيَشْهَدُ ما شَيدَتْ أنك لم تكن مُضِيْعاً وقد مَكُنْتَ للدين والدُّنيا
فِي الجامعِ المعمورِ للعلم والتقى وبالزُّهرة الزُّهراء للمُلك والعُلَيا

وقد استحال جامع قرطبة في عهده إلى جامعة كبرى للعلوم والآداب، وإلى ذلك يشير ابن إدريس. ودائما يرفع شعراء الأندلس في مدائحهم لأمراء البيت الأموى الدين الحنيف شعارا لهم في غزواتهم للمسيحيين في الشمال، فهم يحامون ويصلون تحت لوائه دفاعا عنه وانتصارا له زُلُفَى لربهم. ويخلف الناصر ابنه الحكم المستنصر أكبر راع للعلوم والآداب في الأندلس، بل في جميع العالم العربى، لعصره، غير أنه لم يكن داهية في السياسة، فقد رأى أباه الناصر يشعر بخطر نشوء الدولة الفاطمية في تونس فيستولى على سبتة وطنجة ويرسل إعانات مالية كبيرة لزعيم الأدارسة يحيى بن إدريس ويعدّه بالسلاح

والعتاد لمقاومة الخطر الفاطمي، ويستطيع يحيى التغلب على نصير الفاطميين موسى بن أبي العافية ويعلن ولاءه للناصر. ولا يسلك الحكم المستنصر مسلك أبيه في تلك السياسة إذ ألقى بخيرة قواده وجنوده في الصراع مع المغرب، ولم يظفر من ذلك بطائل سوى إضعاف جبهته الشمالية في حروبه مع نصارى الإسبان. وفي هذه الأثناء وفد عليه جعفر بن علي أمير الزاب وأخوه يحيى معلنين الانفصال عن مَعَد الفاطمي ودعوته وولاءهما له، وهلل شعراؤه بوفادتها طويلا، من ذلك قول شاعره محمد بن شخيص^(١):

بِأَيِّمِنِ إِقْبَالٍ وَإِسْعَادٍ طَائِرٍ	تَبَاشِيرُ مَحْتَوٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقِعٍ
تَوَافَتْ بِمُلْكٍ مِنْ مَعَدٍّ مَقْضُوعٍ	لِمُلْكٍ إِلَى مَهْدَى مِرْوَانَ رَاجِعٍ
فِيَالِكِ مِنْ بَشْرَى سُرُورٍ تَضَمَّنَتْ	بَلُوغَ الْأَمَانِي عَنْ سُعُودِ الطَّوَالِعِ
فَجَعْفَرٌ يُغْنِي عَنْ جُنُودٍ بِرَأْيِهِ	وَيَحْيَى يَلَاقِي حَاسِرًا أَلْفَ دَارِعٍ

وهو يقول إن وفودها بشرى بأن ملك معد الفاطمي تقوض من أساسه للملك المرواني: الحكم، ويصفه بأنه مهدي منتظر على نحو ما كان معد يصف نفسه. ويتغنى بذلك شاعر الحكم محمد بن حسين الطُّبْنِي وغيره من الشعراء. ويخلفه على العرش ابنه المؤيد وهو غلام في الثانية عشرة من عمره ويحجب له المنصور بن أبي عامر وابناه المظفر والناصر، ويظل صولجان الحكم بيد المنصور نحو ربع قرن ويخلفه عليه ابنه نحو سبع سنوات وكان المنصور شجاعاً فأكثر من غزوات النصارى في الشمال حتى بلغت - فيما يقال - نيفا وخمسين غزوة، ومن أهمها غزوة جربيرة في صيف سنة ٣٩٠ وفيها هزم نصارى الشمال هزيمة ساحقة تغنى بها شعراؤه طويلا من مثل قول صاعد^(٢):

الْيَوْمَ عَاشَ الدِّينُ وَابْتَدَأَ الْهُدَى	غَضًا وَعَادَ الْمُلْكُ عَذَبَ الْمَوْرِ
مَنْ فَاتَهُ بَدْرٌ وَأَدْرَكَ عُمُرُهُ	جَرِيرٌ فَهُوَ مِنَ الرَّعِيلِ الْأَسْعَدِ

وهو يجعل غزوة جربيرة أختا لغزوة بدر التي أعز الله بها الإسلام ورسوله والمؤمنين

(٢) انظر أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٧٢-٧٣ وهو صاعد البغدادي اللغوي الشاعر الواقف على المنصور بن أبي عامر، وراجع ترجمته في الذخيرة ٨/١/٤ وما بعدها والحميدى: ٢٣٣ والبقية رقم ١٥٢٣ والصلة رقم ٥٣٦ ومعجم الأدياء ٢٨١/١١ وإنهاء الرواة ٨٥/٢ والمعجب للمراكشي ص ٧٥ وابن خلكان ٤٨٨/٢.

(١) قطعة المقتبس الخاصة بالحكم المستنصر (طبع بيروت) ص ٥٤. وانظر في ترجمة ابن شخيص الحميدى في المجلد ص ٨٤ وبغية المتلسم ص ١١٩ واليتيمة للتعالي (تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد - طبع دار الفكر) ٢٢/٢ وقال الضبي في البقية: له على لسان رجل يعرف بأبي الفوت أشعار مشهورة في أنواع الهزل.

مبالغة في تمجيده لانتصار ابن أبي عامر فيها. وشاعره الفذ هو ابن درّاج القسطلی
وسنخّصه بكلمة. ويقول فيه وفي حجابته عبادة بن ماء السماء^(١):

لنا حاجبٌ حاز المعالي بأسرها فأصبحَ في أخلاقه واحدَ الخلقي
فلا يغترُّ منه الجهولُ ببشره فمعظمُ هول الرُعْدِ في أثر البرقي

وعاصر عبادةُ زمنَ الفتنة بقرطبة (٣٩٩-٤٢٢ هـ) حتى إذا استولى على مقاليد
الخلافة على بن حمود العلوي من أدارسة المغرب سنة ٤٠٧ نجد عبادة يقدم له مدائحه
متحزبا له متشيعا بمثل قوله^(٢):

أطاعتك القلوبُ ومَنْ عَصِيَّ وحزبُ الله حزْبُك يا عليَّ
وإن قال الفخورُ أبي فلانُ فَحَسْبُكَ أن تقول أبي النبيَّ

ويتوفى على سنة ٤٠٨ ويخلفه أخوه القاسم فيقدم مدائحه إليه وينازعه الخلافة يحيى
ابن أخيه، ويستولى على صولجان الحكم فترة سنة ٤١٢ ويفر عمه إلى إشبيلية، ويعود
بجنود من البربر إلى قرطبة ويستردّ الحكم من يحيى سريعا، ويغادر قرطبة إلى الجزيرة
الخضراء ويستولى عليها، وله يقول عبادة:

فها أنا ذا يابنَ النبوة نافتُ من القول أريا غير ما يَنْفُتُ الصِّلُ^(٣)
وعندى صريحٍ في ولائك مُعَرِّقُ تشيعه محضٌ ويبيّعه بئِلُ^(٤)

وهو يقول إن ولاءه لآل البيت عريق ويمضي فيذكر أن جده كان مواليا لعلی مما جعل
معاوية ييغضه بغضا شديدا. وكان ابن الحنّاط الكفیف القرطبي يتشيع مثله للحموديين وله
مدائح متعددة فيهم وخاصة في علي بن حمود وفيه يقول^(٥):

إمامُ أقام الدّينَ حدَّ حسامِهِ طريراً ومنه في يد الله قائمُ^(٦)

وكأنما كان الصوتان المتشيعان نشازا على أسماع الحموديين في الأندلس، إذ لم يكونوا

(٥) انظر القصيدة في ترجمة ابن الحنّاط بالذخيرة

٤٣٧/١ وراجع ترجمته في الجذوة ص ٥٣ والبعية

رقم ١٢٤ والصلة رقم ١٤٣٥ والمغرب ١٢١/١

والتكلمة رقم ٤٢٩ والوافي ١٢٤/٣.

(٦) طريرا: له رُواء وبهجة.

(١) راجع ترجمة عبادة في الذخيرة ٤٧٥/١

وسنخّصه بكلمة بين شعراء الطبيعة والخمر.

(٢) انظر في هذين البيتين والأبيات التالية ترجمة

عبادة في الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.

(٣) الأرى: غسل النحل. الصل: الحية.

(٤) بئِل: حق.

هم ولا آباؤهم الأدارسة في المغرب دعاة نحلة أو عقيدة شيعية، لذلك ذهب هذان الصوتان أدراج الرياح.

وإذا مضينا في عصر أمراء الطوائف وجدنا عواصم هؤلاء الأمراء تتحول إلى ساحات كبرى للمديح، فليس هناك أمير ولا وزير إلا وتدبج فيه المدائح، إذ تكاثر الحب في تلك الساحات وتكاثر الشعراء الذين يلتقطونه من داخل الإمارة ومن الوافدين على أمرائها، وقد استحال قصورهم إلى ندوات واحتفالات لإنشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجالس الأنس والطرب والغناء، مما أحدث في الأندلس نهضة شعرية بأدق ما تؤديه كلمة نهضة من معان، وقد كتب ابن بسام فيها كتابه الذخيرة بمجلداته الثمانية الضخام متحدثا عن الشعراء البارعين بكل حاضرة في هذا العصر وقد بلغوا أكثر من مائة شاعر فذ، ولكل منهم مدائح بديعة، من ذلك مدحة أبي زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني لإدريس بن يحيى الحمودي أمير مالقة جعل مقدمتها طبيعة وغزلاً وخمراً وسنعرض لذلك في ترجمته بين شعراء الطبيعة والخمر، وخرج إلى المديح، منشداً^(١):

وَكأنَّ الشَّمْسَ لما أَشْرَقَتْ فَأَنْتَنَتْ عَنْهَا عِيونُ النَّاظِرِينَ
وَجَهْ إدْرِيسَ بنَ يَحْيَى بنَ عَلِيٍّ بنِ حَمُودٍ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ
كُتِبَ الجُودُ على أَبوابِهِ ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمَنِينَ
انظُرُونَا نَقْتَبِسَ من نورِكُمْ إِنَّهُ من نورِ رَبِّ العالَمِينَ

وكان ابن مقانا بدأ إنشاد إدريس هذه القصيدة وهو محتجب على عادته، فلما سمع البيتين الأخيرين أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه، وأضفى سابغ نواله عليه. وتغنى ابن زيدون مرارا بأمراء قرطبة بنى جهور، ولما ظنوا أنه مشترك في مؤامرة ضدهم وزجوا به في غياهب السجن أخذ يعتذر إليهم بمثل قوله^(٢):

بَنى جَهْوَراً أَحْرَقْتُمْ بِجَفائِكُمْ جَنائِي فَمَا بِأَلِ المدائِحِ تَعْبِقُ
تَظُنُونَنِي كَالْعَنْبَرِ الوَرْدِ إِنَّمَا تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفاسُهُ وَهُوَ يُحْرِقُ

ورُدَّتْ إليه حرّيته، فالتحق بالمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فاتخذته وزيراً له وأجزل له في الراتب والعتاء، وفيه يقول ابن زيدون في إحدى مدائحه^(٣):

سيد كيلاني) ص ٦٠ والمغرب ٦٩/١.
(٣) الديوان ص ١١٢.

(١) انظر القصيدة في ترجمة ابن مقانا بالذخيرة
٤٨٦/٢.

(٢) ديوان ابن زيدون ومعه رسائله (تحقيق محمد

هَمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلَهُ مَلِيكٌ فَقِيهٌ كَاتِبٌ مُتَفَلِّسٌ
يَتِيهٌ بِمَرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمُنْبَرٌ وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حَسَامٌ وَمُضْخَفٌ
جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ وَجَنَّةٌ عَذْنٌ لِلْمُطِيعِينَ تَزْلَفُ^(١)

ومرّ بنا أنه اجتمع للمعتضد وابنه المعتمد كثيرون من الشعراء الأفذاذ، والذخيرة تكتظ بما قدموه لها من مدائح بديعة، وسنخص ابن عمار من بينهم بكلمة، ومنهم الشاعر ابن اللبانة، وسنترجم له في الفصل التالي، ومن قصيدة له في مديح المعتمد^(٢) :

مَلِكٌ إِذَا عَقَدَ الْمَغَافِرَ لِلْوَعْيِ حَلَّ الْمُلُوكُ مَعَاقِدَ التَّيْجَانِ^(٣)
وَإِذَا غَدَتْ رَايَاتُهُ مَنَشُورَةٌ فَالْخَافِقَانِ لَهْنٌ فِي خَفَقَانِ^(٤)
يَا مَنَشَى الْعَلْيَاءِ بَعْدَ مَمَاتِهَا تَفْنَى النُّجُومُ وَمَا تُنَاوِكُ فَا نِ
الْأَرْضُ حَاجَتُهَا إِلَيْكَ بِطَبْعِهَا كَالْعَيْنِ حَاجَتُهَا إِلَى الْإِنْسَانِ

وكانت سوق الشعر نافقة بالمرية في عهد أميرها المعتصم بن معن بن صُباح وطالت إمارته إلى إحدى وأربعين سنة وكان شاعرا، فهتفت باسمه الشعراء في إمارته ووفدوا عليه من بلدان الأندلس، وهو يغدق عليهم من أمواله، ولوطائه أبي حفص بن الشهيد أمداح فيه كثيرة من مثل قوله^(٥) :

وَأَحْسَنُ مِنْ رَوْضٍ تَحْلَى بَنُورِهِ مُحَيَّا ابْنَ مَعْنٍ فِي حُلِيِّ الْفَضَائِلِ
جَوَادٌ كَأَنَّ الْأَرْضَ جَمْعَاءَ رَاحَةٍ لَهُ وَبِحُورِ الْأَرْضِ خَمْسُ أَنْامِلِ
جَلَلَتْ فَجَلَّ الْقَوْلُ فِيكَ وَإِنَّمَا يُقَدَّرُ لِقَدْرِ السَّيْفِ قَدْرُ الْحَمَائِلِ

وشاعر المعتصم المبدع ابن الحداد، وسنفرد له كلمة، ولم يكن يقلُّ عن المعتصم والمعتمد جودا وشعرا وَلَسْنَا وفصاحة المتوكل بن المظفر بن الأنطس أمير بطليوس، ولأبيه كتاب المظفرى في الأدب والتاريخ نحو مائة مجلد، واستحالت بطليوس في عهده إلى كعبة للشعراء تطوف بها آمالهم وتتلّى فيها مدائحهم، وتغنى بمدح المتوكل الشاعر الفذ

(٥) انظر في الأبيات ترجمة أبي حفص بن الشهيد في الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها، وانظره في الحميدى ص ٢٨٣ والمغرب ٢٠٩/١ وبغية الملتبس ص ٣٩٤ وقال ابن سعيد: شاعر المرية في زمانه وكان مقتصرًا على أمير بلده المعتصم بن صباح.

(١) تزلف: تقدّم وتصبح زلفى ومنزلة

(٢) الذخيرة ٦٨٧/٣

(٣) المغافر: جمع يغيرة: زرد من الدروع على قدر

الرأس يتقنع به المسلح للقتال. الوغى: الحرب

(٤) الخافقان: المشرق والمغرب. الخفقان: سرعة

نبضات القلب.

عبد المجيد بن عبدون مواطنه وقصر مدائحه عليه، وسنخصه بترجمة في الفصل التالى، وفيه يقول^(١) :

طَبَّقْتُ آفَاقَ الْكَلَامِ فَلَمْ أَدْعُ زَهْرًا يَرِفُ وَلَا جُمَانًا يُنْظَمُ
لَهُ دُرٌّ هَلْ لِمَجْدِكَ غَايَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ بِهَا مَعْنَى مُغْرَمُ
هَزَّتْكَ أَرْوَاحُ السَّمَاحَةِ بَانَةً وَمِنَ الرَّجَاحَةِ فِي جِمَاكَ يَلْمَمُ
وَتَعَلَّمْتُ مِنْكَ الْقِمَامَةَ شِمَةً تَهْمِي وَفِيهَا لِلْبُرُقِ تَبَسُّمُ

وجعل ابن عبدون المتوكل كالبانة التى يشبه بها الشعراء محبوباتهم فى الحسن سباحة وجودا، ومثل جبل يللم فى رجاحة العقل وحلمه ورزاقته، والصورة الأخيرة بديعة إذ جعله يصدق أمواله على الشعراء والمجتدين وهو يبتسم وكأنه غمامة تهطل والبروق فيها مائتى تلمع كبسماته التى ترسم دائما على وجهه.

وحرى بنا أن نقف قليلا عند موقعة الزلاقة فى أواسط سنة ٤٧٩ وكانت الأندلس أصبحت أندلسات كثيرة، كما مر بنا فى الفصل الأول، إذ توزعت إلى عديد من الإمارات والعواصم لأمراء عاشوا للترف واللهو، وإن سددوا سيوفهم فإلى صدور جيرانهم فى الإمارات وإخوانهم فى الدين، بينما يدفعون الإتاوات للمسيحيين فى الشمال، وسقطت طليطلة فى حجر ألفونس السادس سنة ٤٧٨. ويتأهب للاستيلاء على عواصم هؤلاء الأمراء المترفين المفككين المتطاحنين، مما جعلهم يجمعون وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية - وأجمع الشعب معهم وفى مقدمته الفقهاء - على استصراخ أمير المسلمين فى المغرب يوسف بن تاشفين ليدفع عنهم الكوارث الخطيرة الموشكة الوقوع، فعبر الزقاق، وانضمت إليه الجموع الأندلسية فى غرناطة وإشبيلية يتقدمها المعتمد بن عباد، والتقى يوسف بجموع ألفونس السادس فى الزلاقة بالقرب من بطليوس فى اليوم الثانى من رجب سنة ٤٧٩ وصدق - ومعه المعتمد وجموع المسلمين - فى وطيس القتال، وسحقوا أعداء الله سحقا ذريعا، وكأنما استوصل جيشهم استصلا، إذ لم ينبج منه إلا من سارع منهم إلى الفرار مخذولا مقهورا، وفر على وجهه ألفونس يتسنى الجبال الشاهقة ويسلك الطرق الوعرة حتى دخل طليطلة، وهنا الشعراء المعتمد بهذا النصر الحاسم من مثل قول ابن القزاز محمد بن عبادة الوشاح فى تهنئة له^(٢) :

فى الحديث عن الموشحات مصادر ترجمة ابن

(١) الذخيرة ٦٨٥/٢.

القزاز.

(٢) الذخيرة ٨٠٣/١ والمغرب ١٣٥/٢ ومرت

ثَنَاؤُكَ لَيْسَ تَسْبِقُهُ الرِّيحُ يَطِيرُ وَمِنْ نَدَاكَ لَهُ جَنَاحُ
تَطْيِبُ بِذِكْرِكَ الْأَفْوَاحُ حَتَّى كَأَنَّ رُضَابَهَا مِسْكٌ وَرَاحُ^(١)
جَلَبَتْ إِلَى الْأَعَادَى أَسَدًا غَابَ بَرَائِثُهَا الْأَسْنَةُ وَالصَّفَاحُ^(٢)

وكان يوسف بن تاشفين والمرابطون ينسبون أنفسهم إلى العرب في حمير وكان بنو عباد من قبيلة لحَم اليمنية، وذكر ذلك عبد الجليل بن وهبون في قصيدة يهني فيها يوسف بن تاشفين والمعتمد بهذا النصر المبين منشدا^(٣):

نُمِي فِي جَمِيرٍ وَنَمَتَكَ لَحْمٌ وَتِلْكَ وَشَائِجٌ فِيهَا التَّحَامُ
فِيُوسُفُ يُوْسُفُ إِذْ أَنْتَ مِنْهُ كِيَامِينَ، لَا وَهَى لَكُمَا نِظَامُ
فَإِنْ يَنْجُ اللَّعِينُ فَلَا كُحْرٌ وَلَكِنْ مِثْلَمَا يَنْجُو اللَّئِيمُ
وَصَارُوا فَوْقَ ظَهْرِ الْأَرْضِ أَرْضَا كَأَنَّ وَهَادَهَا مِنْهُمْ إِكَامُ

وهو يجعل يوسف نفس سمية الصديق ويجعل المعتمد أخا له يشد أزره مثل يامن أخى الصديق وهو بنيامين. ويقول إن وهاد الأرض استحالت من جثث الأعداء إكاما أو أكبات وتلالا. وللشاعر يوسف بن عبد الصمد شاعر المرية تهنئة بديعة^(٤) للمعتمد بهذا النصر غير أنه خصه بها وحده. وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن نصح أمراء الطوائف بالوحدة، ولقب بعد تلك الموقعة المظفرة بأمرير المسلمين، وبنى ألفونس حصنا ضخما بالقرب من مرسية في موضع يسمى لبيط، ليجدد إغاراته على أمراء الطوائف، فاستنجدوا بابن تاشفين، وعبر ثانيا الزقاق سنة ٤٨١ ووجه قواته إلى حصن لبيط، واضطر ألفونس إلى هدم الحصن وإخلائه. وسرعان ما عاد أمراء الطوائف إلى سابق العهد بهم من الانغمار في الخلافات وفي الترف واللهو، فاستصرخ فقهاء الأندلس ابن تاشفين ليزيل - إلى غير رجعة - حكم هؤلاء الأمراء الذين يخربون بيوتهم وبيوت المسلمين في الأندلس بأيديهم. وعبر يوسف الزقاق في رجب سنة ٤٨٣ وتقدم قائده ابن أخيه سير بن أبي بكر، فاستسلم طواعية عبدالله بن بلقين أمير غرناطة، واستسلم المعتمد بن عباد في إشبيلية كرها واستسلمت المرية ومرسية وشاطبة وبطليوس، وهلل

المعتمد بن عباد، وسنفرد له ترجمة في الفصل التالي.
(٤) انظر في هذه التهنة الذخيرة ٨١٤/٣.

(١) الرضاب: الريق العرشوف. راح: خمر
(٢) البرائن: جمع برثن: مخلب السبع. الصفاح: السيف.

(٣) الذخيرة ٢٤٥/٢ وابن وهبون من شعراء

فقهاء الأندلس لزوال حكم هؤلاء الأمراء، ويصور ذلك أبو الحسن بن الجدي في مدحة لابن تاشفين متشفيا فيهم قائلا^(١):

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر
وكيف يشعر من في كفه قدح
فقل لمن نام أصبحت أنتبه فلقد
وانظر إلى الصبح سيفا في يدي ملك
يرعى الرعايا بطرف ساهر يقيظ
كما رعاها بطرف ساهر عمر^(٢)

ويُظَلُّ الأندلس عهد المرابطين الذين أبلوا في قتال النصارى ما أخر استردادهم للأندلس جميعها قرونا بفضل جيوشهم وجيوش دولة الموحدين المغربية من بعدهم. ويوج ديوان الأعمى التطيلي بمديح على بن يوسف بن تاشفين خليفة أبيه على المغرب والأندلس: وستفرده بكلمة، وبالمثل يوج ديوان ابن خفاجة بمديح أخويه إبراهيم وتيم، وكان إبراهيم واليا له على شرقى الأندلس حتى وفاته سنة ٥١٥ وكان تيم واليا له على غرناطة منذ سنة ٥٠٠ وولى مرسية شرقى الأندلس فترة، ولعل ذلك ما وصل ابن خفاجة به، وديوانه مُفَتَّحٌ بمدحة بديعة فيه استهلها بوصف الطبيعة والغزل، وفيها يقول^(٣):

وأبلج منصور اللواء إذا سرى
له فتكة لو زاحم الدهر تحتها
وعزم يرد الطود هدا ونجدة
تقسمة جود يفيض وهمة

أظلت عقاب النضر أجنحة النسر
لعدت به دهم الليالي من الشقر
تهز قود السمر في الحلال الحمر
فمن منهل غمر ومن جبل وغر

والمدحة على هذا النحو تلوينات وتوليدات في معاني الشجاعة والكرم، ففتكته تحيل الليالي شقراء بما تلطخها من الدماء وبالمثل تحيل الرماح حلل الأعداء حمرا مما تلطخها به من الدم المسفوك، وجوده يفيض كمنهل عذب، وهمة لا تبارى كجبل وعمر لا يساميه جبل في وعورته. ولابن خفاجة قصيدة بديعة في مديح زوجة تيم مريم، وكانت سيدة أديبة

(٣) يريد بعمر الفاروق عمر المشهور برعايته للدولة وعدله.

(٤) الديوان (تحقيق د. السيد مصطفى غازي) ص ٢٥ وما بعدها.

(١) راجع القصيدة في الذخيرة ٢٥٦/٢ وانظر في ترجمة ابن الجدي المغرب ١/٣٤٠.

(٢) يشير ابن الجدي إلى تهالك أمراء الطوائف على الملذات والخمر والفناء وكأنهم يعيشون في دور ملاه لا في دور حكم وسياسة.

فاضلة تحفظ جملة وافرة من الشعر، وكانت لها ندوة تحاضر به فيها وتستمع إلى الشعراء وتثيبهم على أشعارهم، وفيها يقول ابن خفاجة^(١):

مشهورة في الفضل قِدْماً والنهى والجود شهرة غُرّة في أذهم
تولى الأيادي عن يد نزل الندى منها بمنزلة المحب المكرم
حمل الثناء بها القريض وإنما حمل الحديث رواية عن مسلم

وابن خفاجة يجعل ما يحمله الشعر من الثناء على هذه السيدة عطرا عطر الحديث المروى عن مسلم في صحيحه مبالغة منه في بيان تقواها وما يحف بها من تجلة تقنى بها ابن خفاجة وغيره مادحين مطرين، وسنفرد لابن خفاجة ترجمة في الفصل الثاني. وفي ابن تيفلويت والمرابطين يقول ابن باجة معللا لاسمهم «المثلثين» إذ كانوا يضعون لثاما على وجوههم^(٢):

قوم إذا انتقبوا رأيت أهلة وإذا هم سَفَرُوا رأيت بدورا
لا يسألون عن النوال عفانهم شكرا ولا يحْمُونَ منه فقيرا^(٣)
لو أنهم مسحوا على جذب الربي بأكفهم نبت الأقاح نصيرا

وهو يجعل وجوههم أهلة حين ينتقبون ويخفون جزءا من وجوههم فإذا سفروا ورفعوا النقاب رأيتهم بدورا. ويمدحهم بالكرم الفياض وأنهم لا يسألون طلاب النوال والحاجات شكرا على ما يبذلون لهم، وهم يجودون بكل ما يملكون ولا ييقون منه لأنفسهم أى شيء. ولا يلبث ابن باجة بخياله الخصب أن يقول إنهم لو مسحوا على أرض مجذبة بأكفهم لاهتزت وربت وأنبت أزهارا وأقاحا ناضرا.

ولمحمد بن إبراهيم بن المواعيني المار ذكره بين البلاغيين في الفصل الماضي مدحة في الزبير بن عمر المثلث والى قرطبة يقول في تضاعيفها مخاطبا المثلثين أو المرابطين^(٤):

جولوا وُضُولوا فالمناسب جَمِيرٌ أهلُ المفاخر والندى والنادى
للقوم في كل البلادِ رياسة تحكى بنى العباس في بغداد
أضحت مجالسهم سروج جياهم إن السروج مجالس الأمجاد

المعروف .. النقيض: الشيء المتناهي في الصغر.

(٤) انظر الأبيات في ترجمته بالمغرب ٢٤٧/١.

(١) الديوان ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) النفع ٤١٧/٣.

(٣) النوال: العطاء. العفاة: السائلون طلاب

والصورة في البيت الأخير بديعة، ولليكي يحيى بن سهل هجاء الأندلس في المرابطين معللا لتسميتهم بالملثمين بالغاية من المديح^(١) :
 قوم لهم شرفُ العلا في حمير وإذا أنتموا صنهاجةً فهم هم
 لما حووا إحراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلتموا

واشتهرت أسرة مغربية زمن المرابطين بأنها حامية للأداب وراعية للشعر والشعراء، وهي أسرة بنى عشرة أصحاب خطة القضاء في مدينة «سلا» على شاطئ المحيط، وأول من رحل إليه شعراء الأندلس لمديحه أو أرسلوا إليه بمدائحهم القاضي على بن القاسم بن عشرة المتوفى سنة ٥٠٢ وهو ممدوح يحيى بن بقى وعيسى بن وكيل الغرناطي ومحمد بن سوار الأشبوني المترجم له بين شعراء الرثاء، وكان قد خلصه من أسرهِ عند النصارى بفدية كبيرة فأكثر من مديحه بمثل قوله^(٢) :
 لو أن رِفَقَكَ في القلوب مَرَكَبٌ لم يَلْتَقِم في البحر يونسُ حوتُ
 ولقد حملت من الوقار سَكِينَةً لم يحتملها قبلك التابوتُ

وهو يشير إلى الآية الكريمة عن الرسول يونس عليه السلام: ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾ وإلى آية سورة البقرة عن طالوت: ﴿إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم﴾. وخلف عليا في القضاء ابنه أحمد وأنشد ابن بسام في ترجمته بالذخيرة مدحه لابن سوار فيه، وكان هو وأخوه يحيى موثلا لشعراء الأندلس، وبني أحمد قصرا، هنأته به الشعراء، وكان المتفلسف الشاعر أبو عامر محمد بن الحمار حاضرا ولم يكن أعد شيئا ففكر قليلا، ثم أنشد^(٣) :

يا أوحَدَ الناسِ قد شَيَّدَتْ واحدةٌ فحلَّ فيها حلولَ الشمسِ في الحَمَلِ^(٤)
 فما كداركُ في الدنيا لذي أملٍ ولا كداركُ في الأخرى لذي عَمَلٍ
 ومرُّ بنا في ترجمة يحيى بن بقى بين الوشاحين أنه خصَّ القاضي أحمد وأخاه يحيى بدرر كثيرة من موشحاته وأشعاره بينما كانا يواليان إغداق نواهما عليه، مما جعل لسانه

وقد دعاه أبا الحسين علي بن الحمار وراجع ترجمته في المغرب ١٢٠/٢ وفي البغية ص ٥١٧.

(٤) الحمل: من منازل الشمس.

(١) المغرب ٢٦٨/٢ وسنفرد له ترجمة في الفصل التالي بين الهجَّاتين.

(٢) البيتان في ترجمته بالذخيرة ٨١١/٢.

(٣) انظر ترجمة أبي عامر في النفع ١٣/٤ و ١٤٠.

يلهج بمدحها والثناء عليهما طويلا، من مثل قوله في يحيى من مدحة طويلة^(١) :
 نَدَبُ عليه من الوقار سَكِينَةٌ فيها حَفِظَةٌ كُلُّ لَيْثٍ مُخْدِرٍ^(٢)
 مثل الحسام إذا انطوى في غَمْدِهِ ألقى المهابة في نفوس الحُضِرِ
 أَرَزَى على البحر الخِصْمَ لأنه في كل كف منه خَمْسَةُ أَبْهَرِ
 أَقْبَلْتُ مرتادًا لجودك إنه صَوَّبُ الغمامة بل زُلَالُ الكَوْنِ^(٣)

وانتهت دولة المرابطين وخلفتها دولة الموحدين منذ سنة ٥٤١ وأخذت المدن الأندلسية تستظل بلوائهم من مثل الجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة، وظل شرقى الأندلس: مرسية وجيان وبلنسية بيد محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش حتى توفي سنة ٥٦٧ فدخل كل ما بيده في حوزة الموحدين. وأمر عبد المؤمن ببناء مدينة على جبل طارق، حتى إذا تم بناؤها عبر الزقاق إلى هذا الجبل بجموع غفيرة سنة ٥٥٦ وسماه جبل الفتح، وأقام به شهرا يستقبل وفود الأندلس للبيعة من أهل مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية. واتخذ يوما لاستقبال الشعراء، وكانوا قد جاءوه من كل مدينة لاستقباله ومدحه، وكان يوما مشهودا، أنشده كثيرون منهم قصائدهم فيه، وفي مقدمتهم الأصم الرواني القرطبي الشاعر حفيد الشريف الطليق والرصافي البلتسي محمد بن غالب، وسنفرد له ترجمة عما قليل وأحمد بن سيد الإشبيلي وأخيل الرندي وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي، وأنشده مدحة يقول في تضاعيفها^(٤) :

دعانا نحو وجهك طِيبُ ذِكْرٍ ويدعو للرياض شذا الرياح
 وكنت كساهرٍ ليلا طويلاً ترنح حين بُشِّرَ بالصباح

ورتب عبد المؤمن أمور الأندلس، واتخذ ولاية لمدنها الموالية له، وولى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ولى عهده، وبذلك كانت حاضرة الموحدين في الأندلس، وولى ابنه عثمان غرناطة وأعمالها، وكان محباً للأدب والشعر، فاجتمع حوله شعراء أندلسيون كثيرون. وخلف يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) أباه وكان ممدحا، ومن مدّاحه أبو محمد المالقي وهو يستهل مدحة قدّمها له بأنه سيملك العالم بأقاليمه السبعة المعروفة لزمّنه تسنده سور الحواميم القرآنية السبع التي يرددها هي وغيرها من سور القرآن الكريم آناء الليل

(٣) صوب: مطر. الكونثر: نهر في الفردوس.

(٤) انظر مدحته في المغرب ١٦٤/٢ وسنخصه

بكلمة في الفصل التالي.

(١) ابن خلكان ٢٠٤/٦.

(٢) حفيظة: حمية. لئث مخدر: أسد في خدره

وبغيلة.

وأطراف النهار، ويقول إنه ستسندُه وتنصره السبع المثاني وهى آيات سورة الفاتحة السبع التى يرددُها كل يوم فى صلواته، وكذلك السور السبع الطوال من البقرة إلى نهاية التوبة بحسبان التوبة والأنفال سورة واحدة، ولهذا لم يفصل بينها فى المصحف بالبسملة. ويجعله الجوهرة الواسطة أو الوسطى لسلك أو عقد يضم جواهر العلم والدين والدنيا وينوه بإحكامه لتدبيره السياسى. وكان سيوسا وعالما بالعربية وبالحديث ويقال انه كان يحفظ البخارى بأسانيده وجمع من كتب الفلسفة ما اجتمع للحكم المستنصر الأموى قبله، واتخذ الفيلسوف ابن طفيل جلسيه ووزيره، وهو الذى نبّهه - كما مرّ فى الفصل السالف - إلى ابن رشد. وخلفه ابنه المنصور يعقوب الطائر الصيت (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ). وفى أيامه شرع فى بنىان مدينة الرباط إلى أن أتم سورها ومسجدها وكثيرا من قصورها، وفى سنة ٥٩٠ نقض ألفونس ملك قشتالة العهد الذى بينه وبين الموحدين وأخذت خيله تغير على أطراف دولتهم فى الأندلس، فعبر إليه الزقاق فى جمادى الآخرة سنة ٥٩١ بجموع عظيمة نزل بها فى إشبيلية. وأخذ يعد العدة للقاء ألفونس وجنده، وتجهز ألفونس للقائه بدوره، والتقى الجمعان فى الثالث من شعبان فى الأرك بالقرب من قلعة رباح، فأنزل الله نصره على يعقوب، وسحق المسلمون أعداءهم ودقوا أعناق ستة وأربعين ألفا منهم، وأسروا ثلاثين ألفا، وفرّ ألفونس ومن بقى من جموعه على وجوههم إلى طليطلة وفرائصهم ترتعد رعبا وفرعا، وكان حريا بالمنصور أن يتعقبهم إلى طليطلة ويستنزلهم منها، غير أنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، فاكتمى بهذا النصر المبين، وقد تغنى به الشعراء، ومن أروع قصائدهم قصيدة على بن حزمون المرسى من وزن المتدارك ويستهلها بقوله مخاطبا المنصور^(١):

حَيْتُكَ مَعْطَرَةَ النَّفْسِ	نفحاتُ الفتح بأنْدُلُسِ
فَذَرِ الْكُفَّارَ وَمَأْتِمَهُم	إن الإسلام لفى عُرسِ
أِيَّامَ الْحَقِّ وَنَاصِرَهُ	طَهَّرَتِ الْأَرْضَ مِنَ الدَّنْسِ
وَصَدَعَتْ رِداءَ الْكُفْرِ كَمَا	صَدَعَ الدِّيْجُورَ سَنَا قَبَسِ ^(٢)

ومضى يصور فى القصيدة هزيمتهم الماحقة وما سقيت به الوهاد والتلال من دمائهم، ويلوهم هلعاً قائلاً إن خيل المنصور وراءهم وقد ملأ التوحيد أعنتها وأغار بها روح

(١) القصيدة بتأملها فى المعجب ص ٣٧٠ (٢) الديجور: الظلمة. قبس: ضوء.

وما بعدها.

القدس، وإن كان نجا ألفونس وبعض جنده فإلى عيش نكد تعس. وتوفى يعقوب بعد أربع سنوات، وخلفه ابنه الناصر محمد (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) وفي عهده استرد ألفونس وجنوده قواهم وأخذ يعدُّ لمعركة فاصلة استصرخ لها الشعوب الأوربية حتى بلغ استصراخه إلى بيزنطة، وكأنما شعر الناصر بهذا الإعداد، فعبر إلى الأندلس واستقبله الشعراء بمثل قول أحمد بن شطيرة القرطبي^(١):

كذا يشرف الطالع الأسعدُ ويسمو لأملاكه السيّد
ويسرعى أقاصى أقطاره قريبٌ له عزمة تبعدُ

وأخذ الناصر يعدّ العدة للقاء ألفونس، بينما جاءه عباد الصليب من كل أركان أوروبا وقد منحهم البابا الغفران. ولم تلبث رعى هذه الموقعة الصليبية أن دارت في سهل يقع إلى الشمال الشرقي من قرطبة وجنوبي قلعة رباح، ومُنّى الناصر وجيش المسلمين بهزيمة فادحة، كانت نذيراً لانتهاة دولة الموحدين، واستولى ألفونس سريعاً على قلعة رباح وبياسه وأبدة. وتوفى الناصر بعد نحو عام من الموقعة، وخلفه ابنه المستنصر (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) وتوفى، فخلفه عمه العادل فأخوه المأمون فالرشيد، والدولة تزداد وهناً على وهن، مما هباً للملوك قشتالة وأراجون الاستيلاء على كثير من الحصون والمدن، وأخذت تسقط في حجورهم العواصم الكبرى، وأصبح كل شيء يؤذن بخروج العرب من الأندلس، وأخذ كثيرون من علمائها وشعرائها يغادرونها إلى المغرب والمشرق، واتصل ذلك طوال القرن السابع. وكان كثيرون منهم يمتنون أنفسهم بأنهم سيعودون إلى وطنهم بجحافل الجيوش المغربية التي ترد الأمر إلى نصابه، ومنهم ابن الأبار وسنترجم له بين شعراء الاستصراخ، ومنهم حازم القرطاجنى الذى اتجه إلى أبى زكريا الحفصى، وقدم إليه مدحة يقول فيها^(٢):

أمير الهدى من يدن منك فإنه بقربك عن صرّف الحوادث قد أقصى
عسى الله أن ينتاش أندلساً بكم ويأخذ فيها للهدى أخذ مقتص

وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى. وكان قد قيض للأندلس منذ الثلاثينيات في القرن السابع ابن الأحمر فأقام بغرناطة دولة أسرته التي استمرت نحو قرنين ونصف،

(٢) ديوان حازم القرطاجنى (طبع بيروت)

ص ٦٦.

(١) انظر البيتين في ترجمته بالمغرب ١٣٩/١ وله

ترجمة في تحفة القادم لابن الأبار رقم ٦١ ومعها

بعض شعره.

وطبيعي أن يتجمع حولها الشعراء وأن يقدموا لحكامها مدائحهم، وطبيعي أن يكون أول من أشادوا به مؤسس الدولة ابن الأحمر محمد بن يوسف وفيه يقول ابن سعيد: «كان من عجائب الدهر في الفروسية والإقدام والسعادة في لقاء العدو، ويفهم الشعر ويكثر مطالعة التاريخ، أنشدته قصيدة أولها:

لمثلك تنقادُ الجيوشُ الجحافلُ وتذخرُ أبناءُ القنا والقنابلُ»^(١)

وما زال ينازل ملك قشتالة حتى اضطر إلى عقد معاهدة بينهما، ويتعاقب أبنائهم وأبناء أسرته على الحكم بعده منذ توفي سنة ٦٧١ وحكمهم صفحات مشرقة من جهاد النصارى الشماليين، وأرغم حفيده محمد على تسليم جبل طارق لملك أراجون سنة ٧٠٧ واستولى على صولجان الحكم سنة ٧١٣ أبو الوليد إسماعيل، ونازله الجيش القشتالي سنة ٧١٨ في مرج غرناطة، فهزم هزيمة ساحقة وقتل قائده، ويهنته أبو عبدالله اللوشى بمثل قوله^(٢):

قصدوا العرينَ ليغلبوا آسادهُ فقصى عليهم بأسك الغلابُ

وقويت شوكة المسلمين في عهد أبي الوليد وعهد ابنه أبي عبدالله محمد، وقد جمع رأيه على استعادة جبل طارق، وأعادته بعد موقعة بحرية عنيفة سحق فيها أسطول ملك أراجون ويهنته بهذا الفتحة المبين أبو العلاء محمد بن سهاك العاملي منشدا^(٣):

فتحَ قضاءه لملكك الرحمنُ لم تأت قط بمثله الأزمانُ
فلأئى يومٍ سعادةٍ أولاكهُ ذلتُ بعزةٍ نصّره الصُّلبانُ

وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥) وكان راعيا للأدب والفنون، وأضاف إلى قصر الحمراء المشهور بغرناطة منشآت كثيرة، ومدحه كثيرون في مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، وله فيه نحو خمسين قصيدة بين مدح وتهنئات بالأعياد والمولد النبوي الشريف وإشادة بأعماله ومنها بناؤه للمدرسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع، وفي ديوانه أنه أمره بنظم أبيات تزيّن بها قبة العرض المطلة على مجلسه في الحمراء، فنظم تسعة أبيات منها قوله على لسان القبة^(٤):

(١) المغرب ١٠٩/٢.

(٢) انظر ترجمة أبي عبدالله اللوشى في الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ص ١٧٥ وراجع في ترجمة اللوشى الإحاطة ١٩٧/٢ وكانت وفاته سنة ٧٥٢.

(٣) راجع ترجمة ابن سهاك العاملي في الكتيبة الكامنة ص ١٩٨.

(٤) انظر ديوان ابن الخطيب المسمى: «الصيب والجهام والماضى والكهام» تحقيق الدكتور قاهر (طبع الجزائر) ص ٢٦١.

أَبْصَرْتُ مِنِّي فِي الْمَصْنَعِ قُبَّةً تَأْتِي فِي السَّعْدِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَتُتْلَى سَطُورُ الْكُتُبِ فَوْقَ دَائِمَا وَتُعْرَضُ مِنْ تَحْتِ سَطُورِ الْكِتَابِ

والقطعة بديعة، ولا بن جُزَيّ الغرناطي مؤلف رحلة ابن بطوطة مدحة بديعة في أبي
الحجاج من مثل قوله^(١):

إِنْ الْمَعَالِي وَالْعَوَالِي وَالنَّدَى وَالْبَاسَ طَوْعُ يَدَيَّ أَبِي الْحَجَّاجِ^(٢)
مَاضِيَ الْعَزِيمَةِ وَالسِّيُوفُ كَلِيلَةٌ طَلَّقَ الْمُحَيَّا وَالْخَطُوبُ دَوَاجِي
لَيْثُ الْوَعْيِ وَالْخَيْلُ تَرْجَى بِالْقَنَا وَالْبَيْضُ تَهْلُ مِنْ دَمِ الْأَوْدَاجِ^(٣)

وخلفه ابنه محمد الخامس الغني بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) مكمل منشآت قصر الحمراء،
وكان ممدحا للشعراء، وأهم مادحيه منهم ابن زمرك، وسنفرد له ترجمة عما قليل. وكان
حفيد الغني بالله يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ) شاعرا، ولزمه ابن فُركون الشاعر
يمدحه واتخذة كاتب سره، وتستغرق ديوانه مدائحه فيه، حتى لتبلغ نحو مائة قصيدة
ومقطوعة، إذ لم يترك مناسبة شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو حربية إلا ونظم
للسلطان فيها مدحة طنانة، ومن قوله فيه حين تقلد السلطة^(٤):

إِلَيْكَ تَبَاشِيرُ الْبَشَائِرِ مُقْبِلَةٌ تَلُوحُ بِآفَاقِ الْهَدْيِ مَتَهَلِّلَةٌ
فَهَنَّتْ مَا اسْتَقْبَلَتْ يَا مَلِكَ الْهَدْيِ مِنْ الْعَزِّ لَا زَالَتْ سَعُودُكَ مُقْبِلَةٌ
لَقَدْ قَلَّدَ الرَّحْمَنُ أَمْرَ عِبَادِهِ إِمَامًا لَهُ فِي الْعَدْلِ أَرْفَعُ مَنْزِلَهُ

ويُعَدُّ يوسف الثالث آخر أمراء بني الأحمر المهمين، ويفضون بعده في القرن التاسع
الهجري إلى خلافات، تقضى على الإمارة قضاء مبرما. وحرى بنا أن نتوقف قليلا
لنتحدث عن أهم شعراء المديح في الأندلس، وهم ابن عبد ربه وابن دراج القسطلي وابن
عمار وابن الحداد والرُّصافي وابن زمرك.

(٣) تزجي: تدفع. الأوداج جمع وديج وهو عرق في
العنق إذا قطعه الذابح لم يبق في الإنسان حياة.
(٤) انظر ديوان ابن فركون بتحقيق د. محمد بن
شريف (طبع أكاديمية المملكة المغربية) ص ١٠٣.

(١) انظر هذه القصيدة في ترجمة ابن جزي
الضاحية في أزهار الرياض ١٨٩/٣ وترجم له ابن
الأحرر إسماعيل بن يوسف في كتابه تنوير فرائد
الجهان وابن الخطيب في الكتيبة الكامنة ص ٤٦.
(٢) العوالي: الرماح.

ابن عبد ربه^(١)

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ولد في قرطبة سنة ٢٤٦ للهجرة، في أسرة متواضعة من أسر الموالي إذ كان جده سالم من موالي هشام بن عبد الرحمن الداخل، وألحقه أبوه بأحد الكتاتيب، ثم وجهه إلى الدراسة على الشيوخ في جامع قرطبة الكبير، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين واللغويين من أمثال بقى بن مخلد وابن وضاح والحشنى. ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، فأخذ ينظم - مثل أقرانه - في الغزل والخمر، وقلما يقع له فيها شعر جيد. ويبدو أنه لم يكن ينظم فيها عن عاطفة حقيقية، وأنه كان يصدر فيها عن محاكاة أنداده، ومن خير ما له في الغزل قوله:

الجسم فى بلدٍ والروح فى بلدٍ يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد
إن تبك عيناك لى يامن كلفت به من رحمة فهما سهماك فى كبدى

وكان سريع الغضب، وجرَّ عليه ذلك اشتباكه مع القلقاط الشاعر معاصره في الهجاء، ونراه في كثير من أشعاره شاباً وشيخاً ميالاً إلى التشاؤم وإلى ذم الدنيا والناس وسوء الظن بالأشخاص. وربما كان صادراً في ذلك عن نزعة دينية غرسها فيه شيوخه، ومن بقيتها عنده أن نراه بأخرة من حياته يعارض كل مقطوعة غزلية أو خمرية في شبابه بمقطوعة في ذم الدنيا والتنفير منها، وسُمي تلك المقطوعات المحصّات أى المخلصات من الذنوب، كأنما عدَّ شعره في شبابه ذنوباً وآثاماً وهو إنما كان في رأينا محاكاة للشعراء العباسيين لا اقترافاً حقيقياً للآثام، لأنه لم يكن مهتماً لذلك بحكم روحه المحافظة. ويدل على ذلك أبلغ الدلالة كتابه «العقد الفريد» وهو مطبوع بمصر مراراً في عدة مجلدات، وفيه يعرض الثقافة الأدبية الشرقية على نهج كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ولم يكن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله بكثير من أشعاره وذكره لشاعر

مكي ببيروت) والجزء الخاص بالأمير عبد الله نشر
ملشور بباريس والجزء الخامس الخاص بعبد الرحمن
الناصر والعقد الفريد لابن عبد ربه ونفع الطبيب
للمقرئ. انظر في كل ذلك الفهارس، وتاريخ الأدب
الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان
عباس ص ١٣٥ والأدب الأندلسي للدكتور هيكمل
ص ٢٢٣.

(١) انظر في ترجمة ابن عبد ربه وأشعاره الحميدى
٩٤ وابن الفرضى ٤٩/١ والبغية رقم ٣٢٧
واليتيمة للثعالبي (طبعة محيى الدين عبد الحميد)
٥/٢٢ - ١٠، ٧٤ - ٩٩ والمطرب ص ١٤١
ومعجم الأدباء ٢١١/٤ والمطبع ص ٥١ وابن
خلكان ١١٠/١ والمقتبس لابن حيان الجزء الخاص
بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (نشر د. محمود

الأمير عبد الرحمن الأوسط يحيى الغزال، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من شعر ونثر بحيث قال صاحب بن عباد حين اطلع عليه: هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، وهو رمز واضح لروحه المرسفة في المحافظة.

ومع أن غزلياته وخمرياتة وزهدياته يبدو فيها جميعا التكلف الشديد تتجلى في مدائحه شاعرية بارعة، وكأنما خلق للمديح أومداحا، وبدأ مديحه مبكرا، وقد استهله بمديح الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفى فعنى بمديح ابنه المنذر ويؤثر له فيه قوله من مدحه:

بـالمنذر بن محمد شَرَفْتُ بلادَ الأندلسِ
فـالطيرُ فيها ساكنٌ والوحشُ فيها قد أنسُ

وتوفى المنذر وخلفه أخوه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ). ويمدحه لأول استيلائه على صولجان الحكم بقصيدة قافية يقول فيها متجاوزا كل حد في المبالغة على عادة الشعراء:

إذا فُتحتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وأُزِلَّتْ فَأنتَ بها لِلأنبياءِ رَفِيقُ

وينتصر عبد الله على ابن حفصون الناصر في إحدى المعارك معه سنة مائتين وثمان وسبعين، وكان قد اشتدت شوكته وتداعى له - كما يقول ابن حيان - أهل الشر من أقطار الأندلس، فهناه ابن عبد ربه بقصيدتين: حائية وجيمية، وفي الثانية يقول:

هذى الفتوحاتُ التي أذكَتْ لنا في ظُلْمةِ الآفاقِ نورَ سِراجِ

ويخلف عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) جده عبد الله وكان ابن عبدربه أحد معلميه وكان الناصر جديرا بكل حمد فعاش ابن عبد ربه بقية حياته حتى وفاته سنة ٣٢٨ يتغنى بفتوحاته وانتصاراته الضخمة على الثائرين في الداخل، ودانت له الأندلس ودان له ملوك النصارى وأمراؤهم في الشمال. وبمجرد استيلائه على مقاليد الحكم يُعد جيشا جرارا لغزوة المنتلون، ويستولى فيها على مائتي حصن من حصون الثوار وهنثه ابن عبدربه بهذا النصر المبين مرارا منشدا:

في غزوةٍ مائتا حِصْنٍ ظفرتَ بها في كل حِصْنٍ غَوَاةٌ للعناجيج^(١)
ما كان ملكٌ سليمانٍ ليدركها والمُبْتَنى سُدٌّ يأجوجٍ ومأجوجٍ

وهو يعلى ملكه على ملك سليمان بن داود وملك الإسكندر ذى القرنين بانى سد يأجوج ومأجوج وصاحب الفتوح الكبرى. ولا ابن عبدربه في حروب الناصر من سنة ٣٠٠

إلى سنة ٣٢٢ منظومة^(١) تاريخية يصف فيها انتصاراته على مدار تلك السنوات البالغة اثنتين وعشرين سنة، وهو يستهلها بالتسبيح والتحميد، وينوه بالناصر وحسبه ونسبه وتقواه، ثم يقص غزواته موزعة على تلك السنين بهذا الأسلوب الذي نقرؤه في حديثه عن غزوة المُنْتَلون بجيَّان:

أَرْجَفْتُ الْقِلَاعَ وَالْحِصُونَ كَأَنَّمَا سَاوَرَهَا الْمَنُونُ^(٢)
وَأَقْبَلْتُ رَجَالَهَا وَفُودًا تَبَغَّى لَدَى إِمَامِهَا السُّعُودَا
قُلُوبَهُمْ بَاخِعَةً بِالطَّاعَةِ قَدْ أَجْمَعُوا الدُّخُولَ فِي الْجَمَاعَةِ

وأسلوب ابن عبد ربه في المنظومة جميعها يخلو من التصاویر مما يدخلها في دوائر الشعر التاريخي التعليمي كمنظومة علي بن الجهم التاريخية التي ألَمِنَا بها في كتاب العصر العباسي الثاني، وفي الحق أن أجنحة ابن عبد ربه كانت من القصر بحيث لم يستطع أن يخلق فيها بين شعراء الملاحم المبدعين.

ابن^(٣) دراج القسطلی

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج ولد سنة ٣٤٧ في بيت من بيوت قبيلة صنهاجة المغربية بمدينة من أعمال جَيَّان تسمى قسطلة دراج، وفي نسبتها إلى جده ما يدل على عراقية أسرته، وألحقه أبوه منذ نعومة أظافره بكتاب حفظ فيه القرآن وبعض الأشعار على عادة لداته، حتى إذا أتم حفظ القرآن انتقل إلى حلقات الشيوخ بجيَّان فاتسعت ثقافته اللغوية والأدبية. ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت مبكرة، فأخذ ينظم الشعر حتى عُرف بين شعراء بلده، ولم يلبث أن تزوج وأنجبت له امرأته بنتا وطمحت نفسه إلى الشهرة، فرأى أن يرحل إلى قرطبة محاكيا بذلك بعض شعراء جيان ممن سبقوه إليها

ص ١٥٦ والمعجب للمراكشي ص ٨٥ وألبان المغرب لابن عذارى ٢٧٤/٢ و ٩/٣ وفي مواضع مختلفة وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٢٢-١٢٤ وأيضا في مواضع مختلفة وابن خلكان ١٣٥/١ ومقدمة ديوانه المنشور بدمشق تحقيق د. محمود مكي وكتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الحادية عشرة) ص ٤٢٤ وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٩١ والأدب الأندلسي للدكتور هيكل ص ٣٠٢.

(١) أنظر في هذه المنظومة العقد الفريد لأبن عبدربه (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٩٩/٤ وما بعدها وسنلهم بها بأخرة من هذا الفصل.

(٢) أُرْجِفْتُ: اضطربت من الفزع. ساورها: صارعها.

(٣) راجع في ترجمة ابن دراج وشعره الذخيرة ٥٩/١ وما بعدها والحيدوي ١٠٢ واليتمية للتحالي (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ١٠٣/٢ وما بعدها والصلة لابن بشكوال رقم ٧٥ وبغية الملتبس رقم ٣٤٢ والمغرب ٦٠/٢ والمطرب

ونالوا فيها غير قليل من الشهرة مثل الغزال يحيى بن حكم شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط وأحمد بن فرج الجبائي صاحب كتاب الحقائق شاعر الحكم المستنصر. ورحل إليها مخلفا وراءه زوجته وابنته سنة ٣٨٢ وكان المنصور بن أبي عامر حاجب المؤيد هشام في الذروة من سلطانه، وكان يرعى الشعراء، واتخذ لهم ديوانا لأعطياتهم ورواتبهم وأقام عليه أديبا بصيرا بالشعر هو عبد الله بن مسلمة فعرض عليه ابن دراج مدحة في المنصور أعجبهتة فقدمه إليه، وأخذ المنصور يختبر بداهته في نظم الشعر وهو يوفق فيما يطلبه ويختبره فيه، وألحقه بدواوينه وفسح له في مجالسه، وطلب إليه ذات مرة أن يعارض أبا نواس في رائيته: «أجارة بيتينا أبوك غيور» فنظم في معارضتها قصيدة بديعة صور فيها امرأته متلهفة عليه في وداعه مشفقة ورضيعها في المهد وهي تتجرع مرارة الفراق وتتحبب .. يقول:

ولما تدانث للوداع وقد هفا بصري منها أنث وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبغوم النداء صغير^(١)
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع معطوفة ونحور

ويطيل في تصوير هذا الوداع مما جعل القصيدة تطير شرقا وغربا، ويصور رحلته من جيان إلى قرطبة لزيارة المنصور ومديحه، ويشيد بجهاده للنصارى في الشمال ونصرته للدين الحنيف وانقضاضاته المتوالية على الأعداء. وكان ملوكهم مايزالون يفدون عليه في قرطبة معلنين خضوعهم له وطاعته، ووفد في أول سنة نزل بها ابن دراج قرطبة ملك نبالمة معلنا ولاءه ومحكما له في نفسه، فأنشده مدحة يقول فيها:

ألا هكذا فليسم للمجد من سما ويحمي ذمار الملك والدين من حمي^(٢)
فهذا عظيم الشوك قد جاء خاضعا وألقى بكفيه إليك محكما

ووفد في نفس السنة أمير قشتالة وولى عهدها على المنصور، ويصف في لامية له مثوله خانعا بين يدي المنصور والعرض العسكري الرهيب الذي أقيم لاستقباله. ولا يفد أمير ولا ملك إلا وابن دراج يشيد بالمنصور ويمدحه، وبالمثل كان يوالى مدائحه فيه مع انتصاراته المتعاقبة، ومعروف أن المنصور غزا طوال حجابته اثنتين وخمسين غزوة، وحضر ابن دراج غزواته الأخيرة، ومع كل غزوة كان يغزوها ينشده مدحة بديعة كان بحق أهلا لها وجديرا، ومن أهم تلك الغزوات غزوة شنتياقب في جليقية بأقصى الشمال الغربي

(١) مبغوم النداء: رقيقه ولينه.

(٢) ذمار الملك: ما ينهض، حياطته والدفاع عنه.

لإسبانيا وفيها دمر المسلمون تلك البلدة مشعلين النار فيها وفي كنيستها، وتعدُّ من أهم مراكز الحج عند المسيحيين وفي تلك الواقعة يقول ابن دراج في مدحه بديعة:

لقد قصمت عُرى دين الضلالة من رأس القواعد ممنوع الحمى أشبه^(١)
وسُمته جاحما للنار مابقيت نفس من الكفر إلا وهى من خطبه
فالله جازيك يامنصور غزوته بسيف ماضٍ لنصر الدين مُحْتَسِبِه

ويتوفى المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٢ ويخلفه ابنه المظفر عبد الملك وكانت مدته حتى سنة ٣٩٩ فترة رخاء ورفاهية، وسكن الناس منه إلى عدالة ونزاهة، واستثنى سنة أبيه في غزو النصارى، ولا بن دراج فيه مدائح مختلفة. وخلفه أخوه عبد الرحمن في الحجابة لمدة شهرين إذ قُتل في إثرهما وكان نحسا على نفسه وعلى الأندلس إذ انفتح به باب فتنة ظلت قرطبة تعاني منها أشد العناء نحو عشرين عاما هُدمت فيها أحياء وهدمت الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر والزهرة مدينة المنصور بن أبى عامر. ونجد ابن دراج يقدم مدائحه لمن يستولون على صولجان الخلافة والحكم واحدا بعد الآخر، فهو يقدمها للخليفة الجديد المهدي، ثم للخليفة الثائر عليه المستعين ولوزيره القاسم الحمودى ويعبر الزقاق إلى سببته لمديح أخيه على بن حمود ويستظهر في مديحه مشاعر التشيع له، لنسبه ونسب أسرته إلى الرسول ﷺ. ومرُّ بنا أن الحموديين لم يستشعروا حقوق أهل البيت النبوى في الخلافة، ولذلك كان مثل هذا التشيع لا يلقى منهم استجابة. ويترك ابن دراج على بن حمود إلى الأمراء الذين استولوا في أثناء الفتنة على بلدان الأندلس الشرقية: مرسية وشاطبة وطرطوشة والمرية وصاحبها خيران الصقلبي، ويمدحه بنونية يستهلها بقوله:

لك الخيرُ قد أوفى بعهدك خيرانُ وبُشراك قد آواك عِزُّ وسلطانُ

ويقصّر خيران فى جزائه، وينتهى به المطاف - بعد سنوات ثمان مضنية - إلى الأمراء التجبيين فى سرقسطة سنة ٤٠٨ ويهنأ بها فى رعاية منذر بن يحيى التحيبى ولا يترك مناسبة إلا ويمدحه فيها وخاصة حين ينكل بالنصارى المجاورين لإمارته على نحو ما نرى فى عينيه، يهنئه فيها بجهاده فى شهر رمضان وظفروه بأعدائه، يقول فيها:

ساقى الحياة لمن سالمت، مُطعمُها دُعافٌ سُمُّ لمن حاربتَ ناقعه^(٢)
مواصلًا بالندى ما الله واصلُهُ وقاطعا بالطَّبى ما الله قاطعُهُ

(١) أشب: ملفت الشجر، ويقصد الكنيسة وكانت على مرتفع غاص بالشجر.
(٢) السم الذعاف: السم القاتل.

فى جيش عزّ ونصرٍ أنت غُرَّتُهُ وشَمَل دِينٍ ودنيا أنت جامعُه

ويتوفى منذر سنة ٤١٢ فتظل له نفس المنزلة والرعاية عند ابنه يحيى، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ وسمع بما ذاع وشاع عن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية وإسباغه العطايا الجزيلة على الشعراء والعلماء وفد عليه مادحا بقصيدة بديعة استهلها بقوله:
إلى أى ذكرٍ غيرِ ذكرك أرتاحُ ومن أى بحرٍ بعد بحرٍ أمتاحُ
واحتفل مجاهد بقدومه عليه وأجزل له فى العطاء مما جعله يؤثر المقام عنده ولكن القدر لم يمهله فقد توفى بدانية بعد عامين من نزوله بها سنة ٤٢١

وقد أشاد بآبن دراج كل من كتبوا عنه شرقا وغربا، فالثعالبي يقول عنه فى اليتيمة:
«كان بَصَقَ الأندلس كالمتنبى بصقع الشام وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما ينظم» ويقول ابن حيان عنه: «أبو عمر بن دراج القسطلى سباق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين» ويصفه ابن شهيد «بجزالة شعره وصحة قدرته على البديع وحوك الكلام وتلاعبه بالمعاني وإطالته فيها» ويقول ابن بسلام عنه:
«لسان الجزيرة شاعرا وآخر حاملى لوائها، سار نظمه ونثره مسير الشمس» ويلاحظ بحق كثرة اقتراضه للمعاني من المتنبي، ولاحظ ابن شهيد كثرة استخدامه للبديع، وكأنه يحاكي فيه أبا تمام، وقد عرضنا من ذلك أمثلة فى ترجمتنا له بكتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، كما عرضنا أمثلة أخرى تدل على ميله للتصنع، إذ يتصنع فى بعض شعره للمصطلحات العلمية. وما يلاحظ عليه أنه يكثر عنده حين يلم بمعنى أن يطيل فيه حتى يفقد حرارته، وأيضا يلاحظ عليه كثرة معارضاته لقصائد المشاركة وخاصة أبا نواس وأبا تمام والمتنبى، وهو - كما ذكرنا فى كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - يلتقى صوته فى أشعاره بصوت ابن هانى فى العناية باللفظ الطنان وقعقاته، وتعلق منذ قصائده الأولى بالشكوى من الدهر والسخط على الناس محاكيا بذلك المتنبي فى مطالع كثير من قصائده، وازداد هذا النغم عنده منذ الفتنة التى جعلته يحس بالضيق سنين عديدة.

ابن عمار^(١)

هو أبو بكر محمد بن عمار من قرية من قرى مدينة شلب يقال لها شنبوس، ومر بنا ما ذكره ياقوت عن شلب وأن نظم الشعر كان يشيع على كل لسان بها، حتى لو طلب أحد إلى فلاح بها خلف محرائه قرض شيء من الشعر قرضه له توا في أى معنى يطلبه منه، فكان طبيعياً أن تهدي إلى الأندلس شاعراً فذا من شعرائها، وكأنما اختار القدر لها محمد ابن عمار الذى نشأ بشلب طفلاً لأسرة متواضعة، وتعلم فيها العربية والأدب على شيوخ متعددين منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلام، ثم رحل إلى قرطبة فأكمل فيها تأدبه، واستيقظت ملكته الشعرية على شيء غير قليل من ضحك العيش وبؤسه، مما جعل ابن بسام يقول عنه إنه «أحد من امترى»^(٢) أخلاف الحرمان، وقاسى شدائد الزمان، وبات بين الدكة والدكان واستحلس^(٣) دهليز فلان وأبى فلان». ولم يكن له شيء يتكسب به سوى شعره، فطاف به في بعض مدن الأندلس مسترفداً، لا يبالي ممن أخذ ولا من مدح من سيد أو سوقة. وحدث أن عاد إلى شلب من بعض سفراته على دابة لا يجد علفها، فنظم مديحاً في رجل من أهل السوق ظنا منه أنه يعطيه النوال الوفير، وإذا هو يسر إلى غلامه بكلام، فأثاه بمخلاة شعير، وفكر في دابته وحاجتها إلى العلف، فاحتمل الغضاضة. ومضى يتقلب في بلاد الأندلس للمديح والاستجداء إلى أن وفد على المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) أمير إشبيلية ومدحه بقصيدته الفريدة:

أدِر الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد أنبرى والنَّجمُ قد صَرَفَ العِنانَ عن السُّرى^(٤)

واستحسنها المعتضد وأمر له بآل وثياب ومركب وأن يكتب في ديوان الشعراء، وتعرف حينئذ على ابنه وولى عهده المعتمد، وتوثقت عرى المودة بينهما حتى أصبح المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل أو نهار. وولى المعتمد على مدينة شلب من قبل أبيه فاتخذ ابن عمار وزيره في تلك الولاية وساءت السمعة عنها لعكوفها على الخمر والغناء، فأمر

خلكان ٤٢٥/٤ ونفع الطيب للمقرى (انظر الفهارس).

(٢) امترى: حلب. الأخلاف: الضرع.

(٣) استحلس: لزم. الدهليز: المدخل بين الباب والدار.

(٤) السرى: المسير ليلاً.

(١) انظر في ترجمة ابن عمار وأشعاره الذخيرة ٣٦٨/٢ وما بعدها والقلائد ٨٣ والحلة السيرة (طبع القاهرة) ١٣١/٢ والمغرب ٢٨٩/١ والمطرب ص ١٦٩ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ١٦٩ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ١٦٠ والحريدة ٧١/٢ وبغية المنتسب رقم ٢٢٧ وابن

المعتضد بالتفريق بينها وخروج ابن عمار عن بلده، فمضى يطوف بأمراء الطوائف، ففترة عند المعتصم بن صُهاح أمير المريّة وفترة عند أبي عبد الرحمن بن طاهر أمير مَرْسِيّة، وفترات أخرى عند غيرهما، إلى أن توفي المعتضد فاستدعاه المعتمد وقرّبه حتى أصبح أقرب إليه من حبل الوريد، وسأل المعتمد ولاية شلب: بلده ومنشئه، فأجابته إلى أن اشتد شوقه إليه، فاستدعاه منها واتخذته وزيره ومستشاره.

وطمح المعتمد إلى الاستيلاء على مرسية، وزين له ذلك ابن عمار، فأعدّ جيشاً جراراً بقيادته وقيادة عبد الرحمن بن رشيق، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، غير مراعاة له حرمة برّه القديم به كما أسلفنا. ونزل بالجيش على مرسية سنة ٤٧١ وأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، وتماذى في إنكاره للجميل إذ سوّلت له نفسه أن يستلبها من المعتمد وأن يعلن استقلاله بها، ودانت له هي وأعمالها، وجلس مجلس التهنئة للخواص والعوام واستقبل الشعراء يهنئونه ويمدحونه. واستعمل على الحصون خِساس عبيده وأقطعهم الضياع وأقبل على اللهو والخمر والمتاع، وعبثاً حاول المعتمد بن عباد أن يردّه عن غيّه، وله معه مراجعات شعرية كثيرة، وبدلاً من أن يطلب الصفح هجاء وهجا زوجته الرُمَيْكِيّة قرة عينيه بقصيدة طارت شهرتها في الأندلس منها:

فيا عامرَ الخيل يا زَيْدَها منعتَ القرى وأبحتَ العيالا^(١)

وأفحش فيها غاية الفحش ولم يفكر في العواقب، وبينما كان سادراً في خمره وهو أخذ عبد الرحمن بن رشيق يستبدل العبيد من ولاته ببني إخوته وأخواته حتى صارت مرسية وأعمالها في يده، حينئذ انتهاز فرصة خروجه لرؤية حصن من حصونه، وأغلق أبواب مرسية في وجهه. وعرف أن لا سبيل إلى دخولها فوّل وجهه نحو سرقسطة وأميرها المؤتمن بن المقتدر بن هود (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ). واستقبله على مضض منه لما فعل بالمعتمد وليّ نعمته، وأرسل إليه قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله:

علّي وإلا ما نواح الحمائم وفّي وإلا ما بكاء الغمام

وأخذ يذكرّه بأيامه معه ويسترحمه، لعله يرق له، ولكن ذنبه كان عظيماً. ولم يلبث أن رغب المؤتمن في الاستيلاء على حصن شقورة شمالي مرسية من يد أميرها عتاد الدولة عبدالله بن سهل، فعرف عتاد الدولة كيف يخدعه ويودعه سجنه، وأرسل إلى المعتمد وغيره من الأمراء هل لأحد فيهم رغبة في شراء هذا الخائن الآثم الكنود؟ فأرسل إليه

المعتمد ابنه الراضى ببال وخيل، وتسلمه من عتاد الدولة سنة ٤٧٧ وحاول أن يستلين قلب الراضى ببعض شعره فلم يصغ إليه، ونظم في طريقه إلى المعتمد قصيدة يستعطفه بها افتتحها بقوله:

سجايك - إن عافيت - أندى وأسمع وعذرك - إن عاقبت - أجلي وأوضح

ولم ينفعه عند المعتمد تذللّه فيها وتضرعه، وكان بقرطبة، فكان يحضره كل ليلة راسفاً في قهوده ويوبخه على سوء فعله، وانحدر به إلى إشبيلية، وأودعه غياهب السجون إلى أن استشارته عليه زوجته الرميكية فأجهز عليه، ورثاه عبد الجليل بن وهبون بيت مفرد هو قوله:

عجباً لمن أبكيه ملء مدامعى وأقول: لاشلت يمين القاتل

ويدون ريب كان ابن عمار انتهازياً وصولياً لا يرعى صداقة ولا عهداً، أما شعره ففي الذروة من شعر الأندلسيين وفيه يقول الفتح في القلائد: «مقذف حصا القريض وجماره ومطلع شمسه وأقماره» ويقول ابن بسام: «شعره غرب وشرق، وأشأم في نغم الحدادة وعلى السنة الرواة وأعرق.. وهو يضرب في أنواع الإبداع بأعلى السهام، ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام» ويطلق في الإشادة به، ويقول ابن الأبار في ترجمته: «من بديع صنيعه إتلاف أشعاره المقولة في الامتياح وقصائده المصوغة في الانتجاع ومحو آثارها فما يوقف منها اليوم على شيء سوى أمداحه في المعتضد وما لا اعتبار به لنزوله» ويتيمته - بحق - وفريدته مدحته الرائية في المعتضد عباد التي ذكرنا مطلعها، وفيها يصف روضاً كأنه حسناء تكتسى بوشى الزهر الأنيق، وتتقلد بجوهر الندى النفيس، ويخرج إلى المديح فينشد:

عباد المخضر نائل كفه	والجو قد - ليس الرداء الأغبر ^(١)
أندى على الأكباد من قطر الندى	والذ في الأجفان من سنة الكرى ^(٢)
أيقنت أنى من ذراه بجنة	لما سقاني من نداء الكثر ^(٣)
فاح الثرى متعطراً بثنائه	حتى حسبنا كل تراب عنبراً

وما يزال ابن عمار يفجأ قارئ مدحته بهذه الصور والمعاني البديعة، وما يفجأ قارئه به تصويره لإطاحة المعتضد بالملوك ودقه لأعناق كُماهم وشجعانهم إذ يقول:

(١) الجو قد ليس الرداء الأغبر: كناية عن (٢) الكرى: النوم. سنة الكرى: الغفوة في أوله. (٣) ذراه: كنفه. الكثر: نهر في الجنة. الجذب.

أثمرت رُمَحَكَ من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغُصْنَ يُعَشِّقُ مُثْمِرًا
وصبغت دِرْعَكَ من دِمَاءِ كُمَاتِهِمْ لما رأيت الحسن يُلبَسُ أحمرًا

وابن عمار لا يبارى في روعة التصاوير والأخيلة وروعة الأداء وحسن الصياغة، وكان مدينة شلب وقراها الشاعرة ظلت تمخض الشعر فيها حتى أنتجت رحيق شعره الصافي البديع.

ابن الحداد القيّسى^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيّسى من مدينة وادى آش في إليرة موطن بنى عقيل وغيرهم من القيّسين وشُغف في صباه - كما يقول ابن بسام - بصبية نصرانية رمز إليها باسم نويرة، وسنعرض لغزله بها في حديثنا عن شعراء الغزل. وقد اشتهر بمعارفه الواسعة في الآداب العربية والعلوم الإسلامية وأيضاً في الفلسفة والعلوم القديمة ولذلك ترجم له ابن سعيد كأحد العلماء في موطنه، ويذكر مترجموه أن له في العروض كتاب «المستنبط في علم الأعاريض المهمة عند العرب» ولا أرتاب في أنه لو وصل إلينا لكان دليلاً قوياً على ما قلته في حديثي عن الموشحات من أن الأعاريض المهمة التي يُنظم فيها والتي أشار إليها ابن بسام ونقلناها عنه هناك إنما هي أعاريض العرب المهمة التي نصّ عليها الخليل في دوائره العروضية لا أعاريض أشعار رومانسية كما توهم «ريبير» ومن تابعه، وقال مترجمو ابن الحداد إن له في العروض كتاباً ثانياً باسم: «قيد الأوابد وصيد الشوارد» وكتاباً ثالثاً باسم: «الامتعاظ للخليل» ردّ فيه على السرقسطى المنبوز بالحمار - وهو سعيد بن فتحون - مازجا فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية، ولا أرتاب في أن كتبه جميعاً تؤكد ما ذهبت إليه في فهم كلمة ابن بسام عن نظم الموشحات في الأوزان المهمة التي أشار إليها الخليل في وضعه لدوائره العروضية، وهي مرسومة بدقة في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

وكان يلزم المعتصم محمد بن معن بن صُهادح التجيبى أمير المريّة التي بناها عبد الرحمن الناصر بالجنوب الشرقي للأندلس وأصبحت قاعدة للأساطيل الأموية،

والإحاطة ٢٥٠/٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ١٠/٦ والوافى للصفدى (طبع إستانبول) ٨٦/٢.

(١) انظر ترجمة ابن الحداد في الذخيرة ٦٩١/١ والمطمح ص ٨٠ والمغرب ١٤٣/٢ والتكملة رقم ٤٦٨ والخريدة ٢٠٤/٢ والفوات ١٦٧/٢.

وقاد فيها المعتصم منذ أصبح أميراً لها في الثامنة عشرة من عمره سنة ٤٤٣ حركة علمية وأدبية كبيرة طوال مدة حكمه التي امتدت إلى أكثر من أربعين عاماً، وكان يخصص يوماً في كل أسبوع لمناظرة الفقهاء والمحدثين بين يديه، ولزم حضرته كثيرون من الشعراء، منهم من المرية يوسف بن عبد الصمد وأبو حفص بن الشهيد ومن غيرها الأسعد بن بليطة الطليطلي والقزاز محمد بن عبادة الإلبيري المترجم له بين الوشاحين ويوسف بن محمد الأشكركي ومنهم - كما أسلفنا - شاعرنا ابن الحداد الذي عاش عنده أكثر حياته مما جعله يستنفد أكثر أشعاره ومدايح فيه من مثل قوله في إحدى مدائحه:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمدٌ لما كانت الأيامُ عندى ذخائراً
يُحِبُّ ذِراهُ الدهرُ عافٍ وخائفٌ جُموعاً كما وافى الحجيجُ المشاعراً^(١)
فزر مَكَّةَ مهما اقترفتُ مائماً وزرَ أَفَقَهُ مهما شكوتُ مَفاقراً^(٢)
تهيمُ بمرآةِ العصورِ جلالَةً وتحسدُ أولاهُ عليه الأواخرُ

والصورة في البيت الثاني رائعة، وكان يعرف كيف ينفذ إلى طرائف الصور والأخيلة البديعة، كقوله في مدحة أخرى للمعتصم، استهلها بالمزج بين الطبيعة والغزل على مألوف المدايح عند الأندلسيين ولم يلبث أن خرج من وصف نهر إلى المديح منشداً.

ويا لك من نَهرٍ صَنُولٍ مُجَلْجَلٍ كأن الثَّرى مُزَنٌ به دائمُ الرَّعْدِ^(٣)
كأن يَدَ المَلِكِ ابنِ معنٍ مُحَمَّدٍ تُفَجِّرُهُ من مَنبَعِ الجودِ والرَّفْدِ^(٤)
فمن جوده ما فى الغمامةِ من حَيَا ومن نوره ما فى الغزالةِ من وَقْدِ^(٥)
ومنك أخذنا القولَ فيك جلالَةً وما طاب ماءُ الوَرْدِ إلا من الوَرْدِ

وَقَرَنُ جُلجلةِ ماءِ النهرِ فى حصباءِ الثرى بصلصلةِ الرعدِ الدائمِ فى السحابِ الماطرِ فى منتهى الروعة، ومن نفس الطراز الصور فى البيتين الثالث والرابع.

ويبدو أن أخاً له اقترَفَ ذنباً اضطر المعتصم إلى اعتقاله سنة ٤٦١ وأحس الشاعر بشيء من سخط المعتصم عليه، فغادر المرية مولياً وجهه إلى المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) بسرقسطة، وكان شاعراً يقدر الشعر وأهله كما كان بطلاً مجاهداً

(١) ذراه: حماه وكفنه عاف: طالب معروف.

(٢) مفارق: وجوه فقر.

(٣) صنول: شديد الهياج. المزن: السحاب.

(٤) الرفد: العطاء.

(٥) الحيا: الفيث والمطر. والغزالة: الشمس.

صاحب غزوات مشهورة، واستقبل ابن الحداد استقبالا حافلا، وأكثر من إسباغ عطاياه عليه، وأكثر ابن الحداد من التغني بانتصاراته على ابن رديم حاكم أراجون، وله فيه من مدحة يصور فيها بسالته الحربية وبناءه حصن المدور في نحر العدو:

مساعيك في نحر العدو سهاً ورأيتك في هام الضلال حساماً^(١)
ولمحك يردى القرن وهو مدجج وذكرك يثنى الجيش وهو لهام^(٢)
كأنك لا ترضى البسيطة منزلاً إذا لم يطئبه عليك قتاماً^(٣)
كأنك خلت الشمس خوداً فلم يزل يقنعها بالنقع منك لثاماً^(٤)

وواضح أنه أبدع في تصوير غزوات المقتدر المستمرة التي لا يزال يشنها على العدو حرباً في إثر حرب، حتى ليتصوره ابن الحداد لا يتخذ له مسكناً في الأرض إلا ساحات القتال وقد شددت عليه فيها أطناب القتام وغيار القتال الأسود الكثيف ويبعد في الخيال، فيظن المقتدر يخال الشمس فتاة جميلة، وكأنه يغار عليها، فلا يزال يثير غبار الحرب متخذاً منه لها لثاماً أو حجاباً. وحن إلى المعتصم بن صمادح، فعاد إليه وإلى المرية، وهو يردد.

واصل أخاك وإن أتاك بجفوة فخلوص شيء قلما يتمكن
في كل شيء آفة موجودة إن السراج على سناه يدخن

وذكرنا في صدر الحديث عنه أن كان مولعاً بالفلسفة وعلوم الأوائل، ولعل ذلك ما دفعه إلى نظم قصيدة سهاها «حديقة الحقيقة» وضاعت فيها ضاع من ديوانه، وكانت كبيرة كما يقول مترجموه، وأنشد منها ابن الأبار قوله:

ذهب الناس فانفرادي أنيسى وكتابي محدثي وجليسى
صاحب قد أمنت منه ملالا واختلالا وكل خلقي بئيس

ولعله تناول فيها جوانب من أخلاق الناس بعد أن عاشهم طويلاً دون محاولة لسخط عليهم أو نقمة، وأخيراً لبى ابن الحداد نداء ربه بالمرية سنة ٤٨٠.

(٣) يطئبه: يغطي كالخيمة. القتام: الغبار.
(٤) الخود: الحسناء. النقع: غبار الحروب.

(١) هام: جمع هامة: الرأس.
(٢) اللهم: الجيش المجرار.

الأعمى التَّطِيلِي القَيْسِي^(١)

هو أبو جعفر - وقيل أبو العباس - أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة التطيلي القيسي، فهو عربي الأرومة، أما نسبته إلى تطيلة - وكانت تقع إلى الشمال الغربي من سرقسطة - فلأنها كانت موطن آبائه. ويبدو أن أباه - وربما جده - هاجر منها مبكرا إلى إشبيلية، فولد الشاعر فيها، ومن المؤكد أنه نشأ بها كما يقول ابن سعيد في كتابه «رايات المبرزين» ففيها كان مرباه وتعلمه، ويعلن مرارا أنه ضيق باستيطانها، يقول عنها:

فَتَالَهُ مَا اسْتَوْطَنْتُهَا قَانَعًا بِهَا وَلَكِنِّي سَيْفٌ حَوَاهِ قِرَابُ

فهو منها كسيف حواه قراب أوغمد، لا بد أن يسكن لها راضيا أو راغما. وربما بعثه على إعلان ذلك برم وقلق كانت تنطوى عليها نفسه، بسبب فقدته لبصره، إذ كان ضريرا، وبكر إليه - فيما يبدو - شيء من الصلح أو بعض الشجرات البيض في رأسه، مما جعله يصرخ:

أَمَا اشْتَفْتُ مِنِّْي الْأَيَّامُ فِي وَطْنِي حَتَّى تَضَاقِقَ فِيمَا عَنِّي مِنْ وَطَرٍ^(٢)
وَلَا قَضَتْ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تَكْرُرَ عَلَيَّ مَا كَانَ فِي الشُّعْرِ^(٣)

وكان يلتقي في إشبيلية دائما بطائفة من الشعراء والوشاحين المجيدين في مقدمتهم الشاعر والوشاح الفذ يحيى بن بقي وكان يقدمه على نفسه معترفاً له بالتفوق والسبق في التوشيح كما مر بنا في حديثنا عن الموشحات، وتكفل له شاعر إشبيلي هو أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي بمرافقته في روحاته وغدواته. وليس في ديوانه مدائح لأمرأ الطوائف ولا ليوסף بن تاشفين مما يدل على أنه لم يلحق عصر يوسف المتوفى سنة ٥٠٠ بينما نجد فيه مدائح لابنه على أمير المرابطين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ). مما يدل على أن شاعريته إنما تفتحت في القرن السادس، وقد يؤكد ذلك أنه توفي سنة ٥٢٥ بينما يقول ابن بسام إنه لم يطل زمانه ولا امتد أوانه، وأنه اعتبط (مات) شابا (أو قريبا من

الثقافة ببيروت وألحق به موشحاته.

(٢) وطر: مأرب.

(٣) تكرر: تعاود من حين إلى حين، ومنه: كرّ الليل

والنهار.

(١) انظر في ترجمة الأعمى التطيلي وأشعاره

الذخيرة ٢/٢٢٨ وما بعدها والقلاند ص ٢٧٣

والحريرة ٣/٥١١ وبغية الملتبس رقم ٤٢٩

والغرب ٢/٤٥١ ونكت الهميان للصفدي ص ٤١٠

ونشر ديوانه وقدم له د. إحسان عباس في دار

الشباب) عندما به اغتبط». ويدل ذلك على أن مولده لا يتجاوز سنة ٤٩٠ وإن تجاوزها فإلى سنوات معدودات. وفي ديوانه مراثية حارة لزوجة له تسمى آمنة، ويبدو أنه اقترن بعدها بأخرى تسمى زهرا، ويذكر في بعض شعره أنها كانت تمنعه لعوده عن التماس الرزق، ولعل ذلك ما جعله يكثر من مديحه لذوى الجاه والثراء في إشيلية من مثل بنى الحضرمي وخاصة محمد بن عيسى ومثل الطبيب أبي العلاء زهر، وكان قد أثرى ثراء طائلا من مهنته وحلّ من السلطان محلا لم يحظّ به أحد من أهل الأندلس في وقته وله ينشد:

خَشِنْتَ فلم تترك وأنت منازِعٌ ولِئْتَ ولم تأخذ وأنت قديرٌ
من المجدِ دَانٍ دونه متعرِّضٌ إلى الهولِ سباقٌ عليه جَسُورٌ
كفيلٌ بأرواحِ الأنامِ موكلٌ عليمٌ بأسرارِ الحمامِ خبيرٌ

وهو يشير في البيت الأخير إلى مهارة أبي العلاء في الطب وعلاج الأنام أو الناس ومعرفة أسرار الحمام أو الموت. ونظم في أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ثلاث قصائد، ويتوسل في إحدى قصائده إلى مالك بن وهيب المتفلسف موطنه، الذي اتخذهُ الأمير المرابطي جليسا له ومستشارا، أن يحمل إليه ما ينظمه، وينزل عند رغبته مرارا، وفي إحداها يثنى عليه بمثل قوله:

جَنَابُكَ لِلْعَلا حِصْنٌ حَصِينٌ وَذِكْرُكَ لِلْمُنَى دُنْيَا وَدِينٌ
طَلِيعَةُ جَيْشِكَ الظَّفَرُ الْمَوَاتِي وَظِلُّ لَوَائِكَ الْفَتْحُ الْمَبِينُ
جَوَادٌ بِالْدِيَارِ وَمَا جَوَّتُهُ وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ بِهَا ضَنِينٌ
قَدْ اهْتَزَّتْ بِأَنْعَمِكَ اللَّيَالِي كَمَا تَهْتَزُّ بِالثَّمَرِ الْغُصُونُ

وله في على بن يوسف بجانب قصائده أرجوزة طويلة، وله أيضا فيه موشحة بديعة، وإحدى فقراتها تمضي على هذه الشاكلة:

سَمَا عَلِيٌّ لِأَمْرَةِ الْمُسْلِمِينَ
صَبْحُ جَلِيٍّ رَاقٍ، النَّهْيُ وَالْعِيُونَا^(١)
سَمَحُ أَبِي يَرْضِيكَ شَدًّا وَلِينَا
كَالْهُندَوَانِي وَكَالْغَمَامِ الْهَتَانِ
وَقَفُّ الْأَمَانِي وَمِلءُ عَيْنِ الزَّمَانِ

ومن أكثر من مديحهم ابن حمدين أبو القاسم أحمد بن محمد التغلبي قاضى الجماعة بقرطبة منذ سنة ٥١٣ حتى وفاته سنة ٥٢١ وكان يرسل بمدائحه إليه، وفي أخباره أنه زار قرطبة، وربما زارها من أجل لقائه، وله يقول:

أَسْدُ يَمْلَأُ الْعَرِينَ مِنَ الْبَأْسِ وَطَوْدٌ يَحْمِي مِنَ الْإِمْلَاقِ^(١)
زُهَيْتَ خَطَّةُ الْقَضَاءِ بِهِ زَهْدٌ حَوْ حَمَامٍ الْفُصُونِ بِالْأَطْوَاقِ
أُرِيحِي تَرَاهُ يَهْتَزُّ لَلْبُذِّ لَرِ اهْتَزَّازُ الْقَضِيبِ لِلْإِيرَاقِ^(٢)

وكان صديقا للشاعر الوشاح يحيى بن بقى ورآه يطرق أبواب بنى عشرة قضاة سلا رعاة الشعر لزمانه كما مر بنا في ترجمته وقد خص من بينهم أبا العباس أحمد القاضى بعد أبيه على وأخاه يحيى، فتبع ابن بقى يقدم إليها مثله شعره وموشحاته، من ذلك قصيدة كافية مدح بها أبا العباس يقول فيها:

لِقَاضِي قُضَاةِ الْغَرْبِ وَابْنِ قُضَاتِهِ تَوَدَّدَتِ الْأَمَالُ وَهَى سَوَامِكُ^(٣)
إِذَا سَمِعْتُ أَذْنَاهُ حَيَّ عَلَى الْعُلَا فَلَا الْجُودُ مَتْرُوكٌ وَلَا الْبَأْسُ تَارِكُ
رَفَعْتُمْ لِأَهْلِ الْغَرْبِ أَعْلَامَ دِينِهِمْ فَأَبْصُرْ مَا فَوْكَ وَأَقْصِرْ آفَكَ^(٤)

وقد أضيفت إلى الشاعر في الديوان قصيدة نونية ص ٢١٨ قال الفتح بن خاقان إنه مدح بها القاضى أبا الحسن على بن القاسم بن عشرة، وعنه نقلها محقق الديوان مع إشارته إلى أن العماد الأصبهاني في الخريدة ذكر أنها في مديح أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، وفي رأينا أن الصواب ما ذكره العماد، لأن القاضى المذكور توفى سنة ٥٠٢ وكان التطيلي لا يعدو حينئذ الخامسة عشرة من عمره، وذكرنا أن له في الأمير على بن يوسف ثلاث قصائد فأولى أن تضاف إليها، فيكون له فيه أربع قصائد سوى الأرجوزة. وألحقت بديوانه في بنى عشرة ست موشحات، وقد ذكرنا في ترجمة يحيى بن بقى أن القدماء نصوا على ثلاثة منها بأنها لابن بقى، فنسبتها إلى التطيلي مخطئة، ونظن ظنا أن الموشحتين رقم ١٠ و ١٥ الخاصتين بمديح يحيى بن على بن القاسم حرى بهما أن تنسبا أيضا إلى ابن بقى مثل أختهما رقم ١١ في ملحق الديوان إذ هو الذى تفتيا ظلالة كما نص القدماء وتغنى به في غير موشحة. وفقط ذات الرقم ١٣ في مديح من يسمى

(١) العرين: الغيل أو بيت الأسد. البأس: منه.

(٢) سوامك: جمع سامك: عال.

(٣) سوامك: جمع سامك: عال.

(٤) مأفوك: ضعيف العقل. آفك: كذاب مفتر.

القوة. طود: جبل. الإملاق: الفقر.

(٢) القضيب: الفصن: الإبراق: خروج الورقة

يوسف بن القاسم، فهي التي يمكن أن تضاف إلى التطيلي، وخاصة أن نسبتها إليه شاعت بين الوشاحين حتى ليعارضه فيها ابن الصباغ^(١) المتصوف في القرن السابع الهجري، وفيها يقول:

إن جئت أرض سَلا وافيأك بالمكارم فتيان
هم سطور العُلا ويوسف بن القاسم عنوان

وله قصيدة بديعة مدح بها السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر الذي مهد الأندلس ببطولته وقيادته الحازمة ليوسف بن تاشفين، وهو ابن أخيه، وولاه يوسف إشبيلية وظل عليها - دهرًا: سبعة وعشرين عاما فيما يقال وكانت سيدة فاضلة نبيلة تقرأ القرآن وتنظم الشعر، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة بإشبيلية تحاضر فيها الكتاب والشعراء وتستمع إلى حوارهم في الشعر وتشارك في نقد بعض الأبيات، ومن كان يتردد على ندوتها مالك بن وهيب المتفلسف المار ذكره والكايتان أبو بكر بن القصيرة وابن المرخي محمد بن عبد العزيز، وكانت ممدحة، ومن ثناء التطيلي عليها في قصيدته:

مليكة لا يوازي قَدْرَها ملكُ كالشمس تَصْغُرُ عن مقدارها الشُّهُبُ
دُنْيَا ولا تَرْفُ، دِينَ ولا قَشْفُ مُلْكُ ولا سَرْفُ دَرْكُ ولا طَلْبُ
بِرٌّ ولا سَقَمٌ عَيْشُ ولا هِرْمُ جَدُّ ولا نَصَبُ وِرْدُ ولا قَرَبُ^(٢)

ويفيض التطيلي في وصف جودها وما تغدق من الذهب والفضة على الأدباء والشعراء، ويشيد بإخوتها يحيى وإلى قرطبة ومحمد محرر بلنسية، ولا يشير إلى زوجها حاكم إشبيلية والأندلس بكلمة، وأغلب الظن أنه كان قد توفى منذ فترة. ولعل صوت الأعمى التطيلي اتضح لنا الآن، وبحق يقول عنه ابن بسام: «له أدب بارع، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يجارى، وذهن لا يبارى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء في ذلك بالنادر المعجز، في الطويل منه والموجز».

العتاء لهذه السيدة في تناول الأيدي ولا يكلف عناء ولا مشقة.

(١) انظر أزهار الرياض للمقرئ ٢٣٣/٢ - ٢٣٥.

(٢) القرب: سرى الليل لورد الغد يعني أن وُرِدَ

الرّصافي محمد بن غالب^(١)

وُلد محمد بن غالب في رصافة بلنسية، فنُسب إليها، وقد رزقت به أسرة متواضعة، إذ كان أبوه رفاء، وكأنما كان مولده في تلك الرصافة بشيرا بأنه سيكون من شعراء الطبيعة في الأندلس لجمالها إذ كانت - كما يقول ابن سعيد في ترجمته بالمغرب - مناظر وبساتين ومياها جارية، وفي بلنسية يقول: «خَصَّها الله بأحسن مكان، وحفها بالأنهار والجنان. وحيث خرجت من جهاتها لا تلقى إلا منازة ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة». وفي هذه الجنة الفيحاء نشأ الطفل المرفه غير أنه لم يكتب له أن تتم له نشأته فيها، إذ اضطر أبوه - فيما يبدو - لمبارحتها إلى مالقة وهو لا يزال صغيرا في نحو الثامنة أو التاسعة من عمره، مما جعله - فيما بعد - يكثر - كما قال ابن الأبار في ترجمته بالتكملة - من الحنين إليها ويقصر أكثر منظومه عليها، وفي ذلك يقول عنها:

بلادى التى ريشت قويدمتى بها فريخا وآوتنى قرارتها وكرا^(٢)
مهادى ولين العيش فى ريق الصبا أبى الله أن أنسى لها أبدا ذكرا

وطار الطفل صغيرا من وكره مع أبيه إلى عُش متواضع في مالقة، وفيها أخذ أبوه يلقنه حرفته من رَفو الملابس، وفسح له من الوقت ما مكنه من الاختلاف إلى كُتّاب لحفظ القرآن الكريم ثم الاختلاف فيما بعد إلى حلقات الشيوخ لتعلم العربية والترود من علوم الدين الخفيف ومن الأدب والشعر. وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، إذ يُروى أنه خرج مع بعض رفاقه في الدراسة إلى نزهة في مالقة، وارتجل في تلك النزهة بيتين أعجب بهما الشيخ المرافق، وتنبأ له أنه سيكون شاعر زمانه. ويقدم عبد المؤمن أمير الموحدين لزيارة الأندلس سنة ٥٥٦ للهجرة، ويُستدعى الشعراء من بلدان الأندلس لاستقباله في جبل طارق أو جبل الفتح، وكان عبد المؤمن - كما مرّ بنا أمر ببناء مدينة على سفحه، وفيها أنشده شعراء الأندلس مدائحهم فيه، ومن بينهم الرصافي، وهو لا يتجاوز عشرين ربيعا كما يقول صاحب المعجب، وقصيدته أو مدحته تصوّر شاعرية

(١) ٣٠٩/٤ وجمع د. إحسان عباس أشعاره ونشرها في دار الثقافة ببيروت باسم ديوان الرصافي البلنسي مع مقدمة عن حياته وشعره.
(٢) قويدمة الطائر: الريشات في مقدم الجناح.

(١) انظر في ترجمة الرصافي وأشعاره المغرب ٣٤٢/٢ والمعجب للمراكشي ص ٢٨٦ والإحاطة ٥٠٥/١ والتكملة لابن الأبار رقم ٧٧٢ وكتابه تحفة القادم رقم ٣٤ وابن خلكان ٤٣٢/٤ والوفاء

ناضجة، وقد تمثل فيها دعوة ابن تومرت مهديّ الموحدين وإمامهم ونهوض عبد المؤمن بها من بعده كأنها نار شبت في جانب جبل الفتح كالنار التي جاء في القرآن الكريم أنها شبت لموسى من جانب الطور الأيمن بسيناء ﴿فقال لأهله امكنوا إني أنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ وتمثل الرصافي الآيات الكريمة ومضى ينشد عبد المؤمن مفتتحا قصيدته بقوله:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور	قَبَسْتُ مَا شَتَّ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نَوْرِ
قَيْضِيَّةِ الْقَدَحِ مِنْ نَوْرِ النَّبُوءَةِ أَوْ	نُورِ الْهَدَايَةِ تَجْلُو ظِلْمَةَ الزُّورِ
مَا زَالَ يُقْضِمُهَا التَّقْوَى بِمَوْقِدِهَا	صَوَامُ هَاجِرَةٍ قَوَامُ دَيْجُورِ ^(١)
نُورُ طَوَى اللَّهِ زَنْدَ الْكُونِ مِنْهُ عَلَى	سَقَطَ إِلَى زَمَنِ الْمَهْدِيِّ مَذْخُورِ ^(٢)
حَتَّى أَضَاءَتْ مِنَ الْإِيمَانِ عَنْ قَبَسٍ	قَدْ كَانَ تَحْتَ رَمَادِ الْكُفْرِ مَكْفُورِ ^(٣)

ويشيد الرصافي بعبد المؤمن وما يحمل من دعوة المهدي إمام الموحدين ابن تومرت وأضوائها التي طبقت البلاد المغربية والأندلسية، ويصف عبور عبد المؤمن الزقاق على سفن تنهادى بين أيدي مجاذفها وكأنها تفرق في ماء الورد الأرجواني الصافي، وتسرع خائضة التيارات في الزقاق فيخال كأنها تطير بأجنحة النور الكاسرة. ويبدع الرصافي في تصويره لجبل طارق الشامخ الصاعد في عنان السماء بذراه حتى لتتوج النجوم مفرقه بأكاليلها المتألقة. ويقول إن الجبل مقيّد الخطو غير أنه جوال الخواطر يواصل الصمت والتفكير فيما جاء بالذكر الحكيم عن يوم القيامة وتسيير الجبال ودكها دكاً، ويطمئنه على غده فقد زاره عبد المؤمن. ويعود إلى الإشادة به ويهدي دعوته وبسالة جيشه، وينهى القصيدة بتمثله في جبل طارق والمهدي ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن جبل الطور وموسى وفناه يوشع قانع الجبارة الذي تأخرت له الشمس عن مغربها، وكأن عبد المؤمن يوشع جديد.

والقصيدة رائعة بل أكثر من رائعة وانتظر الشاب الرصافي أن يقدرها عبد المؤمن

السقط: شرر النار. مذكور: محبوء.

(٣) مكفور: محجوب مستور.

(١) يقضمها: يطعمها. الهاجرة: نصف النهار عند

اشتداد الحر. الديجور: الظلمة.

(٢) الزند: الحجر الأعلى الذي تقدح به النار.

وحاشيته حق قدرها فيعلن أنه الشاعر الرسمي للموحدين أو يسبق عليه ولاية صغيرة أو جاهاً، وفوجيء بأن عومل معاملة غيره من الشعراء الكثرين الذين زفوا إلى عبد المؤمن مدائحهم، فكوفئ مثلهم على قصيدته بدنانير معدودات، وتحسّر على شعره وعلى نفسه وموهبته، ورجع إلى مالقة مصحماً أن يهجر صنعة المديح إلى الأبد مكتفياً بصنعة زفو الملابس. وسكن غرناطة وقتاً وانعقدت صداقة بينه وبين شاعرها أبي جعفر بن سعيد، ويبدو أنه ألح عليه في امتداح أخيه محمد فامتدحه بقصيدة عادية، كأنه نظمها بحاملة لأبي جعفر. وفي بعض أشعاره ما يدل على أنه زار مكناسة والمسيلة في المغرب، وعاد ثانية إلى مالقة وهو مصر على أن لا يمدح أحداً، وراجع بعض الشعراء في ذلك وألح عليه، فكتب إليه يراجعه:

يقول أناسٌ لو رفعتَ قصيدةً لأدركتَ حتماً في الزمان بها أمراً
ومن دون هذا غيرةٌ جاهليةٌ وإن هي لم تلزم فقد تلزم الحرّاً

وهي ليست غيرة جاهلية، بل هي غيرة شعرية، غيرة الشاعر الحر على شعره وفنه أن يسخره في تلقى الحاكم وأن لا يكون نصيبه من ذلك إلا أجراً زهيدا تأباه النفوس الحرة الكريمة. وكان ممن عرف قدره وروعة شعره أبو جعفر الوقشي الشاعر وزير ابن هشك صهر محمد بن سعد بن مردنيش التأثير على الموحدين بمرسية وشرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٧ هـ) فأخذ يرسل إليه هدايا نفيسة، ولم ير الرصافي بدا من أن يشكره، ووالى الوقشي هداياه فشكره بقصيدة بديعة، وفيها يقول:

رجلٌ إذا عرض الرجالُ له	كثر العديدُ وأعوزَ الندُّ ^(١)
من معشرٍ نجمَ العلاءِ بهم	زُهرٌ كما يتناسقُ العقدُ ^(٢)
وكانما فاق الأنامَ بهم	نسبٌ إلى القمرين ممتدُّ
فيرى وليدُهم المنامَ على	غيرِ المجرةِ أنه سُهدٌ
هياتَ يذهبُ عنك موضعه	هطلَ الغمامُ وجلجلَ الرعدُ

وظل الرصافي بمالقة قانعا بصناعة الرفو وما يكسبه منها بعرق جبينه، وهو مع ذلك ينظم الشعر لا في المديح ولكن في الطبيعة وفي بعض مجالس اللهو والخمر مع بعض رفاقه وأصدقائه محرّماً على نفسه أن ينتجع أحداً بقصيدة أو يبتذل شعره بمدحة حاكم

لا يستحقها. ولم يتزوج وبالتالي لم يكن له أسرة ولا أبناء إلى أن توفي سنة ٥٧٢ وهو في نحو السادسة والثلاثين من عمره، وشعره - كما يقول ابن الأبار مدون بأيدي الناس متنافس فيه.

ابن زَمْرَك^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد، ولد بحى البيازين في غرناطة سنة ٧٣٣ لأسرة هاجرت إليها من شرقي الأندلس، وهى أسرة متواضعة حياتها بها غير قليل من الشظف، إذ كان أبوه حدادا، ويقول ابن الأحمر المؤرخ عنه إنه نشأ ضئيلا كالشهاب يتوقد، وحفظ القرآن الكريم سريعا، وأخذ يختلف - مثل أترابه - إلى حلقات الشيوخ ينهل من معارفهم ومحاضراتهم. ويذكرون من شيوخه في الفقه أبا سعيد بن لب وفي الحديث النبوى أبا البركات ابن الحاج وفي الأصول أبا على منصور الزواوى وفي التصوف أبا عبد الله بن مرزوق وفي العربية أبا عبد الله بن الفخار والشريف الغرناطى أبا القاسم محمد بن أحمد شارح مقصورة حازم وفي الأدب والشعر ابن الخطيب وزير الإمارة المشهور، فهو تلميذه وخريجيه وصنيعته، وعُنى به فألحقه بدواوين الإمارة وكفل له راتبا حسنا. ونراه حين خلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله عن إمارة الأندلس سنة ٧٦٠ ونفى إلى المغرب والتجأ إلى أبي سالم المربى يلتحق به في منفاه مثل أستاذه ابن الخطيب وغيره ممن رفضوا التعاون مع أخيه أبى الوليد إسماعيل مدير المؤامرة ضده، ولم يهنأ إسماعيل باستيلائه على الإمارة، إذ سرعان ما دار العام وفتك به زوج شقيقته من أبناء عمومته واستولى على صولجان الحكم وهو أبو عبد الله محمد واتخذ لقباً له الغالب بالله، وتطورت الظروف سريعا، فقتل بدوره وعاد محمد الخامس الغنى بالله إلى إمارته في جمادى الأولى سنة ٧٦٣ وعاد معه ابن زمرك كما عاد وزيره لسان الدين بن الخطيب، ونرى ابن زمرك يردد لأستاذه دائما في رسائل وقصائد ولآء له وحمده وشكره

بكتاب ضخم ساء البقية والمدرک من كلام ابن زمرك، واطلع المقرئ على هذا الكتاب، فنقل عنه ترجمة ضافية له بالجزء الثانى من كتابه أزهار الرياض وهى تشغل فى هذا الجزء من صفحة ٧ إلى صفحة ٢٠٦ وتشتمل على سيرته وكثير من أشعاره وموشحاته.

(١) انظر فى ترجمة ابن زمرك وأشعاره وموشحاته الإحاطة ٣/٢ - ٣١٤ والكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة ص ٢٨٢ ونيل الابتهاج للتنبكي (طبع فاس) ص ٢٨٢ وجذوة الاقتباس فىمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن القاضى (طبع فارس) ص ١٨٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٤/٤١٢ وخصه السلطان يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ).

على ما أنعم به عليه. وتظل الأيام تسير رخاء حتى سنة ٧٧٣ إذ يترامى إلى ابن الخطيب أن مؤامرة تدبر للقضاء عليه فيفر فجأة إلى السلطان المريني عبد العزيز بتلمسان ويحتل ابن زمرك منصبه، فيصبح الوزير الأول للسلطان الغنى بالله. ويرسل الغنى بالله إلى السلطان المريني أبا الحسن النباهي قاضى الجماعة بغرناطة ليتسلم منه ابن الخطيب متها بتهمة الإلحاد والزندقة. وأخفق القاضى فى مهمته، إذ حمى ابن الخطيب منه السلطان المرينى، غير أن حاميه لم يلبث أن توفى سنة ٧٧٤ ونقل المرينيون عاصمتهم إلى فاس، وتجددت مساعى الغنى بالله للقبض على ابن الخطيب، وأخيرا يقبض عليه فى سنة ٧٧٦ وتقدم من غرناطة لجنة لمحاكمته برياسة ابن زمرك ويمثل أمامها ويعنف به تلميذه القديم وصنيعته فى المحاكمة متها له بالزندقة والإلحاد لعبارات صوفية وردت على لسانه فى كتابه: «روضة التعريف بالحلب الشريف» ويسترسل فى توبيخه. وزُجَّ به فى غياهب السجون، ويأخذى الليالى دُسَّ إليه من قتله وأشعلت فيه النار على قبره قبل دفنه، فاسودَّت بشرته وورى التراب مأسوفا عليه لتهمة زائفة دُبِّرَتْ له كيدا آثما. ونعم ابن زمرك بوزارة الغنى بالله عشرين عاما متوالية أصبح فيها المدبر لشئون الإمارة حتى ليروى ابن الأحمر المؤرخ سفارته الموفقة للغنى بالله إلى الملوك وأنه فوَّضَ له فى عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين أى بين ملوك المغرب وملوك إسبانيا والبرتغال، ويقال إنه فوَّضه فى الصلح مع النصارى تسع مرات. ويتوفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ ويخلفه ابنه يوسف الثانى فيهبى به من حائق إلى غياهب السجون ويردُّ إليه بعد نحو عام ونصف حرّيته ويعيده إلى منصبه، وبعد أيام قليلة يتوفى ويخلفه ابنه محمد السابع فيعزله ويولى مكانه محمد بن عاصم، ثم يعيده إلى منصبه سنة ٧٩٥ وسرعان ما إقتحم حرس السلطان عليه داره وفتكوا به وبابنين له.

وإذا أغضينا النظر عن أخلاقية ابن زمرك وجحوده لفضل أستاذه ابن الخطيب والتجنى عليه لمأرب دنيوية زائلة ورجعنا إلى شعره وموشحاته ونقروها وجدناه ينزل فيها منزلا عليا من شعراء الأندلس فى مختلف عصورهم، ويذكر السلطان يوسف الثالث فى كتابه السالف: «البقية والمدرك من كلام ابن زمرك» أنه خدم جده السلطان الغنى بالله سبعا وثلاثين سنة، منها ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس وأنه أنشده فى تلك السنوات ستاوستين قصيدة أو مدحة فى ستة وستين عيدا. ويذكر أيضا أن كل ما فى منازل الغنى بالله من القصور والرياض والضياع من نظم رائق ومدح فائق منقوش فى القباب والطاقات والنياب السلطانية فهو له. وينشد المقرئ له فى كتابه أزهار الرياض عن كتاب

«البقية والمدرک» ما يقرب من عشرين قصيدة ومخمسة طويلة ونحو ثلاثين مقطوعة في مديح الغنى بالله سوى مقطوعات متعددة في مديح ابن الخطيب ولئى نعمته وسوى قصيدة في مديح أبى سالم المرىنى وقطع من قصائد للسلطان يوسف الثانى وابنه السلطان محمد وسوى ثلاث مرات في الغنى بالله ومرثية في أستاذة الشريف الغرناطى. ومن أهم مدائحه للغنى بالله يائية امتدت إلى نحو مائة وخمسين بيتا استهلها بغزل بديع شغل ثمانية وعشرين بيتا، وخرج منه إلى مديح الغنى بالله قائلا إنه الشمس يعم نفعها وضوؤها القريبَ والبعيد والغيث الذى يهطل على العفاة دائما والباسل الذى يروى غصون الرماح العطشى دماء الأعداء القانية. ثم يأخذ في وصف مبانیه في قصور الحمراء مأخوذا بروعة النقوش وترصيعاتها وزخارفها، يقول:

ولله مَبْنَاكَ الجميلُ فإنه يفوقُ على حكم السعود المبانيا
بنيتَ له كَفَّ الثريا معيذَةً ويصبحُ معتلَّ النواسم راقيا
وتَهْوَى النجومُ الزُّهْرُ لو ثبتتْ به ولمْ تكْ فى أفق السماء جواريا

وقد جعل ابن زمرك نجمة الثريا عُودَةً له وقيمة من عيون الحساد لشدة سموقه وارتفاعه، وجعل النسيم العليل فيه كأنه الرُّقِيَّةُ التى يستروحها الناس، لما يندفع فيه من مياه تجرى في قنوات مثبتة في الحوائط بجميع الغرف لتلطيف الجو. ويمضى ابن زمرك فيصور البهو الذى شاده الغنى بالله وما يتوسطه من حوض كبير من المرمر به نافورة مرمرية يحملها اثنا عشر أسدا تمج المياه من أفواهاها إلى بركة تحيط بها، ويستمر ابن زمرك في وصفه المبني الباهر وهذا البهو الرائع والنافورة قائلا:

به البَهُوُ قد حاز البهاء وقد غدا به القَصْرُ آفاقَ السماء مُبَاهِيا
به المَرْمَرُ المجلوُ قد شَفَّ نورُهُ فيَجْلُو من الظُّلَماء ما كان داجيا
وراقصةٌ فى البَهُو طَوْعَ عِنانِها تراجعُ ألحانَ القِيانِ الغَوَانِيا
إذا ما علتْ فى الجَوِّ ثم تحدَّرتْ تُحَلِّى بِمَرْفُضِ الْجُمَانِ النَّوَاصِيا^(١)
يذوبُ لُجَيْنٌ سَالَ بين جواهرٍ غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا^(٢)
تشابه جَارٍ للعيون بجامدٍ فلم أدر أيا منهما كان جاريا

وتصويره للنافورة في الأبيات الأربعة الأخيرة تصوير بديع، وخاصة البيت الأخير،

إذ لم يعد يدرى أيها السائل لجين الماء أو جواهر المرمز الناصعة البياض، ويشيد بما في البهو من زخارف بديعة ترصع أعمدته. ويلتفت إلى قاعة السفراء أو قاعة العرش البهيجة وما يعلوها من برج قمارش المصعد في السماء وينشد:

وطامحة في الجو غير مُطالِة يردُّ مداها الطُرفَ أَحْسَرَ عَانِيَا^(١)
تمدُّ لها الجوزاءُ كَفَّ مصافح ويدنو لها بَدْرُ السماء مناجيا
ولا عجبُ أن فانت الشُّهَبُ بالعلأ وأن جاوزت منها المَدَى المتناها

والأبيات السالفة جميعا لا تزال ترصع البهو إلى اليوم ومعها غيرها من نفس القصيدة امتدت على حافات النافورة وحيطان البهو وقاعة بنى سراج المتصلة به. ويصور ابن زمرك في نفس القصيدة جنة العريف القائمة في مدخل القصر، وهي من عجائب البساتين والرياض في الدنيا، وكأنما تكمل زينة القصر بل كأنما تكمل العرس البهيج الذي لا يزال قائما فيه ليل نهار بدون أهله.

ولابن زمرك خمس عشرة موشحة أكثرها في مديح الغنى بالله، وإحداها في مديح الرسول ﷺ، وجمهورها من مخلع البسيط. واشتهرت له موشحات صبحية يذكر فيها وداع صاحبه في الصباح، ولذلك أصل واضح عند الأندلسيين قبله بل عند العرب منذ عمر بن أبي ربيعة وسنعرض لذلك في حديثنا عن الغزل، ويعد ابن زمرك بدون ريب آخر الشعراء الأندلسيين المبدعين.

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربي التي رافقته - مثل المدح - من قديم، وقد ظل الشعراء يتغنون به طوال العصور الإسلامية مجسدين فيه دائما مثالياتهم الخلقية الفردية من الوفاء والمروءة والعزة والكرامة وغير ذلك من الشيم الرفيعة كما يتغنون عصبياهم القبلية والقومية وبأسهم وشجاعتهم الحربية التي يسحقون بها أعداءهم. وأول ما يسوقه الرواة من أشعار الفخر في الأندلس يضيفونه إلى الأسرة الأموية وحكامها منذ القرن

(١) أحسر: كليل.

الثاني الهجرى وخاصة على لسان الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذى استطاع بحزمه ومضائه وجلده أن يقضى قضاء مبرما على ثورة أهل الرُبض الجنوبي بقرطبة، مما جعله ينشد مبتهجا بعد تلك الواقعة^(١):

رَأَيْتُ صُدُوعَ الْأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعًا وَقَدْماً لَأَمْتُ الشُّعْبِ مَذْكَتُ يَافِعًا^(٢)
فَسَأَلْتُ تُغُورَى هَلْ بِهَا الْيَوْمَ ثَغْرَةٌ أَبَادُهَا مُسْتَنْضَى السَّيْفِ دَارِعًا^(٣)
وَشَافِيَةً عَلَى الْأَرْضِ الْفُضَاءَ جَمَاجِمَا كَأَقْحَافٍ شَرِيَانِ الْهَيْدِ لَوَامِعًا^(٤)
تُنَبِّئُكَ أَنَّى لَمْ أَكُنْ فِي قِرَاعِهِمْ بَوَانٍ وَأَنَّى كُنْتُ بِالسَّيْفِ قَارِعَا

ومع تلك الأبيات أبيات أخرى يصور فيها رباطة جأشه فى القتال وأنه لا ينكل عن الحرب ولا يتراجع حتى يذيق أعداءه الموت ناقعا. ويهتف شاب أموى متهور فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط يسمى بشر بن حبيب الملقب بدحون أنه فوق الناس جميعا من بيته وغيره وأنه سيُشعل الأرض ويُضرمها بنيران الحروب، فيزج به عبد الرحمن فى غياهب السجون ثم يعفو عنه ويرد إليه حرته.

ومرَّ بنا فى الفصل الأول كيف أن نيران فتنة هائلة بين المولدين والمسألة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أخذت تتقد فى نواح كثيرة بالأندلس لأواخر عهد الأمير محمد، وظلت لعهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وقادها فى نواحى مالقة عمر ابن حفصون وفى نواحى بطليوس عبد الرحمن الجليقى وأخذ يطير من هذه الفتنة شرر كثير إلى البيرة فى أوائل عهد الأمير عبد الله، وقاد العرب فيها يحيى بن صقاله وفتك به المولدون والنصارى، فقادهم سوار بن حمدون المحاربى القيسى، وساعده الأيمن سعيد بن جودى وكان فارسا وشاعرا مجيدا، وواقع سوار جموع النصارى والمولدين ثارًا لابن صقاله سنة ٢٧٦ وفتك بسبعة آلاف منهم، وتغنى بهذه الواقعة سعيد بن جودى مفاخرًا متوعدا ومهددا، وأخذ كثيرون من العرب من كورتى جيَّان وريَّة يتجمعون إلى سوار فى حصن غرناطة، بينما لاذ المولدون والنصارى بعمر بن حفصون، ونشبت بين الفئتين معركة اندحر فيها النصارى والمولدون من أهل البيرة، ولسعيد بن جودى فيها قصيدة

(٣) مستنضى السيف: شاهره. دارعا: لابسا درع

الحرب والنزال.

(٤) أقحاف: رموس. الهيد: الحنظل.

(١) المغرب ٤٤/١.

(٢) يقصد بصدوع الأرض انشقاقات النائر، ورأب: لأم وأصلح. والشعب: الصدع والانفراج بين جيلين. والاستعارة واضحة.

حماسية ملتهبة، وحانت بعدها للمولدين والمسالمة والنصارى غيرة من سوار ففتكوا به سنة ٢٧٧ وأمر العرب عليهم سعيد بن جودي، فقادهم سبع سنوات أنزل فيها بخصومهم هزائم كثيرة إلى أن قتل غيلة سنة ٢٨٤ وله أشعار كثيرة يجرّض فيها العرب ويفاخر ببأسه وشجاعته، وسنخصه بترجمة عما قليل. واندلعت مع المعارك الحربية لهذه الفتنة معركة شعرية^(١) نُظِم فيها شعر حماسي كثير يكتظ بالتهديد والوعيد بين شاعر للمولدين يلقب بالعَبْلَى واسمه عبد الرحمن (أو عبد الله) بن محمد وبين شاعر للعرب يسمى الأسدي محمد بن سعيد بن مخارق من أسد بني خزيم، ومن قول العبلى في إحدى قصائده يهون من العرب وجموعهم بغرناطة:

منازلهم منهم قفارٌ بلاقع تجارى السّفا فيها الرّياح الزعازع^(٢)

ومضى يهدد العرب بوقائع مبيرة تحصدهم حصدا، فردّ عليه الأسدي ناقضا لقوله، منذرا متوعدا له ولجماعته بالويل والثبور يقول:

منازلنا معمورة لا بلاقع وَقَلْعُنَا حصنٌ من الضّيم مانع
ألا فاندنوا منها قريبا بوقعة تشيب لها ولدانكم والمراضع

وإتفق أن كان للعرب عليهم بعد سبعة أيام وقعة لقي فيها سبعة عشر ألفا منهم حتفهم وصرخوا واستغاثوا بالأمير عبد الله في قرطبة، ومن مشهور قول العبلى في تلك الوقائع والحروب قصيدة حماسية استهلها بقوله:

قد انقصت قنائهم وذلّوا وزُعزعَ ركنٌ عزّهم الأذلُّ

وناقضه الأسدي بقصيدة طويلة يعيرُه هو وقومه فيها بما ينزله العرب بجموعهم من تقتيل وسفك لدمائهم، ومن قوله مفاخرا:

لواء النّصر معقود علينا بتأييد الإله فما يحلُّ

وللأسدي شعر كثير يجرّض فيه العرب على التجمع ضد خصومهم، واستطاع الأمير عبد الله أن يصلح بين الفئتين المتخاصمتين في كورة البيرة حتى إذا خلفه حفيده الناصر قضى على مثيرى هذه العصبية الجنسية في كل أنحاء الأندلس. وبذلك عادت لأهل الأندلس وحدتهم عربا ومسالمة ومولدين.

(١) انظر في أشعار هذه المعركة المقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الله.
(٢) بلاقع: مقبرة. السفا: التراب.

ومن طريف ما يُروى عن المستنصر بن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٠ هـ) أن نزاراً الفاطمي الملقب بالمستنصر صاحب مصر (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) كتب إليه كتاباً يسبّه فيه وهجوّه، فرد عليه المستنصر المرواني: «أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك:

ألسنا بنى مروان كيف تبدّلت بنا الحال أودارت علينا الدوائر
إذا وُلد المولود منا تهلّلت له الأرض واهتزّت إليه المنابر»

فأفحمه^(١) ولم يستطع الجواب. وللشاعر الطليق حفيد أخى المستنصر المرواني المسجون في عهد المنصور بن أبي عامر شعر كثير يفتخر فيه بنفسه وبآبائه، وسنفرده بكلمة. وللمنصور بن أبي عامر^(٢):

رَمِيتُ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَخَاطَرْتُ وَالْحَرُّ الْكَرِيمُ يَخَاطِرُ
رَفَعْنَا الْمَعَالَى بِالْعَوَالِي بِسَالَةٍ وَأَوْرَثْنَاها فِي الْقَدِيمِ مَعَاوِرِ^(٣)

وحكاياته في الجهاد كثيرة، ويقال إن له نيفاً وخمسين غزوة في النصارى وإنه كان لا يخلّ في أكثر أيامه بغزوتين في السنة يشنها عليهما، ومُرّ بنا في الفصل الأول حديث عنه وعن غزواته المظفرة. ولا بن شهيد^(٤):

بِالْعِلْمِ يَفْخَرُ يَوْمَ الْحَفْلِ حَامِلُهُ وَبِالْعَفَافِ غَدَاةَ الْجَمْعِ يَزْدَانُ
وَمَا أَلَانَ قَتَاتِي غَمَزُ حَادِثَةٍ وَلَا اسْتَخَفَّ بِحَلْمِي قَطُّ إِنْسَانُ
أَمْضَى عَلَى الْهَوْلِ قُدَمًا لَا يُنْهِنُهُنِي وَأَنْتَنِي لِسُفْهَى وَهُوَ غَضْبَانُ

ومضى يقول إنه لا يرد على حمق بحمق وإنه يعتصم بالصبر وكظم الغيظ ولا يتملق ولا يفوه بغير الحق، وإنه قد يبيت على الطوى حانيا الضلوع على لظى المسغبة دون تبرم أو ضيق، بل مع البشر وطلاقة الوجه. ويقول صديقه ابن^(٥) حزم:

أَنَا الشَّمْسُ فِي جَوْ الْعُلُومِ مَنِيرَةٌ وَلَكِنَّ عَيْبِي أَنْ مَطْلَعِي الْغَرْبُ
وَلَوْ أَنْتَى مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ لَجَدُّ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِي النَّهْبُ

(٤) ديوان ابن شهيد بتحقيق يعقوب زكى (طبع

القاهرة) ص ١٦٣.

(٥) الذخيرة ١/١٧٣.

(١) انظر هذه الرواية في النفح ٣/٥٥٨.

(٢) المغرب ١/٢٠٣.

(٣) العوالى: الرماح. ومعافر بفتح الميم: قبيلة

ابن أبي عامر وهى يمنية.

وهو حقاً - كان شمساً منيرة في العلوم ولم يعبه طلوع شمس من المغرب، فقد أضاءت ما بينه وبين المشرق، ولا تزال تضيء ما بينها إلى اليوم، وستفرد له حديثاً في الفصل الأخير.

وتتكاثر على ألسنة أمراء الطوائف أشعار الفخر، يفتخرون بما حققوه من مجد ويكرمهم الفياض وبأسهم وشجاعتهم وحمائتهم لإماراتهم وحسن سياستهم وتدبيرهم، ومن قول المعتضد عباد صاحب إشبيلية^(١):

أَقِمْ عَلَى الْأَيَّامِ خَيْرَ مَقَامٍ وَأَوْقَدْ فِي الْأَعْدَاءِ شَرَّ ضِرَامٍ
وَأَنْفَقْ فِي كَسْبِ الْمُحَامِدِ مُهْجَتِي وَلَوْ كَانَ فِي الذِّكْرِ الْجَمِيلِ حِمَامِي
وَأَبْلُغْ مِنْ دُنْيَايَ نَفْسِي سُؤْلَهَا وَأَضْرِبْ فِي كُلِّ الْعَلَا بِسَهَامِي

فهو يعيش لإحكام السياسة وسحق الأعداء وكسب المحامد والذكر الجميل بالغاً من دنياه كل ما يتمنى محققاً لنفسه كل ما يريد من المعالي والأمانى. وسنخص من بين هؤلاء الأمراء عبد الملك بن هذيل بكلمة. ونشعر كأن الفخر يغيب معينه بعدهم في نفوس الأندلسيين غير أنه بقيت من ذلك بقية من مثل قول^(٢) على بن أضحى الهمداني الغرناطي المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة:

نَحْنُ الْأَهْلَةُ فِي ظِلَامِ الْجِنْدِسِ حَيْثُ احْتَلَلْنَا فَهَوَ صَدْرُ الْمَجْلِسِ
إِنْ يَذْهَبُ الدَّهْرُ الْخَثُونُ بَعْرُنَا ظِلْمًا فَلَمْ يَذْهَبْ بَعْرُ الْأَنْفَسِ

والبيتان يصوران قوة نفس عزيزة صلبة تنزلق عنها تواً نحن الزمن دون أن تنال منها أى نيل. ولا بن خفاجة قصيدة يفتخر فيها بنفسه ويرفاق له في مسقط رأسه بجزيرة سُقْر يعيشون للباس والنجدة والنضال وخوض الدماء بخيلهم المحجلة إلى أعدائهم منزلين بهم صواعق الموت التي لا تبقى ولا تذر، وفيها يقول^(٣):

مَضَاءُ كَمَا سُلَّ الْحُسَامُ مِنَ الْغَمْدِ وَبَأْسُ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزُّنْدِ
تَسَاقَوْا وَمَا غَيْرُ النَّجِيعِ سُلَافَةً تَدَارُ وَلَا غَيْرُ الْأَسْنَةِ مِنْ وَرْدِ
وَإِنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرَ قَنَاتِهِمْ لِيَحْذُنَ الْعُلَا تَرْبُ النَّدَى لِدَّةِ الْمَجْدِ
أَخْوَضَ الظُّبَا تَخْضَرُ فِي النَّقْعِ بِيضُهَا فَأَلْقَى الْمَنَايَا الْحُمْرَ فِي الْحُلْلِ الرُّمْدِ

(٣) ديوان ابن خفاجة (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية) ص ٣٤٦.

(١) الحلة السرياء (تحقيق د. مؤنس) ٤٤/٢.

(٢) مغرب ١٠٨/٢.

والقصيدة تتوهج بحماسة ملتهبة، وتتكاثر فيها الصور. - على عادة ابن خفاجة في شعره - فرفاقه لا يقلّون عن السيف مضاء ولا عن شرار النار بأساودمارا، وإنهم ليتساقون المنايا حتى لكان سلافتهم وخمرهم فيها نجيع الدماء التي يسفكونها من الأعداء ولا ورد لهم سوى الأسنة الفاتكة بهم، ويقول - تواضعا - إنه ليس صدرهم، بل هو فرد منهم، ويقول إنه خذن وصديق للعلا ورفيق للندى والكرم ووليد للمجد، وإنه ليخوض معهم الحرب وقد أصاب النقع أو الغبار الطبا بغير قليل من الخضرة كما أصاب الحلل والثياب بغير قليل من الكثرة، وهو يندفع - مثلهم - إلى الأعداء، مقتحبا إليهم المنايا الحمر التي تسحقهم سحقا.

وهذه الروح العاتية التي لا تقهر، يقول الطبيب الشاطبي أبو عامر محمد بن يَنق (١) المتوفى في آخر سنة ٥٤٧هـ :

دَعْنِي أَصَادِ زَمَانِي فِي تَقْلِبِهِ	فَهَلْ سَمِعْتَ بَظْلًا غَيْرَ مُنْتَقِلِ
وَكَلِمَا رَاحَ جَهْمًا رُحْتَ مَبْتَسِمًا	كَالْبَدْرِ يَزْدَادُ إِشْرَاقًا مَعَ الطُّفْلِ
وَلَا يَرَوْعَنكَ إِطْرَاقِي لِحَادِثِي	فَاللَّيْثُ مَكْمَنُهُ فِي الْغَيْلِ لِلْغَيْلِ
وَمَا تَأْطُرُ عِطْفُ الرُّمْحِ مِنْ خَوَرٍ	فِيهِ وَلَا أَحْمَرُ صَفْحِ السِّيفِ مِنْ خَجَلِ
لَا غَرَوَ أَنْ عَطَلْتُ مِنْ حَلِيهَا هَمِي	وَهَلْ يُعِيرُ جَيْدُ الطَّبِيِّ بِالْعَطَلِ

وهو يقول دعني أصادي الزمان وأعارضه في تقلباته بي وأحداثه معي، وهل سمعت بظل ثابت في مكانه، ومهما تجهم لي ونظر إليّ مكفهراً الوجه فسأظل مبتسماً كالبدر يزداد إشراقاً مع الطفل أو الظلام الداجي، وإذا رأيتني مطرقاً إزاء حادثة ملمة فإنه إطراق الليث في غيله للوثوب على فريسته، ومهما يصبنى من أحداث فلن تتنى إرادتي، وحتى إن ظنّ أنها تتنى فهو تتنى حد الرمح شديد المضاء، وسأظل قاطعاً نافذا كالسيف تسيل على صفحته الحمراء حمرة الظفر، لا حمرة الخجل. وإن همي لأعظم من أن تتحلى بالرمح والسيوف، فهي أحد من أي سيف وأمضى من أي رمح، وإنها مجردة من تلك الحلى تجرد جيد الطبى رائع الجمال. وهو زهو ما بعده زهو وعجب لا يماثله عجب بمرءته وشخصيته ورجولته.

ونلتقى بسهل بن مالك الأزدي الغرناطي البارع في العلوم القديمة والحديثة، وكانت

قد نالته محنة في عهد ابن هود صاحب مرسية (٦٢٥ - ٦٣٥) وغُرِّبَ عن غرناطة إلى أن مات ابن هود فعاد إليها وهو يردد^(١) :

وإِنِّي مِنْ عَزْمِي وَحَزْمِي وَهَمَّتِي وَمَارِزَقَتَهُ النَّفْسُ مِنْ كَرَمِ الطَّنْعِ
لَفِي مَنْصَبٍ تَعْلُو السَّمَاءَ سِمَاتُهُ فَتَثَبْتُ نُورًا فِي كَوَاكِبِهَا السَّبْعِ
تَدْرَعْتُ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَأَجْلَبْتُ صُرُوفُ اللَّيَالِي كَي تَمْزِقَ لِي دِرْعِي^(٢)
فَمَا مَلَأْتُ قَلْبِي وَلَا قَبْضَتُ يَدِي وَلَا نَحْتَتُ أَصْلَى وَلَا هَضَرْتُ فَرْعِي^(٣)
فَإِنْ عَرَضَتْ لِي لَا يَفُوهَ بِهَا فَمِي وَإِنْ زَعَفَتْ لِي لَا يَضِيقُ لَهَا ذَرْعِي^(٤)

ونفس سهل - حقاً - كانت نفساً كبيرة لم تنكسر لما نزل به من محنة، بل ظل رابط الجأش قوياً النفس أمام صروف الدهر وهوومه إلى وفاته سنة ٦٣٩. ولا بن^(٥) جَزَى المَار ذكره المتوفى سنة ٧٨٥ :

وَكَمْ مِنْ غَادَةٍ كَالشَّمْسِ تَبْدُو فَيَسْلِي حُسْنُهَا قَلْبَ الْحَزِينِ
غَضَضْتُ الطَّرْفَ عَنْ نَظَرِي إِلَيْهَا مُحَافِظَةً عَلَى عِرْضِي وَدِينِي

وهو يفتخر بعفافه، وليوسف الثالث سلطان غرناطة فخر كثير وسنخصه بكلمة، ولم نعرض لفخر الأندلسيين بأشعارهم، وهو عندهم - كما عند المشاركة - كثير، وحسبنا الآن أن نقف عند ثلاثة من شعرائهم فسحوا للفخر في أشعارهم، وهم سعيد بن جودي وعبد الملك بن هذيل ويوسف الثالث.

سعيد^(٦) بن جودي السعدي

هو سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدي من هوازن من جند

-
- (١) الذيل والتكملة للمراكشي (بقية السفر الرابع - تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٠٣ وراجع في ترجمته التكملة رقم ٢٠٠٧ واختصار القدر المعلق ص ٦٠
(٢) أجلبت: أحدثت جلبة وصخباً، كناية عن تكاثرها
(٣) هضرت فرعى: كسرتة، كناية عن أن صروف الليالي انزاحت عنه دون أن تنال منه.
(٤) الذرع: الطفة.
(٥) أزهار الرياض ١٨٦/٣.
(٦) انظر في ترجمة سعيد بن جودي المقتبس: الجزء الخاص بالأمر عبد الله (راجع الفهرس) والحميدي ص ٢١٣ والبغية ص ٢٩٤ والحلة السيرة لابن الأبار ١٥٤/١ وما بعدها وأيضاً في ترجمة سوار بن حمدون السابقة لترجمته والمغرب ١٠٥/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٥ والإحاطة ٢٧٥/٤.

دمشق الداخلين إلى الأندلس في عهد الولاة، ولّى جده الأقرب جودى بن أسباط - كما يقول ابن حيان - الشرطة للأمير الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وصحب سعيد - كما ذكرنا منذ قليل - سوار بن حمدون المحاربى أمير عرب البيرة المنازعين للمولدين والمسألة والنصارى من أهل تلك الكورة أيام نشوب الفتنة العصبية بها لأول عهد الأمير عبد الله. وتحيز سوار بأصحابه إلى حصن غرناطة فملكه ودانت له العرب في تلك الأنحاء واتخذ سعيد بن جودى - وكان شاعراً - أهم مساعد له في حركته لشجاعته وبأسه وفروسيته، ومر بنا كيف استطاع سوار أن يأخذ ثار زعيم العرب قبله في تلك المنازعة مع المولدين وأصحابهم: يحيى بن صقال، إذ قتل منهم فيما يقال سبعة آلاف، ونرى ابن جودى يرميهم حينئذ بشواظ من شعره منشداً:

قد طلبنا بِأَرْنَا فقتلنا	منكم كل مارق وعنيد
قد قتلناكم ببحيى وما إن	كان حكم الإله بالمردود
فاصلوا حرّها وحرّ سيوف	تتلظى عليكم كالوقود
لم تزالوا تبغونها عوجاً حتّ	سى وردتم للموت شرّ ورود

ويقول إنهم قتلوا يحيى بن صقال غدرا، ويشيد بشجاعته وجوده وحلمه وتقواه ويدعو الله أن يجزيه جزاء الشهداء الأبرار. ويحشد المولدون ومن يؤيدهم من المسألة والنصارى جموعهم ويهاجمون غرناطة، فتدور عليهم الدوائر وتحصد سيوف العرب منهم اثني عشر ألفاً، ويرميهم بقصيدة ملتبية، يقول فيها:

لقيتم لنا مَلْمُومَةً مُسْتَحِرَّةً	تُحِيدُ ضِرَابَ الْهَامِ تَحْتَ الْعَوَامِلِ ^(١)
وظَلَّتْ سيوفُ الهند تَحْصُدُ جمعكم	حِصَادَ زُرُوعٍ أَيْنَعَتْ لِلْمَنَاجِلِ ^(٢)
ولم يَبْقَ منكم غيرُ عَانٍ مُصَفَّدٍ	يُقَادُ أُسِيرًا مُوثَقًا فِي السَّلَاسِلِ ^(٣)
وآخر منكم هَارِبٌ قَدْ تَضَايَقَتْ	بِهِ الْأَرْضُ يَعْذُو مِنْ جَوَى وَيَلَابِلِ ^(٤)

ولم يلبث سوار قائد هاتين المعركتين أن قُتل بحيلة دبرها المولدون سنة ٢٧٧ فأمّر العرب مكانه في زعامتهم سعيد بن جودى صاحبه، وظل يذود عنهم زياد الأبطال سبع

(١) مَلْمُومَةٌ: كتيبة، مستحرة من استحر القتل إذا اشتد. الهام: الرءوس. العوامل: الرماح.
(٢) تحصد: تقطع. أينعت: حان حصادها وقطعها.
(٣) عان: حان قطفه. المناجل: جمع منجل: آلة

لحصد الزرع
(٣) عان: أسير. مصفد: مقيد بالأغلال.
(٤) يعدو: يفر. جوى: ضيق. بلايل: وساوس.

سنوات طوال، مثيرا فيهم الحماسة والحمية لمنازلة خصومهم. ويبدو أن شعرا حماسيا كثيرا لسعيد نظمها في تلك الحروب سقط من يد الزمن، من ذلك قصيدة دالية لم يبق منها إلا هذا البيت:

وما كان إلا ساعةً ثم غودروا كمثل حصيدٍ فوق ظَهْرِ صَعِيدٍ^(١)
وله مرثية في بطل وربما رثى بها سوار بن حمدون أو بعض أصحابه من الفرسان ممن
لقوا حتفهم في تلك الحروب، وله أيضا بعض أشعار غزلية، ويقول ابن الأبار إنه يشوبها
بشجاعته على شاكلة أبي دلف قائد المأمون في غزلياته. وله في جارية تسمى جيجان
سمعها بقرطبة تغنى للأمير عبدالله في إمارة أبيه محمد، فهام بها دهرًا دون أن يراها وفيها
يقول:

سَمِعِي أَيْى أَن يَكُونُ الرُّوحُ فِي بَدَنِي فَاعْتَاضَ قَلْبِي مِنْهُ لَوْعَةَ الْحَزَنِ
أَعْطَيْتِ جِيجَانَ رُوحِي عَنْ تَذَكُّرِهَا هَذَا وَلَمْ أَرَهَا يَوْمًا وَلَمْ تَزْنِي
فَقُلْ لَجِيجَانَ يَا سُوْلَى وَيَا أَمَلِي اسْتَوْصِ خَيْرًا بِرُوحِ زَالٍ عِنْدَ بَدَنِ^(٢)
كَأَنْتِي وَاسْمُهَا وَالدَّمْعُ مَنْسَكُبٌ مِنْ مَقْلَتِي رَاهِبٌ صَلَّى إِلَى وَثْنٍ
وَمَنْ عَجَبٌ أَنْ قُتِلَ هَذَا الْفَارَسُ الْبَطْلُ غِيلَةً بِأَيْدِي بَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي شَهْرِ
ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ ٢٨٤.

عبد الملك^(٣) بن هذيل

هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل، كان أبوه هذيل بن خلف بن رزين من أكابر جند
البربر، وفي أول الفتنة بقرطبة سمت نفسه إلى اقتطاع كورة السهلة بين طليطلة
وسرقسطة، وتم له ذلك بالاتفاق مع أمراء البلدين بحسن سياسته وتديبره. ومروا بنا أنه
أول من أفرط في ثمن القينات من أمراء الطوائف وأنه اشترى قينة بثلاثة آلاف دينار
كانت أديبة تحسن الغناء مع معرفة بالطب والتشريح وعلم الطبيعة واللعب بالسيوف
والخناجر المرفقة، وابتاع لها هذيل قينات مغنيات مشهورات بالتجويد فكانت ستارته
أرفع ستائر أمراء الطوائف. والستارة عندهم تعني المسرح الذي كانت تغنى وترقص عليه

(٣) انظر في عبد الملك بن هذيل وشعره القلائد ٥١
والخريدة ١٠٩/٣ وما بعدها والحلة السراء ١٠٨/٢
والمغرب ٤٢٨/٢ وأعمال الأعلام ٢٣٨ والبيان المغرب
لابن عذاري ٣٠٩/٣ والمطرب ص ٣٩.

(١) الحصيد: الزرع المحصود أو المقطوع.
الصعيد: وجه الأرض
(٢) حذف الياء في «استوص» في خطاب جيجان
لضرورة الوزن.

القينات مع العود وغيره من آلات الطرب. وفي هذه البيئة نشأ عبد الملك نشأة فيها كثير من اللهو والعناية بالشعر، فكان طبيعياً أن تتفتح فيها ملكته. وتوفي أبوه سنة ٤٣٦ فخلفه على السهلة، ويقول الفتح بن خاقان إنه كان غيثاً في الندى، وليثاً في العدا» بينما يقول ابن الأبار إنه «كان - مع شرفه وأدبه - متعسفا على الشعراء، متعسراً بطلوبهم من ميسور العطاء» ويقول ابن بسام: «كان له طبع يدعو فيجيبه، ويرمى ثغرة الصواب عن قوسه فيصيبه». وظل على إمارة السهلة حتى تغلب على ما بيده ابن تاشفين وتوفي سنة ٤٩٦ وكانت له نجدة وفيه شجاعة، وكان يختلط بجنده ويتحجب إليهم حتى إنه كان لا يمتاز منهم في مركب ولا ملابس. وله وقائع مع النصارى مشهورة، وربما كانت مطالب هذه الوقائع من أموال للسلح وإعداد هي التي اضطرتة إلى عدم الاتساع في النوال على الشعراء لا عن شح وبخل، ولكن عن حاجة للأموال واضطرار، وقد تدل على ذلك دعوته للجود في بعض شعره قائلاً:

اهدُم بناءَ البخلِ وارْقُضْ لَهُ مَنْ هَدَمَ البخلُ بنى مَجْدَهُ
لا عاش إلا جائعاً نائِماً مَنْ عاش فى أمواله وحده

وهو يدعو على البخل الشحيح الذى يقيض يده عن العطاء للناس ولا يشركهم فى أمواله أن يعيش جائعاً نائماً أو ظامناً وبعبارة أخرى فقيراً بائساً. وكان موقفه كريماً من ابن طاهر حين سلبه ابن عمار مرسية - كما مرُّ بنا - فقد كتب إليه يسأله أن ينزل عنده وأن يقاسمه خاصّ ضياعه وأملاكه، وإن شقَّ عليه ذلك لبعد السهلة وبرد هوائها فإنه يهبه بلدة من بلدانها الجنوبية، هى شنتمرية ويقف طاعتها عليه وتصريف أمورها بيديه، ومن قوله مفاخراً:

شَاوَتْ آلَ رزِينِ غيرَ محتفلٍ وهم - على ما علمتم - أفضلُ الأممِ
قومٌ إذا سُئلوا اغْنَوْا وإنْ حَرَبُوا أَفْنَوْا وإنْ سوبقوا جازوا مَدَى الكرمِ^(١)
جادوا فما يتعاطى جودُ أنبلِهِم مَدُّ البحارِ ولا هَطَالَةُ الدِّيمِ
وما ارتقيتُ إلى العُلْيَا بلا سببٍ هيهاتَ هل أَحَدٌ يَسْعَى بلا قَدَمِ
فمن يَرْمُ جاهدا إدراكَ منزلتى فَلْيَحْكُنْ فى النَّدَى والسَّيفِ والقلمِ

ومبالغة منه مسرفة أن يقول عن أسرته من آل رزين إنها أفضل الأمم، وهو يصفهم -

(١) حربوا: طعنوا. جازوا: قطعوا وتعذوا.

ويصف نفسه معهم - بالكرم الفياض، ويقول إنه لم يرتق مصعدًا إلى ذروة العلياء إلا بجوده وبأسه وقلمه وما يدونه من جيد المنظوم والمنثور. ويقول:

أَنَا مَلِكٌ تَجَمَّعَتْ فِيَّ خَمْسٌ كُلُّهَا لِلْأَنَامِ مُخَيِّ مُمَيَّتٌ
هِيَ ذَهْنٌ وَحِكْمَةٌ وَمَضَاءٌ وَكَلَامٌ فِي وَقْتِهِ وَسَكُوتٌ

وهو يفتخر بذكائه وحكمته وشجاعته، وأنه يصمت حين ينبغي الصمت ولا يتكلم إلا حين يطلب الكلام وحينئذ يكون الكلام نافذا ماضيًا كالسهم المصمية. وروى له ابن بسام مقطوعة ذم فيها ذما شديدًا من يتناولون الناس بالسخرية والإزاء عليهم وتلبهم بينما هم في الدرك الأسفل من الدناءة والغباء، كما روى له مقطوعة ثانية يعجب فيها من رهبته أمام عيون صاحبه وما تسله من ألحاظها بينما لا يخشى السيوف في القتال ولا يرهبها، يقول:

إِذَا سَلَّتْ الْأَلْحَاطُ سَيْفًا خَشِيَّتُهُ وَفِي الْحَرْبِ لَا أَخْشَى وَلَا أُنَوِّعُ

ولعل في كل ما قدمت ما يشهد لعبد الملك بن هذيل بأنه كان على حظ غير قليل من الفضل والنبل والشيم الكريمة.

يوسف الثالث^(١)

حفيد الغنى بالله، حكم غرناطة من سنة ٨١٠ إلى سنة ٨٢٠ وترتيبه الثالث عشر بين أمرائها بنى الأحمر النصرين، وله ديوان كبير حَقَّقَهُ الأستاذ عبد الله كنون سنة ١٩٥٨ ويذكر يوسف في مقدمته التي سقطت من الديوان واحتفظ بها المقرئ في نفحه - كما جاء في مقدمة محققه - شيوخه الذين ثقف عليهم العربية والشريعة الإسلامية. ونعرف من الديوان اسم زوجته «سلمى» وله فيها غزل كثير قبل اقترانه بها، وهي ابنة عمه وأم أولاده. وتوفيت في أثناء حكمه فرناها، ومن قبلها رثى أباه السلطان يوسف الثاني، وله مراث في بعض إخوته وأبنائه. وفي الديوان إشارات كثيرة إلى منازعات ظلت طويلا بينه وبين أبي سعيد عثمان المريني صاحب فاس (٨٠٧ - ٨٢٣ هـ) بسبب جبل طارق ومن

تقديمه لديوان ابن فركون شاعره من ص ١٩ إلى ص ٩٤ والتاريخ الأندلسي لحجى ص ٥٤٨ وما بعدها ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

(١) انظر في ترجمة يوسف الثالث وشعره مقدمة الأستاذ عبد الله كنون لديوانه بتحقيقه (طبع تطوان) ودراسة د. محمد بن شريفة له ولشعره في

يكون صاحب السيادة عليه، ويظفر أخيراً به وتصفو بينها العلاقة، ويمتدحه ويمتدح قومه.
وكان نصارى الشّمال - وخاصة القشتاليين - لا يزالون مع يوسف بين مهادنة ومنازلة
وموادعة ومحاربة، وانتصر عليهم يوسف في بعض الوقائع، مما جعله ينشد مثل قوله في
قصيدة حماسية من قصائده:

راق الزمان وجاءنا ميقاتُهُ	بالضّحوة الغراء من أيامهِ ^(١)
نأتُم في حَرْب الصّليب وحزبِهِ	بشّيع كلّ موحدٍ وإمامهِ
مستأصلى بيع العداة مُهتَمي	ماصان فيها الكفر من أصنامهِ ^(٢)
والله جلّ جلاله متكفل	بالنّصر والمعهود من إنعامهِ

ويوسف يعلن أنه انتصر في ضحوة أضحى أحد الأيام على حملة الصليب، وهو يقتدى
في جهاده لهم بجهاد الرسول ﷺ للكفار. مصمماً على استئصال بيّهم أو كئناستهم وتهتيم
أو تهشيم أصنامهم مستعيناً بعون الله في نصره عليهم وسحقهم سحقاً ذريعاً. وطبيعي أن
يكتظ ديوان يوسف بحمّم كثيرة من الحماسة والفخر المضطرم من مثل قوله:

لقد علمتُ نصرُ بأنى كفيْلها	إذا هاجت الهيجاء واحمرت الأرض ^(٣)
أدافع عنهم بالصّوارم والقنا	وأحمى حماها أن يُنال لها عِرْضُ
بنا ساعة الهيجاء يَحْمى وطيسها	وتُهتك أستاذ البُعاة إذا انقضوا
إلى عِرة الأنصار تُغزى أرومتي	إلى معشرٍ في الذّكر حُبهم قرَضُ

وهو يقول إن بنى نصر من أسرته يعلمون بلاءه في الحرب وأنه حين يحمى وطيسها
أو شرارها وتسيل الدماء على أديم الأرض ويتساقط عليها القتلى صرعى يذود عن
حماهم ويدافع عنهم مستميتاً بالسيوف وبالرماح، ولا غرو فإنه ينتمى إلى رهط الأنصار
إذ أسرته من سلالة سعد بن عبادة، ومعروف أن عداده في السابقين الأولين من الأنصار.
وينشد مفاخرًا:

ألستُ سليل الصّيد من آل حِميرٍ وخير ملوك الأرض قومًا ولا فخر^(٤)

الأرض: كناية عن كثرة الدماء.

(٤) الصيد: جمع أصيد: السيد.

(١) الضحوة: الضحى.

(٢) بيع: كئناس مهتَمي: محطمي.

(٣) كفيْل: ضامن. الهيجاء: الحرب. احرار

لنا المنصبُ الأعلى على كل منصب لنا العِزَّةُ القَعَسَاءُ والغُرُرُ الغُرُّ^(١)
لنا الهَضْبَةُ الشَّاءُ ساميةُ الذَّرَى لنا الرَّايَةُ الحمراء يَهْفُو بها النَّصْرُ^(٢)
مكارمُ أُعِيَتْ كُلُّ من رام حَصْرَها وهيهاتَ ما للشَّهْبِ في أَفْقِها حَصْرُ

وهو يفتخر بأنه سليل أصحاب الحَوْل والطَّوْل من حمير، إذ أصل الأنصار من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع والعزة الوطيدة والأعمال العظيمة المشهورة والهضبة الضاربة في السماء التي لا يمكن لأحد بلوغ ذراها السامقة والراية الحمراء رمز إمارتهم وانتصاراتها الماحقة، وهي مكارم يعزُّ حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم في السماء. ووراء ما اخترناه ليوסף الثالث من أشعار في الفخر والحجاسة أشعار ذات نسيج ضعيف، وهي طبيعية ممن ينشأ مثله في الملك والترف والنعيم.

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم في الشعر العربي، ومر بنا - في كتابنا عن العصر الجاهلي - أنه كان في الأصل لعنات يصبها الأفراد على أعدائهم وأعداء قبائلهم آملين أن تنزلها بهم المقادير، وأخذ يتحول من لعنات خالصة إلى سباب وتهوين للمهجوِّين على السنة شعراء الجاهلية، ومضوا يتقاذفونه ويسلونه كما يسلون سيوفهم في حروبهم، وبقيت منه بقايا غير قليلة في الإسلام بين شعراء المدينة ومكة لعهد الرسول ﷺ، ولم يلبث أن احتدم بالعراق في العصر الأموي ونشأت عنه مناظرات هجاء حادة بين جرير والفرزدق سُميت بالنقائض. وظل التهاجي مضطربا بين الشعراء في العصر العباسي، وسقطت منه شعل كثيرة إلى الأقاليم، وبمجرد أن نشط الشعر في الأندلس لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) نشط الهجاء وأخذ شعراؤه يتكاثرون، وفي مقدمتهم يحيى الغزال، وسنخصه بكلمة، ومن هؤلاء الهجائيين المبكرين عبد الله^(٣) بن الشمر المتفن في العلوم منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط، ويذكر ابن حيان^(٤) عن قاض اسمه يُخامر بن عثمان كانت فيه غفلة أن ابن الشمر استغل ذلك يوما - وهو في مجلس القضاء - فألقى بين البطاقات التي كان ينادى بها الخصوم للتقدم إليه بطاقة مكتوبا عليها: يونس بن متى.

(١) القعساء: الوطيدة. الفرر: الأعمال العظيمة.

الأوائل في الفصل الثاني.

الفر: المشهورة.

(٤) المقتبس (تحقيق د. مكي - طبع بيروت).

(٢) الشاء: السامقة: يهفو: يخفق.

ص ٦٥ - ٦٦.

(٣) مرت مصادر ابن الشمر في الحديث عن علوم

المسيح بن مريم. وحين وقعت البطاقة في يده أمر أن يُدعى له بمن فيها، فهتف الهاتف: يونس بن متى والمسيح بن مريم وكرّر الهاتف النداء خارج مجلس القاضى ولا مجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولها من علامات الساعة! وتناول بطاقة وكتب فيها مع بيتين آخرين:

يُخامرُ ما تنفكُ تأتي بفضحة دعوت ابن متى والمسيح بن مريما
ففاك قفا جحشٍ ووجهك مظلم وعقلك ما يسوى من البعر دُرهما

فتألب الفقهاء على يُخامر وأجمعوا على ذمه والقدح فيه، وثارت به العامة لفقده حسن المعاملة ولقلة درايته. ومن الهجائين المعاصرين لابن الشمر مؤمن^(١) بن سعيد الملقب بدعبل الأندلس، وكان يهاجى ثمانية عشر شاعراً رموه عن قوس واحدة لتمزيقه أعراض الناس. وكان هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن يقربه ويجزل له النوال، وأسرتة النصارى في إحدى المواقع، فقال يخاطب أبا حفص ابن عمه وعدوه شامتا به في قصيدة طويلة:

تصبّح أبا حفص على أسر هاشم ثلاث زجاجات وخمس رواطم^(٢)
ويُح بالذى قد كنت تخفيه خفية فقد قطع الرحمن دولة هاشم

وافتدى الأمير محمد هاشما فلما عاد إلى وزارته وعلم بالقصيدة نصب لمؤمن حباتل السعاية عند أميره فحبسه، وطال حبسه حتى توفي سنة ٢٦٧. ومن كبار الهجائين في عهد الأمير عبدالله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) القلقاط^(٣) محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان يسئل لسانه على الناس جميعا حتى على الأمير عبدالله وفيه يقول:

ما يَرْتَجى العاقلُ فى مُدَّةٍ الرّجلُ فيها موضعُ الراسِ

وكان صديقا لابن عبد ربه، وبدرت منه بادرة له، فتوجّس منه شرا، وتهاجيا وأقذع كل منهما في هجاء صاحبه. وتخف حدة الهجاء لعهد عبد الرحمن الناصر،

(٢) رواطم لعلها من آنية الخمر في الأندلس.

(٣) انظر في القلقاط وشعره الزبيدى ٣٠١

والحميدى ٩١ وبغية الملتبس ١٣٤ والمغرب

١١١/١ وابن عذارى ١٩٣/٢ وإنباه الرواة

٢٣١/٣ والمقتبس الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(١) انظر في ترجمة مؤمن بن سعيد وشعره

الحميدى. ٣٣٠ والجزء السابق من المقتبس في

مواضع مختلفة (راجع الفهرس) وقضاة قرطبة

للخشنى ١٠٣ - ١٠٥ والحميدى ص ٣٣٠ وبغية

الملتبس ص ٤٥٦ والمغرب ١٣٢/١.

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) حتى إذا أمر المستنصر ابنه (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) بإراقة الخمر وتشدد في ذلك تعرضت له جماعة من الشعراء بذمه، من بينهم الرمادى: يوسف بن هرون، فأمر بسجنه حتى إذا توفى عادت إليه حريته، واشتهر له قوله في طفل حلق أهله شعره خوفاً عليه من الحسد^(١):

حلقوا رأسه ليكسوه قُبْحاً خيفةً منهم عليه وشُحاً
كان قبل الحلاق ليلاً وصُبْحاً فمَحَوْا ليله وأبقوه صُبْحاً

وغضى إلى عصر أمراء الطوائف وفيه يشتد التنافس بين الشعراء، ويشتد معه الهجاء ولو أن ابن بسام عُنى في الذخيرة بعرضه لأورد منه عشرات بل مئات من الصحف، ولكنه عاهد نفسه أن لا يعرض منه إلا القليل الأقل. وأخذ حينئذ يتخصص بعض الشعراء بنظمه، فهم لا يكادون يطرقون باباً سواه وفي مقدمتهم السُميسر وسنفرد له ترجمة وكان على شاكلته أبو تمام غالب^(٢) الملقب بالحجّام شاعر قلعة رباح غربي طليطلة وقد سقطت في حجر ألفونس السادس سنة ٤٦٧ وغالبا لا يذكر ابن بسام من يهجوهم وخاصة إذا كانوا من رجال الأندلس أو عليّة القوم، ولعل ذلك ما يجعله يختار له الأبيات العامة التي تصيب كل مذموم كقول غالب مما أنشدته صاحب الذخيرة:

صغارُ الناس أكثرهم فساداً وليس لهم لصاحبة نهوضُ
ألم ترَ فى سباع الطير سراً تسالمنّا ويؤذينا البعوضُ
وقوله:

فيا للملك ليس يرى مكاني وقد كُحِلَتْ لواحظه بنورى
كذا المسواك مطرّجاً هواناً وقد أبقي جلاءً فى الثغورِ

وأخذ يظهر من حينئذ شعراء يطوفون بمدن الأندلس، ويتغنون على كل باب يظنون منه خيراً، وقد يتعثر الخير، وقد يشعرون بشيء من الاستطالة مع الإقلال والجذب فيمن يقصدونهم، فيتركونهم إلى غيرهم ممن يحسنون بهم الظن، فيجدونهم أكثر إقلالا وإجداً، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الجوالين أبو عامر^(٣) الأصيلي، وهو كثير الذم والهجاء للناس

روايات المبرزين ص ٨٢.

(٢) انظر في أبي عامر الأصيلي وشعره الذخيرة

٨٥٧/٣ والمغرب ٤٤٤/٢ والخريدة ٣٠٨/٢.

(١) رايات المبرزين (طبعة القاهرة) ص ٧٨.

(٢) راجع في أبي تمام غالب الحجّام وشعره

الذخيرة ٨٢١/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠/٢.

بمثل قوله مما اختار له ابن بسام:

أرى الأوغادَ يَعْتَمِرُونَ دُورًا وَمَالِي فِي بِلَادِ اللَّهِ دَارُ
أَجُولُ فَلَا أَرَى إِلَّا رِعَاعًا كِبَارُهُمْ إِذْ اخْتَبَرُوا صَغَارُ

ونسبت لعهد أمراء الطوائف أكبر^(١) معركة للهجاء ضد يهود غرناطة، ذلك أن كورة البيرة كانت قد وقعت من نصيب زاوى بن زيرى الصنهاجى زمن الفتنة، فاتخذ غرناطة قاعدة له حتى سنة ٤٢٠ إذ رحل عنها إلى بلاده بإفريقية وتركها لابن أخيه حبوس بن ماكسن، واتخذ وزيره أبو القاسم بن العريف كاتباً له يهودياً يسمى إسماعيل (صمويل) ويلقب بابن النغريّة، وكان داهية خبيثاً درس بقرطبة الديانة اليهودية وكل ما اتصل ببحوثها التلمودية مع ما درس من الثقافة والآداب العربية. وتوفى حبوس سنة ٤٢٩ وخلفه باديس حتى سنة ٤٦٧ وفي عهده أصبح ابن النغريّة رئيس وزرائه أو وزيره الأول بحسن تدبيره لشئون المال، وبالع بادييس في الثقة به، بينما هو كان يعد نفسه حامياً لليهود في الأندلس، فجاءوه من كل بلد، وأخذ يعهد إليهم بكثير من وظائف الحكم والضرائب، كما أخذ يرفع مصالحهم الاقتصادية والتجارية. ودفع باديس إلى أن يعيش بين كاس وطاس لا يدري شيئاً من شئون الحكم، وبلغ من عدائه للإسلام أن كان لا يجد حرجاً من استهزائه به، وأقسم أن ينظم القرآن في أشعار، وتوفى سنة ٤٥٦ وكان قد أعدّ ابنه يوسف ليخلفه في وزارته لباديس، وسرعان ما أخذ الناس يعلنون ضيقهم به وبسيطرة اليهود على شئون الدولة من ضرائب وغير ضرائب، وأخذ غير شاعر يستثير العامة للثورة على اليهود وزعيمهم يوسف وفي مقدمتهم السُميسر وأبو الحسن يوسف بن الجدل القائل في سخط وغضب^(٢):

تَحَكَّمَتِ الْيَهُودُ عَلَى الْفُرُوجِ وَتَاهَتْ بِالْبَغَالِ وَبِالسُّرُوجِ
وَقَامَتِ دَوْلَةُ الْأَنْذَالِ فِينَا وَصَارَ الْحُكْمُ فِينَا لِلْعُلُوجِ^(٣)
فَقُلْ لِلْأَعُورِ الدَّجَالِ هَذَا زَمَانُكَ إِنْ عَزَمْتَ عَلَى الْخُرُوجِ

(١) انظر على ابن النغريّة لابن حزم (طبع القاهرة) ص ٩ - ١٨.

(٢) الذخيرة ٥٦٢/٢.

(٣) العلوج: جمع علج: اللفظ.

(١) انظر في هذه المعركة والثورة على يهود غرناطة الذخيرة ٧٦٦/٢ وما بعدها وانظر المغرب ١١٤/٢ وأعمال الأعلام ص ٢٦٤ والبيان المغرب ٢٦٤/٣ والإحاطة ٤٣٩/١ وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ وراجع مقدمة د. إحسان عباس على رسالة

وأصبح المسلمون في غرناطة، يموجون بالحنق والغيط من يوسف واليهود الذين اعتصروا طبيبات الأرض وعرق الكادحين باسم الضرائب، وقد اختلت الموازين فبعد أن كان المسلمون هم الذين يجبون الضرائب من اليهود وأهل الذمة أصبح اليهود هم الذين يجبونها، وبينما كان الناس ينتظرون شعلة لتثير بركان الثورة الكامن، إذا أبو إسحق الإلبيري الذي سنترجم له بين الزهاد يدهم بقصيدة حماسية ملتبهة، بل بالشعلة الشعرية المضطربة شواظا ونارا حامية، وإنه ليهتف في مطلعها برجال صنهاجة الحاكمين^(١):

ألا قُلْ لَصَنْهَاجَةٍ أَجْمَعِينَ	بدور النَّدِيِّ وَأُسْدِ الْعَرِينِ ^(٢)
لَقَدْ زَلَّ سَيْدُكُمْ زَلَّةً	تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامَتِينَ
تَخَيَّرَ كَاتِبُهُ كَافِرًا	وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَخَوْا	وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْذَلِينَ ^(٣)
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازُوا الْمَدَى	فَحَانَ الْهَلَاكُ وَمَا يَشْعُرُونَ

ويتساءل ألم يكن من الواجب على باديس أن يبقِيهم - كما أبقاهم حكام المسلمين قبله - باعة جوالين يحملون أخراجهم على ظهورهم في صغار وذل وهوان باحثين في المزابل عن خرق من الثياب ملوثة يتخذونها أكفانا لموتاهم. ويتجه إلى باديس مادحا مثنيا حتى يتتبه ليوسف وأعوانه وما يدبرون من الكيد له بينه وبين شعبه، وما كنزوا وبنوا من القصور الباذخة. وما يزال يستثير باديس حتى إذا ظن أنه بلغ به الغاية من الثورة على اليهود وحاميهم يوسف أفتاه - كفقيهه - بسفك دمه ودماء أعوانه من اليهود، يقول:

فَبَادِرْ إِلَى ذَبْحِهِ قُرْبَةً	وَضَحِّ بِهِ فَهُوَ كَبْشٌ ثَمِينٌ
وَلَا تَحْسَبَنَّ قَتْلَهُمْ غَدْرَةً	بَلِ الْغَدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَعْثُونَ
وَقَدْ نَكثُوا عَهْدَنَا عَنْدهم	فَكَيْفَ تُلَامُ عَلَى النَّاكِثِينَ

وأخذ سكان غرناطة يتناسخون القصيدة وينشدونها في الطرقات، وغلت نفوسهم وصمموا على الانتقام، وحانت الفرصة إذ كان يوسف قد اتفق مع المعتصم بن صاهح أن يرسل إليه جنودا إلى غرناطة أملا في أن تخلص له بعد خلوصها من باديس. وفي مساء يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة ٤٥٩ تسوّر كثيرون من الرعية قصره حين تبينت

(١) ديوان الإلبيري (طبع مدريد) ص ١٥١. وماواه.

(٢) الندى: مجلس القوم. العرين: غيل الأسد. (٣) انتخوا: تعاظموا وتكبروا.

لهم جليلة نواياه مصممين على قتله، فاخْتَبَأَ منهم في بيت فحم، فقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، ونهبوا متاجر اليهود ومنازلهم وقتلوا منهم نحو أربعة آلاف.

ومن كبار الهجائين في عصر المرابطين عبد الله^(١) بن سارة الشنتريني المتوفى سنة ٥١٧ ويقول ابن بسام عنه: «رأيت له عدة مقطوعات في الهجاء تُربى على حصى الدُّهْناء، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم» ويقول إنه أُضْرِبَ عن ذكرها إلا لمعا قليلة لمنهجه الذي اتخذ في الذخيرة، وهو أن ينحى عنها الهجاء وخاصة المفحش منه، وكان ابن سارة مقترًا عليه في الرزق، فتنقل طويلا في بلدان الأندلس، ثم استوطن إشبيلية واحترف فيها الوراقة، وفيها يقول ذامًا هاجيا:

أما الوراقة فهى أنكدُ حِرْفَةٍ أغصانها وثمارها الحرمانُ
شبهتُ صاحبها بإبرة خائطٍ تكسو العُراة وجسمها غريانُ

ويكثر في زمن المرابطين هجاء الفقهاء لما حازوا لأنفسهم فيه من مال وسلطان، وابن سارة أحد من تعرض لهم هاجيا، ومثله ابن خفاجة وابن البنى وفيهم يقول مخاطبا لهم:

أهل الرِّياء لبستم ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتمِ
فملكتم الدنيا بمذهب مالكٍ وقسمتم الأموال بآبن القاسمِ
وركبتم شهب الدواب بأشهبٍ وبأصنغ صُغت لكم فى العالمِ

وهو يتهمهم بالمرءاة وأكل الأموال بالباطل ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمتهم المصريين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس واتخذوا كتبهم مصدرا لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وأشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ وأصنغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥. ومن عنف بالفقهاء في الهجاء الأبيض^(٢) محمد بن أحمد المتوفى حول سنة ٥٢٥ وولع بهجاء الزبير المرابطى حاكم قرطبة بمثل قوله:

عكف الزُّبَيْرُ على الضلالة جاهدا ووزيرُه المشهورُ كَلْبُ النارِ
ما زال يأخذ سَجْدَةً فى سَجْدَةٍ بين الكُئُوسِ وَبِقَمَةِ الأوتارِ

(٢) راجع في ترجمة الأبيض وشعره المغرب ١٢٧/٢ وزاد المسافر ص ٦٦ ونفع الطيب ٤٨٩/٣ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة عبد الله بن سارة وشعره الذخيرة ٨٣٤/٢ والخريدة ٣١٥/٢ والقلائد ٢٦٠ والتكملة ٨١٦ والبقية رقم ٨٩٦ والمغرب ٤١٩/١ وابن خلكان ٩٣/٣ والمطرب ٧٨، ١٣٨، ٢٣٥.

فإذا اعتراه السُّهُو سَبَّحْ خَلْفَهُ صَوْتُ الْقِيَانِ وَرَنَةُ الْمَرْمَارِ

وكانت في الأبيض جراً شديدة، وأفحش في بعض هجائه للزبير فاستدعاه وقال له :
ما دعاك إلى هذا الهجاء ؟ حتى إذا أخذ يقرّعه ويوجعه باللوم قال له هازناً به : إننى لم أر
أحق بالهجو منك ولو علمت ما أنت عليه من المخازى لهجوت نفسك إنصافاً ولم تكلمها
إلى أحد. وقامت قيامة الزبير حين سمع منه ذلك وأمر بقتله، وهو حق منه ما بعده حق.
وكان معاصره اليكّى يهجو المرابطين مثله، غير انه لم يبلغ مبلغه في الإقذاع وهو من كبار
الهجائين، وسنخصه بكلمة. وكانت بين المتفلسفين أبى العلاء بن زهر وابن باجة -
بسبب المشاركة في مهنة الطب كما يقول المقرئ - ما يكون بين النار والماء، والأرض
والسما، فقال فيه ابن^(١) باجة :

يا مَلِكَ الموت وابنَ زُهرٍ جاوزتما الحدَّ والنهائِةَ
ترفقاً بالوَرَى قليلاً فى واحدٍ منكما الكِفائِةَ

وهى فى رأينا دعابة وممازحة، لا هجاء ذميم كما ظن المقرئ، مما جعله يعقّب
لأبى العلاء بن زهر ببيتين يصف فيها شخصاً بالزندقة وأنه لا بد أن يصلب والجذع
والرمح حاضران، إلا أن يكون ذلك بقصد الدعابة. ومن الهجائين المخضرمين الذين
عاشوا فى عصر المرابطين، ولحقوا عصر الموحدين الأعمى^(٢) المخزومى أبو بكر محمد،
وأُشيد له ابن سعيد فى المغرب هجاء كثيراً، من ذلك قوله فى إحدى مقطوعاته يهجو قوماً
لقوه لقاء قبيحاً :

وأنتم سَنَنْتُمْ كُلَّ مُحَدِّثٍ سُبَّةٍ ولم تتركوا فيها لحاقاً لآخر

فقد جمعوا - غير مسبوقين - كل مسبة وكل مذمة وكل قبيحة، وقطعوا الطريق فيها
على كل لاحق، حتى استحقوا لعنة تزرى سوءاً وعاراً بلغعات كل من فى المقابر
كما يقول. ولم يسلم أحد من هجائه حتى تلميذته الشاعرة نزهون^(٣) - وكانت من بيت
فضل وعلم - هجاها قائلاً :

ألا قُلْ لَنَزْهُونَةٍ مالها تجرُّ من التَّيِّهِ أذيالها

المغرب ٢٢٨/١ والإحاطة ٤٢٤/١ ٢١٦/٣.

(٣) تأتى فى الفصل التالى مراجع نزهون.

(١) نفح ٤٣٤/٣ وما بعدها.

(٢) انظر فى ترجمة الأعمى المخزومى وشعره.

فردت عليه بهجاء موجه أخرسه. وكما هجا تلميذته التي كانت حرية بكل ثناء على الأقل لخصب ملكتها الشعرية هجا ابناً له بقوله:

الحقُّ أبلغُ لستَ أنتَ وحقٌّ مَنْ أحيا بكِ الأجلَّافَ مِنْ يَفْلُحُ^(١)
لا تهتدى بفضيلةٍ لا ترعوى بملامةٍ لا أنتَ ممن يَصْلَحُ
يزدادُ عقلك ما كبرتَ تناقصاً وتلجُ في صَمٍّ إذا ما تُتَصَحُّ^(٢)

وبدلاً من أن يتعاطف مع ابنه فلذة كبده ويصوغ له النصح برفق يحرج مشاعره بهذه السهام المصمية. ويقول ابن سعيد عنه في مطلع ترجمته نقلاً عن الحجاري: «بشار الأندلس انطباعاً ولسناً وأداة، وهو الذي أحيا سيرة الخطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد». ويروى ابن سعيد أن جده عبد الملك كان يره ويكرمه وأنه قصده مرة فأنزله في دار تلطفاً، وقال للغلام له: أسأل في الموضع الذي نزل فيه المخزومي متى يرحل وكان يريد أن يرسل إليه حين يهم بالرحيل زادا وينظر له في دابة تحمله، وأساء الغلام الطريقة إذ ضرب على المخزومي فخرج إليه، فقال له: يقول لك صاحبك متى ترحل؟ فقال له انتظر حتى أكتب لك الجواب وكتب له أبياتاً منها:

لا ترجونُ بني سعيدٍ للنَّدَى فالظُلُّ أقيدُ منهمُ للسَّائِلِ
قومٌ مصيبتُهُم بطَّلعةٍ وافِدٍ وسرورُهُم أبداً بخيبةٍ راحِلِ

ومن كبار الهجائيين في عصر الموحدين على بن حزمون وسنفرد له ترجمة، وكان يعاصره محمد^(٣) بن الصفار الأعمى القرطبي المتوفى سنة ٦٣٩ وكان قد أخذ نفسه بالوقوع في الأعراض، وكان لا يزال يتناول أعراض الأمراء ووجوه القوم، ويروى ابن سعيد أنه لما قال أبو زيد الفازازي كاتب أبي العلاء المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) ابن يعقوب المنصور قصيدته التي أولها: «الحزم والعزم منسوبان للعرب» يشير بذلك إلى أنصاره من عرب جشم ناقضه ابن الصفار بقصيدة في مديح يحيى بن الناصر الموحدى أخى المأمون مخاصمه على إمارة الموحدين، أشار فيها إلى عمه المأمون هاجياً له بقوله:

وإن يَنازِعكَ في المنصورِ ذو نسبٍ فَنَجَلُ نوحٍ ثَوَى في قِسْمَةِ العَطَبِ
وإن يَقُلْ أنا عَمُّ فالجوابُ له عَمُّ النَبِيِّ بلا شكٍّ أبولَهَبِ

المغرب ١١٧/١ واختصار القدح المعلى ص ٢٠٣
والتكملة ص ٣١٣.

(١) أبلغ: مضىء.

(٢) تلج: تنمادى.

(٣) انظر في ترجمة ابن الصفار الأعمى وشعره

وشاعت القصيدة وبلغت المأمون فحرّض على قتله، وفرَّ ابن الصفار إلى أبي زكريا بن عبد الواحد أمير تونس وأجرى عليه راتباً شهرياً إلى أن بارح ديناه. ويظل شرر الهجاء يتطاير في إمارة بني الأحمر، ويكثر الشعراء حينئذ من ذم الزمان والناس، على نحو ما يلقانا عند البسّطي محمد بن عبد الكريم القيسي بأخرة من زمن تلك الإمارة، وقد صبَّ كثيراً من هجائه على القضاة والمشرّفين على الأحباس، ومن هجائه لقاضي بلدته^(١):

تَبّاً لِقَاضِي بَسْطَةَ ابْنِ مَفْضُلٍ تَبّاً لَهُ فِيهِ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي
إِذْ غَيَّرَ الْأَحْكَامَ عَمَّا أَصْلَتْ تَغْيِيرَ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مُعْتَدِي

وحرى بنا أن نتوقف قليلاً بإزاء أربعة من كبار الهجائيين في الأندلس على مر عصورها هم يحيى الغزال والسُّمَيْسِر واليَكِّي وعلى بن حَزْمُون.

يحيى^(٢) الغزال

هو يحيى بن الحكم البكري الجبّاني المعروف باسم الغزال، وُلد حوالي سنة ١٥٦ للهجرة وتوفي حوالي سنة ٢٥٠ وإذا صحَّ ذلك يكون قد عاش أكثر من تسعين سنة، ويؤكد ذلك ما ذكره في أرجوزته التاريخية من قوله:

أَدْرَكْتُ بِالْمِصْرِ مَلُوكًا أَرْبَعَةً وَخَامِسًا هَذَا الَّذِي نَحْنُ مَعَهُ

فهو قد أدرك زمن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ وابنه هشام وحفيده الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، وكان جميل الصورة لذلك لُقِبَ بالغزال وهو ممن رحلوا إلى المشرق وأفادوا منه أدباً وعلماً. ويبدو أنه كان يتولى أحياناً بعض أعمال للدولة وخاصة في زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، إذ تولى له قبض الأعشار من المحاصيل وخزنها، ويقال إن سعرها ارتفع في بعض الأعوام فباع كل ما لديه من مخزون، وغضب الأمير حين علم بصنيعه لأنها كانت معدة للجند، وأمره أن يرد ثمنها ويشتري

٦٤ - ٦٥، ٦٩، ٧٠، ١٣٤ والحميدى رقم ٨٨٧
والبغية للضبي رقم ١٤٦٧ والمغرب ٥٧/٢
والمغرب ص ١٣٣ وما بعدها والبيان لابن عذاري
٩٣/٢ والنفع ٢٥٤/٢ واليتيمة للتمالي ٥٦/٢
وكتاب القضاة للخشى ص ٨٣. ونشر ديوانه
د. محمد رضوان الداية بدار قتيبة.

(١) انظر كتاب البسّطي آخر شعراء الأندلس
للدكتور محمد بن شريفة (طبع بيروت)
ص ١٩٤.

(٢) راجع في ترجمة يحيى الغزال المقتبس:
الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد
(تحقيق د. مكي - طبع بيروت) ص ١١ - ١٣،

للدولة منها حاجتها وكان السعر قد هبط، فرأى أن يكتفى برد ما يماثلها من الطعام دون رد المال جميعه، فأمر عبد الرحمن بسجنه. وكان شاعرا فذا فاستعطفه ببعض منظومه أو بعبارة أدق بقصيدة من قصائده فعفا عنه. وكان الأمير عبد الرحمن يعجب به، ولذلك نراه يكلفه بسفارتين سفارة لتيوفيل ملك بيزنطة، ولنجاحه فيها كلفه بعد القضاء على غارة النورمان الدانماركيين بغربي الأندلس سنة ٢٢٩ بسفارة ثانية إلى ملكهم، ونجح فيها كما نجح في السفارة الأولى وعاد بذخائر ملوكية.

ويبدو من مدائح الغزال للأمراء الأمويين ولشغله لبعض الوظائف ولسفارته المتكررة للأمير عبد الرحمن الأوسط أنه عاش في غير قليل من لين العيش وأنه كان في أكثر حياته - إن لم يكن فيها جميعا - على حظ غير قليل من اليسر والرخاء وسعة ذات اليد، ولذلك نعجب أن نجد نفسه مطوية على غير قليل من المראה مما دفعه إلى أن يكثر من الهجاء، فهو يهجو المرأة ويرميها بعدم الوفاء، ويهجو زرياب في أول قدومه على قرطبة، ويهجو الناس جميعا حاكمين ومحكومين، يقول:

ما أرى هاهنا من الناس إلا ثعلبًا يطلبُ الدجاجةَ وذبيبا
أو شبيهاً بالقِطِّ ألقى بعينيه ه إلى فأرةٍ يريدُ الوثوبا

فالناس بين ثعلب ماكر وذئب مفترس وقطٌّ ينتظر فرصة من فأرة، وجميعهم متحفز للوثوب والتقاط صيد ثمين ما وسعهم الصيد. ومن أهم من سلط عليه سهام هجائه قاضى الجماعة بقرطبة يُخامر بن عثمان الجذامي الجياني موطنه، ولأه عبد الرحمن قضاء الجماعة سنة ٢٢٠ فأكثر من هجوه وذمه ووصفه بالجهل والبله مع السخرية المرة منه ومن أحكامه، كقوله في شعر استهله باعتذاره لشخص كلفه عملا لا يحسن أداءه على نحو ما كلف القاضى يخامر بالقضاء وهو لا يحسنه:

فقلتُ له كلفتنى غيرَ صنعتي كما قلّدا فضلَ القضاءِ يُخامرا
وقلتُ لو استعفيتَ منه فقال لي سأفضحُ ما قد كان منك مُغائرا
فقلتُ له: رأسُ الفُضوحِ إقامةُ علينا كذا من غيرِ عِلْمٍ مُكابرا
وخبْطُك في دينِ الإلهِ على عَمَى خِباطةَ سكرانٍ تكلمَ سادِرا^(١)
فلنَ يحْمِلَ الصُّخْرَ الذُّبابُ ولن ترى الـ سَلاحِفَ يُزجِنُ السِّفِينِ مَواخِرا^(٢)

وهو هجاء مقذع ليخامر إذ يصفه بأنه يخطط في قضائه وأحكامه على الناس خبط أعمى لا يبصر، بل خبط سكران فقد عقله ورشده، ويمثله في حمله للقضاء ومهمته الثقيلة التي لا يؤتاها إلا أولو العزم بذياب يُطلب إليه أن يحمل صخرا ضخما وبسلاحف يطلب إليها أن تدفع سفنا تشق مياه البحار شقا. وما يزال يهون منه ويزرى به حتى عزله الأمير عبد الرحمن عن القضاء. وكان نصر الصقلي الحصى تمكن من الأمير عبد الرحمن غاية التمكن وكان ذلك يؤدى الغزال وكثيرين غيره من الحاشية وكان نصر يسكن بالقرب من مقابر قرطبة، فقال يتوعده عذاب الله وجحيمه على ما قدمت يداه:

أيا لا هيا في القصر قرب المقابر يرى كل يوم واردا غير صادر
تراهم فتلهو بالشراب وبعض ما تلذ به من نقر تلك المزاهر^(١)
سترحل عن هذا وإنك قادم - وما أنت في شك - على غير غافر

وكان الأمير عبد الرحمن ولّى ابنه عبد الله من حظيته طروب ولاية العهد، وأخذ في سنة ٢٣٦ يفكر في صرفها عنه إلى أخيه محمد لاستهتاره وانهماكه في اللذات، فأغرت طروب نصرا أن يسقيه شربة سم حتى يعجله الموت عن تنفيذ فكرته، وصدع نصر لمشيئتها، ونبه الأمير عبد الرحمن إلى ذلك، فشكا وعكة في معدته، فأحضر له دواء، فأمره بشربه، ولم يستطع أن يعصى له أمرا، فشربه، ومات، فقال الغزال ملقبا له بأبى الفتح ومتشفيا فيه من قصيدة طويلة:

أغنى أبا الفتح عما كان يأمله حُفَيْرَةُ حُفِرَتْ بين المقابر
فصار فيها كأشقى العالمين وإن لُفُوهُ بالتفح في مسك وكافور

وأمر عبد الرحمن بإنزال زرياب مغنيه في قصر نصر بعد موته، فنظم الغزال قصيدة يذكر فيها تقلب الدنيا بأهلها وأن نصرا قد ترك قصره إلى مسكن ليس عليه حجاب سوى التراب، ولم يأخذ معه من كل ما جمعه سوى كفته أو كما يقول سوى ثلاثة أثواب. ولعل فيما أسلفنا ما يدل بوضوح على أن الغزال كان صاعقة من صواعق الهجاء المقذع الموجه في زمنه.

السَّمِيسِرُ (١)

هو خلف بن فرج الإلبيري، من أعلام الشعراء في زمن أمراء الطوائف، اشتهر بالشعر وخاصة إذا هجا وقذح، وكأنما تخصص بالقدح والهجو في أهل زمنه، حتى ليكتب في هجائهم كتابا في مجلدات سماه «شفاء الأمراض في أخذ الأعراض». وكانت كورته إلبيرة وعاصمتها غرناطة بيد الأمير عبد الله بن بلقين الصنهاجي منذ سنة ٤٦٧ وكان السمسير ينظر حوله، فيجد أمراء الطوائف غارقين في ملاهيهم بين الكاس والطاس متنابذين متخاصمين، بينما أفواه ألفونس وملوك النصارى فاغرة تريد أن تلتقم بلدانهم، وإنهم ليرهبونهم حتى ليدفعون لهم الإتاوات، مما جعله يهتف بهم قائلا:

نادِ الملوكَ وقلْ لهم	ماذا الذي أحدثتم
أسلمتمُ الإسلامَ في	أسرِ العدا وَقَعَدْتُمْ
وَجَبَ الْقِيَامُ عَلَيْكُمْ	إِذْ بِالنَّصَارَى قِمْتُمْ
لا تنكروا شَقَّ الْعَصَا	فَعَصَا النَّبِيُّ شَقَقْتُمْ

فهو يدعو أهل الأندلس إلى الثورة - أو إلى القيام كما يقول - على أمرائهم الذين أحدثوا أحداثا منكرة مسلمين أموال البلاد إلى العدو، واضعين أيديهم في يده، بل إنهم لَيَسْتَعْدُونَ به بعضهم على بعض متخذين منه العون والنصير في حكم إماراتهم، شاقين بذلك عصا الإسلام ورسوله. ويهتف بأمر غرناطة وقبيلته صنهاجة أن يتداركوا الأمر، ولكن لا حياة لمن ينادي، فعبد الله بن بلقين غارق في تشييد قلعة يتحصن بها عند نزول كارثة فيقول فيه ساخرا:

يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهًا كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ

فهو - في رأيه - كدودة القز لا تزال تنسج حولها معقلا لها وهو ليس معقلا بل عقلا تلفه حولها وتموت فيه، ويكرر هتافه بالأمر وقبيلته، ولا سميع ولا مجيب، فيهجو صنهاجة والبرابر جميعا بمثل قوله:

١٦٧/٢ والمطرب لابن دحية ص ٩٣ والمغرب

١٠٠/٢

(١) انظر في ترجمة السمسير وشعره الذخيرة

٨٨٢/١ وما بعدها، ونفح الطيب ٢٢٧/٣، ٢٩١،

٤١٢، ١٠٨/٤ والحميدى ص ١٩٣ والخريدة

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ أبا البرية إنَّ الناسَ قد حكموا
أنَّ البرابرَ نَسْلُكَ مِنْكَ قَالَ إِذْنُ حَوَاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا

ولما كثر منه مثل هذا الهجاء الموجع المؤلم توعده الأمير عبد الله بسفك دمه، ففر إلى المعتصم بن ضُباح أمير المروية مستجيرا به، فأجاره، وأقام عنده حتى استولى المرابطون على إمارته سنة ٤٨٤. وكان السمسير سيئ الظن بالناس سوءا شديدا، حتى لينشد:

رَأَيْتُ بَنِي آدَمَ لَيْسَ فِي جَمُوعِهِمْ مِنْهُ إِلَّا الصُّورُ
وَلَمَّا رَأَيْتُ جَمِيعَ الْأَنْعَامِ كَذَلِكَ صِرْتُ كَطَيْرٍ حَذَرُ
فَهُمَا بَدَأَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ أَقُولُ أَعُوذُ بِرَبِّ الْبَشَرِ

فقد أصبح من الناس جميعا مثل طير حذر لا يزال يتلفت يمينا ويسارا خشية أن يقع في شبكة من شباكههم رصدوها له، وإنه ليستعيز منهم ومن شرهم بربه لاجئا إليه ضارعا. وعلى شاكلة ظنه السيئ بالناس ظنه بأهل صنعته من الشعراء إذ يقول فيهم:

أَنَا أَحَبُّ الشَّعْرِ لَكُنْتَنِي أَبْغَضُ أَهْلَ الشَّعْرِ بِالْفِطْرَةِ
فَلَسْتُ تَلْقِي رَجُلًا شَاعِرًا إِلَّا فِيهِ خَلَّةٌ تُكْرَهُ
وَالْعُجْبُ وَالنُّوْكَ إِلَى الْجَهْلِ فِي أَكْثَرِهِمْ إِلَّا مَعَ النُّذْرَةِ

وطبعي أن يعجب كل شاعر بشعره، أما النوك أو الحمق وكذلك الجهل اللذان يسجلهما على أكثرهم فمبالغ في وصفهم بهما. ويعلن مرارا أنه هجر اللذات، ويبدو أنه هجرها بأخرة من حياته، مما جعله يكثر من أشعار طريفة في الزهد والقناعة والحياة والموت.

الْيَكِّيُّ (١)

هو أبو بكر يحيى بن سهل اليكبي من قرية يَكَّةَ شمالي مُرْسِيَّةَ، قال فيه الحجارى: «هو ابن رومي عصرنا وحُطِيئَةُ دهرنا، لا تحيد قريحته إلا في الهجاء، ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء» عاش في زمن المرابطين ولحق دولة الموحدين إلى أن توفي حوالي سنة ٥٦٠

٣/٥٨٠ والضي في البغية ص ١٨٨.

(١) انظر في ترجمة اليكبي وشعره زاد المسافر لصفوان ص ٧٧ والمغرب ٢/٢٦٦ والخريدة

وكان المرابطون يضعون اللثام على وجوههم، ولذلك سموا المثلثين، ونراه يعلل لاتخاذهم اللثام بمثل قوله:

لَمَّا حَوَّوْا إِحْرَازَ كُلِّ فُضِيلَةٍ غَلَبَ الْحِيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلَثَّمُوا

في مدحة بلغ بها غاية رضاهم، ثم عاد إليه طبعه وما فُطر عليه من الهجاء المقذع، فهجأهم وقذح في أخلاقهم ولثامهم رامية لهم بالدناءة ونقص العفاف قائلا:

فِي كُلِّ مَنْ رُبِطَ اللَّثَامُ دَنَاءَةً وَلَوْ أَنَّهُ يَعْلُو عَلَى كَيَّوَانٍ^(١)
لَا تَطْلُبُنَّ مُرَابِطًا ذَا عَفَّةٍ وَاطْلُبْ شِعَاعَ النَّارِ فِي الْغُدْرَانِ

وفي نفس هذه المقطوعة ومقطوعة ثانية ما هو أكثر بذاءة، وكأنه نسي - كأندلسي - أن المثلثين هم الذين أنقذوا الأندلس من وقوعها في براثن النصارى الشاليين، ولم تكن موقعتهم المظفرة بالزلاقة التي سحقوهم فيها سحقا ببعيدة. وربما هجأهم بعد زوال دولتهم وقيام دولة الموحيدين، غير أن ذلك لا يشفع - إن صح - له. وعلى شاكلته هجاؤه لأهل فاس بعد أن أكرموه بمثل قوله:

يَا أَهْلَ فَاسٍ لَقَدْ سَاءَتْ ضَمَائِرُكُمْ فَأَصْبَحْتُ فِيكُمْ الْآرَاءُ مَتَّفِقَةً
وَرَبِمَا اجْتَمَعَتْ فِي بَعْضِ سَادَتِكُمْ نَقَائِصُ أَصْبَحَتْ فِي النَّاسِ مُفْتَرَقَةً

ويتبادى في البذاءة بهذه المقطوعة ومقطوعات أخرى، وكأنما يحصى عيوب نفسه، وبالمثل ما أحصاه من خصال عشرة ذميمة للفقير وزوجته، وما وصم به قاضي بلده: مرسية من جوره وأكله أموال اليتامى وأموال المساجد سرقة وغصبا، يقول:

يَطَالِبُهُ الْآيَتَامُ فِي جُلٍّ مَالِهِمْ وَيَطْلُبُهُ فِي حَقِّهِ كُلُّ مَسْجِدٍ^(٢)

والهجاء حين ينزل إلى هذا الدرك أو إلى هذا المنحدر لا يصبح من الفن والشعر في شيء، إذ يصبح سبًا وقذفا مذموما. وربما كان أخف ما هجا به أهل فاس قوله:

قَصَدْتُ جِلَّةَ فَاسٍ أَسْتَرْزِقُ اللَّهَ فِيهِمْ^(٣)
فَمَا تَيْسَّرَ مِنْهُمْ دَفَعْتُهُ لِبَنِيهِمْ

(٢) جل: معظم.

(٣) جلة: أجلاء.

(١) كيوان: كوكب زحل وهو كوكب نحس

وشؤم.

وإنما نقول إنه هجاء خفيف لأن فيه شيئاً من الدعاية، إذ يقول إن ما يأخذه منهم من النوال بيمينه يدفعه لأبنائهم بيساره. ومن هجائه المقذع اللاذع قوله في بعض مهجويته:

أَعِدِ الوضوءَ إذا نطقتَ به متذكِّراً من قبل أن تُنسى
واحفظْ ثيابك إن مررت به فالظل منه ينجس الشُّمساً

وكانه يصفه بدنس لا يماثله دنس وقذارة لا تشبهها قذارة، وهو غلو في الإقذاع والإيلام. وفي أهاجيه فحش كثير. وتردد ابن سعيد في المغرب في نسبة موشح له وقال إنه لابن المربني ويروى لليكي مما يدل على أنه شارك في نظم الموشحات.

على^(١) بن حزمون

هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن حزمون، من المريّة، يقول فيه ابن سعيد: «صاعقة من صواعق الهجاء» ويقول ابن عبد الملك المراكشي: «كان شاعراً مفلقاً ذا كرا للأدب والتواريخ أحد بواقع^(٢) الدهر، بذىء اللسان مقذع الأهاجي». ومربنا في حديثنا عن شعراء المديح أنه كان أحد من مدحوا المنصور يعقوب الموحدي بعد قفوله من غزوة الأرك المظفرة سنة ٥٩١ وقد وقعت قصيدته من المنصور موقع استحسان، وأنشدنا منها قطعة هناك، ويذكر ابن عبد الملك المراكشي أنه وفد على المستنصر الموحدي (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) بمراكش مادحاً له ومتظلاً من واليه المجريطي على مرسية لضربه بالسياط لما بلغه من هجائه له، وتبرأ للمستنصر مما نسب إليه من ذلك، فأمر بتمكينه من الوالي وتحكيمه فيه حتى ينتصف منه، غير أن ابن حزمون لم يكد يصل إلى الأندلس حتى توفي المستنصر فلم يتم له أمله من القصاص من الوالي واشتد أسفه. ويبدو أنه عاش فترة غير قصيرة بعد وفاة المستنصر. وله مراثية رائعة لقائد الأعنة برسية سنعرض لها في غير هذا الموضع، وجره هجاؤه إلى التعرض لأحد قواد الأندلس، واسمه محمد بن عيسى، بهجاء لاذع، زاعماً أنه فرّ في إحدى المواقع مع النصارى قائلاً:

يودُّ بأن لو كان في بطن أمه جنيناً ولم يسمع حديثاً عن الغزو

٢١٤/٢ وما بعدها وأزهار الرياض ٢١١/٢.

(٢) بواقع جمع باقعة: داهية.

(١) انظر في ترجمة ابن حزمون وشعره المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها وزاد المسافر ص ٦٤ والمغرب

ثَقِيلٌ وَلَكِنْ عَقْلُهُ مِثْلُ رِيْشَةٍ تَطِيرُ بِهَا الْأَرْوَاحُ فِي مَهْمِهِ دَوٌّ^(١)
 تَمِيلُ بِشِدْقِيهِ إِلَى الْأَرْضِ لِحَيَّةٍ تَظُنُّ بِهَا مَاءٌ يَفْرُغُ مِنْ دَلْوٍ
 وَقَدْ حَدَّثُوا عَنْهُ بِكُلِّ نَقِصَةٍ وَلَكِنْ مِثْلِي لَا يَرَوِي وَلَا يَرَوِي

وهو تجنَّ على هذا القائد الذي كان مشهوراً في قومه بالشجاعة والنجدة، ويبدو أنه بدر منه ما أسخطه عليه، فمضى يصفه بالجبين، وهو يرى منه، وبثقل الروح وخفة العقل وضخم اللحية التي لا تزال تميل بشدقيه السائلين إلى الأرض. وهي مبالغة في هجاء مقذع كان حرياً به أن ينحيه عن مثل هذا الفارس الشجاع. وحين وفد على المستنصر رأى أن يلتقى بالوزير الموحدى أبي سعيد بن جامع، فقصد داره وكان لها بابان، فوقف بأحدهما ينتظر لقاءه، فقبل له إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد:

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ بَيْنٍ وَمِنْ وَقُوفٍ عَلَى دَارِ بَيَّابِينَ
 وَمِنْ زِيَارَةِ أَرْبَابٍ بِلَا عَدَدٍ لَا يَمْلِكُونَ حَيَاتِي لَا وَلَا حَيَاتِي^(٢)
 إِنِّي وَجَدْتُهُمْ لَمَّا رَجَوْتُهُمْ كَالرَّيْحِ تَطْلُبُهَا مَا بَيْنَ كَفَيْنِ

وكان أبو سعيد بن جامع أديباً وغيثاً مدراراً وممدحاً للشعراء، ولكنها نزعته الهجاء في ابن حزمون إذ جعلته يهجو متسرعاً لأول بادرة ممن يستحقون منه المديح والإطراء. وبلغ من تعلقه بهذا الفن أن هجا نفسه، وكأنما أراد أن يقتصَّ منها لكل من رماه بسهام هجائه، فقال:

تَأَمَّلْتُ فِي الْمَرْأَةِ وَجْهِي فَخَلَّتُهُ كَوَجْهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهِوِ
 إِذَا شِئْتُ أَنْ تَهْجُو تَأَمَّلْ خَلِيقَتِي فَإِنَّ بِهَا مَا قَدْ أَرَدْتُ مِنَ الْهَجْوِ
 كَأَنَّ عَلَى الْأَزْوَارِ مِنِّي عَوْرَةً تَنَادَى الْوَرَى غُضُّوا وَلَا تَنْظُرُوا نَحْوِي
 فَلَوْ كُنْتُ مِمَّا تَنْبُتُ الْأَرْضُ لَمْ أَكُنْ مِنَ الرَّائِقِ الْبَاهِي وَلَا الطَّيِّبِ الْحَلْوِ

وفي الحق أنه كانت في ابن حزمون مرارة كثيرة، وربما كانت هي التي دفعته إلى أن يسلك طريقة ابن حجاج البغدادي الماجنة المفحشة في كثير من شعره، وكان وشاحاً مجيداً ودفعته نزعته الماجنة إلى أن لا يدع موشحة تجرى على ألسنة الناس - كما يقول صاحب المعجب - إلا نظم في عروضها وروها موشحة ماجنة مكثراً فيها من الفحش. وينهى المراكشي حديثه عنه بقوله: «ونال ابن حزمون عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاهاً وثروة خوفاً من لسانه» وبعبارة أخرى خوفاً من هجائه البذيء المقذع.

(١) الأرواح: الرياح. مهمه: مفازة. دَوٌّ: واسع.

(٢) حيني: هلاكي وموتى.

الشعراء والشعر التعليمي

ذكرنا في كتاب العصر^(١) العباسي الأول أن رقى الحياة العقلية في هذا العصر دفع الشعراء إلى استحداث فن الشعر التعليمي، وكان من أوائل السابقين إليه أبا ن بن عبد الحميد فترجم كتاب كليله ودمنة عن الفارسية إلى العربية في ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المؤلف من وزن الرجز، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت بينما تتحد في الشطرين المتقابلين. وبجانب ترجمته لكليله ودمنة في هذا الفن الجديد نظم مزدوجات طويلة في تاريخ ملوك الفرس وفي الفقه وأحكام الصوم والزكاة. ومن نظم في هذا الفن الجديد محمد بن إبراهيم الفزاري، إذ نظم في علم الفلك مزدوجة طويلة استغرقت عشرة مجلدات، ونظم الأصمعي فيه قصيدة في ذكر الملوك والجبابة الهالكين والأمم البائدة، وكان بشر بن المعتمر يكثر من النظم في هذا الفن التعليمي، وساق الجاحظ له فيه بكتابه الحيوان قصيدتين طويلتين تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوان، ولعل بن الجهم منظومة تاريخية تحدث فيها عن بدء الخليقة والأنبياء والإسلام والخلفاء حتى سنة ٢٤٨ للهجرة.

ومن أوائل شعراء الأندلس الذين حاكوا العباسيين في هذا الفن الجديد - إن لم يكن أولهم السابق إليه - الشاعر يحيى الغزال الذي مرت ترجمته بين شعراء الهجاء، إذ نظم في فتح الأندلس أرجوزة طويلة ذكر فيها السبب في غزوها وتفصيل الوقائع بين الفاتحين من المسلمين وأهلها وعدد أمرائها وأسائها مستقصيا محسنا^(٢). وثلثي بعده بتمام بن عامر وزير الأمير محمد وابنيه المنذر ثم عبدالله إلى أن توفي في حدود سنة ٢٨٠ ويقول ابن الأبار: له الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولائها والأمراء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم^(٣)، ويقول ابن حيان إنها تشتمل على كتاب ضخمة^(٤) وفي ذلك ما يؤكد أنها كانت مفرطة في الطول.

القاهرة) ١٤٤/١.

(٤) المقتبس تحقيق الدكتور محمود مكى (نشر دار

الكتاب العربي بلبنان) ص ١٧٩.

(١) العصر العباسي الأول ص ١٩٠ وما بعدها

(٢) نفح الطيب ٢٨٢/١.

(٣) الحلة السيرة تحقيق د. حسين مؤنس (طبع

وإذا استمررنا في تتبع الشعر التاريخي التعليمي وأراجيزه التقينا بأرجوزة^(١) ابن عبد ربه التي سجّل فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٢٢ موزعا لأبياته فيها على تلك السنوات وهي في نحو ٤٥٠ بيتا، وقد استهلها بقوله:

سبحانَ مَنْ لَمْ تَحَوِهِ أَقْطَارُ وَلَمْ تَكُنْ تَدْرُكُهُ الْأَبْصَارُ
وَمَنْ عَنَتْ لَوَجْهِهِ الْوَجُوهُ فَمَا لَهُ نِدٌّ وَلَا شَيْبُهُ

ومضى يصف الله ببعض صفاته القدسية حامدا له على آلائه التي أسبغها على الأندلس، ويشيد بعبد الرحمن الناصر وانتصاراته الباهرة وجمعه لعقد الأندلس بعد أن كانت حَبَّاته قد تناثرت وعمّت الفتن في كل الأنحاء وكثر الثوار في كل مكان، وإذا عبد الرحمن بغزواته المتوالية سنويا يعيد إلى الأندلس وحدتها ويقضى قضاء مبرما على الثوار والمرأق ويأخذ في منازل نصارى الشمال حتى يلقوا له عن يَدٍ وهم صاغرون، ونكتفى من أرجوزة ابن عبد ربه بالوقوف عند غزوة^(٢) السنة الأولى من غزوات الناصر وهي سنة ثلاثمائة، وكان قد أعد جيشا ضخما خرج به من قرطبة في السابع من شهر رمضان في تلك السنة، وبدأ بثوار كورة جيان واتجه إلى حصن المنبلون وثأثره سعيد بن هذيل ونازله واستسلم ولاذ بالأمان، ورحل إلى حصن شمنتان وثأثره عبيدالله بن الشاليه، فبادر بالاستسلام متنازلا له عن جميع معاقله وحصونه وكانت تقارب المائة، ورحل إلى الحصون التي كانت موالية لعمر بن حفصون في جيان ثم في البُشَرات وافتتحها جميعا، ثم تقدم إلى ما كان بيد ابن حفصون في إقليم إلبيرة من الحصون فاقتح أكثرها ولم يدع فيها مخالفا. ورأى أن يريح جيشه وكان قد فتح سبعين حصنا من أمهات الحصون سوى حصون وبروج ومعقل تبلغ نحو الثلاثمائة، وهي فتوح لم يسمع بمثلها - كما يقول ابن حيان - لملك واحد من ملوك الأرض في غزوة واحدة، وقفل منها عائدا إلى عاصمته قرطبة بعد ثلاثة أشهر وأيام، وفيها يقول ابن عبد ربه في أرجوزته مشيدا بالناصر وما أذاق الثائرين من بأسه واستسلامهم له صاغرين خانعين:

وَجَمَعَ الْعُدَّةَ وَالْعَدِيدَا وَكَثَّفَ الْأَجْنَادَ وَالْحُشُودَا
ثُمَّ انْتَحَى جَيَّانَ فِي غَزَاتِهِ بِعَسْكَرٍ يَسْعُرُ مِنْ حُمَاتِهِ^(٣)

(١) انظر الأرجوزة في العقد الفريد ٥٠٠/٤ وما بعدها.

(٢) راجع هذه الغزوة في الجزء الخامس من

المقتبس ص ٥٨ وما بعدها.

(٣) يسعر: يتقد. حماة: جمع حام.

فأذعنت مُراقُها سِراعا وأقيلتْ حُصونها تَداعي
وافتتح الحصونَ حِصْناً حِصْناً وأوسع الناسَ جميعاً أَمْناً
ثم انتحى من فُورِهِ إلبيره وهى بكل آفةٍ مَشهوره
ولم يدعُ من جِنِّها مَريداً^(١) بها ولا من إنسها عَنيدا
إلا كساهُ الذَّلَّ والصُّغارا وعَمَّه وأهلَه دمارا
وانصرف الأميرُ من غَزَاتِهِ وقد شفاه الله من عُدَاتِهِ

والأبيات ليس فيها الحرارة التى ينبغى أن تموج بها إزاء هذه الغزوة التى ليس لها مثيل فى تاريخ الأندلس. وربما كان ذلك بسبب أنها صيغت فى أرجوزة من الشعر التاريخى التعليمى الذى تفتقر فيه الحرارة ويصبح أشبه بالسرد منه بالشعر الغنائى المتوهج حرارة. ولابن عبد ربه مدائح كثيرة فى الناصر تشتعل فيها الحماسة، بل فى نفس هذه الغزوة إذ ينشد ابن حيان له فيها قوله فى مدحه للناصر^(٢):

فى نصف شَهْرٍ تركتَ الأرضَ ساكنةً من بعد ما كان فيها الجَوْرُ قد ماجا
لما رأوا حَوْمَةَ الشَّاهين فوقهم كانوا بُغْاثاً حوالِها ودُّراجاً^(٣)
ويقول فى وصف عدله فى رعيته:

أحيا لنا العدلَ بعد مِيتَتِهِ وردَّ روحَ الحياة فى جَسَدِهِ

ونلتقى فى عصر المرابطين بأهم ناظم للشعر التعليمى التاريخى، ونقصد أباطالب عبد الجبار الملقب بالمتنبى، وسنفرده بكلمة عما قليل، وكان يعاصره ابن أبى الخصال الكاتب المشهور وله قصيدة فى نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب». وأهم من نظموا بعده فى هذا اللون التاريخى من الشعر لسان الدين بن الخطيب الذى ستأتى ترجمته فى الفصل الخامس، فله فيه أرجوزة طويلة سماها «رَقْمُ الحُلل فى نظم الدول» وهى تاريخ شعرى للدول الإسلامية، عرض فيها بإيجاز الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين فبنى الأغلب بإفريقيا فالعبديين (الفاطميين) فبنى أمية بالأندلس فأمرء الطوائف فالمرابطين فالموحدين فبنى نصر بغرناطة وبنى مرين بإفريقيا، وطُبع جزء من هذه الأرجوزة بتونس بأخرة من القرن الماضى، ويسوق ابن الخطيب فى تضاعيفها نثرا لتوضيح الأبيات، وفى كتابه «الإحاطة» اقتباسات منها كثيرة. من ذلك عرضه لتاريخ الحكم الربضى وما كان

(١) مریدا: خبیثا شریرا.

(٣) الشاهین: من جوارح الطیر وسباعها. البغاث

(٢) الجزء الخامس من المقتبس ص ٦٢.

والدرج: طائران صغیران والاستعارة واضحة.

من ثورة الفقهاء وأهل الرِّبْض عليه وسفكه لدماء كثيرين وهدمه لدورهم وقضائه السريع على الثورة مع رباطة جأشه في حينها رباطة أذهلت من كانوا محيطين به، وكان من شدة الجبروت بحيث لم يرع لأحد في الثورة عليه عهداً ولا ذمة، يقول لسان الدين مشيراً إلى توليه الحكم بعد وفاة أبيه هشام^(١):

حتى إذا الدهرُ عليه احتكما قام بها ابنُه المسمَى الحكمَا
واستشعرَ الثورةَ فيها وانقبضُ مستوحشا كاللَّيْثِ أَقْعَى وَرَبَضُ^(٢)
حتى إذا فُرْصَتُهُ لاحَتْ نَفْضُ فأفحشَ الوقعةَ في أهل الرِّبْضِ
وكان جباراً بعيدَ الهمةِ لم يَرَعَ من إل بها أو ذِمة^(٣)

وإذا تركنا التاريخ وشعره التعليمي إلى العلوم الدينية واللغوية قابلتنا كثرة من الأراجيز والقصائد العلمية، وهي أكثر من أن تحصى في الأندلس أو تستقصى، إذ لم يكادوا يتركون علماً دون أن ينظموا فيه أراجيز أو قصائد مطولة، وطائفة منها ذاعت شهرتها في العالم العربي وكتبت عليها شروح كثيرة وأصبحت محور الدراسة في العلم الذي نظمته مهما شرقنا أو غربنا في البلدان العربية والإسلامية، من ذلك منظومة القاسم بين فيره الشاطبي الذي مر ذكره بين القراء في الفصل الثاني، وقد سهاها - كما مر بنا - حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات، واشتهرت باسم الشاطبية نسبةً إليه، وعدتها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً، وقد شرحت مراراً، شرحها العلم السخاوى وغيره، وظلت المرجع الأساسى للقراء منذ عصر الشاطبي إلى اليوم. وذكرنا معه من القراء أبا حيان الغرناطى وقلنا هناك إن له في القراءات منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين وقد سهاها: «عقد اللآلى في القراءات السبع العوالى»، ويقول ابن حجر إنها أخصر وأكثر فوائد من الشاطبية غير أنها لم ترزق حظها^(٤) من الشهرة والذیوع. ودوت شهرة ابن عبد البر حافظ الأندلس وإمام مذهبها المالكي لعصر أمراء الطوائف بكتاب نفيس في الفقه والحديث ألفه على هدى كتاب الموطأ لمالك وسَّاه: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» ويقول ابن حزم - كما مر بنا - «لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً» ولعل ذلك ما جعل الشاطبي ينظم قصيدة في

(١) الإحاطة ٤٨٢/١

(٣) إل بتشديد اللام: عهد.

(٤) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن

حجر ٧٣/٥.

(٢) الليث: الأسد. أقعى: جلس على إلبته

ونصب ساقيه وفخذه. ربض: طوى قوائمه ولصق بالأرض.

خمسائة بيت تحيط علماً بهذا الكتاب إحاطة دقيقة، غير أنها لم ترزق حظ أختها الشاطبية. ويلقانا غير عالم أندلسى حتى آخر أيام العروبة هناك يؤلف أراجيز ومنظومات في العلوم الدينية المختلفة على نحو ما يلقانا عند أبي بكر بن عاصم المتوفى سنة ٨٢٩ تلميذ لسان الدين بن الخطيب وله في القراءات^(١) منظومة باسم «إيضاح المعاني في القراءات الثمانية» ومنظومة ثانية في علم الفرائض (الميراث) باسم: «كنز المفاوض في علم الفرائض» ومنظومة ثالثة في علم الأصول باسم: «مهيع الوصول إلى علم الأصول» وله في الفقه المالكي أرجوزة في نحو ١٦٩٠ بيتاً نشرت في باريس منذ القرن الماضى وكانت تدرس في جامعة فاس إلى عهد قريب. وكثيراً ما كانوا ينظمون قصائد ومقطوعات لضبط بعض المسائل المتصلة بالقرآن أو بالقراءات أو بالفقه وأحكامه على نحو ما نجد في رائية^(٢) أبي الحسن بن الحصار، وهى اثنان وعشرون بيتاً في بيان المدنى والمكى من سور الذكر الحكيم، وذكر فيها أن المدنى باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك فمكى.

وكان طبعياً أن تشارك الأندلس المشرق في نظمه لفنون البيان والبديع، وابن المعتز هو أول من جمع بينهما في كتابه «البديع» إذ أحصى فيه ثمانية عشر محسناً وضم إليها صور البيان الأساسية وهى الاستعارة والتشبيه والكناية، وأخذت الحقب التالية تضيف إلى محسناته محسنات جديدة إلى أن بلغ بها ابن أبى الإصبع المصرى مائة واثنين وعشرين محسناً. وتأخذ في الظهور منذ على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ منظومات البديعيات^(٣)، وهى منظومات يتضمن كل بيت فيها محسناً من محسنات البديع والبيان، حتى إذا كان صفى الدين الحللى المتوفى سنة ٧٥٠ رأيناه ينظم بديعیه من وزن البسيط في ١٤٥ بيتاً موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يتضمن محسناً من محسنات البديع، وبلغت المحسنات فيها مائة وخمسين. ونرى معاصره أباً حيان الغرناطى ينظم قصيدة في علمى البديع والبيان، ويبدو أنه لم يتجه بها وجهة الحللى والإربلى في أن يجعل من كل بيت إشارة إلى لون معين من ألوان البيان والبديع، ولذلك لم يعد العلماء له هذا العمل بين قصائد البديعيات. وأول أندلسى أسهم في تلك القصائد ابن جابر الوادى آشى المترجم له بين شعراء المديح النبوى، إذ نظم بديعية من بحر البسيط

الأول من السفر الثامن ص ٢١٠.

(٣) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ٣٥٨

وما بعدها.

(١) انظر في أسماء هذه المنظومات لابن عاصم

النسخ ١٩/٥.

(٢) راجع الذيل والتكملة للمراكشى: القسم

في مائة وسبعة وعشرين بيتا وجعل موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم
وسماها: «الحلة السَّيْرَا في مدح خير الورى» واستهلها بقوله: ﴿

بَطِيئَةً أَنْزَلَ وَيَمِّمُ سَيِّدَ الْأُمَمِ وَأَنْشُرَ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْشُرَ أَطْيَبَ الْكَلِمِ^(١)

وسرعان ما شرحها مواطنه ومعاصره أبو جعفر الرُّعَيْنِي، ويقول في مقدمته لها إن ابن
جابر اتبع في سرد المحسنات البديعية الخطيب القزويني في كتابيه الإيضاح والتلخيص،
ولعل ذلك ما جعله يكتفى فيها بنحو ستين محسنا.

ولعل الأندلس لم تكثر من النظم في علوم كما أكثرت من نظم علوم النحو والتصريف
واللغة، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة ابن مالك الطائي الجبائي المتوفى سنة ٦٧٢ بدمشق،
ويعد أشهر نحاة القرون العربية المتأخرة لا في الأندلس فحسب بل في العالم العربي
جميعه، وكان نظم الشعر التعليمي سهلا عليه سهولة مفرطة مع التعبير الناصع عن أدق
الدقائق في النحو والصرف واللغة، وتشهد بذلك كثرة أراجيزه ومنظوماته فيها المصوغة
صياغة بديعة، وفي مقدمتها نظمه المفصل للزحخشري في النحو باسم «المؤصل في نظم
المفصل» ومنظومته المطولة «الكافية الشافية» في النحو، وتقرب من ثلاثة آلاف بيت، وله
في الصرف منظومة لامية في أبنية الأفعال باسم «المفتاح أو اللاميات» وهي في مائة وأربعة
عشر بيتا من وزن البسيط، ومنظومة ثانية في ٤٩ بيتا من وزن الكامل ضمنها الأفعال
الثلاثية المعتلة بالواو أو الياء احتفظ بها السيوطي في الجزء الثاني من كتابه المزهري. وله في
اللغة منظومة واوية في ١٦٢ بيتا سماها «تحفة المودود في المقصور والممدود» وهي تتضمن
الألفاظ التي تنتهي بألف مقصورة أو ممدودة مع اختلاف معانيها وقد طبعت في القاهرة مع
شرح موجز لها، ومنظومة ثانية في ٦٢ بيتا من وزن البسيط سماها: «الاعتداد في الفرق
بين الزاى والصاد» ضمنها الكلمات المتماثلة التي تنتهي بها. وأهم منظوماته جميعا الألفية
في النحو والصرف وهي أرجوزة في ألف بيت اختصر فيها أرجوزته الكبرى الكافية
الشافية، وقد رزقت من الشهرة ومن المدارس وإكباب الشيوخ والطلاب عليها في جميع
البلاد العربية منذ تأليفها إلى اليوم ما لم ترزقه أى منظومة أخرى في النحو والصرف
واللغة، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وخواشيتها مثل شرح الأشموني وحاشية الصبان
عليه وشرح ابن عقيل وحاشية الخضري عليه. ولحازم القرطاجني المتوفى سنة ٦٨٤

(١) طيبة: المدينة. يم: أقصد.

منظومة نحوية تضمنها ديوانه وسنعرض لها ، حديثنا عنه عما قليل، ولأبي حيان المتوفى سنة ٧٤٥ أرجوزة في النحو سماها « غاية^(١) الإغراب في علمي التصريف والإعراب » أى النحو، ولم تحظ - كأرجوزته في القراءات - بشيء من الشهرة، وبالمثل الأراجيز النحوية التي نظمت بعد عصره، إذ سلبتها الشهرة جميعا ألفية ابن مالك. ويذكر ابن حجر في كتابه الدرر أن ابن جابر الوادى آشى نظم كتاب فصيح ثعلب في اللغة.

وكان قد شاع نط لغوى من وزن الرجز يتضمن كثيرا من الألفاظ المقصورة الشائعة والمهجورة بغرض أخذ المتأديين بمعرفتها وحفظها، وبدأ ذلك ابن دريد في القرن الرابع بمقصورته التي تقع في نحو مائتين وخمسين بيتا من الشعر والتي مدح بها عبد الله بن محمد ابن ميكال والى الأهواز وابنه، وأخذ بعض الشعراء في المشرق يحاكونه بصنع مقصورات مماثلة لمقصورته غير أنه ظل لمقصورته القدح المعلى في عناية الشعراء بها وفي تحميس بعضهم لها، ونجد شعراء الأندلس - وخاصة منذ القرن السادس - يحاولون محاكاته في هذا اللون من الشعر التعليمى اللغوى، ونذكر منهم على بن حريق المخزومى، إذ ذكر المراكشى أن له مقصورة^(٢) عارض بها ابن دريد، وأضاف أن له أرجوزة لغوية بديعة عارض بها أرجوزة لغوية لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ وذكر المراكشى أن لمعاصره عامر بن هشام المتوفى سنة ٦٢٣ مقصورة^(٣) جعلها في ثلاثة أقسام: الأول في الزهد والتضرع إلى الله واستغفاره، والثاني في الحديث النبوى: ببنى الإسلام على خمس، والثالث في الشكوى من الزمان والإخوان ورتاء أبى محمد عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن، وعدتها نحو مائة وخمسة وستين بيتا أنشأها لابن أخيه وشرحها له شرحا مفيدا. ولحازم القرطاجنى مقصورة نالت حظا من الشهرة وسنلم بها في حديثنا عنه وموضوعها مديح المستنصر صاحب تونس. وبدأ بالمقصورة ابن جابر الوادى آشى موضوعا جديدا هو مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أنشدها المقرئ في النفع^(٤) مسميا لها باسم المقصورة الفريدة، وهى في أكثر من ثلاثمائة بيت من وزن الرجز، وجعل لقافية كل حرف من حروف الهجاء فيها عشرة أبيات وتلى الحرف دائما الألف المقصورة واستهلها بالنسيب على العادة التي شاعت في قصائد المدح النبوى، مع تضمينها بعض

(١) ذكرها أبو حيان في كتابه منهج السالك في

الكلام على ألفية ابن مالك ص ٤٥.

(٢) الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر

الخامس ص ٢٧٦.

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧.

(٤) راجع نفع الطيب ٣٠٦/٧.

الحكم الطريفة والإفاضة في سيرة الرسول العطرة وذكر بعض معجزاته الخارقة والتنويه بعراجيه إلى السماء وقُرب جبريل منه، وازدياده قربا حتى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى وكيف أن الله ارتضاه للأمة رسولا هاديا منذ نشأة الخليقة. ومع أن المقصورة تكتظ في قوافي أبياتها بالألفاظ الغريبة تشيع فيها السهولة مع حسن الأداء، إذ كان شاعرا بارعا. وحرى بنا أن نخص كلا من أبي طالب عبد الجبار وحازم القرطاجني بكلمة.

أبو^(١) طالب عبد الجبار

لم تُعَنَ كتب التراجم الأندلسية بإعطائنا معلومات وافية عن حياة أبي طالب عبد الجبار، وحقا عُني ابن بسام بالترجمة له وإنشاد أرجوزته التاريخية كاملة، غير أنه اكتفى بقوله إنه من أهل جزيرة شُقر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع جهاتها. وهو بذلك يشترك مع ابن خفاجة شاعر الطبيعة في مسقط رأسه. ويقول ابن بسام إنه كان يُعَرَّف بلقب المتنبي، ويضيف أنه كان «أبرع أهل وقته أدبا، وأعجبهم مذهبا، وأكثرهم تفننا في العلوم، وأوسعهم ذُرْعَا (طاقة) بالإجادة في المنثور والمنظوم». ويذكر أنه كان يسرف في المجون، وأنشد له خمرية اقتطفنا منها أبياتا في الفصل التالي، ويقول إنه كان قانعا بما يسد حاجته من العيش، فلم يمدح أميرا ولا غير أمير بشعره، وينوه بأرجوزته التاريخية، ويقول إنها تدل على رسوخ قدمه في العلم والمعرفة. وتدل مقدمته لها على أنه قدمها إلى أحد الرؤساء، ونظن ظنا أنه أحد ولاية دولة المرابطين على شرقى الأندلس. ولا يذكر لنا ابن بسام شيئا عن الحقبة التي عاش فيها، غير أنه أرخ في أرجوزته ليوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وذكر عقبه ابنه عليا السلطان بعده (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) وأنه يقتفيه ويهتدى به في حكمه، مما جعل العباد الأصبهاني يستنتج في ترجمته له أنه عاش بعد سنة خمسمائة أي بعد السنة الأولى من حكم علي، ومن يرجع إلى أرجوزته وحديثه فيها عن الخلفاء العباسيين يلاحظ أنه ختمهم بالخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) قائلا عنه:

وَهُوَ إِلَى الْآنَ إِمَامُ الْخَلْقِ وَالْمَلِكُ لِلَّهِ الْإِلَهِ الْحَقُّ

وفي قوله: «إلى الآن» ما يدل على أنه عاش فترة في مدة حكمه، قد تكون سبع سنوات أو أقل أو أكثر.

(١) ٢١٠/٢ وما بعدها والمغرب ٣٧١/٢ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة أبي طالب عبد الجبار الذخيرة ٩١٦/١ - ٩٤٤ والخريدة للعباد الأصبهاني

والأرجوزة في أربعائة وخمسين بيتا، وقد وضع بين يديها مقدمة نثرية ذكر فيها أنه قدمها - كما أسلفنا - إلى أحد الرؤساء قاصدا بها استمناحه ونواله، ويصفه بأنه غيث مدرار وبحر فياض بالجود والكرم، ثم يذكر أنه رجع في أرجوزته إلى كتب التاريخ قاطفا عيون زهرها وملتقطا مكتون دررها، مع الإجمال والإيجاز. ويقول إنه ذكر في فاتحتها مقدمات من أصول الاعتقادات، ويبدؤها باسم الله والصلاة على رسوله وآله الطيبين، ويأخذ في حمد الله مبتدع السماء والأرض والبرية ابتداع خالق مهيم منفرد بوحديته منزّه عن قول جهم بن صفوان وغيره من المجسمة، ويدعو إلى التأمل في ملكوت العالم وتدبيره وإحكام خلقه وأيضا إلى التأمل في خلق الإنسان وأطواره وما وهبه الله من الحواس والحياة والرزق إلى الممات والعقل والعلم بالقلم علم التاريخ وغيره من العلوم. وينتقل من حمد الله وإبداعه للكون والإنسان إلى الاستدلال على أنه الصانع للكون فكل ما في الكون أجسام، والأجسام لا تصنع الأجسام، بل لابد من صانع هو الذات العلية، وينشد:

أَفْ لِقَوْلِ الْفِئَةِ الْبَصْرِيَّةِ أَهْلُ الْهَوَى وَالْفِرْقَةِ الْغَوِيَّةِ
وَاحْذَرْ هَذَاكَ اللَّهُ يَا ذَا الْفَهْمِ قَوْلَهُمْ وَاحْذَرْ مَقَالَ جَهْمِ
وَقُلْ بِمَا يَقُولُ أَهْلُ الْحَقِّ مِنْ مُثْبَتِي صِفَاتِ رَبِّ الْخَلْقِ

وهو يريد بالفئة البصرية المعتزلة ويشدد به الضجر من قولهم بأن صفات الله ليست زائدة عن الذات الربانية كما يشدد به الضجر من جهم وأنداده المجسمة، ويعلن أنه يقول بما يقول به أهل الحق، يريد أهل السنة ممن يثبتون له صفاته القدسية، ولعله كان يدين بعقيدة الأشعرية أتباع أبي الحسن الأشعري. ويقول إنه يؤمن - بجانب العقل - بالنقل المتواتر للأخبار الذي ينقله الجهم الغفير عن الجهم الغفير أو الجماهير عن الجماهير، وهو بذلك سني أو قل أشعري، ولا يلبث أن يحدثننا عن الجوهر والعرض، مما يؤكد صلته بالفلسفة، يقول:

وَكُلُّ شَيْءٍ جَوْهَرٌ أَوْ عَرَضٌ إِلَّا الَّذِي الطَّوْعُ لَهُ مُفْتَرَضٌ
فَإِنْ فَحَصْتَ قَائِلًا مَا الْجَوْهَرُ وَمَا هُوَ الْعَرَضُ إِذْ يُفَسَّرُ
فَالْجَوْهَرُ الْحَامِلُ لِلْأَعْرَاضِ وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ يَذِي أَعْضَاضُ
وَالْعَرَضُ الْمَحْمُولُ كَالْأَلْوَانِ وَحَرَكَاتِ الْجِرْمِ وَالْإِسْكَانِ

فكل ما في الكون إما جوهر وإما عرض إلا رب البرية فإنه لا جوهر ولا عرض إذ

هو منزّه عن التجسيم وعن كل ما يتصل بالتجسيم. والجوهر - ويريد الجوهر الفرد - لا يتجزأ، والعرض لاحق به إذ يحمله كالألوان ويلاسه ملابسة الحركة والسكون. وينتقل إلى مقدمة ثالثة في بيان العلم ويوصى بأن يعرف الإنسان فرق ما بين المعلوم والموهم وأن لا يهمل العقل ويأخذ بالتقليد، ويتخذ العلم للعلم لا للمباهاة به ولا لغلبة الخصوم، ويعرفه بأنه معرفة الشيء على ما هو به، ثم يتحدث عن أنواع العلم قائلا:

العلم علمان أيا مَنْ يبحث	علمٌ قديمٌ ثم علمٌ مُحدثٌ
إن القديم علم ربّ العرش	بارى البرية الشديد البطش
ومُحدثٌ فذاك علم الخلق	من ناطقٍ وغير ما ذى نُطقٍ
وكل علمٍ محدثٌ علمان	علمٌ ضرورىٌ بلا برهان
وبعده فعلم الاستدلال	والمنطقُ الباحث عن أحوال

فالعلم علمان: علم قديم أزلى خاص بالذات العلية وعلم محدث هو علم الخلق من ناطق وغير ناطق، ثم العلم المحدث علمان أو قسمان: علم ضرورى بدون برهان وهو البديهيات كالعلم بأن اثنين ضعف الواحد وعلم يقوم على الاستدلال والمنطق وبراهينه ومقدماته الصحيحة. ويستمر قائلا: إن صانع العالم فرد صمد لا شريك له. ويتنعى على النصرارى قوهم بالتثليث، واعتقادهم مع اليهود في الذات العلية بالتجسيم، ويقول: جلّ جلاله عن شريك وأن يكون جسما له حد وانتهاء. ويتحدث في مقدمة رابعة عن التفكير في ملكوت السموات والأرض، ويقول إن كل ما فى الأرض من نبات وحيوان يدل على أن له صانعا يديره، وكذلك النجوم والبروج، فجميعها شواهد ناطقة بوحدانية الصانع، ويذكر أن النفس ليس لها إرادة وأنها تنقاد لقوة العقل إذ هو أعلى رتبة وأشرف، ومع ذلك قد تلحقه الآفات من غيره أو من ذاته، فدلّ ذلك على أن ربّا فوقه هو الكمال المطلق الذى ليس له نهاية تحدده. وفي مقدمة خامسة يتحدث عن بدء الخليقة وخلق البرية مهتدياً بأضواء من الذكر الحكيم منشداً:

قد خلق الله السموات العلا	كما عَنِ الرَّسُولِ فِي الذِّكْرِ تَلَا
أَخْرَجَ مِنْ مَاءٍ دُخَانًا فَسَمَا	ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ لِيُخْلُقَ الْأَنْسَامَا
وَأَدَمُ صُورَ مِنْ صَلْصَالٍ	فَكَانَ مِنْهُ جُمْلَةُ الْأَنْسَالِ
ثُمَّ بَرَأَ لَادَمَ حَوَاءَ	فَسَكَنَا جَنَّتَهُ الْعَلْيَاءَ

وهو يشير في الآيات إلى ما جاء في الذكر الحكيم من خلق السموات في مثل قوله

تعالى بسورة النازعات: ﴿السَّاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ (أَظْلَمَ) لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضِحَاهَا﴾ وقوله عَزَّ شَأْنُهُ فِي سُورَةِ فَصَّلَتْ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّاءِ وَهِيَ دَخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وقوله سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أَيْ بَسَطَهَا لِلْإِنْسَانِ وَوَسَّعَ رَقْعَتَهَا إِلَى أَبْعَدِ حَدٍّ. وَيَقُولُ إِنْ آدَمَ صُوِّرَ مِنْ صَلْصَالٍ وَهُوَ الطِّينُ الْيَابِسُ بِشَهَادَةِ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجَرِ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾. وَيَذْكُرُ أَبُو طَالِبٍ أَنَّ اللَّهَ بَرَأَ أَوْ خَلَقَ لَأَدَمَ حَوَاءَ وَأَسْكَنَهَا الْفَرْدَوْسَ. وَيَسْتَمِرُّ فِي الْأَرْجُوزَةِ مُتَحَدِّثًا عَنْ عَصِيَانِهَا لِرَبِّهَا وَأَكْلِهَا مِنَ الشَّجَرَةِ وَهَبُوطِهَا لِلْأَرْضِ وَيَتَحَدَّثُ عَنْ قَتْلِ ابْنِهَا قَابِيلَ لِأَخِيهِ هَابِيلَ، وَعَنْ تَكَاثُرِ نَسْلِهَا وَانْتِشَارِ الْفَسَادِ فِيهِ وَمَا كَانَ مِنْ إِرْسَالِ اللَّهِ لِنُوحٍ، وَعَنْ الْأَنْبِيَاءِ الْمَنْصُوصِ عَلَى قَصَصِهِمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَيَسْتَفْرِقُ ذَلِكَ نَحْوَ مِائَةِ وَسْتِينَ بَيْتًا، دَلَّ فِيهَا عَلَى ثِقَافَةٍ وَاسِعَةٍ وَخَاصَّةً ثِقَافَتَهُ بِالْفِرْقِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَبِالْفَلَسَفَةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ الْمُنْطَقِ. وَيَتْرَكُ تِلْكَ الْمَقْدِمَاتِ إِلَى التَّارِيخِ الْخَالِصِ، فَيَتَحَدَّثُ عَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَنْ تَلَاهَمَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَخُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ حَتَّى عَهْدِ الْمُسْتَرَشِدِ كَمَا أَسْلَفْنَا. ثُمَّ يُوْرِخُ لِدَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي الْأَنْدَلُسِ وَمَا كَانَ مِنَ الْفِتْنَةِ بِقَرِطَبَةِ وَالْقَضَاءِ عَلَى الْحُكْمِ الْأُمَوِيِّ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ قَضَاءً مَبْرَمًا. وَيَسْتَقْصِي أُمَرَاءَ الطَّوَائِفِ وَبِلْدَانِهِمْ اسْتِقْصَاءً دَقِيقًا، وَيَصُورُ فُسَادَ حُكْمِهِمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِ الْغَاضِبِ عَنْهُمْ:

قَدْ أَهْمَلُوا الْبِلَادَ وَالْعِبَادَا وَعَطَّلُوا الثُّغُورَ وَالْجِهَادَا
وَاشْتَغَلَتْ أَذْهَانُهُمْ بِالْخَمْرِ وَبِالْأَغَانِي وَسَمَاعِ الزَّمْرِ
وَزَادَهُمْ فِي الْجَهْلِ وَالْخِذْلَانِ أَنْ ظَاهَرُوا عِصَابَةَ الصُّلْبَانِ

فَهُمْ قَدْ أَهْمَلُوا الرِّعْيَةَ وَالْجِيُوشَ الْمُقَاتِلَةَ عَنِ الثُّغُورِ وَالْحِمَى وَعَاشَوْا لِلْهَوَى وَالْخَمْرِ وَالْغِنَاءِ وَالزَّمْرِ، وَدَاخَلُوا طَوَائِفَ النَّصَارَى فِي الشِّمَالِ حَتَّى قَوِيَتْ أَطْمَاعُهُمْ وَخَاصَّةً أَذْفُونَشُ فَفَرَضَ الْجُزْيَةَ عَلَى الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَادٍ وَعَلَى غَيْرِهِ وَالتَّقَمَّ طَلِيظِلَّةً وَاسْطَةَ الْقِلَادَةِ سَنَةَ ٤٧٨ هـ وَاشْتَعَلَتْ فِي كُلِّ جِهَةِ نَارُهُ. وَفَزَعَتْ الْأَنْدَلُسَ إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ سُلْطَانَ الْمُرَابِطِينَ فَغَبِرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَنْقَذَهَا مِنْ أَذْفُونَشِ وَنَصَارَى الشِّمَالِ بِسِحْقِهِ لِمُجْنُودِهِ سِحْقًا وَبِيْلًا فِي مَوْقِعَةِ الزَّلَاقَةِ عَلَى نَحْوِ مَا مَرَّ بِنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَفِيهَا وَفِي اسْتِصْرَاحِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ لِابْنِ تَاشَفِينَ يَقُولُ أَبُو طَالِبٍ:

وَإِذْ أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَ الدِّينِ اسْتَصْرَحَ النَّاسُ ابْنَ تَاشِفِينَ
فَجَاءَهُمْ كَالصُّبْحِ فِي إِثْرِ غَسَقٍ مُسْتَدْرِكًا لِمَا تَبَقِيَ مِنْ رَمَقٍ
وَوَاصِلِ السَّيْرِ إِلَى الزَّلَاقَةِ وَشَاقِهِ لِيَوْمِهَا مَا شَاقَهُ
لِلَّهِ دَرٌّ مِثْلُهَا مِنْ وَقَعِهِ قَامَتْ بِنَصْرِ الدِّينِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
وَتَلَّ لِلشُّرْكَ هُنَاكَ عَرْشُهُ لَمْ يُغْنِ عَنْهُ قَوْمَهُ أَذْفَنُهُ

وهو يقول إن الله حين أراد نصر الدين الحنيف في الأندلس استصرخ أهلها ابن تاشفين، وكان ذلك في صدر سنة ٤٧٩ فللبأهم كالصبح المضيء في إثر ظلام مطبق، مستدركا لما بقى في الأندلس من رمق يوشك أن يزهد ونفس يوشك أن يضمحل، وبادر عجلا متلهفا إلى الزلاقة بأسد وغى والنصر يحف بركابه، ونازل العدو يوم جمعة، وكان يوما فاصلا إذ حاقت فيه الهزيمة القاضية بالفونس السادس وجنوده وتل عرشه وسلطانه.

والأرجوزة رائعة في نسيجها وصياغتها الجزلة الرصينة ونسقها المحكم في اختيار الألفاظ والقوافي دون تكلف ودون محسنات بديعية تستر المعاني أو تضيى عليها شيئا من الإبهام. وهى تدل - بوضوح - على تعمق أبي طالب في الثقافات الكلامية والفلسفية والإسلامية، كما تدل على بصره الواعى بتاريخ حكام العرب شرقا وغربا منذ أقدم الحقب في الدول الإسلامية حتى زمنه.

حازم^(١) القرطاجنى

مررنا في الفصل الثانى حديث عن كتاب منهاج البلغاء لحازم، وهو من أفذاذ علماء الأندلس وأدبائها، رُزق به أبوه محمد بن الحسن الأوسى الأنصارى قاضى قرطاجنة سنة ٦٠٨ للهجرة، وعنى بتربيته فحفظ القرآن الكريم، وشب فأخذ يتلقى الآداب والعلوم في بلدته الواقعة على البحر المتوسط في الجنوب الشرقى للأندلس، ورحل منها إلى مدينة مرسية ليأخذ عن شيوخها، ومد رحلاته غربا إلى إشبيلية ولزم حلقات أستاذه الشلوبيين بها مدة، وكانت فيه نزعة إلى الفلسفة فأوصاه بقراءة كتب ابن رشد، ولعل اطلاعه على

من مصادر، ودراسة الدكتور مهدى علام بعنوان «أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة في الأدب العربى مع تحقيقها» وجمع شعره ونثره ببيروت عثمان الكعاك مع تعريف به.

(١) انظر في حازم وترجمته وشعره اختصار القدح المجلد ص ٢٠ وبغية الوعاة للسيوطى وأزهار الرياض ١٧١/٣ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٣٨٧/٥ ومقدمة كتابه منهاج البلغاء (طبع تونس) للدكتور محمد الحبيب بن الحفوجة وما بها

تلخيصه لكتابه الخطابة والشعر لأرسططاليس هو الذى وصله بالثقافة اليونانية النقدية مما يتضح أثره فى كتابه منهاج البلغاء. وهاجر فى أواخر العقد الثالث من حياته إلى مراكش لعهد الرشيد الموحدى وله فيه أمداح ونال منه صلات سنية. وأحس أن سلطان الموحدين يوشك على نهايته وأن لا أمل فى دفعهم لمنازلة نصارى الشمال، فاتجه - مثل كثيرين من معاصريه الأندلسيين - إلى أبى زكريا الحفصى صاحب تونس، فعرف له فضله وقربه، وتوفى فقر به منه ابنه المستنصر (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ووظفه فى دواوينه، واتخذ تونس موطناً له حتى وفاته سنة ٦٨٤. وذاع صيته فقصده طلاب العلم من كل مكان، فكان وقته موزعاً بين العمل فى ديوان المستنصر وبين محاضراته للطلاب والتأليف ونظم الشعر. وعنى الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بالحديث عن شعره فى مقدمته لكتابه منهاج البلغاء ملاحظاً أنه يتناول فى المقاطيع الماثورة له موضوعات الزهد ووصف الطبيعة والخمر والنسب وأنه قد يتصنع لذكر بعض المصطلحات العلمية فى شعره أو لذكر بعض المحسنات البديعية. ويذكر له قصيدة ومقطوعة فى رثاء الحسين رضوان الله عليه، كما يذكر له طائفة من المدائح فى أبى زكريا الحفصى وابنه المستنصر، ويذكر له مدحة فى الرسول الأعظم ﷺ ضمنها أعجاز معلقة امرئ القيس على نحو ما يقول فى فاتحتها:

لعينيك قل إن زرت أفضل مُرسلٍ قفانبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ

وأهم مدائحه مقصورته التى مدح بها المستنصر. وحاول الإسهام فى صنع مختصر شعرى للنحو على نحو ما نرى فى ميميته النحوية التى نظمها من وزن البسيط وهى فى مائتى بيت وتسعة عشر، وهو يستهلها بإطراء المستنصر الحفصى لإكرامه الوافدين على عاصمته من الأندلس، ويشيد بعدله وحسن سياسته وانتصاراته على أعدائه، ثم يأخذ فى عرض المختصر الشعرى للنحو، ويعرض فيه طائفة من مباحثه بادئاً بتعريف النحو والكلام وتقسيمه إلى اسم وفعل وحرف ثم يذكر أحكام الإعراب والبناء والعوامل والفعل وأحكامه ونواصب الأفعال ونواصب الأسماء والنداء والاستثناء والخفض وأحرف النصب وعلامات الإعراب والابتداء وعنده تتوقف القصيدة. وكأنه كان يريد أن يصنع ألفية مثل ألفية ابن مالك ووجد الطريق شاقاً فانصرف عنه. وأروع قصائد حازم الشعرية - دون ريب - مقصورته التى مدح بها المستنصر، وهى أرجوزة طويلة بل مسرفة فى الطول، إذ تبلغ ألف بيت وستة، وقد استهلها بالغزل منشداً:

لله ما قد هجّتْ يا يومَ النَّوى على فؤادى من تباريح الجوى

ويطيل في غزله إلى خمسين بيتا ناسجا في أبياته أكثر المعاني التي ألم بها الغزلون من الحديث عن جمال صواحبهن وتصوير لحظات الفراق والتألم من الوشاة وما يثير في نفوسهم هديل الحمام من شجى. ويتحول إلى مديح أسلاف المستنصر ومديحه في مائة وعشرين بيتا ذاكرا انتسابه إلى الفاروق عمر بن الخطاب، وهو انتساب يسمو إلى أعلى مرتقى، وينشد:

مستنصرٌ بالله منصورٌ به مؤيدٌ بعونه على العدا
ملكٌ حكى ملكٌ سليمان الذى لم يتجه لغيره ولا ابتغى

ويشيد بعاصمة تونس ويشبهها بجنة الخلد كما يشبه قناتى المياه اللتين تحملانه من جبل زغوان إلى تونس واللتين جددتها المستنصر، بنهرين كبيرين، وكأن كل قناة إنما هي نفس الكوثر: نهر الفردوس. ويطيل في وصف جنات أبى فهر والقصبة بتونس، ويتحدث عن بأس المستنصر وخيله وجيشه وفتكه بأعدائه، ويقول إنه ليث كفاج ^{وغيث} سباح وبحر جود فياض، قد طابت به الأيام، ويعدد فواضله عليه ومآثره منشدا:

بلغتُ آرابَ المنى فى دولةٍ أولتْ يديَّ أسنى الأيادى واللها^(١)
والدَّهرُ عَيْدٌ والليالى عُرْسٌ والدَّهرُ أحلامٌ كأحلام الكرى^(٢)

وكأنما تهيج تونس بمباهجها في نفسه الذكرى لمرايع شبابه ومراتع لهوه، ويتغنى بالحب، ويصف الكواكب والشهب كما يصف لهوه ومتاعه بالصيد، وكل ذلك في نحو ثلاثين بيتا. ويعود بذاكرته إلى ماضيه متحدثا في نحو ثلاثمائة بيت عن المدن التي نهىها النصارى والتي كانت تكتظ بالعلماء والسادة الأعلام، مصورا كم نعيم فيها مع خلّانه من الشباب متنقلين بين قصور وجسور على شواطئ الأنهار وقرى ورُبى ومروج وبطاح، ويتغنى بمشاهد مدينة مرسية ونسائها الجميلات وكأنما يصف فردوسا مفقودا كان ملء عينيه وسمعه وقلبه، ومن قوله:

نصيف من مرسية بمنزلٍ ضفا به الدَّوحُ على ماءٍ صفا^(٣)
نقطع دُنْيَانَا بوصلِ الأُنسِ فى مُغْتَبَقٍ فى رَوْضِهِ ومُغْتَدَى^(٤)

الشجر وكثر.

(٤) مغتبق: مكان الغبوق وهو شرب العشى،

مغتدى: مكان الغدو في الصباح.

(١) الأيادى: النعم. اللها: العطايا.

(٢) الكرى: النوم

(٣) نصيف: نقضى الصيف. ضفا الدوح: فما

وتتناجى بالمنى أنفسنا
تقسّم الناس بها قسمين من
إذا اجتنتى زهرَ الجمال وامق^(٣)
وكم أغاني كنظيم الدرّ في
وكم حديث كثير الزهر في
حيث تداعى الطير منها وانتجى^(١)
بين خلّى قلبه ومضطبي^(٢)
فيها اجتنتى خلوّ بها زهر الرّبي^(٣)
تلك المغاني قد وشّاه من وشى^(٤)
تلك المباني قد حكاه من حكى

وهذه خطوط من اللوحة الباهرة التي رسم فيها مرسية وجناتها العطرة ونجوى الشباب هناك بالمنى في أنس موصول، والناس قسمان محب وقع في شرك الهوى وخال منه يوشك أن يقع فيه، وبينما يجتنى المحب أزهار حبه من النظر أو من القبل يجتنى الخلّ من مشاهد الطبيعة الخلابة، والناس هناك كأنما لا يقضون أياما، بل يقضون أعيادا تكتظ بالغناء والموسيقى وبأحلى سمر تهواه الأفئدة. ويطل حازم في رسم تلك اللوحة ووصف كل ما وقف به من عشرات الأماكن التي كانت تلتقى فيها الأرواح والأدواح، حتى إذا ودّع تلك الجنان ارتسمت في خياله قرطاجنة وخليجها ونزهاته مع صحبه في فلّكها، متساقين فيها كنوس الأنس في حدائق، منتشين فيها بأكؤس الأحداق والعيون الساحرة. ويرسم للأماكن فيها لوحة لا تقل فتنة وجمالا عن لوحة مرسية. ويطل في وصف حدائقها وأزهارها من بنفسج وسوسن وورد وشقيق وخيرى ونرجس وياسمين، ويصف كل ما يطوف بها من جبال ورياض ومنازل أو مغان يقول من يراها تفديها مغاني الشعب: شعب يؤان التي تغنى بها المتنبي، ويدعوها بالسقيا ويندب جدّها العائر وما عفا فيها وفي أخواتها من رسوم الهدى ومعاهد الدين الحنيف. وقد استغرق ذلك كله من حازم نحو ثلاثمائة بيت، وكأنما أراد بما صور من تلك الفردائس أن يستثير المستنصر ليحاول إنقاذ الأندلس ويسترجع ما ضاع منها. ويشيب بمحبوبة له هناك باعدت بينه وبينها الأيام، وكأنما يتخذ من حبها الذى ضاع رمزا للأندلس الضائعة. ويلم بمدح المستنصر وكأنما استرد بإكرامه له شيئا مما ضاع منه. ويتحدث في نحو مائتي بيت عن هجرته من الأندلس إلى تونس وما لقي فيها من المتاعب والمشاق التي احتملها في جلد وصبر، ويفكر في شئون الحياة وفي نفسه وخصاله وتيسيل على لسانه عشرات من الحكم من مثل قوله:

(١) انتجى: تناجى.

(٢) خلّى: خال من الحب. مضطبي: محب مغرم.

(٣) وامق: محب. خلوّ: خلّى.

(٤) وشى: زين وزخرف.

(١) انتجى: تناجى.

(٢) خلّى: خال من الحب. مضطبي: محب مغرم.

(٣) وامق: محب. خلوّ: خلّى.

(٤) وشى: زين وزخرف.

ما أحدثت حادثة لي روعةً ولا اغتراني جَزَعٌ لما اغترى
والعيش طَوْرًا مُشْتَهًى مُسْتَمَرًّا وتارة مُسْتَوْبِلٌ وَمُجْتَوًى
والعيش محبوبٌ إلى كل امرئٍ لا فرق بين الشيخ فيه والفتى
قد يُدرك الحاجة مَنْ لم يَسْعَ في طلابها وقد تفوت مَنْ سعى
إن احتياط المرء في أفعاله رأى يؤديه إلى سُبُل الهدى

ويطيل في الكلام عن ضلوا نهج الرشد فكان في ذلك هلاكهم ممن تحدث عنهم التاريخ الجاهلي من مثل قصة النعمان وقتله لعدى بن زيد تسرعاً، وقصة زرقاء اليمامة وتكذيب قومها لها حين حذرهم أن جيشاً قادماً ولم يصدقوها فكان في ذلك حتفهم، وقصة الزباء في حصنها وكانت أمنع من عُقاب في أعلى ذروة شاهقة، وكانت قد احتالت على جذيمة ملك الحيرة قاتل أبيها فقدم عليها وقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى، فدس لها أحد أتباعه، فجدع لها أنفه وشكا إليها عمراً فوثقت به ووعدتها أن يفد عليها بتجارة كبيرة محملة على إبل كثيرة. وعاد مع إبل تحمل رجالاً في جواليق أو صناديق، وفتحت له الحصن وهي تظنه يحمل بعض عروض التجارة، ودخلت الإبل ولقتها أنها تمشى مثقلة كأنها تحمل حديداً. ولم تنتبه. وخرج الرجال من الجواليق واستولوا على المدينة وقتلوا. هكذا تقول الأسطورة العربية، ومعروف أنها حاربت الرومان وظفروا بها فأخذوها أسيرة إلى روما حيث قضت بقية أيامها، وحازم إنفا يروى الأسطورة العربية ليبين ما حدث فيها من تغير بالزباء وقصر نظرها وعدم احتياطها حين رأت الإبل تسير وثيدة من ثقل ما تحمل، يقول:

وَعَرَّهَا جَدْعٌ قَصِيرٌ أَنْفَهُ فَأَمِنَتْهُ وَهُوَ مَرْهُوبُ الشَّدَا^(١)
وَأَوْقَرَ الْعَيْسَ رِجَالاً وَعَبَا^(٢) بُوْسًا لَهَا وَأَبُوْسًا فِيمَا عَبَا^(٣)
وَارْتَابَ فِي مَشْيِ الْجَمَالِ لِحْظُهَا وَلَمْ تَحْقُقْ عِنْدَمَا قَالَتْ: عَسَى^(٣)
وَمَا دَرَتْ مَا فَوْقَهَا حَتَّى غَدَتْ مُقْصَدَةً بِسَهْمٍ دَهَى مَا خَبَا^(٤)

ويتحدث عما تروى الأساطير والتاريخ عن رجالات العرب وملوكهم الجبابرة في الجاهلية، وينصح بالحزم في الأمور مع العزم، ويعرض كثرة من الأحداث عن شيوخ

(١) الشدا: الحد، شبه قصيرا بالسيف القاطع.

(٢) أوقر العيس: حمل الإبل. عباً: هباً.

(٣) قالت عسى أى أنها شكت ولم تتحقق من

(٤) دهى: دهاء ومكر. خبا هنا: أخطأ.

نيران الحروب ومن أخطأهم الحظ مثل امرئ القيس في ثأر أبيه حُجر. ويسوق أخبارا كثيرة عن رجالات الإسلام من مثل الجحّاف وإيقاعه بتغلب في معركة البشر ومصعب بن الزبير وقضاء عبد الملك بن مروان عليه وفقدان الخنساء لأخيها صخر ومراثيها فيه، ويتذكر حاله وغربته عن وطنه وينشد:

إِنَّ ثَوَاءَ الْمَرْءِ فِي أَوْطَانِهِ عِزٌّ وَمَا الْغُرْبَةُ إِلَّا كَالْتَوَى^(١)

ويذكر طائفة من الجاهليين والإسلاميين الذين فارقوا أوطانهم وحنّوا إليها حنيناً ملتماعاً، راجين أن يشتفوا بجرعة أو جرعات من مياهها. ويعود إلى ذكر الأحداث فيذكر جيش أبرهة حين غزا مكة قبيل الإسلام وكيف أن الله قضى على كيده فأرسل على جيشه طيراً جماعات دمرته تدميراً. ويذكر قصة هدهد سليمان وبلقيس ملكة سبأ وسد مأرب وانقضاضه وكيف أن الله أنقذ البشرية بإرساله نبي الهدى الذي أضاءت بنوره الآفاق، ويشيد بخلفائه ويفتح الأندلس، وبانتصار الموحدين في موقعة الأرك سنة ٥٩١. ويقول إن الأندلس أصبحت بعد هذا التاريخ فريسة للثوار، وعمّ طوفان فتنة انجلى عن ضياع جواهر الأندلس الكبرى: قرطبة وإشبيلية ومرسية، وأصبحت لسان الحال تملّ شجوها، وبكى كل ما هنالك وبكت حتى الأنهار بدمع هام وأنت الوديان وبثت شكواها الثغور والمدن، وانتثرت الأندلس كحبات عقد في حجور نصارى الشمال، واحتوا كل ما بتلك الديار من ذخائر الدين الحنيف، ويستثير بكل ذلك حفيظة المستنصر ويهيب به أن ينجد الأندلس ويسترجعها من براثن الإسبان منشداً:

ولو سَمَا خَلِيفَةُ اللَّهِ لَهَا	لَا فَتَكَّهَا بِالسَّيْفِ مِنْهُمْ وَاقْتَدَى
فَفِي ضَمَانٍ سَعْدِهِ مِنْ فَتْحِهَا	دَيْنٌ عَلَى طَرْفِ الْعَوَالِي يُقْتَضَى ^(٢)
فَقَدْ أَشَادَتْ أَلْسُنُ الْحَالِ بِهِ	حَيٌّ عَلَى اسْتِفْتَا حِهَا حَيٌّ عَلَى
أَثَأَى الْعِدَا مَا كَانَ مَرُوبًّا بِهَا	وَهُوَ الَّذِي يُرْجَى بِهِ رَأْبُ الثَّأَى ^(٣)
مَا زَالَ يُعَلِّي الْمَلَوَانُ نَصْرَهُ	وَسَيْفُهُ يَخْطُ مَا يُمَلَّى الْمَلَا ^(٤)

ويمضى في استصراخه لإنقاذ الأندلس بكل ما يستطيع من كلم مثير، ويهتف يهتاف

(١) ثواء: إقامة. التوى: الهلاك.

الصدع والفتق.

(٢) العوالي: الرماح.

(٤) الملوان: الليل والنهار. الملا هنا: الخلق.

الكريم.

(٣) أثنأى العدا: أكثر من القتل فيها.

والجراحات.. مرعوباً: ملتئماً. رأب الثأى: إصلاح.

المسلمين في كل أذان: «حَيَّ عَلَى» استفتاحها أى أقدم أقدم وبياخيل الله اركبى الطريق، فقد فتق الأعداء ما كان ملتصقا بها، وهو الذى يُرَجَى به لأُم ما انفتق، وإنه لمعوّد النصر. وما تزال انتصاراته تتوالى وما يزال يملئها على الأيام، ويستثير حميته، ويتصور كأن جيشه يوشك أن ينقض على الأعداء فيسحقهم، ويقول إن طاعته من طاعة الله، ويتمنى على ربه العفو والرضا، وينصح الإنسان أن لا يغتر بعمره وأن يعمل لآخرته قائلا:

لَا تَلَّهُ فِي وَجُودِكَ الْأَوَّلِ عَنْ وَجُودِكَ الثَّانِي وَنَهْنَهُ مَنْ لَهَا^(١)

ويقول إن للنفس وجهين: وجهها يشدّها إلى عالم القدس والنور أو عالم الكمال الأعلى ووجهها يشدّها إلى عالم الدنيا وشهوات الحياة، والعاقل من حرص على التمسك بسُنن السنة والاعتداء بأهلها وأن لا يأخذ من الآراء إلا ما وافق أقوال الله في فرقانه وأن يحرص على صنع الخير والعمل الصالح. ويتحدث عن قصيدته أو مقصودته وما بذل فيها من جهد في تخير الألفاظ والمعاني، وهى - كما رأينا - مجموعة من لوحات بدیعة تخلب القارئ بروعتها البيانية.

الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لا نبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب في جميع عصورهم وأقاليمهم، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنساني الخالدة، ويضيفون فيه من الأحاسيس والخواطر ما يملأ مجلدات في كل عصر على حدة، بل أيضا في كل إقليم. ودائما الشاعر موزع بين وصال ولقاء وبين وداع وفراق، تارة هائى بحبه وتارة شقى محروم يشكو الهجران، ويتمنى لمحة خاطفة ولو من بعيد، حتى إذا أقبلت عليه صاحبتة أحس بفرحة لا تماثلها فرحة، فإذا انصرفت عنه أظلمت الدنيا في عينيه، واحتمل ما لا يطاق من الآلام والعذاب، ومضى يئن بالشكوى ويتضرع ويستعطف. والغزل من قديم يتفرع عند العرب فرعين كبيرين: فرعا ماديا حسيا، يصدر فيه الشاعر عن الغريزة النوعية أحيانا، إذ مأربه منه اللذة الحسية، وهو لذلك قد يعنى بتصوير متاعه المادى فيه تصويرا مزريا وفرعا ثانيا عذريا عفيفا يتسامى فيه الشاعر عن الحس والمادة إلى النقاء والصفاء والطهر، وكأنه يحب صاحبتة لمعانى الحب والوجد في ذاتها، لا لشيء حسى وراءها، وهو الفرع الذى نمتلئ به إعجابا عند شعراء العرب، ممن أحبوا واستأثروا الحب بقلوبهم وأفئدتهم، حتى كأنما أصبح نارا في صدورهم لا يمكن إطفائها، وهم يتعذبون بتلك النار وما تذيبهم من العذاب واجدين فيها متاعا لا يفوقه متاع، متاع يرافقه دائما الحرمان والدموع والآلام. وهذان الفرعان من الحب العذرى والحب المادى يكتظ بهما الشعر الأندلسى ولأولهما دائما الغلبة والرجحان، ونشعر كأنما أصبح الناس جميعا شعراء ينظمون في الغزل والحب وبيان دقائقه ومشاعره، سواء في ذلك أمراء البيت الأموى وحكامه أو أبناء الشعب عربا وبربرا ومسالمة ومولدين، من ذلك قول الحكم الربضى في جوار غاضبته وهجرته^(١):

(١) انظر في مقطوعة البيتين الحلة السراء ٥٠/١ والبيان المغرب لابن عذارى ٧٩/٢.

قُضِبُ من البانِ ماسَتْ فوق كُتبانِ أعرَضَ عني وقد أزمَعَنَ هجراني
مَلَكْنِي مِلْكٌ من ذَلَّتْ عزائمُهُ للحب ذُلٌّ أَسِيرٍ موثِقٍ عانِ

وهو يشكو من هجر هؤلاء الجواري، ويعترف بأنهن يملكنه، بل يأسرنه بأغلال الحب، ويستعطفهنّ متذللاً. وكانت طروب زوجة ابنه الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شغفت زوجها حبا، غير أنه كان يعرف واجبه من قيادة الجيش في الدفاع عن الأندلس ضد أعدائه الشماليين، مما جعله يمزج غزله فيها ببيان شجاعته مثل قوله^(١):

إذا ما بدتْ لى شمسُ النها ر طالعةً ذكَّرْتَنِي طُروبا
عَدَانِي عنكَ مَزَارُ العَدَا وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ لَهَا مَاهِيَا^(٢)
سموتُ إلى الشُّركِ فى جَحْفَلٍ ملأتُ الحُزْنَ به والسُّهوبا

وقد استهل القصيدة بستة أبيات في الغزل بطروب ثم خلس إلى بيان بأسه وقوة جيشه واقتحامه معه للحزون والسهوب أو للمرتفعات والفلوات وكيف ظل طويلاً يَدْرِعُ غبار القتال حتى استحالت نضرة وجهه شحوبا ابتغاء ما عند الله من ثواب المجاهدين عن حمى الإسلام، ويفتخر بنسبه الأموى وأنه لا يزال يضرم ويطفئ حروبا في سبيل نصرة الدين الحنيف واستئصال أعدائه من أهل الصليب. وحسبنا ذلك من أمراء البيت الأموى في القرنين الثاني والثالث للهجرة على لسان الحكم وابنه عبد الرحمن. ولؤمن بن سعيد شاعر عبد الرحمن^(٣):

حُرْمَتُكَ ما عدا نظرا مُضْراً بقلبٍ بين أضلاعى مقيمٍ
فعينى منك فى جَنَاتِ عَدْنٍ مخلدةً وقلبي فى الجحيم

والبيتان تلاعباً بالمقابلة بين جنات عدن والجحيم أكثر منهما غزلاً يعبر عن عاطفة حارة، وللقفاط الهجاء غزلٌ يُروى فى ترجمته بالكتب الأدبية من مثل قوله^(٤):

ياغزلاً عن لى فابُ تَزَّ قَلْبِي ثم ولى
أنتَ منى بفؤادى يامُنَى نفسى أولى

وهما بيتان رقيقان ولغتهما عذبة. ولابن عبد ربه شاعر الأمير عبد الله وحفيده

(٣) المغرب ١/١٣٣.

(١) راجع فى قصيدة هذه الأبيات الحلة السراء

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٣٠٢

١١٤/١. والمغرب ١/٤٧ والبيان المغرب ٢/٨٥.

ومرت فى الحديث عن الهجاء مصادر ترجمته.

(٢) لها ما: جيشاً كثيفاً.

عبد الرحمن الناصر غزليات فيها جمال في التصوير ورشاقة في التعبير كقوله ^(١):

يَالْوُلُؤَا يَسْبِي الْعُقُولَ أُنْقَا وَرَشَا بَتَعْذِيبِ الْقُلُوبِ رَفِيقَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ دُرًّا يَعُودُ مِنَ الْحَيَاءِ عَقِيقَا
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى مُحَاسِنِ وَجْهِهِ أَبْصَرْتَ وَجْهَكَ فِي سَنَاهِ غَرِيقَا
يَأْمَنُ تَقَطُّعَ خَضْرَاهُ مِنْ رِقَةٍ مَا بَالُ قَلْبِكَ لَا يَكُونُ رَقِيقَا

والصور متناسقة تناسقا بديعا فاللؤلؤ الأبيض تتضرج الحدود منه بحمرة الحياء فيصبح عقيقا أو ياقوتا، والبصر يفرق في محاسن الوجه وسناها أو ضوئها المتوهج جمالا وفنتة، والخضر رقيق رقة شديدة، واللغة فيها انسياب وصفاء وسلاسة، وللحكم المستنصر ^(٢):

عَجِبْتُ - وَقَدْ وَدَّعْتُهَا - كَيْفَ لَمْ أُمْتُ وَكَيْفَ انْتَنَتْ بَعْدَ الْوَدَاعِ يَدِي مَعِي
فِيَأْمُقِلْتِي الْعَبْرَى عَلَيْهَا اسْكَبِي دَمًا وَيَا كَيْدِي الْحَرَى عَلَيْهَا تَقْطَعِي

والبيتان ينمان عن شعور مرهف رقيق، ولغتها سلسلة. ومن كبار الشعراء لعهد الحكم المستنصر الرمادى وسنفرد له كلمة، ومنهم أحمد بن فرج الجياني وقد رَجَّ به المستنصر في سجن ببلدته جَيَّان لما رُفِعَ له من أنه هجاه، فسجنه ومات في سجنه، ولم يشفع له تأليفه كتاب الحدائق الذى تحدثنا عنه في غير هذا الموضع، وهو يعد بحق حامل لواء الشعر العذرى في الأندلس، كما يتضح في قوله ^(٣):

وِطَائِعَةُ الْوِصَالِ عَفَفْتُ عَنْهَا وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمَطَاعِ
بَدَتْ فِي اللَّيْلِ سَافِرَةً فَبَاتَتْ دَيَّاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةَ الْقِنَاعِ ^(٤)
وَمَا مِنْ لِحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا إِلَى فِتَنِ الْقُلُوبِ بِهَا دَوَاعِ
فَمَلَكْتُ النَّهْيَ جَمَّحَاتٍ شَوْقِي لِأَجْرِي فِي الْعَفَافِ عَلَى طَبَاعِي
وَبَتْ بِهَا مَبِيتَ السَّقْبِ يَظَا فَيَمْنَعُهُ الْكِعَامُ مِنَ الرُّضَاعِ ^(٥)
كَذَاكَ الرُّوضُ مَا فِيهِ لِمَثَلِي سَوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ

ص ١٤٠ والمغرب ٥٦/٢ والمطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.

(٤) السقب: ولد الناقة. الكعام: ما يجعل على فمه لئله من الرضاع.

(١) النفع ٥٦٤/٣.

(٢) مغرب ١٨٧/١.

(٣) انظر في ترجمة أحمد بن فرج الجياني وشعره الحميدى ص ٩٧ والقلائد ص ٧٩ والبقية

ولست من السَّوائِمِ مُهْمَلَاتٍ فَأَتَخَذُ الرِّيَاضَ مِنَ المِرَاعَى^(١)

وابن فرج الجباني يصف لنا جمال صاحبه الخلاب وأنها كانت طوع وصاله وحيه، وكيف أنه أمضى معها ليلة سافرة فاتنة فؤاده، وفي كل لحظة تتجدد فتنتها، ومع ذلك ظل معتصبا بالعفاف المفطور عليه، يردُّ بعنفٍ جمحات عواطفه وغرائزه، ساميا بنفسه عن عالم الحيوانية والغريزة النوعية إلى عالم كله سمو وصفاء ونقاء وطهر ما وراءه طهر. ويصور نفسه مثل سقب يظلمأ والكعام على فمه، بل إنه ليكفيه من صاحبه النظر، يشفى به غليله إذ ليس كغيره ممن حوله المشبهين للحيوانات المرسلّة في المِرَاعَى ترعى كل ما تلقاه. ولا نشك في أن هذا التسامي اقترن بالحب والغزل في الأندلس منذ أول الأمر، غير أن ابن فرج الجباني عبّر عنه في لوحة بديعة، وكأنما رسمه فيها وجسده تجسيدا قويا. ولجعفر المصحفي وزير الحكم المستنصر^(٢):

كَلَّمْتَنِي فَقُلْتُ: دُرٌّ سَقِيطٌ فَنَأَمَلْتُ عِقْدَهَا هَلْ تَنَاطَرُ
فَازْدَهَا تَبَسُّمٌ فَأَرْتَنِي عِقْدَ دُرٍّ مِنَ التَّبَسُّمِ آخَرُ

واستعارة الدر للكلام وللشعر قديمة، غير أن المصحفي عرف كيف يحورها ويعرضها عرضا بديعا، حتى ظن من حسن كلام صاحبه أنها تلفظ دررا حقيقية أو أن عقدها تناثرت درره وحباته. وللشريف الطليق حفيد الناصر غزليات كثيرة، وسنخصه بكلمة.

وتنشب الفتنة وقوج الأمور وتضطرب اضطرابا شديدا، ويتولى الخلافة ما يقرب من سبع سنوات سليمان الملقب بالمستعين أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، وكان يحسن نظم الشعر، وضاع شعره مع ما ضاع زمن الفتنة، إلا قصيدة نظمها معارضة لقصيدة هرون الرشيد: «ملك الثلاث الآنسات عناني» وفيها يقول المستعين^(٣):

عَجِبًا يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي وَأَهَابُ لَحْظَ فَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ
وَمَلَكْتُ نَفْسِي ثَلَاثَ كَالدُّمَى زُهِرُ الْوُجُوهِ نَوَاعِمُ الْأَبْدَانِ
فَأَبْحَنُ مِنْ قَلْبِي الْحِمَى وَتَرَكْنِي فِي عِزِّ مُلْكِي كَالْأَسِيرِ الْعَانِي
لَا تَعْدِلُوا مَلِكًا تَذَلُّ لِلْهَوَى ذَلَّ الْهَوَى عِزُّ وَمَلِكٌ ثَانِي

السيرة ٢٥٧/١ - ٢٦٧ والذخيرة ٥٨/٤

وما بعدها.

(٣) الذخيرة ٤٧/١.

(١) السوائِم: الحيوانات المخلاة في المِرَاعَى.

(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة)

ص ٦٩ وانظر في جعفر وشعره المطمح ص ٤ والحلة

والقصيدة غزلية بديعة. ولم يهنا المستعين بخلافته إلا نحو سبع سنوات، وفتك به بنو حمود واستولوا على الخلافة، وعادت إلى أحفاد عبد الرحمن الناصر بعد سبعة أعوام، وتولاها عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر سنة ٤١٤ لمدة شهرين إذ فتك به ابن عمه المستكفي. وكان المستظهر شاعرا وشغف بابنة عم من أعمامه، وروى له ابن بسام فيها أربع مقطوعات تصور حبه لها ومدى تعلقه بها من مثل قوله ^(١):

غَزَالُ بَرَاهِ اللَّهِ مِنْ نَوْرِ عَرْشِهِ لِنَقْطِيعِ أَنْفَاسِي وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسِ ^(٢)
وَهَبْتُ لَهُ مُلْكِي وَرَوْحِي وَمُهْجَتِي وَنَفْسِي وَلَا شَيْءَ أُعْزُّ مِنَ النَّفْسِ
وكثيرون من أبناء البيت الأموي ترجم لهم كتب الأدب وتذكر لهم غزليات وأشعاراً مختلفة. ومن الشعراء المهمين الذين عاشوا بقرطبة زمن الفتنة عبادة بن ماء السماء الحزرجي الأنصاري الذي أعطى الموشحة صيغتها النهائية، ومن غزلياته قوله ^(٣):

إِذَا رُمْتُ قَطْفَ الْوَرْدِ سَاوَرَنِي الصُّدْغُ بِعَقْرِ سِحْرِ فِي فَوَادِي لَهُ لَدَغٌ ^(٤)
غَزَالُ بِجَسْمِي فِتْرَةً مِنْ جُفُونِهِ وَفِي أَدْمَعِي مِنْ لَوْنِ وَجْنَتِهِ صَبْغٌ
زِيَارَتُهُ أَخْفَى خَفَاءً مِنَ السُّهَا وَدُونِ فَرَاعِي مِنْ مَحَبَّتِهِ الْفَرْعُ ^(٥)

وهو يقول إنه إذا رام قطف الورد من خدود صاحبه ساوره أو وثب عليه ومنعه عقرب الصدغ، وإنه ليشعر بلدغاته في فواده. وزعم أنها أعدت دموعه بلون خدودها الوردية كما أعدت جسمه بفتور جفونها وانكسارها البديع، ويقول إن زيارتها تتعذر عليه حتى لتصبح كأنها نجم السها الذي تتعذر رؤيته. ويقول ابن شهيد معاصره، وكان شاعرا بارعا وكاتباً مبدعاً، وسنترجم له بين الكتاب، ومن غزلياته قوله ^(٦):

وَلَمَّا فَشَا بِالْدمْعِ مِنْ سَرٍّ وَجَدْنَا إِلَيَّ كَاشِحِينَ مَا الْقُلُوبُ كَوَاتِمٌ ^(٧)
أَمْرُنَا بِأَمْسَاكِ الدُّمُوعِ جَفُونَنَا لِيَشْجِي - بِمَا تَطْوِي - عَذُولٌ وَلَا تُمْ
فَظَلْتُ دُمُوعُ الْعَيْنِ حَيْرَى كَأَنَّهَا خِلَالَ مَا قَيْنَا لَالٍ تَوَاتِمٌ

وتصويره لدموعه ودموع صاحبه وإمساكها بها تفرق في جفونها ولا تسقط باللالئ التواتم تصوير بديع.

(١) الذخيرة ١ / ٥٧.

والهلاک.

(٢) براه: خلقه.

(٦) ديوان ابن شهيد (تحقيق يعقوب زكي) طبع

القاهرة ص ١٥٤.

(٣) الذخيرة ١ / ٤٧١.

(٤) ساوره: وثب عليه.

(٧) الكاشحين جمع كاشح: العدو المبغض.

(٥) السها: نجم خفي. الفرغ هنا: الموت

وتتكاثر سيول الغزل في عصر أمراء الطوائف، عصر الغناء واللهو ومجالس الأنس، ونجده متداولاً شائعاً على ألسنة جميع الأمراء والوزراء والشعراء والفقهاء، وكأنه تآلف يضمونها جميعاً إلى صدورهم وفي مقدمتهم الفقيه ابن حزم، وسنفرد له ترجمة بين الكتاب، وكان شاعراً وله غزليات كثيرة منها قوله^(١):

وددتُ بأن القلب شقٌّ بُمْدِيَّةٍ وأدخلت فيه ثم أُطِيقَ في صَدْرِي
فأصبحت فيه لا تحلّين غيره إلى مُقْتَضَى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييتُ فإن أمتُ سكنتِ شِغافَ القلب في ظِلِّمِ القَبْرِ

وقوله متحولاً بمحبوبه، أو محبوبته، إلى إدراك مجرد وراء صورته الحسية^(٢):

أَمِنْ عَالَمِ الْأَمْلاكِ أَنْتَ أَمْ أَنْسِي أَيْنَ لِي فَقَدْ أَزْرَى بِتَمْيِيزِي الْعِي
أَرَى هَيْئَةً إِنْسِيَّةً غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا أَعْمَلَ التَّفَكِيرَ فَالْجِرْمُ عُلُوِّي
عَدَمْنَا دَلِيلًا فِي حَدُوثِكَ شَاهِدًا نَقِيسُ عَلَيْهِ غَيْرَ أَنَّكَ مَرْنِي
وَلَوْلَا وَقُوعُ الْعَيْنِ فِي الْكَوْنِ لَمْ نَقُلْ سِوَى أَنَّكَ الْعَقْلُ الرَّفِيعُ الْحَقِيقِي

فهو لا يدري أحببوه إنسي أم ملك طاهر، وبحار، وتعظم حيرته، فالهيئة إنسية، والجسد علوي، بل لكأنه تخلص من جسديته، ولولا أن العين تبصره وتشاهده لظن أنه العقل الرفيع الذي لا يحده مكان حسي. وملتقى بابن برد الأصغر، وسنخصه أيضاً بترجمة بين الكتاب، وكان مثل ابن حزم شاعراً، وله غزل بديع مثل قوله^(٣):

لَمَّا بَدَأَ فِي لَزْوَرٍ دَيْءُ الْحَرِيرِ وَقَدْ بَهَرُ
كَبُرْتُ مِنْ فَرْطِ الْجَمَا لِي وَقَلْتُ: مَا هَذَا بَشَرُ
فَأَجَابَنِي: لَا تُنْكِرَنَّ ثَوْبَ السَّمَاءِ عَلَى الْقَمَرِ

والأبيات تنم عن شعور رقيق مرهف مع عذوبة الألفاظ والصياغة وجمال الخيال والتصوير. ولأبي جعفر الخولاني أحد شعراء المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية^(٤):

بَدْرُ أَلَمٍ وَبَدْرُ التَّمِّ مُمْتَحِقٌ وَالْأَفَقُ مُحْلُولُكَ الْأَرْجَاءِ مِنْ حَسَدِ^(٥)
أَرَدْتُ تَوْسِيدَهُ خَدْيَ وَقَلِّ لَهُ فَقَالَ: كَفَكَ عِنْدِي أَفْضَلُ الْوُسْدِ

(٤) الذخيرة ١٣٦/٢.

(١) طوق الحماة (تحقيق د. الطاهر مكي) طبع دار

المعارف ص ٩٢.

(٢) طوق الحماة ص ٢٥.

(٣) المغرب ٩٠/١.

(٥) بدر التم: البدر في تمامه واكتماله. ممتحق:

مختف نوره. محلولك: شديد السواد.

فبات في حَرَمٍ لا غَدْرَ يَذْعُرُهُ وَبِتْ ظَمَانٌ لم أَصْدُرْ ولم أَرِدْ

فكأنما بات بجوار صاحبتة في حرم مقدس ملتزما للعفاف لا ينقح غُلَّةَ حَبِّه بِرِيٍّ منها ورشف والمنهل طوع يده وهو لا يَرُدُّه ولا يصدر عنه، بل يكتفى بتكرار النظر للحدود والوجنات. وينشد له ابن بسام قطعاً أخرى مماثلة في العفاف مع ما يحمل من ألم الحب وأثقاله.

وشاع في الأندلس - كما مر بنا في الشواهد السابقة، وكما يلي في شواهد مماثلة - هذا الغزل العذري أو الروحي السامي الذي تُعدُّ العفة مقومه الأساسى والذي يجرى فيه هيام ليس بعده هيام مع الإجلال للمرأة والشعور بقدسيته حتى ليشرد لبُّ المحب والمحبوبة معه ويغيب عن حسه، مكتفياً منها - وهى طوع يديه - بنظراته وكأنه في حلم - أو - كما يقول الخولاني - في حرم مقدس.

وهذا الحب الأندلسى العذري أو الروحي النقى تطاير شرر كثير منه إلى الأدبين الإسباني والفرنسى، وهو يتضح عند الإِسبان أشد الوضوح في قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧-١٦١٦ م) وهو يذكر في سطورها الأولى أنه يقصُّها عن عربى، وكأنه مترجم لها فحسب. ونمضى في قراءتها فنشعر كأنما تجسد في بطلها الفارس العاشق: دون كيشوت الحب الروحي السامي الأندلسى، وهو يخرج في حبه عن طوره ويصبيه الجنون أو ما يشبه الجنون، إذ يهيم - ومعه تابعه سانشو - على وجهه متنقلاً في إسبانيا مقتحمًا في أوقات جنونه كل ما يصادفه - أو يظنه - من أخطار أملاً في رضا محبوبته. وكلما تغلب على خطر تذكرها، إذ هى مثله الأعلى، وهو لذلك لا يزال يقدم إليها حَبِّه وشجونه فيه. وعلى نحو ما يتألق شعر الحب الروحي الأندلسى عند الإِسبان في قصة دون كيشوت يتألق عند الفرنسيين فيما نظمه شعراء التروبادور في القرن الثانى عشر الميلادى، إذ تتشابه أشعارهم من حيث الشكل وطريقة النظم والعروض والأغصان والأقوال والقوافى مع الموشحات الأندلسية^(١)، وأيضاً فإنها تتشابه معها ومع الغزل الأندلسى العفيف في المضمون: في عذاب الحب وحرقة القلب والخشوع أمام المحبوبة والطاعة والتذلل بين يديها وأيضاً فيما يجرى في هذا الغزل من ذكر خداع المحبوبة أحياناً وذكر الرقباء والوشاة. ويقول عبد الرحمن بن مُقانا^(٢):

العامة للتأليف والنشر) ص ٥٧ وما بعدها.
(٢) الذخيرة ٧٨٨/٢.

(١) انظر الدكتور مكى في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية (طبع الهيئة المصرية

لمن طَلَّلَ دَارِسٌ بِاللَّوَى كحاشية البُرْدِ أو كالرَّدَا
رَمَادٌ وَتُوِّي كُكُحْلُ العُرُوسِ وَرَسْمٌ كَجَسْمِ بَرَاهِ الهَوَى
غدا مَوْسَمًا لوفود البَلَى وراح مَرَاحًا لِسِرْبِ المَهَا
عجبتُ لطيفِ خيالٍ سَرَى من السَّدْرِ أُنَى إلَى اهْتدى
وكيف تجاوزَ جَوَزَ الحجازِ وَجَوَزَ البحارِ وَسِدْرَ المُنَى
ولم يَثْنِه حرٌّ نارِ الضلوعِ وَبَحْرُ الدُمُوعِ وَرِيحُ النُّوَى
فذكرَ أَيْمانًا بالعَقِيقِ وَلَيْلَتَنَا بهضابِ الحِمَى

وقد ضمن الحديث عن الأطلال وطيف الخيال صورا وخواطر جديدة، فالطلل الدارس باللوى أو منقطع الرمل يشبه في عين المحب الواله الرداء المعلم أو حاشيته المنمنمة، والرماد كأنه كحل العروس سوادا والتماعا. وقد أصاب الرسم أو الطلل - لفراق أحبائه - ضنا المحبين، ولم يكتف بأن جعله مسرحا لبقر الوحش مثل امرئ القيس في مطلع معلقته فقد جعله أيضا موسما لوفود البلى، وأيضا لم يكتف في ذكر المواضع بموضع شجر السدر في حمى صاحبه، فقد أضاف إليه مواضع أخرى من الجزيرة: جوز (وسط) الحجاز والعقيق أحد وديانه. وكل ذلك ليجلب إلى قصيدته جوَّ بوادى الحجاز وحبها العذرى المتنازع، وصوره مضطربا في حنايا ضلوعه. وعجب أن يصل إليه طيف الخيال ولا تثنيه النار الصاعدة من صدره ولا بحار الدموع المنهمرة من عينيه، ولا ريح النوى العاصفة، وبذلك مزج الغزل الأندلسى بروح الغزل العذرى الظامئ المتلهف أبدا. ويقول محمد بن الين وزير يحيى الوالى على يابرة لأبيه المظفر أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) في إحدى قصائده^(١):

غَصَبُوا الصَّبَاحَ فَقَسَّمُوهُ خُدُودَا وَاسْتَوْهَبُوا قَضَبَ الْأَرَاكِ قُدُودَا
وَرَأَوْا حَصَى الْيَاقُوتِ دُونَ مَحَلِّهِمْ فَاسْتَبَدَّلُوا مِنْهُ النُّجُومَ عُقُودَا
وَاسْتَوْدَعُوا حَدَقَ الْمَهَا أَجْفَانَهُمْ فَسَبَّوْا بِهِنَّ ضَرَاغِمًا وَأُسُودَا
لَمْ يَكْفِ أَنْ سَلَبُوا الْأَسِنَّةَ وَالظُّبَا حَتَّى اسْتَعَانُوا أَعْيُنَا وَنَهْدَا
وَتَضَافَرُوا بِضَفَائِرٍ أَبَدُوا لَنَا ضَوْءَ النَّهَارِ بِلَيْلِهَا مَعْقُودَا

وهي قطعة من الغزل الفريد بروعة تصاويره، وهي مثل سابقتها من أطرف ما يصور تواصل الشعر الأندلسى مع أصوله الشعرية العربية، فكل ما في القطعة من صور طالما

كرره العرب في غزلياتهم، فقالوا إن الحدود مشرقة كالصباح، والقُدود أو القامات كغصون الأراك، وجواهر العقود على الترائب كالنجوم، والحدق تسبى الضراغم والأسود، وكأنا الأعين والنهود أسنةً وظبا سيوف، وكأنا الضفائر ليال حالكة السواد. وكل ذلك صاغه ابن البين هذه الصياغة الرائعة، فإذا كل هذه الصور تأخذ نسقا أندلسيا جديدا، ينعش الفكر بعبقه. ومن أصحاب الغزل المبدعين المعاصرين لابن البين ابن زيدون وسنفر له ترجمة مع صاحبه ولادة.

ونلتقى بابن الحداد الذي ترجمنا له بين شعراء المديح، ويقول ابن بسام في ترجمته^(١) له: «كان قد مُني في صباه بصبيّة نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب.. وكان يسميها نُويرَة كما صنع الشعراء الظرفاء قديما في الكناية عن أحبوه..» وكان اسمها الحقيقي جميلة» وإنما اختار لها هذا الاسم تصغيرا للكلمة «نار» التي أشعلها حبها في قلبه» وأنشد ابن بسام له فيها إحدى عشرة منظومة بين قصيدة ومقطوعة، وفيها يعرض مرارا لعقيدة التثليث المسيحية وللقدس والصلوات في الكنائس، وهو يستهلها بتائية يذكر فيها حضوره لرؤية فتاته المسيحية الاحتفال بعيد فصح في إحدى الكنائس وقد تراءى الأسقف ممسكا بمصباح وعصا ومن حوله القسس وعينه تسرح - كما يقول - في الحسنات المسيحيات، والجميع يتلون صحف الإنجيل، ويخلص من ذلك إلى وصف مشاعره تلقاء فتاته فيقول^(٢):

الشمسُ شمسُ الحسَنِ من بينهم	تحت غَمَامَاتِ اللَّثَامَاتِ
ونَظَرِي مَخْتَلِسٌ لَمَحَهَا	وَلَمْحُهَا يُضْرِمُ لَوْعَاتِي
وفِي الْحَشَا نَارٌ نُوَيْرِيَّةٌ	عُلِقْتُهَا مِنْذُ سُنِّيَاتِ
لَا تَنْطَفِي وَقَتًا وَكَمْ رُمْتُهَا	بَلْ تَلْتَظِي فِي كُلِّ أَوْقَاتِي

وفي ذكر ابن الحداد لغمامات اللثامات في البيت الأول ما قد يشير إلى أن فتاته كانت راهبة، ويؤكد ذلك أنه دائما في أشعاره لها لا يراها إلا في الكنائس وبين القسس في أثناء التراتيل والصلوات مع تكراره لذكر الصلبان وعقيدة التثليث. وكان حبا في صباه كما يقول ابن بسام - أو في بواكير شبابه، وكان من جانب واحد إذ لا وصف فيه للقاء ولا لوداع.

(٢) الذخيرة ٧٠٥/١.

(١) الذخيرة ٦٩١/١ وما بعدها.

وكان في هذا العصر كثيرات من الحرائر والجوارى يحسنن نظم الشعر، إذ كان الآباء - أمراء ووزراء وعلماء وأدباء - يعنون بتثقيف فتياتهم، كما مر بنا في غير هذا الموضع، وبالمثل كانت هناك عناية واسعة بتثقيف الجوارى، وكانت تستيقظ في أثناء هذا التثقيف ملكات بعضهن الشعرية، واشتهرت من دانية «العبادية»^(١) التي أهداها أميرها مجاهد العامري إلى المعتضد أمير إشبيلية بأنها كانت أديبة ظريفة كاتبة شاعرة مع معرفة دقيقة باللغة، واقترن بها المعتضد، وتصادف أن سهر ليلة لأمر شغله، وكانت نائمة، فقال:

تَنَامُ وَمُذْنَفَهَا يَسْهَرُ وَتَصْبِرُ عَنْهُ وَلَا يَصْبِرُ
فأجابته بديهة بقولها:

لئن دام هذا، وهذا بهٍ سيهلك وجداً ولا يشعر

وكانت لا تقل عنها إجادة للشعر مع سرعة البديهة «اعتماد»^(٢) الملقبة بالرُمَيْكِيَّة زوجة المعتمد ابنه، وهى إشبيلية، ويقال إن سبب معرفته بها أنه ركب نهر إشبيلية في نزهة مع ابن عمار وزيره، وقد أحالت الريح سطح النهر إلى ما يشبه زَرْدَ الدَّرْع: فقال المعتمد لابن عمار: أَجِزْ

صَنَعَ الرِّيحُ مِنَ الْمَاءِ زَرْدَ

فأطال ابن عمار التفكير ولم تسعفه بديهته، فقالت فتاة من الغسَّالات على حافة النهر:

أَيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدَ

فعجب ابن عباد من حسن ما أجازت به الفتاة الشطر الذى صاغه، مع عجز ابن عمار الشاعر النابه، والتفت إليها، فأعجبته، فسألها: أأنت متزوجة؟ فقالت: لا. فتزوجها وهى أم أولاده النجباء: الراضى وإخوته وأختهم بثينة وكانت شاعرة. وعلى شاكلة الرُمَيْكِيَّة والعبادية «غاية»^(٣) المنى» جارية المعتصم بن صامح أمير المرية، وكانت قينة مغنية وتجيد نظم الشعر، وعُرضت عليه، فلما مثلت بين يديه قال لها: ما اسمك؟ قالت: غاية المنى، فقال لها: أجيزى:

سَلْ هَوَى غَايَةِ الْمُنَى

(١) انظر في العبادة والخير المذكور عنها نفح الطيب ٢٨٣/٤ الثامن للمراكشى ص ٤٨٨ وما بعدها.

(٢) انظر في العبادة والخير المذكور عنها نفح

(٣) راجع في اعتماد الرميكية النفح ٢١١/٤.

فقلت بديهة:

مَنْ كَسَى جِسْمِي الضَّنَا
وأراني مدلها سيقول الهوى أنا

وأعجب بها، واستبقاها بين جواريه، وربما كانت أم ابنته أم^(١) الكرم، وكان أبوها المعتصم قد اعتنى بتأديبها، لما رأى من ذكائها، حتى نظمت الشعر والموشحات وأحبت - كما يقول ابن سعيد - الفتي المشهور بالسهار، وأنشد لها:

ألا ليت شِعْرى هل سبيلٌ لخلوةٍ ينزّه عنها سَمْعُ كلِّ مراقِبٍ
وياعجباً أشتاق خلوةً مَنْ غدا ومثواه ما بين الحشا والترائب

والصورة في البيت الثاني تدل على أنها كانت شاعرة تجيد نظم الشعر، ولعلها كانت تجيد أيضاً نظم الموشحات.

ونغضى إلى عصر المرابطين، ويلقانا غزل كثير على أنسنة الشعراء، إذ لا يكاد يوجد شاعر فذ إلا وهو ينظم فيه معبرا عن مشاعره الوجدانية، من ذلك قول الأعمى التظليل^(٢):

أريقُ ثَعْرِكَ أم بنتُ الزَّراجين أريقُ ثَعْرِكَ أم بنتُ الزَّراجين
جِسْمُ بَرَاهِ الإله حين صَوْرُهُ من ماء لؤلؤةٍ والنَّاسُ من طِينٍ
وحاشَ لله أن يُعْزَى إلى بَشَرٍ أو أن يضافَ لِحُسْنِ الخُرْدِ العَيْنِ^(٤)
يُديرُ لى مُقْلاً مَرْضَى بلا سَقَمٍ يُميتنى تارةً فيها ويُحييني
كم زَفْرَةٍ تستعيرُ النارَ وَقَدَّتْهَا ولوعةٍ طَى أضلاعى تناجيني

وهو يقرن ريق صاحبه إلى الخمر ورائحتها الطيبة الذكية إلى مسك دارين: مرفأ لسفن الهند على الخليج العربي كانت تُحْمَلُ إليه أنواع المسك والطيب، طالما أشاد بطيبه ومسكه شعراء العرب. ويجعل صاحبه ملاكا صوره الله - حين خلقه - من ماء لؤلؤة

(١) راجع في أم الكرم المغرب ٢٠٢/٢ وما بعدها.

الطيبة.

(٢) الديوان ص ٢١١.

(٤) الخرد جمع خريدة: الحساء. العين جمع عيناء:

واسعة العين الفاتحة.

(٣) الزراجين جمع زرجون: شجرة العنب. بنت

الزراجين: الخمر. العرف والنشر: الرائحة الذكية

إشادة بجمالها الخلاب الذى لا يقاس به - ولا يمكن أن يُقرن به - جمال الخرد العين أو الفاتنات ساحرات العيون من البشر، ويشعر فى حرارة زفراته كأنها أنفاس نار متقدة، وتكتظ أضلاعه بلوعات محرقة ممضة. وسنخص معاصره ابن الزقاق بكلمة أو ترجمة مختصرة، ولابن عبدون^(١):

وما أنسَ لَيْلَتنا والعِنا قُ قد مَزَجَ الكلُّ منا بكلِّ
إلى أن تقوَّسَ ظَهْرُ الظلامِ وأشْمَطَ عارضُهُ واكْتَهَلَ^(٢)
ومسَّ رداءَ رقيقِ النِّسيمِ على عاتقِ الفَجْرِ بعضُ البَلَلِ

وقد صوّر هرم الليل وشيخوخته وهو يكاد يلفظ أنفاسه لتفلّت أضواء الفجر وحواشيه بعجوز تقوس ظهره ووهنت عظامه من الهرم والشيخوخة، واشتعلت صفحة خدّه شيباً. والتفت إلى ما يحدث من برودة الجوفى أخريات الليل، فتخيل النسيم العليل حينذاك رداء رقيقاً على منكب الفجر مسّه بعض البلل، وهى صورة بديعة. ويقول ابن خفاجة فى وصف صاحبة له^(٣):

غزاليَّةُ الأحاظِ رَيْيَّةُ الطُّلى مُدَامِيَّةُ الأَلَمَى حَبَايِيَّةُ النَّفَرِ^(٤)
تَرَنُّجُ فى مَوْشِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ كما اشْتَبَكَ زُهْرُ النُّجُومِ على البَدْرِ^(٥)
تلاقى نسيبى فى هواها وأدمعى فمن لَوْلُوْ نَظْمٍ ومن لَوْلُوْ نَثْرٍ
وقد خلعت ليلاً علينا يدُ الهوى رداءَ عِنَاقٍ مَرَقَتْهُ يَدُ الفَجْرِ

والأبيات - مثل أشعار ابن خفاجة - تكتظ بالصور، فصاحبه مثل الغزال فى سحر عيونه والظُّبى فى طول جيده أو عنقه وجماله، أما شفتاها فَمَبْسِمٌ دَنٌّ خمرى، وأما ثغرها فعلى حِفافيه حَبَابٌ هذا الدنُّ المسكر، ومن حولها وَشَى ثوبها الذهبى يتجمع كنجوم مشرقة مضيئة حول القمر المنير. ويبدع ابن خفاجة حين يتصور - فى البيت الأخير - يد الحب والهوى تنسج حوله هو وصاحبه رداء غريباً، هو رداء العناق، ويأسى لأن يد الفجر امتدت له ممزقة إيذاً بالوداع. ويقول يحيى^(٦) بن بقى المارة ترجمته بين الوشاحين:

١١ - الذخيرة ٧١٥/٢ والمغرب ٣٧٥/١.
(٢) أشمط العارض: شابت صفحة الخد.
(٣) الديوان ص ٢٤.
(٤) الريم: الطيب خالص البياض. الطلى: العنق.
(٥) زهر النجوم: النجوم المشرقة المضيئة.
(٦) (٦) الذخيرة ٦٣٦/٢ والمغرب ٢١/٢.

بأبي غزال غالته مُقلتي بين العذيب وبين شطى بارق^(١)
وسألت منه قبلة تشفى الجوى فأجابني فيها بوعيد صادق^(٢)
بتنا ونحن من الدجى فى لجة ومن النجوم الزهر تحت سراق
حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئا وكان معانقى^(٣)
باعده عن أضلع تشاقه كيلا ينام على وساد خافى

وهو يتخيل أنه لقي صاحبه بين موضعين من المواضع التى طالما لقي فيها شعراء الغزل العربى محبوباتهم، وهما العذيب وبارق، ويقول إنها واصلته ومدّت له فى الوصال واللقاء، وأنها باتت معه فى ليلة تحت سراق النجوم المضيئة، معانقة له، حتى إذا ألم النوم بمعاقد أجفانها دفعه حنوه عليها إلى أن يزحزحها قليلا عن صدره الذى توسدته، حتى لا تنام - كما يقول على وساد خافى بحبها نابض نبضا شديدا. ويقول ابن باجة المتفلسف^(٤):

هم رحلوا يوم الخميس غديّة فودّعهم لما استقلّوا وودّعوا^(٥)
ولما تولّوا ولت النفس إثرهم فقلت: أرجعى قالت إلى أين أرجع
ولى جسد ما فيه لحم ولا دم ولا هو إلا أعظم تتقعّع^(٦)
وعينان قد أعماه كثر البكا وأذن عصت عذالها ليس تسمع

وهو يقول إن صاحبه وأهلها رحلوا يوم الخميس صباحا فودّعوه وودّعهم ورحلت نفسه فى إثرهم، وعينا يدعوها إلى الرجوع وهى تردد إلى أين أرجع؟ وقد ضنى جسدى ونحل حتى لم يبق فيه لحم ولا دم، إذ أصبح أعظما فوق أعظم. وحين تتحرك أى حركة تسمع قعقععتها وأصواتها، فقد صار جلدا على عظم كما يقولون، وابتضت عيناه من كثرة البكاء وصارت أذنه صماء لا تسمع ما يقوله العذال من لغو وهراء.

ومن الشاعرات البارعات اللاتى أظلهن عصر المرابطين ولحقن - فى أغلب الظن - عصر الموحدين نزهون وحمدة الغرناطيتان، أما نزهون^(٧) فيقول ابن الأبار أحسب أن

والذيل والتكملة للمراكشى (القسم الثانى من السفر الثامن، نشر بنشره بالمغرب ص ٩٣: والبيغة ص ٥٣٠ والنفع ٢٩٥/٤ والإحاطة وانظر ٤٢٤/١، ٣٤٤/٣ وراجع فى أبيها التكملة رقم ٥١٥.

(١) العذيب: ماء. بارق: جبل. وهما بنجد.
(٢) الجوى. الوجد. (٣) الكرى: النوم.
(٤) الحريدة ٣٣٣/٢. (٥) استقلوا: رحلوا.
(٦) تتقعّع: تتحرك مع صوت.
(٧) انظر فى نزهون وأخبارها وشعرها المغرب ١٢١/١ وتحفة القادم لابن الأبار رقم ١٠٠ مكرراً

أباها محمد بن أحمد الملقب بالقليعي قاضى غرناطة إلى أن توفي سنة ٥١٠ وإذا صح ذلك كانت من بيت فقه وقضاء. وعلى كل حال تدل أخبارها أنها كانت من بيت نابه، إذ نجد أهلها يلاحظون ذكاءها، فيعنون بتخريجها في الأدب، ويقال إنه كان بين من قرأت عليهم - كما مر بنا - المخزومي الذي مر ذكره بين شعراء الهجاء. ونجد لها مطارحات ونوادير مع الشعراء، مما يدل - من بعض الوجوه - على أنها اتخذت لنفسها ندوة كانت تلقى فيها الشعراء، ويقال إن الكتندى الشاعر الغرناطى دخل يوماً مجلساً كانت تقرأ فيه بعض الشعر على المخزومي فقال له - وكان أعمى - أجز: لو كنت تبصر من تكلمه

فأفحم الأعمى ولم تسعفه بديته، فبادرت نزهون قائلة ومثنية على نفسها في سرعة خاطفة.

لغدوت أخرس من خلاخيله
البدر يطلع من أزرته والغصن يعرج في غلائله

ويروى أنه لقيها ابن قزمان الزجال وعليه غفارة صفراء، وكان قبيح المنظر، فقالت له: أصبحت كبقرة بنى إسرائيل ولكن لا تسر الناظرين، تشير إلى وصف القرآن الكريم لبقرتهم: بأنها (صفراء فاقع لونها تسر الناظرين). ومر بنا في حديثنا عن المخزومي بين شعراء الهجاء أنه لم يسلم منه أحد، حتى تلميذته نزهون، وأنها ردت عليه وألقمته حجراً أخرسه. وأما حمدة^(١) فكانت ابنة مؤدب فاضل يسمى زياد بن بقى ربأها هي وأختها زينب تربية فاضلة تتقفا فيها ثقافة أدبية واسعة، حتى أحسنتا نظم الشعر وصوغه. ويترجم ابن الأبار لحمدة في التكملة وفي التحفة ويقول: من أهل مدينة وادى آش (بالقرب من غرناطة) وإحدى الأدبيات المتظرفات العفيفات، وفي كتاب المغرب أنها حسناء المغرب وشاعرة الأندلس. وينقل المقرئ عن ابن سعيد أنها هي وأختها زينب من نساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة. ويذكر الرواة أنها خرجت مع صواحبها إلى النهر في مدينة وادى آش، وهو يجرى بين بساتين ورياض، ولما خلعن

للمراكشي ٤٨٥/٨/٢ والإحاطة ٤٨٩/١ ونفع
الطبيب ٢٨٧/٤.

(١) راجع في ترجمة حمدة بنت زياد وأختها زينب
المغرب ١٤٥/٢ وتحفة القادم رقم ١٠٠ والتكملة
رقم ٢١٢٠ والمطرب ص ١١ والذيل والتكملة

ثياين ونظرت إلى صاحبة لها من بينهن كانت تهواها، وألقين بأنفسهن في النهر سابحات متلاعبات قالت في محبوبتها:

أَبَاحَ الدَّمْعُ أَسْرَارِي بَوَادِي لَهُ فِي الْحَسَنِ آثَارُ بَوَادِي^(١)
فَمَنْ نَهْرٍ يَطُوفُ بِكُلِّ رَوْضٍ وَمِنْ رَوْضٍ يَرِفُّ بِكُلِّ وَادِي
وَمِنْ بَيْنِ الظَّيَاءِ مَهَاةٌ إِنْسٍ لَهَا لُبِّي وَقَدْ سَلَبْتُ فَوَادِي^(٢)
لَهَا لَحْظٌ تَرْقُدُهُ لِأَمْرِ وَذَاكَ الْأَمْرُ يَمْنَعُنِي رُقَادِي
إِذَا سَدَلْتُ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتُ الْبَدْرَ فِي جُنْحِ الدَّادِي^(٣)
كَأَنَّ الْبَدْرَ مَاتَ لَهُ شَقِيقٌ فَمِنْ حُزْنٍ تَسْرُبِلُ بِالسَّوَادِ

والأبيات بالغة الروعة، وبدون ريب كانت صاحبتهما في منتهى الفتنة والحسن والجمال، وكانت السباحة في النهر والأشجار مصطفة من حوله متحلية بالورود عبقة بالرياحين، وصاحبتهما التي خلبت لبها تلعب معها ومع صواحبها في المياه، ولطالما سهرت الليالي تفكر في سحر عينيها، وها هي تسدل أحياناً ضفائرها على جوانب من وجهها، ويطل وجهها من خلالها، وكأنما ترى قمرا يطل في جنح الليالي الحالكة أو كأنما مات له شقيق فهو يلبس السواد عليه. وتقول أختها زينب^(٤):

وَلِمَا أَبَى الْوَاشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَمَالَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارِ
وَشَنُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ وَقَلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
غَزَوْتَهُمْ مِنْ مُقْلَتِيكَ وَأَدْمَعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ

وواضح ما في البيت الأخير من تشبيه للمقلة والدموع والنفس الحار على الترتيب بالسيف والسيول والنار، وهي مقابلة بدیعة، ويسمى البلاغيون هذا الصنيع باسم اللف والنشر، وهو كثير في الشعر العربي من قديم، ومنه أمثلة كثيرة في الشعر الأندلسي قبل زينب.

وتظل سيول هذا الغزل الرائع تتدفق من كل بلدة أو مدينة أندلسية في عصر الموحدین، ويلقانا في صدره محمد بن عياض صاحب المقامة العياضية، وهي مقامة غزلية،

(١) بوادی الأخيرة: ظاهرة.

(٢) المهابة: بقرة الوحش واسعة العينين.

(٣) الدادی: الليالي الأخيرة في الشهر القمري،

وهي حالكة السواد. جنح الليل: ظلامه.

(٤) نفع ٢٠٨/٣ وفي المغرب أن الأبيات لأختها

حمدة.

ولذلك تتضمن بعض مقطوعات في الغزل، ومن أروعها قوله^(١):

أُنْكَرْتُ إِلَّا سَقَامَ طَرْفٍ وَأَيُّ سَيْفٍ بَلَا ذُبَابٍ^(٢)
 إِن أَنَا لَأَحْظُهُ تَوَارَى مِنْ دَمْعَةِ الْعَيْنِ فِي حِجَابٍ
 أَبْصَرْتُهُ جَدُولًا وَوَرَقًا مِنْ دَمْعٍ عَيْنِي وَانْتِحَابِي^(٣)

وتشبيه العين بالسيف القاتل تشبيه متداول في الشعر العربي من قديم، ولكن تفرق الدموع في عينيه بالبيت الثاني حتى لتصبح حجابا بينه وبين رؤية صاحبه تشبيه طريف لم يسبق إليه. أما تشبيه الدموع بالجدول وتشبيه انتحابه بهدير الحمام فكلاهما متداول قديما، وإن كان قد أخرجهما إخراجا طريفا. والغزل في الأندلس يتشابه بقوة مع الغزل العربي الطاهر العفيف، ومن أهم ما يلاحظ فيه الارتباط الوثيق بالعناصر البدوية القديمة على نحو ما يلقانا في غزلية لمتفلسف الأندلس أبي بكر محمد بن طُفَيْل الذي تحدثنا عنه في نشاطها الفلسفي، إذ يستهلها على هذا النمط^(٤):

أَلَمْتُ وَقَدْ نَامَ الرَّقِيبُ وَهَوْمًا وَأُسْرَتْ إِلَى وَادِي الْعَقِيقِ مِنَ الْحِمَى^(٥)
 وَجَرَّتْ عَلَى تَرْبِ الْمَحْصَبِ ذَيْلُهَا فَمَا زَالَ ذَاكَ التُّرْبُ نَهْبًا مَقْسَمًا^(٦)
 تَنَاقَلَهُ أَيْدَى التُّجَّارِ لَطِيمَةً وَيَحْمِلُهُ الدَّارِيُّ أَيَّانَ يَمِيمًا^(٧)
 وَلَمَّا رَأَتْ أَنْ لَا ظِلَامَ يُجْنِهَا وَأَنْ سُرَاهَا فِيهِ لَنْ يَتَكْتَمًا^(٨)
 أَزَاحَتْ غَمَامَ الْعَصَبِ عَنْ حُرٍّ وَجْهَهَا فَأَبْدَتْ شُعَاعًا يُرْجِعُ الصُّبْحَ مَظْلَمًا^(٩)
 فَكَانَ تَجَلِّيَهَا حِجَابَ جَمَالِهَا كَشَمْسِ الضُّحَى يَعْشَى بِهَا الطَّرْفُ سَاهِمًا

ولو أننا لم نعرف صاحب هذه الأبيات وأنه أندلسي لظنناه أمويا من شعراء نجد العذريين أو عباسيا ممن كانوا يتمثلون العناصر البدوية مثل أبي تمام متخذين منها رموزا لإسباغ العذرية والعفاف الملتاع على غزلهم، وها هو الشاعر الأندلسي بدوره يتخذ تلك العناصر

(١) مغرب ٣٤٥/١.

(٢) ذباب السيف: حده القاطع.

(٣) ورق جمع أوراق: ما لونه رمادي من الحمام.

(٤) مغرب ٨٥/٢ والمعجب ص ٣١٦ وتحفة القادم

رقم ٤٣.

(٥) هوم: مال رأسه في النعاس. أسرت: سارت

ليلا. وادي العقيق: مواضع كثيرة بالمدينة وبالطائف

ونجد.

(٦) المحصب: موضع رمى الجمار بنى.

(٧) اللطيمة: وعاء المسك. الدار: العطار نسبة

إلى دارين: فُرْضة أو مرفأ كان يحمل إليه قديما

المسك من الهند. يَمِيم: قصد.

(٨) يَجْنِهَا: يسترها، سراها: سيرها ليلا.

(٩) العصب: العصاة على الرأس وطرف الوجه.

حر ظاهر.

رموزاً تصور كيف أن جذوة الحب العذرى الطاهر لا تزال متقدة في نفوس الشعراء هناك، مما جعل ابن طفيل يستعير من المدينة وادى العقيق ومن مكة المحصّب، وجعل التراب الذى ير عليه ذيل ثوب صاحبتة مسكاً، يتقاسمه الناس وينهبونه، ولعت في ذهنه ذكرى العطار الذى ذكره الغزلون القدماء مراراً في مثل قول الشاعر العربى القديم متحدثاً عن ولع صاحبتة بالمسك والتعطّر به:

إذا التاجرُ الدارىُّ جاءَ بِفَآرَةٍ من المسكِ راحتٍ فى مفارقها تجرى^(١)

ويفضى إلى الحديث عن جمال صاحبتة الذى بهره، ويقول إنها بلغت من إشراقها ما جعلها ترى الظلام لا يسترها مهما صنعت، فأزاحت العصابة عن رأسها وجوانب وجهها فأبدت من أشعة ضوئها ما يفوق أشعة الشمس فى الصباح، بل إن ضوء الصباح ليبدو مظلماً بالقياس إلى ضوئها، ولعله فى ذلك نظر إلى قول أبى تمام:

بيضاء تَسْرِى فى الظلام فيكتسى نورا وتَمَشَّى فى الضياء فيظلمُ

وما يلبث ابن طفيل أن يحلق فى خياله، إذ يتصور جمال صاحبتة حجاباً لها يُعشى الناظرين فيدفعهم عن النظر إليها، وهو حجاب أروع من حجاب الدموع المار بنا آنفاً عند محمد بن عياض. وكان يعاصر ابن طفيل أبو جعفر بن سعيد وسنفرد له كلمة مع صاحبتة حفصة الركونية. وثلتقى فى مدينة الجزيرة الخضراء بشاعر من بيت نباهة وثرء هو ابن أبى روح، وله يصف ليلة^(٢) قضاها مع صاحبتة فى متنزه على ضفة نهر الجزيرة الخضراء المسمى وادى العسل لحلاوته^(٣) كما يقول ابن سعيد:

عَرَجَ بوادى العَسَلِ	وقفَ عليه وأسأل
عن ليلةٍ قطعتُها	صُبْحاً برغمِ العُذَلِ
أرشفُ خمرَ الرِّيقِ أو	أقطفُ وردَ الخَجَلِ
وقد تعانقنا اعتنا	قَ القُضْب فوق الجدولِ ^(٤)

الجارية والبساتين النظرة، ونهرها يعرف بوادى العسل لحلاوته وعليه حاجب مشرف على النهر والبحر فى نهاية من الحسن يسمى الحاجبية، ومن متنزهاتها النقا.
(٤) القُضْب: الغصون.

(١) فآرة المسك: وعاؤه. الدارى: العطار.
(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (تحقيق د. النعان القاضى طبع القاهرة) ص ٥٤.
(٣) المغرب ٣٢٠/٧ إذ يقول ابن سعيد عندما يخرج الإنسان من باب الجزيرة الخضراء يجد المياه

وَالشَّمْعُ فِي دِرْعِ الْغَدِيرِ كَعَوَالِي الْأَسْلِ^(١)
بِتَنَا إِلَى أَنْ حَنَّا إِلَى النَّوَى بَرْدُ الْحُلَى

وابن أبي روح يتمثل في البيت الأخير من المقطوعة ما جاء في كتاب الأملى من أن عربية سُئلت كيف تعرفين الفجر؟ فقالت: أعرفه ببرد الحلى. وهو يصور ليلة هنيئة له قضاه مع صاحبه متعانقين يقطف من ورد الخجل ويجنيان معا من زهرات جبهها، وكأنما كانت ليلة من ليالى العرس، فالشموع متقدة متألثة على سطح الغدير وعادة يشبهه العرب بالدرع لما تحدته الرياح فيه من غضون. ويقول محمد بن سفر المترجم له بين شعراء الطبيعة^(٢):

وواعدتها والشمسُ تَجَنُّحُ لِلنَّوَى
فجاءت كما يمشى سَنَا الصُّبْحِ فِي الدُّجَى
فَعَطَّرَتِ الْآفَاقَ حَوْلِي فَأَشْعَرَتْ
فَتَابَعْتُ بِالتَّقْيِيلِ آثَارَ سَعِيهَا
فَبِتَ بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ نَامَ وَالْهَوَى
أَعَانِقُهَا طَوْرًا وَالنِّمُّ تَارَةً
فَفَضَّتْ عَقُودًا لِلتَّعَانُقِ بَيْنَنَا
بِزَوْرَتِهَا لَيْلًا وَبَدْرُ الدُّجَى يَسْرَى
وَطَوْرًا كَمَا مَرَّ النِّسِيمُ عَلَى النَّهْرِ
بِمَقْدَمِهَا وَالْعَرَفُ يُشْعِرُ بِالزَّهْرِ^(٣)
كَمَا يَتَقَصَّى قَارِئُ أَحْرَفِ السَّطْرِ
تَنْبَهُ بَيْنَ الْغُصْنِ وَالْحِقْفِ وَالبَدْرِ^(٤)
إِلَى أَنْ دَعَتْنَا لِلنَّوَى رَايَةَ الْفَجْرِ
فِيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ اتْرُكِي سَاعَةَ النَّفْرِ

والمعاني والأخيلة بديعة، فقد زارته وتارة كأنها سنا الصبح يتخلل الظلام أو كأنها النسيم العليل الذى يحبى النفوس، وعطرت الأرجاء بعرفها أو نشرها، وكأنما استحال الثرى تحت أقدامها طيبا ذكى الرائحة وهو ما يننى يقبل مواضع خطوها، وكانت ليلة سعيدة نام فيها الليل واستيقظ الحب حتى كان الفجر وحتى كان الوداع، بل لكأنما كانت ليلة القدر الهنيئة، وإنه ليهتف بها أن لا تنفر وتقبض أجنتها عن الكون، حتى يؤجل الوداع ولو إلى حين.

ونلتقى بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ قبل إكمالها الأربعين صاحب كتاب زاد المسافر فى شعراء زمانه المتردد ذكره فى الهوامش، وله يصف ليلة أنس عفيفة وصفا

(١) الأسل: الرماح: عوالها: أطرافها القاطعة. (٣) العرف: الرائحة العطرة.
(٢) النفع ١٩٩/٣. (٤) الحقف: الكتيب من الرمل.

يديعا^(١):

يا حُسْنَهُ والحُسْنَ بعض صفاته
بَدَّرَ لو أَنَّ البَدْرَ قِيلَ له: اقترحْ
صاحِبُهُ وَاللَّيْلُ يُذَكِّي تحته
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ البَخِيلِ لماله
أوثقته في سَاعِدَيَّ كأنه
وأبى عفا في أن أقبلُ ثَغْرَهُ
فاعجبْ لملتهبِ الجَوَانِحِ غُلَّةً

والسَّخَرُ مقصورٌ على حركاته
أَمْلاً لقال أكون من هالاته
نَارَيْنِ من نَفْسِي ومن وَجَنَاتِهِ^(٢)
أَحْنُو عليه من جميع جهاته
ظَبْيٌ أخافُ عليه من فلتاته
والقلبُ مطوئٌ على جَمَرَاتِهِ
يَشْكُو الظَّما والماءُ في لَهَوَاتِهِ^(٣)

وصفوان يقول إن محبوبته جميلة جمالا خلب لُبَّهُ، حتى ليتصور أن كل أمل للبدر أن يكون من هالات جمالها الفاتن. ويكون لقاء ذات ليلة، وهو يكاد يحترق من حبه المتقد في جوانحه، كما يقول، ويأخذها بين ساعديه ويضمها إلى صدره ويعف عن تقبيلها، وهي طوع يديه، وهو ظامئ ظمأ شديدا، والماء في أعالي حلقه، ويجاهد حتى لا ينزلق إلى صدره الملتهب ويطفئ غلته. وعلى هذا النحو يرُدُّنا غَزَلون أندلسيون إلى نجد وغزها العذرى عند مجنون ليل وأضرابه يمثل هذا التصوير الرائع للعفاف الملتاع، بجانب ما استشعروه من العناصر البدوية وعرض صورها الديدعية على نحو ما رأينا عند ابن طفيل. وثلث في عهد الناصر الموحدي (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) بشاعره أحمد بن شَطْرِيَّة الذي اختطفه الموت في ريعان شبابه، ومن غزله الطريف^(٤):

سَتَرَ الصُّبْحُ يَظُرُهُ وَجَلَّ اللَّيْلُ يَغُرُّهُ
كَعْبَةً لِلْحُسْنِ فِي كُلِّ فَوَادٍ مِنْهُ جَمْرُهُ
جَاءَنِي كَالظَّبْيِ فِي أَشْرَاكِهِ إِذْ حَلَّ شَعْرُهُ^(٥)
وَمَضَى عَنِّي وَلَكِنْ بَعْدَ مَا خَلَّفَ نَشْرُهُ^(٦)

ويقول على بن حريق^(٧):

(٣) لهوات جمع لهاة: أعلى الحلق.
(٤) انظر المغرب ١٤٠/١.
(٥) أشراك جمع شَرَك: حبال الصائد.
(٦) نشره: عطره.
(٧) المغرب ٣١٩/٢.

(١) انظر في ترجمة صفوان وشعره المغرب ٢٦٠/٢ ورايات المبرزين ص ١١١ والتكملة ص ٤٢٩ والتحفة رقم ٥٢ الإحاطة ٣٤٩/٣ ومقدمة كتابه زاد المسافر لعبد القادر محمداد.
(٢) يذكي: يضرم ويوقد.

كَلَّمْتُهُ فاصْفِرْ من خَجَلٍ حتى اكْتَسَى بالعَسَجِدِ الْوَرِقِ
وَسَأَلْتُهُ تَقْبِيلَ وَجْنَتِهِ فأبَى وقال: أَخَافُ أَحْتَرِقُ
حتى زَفِيرِ عَاقٍ عن أَمَلِي إن الشَّقَى بِرِيقِهِ شَرِيقُ

وهو يشبه صفرة الخجل التي كست خد صاحبه بالعسجد أو الذهب ووجنتها بالورق أو الفضة، ويقول إن أنفاسه بلغ من حرارتها أن صاحبه خشيت لو قبلها أن يحترق خدها من زفيره، ويقول إن الشقي بريقه شَرِيقٌ أو غاصٌّ. ومن الغزلين بأخرة من عصر الموحيدين سهل بن مالك الذي مر ذكره بين شعراء الفخر، وله متغزلاً^(١):

ولما بدا ضوء الصُّباح رأيتها تنفُّضُ رَشَحَ الطَّلِّ عن ناعِمٍ صَلَّتِ^(٢)
فقلت: أخاف الشمسُ تفضح سِرَّنَا فقالت: معاذَ الله تفضحني أختي

وسهل يتصور صاحبه زهرة جميلة تنفض عن وجهها الناعم المضيء في الصباح ندى العرق، ويخوفها من إذاعة الشمس لسرها، وتطمئنه، فهي أختها ولن تذيع لها سرا. ويقول ابن سعيد^(٣) صاحب كتاب المغرب المبتوث في الهوامش المتوفى سنة ٦٨٥ بتونس^(٤):

وهبتُ فُؤَادِي لِلْمَبَاسِمِ وَالْحَدَقِ وَحَكَّمْتُ فِي جَفْنِي الْمَدَامَعَ وَالْأَرْقِ
ولم أستطع إلا الوفاءَ لِغَادِرٍ وباليثني لما وَفَيْتُ لَهُ رَفَقِ
ومن أجله قد رَقَّ جِسْمِي صَبَابَةً وباليثني لما رَأَهُ عَلَيْهِ رَقِ

ومنذ أواسط القرن السابع الهجري - بل منذ هزيمة العقاب سنة ٦٠٩ نشر أن نبع الغزل الذي كان متدفقا في بلدان الأندلس أخذ يفيض وتفيض معه البهجة عن نفوس الأندلسيين لسقوط مدنهم واحدة إثر أخرى في حجر نصارى الشمال، ولم يبق لهم سوى إمارة غرناطة التي ظلوا ثابتين فيها ثبوت الجبال الراسية، ولكن مع غير قليل من الأسى والإحساس بمستقبل مفعج مليد بالغيوم. وطبيعي أن يعم الغزل في تلك الإمارة غير قليل من التكلف وأن يُصاغ كثير منه للتعبير عن جناس أو تورية أو غيرها من محسنات البديع، ومع ذلك لا يزال هناك من يتخففون من هذه المحسنات محاولين التعبير عن شيء من الوجد، ونشر دائما عندهم بغير قليل من التصنع وأنهم يبدئون ويعيدون في خواطر

الغزلين قبلهم وأخيلتهم، على نحو ما سنرى في الكلمة التي سنسوقها للحديث عن ابن خاتمة وغزله. ويشيد ابن الخطيب بما في قصيدة لابن جُزَيٍّ من وجد قائلاً إنها من الغراميات التي سلك فيها مسلك مجنون ليلي، وربما كان أجمل ما فيها قوله: ^(١)
 تباعدت لما زادني القربُ لوعةً لعل فؤادي من جَوَاهِ يُفِيقُ
 ولا سلوةً تُرَجِّى ولا الصبرُ ممكنٌ وليس إلى وَصْلِ الحبيبِ طريقُ
 شجونٌ يَضِيقُ الصَّدْرُ عن زَفَرَاتِهَا وشوقٌ نطاقُ الصبرِ عنه يَضِيقُ
 فيا غائباً عن ناظرِيّ أما يُرى لشمسك من بعد الغروب شُرُوقُ

وواضح أن الأبيات ليس فيها لوعة أمثال مجنون ليلي من أصحاب الحب العذري، ولا فيها حرارة هذا الحب ولا ما يتقد في أفئدة العذريين من نيرانه. ويلقانا ركام هائل في الغزل من زخارف البديع وكأنما أصبحت هي - لا الغزل ووجد المحب - الغاية في هذا الغرض القديم من أغراض الشعر على نحو ما نرى في قول ابن جُزَيٍّ ^(٢):

أُبْعَ لِي يَا رَوْضَ المحاسنِ نظرةً إليَّ وَرِدَ ذَاكَ الخَدُّ كُنْتُ لك الفَدَا
 وبالله لا تَبْخُلْ عليَّ بِقُطْفَةٍ فَإِنِّي عَهِدْتُ الرَوْضَ يوصفُ بالندى

وليس المراد بالندى المعنى القريب وهو قطراته الملائمة للروض وإنما المعنى البعيد وهو الكرم والسماح بما يريد، وهو - في الواقع - لا يريد بالبيتين التعبير عن عاطفة حب، وإنما يريد التعبير عن تورية وهو لذلك يتكلف لها استعارة الروض والورد كما يتكلف طلب الإباحة، وكأنه بإزاء مسألة فقهية!

ويوج ديوان يوسف الثالث أمير غرناطة - المترجم له في الفصل السابق - بالغزل، بل إنه محوره، إذ كثرة قصائده ومقطوعاته تدور عليه، وهو يكثر فيه من ذكر العفاف والعناصر البدوية كبارق وسلع والجُرْعاء والعذيب والرقمتين والغزال والريم والقباب والخيام والإبل المودعة. وحقاً هذا كله يطبع به الغزلون الأندلسيون أشعارهم وصلاً محكما لها بالشعر العذري ودقائقه الشعورية، غير أن حب يوسف الأمير حب سطحي متكلف أو هو حب مترف لا ينبع من القلب، مع أنه يكثر من ذكر الشريف الرضي ومهيار غير أن غزله ينقصه ما عندهما من الرقة والوجد واللوعة وأيضاً ما عندهما من صفاء التعبير وعذوبته، ومن أجمل ما نقرأ له في غزلياته قوله:

(١) الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب (٢) الكتيبة الكامنة ص ٢٢٧.

هل البان يحكى من معاطفك القداً أو الوردُ في توريده يُشبه الخداً
لقد أخطأ التشبيه من حسب السها يقاوم في آفاقه القمر السعدا
وهل لحلى ليلى نظيرٌ وإن هم يظنون منها الثغر قد أشبه العدا
هى الغاية القصوى محاسنُ لم تجد شبيهاً لها فى الغانياتِ ولا نداً

وهو يريد أن يقول إن قد ليلي أرشق من قد البان وحمرة خدها تفوق حمرة الورد جمالا وبهاء، ومثلُ أترابها منها مثل نجم السها الخافت الذى لا يكاد يبين سناه بالقياس إلى ضوء البدر الذى يملأ الآفاق نوره، وثغرها فى بياضه وصفائه يشبه درر العقد المتألثة. وكل هذه التشبيهات مرت بنا فى أخيلة بدیعة تصور انبهار الغزلين بجمال صواحبهن، وقد أضعفها عنده أيضا عرضها فى صور من الاستفهام واقتنائها بالحسبان والظن.

ولعله يحس بنا أن نتوقف قليلا عند نفر من شعراء الغزل الأندلسيين المبدعين وهم: الرمادى، والشريف الطليق، وابن زيدون وولادة، وابن الزقاق، وأبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية، وابن خاتمة.

الرمادى^(١) الكندى

هو أبو عمر يوسف بن هرون الكندى المعروف بالرمادى، ويقول مترجموه إن نسبته إلى قبيلة كندة جعلت كثيرين من شيوخ الأدب فى زمنه، يقولون: فتح الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرأ القيس الكندى فى الجاهلية والمتنبى والرمادى القرطبى الكنديين. أما لقبه الرمادى فيقول ابن بشكوال فى الصلة إنه تعريب لكنية إسبانية هى: «أبوجنيس» ويبدو أنه كناه بها أحد معاصريه على نحو ما مر فى كُنَيَات وألقاب شعراء آخرين مثل البلّينة أى الحوت. وقال ابن سعيد فى المغرب إنه منسوب إلى رمادة من قرى مدينة شلب فى الجنوب الغربى للأندلس، وربما كان قول ابن سعيد أكثر دقة لأنه أعرف بشلب وقراها، ولو كانت الكلمة نقلا لكنية: «أبى جنيس» الإسبانية أو

٦٢/٢٠ والذخيرة ٣٢٢/١ و ١٤١/٢ و ٣٤٦/٣،
٨٢١ و ١٢٠/٤ وانظر تاريخ الأدب الأندلسى
عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس
ص ١٥٥.

(١) انظر فى ترجمة الرمادى وشعره الجذوة
ص ٣٤٦ والمطمح ص ٦٩ والبقية ص ٤٧٨
والصلة ص ٦١٣ والمغرب ٣٩٢/١ والمطرب لابن
دحية ص ٦٦ وما بعدها وابن خلكان ٢٢٥/٧
واليتيمة ١٤/٢ ، ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء

الرومانسية لقليل: «أبو الرماد» لا الرمادى. وقد تتلمذ لأبى على القالى وروى عنه كتاب النوادر الملحق بالأمالى، وله فيه مدحة بديعة. ويبدو أنه درس كتبه بعده للطلاب إذ يذكر ابن سعيد بين طلابه بقرطبة أميراً من بنى ذى النون الطليطيين. وأخذ يشتهر في الشعر منذ عصر الحكم المستنصر، ويقول الفتح بن خاقان في المطمح إنه: شاعت عنه أشعار في دولة الحكم ورجاها سدد إليهم سهاماً فأوغرت عليه الصدور، وسجنه الحكم دهراً، ثم ردت إليه حرите بعد وفاته، وفي سجنه ألف كتاباً عن الطير ختم كل حديث له في طائر بأبيات في مديح الحكم ولكنها لم تُلن قلبه، ويبدو أنه بدأ اللمز له ولرجاله حين أمر بإراقة الخمر في جميع الجهات بالأندلس، إذ نرى للرمادى قصيدة يتوجع فيها متألماً لشاربيها. وفي أشعاره بعض خمریات وبعض غزل في الغلمان ولا ندرى أكان ينظم في ذلك عن عاطفة حقيقية أو محاكاة لأبى نواس وأضرابه من المشاركة، إذ نراه يصرح مع خمرياته وغزلياته في السقاة بمثل قوله:

فُتِحَتِ الْجَنَّةُ مِنْ جَنِّهِ فَبِتْ فِي دَعْوَةِ رِضْوَانٍ^(١)
مَرُوءَةً فِي الْحَبِّ تَنْهَى بَانَ يَجْأَهَرُ اللَّهُ بِعَصِيَانِ

وقوله:

وَمَا بَى فخرٌ بالفجور وإنما نصيبُ فجورى الرُشْفُ والشَّفَتَانِ

وأكبر الظن أنه لم يكن ماجناً. ويقال إنه كما مدح الحكم المستنصر مدح المنصور بن أبى عامر حاجب ابنه المؤيد، ولم يصلنا شيء من مدائحه لهما، وعاش عشر سنوات بعد ابن أبى عامر إذ توفى سنة ٤٠٣. وقد سقط ديوانه من يد الزمن غير أن الذخيرة والحدوة والمغرب واليتيمة للثعالبي تحتفظ جميعاً بغزل له غير قليل، وهو يطبع بطابعين: طابع الرقة البين في مثل قوله:

هُوَ ظَالِمِي لَكِنْ أَرِقُّ عَلَيْهِ مَنْ أَنْجِلَ اللَّحْظَ فِي خَدَّيْهِ
أَعْفَيْتُ رِقَّةً وَجَنَّتِيهِ مِنْ أَدَى عَيْنِي وَمَا أَعْفَيْتُ مِنْ عَيْنِيهِ

ومع ما يحمل البيتان من رقة متناهية إذ يقول إنه يخاف على حدود صاحبه من نظراته أو كما يسميها أذى عينه يحملان أيضاً الخاصة الثانية في غزله، وهى البعد في التصور حتى ليصبح وهما من الأوهام على نحو ما أصبحت نظراته أذى يوشك أن يلم بالحدود، ولعله

(١) جيب التوب: فتحته العليا.

يشير بذلك إلى الحياء والخجل الذى يلم بصاحبه فتحمر وجنتاها حين تلاحظ نظراته. ومن ذلك ما أنشده الحميدى فى الجذوة من قوله:

غَدًا يَرْحَلُونَ فَيَا يَوْمُ رَسَدَ لَكَ كُنْ بِالظَّلَامِ بَطِيءَ اللَّحَاقِ^(١)
وَيَا دَمْعَ عَيْنِي سُدَّ الطَّرِيقَ وَأَفْرَغْ عَلَيْهِمْ نَجِيعَ الْمَاقِي^(٢)
وَيَا نَفْسِي جِئْتُهُمْ مِنْ أَمَامٍ وَقَابِلَهُمْ بِنَسِيمِ احْتِرَاقِ
وَيَاهُمْ نَفْسِي بِهِمْ كُنْ ظِلَامًا وَقِيْدَهُمْ عَنْ نَوَى وَانْطِلَاقِ
وَيَالَيْلٍ مِنْ بَعْدِ ذَا إِنْ ظَفِرُ تَ بِالصُّبْحِ فَاقْدِفْ بِهِ فِى وَثَاقِ

فصاحبه سترحل مع أهلها غدا، وهو يتضرع لليوم أن يتريث فى مسيرته، حتى يتأخر ليل الغد المؤذن بالفراق، ويتجه لدموعه يأمل أن تستحيل جدولا من الدم القانى، فتسد الطريق على هذا الراكب، كما يتجه إلى نفسه الحارّ بالحب وشراره أن يلفح الراكب بلهيبه المشتعل حتى لا يستطيع مسيرا، وبالمثل يتجه إلى هوم نفسه مبالغا فى وهمه إذ يطلب إليها أن تنشر ظلامها، بحيث لا يستطيع الراكب انطلاقا، وحتى الليل يبالغ فى وهمه إزاءه، فيطلب إليه إن ظفر بالصبح أن يأسره ويشد من حوله الوثاق. وكل ذلك إغراق فى الوهم ما بعده إغراق، وعلى شاكلته قوله:

عَلَى كَمْدَى تَهْمِي السَّحَابُ وَتَذْرِفُ وَمِنْ شَجْنِي تَبْكِي الْحَمَامُ وَتَهْتَفُ

فالسحاب إنما يذرف دموعه لما يرى من كمده وهمه وضناه، والحمام إنما يبكي وينوح لما يرى من شجنه وحزنه، ومن طريف صورته الغزلية قوله:

وَإِذَا أَرَادَ تَنْزُهَاً فِى رَوْضَةٍ أَخَذَ الْمِرَاةَ بِكَفِّهِ فَأَدَارَهَا^(٣)

وهى مبالغة واضحة فى الوهم. إذ صاحبة هذا الوجه الفاتن فى رأيه لا تحتاج إلى روضة. تقضى فيها نزهة تمتع به نفسها، إذ حسبها أن تنظر فى مرآتها فتري أروع روضة، ومن الممكن أن يكون قد أراد أن وجه صاحبه بالقياس إليه كأنه مرآة بديعة لروضة فاتنة. وكل ذلك شاهد على أن الرمادى الكندى كان شاعرا متفننا، فلا غرو أن يتفنن فى الموشحة الساذجة عند القبرى، ويتيح لها - كما مر بنا - تطورا جديدا بالغ الأهمية.

(١) الأنف، وهو مجرى الدمع.

(٢) المراق: المرأة.

(٣) رسل: تمهل.

(٢) نجيع: دم. موق العين: طرفها من جهة

الشريف^(١) الطليق المرواني

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، قيل إنه كان يعيش جارية رباها أبوه معه، فنشأ يصبو إليها، وكانت تصبو إليه، وذكر ذلك لأبيه، ولم يحترم رغبته، فاستأثر بها من دونه، واشتدت غيرته من أبيه، فانتضى يوما سيفا وانتهاز فرصة منه، فقتله، وكانت سنه إذ ذاك ست عشرة سنة، فزجَّ به المنصور بن أبي عامر في السجن وظل به ست عشرة سنة، ثم أطلقه، فسمى الطليق لذلك، وعاش بعد إطلاقه ورد حريته إليه ست عشرة سنة ثالثة، وهو من نادر الاتفاق، وتوفي قريبا من سنة أربعائة. ويقول ابن حزم في كتاب الحلة السَّيراء: «أبو عبد الملك هذا في بني أمية كابن المعتز في بني العباس ملاحة شعر وحسن تشبيه». ويقول في جمهرة أنساب العرب: «مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين». ويروون له أشعارا نظمها في السجن وينقصها الإحساس بالمرارة، وكأنما يشعر بعظم ذنبه تلقاء أبيه. وله وراءها أشعار كثيرة في الغزل والخمر ووصف الطبيعة، وهو فيها يعبر عن مشاعر صادقة، وتتضح فيها ثقافته بالشعر العربي، وتمثله للصياغة الشعرية الرصينة المونقة، مع العناية بالأخيلة والتساوير، من ذلك قوله متغزلا في قافية له مشهورة:

غُصْنٌ يَهْتَزُّ فِي دِعْصٍ نَقَا	يَجْتَنِي مِنْهُ فَوَادَى حُرَقَا ^(٢)
أَطْلَعَ الْحَسَنُ لَنَا مِنْ وَجْهِهِ	قَمَرًا لَيْسَ يُرَى مُمَحِقَا
وَرَنَا عَنْ طَرْفِ رَيْمٍ أَحْوَر	لِحْظُهُ سَهْمٌ لِقَلْبِي قُوقَا ^(٣)
بِاسْمٍ عَنْ عِقْدٍ دُرٍّ خَلَّتْهُ	سَلْبَتُهُ لَتَاهُ الْعُنُقَا
سَال لَامُ الصَّدْغِ فِي صَفْحَتِهِ	سِيلَانُ التَّبَرِّ وَافَى الْوَرَقَا ^(٤)

ونشعر بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وأنه يعرف كيف يضم اللفظة إلى اللفظة في نسق صوتي بلذ الأسباع والألسنة، وحقا تشبيهه قامة المرأة بالغصن النابت في كثيب نقا أو رملة متداول وكذلك تشبيهها بالقمر وبظبي أحور، وهي تسدُّ السهام إلى قلوب

(١) انظر في ترجمة الشريف الطليق وشعره الحلة السَّيراء ٢٢٠/١ والغرب ١٩١/١ والحميدى ص ٣٢١ والبغية ص ٤٤٧ والمعجب ص ٢٨٥ وما بعدها ونفع الطيب ٥٨٦/٣ وما بعدها والذخيرة ٥٦٣/١ وما بعدها وجمهرة الأنساب

لابن حزم ص ١٠٢.

(٢) دعص: كتيب. نقا: رملة.

(٣) ريم: ظبي. قُوق: سُدد.

(٤) الصدغ: الشعر المسدل بين الأذن والعين.

الورق: الفضة.

المفتونين بها وأيضاً تشبيه الأسنان في اللثة بعقود در وصدغ الشعر المسدل بين الأذن والعين باللام وأن الأشقر منه يسيل سيلان التبر على الورق أو الفضة، كل ذلك رده الشعر قبل الطليق ولكنه عرف كيف يصوغه ويحوّر فيه تحويرات تروع قارئه. ومن غزله قوله:

وَدَّعْتُ مَنْ أَهْوَى أَصِيلاً لِيَتَنَى	ذُقْتُ الْحِمَامَ وَلَا أَذُوقُ نَوَاهُ
وَوَجَدْتُ حَتَّى الشَّمْسِ تَشْكُو وَجْدَهُ	وَالْوُرُقُ تَنْدُبُ شَجْوَهَا بِهَوَاهُ ^(١)
وَعَلَى الْأَصَائِلِ رَقَّةٌ مِنْ بَعْدِهِ	فَكَأَنَّهَا تَلْقَى الذِّى أَلْقَاهُ
وَعِدَا النَّسِيمُ مَبْلُغَا مَا بَيْنَنَا	فَلَذَاكَ رَقٌّ هَوَى وَطَابَ شَذَاهُ ^(٢)
مَا الرُّوضُ قَدْ مُزِجَتْ بِهِ أُنْدَاؤُهُ	سَحَرًا بِأَطْيَبِ مِنْ شَذَا ذِكْرَاهُ
وَلَذَاكَ أَوْلَعُ بِالرِّيَاضِ لِأَنَّهَا	أَبَدًا تَذْكُرُنِي بِمَنْ أَهْوَاهُ

وهو يصور وجده والتياحه بذكرى من يهواها من خلال عناصر الطبيعة، فالشمس في وداعها للأفق أصيلاً وما يصيبها من شحوب وصفرة كأنما تشكو وجدها بحبها، وبالمثل تندب الورق الرمادية من الحمام لوعتها بهواها، وكأنما سكبت على الأصيل والنسيم رقة الوجد وأريج العطر، وإن شذى ذكراه لصاحبه ليفوق شذى أى روض تتفتح أزهاره الندية سحراً، وهو ما يجعله صباً بالرياض إذ تمثّل عناصرها صاحبه له وتجسمها بكل ما فيها من حسن وجمال وفتنة. ودائماً نشعر عند الطليق بروعة الموسيقى مع ما تمتاز به صياغته ولغته من صفاء وسلاسة.

ابن زيدون وولادة^(٣)

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي الأندلسي ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ في بيت علم وفقه، لأب فقيه كان من هيئة الفقهاء المشاورين لعهد الخليفة المستعين

عنه طبع دار المعارف وديوانه وقد نشر مرات آخرها سنة ١٩٥٧ بتحقيق الدكتور على عبد العظيم.

(٤) راجع في ولادة وأخبارها مع ابن زيدون وشعرها الذخيرة ٤٢٩/١ وما بعدها والصلة ص ٦٥٧ والمغرب ٦٥/١، ٦٦، ١٤٣، ١٨٠ والمطرب ص ٧ والوافى للصفدي ٢٥١/٤ ونفح الطيب ٢٠٥/٤ وما بعدها.

(١) الورق: الحمام الرمادى اللون

(٢) الشذى: رائحة الطيب والمسك.

(٣) انظر في ترجمة ابن زيدون وشعره الذخيرة ٣٣٦/١ وما بعدها والحميدى ص ١٢١ والقلاند ص ٧٠ والمطرب ص ١٦٦ والمعجب للمراكشى ص ١٦٢ والمغرب ٦٣/١ والخريدة ٤٨/٢ وابن خلكان ١٣٩/١ والبغية رقم ٤٢٦ ومقدمتى سرح العيون وتقام المتون لرسالتيه الهزلية والجديدة وكتابنا

(٣٩٩-٤٠٧ هـ) وكان جده لأمه صاحب الأحكام بقرطبة، فهو من بيت حسب ونسب وثناء، وعُني أبوه بتربيته إلى أن توفي سنة ٤٠٥ وظل بعده ينهل من العلوم والمعارف بقرطبة وخاصة من الآداب العربية. وليس لدينا أخبار واضحة عنه في شبابه إلا ما انعقد بينه وبين ولادة بنت الخليفة المستكفي من حب، وقد توفي أبوها سنة ٤١٦ وما توافى سنة ٤٢٢ حتى تسقط دولة الخلافة الأموية في قرطبة، ويتولى أبو الحزم جمهور مقاليد الحكم وجعله حكاماً شورياً ديمقراطياً من خلال مجلس كان يرجع إليه في سياسته وتدير شؤون حكمه. وأكبر الظن أن ابن زيدون كان ممن انتظموا حوله في حاشيته، ودُسَّ عليه حوالى سنة ٤٣٠ أنه يشترك في مؤامرة ضد أبي الحزم جمهور، وتصادف أن أتهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه، وزج به بأبوالحزم في السجن، واستعطفه برسائله الجدية وبقصائد مختلفة، غير أنه ظل يُصمّ أذنيه عنه إلى أن توسط له ابنه أبو الوليد - وكان صديقاً له - فرد إليه أبو الحزم حريته. وتوفي سنة ٤٣٥ ويخلفه ابنه أبو الوليد فيعهد لصديقه ابن زيدون بالنظر على أهل الذمة، ثم يتخذه وزيراً له، ويوفده في عدة سفارات إلى أمراء الطوائف، وتدير في سنة ٤٤٠ مؤامرة ضد أبي الوليد وتفشل المؤامرة، ونجد ابن زيدون بعدها مضطرباً ويرسل إلى المعتضد عباد أمير إشبيلية أن يلجأ إليه، ويرحب بمقدمه عليه سنة ٤٤١ ويتخذه وزيراً له حتى وفاته سنة ٤٦١ ويظل وزيراً لابنه المعتمد إلى أن يلجى نداء ربه سنة ٤٦٣.

وابن زيدون من أعلام الشعر والنثر في الأندلس، وله مدائح رائعة في أبي الحزم بن جمهور وابنه أبي الوليد والمعتضد عباد، وله أيضاً مراث بدعية. غير أن القطعة الأرجوانية في حياته وشعره هي كلفه بولادة وما نظمها فيها من غزل، وكانت أديبة شاعرة، واتخذت لها مجلساً أو ندوة بقصرها تخالط فيها الشعراء وتساجلهم وتفوق أحياناً البارعين منهم، وفيها يقول ابن بسام: «كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدًى لأحرار المصر، وفنائها ملعباً لجياد النظم والنثر، يَعْشُو أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتْها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب».

وولادة - بذلك - تكون قد سبقت سيدات الصالونات الأدبية في فرنسا اللاتني نسمع بهن بعدها بستة قرون أو سبع ممن كن يتخذن - على شاكلتها - ندوات يختلف

إليها بعض الشباب والكهول من الأدباء والمتفلسفة لما يمتاز به من راحة العقل وخفة الروح والقدرة على إدارة الحديث والمشاركة فيه مع شيء من الحسن والجمال. ولو أن الأمور والأحوال السياسية استقامت واطردت استقامتها في الأندلس لوجدنا كثيرات مثل ولادة، هن مثل مجلسها ومنتداهها على نحو ما مررنا من حديث عن السيدة حواء زوجة حاكم إشبيلية المرابطى سير بن أبى بكر وممدوحة الشاعر الأعمى التطيلي، وكما سنرى عما قليل مثيلتها حفصة الرُّكوئيَّة في عهد الموحدين، ومن المؤكد أن كثيرات من الشاعرات اللاتى ترجم هن المقرئ واللاتى يبلغن أربعاً وعشرين كان هن يجالس ومنتديات على شاكله ولادة. وهى ثمرة الحرية التى استمتعت بها المرأة في الأندلس والتى أشرنا إليها مراراً. وينبغى أن نفرق دائماً بين الحرية والمجون، فلم تكن ولادة ومثيلاتها في الأندلس ماجنات إنما كن سيدات فضليات قُذْنَ في المجتمع الأندلسى نهضة أدبية وفكرية، وقد أشار ابن بسام إلى عفة ولادة فقال «مع طهارة أثواب»، كما أشار إلى استشعارها لكرامتها بقوله: «مع علو نصاب، وكرم أنساب» وكذلك كانت مثيلاتها من ذوات الحسب والنسب، على نحو ما صورنا ذلك عند السيدة حواء فيما أسلفنا من حديث.

وكان ممن اختلف إلى مجلس ولادة أو منتداهها الفتى الشاعر النابغ ابن زيدون، وظل مواظباً على ذلك أياماً وشعر أنها تؤثره، فوقع في قلبه كما وقع في قلبها، واتصل بينهما الود، ويروى أنها كتبت إليه بعد طول تمنع لما أولع بها:

ترقُبْ إذا جَنَّ الظلامُ زيارتي فإني رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسَّرِّ
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تُلَحْ وبالبدرِ لم يَطْلُعْ وبالنجم لم يَسِرْ

واتصل بينها اللقاء في منتداهها وفي حدائق قرطبة، تغمرهما نشوة الحب، وتارة ينشدها من أشعاره فيها وتارة ينشدها من أشعار الغزلين من أمثاله، وحدث أن غاب عنها لأمر عرض له، فكتبت إليه:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرُّقِ سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لَقِيَ
تمرُّ الليالى لا أرى البينَ يَنْقُضِي ولا الصبرَ من رِقِّ التشوُّقِ مُعْتَقِي

غير أنها لم تلبث أن تبدلت، فأذاقته بعد نعيم حبها وقربها جحيم هجرها وبُعدها، ويقال إن سبب هذا الهجر أنها لاحظت مغازلته لإحدى جوارها، ويقال: بل لأنه نقد لها بعض

شعرها، وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن ابن زيدون أخطأ في حقها أو في حق شعرها خطأ كبيرا. ويقال إنها صَبَتْ إلى أديب نابغ ثرى ممن كانوا يختلفون إلى منتداها هو ابن عبدوس وصبا إليها، فطار صواب ابن زيدون، وكتب إليه رسالته الهزلية ساخراً منه كما كتب إليه قصائد مهددا متوعدا، غير أن ولادة لم تصفح عنه، وظل مبعدا محروما. وغزله فيها - كما صورنا ذلك في كتابنا عنه - يصور ثلاث مراحل: مرحلة وصله، ومرحلة هجره، ومرحلة يأسه، وغزل المرحلة الأولى فيه بهجة وفرحة، إذ ينعم بقرّة عينه ويسعد سعادة لا حدود لها. أما غزل المرحلة الثانية ففيه الشكوى والحرقه والالتئاع العميق والحسرة على فردوسه المفقود. بينما غزل المرحلة الثالثة غزل المبتسئ الباكي النادب لحظه. وغزله يعدُّ في الذروة من الغزل العربي وخاصة غزل المرحلتين الثانية والثالثة، لما يصور فيهما من لوعاته المحرقة المضّة، ومن أروع قصائده الغزلية في صاحبه قافيته التي يستهلها بقوله:

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزُّهْرَاءِ مُشْتَاقًا وَالْأَفْقُ طَلَّقَ وَمَرَأَى الْأَرْضَ قَدَرَاقًا

وهو يذكر منتداها في قصرها بضاحية الزهراء وما تموج به من رياض وبساتين، وتغمره اللوعة واللهفة على لقائها ويُشرك الرياض التي طالما جاسا معا خلاها وتجوّلا بين أشجارها وأزهارها وطيورها ومياهها في أحاسيسه ومشاعره، وكأنها تشاركه همومه، وأروع من هذه القصيدة قصيدته:

أُضْحِي التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
حَالَتْ لِبَعْدُكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدْتُ سَوْدًا وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا
بِالْأَمْسِ كُنَّا وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا وَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا
يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبَدِلْنَا بِسُلْسِلِهَا وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ رَقُومًا وَغَسْلِينَا^(١)

والقصيدة تكنظ بالحنين وبلوعات قلب محترق وزفراته، ولعل يأسه من ولادة هو الذي دفعه إلى مغادرته قرطبة مسقط رأسه إلى إشبيلية، لعله يستطيع أن ينسى حبه أو يسלוه، ويقول صاحب الصلة إنها عمرت عمرا طويلا ولم تتزوج قط، وتوفيت سنة ٤٨٤ بعد أن خلدت اسمها في تاريخ الشعر العربي وتاريخ المرأة الأندلسية.

(١) السلسل: الماء العذب. الكوثر: نهر في الجنة. أهل النار. الرقوم والغسلين: طعامان من أطعمة

ابن الرِّزَّاق^(١) اللَّخْمِي

هو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عطية اللخمي البلنسي المعروف باسم ابن الرِّزَّاق، وهو ابن أخت الشاعر الأندلسي المشهور ابن خفاجة، رُزق به أبوه في أواخر العقد التاسع من القرن الخامس الهجري، ويصل بعض مترجميه بين أبيه وبين أسرة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية في عصر أمراء الطوائف، ويقولون إنه حين خلع يوسف بن تاشفين المعتمد من إمارة إشبيلية اختفى الأب وهاجر إلى بلنسية، واستوطنها، وعمل بها مؤذنا بمسجدها الكبير. وفي نفح الطيب رواية تزعم أن أباه كان فقيرا جدا وأنه كان صاحب حانوت يكب فيه على صناعة الرِّزَّاق، وأنه كان يتلوم ابنه لسهره ليلاً يشتغل بالآداب، لما يكلفه ذلك من الزيت الكثير لمصباحه، ويقال إنه نال بأولى قصائده في أمير بلنسي ثلاثمائة دينار، فأقى بها إلى أبيه ووضعها في حجره، وقال له: اشتري بها زيتا، ونظن ظنا أن هذا الخبر غير صحيح وأن صاحبه حاول به تفسير لقب أبيه المتصل باسمه: ابن الرِّزَّاق. ولا نعرف أهذا اللقب كان لأبيه أو لأحد أجداده، ويغلب أن لا يكون له أي صلة بزقاق الخمر وأن هذا الأب أوالجد لقب «رِّزَّاقا» لسمنه الزائد وانتفاخ كرشه، كما أشارت إلى ذلك عفيفة ديراني محققة ديوانه. وعنى الأب بتربية ابنه لما رأى فيه من مخايل الذكاء حتى إذا شبَّ لزم دروس ابن السيد البطلبيوسي وعلى يديه درس العربية والآداب. وتفتحت موهبته مبكرا، وأخذ يلفت نظر الشعراء والأدباء في بلدته. وامتنح بعض الكبراء من بني عبد العزيز أمراء بلنسية قديما قبل مولده وبعض القضاة وبحبي بن غانية أمير بلنسية ومرسية لعهد علي بن يوسف بن تاشفين. وكان قليلا ما يدح أميرا أو كبيرا، إذ كان يترفع عن المديح، ونوه بذلك مرارا في شعره من مثل قوله:

أنا من تمنَّته الملوك فلم أعجُ منها على ذى طارفٍ وتلادٍ^(٢)

فالملوك لزمته كانت تمنى أن يصوغ لهم شيئا من مدائحه، وكان يتمنَّع عليهم لإباء نفسه وشعوره العميق بكرامته. وفي الديوان مراث مختلفة وبينها مراثية حارة في سيدة

بيروت) ومقدمتها له وما بها من مصادر.
(٢) أعج من عاج: التفت. تلاد: قديم ضد طارف.

(١) انظر في ترجمة ابن الرِّزَّاق وشعره المغرب ٣٢٣/٢ والتكملة ص ٦٦٣ والمطرب ص ١٠٠ وما بعدها. والنفع ١٩٩/٣ و ٢٨٩. والديوان تحقيق عفيفة محمود ديراني (طبع دار الثقافة

لعلها زوجته كما ترجح محققة الديوان، وقد رزق منها بنجلين: محمود وإبراهيم، ويصور حبه لها وعاطفته الأبوية نحوها بإحدى قصائده. والديوان موزع بين موضوعين كبيرين هما الغزل وحب الطبيعة، والغزل تارة يقدم به إحدى قصائد المديح، وتارة ثانية يخلطه بالطبيعة مضيفاً إلى النشوة بها النشوة بالخمر، ومن بواكير غزله قوله في مقدمة إحدى مدائحه:

يا شمسَ خِدرٍ ما لها مَغْرُبُ أرامتُ خِدرُكِ أَمْ يَشْرَبُ^(١)
 ذهبتِ فاستعبر طَرْفِي دَمًا مَفْضُضُ الدَّمْعِ به مُذْهَبُ
 ناشدتُكَ اللَّهُ نَسِيمَ الصَّبَا أَنِّي اسْتَقَرْتُ بعدنا زَيْنُ
 لم تَسِرْ إِلَّا بِشَدَى عَرَفِهَا أَوْلا فماذا النَّفْسُ الطَّيِّبُ^(٢)
 إِيهِ وَإِنْ عَذَّبْنِي حُبُّهَا فَمِنْ عَذَابِ النَّفْسِ ما يَعْذُبُ

وتتضح في هذه الأبيات المبكرة - كما يقول الرواة - الخاصة الفنية الرائعة التي أشار إليها أبو الوليد الشقندي في بيانه براعة الأندلسيين في الشعر، وهي أن ابن الزقاق يتناول في أشعاره الصور والأخيلة التي تداوها الشعراء قبله مراراً وتكراراً حتى غدت كالثوب الخلق البالي، فإذا هو يبت فيها حياة وحيوية فتصبح جديدة نضرة مغرباً في ذلك أحسن إغراب وأطرفه، على نحو ما يتضح في تلك الأبيات، فقد أخذ عن الشعراء استعارة الشمس لصاحبه في البهاء والجمال، وأضاف إليها أنها شمس لا تغرب، إذ ما تنى طالعة في خدرها مشرقة، وناشد نسيم الصبا أين مستقر صاحبه؟ ويذكر أن شذاها يفوح لا من حولها فحسب، كما يقول الشعراء، بل في النسيم ذاته يدلل أنفاسه المحملة بأريج هذا الشذى، ويقول:

سَلِ الرِّيحَ عَنْ نَجْدٍ تَخْبِرُكَ أَنَّهَا معطرةُ الأنفاسِ مُدُّ سَكْنَتْ نَجْدًا
 وَأَنَّ الغُضَا والسَّدْرَ مَذْ جاورتهما بِطَيِّبٍ شَذَاها أَشْبَها البَانَ والرُّنْدَا

فصاحبه منذ سكنت نجداً أحالت الريح فيها إلى أنفاس معطرة، بل لقد أحالت الغضا والسدر من أشجار البادية العادية إلى أشجار البان والرند التي طالما ذكرها الغزلون واستدارت من حولها في أخيلتهم هالات الجمال لمحوباتهم. ومن قوله في مقدمة إحدى مدائحه:

(١) الخدر: البيت. رامة: موضع بنجد. يثرَب: (٢) شذى العرف: رائحة الطيب العطرة. المدينة.

ولقد مررتُ على الكُثيبِ فَأَرَزَمْتُ
ما بين ساحاتٍ لهم ومعاهدٍ
والورقُ تهتف حولهم طرباً بهم
وبكل مَحْنِيَةٍ ترنمُ شادى^(١)
سُقَيْتُ من العَبَرَاتِ صَوْبَ عِهَادٍ^(٢)
وإِيلي وَرَجَعَتِ الصَّهِيلُ جِيَادِي^(٣)

والبيت الأول يكتظ بالحنين لصواحيه وراء الكُثيب وحوله، حتى الإبل جمدت في مكانها ولا تريد أن تفارقه، وتجاوبت الخيل بصهيلها، فهي لا تريد أن تبرحه. ويدعو لساحاتهن ومعاهدن أن تظل تُسَقَى بعبرات المحبين، ويسوق الحمام الورق لا ليصور فيه حنينه وأنيته لفراق صواحيه على عادة الشعراء، بل ليصور بهجته، فهو يشدو لهن طرباً. وتكثر في غزله مثل هذه الصور الطريفة من مثل قوله في وصف دقة الخَصْرِ:

أَسْأَلُهَا أَيْنَ الْوِشَاحُ وَقَدْ أَتَتْ
فَقَالَتْ وَأَوَمَّتْ لِلسَّوَارِ نَقْلَتُهُ
مُعْطَلَةٌ مِنْهُ مَعْطَرَةُ النَّشْرِ
إِلَى مِعْصِيٍّ لَمَّا تَقْلُقِلُ فِي خَصْرِي

وقوله:

وَقَفْتُ عَلَى الرُّبُوعِ وَلِي حَنِينٌ
وَلَوْ أَنِّي حَنَنْتُ إِلَى مَغَانِي
لَسَاكِنَهُنَّ لَيْسَ إِلَيَّ الرُّبُوعُ
أَحِبَّائِي حَنَنْتُ إِلَى ضُلُوعِي

وقوله:

تَحَاذَرُ مِنْ عُمُودِ الصَّبْحِ نَوْرًا
وَلَمْ أَرْ قَبْلَهَا وَاللَّيْلِ دَاجٍ
مَخَافَةً أَنْ يُلْمَ بِنَا افْتِضَاحُ
صَبَاحًا بَاتَ يَذْعَرُهُ صَبَاحُ

والتعبير عن نحول الخصر بنقل السوار إليه تعبير طريف، وبالمثل تعبيره عن أضلاعه بأنها غدت معاهد وربوعاً لمحوباته، وتصويره لما جال في نفس صاحبتة من خوف بل من دعر حين أخذت تتفلت في الأفق تباشير الصباح، ويعجب لفرع صباح إنسى من صباح كوفي. وقد توفي ابن الزقاق سنة ٥٢٨ ولم يبلغ الأربعين من عمره، ولعل فيما قدمنا ما يكفي للدلالة على خصب شاعريته وأخيلته.

(١) أرزمت: حُنت.

منه.

(٣) الورق: الحمام. مَحْنِيَةٌ: منعطف.

(٢) العهاد: المطرق أول الشتاء. وصوبه: الساقط.

أبو جعفر^(١) بن سعيد وحَفْصَة الرُّكُونِيَّة

هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، من سلالة عمار بن ياسر، نزل أسلافه قلعة في إقليم غرناطة نُسبت إليهم، وحين نشبت فتنة قرطبة في نهاية القرن الرابع وظلت إلى نحو الربع الأول من القرن الخامس الهجري استقلت بها هذه الأسرة، وعادت إلى الاستقلال بها في نهاية عصر المرابطين حين نشبت عليهم الفتنة في الأندلس. ثم دان زعيمهم عبد الملك بن سعيد للموحدين وكان قبل إعلان ولائه لهم حاول أن يتخذ من ابنه أبي جعفر أحمد وزيرا له يدبر معه شئون القلعة، وكان شاعرا وفي ريعان شبابه فاعتذر له بأنه صاحب هو وطرب، ولا يصلح لوزارته، فأعفاه، ومضى يعيش للهواه مع رفاقه، حتى إذا نزل عبد المؤمن بجبل الفتح سنة ٥٥٦ وأقبلت إليه وفود الأندلس تعلن ولاءها له رأيناه يفد عليه مع أبيه ويقدم إليه بعض مدائحه. وولى عبد المؤمن على بلدان الأندلس بعض أبنائه وقواده، وكانت غرناطة من نصيب ابنه أبي سعيد عثمان، وكانت فيه صرامة مع محبته للآداب وإسباغ المكافآت والنوال على الشعراء. وطلب وزيرا أدبيا من أهلها يستعين به ووصف له أبو جعفر وحسبه وأدبه فاستوزره، وحاول أن يستعفيه، فأبى، وتقلد وزارته.

وكان أبو جعفر قد كلف بفتاة شاعرة ذات جمال وحسب وثناء هي حفصة الرُّكُونِيَّة، وكان أبوها قد لفته ذكاؤها، فعنى بتربيتها، وأتاح لها من الحرية ما جعلها تلقى الأدباء والشعراء وتحاورهم، وتأخذ سريعا مكانة رفيعة في بلدتها، ويبلغ من مكانتها أن تفد على عبد المؤمن بجبل الفتح وأن تنشده متلطفة:

ياسيد الناس يامن	يؤمل الناس رفدَه
امنن على بطرس	يكون للدهر عدَه
تخط يمناك فيه	الحمد لله وحده

مشيرة بالشطر الأخير إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، إذ كان سلطانهم يكتب

ص ١٠ والإحاطة ٤٩١/١ وانظر ص ٢٢٠
والتحفة رقم ١٠٠ ومعجم الأدباء ٢١٩/١٠ والنفع
١٧١/٤ - ١٧٩.

(١) انظر في ترجمة أبي جعفر بن سعيد وشعره
المغرب ١٦٤/٢ والإحاطة ٢١٤/١ والنفع
١٧٣/٤ - ٢٠٤. وراجع في ترجمة حفصة وأشعارها
المغرب ١٣٨/٢ - ١٣٩ و ١٦٦/٢ والمطرب

بخط يده في رأس كل منشور: الحمد لله وحده. وأعجب بها عبد المؤمن واستنشدها من شعرها وأنشدته ما زاده إعجابا، ويبدو أن ابنه عثمان الذي تولى غرناطة بعد ذلك رآها حينئذ وبهره جمالها. فلما ولى غرناطة حاول القرب منها عن طريق وزيره أبي جعفر، ولا بد أنه عرف ما كان قد انعقد بينهما من حب وهو ليس حب مجنون، بل حب طهارة وعفاف على نحو ما عُرف عن فتيات الأندلس وسيداتهن من تحرر ومن لقاءات بينهن وبين الشعراء في قصورهن، وفي الحدائق والرياض، إذ كن أحيانا يمضين فيها بعض الليالي مع من يهواهن وظلت ذكرى ليلة قضاها أبو جعفر مع حفصة في بستان بمتنزه يسمى «حَوْر مؤمِّل» عبققة في نفسه حتى ليكتب إليها:

رَعَى اللهُ لَيْلَا لَمْ يَرْخَ بِمَدْمَمٍ عَشِيَّةً وَارَانَا بِحَوْرٍ مُؤَمِّلٍ
وَقَدْ خَفَقَتْ مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ أَرِيحَةً إِذَا نَفَحَتْ هَبَّتْ بَرِيًّا الْقُرْنُفْلُ
وَعَرَّدَ قَمَرِيَّ عَلَى الدَّوْحِ وَانْتَشَى قَضِيبٌ مِنَ الرِّيحَانِ مِنْ فَوْقِ جَدُولٍ

فهو يدعو لليل الذي نعم فيه مع حفصة باللقاء بين نسيم الرياض ونفحاتها التي تحيي القلوب أن يسبغ الله دائما عليه رعايته. وتحبيه:

لَعَمْرُكَ مَا سُرَّ الرِّيَاضُ بَوْضُلَنَا وَلَكِنَّمَا أَبَدَتْ لَنَا الْغِلَّ وَالْحَسَدُ
وَلَا صَفَّقَ النَّهْرُ ارْتِيَا حَا لِقَرْنَا وَلَا غَرَّدَ الْقَمَرِيُّ إِلَّا لِمَا وَجَدُ

وكانها تحدث عن حسد الناس لها وأنها لن يتركوها ينعمان بحبها، ويقطفان من أزهاره ما يعن لها وما يتمتعان به روحاها، واتصل بينها الحب واللقاء فكتبت إليه وقد استبطأت لقاءه:

أَزُورُكَ أَمْ تَزُورُ فَإِنْ قَلْبِي إِلَى مَا تَشْتَهِي أَبَدًا يَمِيلُ
فَعَجَّلْ بِالْجَوَابِ فَمَا جَمِيلُ أَنَا تُكَ عَنْ بُشَيْنَةَ يَاجْمِيلُ

وهي تشير إلى حب جميل لبشينة حبا عذريا شاع ذكره في بوادي نجد والحجاز لعصر بني أمية. وأجابها مصورا ولعه بها وتوقيره لها:

أَجِلُّكُمْ مَا دَامَ بِي نَهْضَةٌ عَنْ أَنْ تَزُورُوا إِنْ وَجَدْتُ السَّبِيلُ
مَا الرُّوضُ زَوَارًا وَلَكِنَّمَا يَزُورُهُ هَبُّ النِّسِيمِ الْعَلِيلُ

فالروض لا يزور ومثله الفتاة التي ملكت قلب صاحبها وخلبت له، وإنما يزوره

النسيم العليل يستشفى بشذاه وأريجيه. ويبدو في أشعارها له أنه استأثر بقلبها وأنه لم يدع فيه مكانا لسواه حتى لتتشده ملئحة بحبه ناعمة به سعيدة، غير منكرة غيبتها عليه:

أغار عليك من عَيْنِي وَمِنِّي ومنك ومن زَمَانِكَ وَالْمَكَانِ
ولو أنى خبأتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني

فهى تغار عليه غيرة لا تماثلها غيرة، حتى لتغار منه هو ومن كل ما يحيطه به من زمان ومكان، وتقول لو أنها خطفته ووضعت وراء جفونها في عيونها إلى يوم القيامة ما كفهاها. وبينما هى تنعم بهذا الحب مع أبى جعفر إذا عثمان بن عبد المؤمن صاحب السلطان فى غرناطة ومن له كل الأمر والتدبير يعترض طريقها المفروش بالورود والرياحين، وتخشى حفصة العاقبة، وتحاول أن تناوره وتداوره فتستأذن عليه فى يوم عيد كاتبة إليه:

يا ذا العُلا وابنَ الخَلِيفَةِ والإمامِ المُرتَضَى
يَهْنِيكَ عِيدٌ قَدْ جَرَى منه بما تَهْوَى القُضَا
وَأفَاكَ مِنْ تَهْوَاهُ فِي طُوعِ الإِجَابَةِ وَالرُّضَا

ويعتلى قلب عثمان على كل من العاشقين موجدة وغيظا، وتزيده الوشايات موجدة على موجدة وغيظا على غيظ، إذ يقال له إن أبا جعفر قال لحفصة عنه: ما تحبين فى ذلك الأسود - وكان لون بشرته مائلا إلى السواد - فأسرّها فى نفسه، ونقلوا إليه أنه قال:

فَقُلْ لِحَرِيصٍ إِذْ يَرَانِي مَقِيدًا بِخِدْمَتِهِ لَا يُجْعَلُ الْبَارُ فِي الْقَفْصِ

ووات عثمان الفرصة للانتقام، فإن أبا جعفر عبد الرحمن فرّ إلى ابن مردنيس الثائر فى شرقى الأندلس على الموحدين، ويبدو أن أبا جعفر فكر فى الانضمام إلى أخيه، فأمر عثمان بقتله، وقُتل صبرا فى مالقة سنة ٥٥٩ للهجرة. وبكته حفصة طويلا وندبته ندبا حارّا ولبست عليه السواد، وهجرت غرناطة لغريمها عثمان إلى مراكش ولقيت أخاه سلطان الموحدين يوسف، وأنشدته من الشعر ما جعله يعطف عليها ويفسح لها فى قصره معلمة لفتياته، وتظل معززة مكرمة فى عاصمة الموحدين إلى أن لبت نداء ربها سنة ٥٨٦ للهجرة.

ابن خاتمة^(١)

هو أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري المريّ، ولد في نهاية القرن السابع أو مطلع القرن الثامن إذ يقال إنه توفي سنة ٧٧٠ أو قبلها بقليل عن سبعين عاما. وليس بين أيدينا ما يوضح نشأته وثقافته، غير أن في نهوضه بالإقراء للقرآن الكريم في مسجد المرية الجامع ما يشهد بأنه كان متعمقا في الثقافة الإسلامية من قراءات الذكر الحكيم ومن الفقه والحديث النبوي، وتؤكد ذلك مؤلفاته وأشعاره وما تحمل من إشارات ثقافية إسلامية وأخرى لغوية. ونرى في أخباره زيارات كثيرة لغرناطة وانعقاد صلات بينه وبين أعلامها وخاصة وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مما يدل على أنه اتصل بالأعمال الديوانية لأمير غرناطة، ولعله عمل كاتباً مدة في دواوين المرية ببلدته التي كانت تتبع أمير غرناطة، إذ يُذكر في ترجمته أنه تَخَلَّى عن الكتابة، حتى إذا طُلِب إليه أن يعود إليها أنشد:

تَقْضَى في الكتابة لى زمانُ كَشَّانِ العَبْدِ ينتظرُ الكتابه

وكتابة العبد التي يشير إليها هي أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه مقسّطاً، فإذا أذاه صار حُرّاً، وهو يقول إنني قضيت في الكتابة زماناً غير قصير. مما يدل على أنه ظل يعمل في الكتابة لأولى الأمر ببلدته فترة وأنه استعفى منها فأعفى، وبذلك رُدَّت إليه حرّيته ولن يعود إلى حمل نير الكتابة أبداً. وتدل مؤلفاته أوضح دلالة على اتساع ثقافته وأنه لم يقف بها عند الثقافة الدينية واللغوية، بل اتسع بها لتشمل الطب من علوم الأوائل كما يتضح في كتابه: «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» وفيه يتحدث عن وباء الطاعون الذي اجتاحت المرية في عامي ٧٤٩ و ٧٥٠ ويفصل القول فيه وفي أسبابه. وله في التاريخ الأدبي كتاب مزية المريّة على غيرها من البلاد الأندلسية، وله في اللغة كتاب سماه: «إلحاق العقل بالحس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس» وكتاب

مختلفة (انظر الفهرس) وديوانه حققه وقدم له د. رضوان الداية. وراجع دراسة عنه للمستشرقّة الإسبانية سوليداد خيرت في كتاب دراسات أندلسية للدكتور الطاهر أحمد مكي (طبع دار المعارف) ص ٩٧.

(١) انظر في ترجمة ابن خاتمة وشعره الإحاطة ٢٣٩/١ وما بعدها والكتيبة الكامنة ص ٢٣٩ ونثير فرائد الجمان لابن الأحمر (تحقيق رضوان الداية) طبع بيروت - رقم ٢٠ ودره الحجال لابن القاضي (طبع الرباط) ٤٠/١ ونيل الابتهاج لأحمد بابا (طبع القاهرة) ص ٧٢ ونفع الطيب في مواضع

«إيراد اللآل من إنشاد الضوال وإرشاد السؤل». وله في الأدب رسالة صغيرة في «الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعادل» وكتاب «رائق التحلية في فائق التورية» وليس دراسة في التورية وإنما هو أشعاره الذى صاغها للتورية، وبها توريات عن مصطلحات علمية متنوعة.

وديان ابن خاتمة في نحو مائتى صفحة، وهو موزع على أربعة أقسام: قسم في المدح والثناء، وقسم في التشبيب والغزل، وقسم في الملح والفكاهات، وقسم في الوصايا والحكم، ونبذة كبيرة من الموشحات استغرقت نحو أربعين صحيفة، وتليها مستدركات المحقق على الديوان. وأكبر الأقسام قسم التشبيب والغزل وهو في نحو خمسين صحيفة تضم تسعا وأربعين منظومة بين قصيدة ومقطوعة. ونشر منذ أول قصيدة نقرؤها فيه أن منظوماته ليست ثمرة تجارب حقيقية في الحب، إنما هي محاولات لمحاكاة شعراء الغزل والنسيب السابقين، إذ يختار ابن خاتمة لنفسه وزنا من أوزان الشعر، وينظم فيه أبياتا تتحدث عن الحب حديثا كله تكلف وتصنع لبيان قدرته على النظم في هذا الغرض القديم من أغراض الشعر العربى، وفيه تتجمع العناصر البدوية من أسماء المواضع والأشجار والأزهار والآرام وغير الآرام من مثل قوله:

تهبُّ نُسَيْمَاتُ الصَّبَا مِنْ رَبِّى نَجْدٍ	فَيَنْفَخْنَ عَنْ طَيْبٍ وَيَعْقِنَ عَنْ نَدٍّ ^(١)
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُنَّ يَجُلْنَ فِى	مَعَاهِدِنَا بَيْنَ الْأَثِلَاتِ وَالرُّنْدِ ^(٢)
مَعَاهِدُ نَهْوَاهَا وَتَهْوَى لِقَاءِنَا	بِهَا قَدْ مَضَى حَكْمُ الْعَفَافِ عَلَى الْوُدِّ
وَفِي الْقُبَّةِ الْبَيْضَاءِ بَيْضَاءُ لَوْبِدَتْ	لشَمْسِ الضَّحَى يَوْمَا لِحَارَتْ عَنِ الْقَصْدِ ^(٣)
تَطْلُعُ عَنْ صُبْحٍ مِنَ الْوَجْهِ نَيْرٍ	وَتَغْرُبُ عَنْ لَيْلٍ مِنَ الشَّعْرِ مُسَوِّدٍ

ونسيج الصياغة في الأبيات به غير قليل من الضعف، والمعانى والصور مكررة معادة دون تحويرات فيها - على نحو ما رأينا عند ابن الزقاق - تعيدها خلقا جديدا، ودائما الحد كالورد والريق كالشهد والمبسم كالعقد والصدغ كالعقرب. وقد يختلط الغزل بالحماسة ولكن دون حرارة ومع غير قليل من التكلف كأن يزعم أن مقلة صاحبه تغير على الورى وأن أناملها النواعم مخضبة بدمائهم. ولا نظلم ابن خاتمة فهو من أنبه الشعراء في زمنه، غير أن الشعر حينئذ نضب معينه، واستحال في كثير من جوانبه إلى

(١) الند: عود عطر الرائحة. ومثلها الرند وهو شجر طيب الرائحة.

(٢) الأثيلات تصغير الأثلات: من أشجار البادية.

(٣) حاربت: رجعت.

صور من التكلف الشديد، وقد أصبح التصنع بدع العصر للإتيان بمحسنات البديع من جناس وطباق ولف ونشر وتوريات وبذلك لم يعد الشعر في جمهوره يعبر عن عواطف ومشاعر صادقة للشاعر، وربما كانت أجمل مقطوعة غزلية لابن خاتمة قوله:

زَارَتْ عَلَى حَذَرٍ مِنَ الرُّقْبَاءِ وَاللَّيْلُ مَلْتَفٌ بِفَضْلِ رِدَائِ
تَصِلُ الدُّجَى بِسَوَادِ فَرْعٍ فَاحِمٍ لَتَزِيدَ ظُلُمَاءُ إِلَى ظُلُمَاءِ
فَوْشَى بِهَا مِنْ وَجْهٍ وَحَلِيٍّ بِدُرِّ الدُّجَى وَكَوَاكِبُ الْجُوزَاءِ
أَقْسَمْتُ لَوْلَا عَفَّةُ عُذْرِيَّةٍ وَتَقَى عَلَى لَهْ رَقِيبُ رَائِي
لَنَقَعْتُ غَلَّةَ لَوْعَتِي بِرُضَائِهَا وَنَضَحْتُ وَرْدَ خَدُودِهَا بِبِكَائِي

ومع ذلك فإننا نشعر بغير قليل من التكلف في المقطوعة على نحو ما نرى في الشطر الثاني من البيت الثاني، والصور في البيت الثالث متراكمة، وقسمه الذي مهد به لعفته وتقاه الذي يراقبه في حبه، كل هذه صور من التكلف الشديد في الغزل. ويخف هذا التكلف في موشحاته بحكم القصر الشديد في شطورها، وبذلك لا تظهر فيها هلهلة النسيج التي تلاحظ بوضوح في كثير من أبيات شعره.

٢

شعراء الطبيعة والخمر

تتميز الأندلس بطبيعة فاتنة في سهولها ووديانها وأنهارها وجبالها وغاباتها وأشجارها وأزهارها وبساتينها ومنتزهاتها، وهى طبيعة خلبت ألباب الشعراء هناك فتغنوا بمفاتيحها ومشاهدها دائما بائين فيها عواطفهم ومشاعرهم. وكان مما زادهم شغفا بها ما مرّ بنا من اختلافهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم مع صواحبيهم، ولذلك كثر عند شعراء الأندلس المزج بين الطبيعة والغزل، وأيضا كثر عندهم المزج بين الطبيعة والخمر، ونظن ظنا أن إقبالهم على الخمر إنما كان بسبب مزاجهم الحاد العنيف الذى ولدته فيهم حربهم الدائمة لنصارى الشمال، إذ تقوم حياة المحارب دائما على الحدة والعنف والإقبال على فنون المتاع. وكان من آثار ذلك أن كثر عندهم شعر الخمر مقرونا بالطبيعة أو بها وبالحب، وكثيرا ما يسوقون ذلك في مقدمات مدائحهم، ولا نستطيع الحديث عن شعراء الطبيعة والخمر في قسمين متقابلين كما صنعنا في حديثنا عن شعراء الفخر والهجاء، إذ هما

ممتزجان، مما يجعلنا نسوق الحديث عنها معا. وقد يكون من الطريف أن نلتقى عند عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في تلك الديار بمقطوعة له في وصف نخلة بيستان قصره في قرطبة المسمى منية الرصافة، وهي تمضي على هذا النمط^(١):

تَبَدُّتْ لَنَا وَسَطُ الرُّصَافَةِ نَخْلَةً تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنِ بَلَدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ: شَبِيهَى فِي التَّغْرُبِ وَالنَّوَى وَطَوَّلِ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَأَهْلِي
نَشَأَتْ بِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبَةٌ فَمِثْلُكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي

وكان هذه النخلة رمز العرب هناك، وكان هذه القطعة الشعرية أيضا بدورها رمز لهم بما تحمل من حنين لا ينقطع إلى الوطن البعيد، حنين مبثوث في هذه النخلة الغريبة التي نقلها العرب إلى تلك الديار النائية القاصية البعيدة. وكما نقلوا النخلة معهم نقلوا إلى أشعارهم كل العناصر البدوية النجدية من أطلال وغير أطلال، ونقلوا ما استحدثه العباسيون في وصف الطبيعة وسكبوا عليه من يبتتهم ومشاعرهم وأخيلتهم ما بث فيه الحياة والحيوية على نحو ما نجد في هذه الأبيات البديعة المبكرة، وكأنها إرهاب لما يستشعره الشاعر الأندلسي من تمثل عناصر الطبيعة لمشاعر الإنسان. ونقلوا - بجانب ذلك - ما استحدثه العباسيون في الخمر وخاصة أبا نواس، ومن حاول محاكاته مبكرا يحى الغزال الذي ترجمنا له بين الهجائين، وله قصيدة على طريقة أبي نواس تصور مغامرة له في حان من حانات الخمارين^(٢) وفيها يقول:

وَلَمَّا أَتَيْتُ الْحَانَ نَادَيْتُ رَبَّةً فَتَابَ خَفِيفَ الرُّوحِ نَحْوَ نِدَائِي
فَقُلْتُ أَذْقْنِيهَا فَلَمَّا أَذَاقَهَا طَرَحْتُ عَلَيْهِ رَيْطِي وَرَدَّائِي^(٣)

وهو يقول إنه حين ذاق خمر صاحب الحان بلغ من نشوته بها أن خلع ملابسه. وحرى بنا أن لا نأخذ مثل هذه الخمرية عند الغزال مأخذ الجد، فكثير من شعر الخمر - لا في الأندلس وحدها بل في كل البلدان العربية - كان يقال محاكاة لأبي نواس على سبيل الفكاهة في المجالس، ومثل ذلك ما يقال في وصف سقاتها والغزل بهم، فأكثر ذلك وجهوره، إنما كان يقال على سبيل التندير والمداعبة، ولا يمثل حقيقة ولا ما يشبه

(٣) الريغة: الثوب الرقيق تحت الرداء.

(١) الحلة السراء ٣٧/١.

(٢) الديوان ص ٤٣.

الحقيقة. ويقول عباس بن ناصح في قطع مفازة ليلاً^(١):

ومخوفةٍ تنفّى مخافتُها نومَ الفتى ذى المِرَّةِ النَّدْبِ^(٢)
للجنِّ في أجوازِها لَفْطٌ بالليل مثلُ تنازعِ الشَّرْبِ
وترى بها جُونَ النِّعَمِ إذا أشرَفن كالْمَهْنُوءَةِ الجُرْبِ^(٣)

وهو يصف سُرى الليل في فلاة مخوفة حتى ليخاف السرى فيها الشجاع شديد المضى. ويستلهم ما كرره طويلاً ذو الرمة في وصف الفلوات ليلاً وعزيف الجن بها الذي يشبه كما يقول عباس بن ناصح لفظ الشَّرْب، ويشبه ما بها من النعم الأسود بالإبل الجرب المطلية بالقطران، وكأننا لا نقرأ لشاعر أندلسي في القرن الثالث الهجري وإنما نقرأ لشاعر نجدى من أمثال ذى الرمة. ويقول ابن عبد ربه في وصف نهار ممطر^(٤):

نهارٌ لاح في سِرِّبالٍ ليلٍ فمأعُرفَ الرُّواحِ من البُكُورِ
وعَيْنُ الشمسِ تَرْنُو من بعيدٍ رُنُوَ الْيَكْرِ من خَلْفِ السُّتُورِ

فالسحب منعقدة في السماء والجو مظلم، ولا يدري ابن عبد ربه هل الناس السائرون فيه باكرون أو مبكرون صباحاً قبل طلوع الشمس أو هم رائحون أو راجعون، وأحياناً تترامى عين الشمس راتية من بعيد، ولكن سرعان ما تختفى وراء السحب اختفاء الفتاة الراتية خلف الستور خجلاً واستحياء. وتتقدم في القرن الرابع الهجري وملتقى بيحيى بن هذيل وله أشعار كثيرة في الربيع وأزهاره. وله في وصف حمامة وأنيها محزونة لفراق صاحبها أو هديلها^(٥):

ومِرْنَةٌ والدَّجْنُ يَنْسِجُ فَوْقَهَا بُرْدَيْنِ من طَلٍّ ونَوٍّ بَاكِ^(٦)
مالت على طَيِّ الجناح وإنما جَعَلَتْ أُرِيكَتْهَا قَضِيبَ أَرَاكِ^(٧)
وترنمت لَحْنَيْنِ قد حَلَّتْهُمَا يَغْنَاءُ مُسْمِعَةٍ وَأَنَّةِ شَاكِ
ففقدت من نفسى لفرط تلهفى نَفْسَ الحِياةِ وَقَلْتُ من أَبْكَاكِ

وهو يقول إن الحمامة ترن وتصدح والغيم يملأ أقطار الأرض والسماء ناسجاً فوقها

(١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس

لابن الكتاني (تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٧٣.

(٢) ذو الرمة: القوى الشجاع. الندب: الماضى.

(٣) جون: سود. المهنوءة: الإبل المطلية بالهناء

وهو القطران.

(٤) الذخيرة ٧٧٩/١.

(٥) الذخيرة ٣٤٦/٣.

(٦) الدجن: الغيم يعم أطباق الأرض والسماء.

النوء: المطر.

(٧) الأريكة: المقعد. قضيب: غصن.

رداءين من ظل ومطر تذرفه السحب، وهى محزونة قد مال رأسها على طى الجناح متخذة من غصن الأراك أريكة لها ومقعداً، وشجاها فراق صاحبها فهى تترنم بغناء ممزوج بأنين، مما جعله يذكر حبه ويملؤه تلهفا لرؤية صاحبتة حتى لكأنما يوشك أن يفقد الحياة. ويبكى من حُرْق هواه بصاحبتة، ويسأل الحمامة سؤال العارف من أبكاك؟ فنحن فى الهوى سواء. وتكثر أشعارهم فى الأزهار، وكثيرون منهم يردون على ابن الرومى فى تفضيله النرجس على الورد، ولسعيد بن فرج فى الرد عليه قصيدة يقول فيها: ^(١)

أزعمت أن الوردَ من تفضيلِهِ خَجَلُ وناحلِهِ الفضيلةَ عانِدُ
إن كان يَسْتَحْيى لفضل جَمالِهِ فحياؤُهُ فيه جَمالُ زائدُ

فهو يجعل خجل الورد لاحمرار وجنته من جوهر حسنه يزيد جمالا على جمال، فهو ليس احمرارا ولا خجلا عارضا أمام النرجس، بل هو جزء لا يتجزأ من جماله. ونزل الرمادى ضيفا على صَحب له فى مدينة وادى آش إلى الشمال الشرقى من غرناطة، وكان الوقت شتاء، وقدموا له احتفالا به باقة من الورد كانوا اجتلبوها من بجانة فى الجنوب الشرقى، فتعجب من وجود الورد فى وادى آش شتاء، فقالوا له إنه من بجانة، فأخلد إلى الصمت ولم يلبث أن لثَمها وأنشد ^(٢)

ياخُدودَ الحُورِ فى إخجالِها قد علَّتْها حمرةٌ مكتسبُهُ ^(٣)
اغتربنا أنتِ من بجانةٍ وأنا مغترِبٌ من قُرْطبه
واجتمعنا عند إخوان صفًا بالندى أموالهم مُنتهبه
إن لثَمى لك قَدَّامهم ليس فيه فِعْلَةٌ مستغرِبَةٌ
لاجتماعٍ فى اغترابٍ بيننا قَبْلَ المغترِبِ المغترِبَه

والمقطوعة مع سهولة ألفاظها تفيض بالعاطفة، وكأنه أعاد لنا حديث عبد الرحمن الداخل السابق إلى النخلة، فهو والوردة متاثلان فى الغربة، وأضاف إلى ذلك حبا للوردة ولثما وتقبيلا عند إخوان صفاء كرام كرما فيأضا. وكان للمنصور بن أبى عامر الحاجب ثلاث جوارٍ ساهن بأسماء الأزهار: بهارَ ونرجس وبنفسج، ونرى عبد الملك بن إدريس

(١) الحميدى ٢١٢.

بريس - طبع الرباط) ص ١٢٢.

(٣) الحور جمع حوراء: المرأة البيضاء.

(٢) البديع فى وصف الربيع لأبى الوليد
إسماعيل بن عامر الحميرى (تحقيق هنرى

الجزيري يجعل كلا منهن تخطب مولاها متمثلة زهرتها ومحاسنها بين الأزهار في مقطوعات^(١) شعرية بديعة. ويقول الشريف الطليق في نفس قصيدته الفريدة السالفة في ترجمته^(٢):

وَعَمَامٍ هَاطِلٍ شُؤْبُوهُ نَادَمَ الرُّوضُ فَغَنَى وَسَقَى^(٣)
فِي لَيَالٍ ضَلَّ سَارَى نَجْمُهَا حَائِرًا لَا يَسْتَبِينُ الطَّرْقَا
أَوْقَدَ الْبَرْقُ لَهَا مِصْبَاحَهُ فَانْتَشَى وَجْهَ دُجَاهَا مُشْرِقَا
وَشَدَا الرُّعْدُ حَنِينًا فَجَرَتْ أَكْوَسُ الْمَزْنِ عَلَيْهِ غَدَقَا^(٤)
وَعَدَتْ تَحْنُو لَهُ الشَّمْسُ وَقَدْ أَلْحَفَتْهُ مِنْ سَنَاها نُعْرُقَا^(٥)

وقد بثَّ الشريف الطليق في الغمام الممطر والروض مشاعر مجلس أنس وطرب بما فيه من مغن وساق في ليلة داجية، أمسى النجم فيها حائرا لا يتبين طريقه، وسرعان ما أشعل البرق لها مصابيحها، فاستحال وجهها الداجي المظلم مشرقا مضيئا، وأخذ الرعد يشدو ويغنى، فجرت أكوس المزن غزيرة حتى انتشى الروض، وأصبح، فرأت الشمس ما أصاب الغصون وبعض الأزهار من المطر المنهمر ليلا، فعطفت على الروض وأشفقت عليه وكسته من سناها وضوئها طنافسها الذهبية، حتى يسرى فيه الدَّفء.

ولم نقف حتى الآن عند الخمريات لا لأنها كانت قليلة، فلم يكد يخلو شاعر من سميناهم في هذا العصر الأموي من أشعار له في الخمر، غير أنها في جملتها تعد محاكاة وتقليدا لما قال المشاركة فيها. وربما كان الشريف الطليق أول شاعر نقرأ له في الخمر أشعارا فيها شيء من الطرافة للمكاته الخيالية الخصبية من مثل قوله في نفس القصيدة السالفة:

رُبَّ كَأْسٍ قَدْ كَسَتْ جُنْحَ الدُّجَى ثَوْبَ نَوْرِ مِنْ سَنَاها يَقْقَا^(٦)
بَتْ أَسْقِيهَا رَشًّا فِي طَرَفِهِ سِنَةً تُورِثُ عَيْنِي أَرْقَا^(٧)
خَفِيتُ لِلْعَيْنِ حَتَّى خِلْتُهَا تَتَّقِي مِنْ لَحْظِهِ مَا يُتَّقَى

(٤) المزن: السحاب. غدقاء: غزيرة.
(٥) النمرق: الطنفسة من القطيفة أو الصوف.
(٦) الأبيض اليق: الناصع البياض جنح: ظلام.
(٧) الرشأ: ولد الظبية.

(١) راجع هذه المقطوعات في الذخيرة ٤٧/٤
وانظر في ترجمة الجزيري الجذوة ٢٦١ والمطمح ١٣
والصلة ٣٥٠ والمغرب ٢٢١/١.
(٢) الحلة السراء ٢٢٣/١.
(٣) شؤبوب المطر: أول دفعة منه.

أَشْرَقَتْ فِي نَاصِعٍ مِنْ كَفِّهِ كَشَعَاعِ الشَّمْسِ لَا قَى الْفَلَقِ^(١)
 طَلَعَتْ شَمْسًا وَقُوهُ مَغْرِبًا وَيَدُ السَّاقِي الْمَحْيَى مَشْرِقًا
 فَإِذَا مَا غَرَبَتْ فِي فَمِهِ تَرَكْتُ فِي الْخَدِّ مِنْهُ شَفَقًا

والاستعارات في الخمرية جيدة، فالكأس كست ظلام الدجى ثوب نور من ضوئها ناصع البياض، وقد بات يسقيها رشاً عيناه ذا بلتان كأن بها سنة من النوم، وإن فتورها وجماله ليؤرقه. ويقول إنها خمر روحانية، حتى إنها لا تكاد تُرى، وكأنها تتوارى من لحظ هذا الرشأ خشية أن تصيبها سهامه، ويجعل يد الساقى مشرقاً لتلك الشمس أو تلك الخمر، كما يجعلها تغرب في فم الرشأ أو فم صاحبه. وكل ذلك فيه أصداء من خمرات أبي نواس، وقد نفذ إلى إضافة حين جعل يد الساقى مشرقاً وجعل الخمر حين تغرب في فم صاحبه تتحول في الخد منها شفقاً. ويتصور معاصره الفقيه سليمان بن محمد البطليوسى الأرض في الربيع كأنها مجلس أنس كبير، يقول^(٢):

تَبَدَّتْ لَنَا الْأَرْضُ مَزْهُوَّةً عَلَيْنَا بِيَهْجَةً أَثْوَابُهَا
 كَأَنَّ أَزَاهِرَهَا أَكْوُسُ حَوَتْهَا أَنْامِلُ شُرَابُهَا
 كَأَنَّ الْغُصُونِ لَهَا أَذْرَعُ تَنَاوَلُهَا بَعْضُ أَصْحَابُهَا
 كَأَنَّ تَعَانِقَهَا بِالْجُنُوبِ تَعَانَقُ خَوْدَ لَأَثْرَابُهَا
 كَأَنَّ تَرَقُّرَقَ أَجْفَانِهَا بُكَاهَا لِفَرْقَةٍ أَحْبَابُهَا

فالأرض قد ازدهت بأبهج أثوابها لهذا الاحتفال الكبير، وكأنما أزهارها تحولت إلى كتوس في أنامل الشاربين تمدها لهم أذرعها من الغصون، مبتهجة فرحة بلقائهم، وريح الجنوب تعانق الغصون عناق خَوْدٍ أو شابة فاتنة لأثرابها الفاتنات، ويتلفت فيجد الندى على وجنات الأزهار وفي عيونها فيقول إن الدموع تترقرق في أجفانها لفرقة أحبابها. ونلتقى بعده بعبادة بن ماء السماء، وسنخصه بكلمة. وكان يعاصره ابن شهيد بأخرة من العصر الأموى، وله في زيارة دَيْرِ أيام شبابه مع صاحبه في طلب الخمر واللهو^(٣):

وَلَرُبَّ حَانَ قَدْ شَرِبْتُ بِدَيْرِهِ خَمَرَ الصُّبَا مُزَجَّتْ بِصَفْوِ خُمُورِهِ
 فِي فَتْيَةٍ جَعَلُوا الزُّفَاقَ يَكَاءَهُمْ مُتَصَاغِرِينَ تَخْشَعَا لِكَبِيرِهِ

الملتس رقم ٧٦٢.

(٣) الديوان ص ١١٥.

(١) الفلق: الصباح.
 (٢) ابن الكثاني ص ٤١ والبديع في وصف الربيع

ص ١٤ وانظر في ترجمة الفقيه الحميدى ٢٠٦ وبغية

يُهْدِي إلينا الرَّاحَ كُلَّ مُعْصَفٍ كَالْخِشْفِ خَفَرَهُ التَّمَاخُ خَفِيرُهُ^(١)
وترنم الناقوسُ عند صلاتهم ففتحتُ من عيني لرَجْع هديره

وهو يقول إنه بات مع بعض رفاقه في حانة دير اضطفت فيها الدنان وأخذوا يعبُون من الخمر متخذين من زقاقها متكئا لهم، كأنما يريدون أن لا يتركوا فيها بقية، وغللمان الدير يدورون عليهم بكتوسها وعين القسيس ترصدهم وترعاهم. وأخذتهم سنة من النوم، ودق ناقوس الكنيسة في الصباح فأيقظهم من رقادهم. وحرى بنا أن نشير هنا إلى كتاب التشبيهات لابن الكتاني المتوفى حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، فكل ما فيه من عرض للشعراء مع طرائف تشبيهاتهم هو من إنتاج العصر الأموى بالأندلس، وقد خص شعر الطبيعة بنحو ستين صفحة وشعر الخمر بنحو عشرين صفحة، تتوالى فيها جميعا تشبيهات طريفة لكثرة من الشعراء الذين أظلمهم هذا العصر ونالوا شيئا من الشهرة فيه، وقد بلغوا في الكتاب جميعه نحو مائة شاعر، مما يدل بحق على أن الشعر نشط في الأندلس لعصر بنى أمية - كما قلنا في غير هذا الموضع - نشاطا عظيما.

وغضى إلى عصر أمراء الطوائف وملتقى في أوائله بأبى عبد^(٢) الله محمد بن السراج شاعر بنى حمود بالقة في الجنوب الشرقي للأندلس على البحر المتوسط، وكان صبا بن اسمها حُسن الورد وله فيها وفي الورد وفي الطائر المسمى حُسُونًا ويسمى عندهم أم الحسن أشعار كثيرة نذكر منها قوله:

ذكرتُ بالورد حُسنَ الوردِ شِقَّتُهُ حُسْنًا وَطِيبًا وَعَهْدًا غَيْرِ مَضْمُونٍ
هيفاءً لو بعثُ أيامي لرؤيتها بساعةٍ لم أكن فيها بِمَغْبُونٍ
فاشربُ على ذكرها خمرًا كَرِيفَتِهَا وَخُصْنِي بِهَوَاها حين تَسْقِينِي

فورد الربيع على أغصانه يذكره باسم صاحبتة وبالورد المطبوع على خديها، ويقول إنها صِنُو للورد طيبا وحسنا وقصرا إذ أيامه قليلة. ويذكر لقاءات له معها، فيطلب إلى الساقى كأسا يشربه على ذكرها، وذكرى الأيام التى نعم فيها بقربها. وكان يزامله في مديح بنى حمود أصحاب مالقة عبد الرحمن بن مُقانا وسنخصه بكلمة وملتقى

(٢) انظر في ترجمة ابن السراج وشعره الذخيرة ٨٧٠/١ وما بعدها والحميدى ٥٦ والبغية رقم ١٤٤ والمغرب ٤٣٤/١.

(١) معصفر: مصبوغ بالعصفر وهو صبغ أحمر. ويريد السقاة من غلمان القسس. الخشف: ولد الظبية. خفره: حماه. خفيره: حارسه.

بأبي عامر بن مسلمة صاحب كتاب حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح الذي ألفه
للمعتضد عباد أمير إشبيلية، وله في وصف الخمر^(١) :

خمرة ماتت زماناً بحجاب يَحْتَوِيها
لبثت في بطن أم غَيَّبَتْها عن بَنِيها
أَلَحَدَتْها الدُّنْ دَهْرًا ثم عاد الرُّوحُ فيها
فانبرى منها سراجٌ رائقٌ مَنْ يَجْتَلِيها

وهو يقول إنها ماتت زمانا طويلا وراء حجاب دَنَّا أو سَدَّاده، ويزعم أنها ظلت في
بطن أمها حقبا لا تبرزها لبنيتها من الكتوس، وما زالت الدن مدفونة، أو بعبارة أدق
ما زالت الخمر مدفونة لا حياة فيها ولا روح، ثم قُدِّر لها أن يعيد الماء لها روحها وحياتها
حين وُضع فيها وامتزج بها، ولم تلبث أن بدا فيها سراج يروق الناظرين. وكان يعاصره
في إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري الملقب بحبيب المتوفى سنة ٤٤٠ عن
اثنين وعشرين عاما، وله كتاب البديع في وصف الربيع الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني،
وهو أحد مصادرنا الموثوقة في الهوامش، وقد جمع فيه روائع مما للأندلسيين في صفة الربيع
وأزهاره ونواويره، وهو دليل واضح على كثرة ما نظم الأندلسيون في الطبيعة مما أتاح له
أن يؤلف فيها منتخباته البديعة في مائة وستين صفحة، مما نظموه فيها. ولابن عمار أبيات
في الخمر والطبيعة اشتهرت قَدَّم بها مدحة للمعتضد عباد، وهي تمضي على هذا النمط^(٢) :

أَدِر الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انْبَرَى والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنانَ عن السَّرى
والصُّبْحُ قد أَهْدَى لنا كافورةَ لما استردَّ الليلُ مِنَّا العَنبرا
والرُّوضُ كالْحَسْنا كسأه زهره وشيئا وقلده نَداه الجوهرا
روضُ كأن النهرَ فيه مِعْصَمٌ صافٍ أطلَّ على رداءٍ أخضرا

وموسيقى القصيدة وصياغتها وصورها على هذه الشاكلة من التفنن، وكأنما تحولت
الدنيا والطبيعة إلى محفل راقص، حتى النجم كأنما ثبت في مكانه لا يريم، واسترد الليل
المرح الذي قضوه عنبره وسواده منهم، فأهداهم الصباح كافوره وضيائه المشرق، وتبرَّج
الروض في وشيه وجواهره، وكأن النهر الذي يجري فيه معصم صاف متألئ بمياهه يشرف

(٢) الذخيرة ٣٨٤/٢ ومغرب ٣٩١/١.

(١) الذخيرة ١٠٨/٢.

على بساط بل على رداء سُندسى أخضر. وتتداخل صور الطبيعة في مديح القصيدة ومعانيها مرارا كقوله السالف في المعتضد:

أَنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى وَالَّذِي فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى

وكان يعاضره بإشبيلية على بن حصن الماجن، وسنفرد له كلمة. ونغضى إلى عصر المرابطين، وملتقى بعبد الله بن سارة، وله أشعار كثيرة في الأزهار: النرجس وغيره وفي الحمر وبجالسها، ومن قوله في النارج^(١):

أَجْمَرُ عَلَى الْأَغْصَانِ زَادَتْ نَضَارَةً بِهِ أَمْ خَدُودُ أَبْرَزَتْهَا الْهُوَادِجُ
كُرَاتُ عَقِيقٍ فِي غُصُونِ زَبَرْجَدٍ بِكَفِّ نَسِيمِ الرِّيحِ مِنْهَا صَوَالِجُ
نَقَبْلُهَا طَوْرًا وَطَوْرًا نَشْمُهَا فَهِنَّ خَدُودُ بَيْنَنَا وَنَوَافِجُ

وابن سارة لا يدرى أيرى على الأغصان جمرا ناضرا أم خدودا لحسان تومض من بعيد على الهوادج، بل هي كرات من عقيق أحمر تتوج غصونا من زبرجد أخضر، بل هي صوالج يرسلها النسيم بكفه إلى أعالي أشجارها حتى إذا تناوَلها بيده مضى يقبل فيها خدود الحسان ويشم أريجها العطر، وكأنها طورا خدود وطورا نوافج مسك ذكي الرائحة. ولهم شعر كثير في الفواكه والثمار نكتفي منه بهذا المثال. ولأبي طالب عبد الجبار المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمي خميرية نواسية، وصف فيها زيارته لإحدى الحانات، يقول فيها^(٢):

وَحَمَارٌ أَنْخْتُ بِهِ مَسِيحِي رَخِيمُ الدَّلِّ ذِي وَتَرٍ فَصِيحٍ^(٣)
سَقَانِي ثُمَّ غَنَانِي بِصَوْتٍ فِدَاوَى مَا بَقَلْبِي مِنْ جُرُوحِ
وَفَضُّ فَمِ الدَّنَانِ عَلَى اقْتِرَاحِي فِقَاحُ الْبَيْتِ مِنْهَا طِيبُ رِيحِ
فَقُلْتُ لَهُ لَكُمْ سَنَةً تَرَاهَا فَقَالَ: أَظْنَهَا مِنْ عَهْدِ نُوْحِ
وَلَمَّا أَنْ شَدَا النَّاوُسُ صَوْتَا دَعَانِي: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الصُّبُوحِ

فهو قد نزل بخمار مسيحي يحسن الغناء على العود بصوت رقيق، وسقاه وغناه وشفى - كما يقول - ما بقلبه من جروح، وأخذ يفض له باقتراحه دنا وراء دن، وسأله عن عمرها فقال له إنها عتيقة وأظنها من عهد نوح، ودق الناقوس، فنبهه إلى الصبح أو

(٣) رخيم: رقيق.

(١) اللخيرة ٨٤٠/٢ ومغرب ٤٢٠/١.

(٢) اللخيرة ٩١٨/١ والمغرب ٣٧٢/٢.

شُرِبَهَا فِي الصَّبَاحِ. وَابْنُ الزَّقَّاقِ يَصِفُ أَمْسِيَةً وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَخَلَفَتْ وَرَاءَهَا عَلَى أَفْقِ السَّمَاءِ الْغَرْبِيِّ الشَّفَقَ الْبَهِيَجَ^(١):

وَعَشِيَّةٍ لَبَسْتُ رِدَاءَ شَقِيقِ تَزْهُوْ بِلَوْنٍ لِلخُدُودِ أَتْنِي
أَبَقْتُ بِهَا الشَّمْسُ الْمَنِيرَةُ مِثْلَمَا أَبْقَى الْحَيَاءُ بَوَاجِنَةَ الْمُعْشَوِقِ
لَوْ اسْتَطِيعَ شَرِبْتُهَا كُلَّهَا بِهَا وَعَدَلْتُ فِيهَا عَنْ كُتُوسٍ رَحِيقِ

وهو يتصور العشيّة كأنها أعارها زهر شقائق النعمان الأحمر رداءً أو كأنها اكتست بحمرة الحدود الفاتنة أو كأنها خلّفت الشمس المضيئة عليها ما يخلفه الخجل على وجنة المعشوق. وإنه ليفتن بتلك العشيّة وما يلبس الأفق من أضواء الشفق الوردية والياقوتية التي تفوق نشوته برؤيتها نشوته بالكُتُوس من رحيق الخمر، حتى ليرتضى - لو استطاع - أن يشربها هاتنا بها هناة ما بعدها هناة. وابن الزقاق ينتشى دائماً بمناظر الطبيعة الساحرة وله بجانب شعره فيها خمریات كثيرة، ولكن تظل نشوته بالطبيعة أشد أو أكثر شدة. وكانت فتنة خاله ابن خفاجة بالطبيعة أعمق أو أكثر عمقا وسنخصه بكلمة عما قليل.

ونظّل في عصر الموحدين نلتقى بكثيرين مفتونين بمناظر الطبيعة الأندلسية الخلافة، وفي مقدمتهم الرصافي الذي ترجنا له بين شعراء المديح، وله يصف نهر الوادي الكبير الذي يمر أمام إشبيلية وما يحيط به من أشجار ونباتات قائلا^(٢):

وَمَهْدَلِ الشَّطِئِينَ تَحْسَبُ أَنَّهُ مُتَسَايِلٌ مِنْ دُرَّةٍ لَصَفَائِهِ
فَاءَتْ عَلَيْهِ مَعَ الْهَجِيرَةِ سَرْحَةٌ صَدِثَتْ لَفَيْتِهَا صَفِيحَةٌ مَائِهِ^(٣)
وَتَرَاهُ أَزْرَقَ فِي غِلَالَةِ سُندُسٍ كَالدَّارِعِ اسْتَلْقَى بِظِلِّ لَوَائِهِ

فالنهر تهدلّ على شطبيه أغصان الأشجار، وهو يجري تحتها صافيا متلألئا كأنه يسيل من درة أو درر نفيسة وقد بسطت شجرة ضخمة على مائه ظلها، وكأنما ألقت صدأ على صفيحته أو وجهه العريض، وهي صورة بدیعة. ولم يلبث النهر أن تراءى له مع جفافه من النباتات والزروع كأنما يرتدى غلالة سندسية، وأيضا تراءى له مع ما تلقى عليه السرحة

(٣) فاءت سرحة: بسطت ظلها. السرحة: الشجرة الضخمة. الهجيرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

(١) الديوان ص ٢٠٦ والمغرب ٣٣٤/٢.
(٢) رايات المبرزين (طبع القاهرة) ص ١١٩ والإحاطة ٥١٤/٢.

من ظل كدارع محارب استلقى يستريح مستظلاً بلوانه. والرصافي لا يبارى في روعة تصاويره، وله يصف أمسية قضاها مع بعض رفاقه منتشياً بشرب الخمر وبرؤية مغرب الشمس والطير تصدح من حوله، يقول^(١) :

وَعَشِيٌّ رَائِقٌ مَنْظَرُهُ قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشَّمُولِ^(٢)
وَكَأَنَّ الشَّمْسَ فِي أَثْنَائِهِ أَلْصَقْتُ بِالْأَرْضِ خُذًا لِلنُّزُولِ
وَالصَّبَا تَرَفَّعَ أَذْيَالُ الرَّبِيِّ وَمُحَيَّا الْجَوَّ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
حَبَّذَا مَنْزِلُنَا مُغْتَبِقًا حَيْثُ لَا يُطْرِبُنَا غَيْرُ الْهَدِيلِ
طَائِرٌ شَادٍ وَغُصْنٌ مُثْنٍ وَالْدُّجَى يَشْرَبُ صَهْبَاءَ الْأَصِيلِ^(٣)

وهو يقول إنه ظل في هذه الأمسية يتمتع بشرب الخمر الصافي وبنظر الطبيعة الخلاب والشمس تودع الأرض وتلتصق بها خدها إعزازاً ومحبة، ونسيم الصبا العليل يحرك النباتات والغصون أو كما يقول أذيال الربى والمرتفعات، ويثنى على منزلهم واغتيابهم أو احتسائهم للخمر فيه مساء على سماع الهديل وهديره وما يحمله من أنغامه وأشجانه. ويُبَلِّورُ روعته بالمنظر في طائر شاد وغصن مثن، ويخلق خياله، إذ يجعل الدجى ينتشى مثله ومثل رفاقه بما يشرب من صهباء الأصيل وريحه الهنيء. وكانوا كثيراً ما ينتزهون في الأنهار والخلجان ويركبون لها الزوارق ذات الأشربة والأخرى ذات المجاديف، وأحياناً كانوا يُجْرُونَ فيها سباقاً على نحو ما كانوا يصنعون بسباق الخيل، ويتحدث الفقيه أبو الحسن على بن لبّال قاضى شريش عن أحد هذه السباقات في نهرها قائلاً^(٤) :

بِنَفْسِي هَاتِيكَ الزَّوَارِقُ أُجْرِيَتْ كَحَلَبَةِ خَيْلٍ أَوَّلًا ثُمَّ ثَانِيَا
وَقَدْ كَانَ جَيْدُ النَّهْرِ مِنْ قَبْلُ عَاطِلَا فَأَمْسَى بِهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ حَالِيَا
عَلَيْهَا لَزْهَرُ الشَّمْعِ زُهْرٌ كَوَاكِبِ تُخَالُ بِهَا ضِمْنَ الْغَدِيرِ عَوَالِيَا^(٥)
وَرَبٌّ مُثَارٍ بِالْجَنَاحِ وَآخِرِ بَرَجْلٍ يَحَاكِي أَرْنَبًا خَلْفَ بَازِيَا

وهو يقول إن الزوارق أُجريت في النهر على دفعات تزينها شموع أصبح بها جيد النهر

(١) رايات المبرزين ص ١١٩.

(٢) صرف الشمول: خالص الخمر.

(٣) الصهباء: الخمر.

(٤) رايات المبرزين ص ٥٣ وانظر في ترجمة ابن

لبال وشعره المطرب ص ٩٧ والمغرب ٣٠٣/١

والتكملة ص ٦٧٣ وصلة الصلة ص ١٠٩. توفي

سنة ٥٨٣.

(٥) العوالى: الرماح. زُهر جمع أزهر: مشرق

مضى.

حاليا بعد أن كان عاطلا من الحلى والزينة. ويخال الشموع في النهر كأنها رماح مشرعة، بينما الزوارق منها ذات الشراع أو الجناح ومنها ذات المجاديف، وتسرع كأنها هي أرانب تخاف أن يصيدها البزاة والصقور. ومن شعراء الطبيعة المبدعين حينئذ محمد بن سهر، وسنخصه بكلمة. وملتقى بأخرة من أيام الموحدين بالهيثم بن أبي الهيثم حافظ إشبيلية بل الأندلس جميعها في عصره، وكان أعجوبة دهره، كان يحفظ ديوان ذى الرمة الشاعر الأموي، ومن عجائبه أنه كان يملئ على شخص شعرا - كما يقول ابن سعيد - وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجلا، وكل ذلك يملئ ارتجالا دون توقف، وله في فرس أصفر^(١):

أَطْرَفُ فَاتِ طَرْفِي أَمْ شِهَابُ هَافَا كَالْبَرْقِ ضَرَمَهُ التَّهَابُ^(٢)
أَعَارَ الصُّبْحُ صَفْحَتَهُ نِقَابًا فَفَرَّ بِهِ وَصَحَّ لَهُ النُّقَابُ
فَمَهْمَا حُتَّ خَالِ الصُّبْحِ وَافَى لِيَطْلُبَ مَا اسْتَعَارَ فَمَا يُصَابُ
إِذَا مَا انْقَضَ كُلُّ النَّجْمِ عَنْهُ وَضَلَّتْ عَنْ مَسَالِكِهِ السُّعَابُ

وللأندلسيين شعر كثير في وصف الخيل لأنهم كانوا يجاربون عليها دائما، وكانوا يعتقدون أحيانا بينها سباقات. ويتشكك الهيثم حين رأى هذا الفرس يعدو عدوا سريعا كأنه يبارى به الرياح، فيقول أهذا طَرْفُ أَى حِصَانٍ أَوْ هُوَ شِهَابٌ سَقَطَ مِنْ أَحَدِ أَرْكَانِ السَّمَاءِ، وكأنه برق مضطرم لهيبا. ويظن كأن الصبح أعاره نقابا أصفر، ففرَّ به، وهو دائما لا يتوقف كأنه يظن الصبح في إثره يطلب نقابه الذى اقترضه منه. ويقول إنه إذا انقضى وراء فريسة أعيا النجم أن يلحق به وضَلَّتْ السحب عن معرفة مسالكه. ويلقانا أبو جعفر أحمد بن طلحة، وله^(٣):

أَدْرِهَا فَالسَّمَاءُ بَدَتْ عُرُوسًا مَضْمُخَةً الْمَلَابِسَ بِالْعَوَالِي^(٤)
وَحَدَّ الرُّوْضَ خَفَّرَهُ أَصِيلُ وَجَفَّنُ النَّهْرَ كَحُلٍّ بِالظَّلَالِ
وَجِيدُ الْغُصْنِ يُشْرِفُ فِي لَّالٍ تَضِيءُ بِهِنَّ أَكْنَافُ اللَّيَالِي

وهو يقول لصاحبه: دعنا نتناول خمر الغبوق المسائية، فالسما قد بدت عروسا

(٣) اختصار القدر الممل ص ١٤ وانظر في ترجمة ابن طلحة أيضا المغرب ٣٦٤/٢ والتحفة رقم ٩٦.
(٤) العوالي: جمع غالية: المسك.

(١) الرايات ص ٤٧ وانظر في الهيثم وشعره المغرب ٢٦٣/١ واختصار القدر الممل ص ١٥٨ والتكملة ص ٧١٦. توفي سنة ٦٣٠.
(٢) طرف بكسر الطاء: حصان. هفا: أسرع.

مبتهجة مضمخة أو معطرة بالمسك في منظر الروض البهيج، وكأنما سكب الأصيل على
خد الروض حياء وخفرا فاصفر لونه، بينما كحل جفن النهر بالظلال، وقد أضاءت على
جيد الفصن أزهار كاللآلئ تضيء الليالي المظلمة.

ويلقانا مرج الكحل: محمد بن إدريس الذي نشأ بائعا متجولا في الأسواق يتعيش
ببيع السمك ثم ترقى به همته إلى الأدب قليلا قليلا - كما يقول ابن سعيد - إلى أن نظم
الشعر ثم ارتفعت فيه طبقته، وله خمرية يمزج فيها بين نشوته بالطبيعة ونشوته بالخمير
يقول فيها^(١):

عَرَّجَ بِمُنْعَرَجِ الْكَثِيبِ الْأَعْفَرِ	بين الفرات وبين شط الكوثر ^(٢)
وَلَتَغْتَبِقَهَا قَهْوَةٌ ذَهَبِيَّةٌ	من راحتي أحوى المرافش أحوار ^(٣)
وَالرُّوضُ بَيْنَ مُفَضِّضٍ وَمَذْهَبٍ	والزهر بين مدرهم ومذنر ^(٤)
وَالْوُرُقُ تَشْدُو وَالْأَرَاكَةُ تَنْتَشِي	والشمس ترفل في قميص أصفر ^(٥)
مَا أَصْفَرَّ وَجْهَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا	إلا لفرقة حسن ذاك المنظر

وهو يدعو صاحبه أن ينزل معه بطريق الكتيب المشرب بحمرة في تلك الجنة البعيدة
بين الفرات والكوثر ليطمعا هناك بالغبوق أو خمر المساء، وبناظر الأزهار المفضضة
والمذهبة، والورق أو الحمام يشدو ويهدر وأغصان الأراكاة تنتش، يثنيها النسيم العليل
والشمس تتبختر في قميصها الأصفر الرقيق، ويقول إن صفرتها عند الغروب بسبب
فراقها ووداعها لمنظر هذا الروض الفاتن. ويقول أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي
المتطبب في خاتمة موشح له يصور شرب الخمر والصباح يطل على الطبيعة^(٦):

فَقُمِّي نَبَاكَرْهَا لِلْأَصْطَبَاحِ
وَالشَّهْبُ تَنْتَرُ مِنْ خَيْطِ الصَّبَاحِ

(١) المرشف: الشفاء.

(٤) المدرهة: الفضية من الدرهم. والمدنرة:

الذهبية من الدينار.

(٥) ترفل: تتبختر.

(٦) مغرب ٢٨٢/١ وانظر في ترجمة أبي الحجاج

وشعره أيضا اختصار القدح المعلى لابن سعيد

ص ١٦١.

(١) مغرب ٣٧٣/٢ وانظر في ترجمة مرج الكحل

وشعره أيضا زاد المسافر ص ٢٧ والوافي بالوفيات

١٨١/٢ والتكملة ص ٣٤٤ والاحاطة ٣٤٣/٢

حمل عنه ديوان شعره وتوفي سنة ٦٣٤.

(٢) منعرج الكتيب الأعفر: طريق الكتيب

المخالط لونه حمرة. الكوثر: النهر بالجنة ولعله يريد

دجلة.

(٣) القهوة: الخمر. اغتباقتها: شربها في المساء.

وَالْقُصْبُ تَرْقُصُ فِي أَيْدِي الرِّيحِ

على غناء الحمام والكأس ذات ابتسام
والظلام قنيل والصُّبح دامي الحسام

وإنما ذكرنا هذا الدور الختامي لإحدى موشحات أبي الحجاج لتشير بوضوح إلى أننا إذا كنا قد أغفلنا في حديثنا عن أغراض الشعر ذكر الموشحات فليس معنى ذلك أنها انفصلت في أغراضها عن الأغراض العامة للشعر فقد كانت هي نفسها أغراض الموشحات ولهم فيها ما لا يحصى من الأخيلة البديعة، على شاكلة ما نرى في هذا الدور من تمثيل غياب النجوم مع تبشير النهار، فقد جعلها أبو الحجاج تنثر من خيط الصباح وكأنها دنائير تنثر في عُرْس والغصون راقصة متشابكة ومتلاعبة مع الرياح، والحمام يشدو ويغنى والخمر في كتوسها تبتسم ثغورها. ولا يلبث أبو الحجاج أن يعرض علينا هذا المشهد الدرامي البديع فالظلام طريح قنيل، إذ سفك الصبح دمه، ولا تزال حمرة القانية تلطخ سيفه. ويقول ابن الأبار مستلهما الرصافي في وصف نهر^(١):

ونهر كما ذابت سبائك فضة حكى بمحانيه انعطاف الأراقم^(٢)
إذا الشفق استولى عليه احمراره تبدى خضيباً مثل دامي الصَّوارم^(٣)
وتحسبه سُنَّت عليه مفاضة لإرهاب هبّات الرياح النواسم^(٤)
وتُطلعه في دُكنة بعد زُرقة ظلال لأدواح عليه نواسم

وهو يجعل ما في النهر سبائك فضة سائلة، ويشبّهه في انعطافاته يمينا ويسارا بانعطافات الأفاعي، حتى إذا سقط عليه الشفق تصوّره سيفاً دامياً، وسقط عليه الظل فتصوره درعا لبسه النهر لإرهاب الرياح، وإنها لتحيل لونه داكنا بعد أن كان أزرق صافياً. ويقول إبراهيم^(٥) بن سهل الإشبيلي:

الأرض قد لبست رداءً أخضرا والطلُّ ينثرُ في رُباها جوهرا

(١) أزهار الرياض ٢٢٣/٣.

(٢) الأراقم: الأفاعي.

(٣) خضيباً: ملونا. الصوارم: السيوف.

(٤) سُنَّت: صُبَّت. مفاضة: درع.

(٥) انظر في ابن سهل وترجمته وشعره المغرب

٢٦٩/١ واختصار القدح ص ٧٣ والقوات ٢٣/١

والمنهل الصافي ٥١/١ وهو يهودى أسلم في

شبابه توفي سنة ٦٤٦. طبع ديوانه محققاً ببيروت.

فاحت فخلت الزهر كافورا بها وحسبت فيها التراب مسكا أذفرا^(١)
وكان سوسنها يصفح وردها ثغر يقبل منه خدا أحمر

وهو يقول إن الأرض لبست خضرة الربيع، وكأنما الطل ينثر في رباها كل ما في حجره من جوهر، وسطعت رائحة كافور زهرها الأبيض حتى خلت التراب فيها مسكا أذفر أو عاطرا، وكان سوسنها الأبيض الجميل حين يصفح وردها ثغر يقبل خدا ياقوتيا. ويقول أبو الوليد^(٢) بن الجنان:

هات المُدامَ وقد ناح الحمامُ على هذا الظلامِ وجيشُ الصُّبحِ في الطَّلَبِ
والسُّحْبُ قد بددت في الأرض لؤلؤها تضمُّه الشمسُ في ثوبٍ من الذهبِ

وقد جعل ابن الجنان الحمام ينوح على الظلام وجيش الصبح في إثره، وهو ينسحب بسرعة أمامه، بينما السحب تمطر لآلئها وقطراتها الفضية، ولم تلبث شمس الصباح أن التقطت كل هذه اللآلئ؛ ولمتها أو جمعتها في ثوبها الذهبي. ولابن خاتمة في بلبل وردية اللون تغني في روض مكتظ بالورود والأزهار^(٣):

ورديّة الجلبابِ أعجبها الورْدُ فغنتُ وما بالغانيات لها عهدُ
أتت ويطأح الأرض تجلّى عرائسًا وفي كل غصنٍ من أزهاره عقدُ
وقد أبدت الدنيا محاسنَ وجهها فمن زهرةٍ ثغرٍ ومن وردةٍ خدُ
فغنتُ غناءَ الشربِ أنشئهم الطلا وحتّ حنين الصبِّ باح به الوجدُ^(٤)

وهو يصور البلبل الوردية قد أعجبها ورد الروض وخبليها، فغنت له غناء ساحرا لم تعهده الغانيات الجميلات، ويقول إنها أتت الروض في وقت الربيع، وقد ازدانت بطاح الأرض حتى لكانها عرائس وازدانت غصون الأشجار بعقود الأزهار وأبدت الدنيا محاسن وجهها فمن زهرة - مثل زهرة الأقحوان - ثغر، ومن وردة - وما أكثر الورود - خد. وأسكر البلبل المنظر الرائع فانتشت وغنت وحت حنين الصب المغرم الوهان. ولابن زمرك في وصف زهر القرنفل بجبل الفتح أو جبل طارق^(٥):

(٣) الديوان ص ٩٨ .

(٤) الطلا: الخمر.

(٥) أزهار الرياض ٤٠/٢ .

(١) أذفرا: عطرا.

(٢) راجع في ابن الجنان وترجمته وشعره المغرب

٣٨٣/٢ واختصار القدح ص ٢٠٦ .

رَعِيَ اللهُ زَهْرًا يَنْتَمِي لِقَرْنِئِلٍ حَكِيَ عَرَفَ مَنْ أَهْوَى وَإِشْرَاقَ خَدِّهِ^(١)
 وَمَنْبِتُهُ فِي شَاهِقٍ مَتَمْنَعٍ كَمَا امْتَنَعَ الْمَحْبُوبُ فِي تِيهِ صَدِّهِ
 أَمِيلٌ إِذَا الْأَغْصَانُ مَالَتْ بِرَوْضَةٍ أَعَانَتْ فِيهَا الْقُضْبُ شَوْقًا لِقَدِّهِ^(٢)
 وَأَهْوَى لِحَفَاقِ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى وَأَهْوَى أُرْيَجَ الطَّيْبِ مِنْ عَرَفَ نَدِّهِ^(٣)

وهو يدعو لزهو القرنفل أن يرعاه الله لأنه يحكى عرف من يهاها وطيبها، ويقول إن منبته في أعالي جبل الفتح الممتنع على غزاته امتناع المحبوب في صدّه وتيهه وخيلائه، كما يقول إنه كلما رأى الأغصان في روضة عانقها شوقا لعناق محبوبه، ويقول أيضا إنه يحنّ إلى خفّاق النسيم مساء يظنه من قبل محبوبه، ويهوى أريج الطيب يظنه من أريج الذكّي العطر. وحرى بنا أن نلم إلمامات قصيرة بمن وعدنا بالحديث المجمل عنهم من شعراء الطبيعة والخمر، وهم عبادة بن ماء السماء وعبد الرحمن بن مقانا وعلى بن حصن وابن خفاجة ومحمد بن سفر.

عبادة^(٤) بن ماء السماء الأنصاري

هو عبادة بن عبد الله الأنصاري من ذرية سعد بن عبادة الخزرجي أحد النقباء الذين اختارهم رسول الله ﷺ في العقبة الثالثة، وقيل له عبادة بن ماء السماء انتبأ إلى جد الخزرج الأول، ولسنا نعرف شيئا واضحا عن نشأته إلا ما يذكر مترجموه من أنه تلميذ الزبيدي تلميذ أبي على القالي وأهم اللغويين بعده. ولم تلبث موهبته الشعرية - على ما يبدو - أن تفتحت، ومدح المنصور بن أبي عامر الحاجب (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) فأعجب به وأسبغ عليه جوائزه، وسُجِّلَ اسمه في ديوان الشعراء وأعليت مرتبته فيه وأعلى عطاؤه. وتطور الأيام وتكون فتنة قرطبة التي ظلت نحو عشرين عاما، ويعتلى عرش الخلافة على بن حمود من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ٤٠٧. ويدور العام فيقتل ويخلفه أخوه القاسم حتى سنة ٤١٢ ويخلعه يحيى ابن أخيه على. وعاد القاسم فانسحب يحيى إلى مالقة، ولم تلبث الخلافة أن عادت إلى الأمويين بقرطبة سنة ٤١٤. ولعبادة مدائح في هؤلاء الحموديين الثلاثة، وفي مديحه لهم غير قليل من مبالغات الشيعة في مديح

(٤) انظر في ترجمة عبادة وشعره الذخيرة ٤٦٨/١

وما بعدها والجنوة ٢٧٤ والمطمح ٨٤ والبقية رقم

١١٢٣ والصلة رقم ٩٦٣ والفوات ٤٢٥/١.

(١) العرف: الشذا وطيب الرائحة.

(٢) القضب: الغصون.

(٣) سرى: سار ليلا. أريج: فائح. الند: عود

طيب الرائحة.

أُتهمهم، غير أنهم جميعاً لم يكونوا يستظهرون شيئاً من العقيدة الشيعية. ويبدو أن عبادة تبع يحيى إلى مالقة يمدحه ويسبغ عليه يحيى من نواله، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ ضاعت منه عطايا يحيى وأهل بيته له، وكانت مائة مثقال ذهباً فاغتم غماً شديداً، وكان ذلك سبب وفاته.

ويشيد ابن بسام بعبادة، ويقول إنه كان شيخ الصناعة وإمام الجماعة بزمنه في قرطبة معللاً ذلك بأنه سلك إلى الشعر مسلماً سهلاً، فقالت له غرائبه: مرحباً وأهلاً. ولم يكن شاعراً فحسب، بل كان أيضاً مؤرخاً أدبياً إذ كان له كتاب في أخبار شعراء الأندلس، وعنه ينقل ابن سعيد في المغرب بعض أخبارهم. وأهم من ذلك ما ذكره ابن بسام - على نحو ما مر بنا في حديثنا عن الموشحات - من أنه هو الذى «نهج لأهل الأندلس طريقتهما - وكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه ولم تؤخذ إلا عنه». ومر بنا أن مقدّم بن معافى القُبرى - وهو عربى - أول من ابتكرها وأن الرمادى الكندى - وهو أيضاً عربى - تطور بها بعض التطور، ثم خلفه عبادة الخزرجى الأنصارى فأعطاهما شكلها النهائى. ومررنا بنقض دعوى أنها نشأت على غرار أغان رومانسية إسبانية فقد نشأت وتطورت وأخذت صيغتها النهائية على أيدي عرب تطويراً منهم - كما ذكرنا في حديثنا عن الموشحات - لفن المسمطات المشرقية.

وكان عبادة - بحق - إمام الشعراء فى زمنه، وما رواه ابن بسام له منه - يتميز بمثانة العبارة ونصاعتها وبحسن الأداء الموسيقى وبجمال الأخيلة، وله مبهوراً بجمال صاحبته وجمال أناملها التى شبهها بالعنّاب:

سقى الله أيامى بقرطبة المنى	سرورا كرى المُنْتَشَى من شرابه
وكم مُزَجَّتْ لى الراح بالريق من يدى	أغرَّ يُرِينى الحسن ملء ثيابه
تعللنى فيه الأمانى بوعدى	وهيهات أن أروى يورّد سَرايه ^(١)
سل العنم البادى من السَّجَف دالفاً	لتعذيب قلبى هل ديمى من خضابه ^(٢)

وهو يذكر أيام شبابه الماضية بقرطبة، ويدعو لها أن تُسقى سرورا ترتوى به وتنتشى كانتشاء صاحب الخمر من شرابه، ويذكر كم شرب الخمر فيها من يد حسناء وكيف كان يعلل نفسه بلقائها ووعداها، غير أنه كان دائماً سراها لا يتحقق، ويتساءل هل خضاب

(١) الورد: الماء الذى يردّه الناس، وقد أضافه
(٢) العنم: الخضاب الأحمر وأراد به الأنامل.
السجف: ستر الخيمة بجانب بابها. دالفاً: مقبلاً.

(١) الورد: الماء الذى يردّه الناس، وقد أضافه
إلى السراب تخيلاً.

أناملها البادى من الستر لتعذيب قلبه من دمه، كأنه قتيل هواها وقد سفكت دمه وعلق منها بالأنامل، ويقول:

اجْلُ المدامة فهي خيرُ عَروسٍ تَجْلُو كُروبَ النَّفسِ بالنَّفْسِ
واستغنمِ اللذاتِ فى عَهْدِ الصِّبا وأوانِه لا عِطْرَ بعد عَروسِ

وهو يتصور المدامة عروسا تهفو لها نفسه، ويزعم أنها تذهب كروب النفس وهومها، ويدعو إلى اغتنامها فى عهد الصبا، فهو عهدا، وبعده لا يأبه الإنسان بها، ويتمثل بقول العرب: «لا عطر بعد عروس» فالعطر إنما تحتاجه العروس وقت زفافها. وأكبر الظن أن عبادة انصرف عن الخمر بعد شبابه أو لعله كان ينظم هذه الأبيات وما يماثلها تقليدا ومحاكاة للمجان وإلا ما استطاع أن يدخر المثنائيل الذهبية المائة التى ضاعت منه بالاقة.

عبد^(١) الرحمن بن مُقانا

هو أبو زيد عبد الرحمن بن مُقانا، من قرية القُبْذاق من قرى أشبونة (ليشبونة الحالية بالبرتغال) ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وهل ثقف الآداب العربية فى أشبونة وحدها أو أنه اختلف إلى الأدباء والعلماء فى مدن سواها. وملتقى به فى أوائل عصر أمراء الطوائف مترددا على سرقسطة لمديح أميرها منذر بن يحيى التجيبى المتوفى سنة ٤٣٠ وعلى دانية لمديح أميرها مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ ويذكر ابن بسام أنه «جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة». وأهم من مدحهم من هؤلاء الرؤساء أو الأمراء وأسبغوا عليه نواهم إدريس بن يحيى بن على بن حمود الحسنى أمير مالقة الذى خلف أباه عليها سنة ٤٢٧ وظل بها حتى سنة ٤٤٧. ورأى ابن مقانا حين أصبح شيخا أن يكف عن تطوافه بأمراء الجزيرة وأن يعود إلى قريته وأن يمضى فيها بقية حياته معنياً بضیعة له فيها وما تحتاج إليه من حرث وزرع وغرس. ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته.

ويعرف ابن بسام بابن مقانا قائلا: «من شعراء غربنا المشاهير، وله شعر يعرب عن أدب غزير، تصرف فيه تصرف المطبوعين المجيدين فى عنفوان شبابه وابتداء حاله، ثم تراجع طبعه عند اكتهاله» وكان ابن بسام يجعل وفوده على أمراء الطوائف فى أيام

الشباب وحدها، ويبدو أن هذا الوفود امتد به حتى بدء كهولته بل ربما حتى بدء شيخوخته إذ ينقل ابن بسام عن بعض مواطنيه أنه إنما انصرف إلى قريته شيخاً لا كهلاً. وأم قصائده التي طارت شهرتها في الآفاق مدحته النونية لإدريس بن يحيى الحمودي، وهو يستهلها بغزل طريف ولا يلبث أن يمزجه بنعته للخمر قائلاً:

قد بَدَا لِي وَضَحُ الصُّبْحِ الْمَبِينِ	فَأَسْقِينِيهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ الْأَذِينِ ^(١)
مُرَّةً صَافِيَةً مَشْمُولَةً	عُتِقْتُ فِي ذَنْهَا بِضَعٍ سِنِينَ ^(٢)
مَعَ فَتِيَانٍ كَرَامٍ نُجِبِ	يَتَهَادُونَ رِيَاحِينَ الْمَجُونِ
وَعَلَيْهِمْ زَاجِرٌ مِنْ حِلْمِهِمْ	وَلَدَيْهِمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنِ ^(٣)
وَيُسْقَوْنَ إِذَا مَا شَرَبُوا	بَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينِ ^(٤)

وابن مقانا يترأى له ضوء الصبح في السحر، فيهدف بالساقى أن يملأ كأسه قبل تكبير الأذان، ويقول إنها مرّة الطعم صافية باردة معتقة، كما يقول إنه يشربها مع فتیان كرام نجب يتهادون أزهار المجون الأربعة وعليهم زاجر من عفاف مع ما معهم من حسان غاضات البصر فائنات العيون، ويقول إنهم يسقون الخمر بأباريق وكأس من عين جارية. وينتقل من وصف خمر الصُّبُوح أو الصباح إلى نعت الطبيعة من حوله سماء ونجومًا ورياضًا وأزهارًا ويبدع خياله بمثل قوله:

ومصاييح الدُّجَى قد أُطْفِئَتْ	فِي بَقَايَا مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ جُونِ ^(٥)
وَالثَّرِيَاءُ قَدْ عُلَتْ فِي أَفْقِهَا	كَقَضِيبٍ زَاهِرٍ مِنْ يَاسْمِينِ
وَانْبَرَى جُنْحُ الدُّجَى عَنْ صُبْحِهِ	كَفَرَابٍ طَارَ عَنْ بَيْضِ كَيْنِ ^(٦)
وَجَنَاحُ الْجَوِّ قَدْ بَلَّلَهُ	مَاءُ وَرْدِ الصُّبْحِ لِلْمُصْطَبِحِينَ
وَالنَّدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجَسِهِ	كَدَمَوْعٍ أَسْبَلْتَهُنَّ الْجَفُونَ ^(٧)

وهو يقول إن مصاييح الدجى من الكواكب والنجوم أخذت تنطفئ واحدة إثر أخرى في بقايا من سواد الليل، وتعالى الثريا في السماء كأنها غصن مزهر من ياسمين، وأوشك

(٤) معين: عين جارية.

(٥) جون: سوداء.

(٦) جنح: ظلام. كين: مستتر.

(٧) أسبلتهن: أرسلتهن.

(١) الأذنين: نداء الأذان للصلاة.

(٢) مرّة الطعم: بين الحلو والحامض. مشمولة:

باردة.

(٣) قاصرات الطرف: يفضضن من أبصارهن.

عين جمع عينا: واسعة العين جميلتها.

الياسمين بدوره على التوارى والانطفاء، وأخذ ظلام الليل يُنْرى وينكشف عن أضواء الصباح وكأنه غراب حالك السواد اضطره إلى مفارقة بيض له ظل يستره، ووَرَدَ الصبح بل ماؤه بَلَل جناح الجو تحية للمصطحين والندى يقطر من النرجس والأزهار والورود وكأنه دموع أسبلتها الجفون. وهى صور بديعة متلاحقة. وقد تداول القصيدة أدباء الكُذْية والشحاذة الأدبية فى الأندلس ممن يسميهم ابن بسام باسم القوالين، وكانوا يقفون على الأبواب منشدين الشعر لقاء بعض الدراهم، وإنما اختاروها لما يجرى فيها من عذوبة وسلاسة وروعة فى الموسيقى والتساوير.

على^(١) بن حصن

هو أبو الحسن على بن حصن الإشبيلي، من شعراء أمير إشبيلية المعتضد، نشأ معه، وكان يعجب به وبشعره فاستوزره حين أصبح له صولجان إمارتها بعد أبيه إسماعيل. وظل الجوله صافيا إلى أن لحق ابن زيدون بالمعتضد، واتخذة وزيرا له معه، وكان فى ابن زيدون شىء من الدهاء استحوذ به على قلب المعتضد، فنفس ذلك عليه ابن حصن. وكان المعتضد يدعوها أحيانا إلى المساجلة بالشعر بين يديه، فكان ابن حصن يتفوق عليه لسرعة بديته ورضاه بالعفو من طبعه، غير أن ابن زيدون كان يعلوه بحلمه ووقاره. وكان فى ابن حصن تهور وطيش فزلت قدمه وأدّياه إلى أن يسفك المعتضد دمه، وكان سفاحا للدماء قتل كثيرين من وزرائه وخواصه.

ويشيد ابن بسام بشاعرية على بن حصن قائلا عنه: «أحد من راش سهام الألفاظ بالسحر الحلال، وشق كرائم المعاني عن أفتن من محاسن ربّات الحجال، بين طبع أرق من الهواء، وأعذب من الماء، وعلم أغزر من القطر، وأوسع من الدهر». ويعجب ابن بسام من قوم أضربوا عن ذكره، وزهدوا فى شعره ويعلل ذلك بأشعار له كثيرة كان يعبث بها بين مجونه وسكره، ويقول إن إحسانه أكثر وفضله أشهر، وبنوه بروعة تصاويره، ومن قوله فى إحدى خمرياته المأجنة:

خَضِبْتَ بَنانَ مَديرها بِشُعاها فَعَلَ العَرارةُ فى شِفاءِ الرِّيرِ

والريرب: القطيع من بقر الوحش، يقول إن الخمر خضبت بنان الساقى بشعاعها

والبغية ص ١٤٣ والمغرب ٢٥٠/١.

(١) انظر فى على بن حصن وترجمته وشعره الذخيرة ١٥٨/٢ وما بعدها والحميدى ص ٢٩٦

كما يخضب نبات العرار الصحراوي شفاء قطعان البقر الوحشى. وهى صورة طريفة لأنه يجلبها من بعيد من الجزيرة العربية وحديث شعرائها عما يترأى لهم فى البقر الوحشى هناك من جمال. ويقول فى خمرية أخرى:

إذا بدت لك فى قِطْعَةٍ من البِلَّارِ
حسبتها شفقاً صُوبَ فى زجاج نهار

وهو يتخيل الخمر الحمراء كأنها الشفق الأحمر، ويتسع به الخيال فيقول إنها تُصَبُّ لا فى زجاج يَلُورِى أو مصوغ من بلور بل فى زجاج مصوغ من نهار مضى.. ويخاطب إشبيلية موطنه والنهر يتهادى أمامها والشمس جانحة للغروب:

كَأَنَّكَ وَالشَّمْسَ عِنْدَ الْغُرُوبِ عُرُوسٌ مِنَ الْحَسَنِ مَنْحُوَّةٌ
غدا النهر عِقدك وَالطُّودُ تاجٌ لِكَ وَالشَّمْسُ أَعْلَاهُ ياقوتة

فالنهر وما يحفّ به من أزهار عقد نفيس يتألق فى جيد إشبيلية والجبل من ورائها كأنه تاج معقود على رأسها ترصعه فى أعلاه ياقوتة الشمس البديعة. ومن قوله فى وصف هديل:

وما هاجنى إلا ابنٌ ورّقاء هاتِفٌ على فنن بين الجزيرة والنَّهْرِ^(١)
مُفَسِّقٌ طوقٍ لازورديٍّ كلِّكلٍ مَوْشَى الطَّلَى أَحْوَى الْقَوَادِمِ وَالظُّهْرِ^(٢)
أدار على الياقوتِ أجفانٍ لؤلؤ وصاغ على الأجفان طوقاً من التبر^(٣)
حديداً شبا المنقارِ داجٍ كأنه شبا قلمٍ من فضةٍ مدٍّ فى جبر^(٤)
توسد من فرع الأراك أريكةً ومال على طيِّ الجناح مع النحر^(٥)
ولما رأى دمعى مُراقاً أرابه بُكائى فاستولى على الغصن النضر^(٦)
وحت جناحيه وصق طائرا وطار بقلبي حيث طار ولا أدرى^(٧)

وابن حصن يتابع شعراء العرب فيما يتخيلونه من ترتيب الحمام المبعوم وأنه يبكى

(١) ابن ورّقاء: الهديل وهو ذكر الحمام. فنن: غصن.

(٢) مفستق طوق: طوقه فستقى اللون. كلكل: صدر. لازوردي: أزرق أو بنفسجى. الطلى: أصل العنق. أحوى: أسود ضارب إلى الحمرة. القوادم: ريش الجناح الطويل.

(٣) التبر: الذهب.

(٤) شبا: حد، سن.

(٥) أريكة: منصة، مقعد. طي: جانب.

(٦) أرابه: شككه وحيره.

(٧) صق الطائر: حرك جناحيه للطيران.

وينوح محزوناً لفراق أليفته، وهو يقول في مطلع مقطوعته إن هدير الهديل هاجه شوقاً إلى محبوبته، وتروعه صورته الجميلة في رسمها رسماً دقيقاً، فطوقه فستقى اللون وصدره لازوردي أو أزرق بنفسجي وعنقه موشى وظهره وريشه الطويل أسود ضارب إلى الحمرة، وقد أدار فوق طوقه لؤلؤة عينية، ومن حولها أهداب ذهبية. وحدُّ منقاره أسود داج كأنه سنُّ قلم من فضة غُمس في مداد شديد السواد. وقد توسد من فرع الأراكة منصّة، ومال برأسه محزوناً على أحد جناحيه وما يحف به من النحر. وأحسّ الشاعر أنه - مثله - حزين مهموم لفراق صاحبتة فانهمرت دموعه، وحانت من الهديل التفاتة فرآه يبكي واحتار ماذا يصنع، ولم يلبث أن بسط جناحيه وحرّكها طائراً، فطار قلبه معه. وهو تصوير بديع استطاع فيه ابن حصن أن يسوّى منه لوحة تامة الخطوط والألوان والظلال والأضواء. ومما أعجب به ابن يسام من شعره قوله في وصف سحابة:

بكرتْ سُحْرَةً قُبِيلَ الذَّهَابِ تَنْفُضُ الْمِسْكَ عَنْ جَنَاحِ الْغَرَابِ

واستعارة الغراب لليل معروفة قديماً ولكن الرائع أنه جعل السحابة بأقطارها تنفض المسك الأسود عن جناحه. وفي ذلك كله ما يدل على أن ابن حصن كان من شعراء الأندلس المبدعين.

أمية^(١) بن أبي الصلت

هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي، ولد سنة ٤٦٠ بمدينة دانية على البحر المتوسط، وشيَّب - على ما يبدو - بمدينة إشبيلية وكانت تزخر بطائفة من الفقهاء والأطباء والمتفلسفة والشعراء وأصحاب الموسيقى، وتخرَّج على أيديهم طبيباً متفلسفاً وشاعراً بارعاً يَتَقَف الموسيقى وتلاحينها الأندلسية. وفي أوائل العقد الثالث من حياته هاجر عن مدينته إلى المشرق مصطحباً والدته، وقد تكون الرغبة في التزود من علماء المشرق أو الرغبة في الحج من دواعي تلك الهجرة المبكرة عن مدينته. ونزل المهديّة بجوار القيروان، ويبدو أنه كان قد وفد عليها لمديح أميرها وأمير إفريقية تميم بن المعز

المغرب والأندلس (طبع تونس) ١٨٩/١ - ٢٧٠
وتاريخ الحكماء للقفطي (طبعة ليبزج) ص ٨٠
ومرأة الجنان لليافعي ٢٥٣/٣ وشذرات الذهب
٨٣/٤.

(١) انظر في أمية وترجمته وشعره معجم الأدباء
٥٢/٧ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة
ص ٥٠١ والتكملة ٢٠٣/١ وتحفة القادم ٣ وابن
خلكان ٢٤٣/١ والمغرب ٢٦١/١ والبيان المغرب
لابن عذاري ٣١٢/١ والخريدة: قسم شعراء

الصنهاجى (٤٥٤ - ٥٠١ هـ). إذ كان مقصدا للشعراء لما يجيزهم به من الجوائز السنية، وامتدحه مرارا، وظل في حاشيته فترة. ورأى أن يوجه به إلى مصر برسالة، وكانت العلاقة بين تميم وحكام مصر سيئة، فحين وصل أمية برسالته إليهم رَجُّوا به في سجن خزانة البنود بالقاهرة، وكان فيها خزائن متنوعة في أصناف الكتب وفنونها المختلفة، فأكبَّ عليها يقرؤها ويلتهم ما فيها من المعارف، ويقال إنه ظل بها ثلاث سنوات قبل صدور العفو عنه، وقيل بل عشرين سنة، وهى مبالغة واضحة. وفى كتاب طبقات الأطباء رسالة طريفة من على بن منجب الصيرفى صاحب ديوان الإنشاء وجه بها إليه فى السجن منوها فيها بأنها رد على رسالة لأمية وهو فى سجنه، ويثنى على قصيدتين أرسل بها إليه فى مديح الأفضل بن بدر الجمالى وزير مصر حينئذ (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) وقد أنشد العماد فى الخريدة قطعة من مدحة لأمية يمدح بها شفيعه ويسميه عليا وهو ابن الصيرفى كما ذكرنا. وعاد إلى المهديّة سنة ٥٠٥ فى عهد يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ). وإليه قدم الرسالة المصرية وكتاب الحديقة الآتى ذكرهما وعظم شأنه عنده وكذلك عند ابنه على أمير المهديّة بعده (٥٠٩ - ٥١٥ هـ). وحين أنشأ على مدرسته المشهورة للكيمياء أسند إليه الإشراف عليها وظل يتولاها إلى آخر أيامه. وقد نشرت له بالقاهرة الرسالة المصرية وفيها يذكر ما رآه بمصر من هيئتها وآثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء وأهل الأدب، وعُنى فيها بذكر مُدّاح الأفضل الجمالى وألم ببعض من هجوه. ويقول ابن سعيد فى المغرب: «عنه أخذ أهل إفريقية (تونس) الألحان التى هى الآن بأيديهم». ويبدو من هذه العبارة أنه لحن هناك لهم أغانيهم الإفريقية على أسس الألحان الأندلسية. وألف لهم كتابا فى الموسيقى أهداه إلى الأمير على بن يحيى. وإشادة ابن سعيد بصنيعه فى هذا الجانب لها أهمية كبيرة، إذ ختم رحلاته بتونس وظل بها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ للهجرة، ويقول إن أمية جَلَّ قدره عند الحسن بن على خليفة أبيه كما جَلَّ عند أبيه وجده، وظل ينزل هناك منزلة جليّة إلى أن توفى سنة ٥٢٩. وله مصنّفات مختلفة فى التنجيم والطب والهندسة تدل على واسع علمه، من ذلك كتاب الوجيز فى علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة وله كتاب فى المنطق سماه: «تقويم الذهن» وبجانب ذلك له الرسالة المصرية السالفة وهى أهم نص عن شعراء مصر فى فواتح القرن السادس الهجرى، وله أيضا كتاب الحديقة فى شعراء عصره على نهج كتاب اليتيمة للشعالبي وكتاب الملح العصرية فى شعراء الأندلس والطارئين عليها. وهو يعد فى النابهين من شعراء زمنه، وكان له ديوان كبير سقط من يد الزمن، غير أن العماد فى الخريدة انتقى منه طائفة كبيرة بترتيب الحروف الهجائية امتدت

فيه إلى أكثر من ثمانين صفحة مهد لها بقوله: «كل شعره منقح مستملح، صحيح السبك، محكم الحوك، نظم السلك» وهو موزع بين مديح ورناء وغزل وهجاء ووصف للقصور والخيال ومن قوله في الهرمين:

بَعِشْكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرًا عَلَى طَوْلٍ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ هَرَمِي مِصْرَ
أَنَافًا بِأَعْنَانِ السَّمَاءِ وَأَشْرَفَا عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السَّمَاءِ أَوِ النَّسْرِ^(١)
وَقَدْ وَافِيَا نَشْرًا مِنَ الْأَرْضِ عَالِيَا كَأَنَّهُمَا ثُدَيَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ^(٢)

وفي هذه الصورة ما يدل على أنه كانت لأمية ملكة خيالية خصبة، ومن أهم ما يتميز به كثرة خمرياته وتصاويره للطبيعة، وتتداول الكتب التي ترجمت له وصفه لبركة الحبش بمدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) وكانت جنات وبساتين تحتها مَسْرَبٌ من مياه النيل يصب في قنوات تتخللها، وكان أهل الفسطاط يخرجون للنزهة فيها وللمتاع بمنظرها، وفيها يقول أمية:

لله يَوْمِي بِبِرْكََةِ الْحَبَشِ وَالْأَفْقُ بَيْنَ الضِيَاءِ وَالْغَبَشِ
وَالنَّيْلُ تَحْتَ الرِّيَّاحِ مُضْطَرَبٌ كَصَارِمٍ فِي يَمِينِ مَرْتَعَشِ^(٣)
وَنَحْنُ فِي رَوْضَةٍ مَفُوفَةٍ دُبَّجَ بِالنُّورِ عِطْفُهَا وَوُشِي^(٤)
قَدْ نَسَجَتْهَا يَدُ الرِّبْعِ لَنَا فَنَحْنُ مِنْ نَسْجِهَا عَلَى قُرْشِ
فَعَاظِنِي الرَّاحُ إِنْ تَارَكَهَا مِنْ سَوْرَةِ الْهَمِّ غَيْرِ مُنْتَعَشِ^(٥)

وهي نزهة ببركة الحبش في يوم من أيام الربيع الجميلة، وتتوالى الأخيلة في الأبيات بدعية، فاضطراب النيل تحت الرياح كاهتزاز السيف في يد مرتعش لا يهدأ ولا يسكن أبداً، وهو وصحبه في روضة أنيقة وشيت جوانبها وزينت بالنور، ومد الربيع من تحتهم بساطا سندسيا. وفي هذا الموكب الرائع الذي ملأ قلبه فتنة بالطبيعة وجماها يسأل صاحبه أن ينأوله كأس الخمر، حتى يزول - كما يزعم - كل هم في طوايا نفسه. ويعلن مرارا أنه مولع باحتساء الخمر وسط الرياض ومباهج الطبيعة، ويفتن في مزجها بالغزل إذ يجتمع عليه صابته بالخمر وبجمال المرأة وينشد مثل قوله:

قَامَتْ تَدِيرُ الْمُدَامَ كَفَاها شَمْسُ يَنْبِرُ الدُّجَى مُحْيَاها

(١) أناف: ارتفع وأشرف. الساك: نجم نير.

(٢) النسر: المرتفع من الأرض.

(٣) صارم: سيف.

(٤) مفوفة: مزخرفة.

(٥) سورة: شدة.

للمسك ما فاح من مَرَّاشِهَا والبرقي ما لاح من ثناياها
غزالةٌ أخرجت سَمِيَّتَهَا فلم تشبهُ بها وحاشاها^(١)
هَبَّها لها حُسْنُها وبَهْجَتها فهل لها خَدُّها وعَيْنُها

والأبيات تملك القلوب والأسماع بعذوبتها وتمكن ألفاظها وقوافيها في سياقها، وأيضاً برقتها ولطف معانيها ودقة التقابل فيها بين القامة والغصن والرِّدف والكثيب والمراشف وما يلمع وراءها من الثغر وصاحبه والشمس، وهَبَّ للشمس حسنها وبهجتها فهل لها خدّها الجميل وعيناها الفاتتان. وله وراء ذلك أشعار بديعة.

ابن خفاجة^(٢)

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة، ولد سنة ٤٥٠ للهجرة بجزيرة شُقر بين شاطبة وبلنسية، وماء نهرها يحيط بها من جميع جهاتها، ولذلك سميت جزيرة وفي المغرب: أنها «عروس الأندلس المقلدة من نهرها بسلك، المتلفعة من جناحتها بسندس، روض بسام، ونهر كالحسام، وبلبل وحمّام». وفي هذه الجنة الفيحاء نشأ ابن خفاجة في أسرة علم وأدب وغير قليل من الثراء، وأقبل على الدرس والتزود بالآداب العربية، وتفتحت موهبته الشعرية، وغذاها غذاء شعريا رفيعا بأشعار عبد المحسن الصوري والشريف الرضى ومهيار والمتنبي كما يقول في مقدمة ديوانه، ويضرب لتأثره بهم أمثلة تدل على أنه تأثر بالصوري في مزج الغزل بالطبيعة وبالشريف الرضى ومهيار في ذكر الظعائن والعيس والأماكن الحجازية والنجدية والطيّف والخيال ونسيم الصبا وأنفاس الخزامى، أما المتنبي فيقول إنه تأثر به في لفّ الغزل بالحماسة. ويقول أيضاً في مقدمة ديوانه إنه ظلّ في شبابه يتمثل هؤلاء الأربعة في شعره، متغنيا فيه بحب وجداني وبمتاعه من الخمر والطبيعة الجميلة التي نشأ في حجرها. ولم يحاول حينئذ أن يفد على أمراء الطوائف مادحا، كما كان يصنع الشعراء من حوله لأنه كان مكفول الرزق

(١) غزالة: يريد صاحبه، وتسمى بها الشمس.

(٢) انظر في ابن خفاجة وترجمته وشعره

الذخيرة ٥٤١/٣ وما بعدها والقلائد ص ٢٣١

والمغرب ٣٦٧/٢ والمطرب ص ١١١ وابن الأبار

في التكملة (البقية المطبوعة في الجزائر)

ص ١٧٥ ومعجم الصدفى ص ٥٩ والمطمح ص ٨٦

وبغية الملتس ص ٢٠٢ وابن خلكان ٥٦/١

والخريدة ١٤٧/٢ ومقدمة ابن خلدون (طبع نهضة

مصر) ص ١٣٠٨. ومقدمة ديوانه بتحقيق د. السيد

مصطفى غازي (طبع منشأة المعارف

بالإسكندرية). وراجع ترجمته في كتابنا الفن

ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الحادية عشرة

بدار المعارف) ص ٤٤٤ وما بعدها وتاريخ الأدب

الأندلسي: عصر أمراء الطوائف والمرابطين

للككتور إحسان عباس ص ٢٠٤ وما بعدها.

بضيعة ورثها عن آبائه، وفي الديوان مقطوعة سينية نظمها في زيارة للمعتصم بن صُهاح دعت إليها مناسبة طارئة فنظمها، وليس في الديوان وراءها مدحة لا في ابن صُهاح ولا في غيره من أمراء الطوائف. ويذكر أن فترة الشباب وما له فيها من منظومات في الغزل والطبيعة والخمر أعقبتها فترة انقطع فيها عن نظم الشعر، ويقول إنها كانت فترة طويلة، وأكبر الظن أنها كانت سنوات معدودة انتهت بانتهاء عصر أمراء الطوائف، وكأن هذا العصر كان عبئا غليظا على نفسه، كما كان عبئا غليظا على نفوس كثيرين من أهل الأندلس لانغماس أمرائه في الترف والمجون، حتى ضاعت طليطة سنة ٤٧٨. ونظن ظنا أن هذا الحادث الخطير هو الذي جعله يتوقف عن الشعر فترة، وأخذ يعود إليه الأمل في إنقاذ الأندلس حين دخلها المرابطون وانتصروا في الزلاقة انتصارهم الحاسم، ولعل إعجابه بهم هو الذي جعله يزور المغرب ومراكش ويعود منها سنة ٤٨٣ كما جاء في ديوانه، ولا يلبث يوسف بن تاشفين أن يجمع الأندلس تحت لوائه في نفس السنة فينتعش الأمل في نفس ابن خفاجة ويعود إلى نظم الشعر، وتلك هي الفترة الثالثة في حياته، وفيها ظل يدبج المدائح في أمراء المرابطين وقوادهم ورجالاتهم مستهلا ذلك - كما يقول في مقدمة ديوانه - بمدح إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أول ولاية المرابطين على شرقي الأندلس. وتوالت بعد ذلك مدائحه فيه وفي أخيه تميم وإلى غرناطة ثم مرسية بشرقي الأندلس لفترة قليلة وزوجته السيدة الحرة مريم وفي علي بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وفي أبي بكر بن تيفلوت ممدوح ابن باجة. وفي كل هذه المدائح وغيرها في تلك الفترة الثالثة من حياته لم يكن طالب نوال أو عطاء، وإنما كان - كما قال في مقدمة ديوانه «مصطنعا، لامنتجعاً، ومستميلاً، لامستميلاً اكتفاء بما في يده من عطايا منان وعوارف جواد وهّاب». ونظن ظنا أنه عاش فترة في حياته الطويلة بأخرة، إذ امتدت إلى أكثر من ثمانين عاما، مفكرا في مصيره وفي متاع الحياة الزائل وما ينتظر الإنسان من العقاب والثواب، وفي هذه الفترة نظم طائفة من شعره في العظة والاعتبار والتوبة والابتهاال والاستغفار، وفيها جمع ديوانه، وعُنى كما يقول في مقدمته بتنقيحه وإصلاح بعض أشعاره «إما لاستفادة معني، وإما لاستجادة مبنى» وعُنى بجانب ذلك بكتابة بعض كتب الحديث والسنن - كما ذكر في بعض شعره - تقربا لله ورسوله. وكان في هذه الفترة الرابعة من حياته يخرج من جزيرته ويسير بين الوديان والجبال وينادي بأعلى صوته: يا إبراهيم قوت، فيجيبه الصدى ويخترُ مغشيا عليه. ويتوفى سنة ٥٣٣ عن اثنين وثمانين عاما.

ويشيد به ابن بسام وغير ابن بسام إشادة رائعة، وأهم موضوع استنفذ أكثر شعره واشتهر به وصف الطبيعة حتى سباه الأندلسيون الجنان نسبة إلى جنان الأندلس وتصويره لها تصاوير بديعة، وعلل هو نفسه لهذه النزعة في ص ٢٩٠ بديوانه قائلا: «إكثاره في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجري ماء ورنه طائر ما هو إلا [إما] لأنه كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجيلة، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادق، وبطاح عريضة وأرض أريضة،^(١) فلم يعدم هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كلف^(٢) لا تكلف، مع اقتناع، قام مقام اتساع، فأغناه عن تبذل وانتجاع». ومن قوله في وصف روض صباحا:

وَكِمَامَةٌ حَدَرَ الصَّبَاحُ قِنَاعَهَا عَنْ صَفْحَةٍ تَدْنِي مِنَ الْأَزْهَارِ^(٣)
فِي أَبْطَحٍ رَضَعْتُ ثَغُورُ أَقَاخِهِ أَخْلَافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مِذْرَارِ^(٤)
وَحَلَلْتُ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةً ضَاكِحٍ وَالطَّلُّ يَنْضَعُ أَوْجُهُ الْأَشْجَارِ
مَتَقَسَّمِ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مُحَاسِنِ مِنْ رَدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ^(٥)

والصور تتراكم في القطعة، فالصباح يكشف قناع الظلام عن الأكمام فتبدو أزهارها الندى وثغور الأقاح ترضع من أخلاف الغمام الدار والماء يضحك والطل يرش أوجه الأشجار، والحال موزعة بين النظر إلى ردف جميل بأزهاره لرابية وخصر بديع برياحينه لقرار. ويقول في وصف عشية:

وَعَشِيٌّ أَنَسٍ أَضْجَعْتَنِي نَشْوَةً فِيهِ يُمَهِّدُ مَضْجَعِي وَيُدْمِثُ^(٦)
خَلَعْتُ عَلَيَّ بِهِ الْأَرَاكَةَ ظِلَّهَا وَالْغُصْنُ يُضْغِي وَالْحَمَامُ يَحْدُثُ
وَالشَّمْسُ تَجَنُّحُ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةً وَالْبَرْقُ يَرْقِي وَالْغَمَامَةُ تَنْفُثُ^(٧)

وهو يقول إنها عشية جميلة انتشى فيها بمنظرها، إذ كان يستظل بأراكة في مقعد ممهد لطيف، والحمام يحدث والغصن يرهف السمع إليه، والشمس تجنح للوداع وقد اصفر

(٥) الردف: العجز بضم الجيم. خصر الإنسان:

وسطه. قرار: منخفض من الأرض.

(٦) يدمث: يمدد ويوطأ بتشديد الطاء.

(٧) تنفث: تنفخ.

(١) أريضة: كثيرة النبات.

(٢) كلف: هيام.

(٣) كمامة: أكمام وهي جمع كم بكسر الكاف:

برعوم الزهرة.

(٤) أخلاف جمع خلف بكسر الخاء: حلمة

وجهها وشحب لفراق هذا المنظر، وشعل البرق كأنها رُقِيَّ تريد أن ترقبها والغمامة تنفث كما ينثف الراقى في العقد. ومن قوله في إحدى خمرياته:

وأراكِ ضربتُ سماءً فوقنا تندى وأفلاكُ الكتوسِ تدارُ
حَفَّتْ بدوْحِتها مجرَّةٌ جدُولُ نثرتُ عليه نجومها الأزهارُ
وكانها وكأنَّ جدولَ مائها حسناءً شُدَّ بِخَصْرِها زُنارُ^(١)
زفُّ الزجاجِ بها عروسٌ مُدامةٌ تُجلى ونوارُ الغُصونِ نِشارُ^(٢)

وقد جعل ابن خفاجة الأراكة التي جلس مع ندمائه تحتها سماء، ومضى يستتم الصورة، فالكتوس تدار وكأنها النجوم تدار في الأفلاك، والجدول وما حوله من الأزهار كأنه المجرة بما حولها من النجوم، وكأن الأراكة وما بجانبها من الجدول حسناء شدت حزاما إلى خصرها. وهذا زجاج الكتوس يزفُّ المدامة إلى الشاربين ويجلوها عليهم، وما النوار والأزهار إلا نثار الدراهم والدنانير يلقي به المحبون في هذا العرس الكبير. وواضح ما يتميز به شعر الطبيعة عند ابن خفاجة من بث العواطف والمشاعر في عناصر الطبيعة، بحيث يصبح لكل عنصر أحاسيسه التي يشترك بها مع غيره من العناصر. وتتراكم هذه الأحاسيس في شعره وتتراكم معها تصاوير الطبيعة، مما جعل بعض الأندلسيين من موطنه يعيب عليه كثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، وهي ليست كثرة معان إنما هي كثرة تصاوير، وهي ليست عيبا بل هي حسنة وفضيلته، إذ أحس بعناصر الطبيعة إحساسا عميقا، وهو إحساس تفرَّد به لا بين شعراء الأندلس وحدهم بل بين شعراء العربية جميعا، بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب في مختلف عصورهم، وجعله إحساسه بها ينقل أوصافها إلى المديح فيقول في أبي بكر بن تيفلويت وإلى سرقسطة:

وجلا الإمارة في رَفِيفِ نَضارَةٍ جَلَّتِ الدُّجَى في حُلَّةِ الأنوارِ
مَتَقَسَّمُ ما بين شمسٍ دُجْنَةٍ طَلَعَتْ وبين غمامَةٍ مِذْرارِ
أَرَجَ النَّدَى بذكرِه فكانه مَتَنَفَّسٌ عن رَوْضَةٍ مِطْطارِ

فهو قد جلا الإمارة فيما يشبه رفيف البساتين من الرى والنضارة، حتى لكأنما أسبغت على الليل الداجي حلة من الأنوار، وما أروع طلعه كأنها طلعة شمس من دجنة مظلمة

الدراهم والدنانير.

(١) زنار: حزام يشد في الوسط.

(٢) النشار: ما ينثر على العروس في الزفاف من

تضيء للأبصار، وكأنما يده غمامة ما تزال تهوى بالنوال على العفاة والزوار، وإن ذكره في النَّدَى ليملؤه بأريج العطر، حتى لكأنه يتنفس عن روض فائح العطر. وكما يمزج الطبيعة بالمديح يمزجها بمراثيه كقوله في رثاء صديق عزيز:

فِي كُلِّ نَادٍ مِنْكَ رَوْضٌ ثَنَاءٌ وَبِكُلِّ خَدٍّ فِيكَ جَدُولُ مَاءٍ
وَلِكُلِّ شَخْصٍ هَزَّةُ الْغُصْنِ النَّدَى تَحْتَ الْبُكَاءِ وَرَنَةُ الْمُكَّاءِ

وهو يقول - مخاطبا صديقه - إن كل ناد تحول إلى روض ثناء عليك وكل خد هطلت عليه الدموع الكثيرة حتى استحال كل شخص بأنينه وانهار دموعه إلى ما يشبه هزة الغصن الندى ورنة طائر المكاء الصغير يبكي أليفته.

ولم تتمثل حتى الآن بشيء من شعر الطبيعة الذى نظمته في الفترة الأخيرة من حياته، فترة التأمل في مصيره وما ينتظره، مثل أقرانه الذين رثاهم مرارا، من الموت والعدم، ولعل خير قصيدة تصور هذه الفترة قصيدته البائية المعنونة في الديوان بأنه قالها في الاعتبار، وهو يفتتحها بوصف سُراه في الليل وكيف أن وجوه الموت كانت تتجلى له دائما، وكأنما يصف رحلته الطويلة في الحياة، ويلتقى في سراه بجبل ضخم شاهق شامخ ويقيم معه حواراً ينطقه فيه بما يدور في نفسه، إذ يقول له: كم آوى إلىَّ واستوطنني من فتاك ونُساك وكم مرَّ بي من غادين ورائحين وراكبين وراجلين، وكلهم عصف بهم الموت، يقول:

وَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّهَتْهُمْ يَدُ الرَّدَى وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَابِ
وَمَا خَفَقَ أَكْبَى غَيْرُ رَجْفَةٍ أَضْلَعِ وَلَا نَوْحُ وَرَقِي غَيْرُ صَرْخَةٍ نَادِبِ
فَحَتَّى مَتَى أَبْقَى وَيَظْعَنُ صَاحِبُ أَوْدُعُ مِنْهُ رَاحِلًا غَيْرَ آيِبِ
فَسَلَّى بِمَا أَبْكَى وَسَرَّى بِمَا شَجَى وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السُّرَى خَيْرَ صَاحِبِ

فالجبل مثله محزون لما يرى من مصير الناس جميعا صالحين وطالحين إلى الموت والفناء وفقدان الحياة. وكل شيء يشترك مع الجبل ومع ابن خفاجة في الإحساس بهول هذا المصير حتى ليرتجف الأيك والشجر وينوح الورق أو الحمام فزعا لهذا المصير المفجع لكل الناس. ويستطيل الجبل وابن خفاجة بقاءهما بعد رحيل كل الصحاب. ويقول إن الجبل سرى عن نفسه لأنه وجد عنده نفس الحزن ونفس الشجا إزاء ما يشعر به من تلاحق الفواجع بالناس وأن كل من على الأرض كركب واقفين ينتظر كل منهم دوره للرحيل إلى الدار الباقية.

محمد^(١) بن سفر

هو أبو الحسين محمد بن سفر، من شعراء عصر الموحدين في المائة السادسة، ويقول ابن الأبار عنه، منسوب إلى جده وأصحابنا يكتبون اسمه بالصاد، كان بإشبيلية. ويقول ابن سعيد فيه: «شاعر المرية (بشرقي الأندلس) في عصره الذي يغنى ما أنشده من شعره عن الإطناب في التنبيه على قدره» وأشاد به المقرئ في النفع مرارا بمثل قوله: «الإحسان له عادة» وقوله: «أحد الشعراء المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرًا». ويقول ابن سعيد: «أعجب ما قيل في مد نهر إشبيلية وجزره (لتأثره بجزر المحيط الأطلسي ومدّه) قوله:

جنتُ الجزيرةَ والخليجُ يحفُّها يشكو إليها كى تجيبَ حوَّارَه
شقُّ النسيمِ عليه جيبٌ قميصه فانساب من شطئه يطلب ثاره
فتضاحكتُ ورقَ الحمام بدوِّه هزءًا فضمُّ من الحياء إزارَه

وهو يجعل الخليج شاكيا إلى جزيرة هناك بقرب إشبيلية، فتعرض له النسيم شاقا جيب قميصه أو بعبارة أخرى فتحة مصب النهر، فانساب المحيط من شطيهما يطلب ثاره، وهو يكتفى بذلك عن المد، فتضاحك الحمام الذى كان رابضا على الدوح هزءا به، فاستحى الخليج أو المحيط وضم من الحياء إزاره، وهو يكتفى بذلك عن الجزر. وهو خيال بديع، وله يصف نزهة لبعض الشباب فى زورق شراعى بنهر، وربما كان أيضا نهر إشبيلية المسمى بنهر الوادى الكبير:

لو أبصرتُ عيناك زورقَ فتيةٍ يُبدي لهم بهجُ السرور مراحَه
وقد استداروا تحت ظلِّ شِراعِه كلُّ يمدُّ بكأسٍ راحٍ راحَه
لحسبته خوفَ العواصفِ طائرا مدُّ الحنانُ على بنيهِ جناحَه

وهو أيضا خيال بارع لابن سفر، إذ يقول إن فتية ترافقوا فى زورق مرحين مسرورين ولم يلبثوا أن تجمعوا فى ظل شراعه يتهادون كتوس الخمر وكل منهم يد بها لصاحبه، ويشطح به الخيال، فيقول لكأن الزورق وهم متجمعون تحت شراعه خشية الريح الشديدة طائر فى عشه دفعه الحنان إلى أن يد جناحه على أولاده خوفا عليهم من

(١) انظر فى محمد بن سفر وترجمته وشعره المغرب

٢١٢/٢ والرايات ص ١٠٦ والتحفة رقم ٦٦.

العواصف المباغثة. ويقول:

يا من رأى النهر استثارَ به الصِّبا خَيْلاً لإرهاب الغُصُونِ المَيْدِ^(١)
لما رأتها سُدَّتْ تَلْقَاءَهُ قرنتُ به خَيْلاً تروح وتغْتدِي
وغَدَّتْ تُدْرِعُهُ ولم تبخلْ لها شمسُ الضُّحَى بمسامِرٍ من عسجد

وهو يجعل ريح الصبا كأنها خيل تهب لإرهاب الغصون المتنايلة، ولقيته الغصون بخيل ما تزال غادية رائحة وذاهبة آتية، وأخذت تلبس النهر دروعا من ظلالها للقاء خيل الصبا، وأهدتها شمس الضحى مسامر ذهبية كي تحكم تلك الدروع على النهر، وهو خيال بديع. ويقول في وادي المرية بلدته:

اشربْ على شِدْوِ الحمامِ فإنه أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الْغَرِيضِ وَمَعْبَدٍ
أُتْرَاهُ أَطْرِبُهُ الْخَلِيجُ وقد رأى تَصْفِيْقُهُ تَحْتَ الْغُصُونِ المَيْدِ
وكأنهنَّ رواقصٌ من فوقه وبها من الأزهار شِبْهُ مُقْلِدٍ^(٢)

وهو يجعل شدة الحمام في سماعه أروع من غناء مغنّئي مكة والمدينة: الغريضة ومعبد المشهورين في العصر الأموي، ويقول: كأنما أطربه شدة المياه وخريرها تحت الغصون الراقصة المطوقة لجيدها بالأزهار الجميلة، ولعل في ذلك كله ما يشهد لابن سفر بروعة أخيلته وتصاويره.

٣

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

يتخذ رثاء الأفراد في الشعر العربي منذ الجاهلية ألوانا ثلاثة، هي الندب أو النواح لموت ذوى الرحم، والتأبين بذكر فضائل الميت تبيانا لخسارة المجتمع فيه، والعزاء بتصوير الموت وأنه سنة من سنن الكون لا مفر منه ولا نجاة. ونجد هذه الألوان الثلاثة ماثلة في الشعر الأندلسي، ونبدأ بعرض نصوص من ندب الشعراء لبعض أقربائهم من الأبناء

(٢) مقلد: موضع القلادة من العنق.

(١) الميد: المتنايلة.

والزوجات والإخوة، وملتقى بابن عبد ربه ملتاعا لفقد ابنين له هصر الموت غصن أكبرها وهو في ريعان شبابه، أما الثاني فكان صبيا لم يبرح زمن الطفولة، وله فيها مرات مختلفة، ومن قوله في الشاب ملتاعا بعد فترة من موته^(١):

بَلَيْتَ عِظَامُكَ وَالْأَسَى يَتَجَدَّدُ وَالصَّبْرُ يَنْفَدُ وَالْبُكَاءُ لَا يَنْفَدُ
يَا غَائِبًا لَا يُرْتَجَى لِإِيَابِهِ وَلِقَائِهِ دُونَ الْقِيَامَةِ مَوْعِدُ
مَا كَانَ أَحْسَنَ مَلْحَدًا ضُمَّتُهُ لَوْ كَانَ ضَمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الْمَلْحَدُ
بِالْيَأْسِ أَسْلُو عَنْكَ لَا يَتَجَلَّدِي هِيَهَاتَ أَيْنَ مِنَ الْحَزِينِ تَجَلَّدُ

وهو يقول إن حزنه يتجدد وصبره ينفد والبكاء لا ينفد لغياب ابنه غيابا لا أوبة بعده إلى يوم القيامة، ويتمنى لو كان دفن معه. ويقول إنه يسلو عنه باليأس من لقائه، لا بتجلده، فلم يعد له تجلد ولا صبر. وكثير من الزوجات الأندلسيين كن قرة أعين لأزواجهن، ونرى كثيرين من الشعراء يلتاعون لوعة شديدة حين يختطف الموت منهم زوجاتهم، من مثل قول أبي إسحق الإليري يبكي زوجته^(٢):

عُجَّ بِالْمَطِيِّ عَلَى الْيَبَابِ الْغَامِرِ وَارْبَعٌ عَلَى قَبْرِ تَضَمَّنَ نَاطِرِي^(٣)
وَاقْرَأَ السَّلَامَ عَلَيْهِ مِنْ ذِي لَوْعَةٍ صَدَعَتْهُ صَدْعًا مَا لَهُ مِنْ جَابِرِ
وَلَوْ آتَنِي أَنْصَفْتُهُ فِي وَدِّهِ لَقَضَيْتُ يَوْمَ قَضَى وَلَمْ أَسْتَخْرِ^(٤)
وَشَقَقْتُ فِي خَلْبِ الْفَوَادِ ضَرِيحَهُ وَسَقَيْتُهُ أَبَدًا بِمَاءٍ مُحَاجِرِي^(٥)

وهو ينادى صاحبه أن يقف الركب على قبر محبوبته ويقرأ عليه السلام من ملتاع صدعت بفراقها قلبه صدعا لا يمكن أن يلتئم، ويقول إنه كان من الإنصاف أن ألحد معها في قبر واحد، فإن لم أمت شققت لها في سويداء الفؤاد ضريحا وسقيته أبدا بدموعي المنهلة. ومات لمعاصره فقيه الأندلس المشهور أبي الوليد الباجي ابنان مغتربان فندبها ندبا حارًا بقوله^(٦):

(٥) خلب الفؤاد: حجاب. محاجر العينين: ما يحيط بهما.

(٦) المغرب ٤٠٥/١ وانظر أيضا في ترجمة أبي الوليد الذخيرة ٩٤/٢ ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١ وابن خلكان ٤٠٨/٣ والقلائد ١٨٨ والصلة ١٩٧.

(١) اليممة للتمايبي ٧٦/٢.

(٢) الديوان (تحقيق د. محمد رضوان الداية - طبع دمشق) ص ٧٤.

(٣) عج: اعطف. اليباب: القفر. الغامر: المغمر بالتراب. اربع: قف.

(٤) قضيت هنا: مت.

رَعَى اللهُ قَبْرَيْنِ اسْتَكَنَا بَيْلِدَةً
يَقْرُ بِعَيْنِي أَنْ أَزُورَ ثَرَاهِمَا
وَأَبْكِي - وَأَبْكِي - سَاكِنِيهَا لَعْنَى
وَمَا سَاعَدْتُ وَرَقَ الْحَمَامِ أَخَا أَسَى
وَلَا اسْتَعَذَّبْتُ عَيْنَايَ بَعْدَهُمَا كَرَى
هَمَا أَسْكَنَاهَا فِي السَّوَادِ مِنَ الْقَلْبِ
وَالصَّقِّ مَكْنُونِ التَّرَائِبِ فِي التُّرْبِ^(١)
سَانَجِدُ مِنْ صَحْبٍ وَأَسْعِدُ مِنْ سُحْبٍ^(٢)
وَلَا رُوْحَتْ رِيحُ الصَّبَا عَنْ أَخِي كَرْبٍ
وَلَا ظَمْتُتُ نَفْسِي إِلَى الْبَارِدِ الْعَذْبِ

وهو يدعو الله أن يرعى قبري ابنيه اللذين يسكنان في السواد من قلبه، ويقول إنه يُسرُّ بزيارة قبريهما واحتضان ثراهما، وإنه ليبكي آملا فيمن ينجده ويساعده في بكائه، ولكن هيهات، فلا منجد لا من الإنسان ولا من ورق الحمام، ولا مروح عنه لا من ريح الصبا ولا من غيرها. وإنه يبيت مسهدا وقد زهد في كل متاع الحياة من بارد عذب وغير بارد عذب. وللأعمى التطيلي مريثة بديعة لزوجته آمنة تكاد فيها نفسه تذوب أسي وحسرات، وفيها يقول^(٣):

أَمِنْ إِنْ أَجَزَعُ عَلَيْكَ فِائِنِي
بِرَغْمِي خَلَى بَيْنَ جِسْمِكَ وَالثَّرَى
هَنِيئَا لِقَبْرِ ضَمِّ جِسْمِكَ إِنَّهُ
إِذَا جِئْتَ عَدْنَا فَاظْلُبِينَا فَقَلْمَا
وَلَا تَعْذِلْنِي إِنْ أَقَمْتُ فَرْبَمَا
رَزَيْتُكَ أَحَلَّى مِنْ شِبَابِي وَمَنْ وَفَرَى
وَإِنْ كُنْتُ لَا أَخْشَى التَّرَابَ عَلَى التَّبَرِّ^(٤)
مَقَرُّ الْحَيَا أَوْ هَالَةُ الْقَمَرِ الْبَدْرِ
تَقَدَّمْتَنِي إِلَّا مَشَيْتُ عَلَى الْإِثْرِ^(٥)
تَأَخَّرَ بِي سَعْيِي وَاثْقَلْنِي وَزَرِي

والمرثية تكنظ بخواطر وصور بديعة، وهو يتمنى في مطلعها أن لو واروا جسد زوجته في صدره مع ما يحتدم فيه من لظى فرقته لها، ويسألها هل احتملت الصبر على الفراق. أما هو فقد ضعف عن الصبر. ويقول لزوجته لا ترسلي إلي بطيفك فدونه سدود من كتائب السهد عليك، كما يقول لها أخبرت إن جيدك أصبح عاطلا من الحلى فخذى أدمعى مكانها إن كنت غاضبة على الدر، إن محاربتها أوصدفتها عيني ولجتها أو يمها صدرى. ويبكي ابن خفاجة ابن أخت له توفي في عنفوان شبابه بصحراء المغرب فيما يبدو، وجاءه نعيه، وفيه يقول^(٦):

(١) الترائب: عظام الصدر.

(٢) أسعد: من أسعد إذا أعان على البكاء.

(٣) راجع ديوان الأعمى التطيلي ص ٧٠.

(٤) التبر: فتات الذهب.

(٥) عَدْن: الفردوس.

(٦) الديوان ص ٢٦٧.

أَرَقْتُ أَكْفُ الدَمْعَ طَوْرًا وَأَسْفَحُ وَأَنْضَحُ خَدَيَّ تَارَةً ثُمَّ أَمْسِحُ^(١)
 فَيَا لَغَرِيبٍ فَاجَأَتْهُ مَنِيَّةٌ أَتَتْهُ عَلَى عَهْدِ الشَّبَابِ تَجْلِحُ^(٢)
 تَرَى بِي - إِذَا أَعُولْتُ حَزَنًا - حَمَامَةً تَرْنُ وَطَوْرًا أَيْكَةً تَتَرَنِّجُ
 وَمَا أَتَلَقَى الرِّكْبَ أَرْجُو تَحِيَّةً تَوَافَى لَهُ أَوْرَقَةً تُتَصَفَّحُ
 فَعَرَّجَ عَلَى مَثْوَى الْحَبِيبِ بِنَظَرَةٍ تَرَاهُ بِهَا عَنَى هُنَاكَ وَتَلْمَحُ

وهو يقول إنه يقضى الليل مسهدا تارة يكفكف دمه وتارة يرسله مدرارا، وطورا يفيض فوارا وطورا يمسخه. ويأسى لابن أخته أن أسرع إليه الموت غريبا شابا، بل لقد اختطفه اختطافا. ويرق له كل ما حوله، فالحمام يرن بهديله والشجر يترنح ويتمايل بأغصانه. ويقول إنه لن يعود يتلقى القادمين ممن كانوا معه ليسألهم هل أرسل إليه معهم تحية أو رسالة وينادى كل من حوله أن يعرج على مثنوى الحبيب، ويلقى نظرة عليه، لعله يراه بها عنه أو يلّمحه. ويقول أبو عامر بن الحمارة الفيلسوف تلميذ ابن باجة في زوجته زينب^(٣):

أَزَيْبُ إِن ظَنَنْتِ فَإِنْ ظَهَرَا أَقْلُكَ سَوْفَ يَرْكُبُهُ الْمُقِيمُ^(٤)
 بِأَيَّةِ حُجَّةٍ أَسْعَى لِأَنْتَى سَوَاكِ وَأَنْتِ هَامِدَةٌ هَشِيمُ
 وَلَمَّا أَنْ حَلَلْتَ التُّرْبَ قَلْنَا لَقَدْ ضَلَّتْ مَوَاقِعَهَا النُّجُومُ
 أَلَا يَا زَهْرَةً ذُبَلْتَ سَرِيعًا أَضْنُ الْمُزْنَ أَمْ رَكَدَ النَّسِيمُ

وهو يقول لها إن الدابة التي حملتك إلى المقابر سوف تحملني قريبا، وسأظل وفيك لك على العهد لا أتزوج بعدك أبدا. والصورة بديدة في البيت الثالث، فقد تعجّب لهذا النجم الثاقب أن يحل في التراب ومكانه الساء في أعلى عليين، ويعجب أيضا لهذه الزهرة العطرة أن تذبل في إبانها وشبابها سريعا، ويتساءل أبخل المزن بقطره أم ركد النسيم، وهي أيضا صورة بديدة.

ويكثر الثابئين عندهم لكثرة رجالات الأندلس من أمراء وخلفاء وحكام ووزراء وقواد وفضلاء وعلماء من كل صنف وأدباء من الكتاب والشعراء، وعادة يذكرون مناقبهم

المغرب ١٢٠/٢ والبغية ص ٥١٧ والمطرب ص ١٠٩ والوافي ٢٤٢/٢.

(٤) ظهرا: دابة، ويريد النّش ألك: حملك.

(١) أكف: أكفكف. أسفح: أصب. أنضح: من نضحت العين إذا فارت.

(٢) تجلح: تسرع.

(٣) الرايات ص ١٢٨ وانظر في ترجمته

ويعددون محامدهم وخصالهم الكريمة، ومن أوائل من أبنوهم عبدالرحمن الأوسط المؤسس الحقيقي للحضارة العربية في الأندلس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وفيه يقول شاعره طاهر^(١) بن حزم:

وياحسرتنا إذ أظفر الموت بعتة
تداعت إلى النعش السحاب فظلت
سقى الله قبرا بالنخيل غمامة
كان ثراه مذ به سكن الندى
بمن لم يكن إلا به الموت يظفر
سريرا عليه السيد المتخير
تكاد إذا حلت عراها تظفر^(٢)
إذا لأعبته الريح مسك وعنبر^(٣)

وهو يتحسر على عبد الرحمن إذ ظفر به الموت، وكان الموت إنما يظفر به لأنه عدته وسلاحه، ويقول إن السحاب ظلل نعشه في مسيرته، ويدعو لقبره في النخيل (مقبرة الأمويين بقرطبة) أن تسقيه غمامة، وتظل هاطلة. ويقول إن ترى القبر مذ سكنه جثمان عبد الرحمن تفوح منه رائحة المسك والعنبر. ويتوفى سعيد بن جودي زعيم العرب بغرناطة فيؤبئنه مقدم بن معافى القبري مبتكر الموشحات بقوله^(٤):

من ذا الذي يطعم أو يكسو
لا اخضرت الأرض ولا أورك الـ
بعد ابن جودي الذي لن ترى
دموع عيني في سبيل الأسى
وقد حوى حلف الندى رمس^(٥)
عود ولا أشرقت الشمس
أكرم منه الجن والإنس
على سعيد أبدا حبس^(٦)

فقد دفن الجود مع سعيد ولم يعد هناك من يطعم أو يكسو، فلا عمت الأرض خضرة ولا أورك الشجر ولا أشرقت الشمس بعد سعيد الذي لن يرى الجن والإنس من يفوقه جودا وكرما. ويقول إنه سيظل يبكيه ملتاغا وستظل دموعه محبوسة عليه أسى وحزنا ولوعة. وكان سعيد يقود العرب ضد ثورة عليهم في إقليم غرناطة من المسالمة والمولدين والنصارى، ووقوف مقدم معه يدل بوضوح على أنه عربي من سلالة عربية، كما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن الموشحات. ولابن الحنات الكفيف يرثى أبا الحزم بن جهور أمير

(٤) المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله بن محمد (انظر الفهرس).

(٥) رمس: قبر.

(٦) حبس جمع حبيس: محبوس وموقوف.

(١) المقتبس (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ١٢٥.

(٢) حلت عرا الغمامة: هطلت كثيرا. تظفر: تشقق، كناية عن غزارة المطر.

(٣) الندى: الجود والكرم.

قرطبة وهنئ بالإمارة بعده ابنه أبا الوليد^(١):

إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي الرُّزْءِ الَّذِي فَجَعَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي الْحُكْمِ الَّذِي وَقَعَا
أَبُ كَرِيمٍ غَدَا الْفِرْدَوْسُ مَسْكَنَهُ وَابْنُ نَجِيبٍ تَوَلَّى الْأَمْرَ وَاضْطَلَعَا^(٢)
لِلَّهِ شَمْسُ ضُحَى فِي اللَّحْدِ قَدْ غَرَبَتْ فَأَعْقَبَتْ قَمَرًا بِالسَّعْدِ قَدْ طَلَعَا

وهو يستسلم لله فيما فجع به من موت أبي الحزم جهور ويستبشر بولاية ابنه أبي الوليد، ويقول إن جهورا أصبح في الفردوس ونهض ابنه بالحكم، ويقول إن أبا الحزم شمس غربت فطلع سريعا قمر يحمل السعد بعده. ولابن مَعْلَى الطرسوني يرثي عالما من علماء العربية فيما يبدو^(٣):

رُزْءٌ بَكَتْ مِنْهُ الْعَلَا وَمَصَابُ شَقَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا الْأَحْبَابُ
وَطَفَقَتْ أَلْتَمِسُ الْعِزَاءَ فَخَانَتْنِي نَفْسٌ تَذُوبُ وَأَدْمَعُ تَنْسَابُ
وَتَلْجَلُجُ النَّاعِي بِهِ فَسَأَلْتُهُ عَوْدَ الْحَدِيثِ لَعَلَّه يَرْتَابُ
أَنْعَى إِلَى الْأَعْرَابِ مِنْكَ مُعِيدَهُ غَضًا كَمَا نَطَقَتْ بِهِ الْأَعْرَابُ
نَاحَتْ بِكَ الْأَقْلَامُ غَايَةً وَسُعَهَا وَبَكَتْ بِأَبْلَغِ جُهْدِهَا الْآدَابُ

وهو يقول إن موت هذا العالم مصاب جَلَلٌ بكت منه العلا وشقت عليه الأحباب جيوبها حزنا، ويقول انه التمس العزاء فخانته نفسه الذائبة ودمعه المنساب، وتلجلج الناعي فأمل أن لا يكون النعي صحيحا. وينعيه إلى العربية التي أعادها غضة ناضرة كما نطق بها الأعراب في القديم، ويقول إن الأقلام والآداب تنوح عليه نواحا لا ينقطع. وملتقى بابن سوار وسنخسه بكلمة مفردة. ويتوفى أبو بكر بن تيفلويت المرابطي حاكم سرقسطة سنة ٥١٠ وكان بحرا فياضا وبطلا مغوارا ويرثيه صديقه الفيلسوف ابن باجة بمثل قوله^(٤):

سَلَامٌ وَالْمَأْمُورُ وَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ عَلَى الْجَسَدِ النَّائِي الَّذِي لَا أَزُورُهُ
أَحَقًّا أَبُو بَكْرٍ تَقْضَى فَمَا يُرَى تَرْدُ جِهَايِرَ الْوُفُودِ سَتُورُهُ^(٥)
لَنْ أَنْسَتْ تِلْكَ الْقُبُورُ بِقَبْرِهِ لَقَدْ أَوْحِشَتْ أَمْصَارُهُ وَقُصُورُهُ

(١) الضطلع: نهض

(٢) الذخيرة ٤٤٩/١ وانظر في ترجمة ابن الحناط

(٣) الذخيرة ٤٣٧/١ وما بعدها والحميدى ٥٣ والصلة

(٤) والتكملة ٣٨٧ والمغرب ١٢١/١ والخريدة

(٥) ٢٩٧/٢ والوافي ١٢٤/٣.

وابن باجة، وقد يئس من زيارته لأبى بكر بن تيفلويت يتمنى له سلاماً وروحاً وأراحة ورحمة. وإنه لفى ذهول فيتساءل أحقاً أنه لم يعد يغدو إلى قصره ولم يعد يرى ما كان على أبوابه ونوافذه من ستور كانت تردّ الجباهير؟ ويقول إن كانت القبور وجدت أنسا بقبره فقد خلفت وحشة في قصوره وأمصاره التي كان يمد عليها سلطانه، وفيه يقول أيضاً راثياً مؤبناً باكياً^(١):

يَا صَدَى بِالْثَغْرِ جَاوَرَهُ رِمَمٌ بِوَرْنٍ مِنْ رِمَمٍ^(٢)
صَبَّحْتُكَ الْخَيْلُ غَادِيَةً وَأَثَارُكَ فَلَم تَرَمِ
قَدْ طَوَى ذَا الدَّهْرِ بَزَّتُهُ عَنْكَ فَالْبَسَ بَزَّةَ الْكَرَمِ^(٣)

وهو يقول أيها الجثمان الثاوى بشجر سرقسطة الأعلى بوركت رمم الأموات الذين جاورتهم، ويلتفت إليه قائلاً: لقد صَبَّحْتُكَ الْخَيْلُ التي تعودت أن تقودها لمنازلة الأعداء وأثارتك كى تنهض معها، غير أنك لم تبرح مكانك. ثم يقول - وقد أمضاه الحزن - إن يكن الدهر طوى عنك شارة الحياة فالبس شارتك الرائعة شارة الجود المنهل المدرار. ولا بن الزقاق مرثية في شهيد تقطر لوعة وأسى وهو يبكى فيه شبابه ومضاه وتنكيله بحملة الصليب شر تنكيل، وهو يستهلها بأن الشهب ناحت عليه وبكى الغيم وانحسر ظل الأنس واغبر ضوء الشمس وبكاه حزب الله والإسلام، ويقول لحامليه: قفوا نودعه ونقض حقه من الدموع ولا تسلموه إلى الثرى، بل ادفنوه في جوانحننا وأحشائنا، وهتف ملتاعاً^(٤):

أَعَزُّ عَلَى بَضِيعٍ ذِي سَطْوَةٍ أَجْمَاتُهُ بَعْدَ الرِّمَاحِ رِجَامٌ^(٥)
أَعَزُّ عَلَى بَزْهَرَةٍ مَطْلُولَةٍ أَمَسْتُ وَلَا غَيْرُ الضَّرِيحِ كِمَامٌ
إِنْ رَاحَ مَهْجُورُ الْفَنَاءِ فَطَالَمَا هَجَرْتُ بِهِ أَرْوَاحَهَا الْأَجْسَامُ
الْلَيْلُ بَعْدَكَ سَرَمَدٌ لَا يَنْقُضِي فَكَأَنَّمَا سَاعَاتُهُ أَعْوَامٌ
يَا حَامِلِينَ النَّعْشَ أَيْنَ جِيَادُهُ يَا مُلْبِسِيهِ التُّرْبَ أَيْنَ اللَّامُ^(٦)

وهو يقول ونفسه تتقطع على هذا الشهيد حشرات تلذع حرقها فؤاده لذعا: إنه يعزُّ

(٥) أجما: جمع أجمة: الغاية والشجر الكثيف

الملفت وهي مخبأ الأسد. الرجام جمع رجمة: الحجارة

تنصب على القبر.

(٦) اللام: الدروع.

(١) المغرب ١١٩/٢.

(٢) الصدى: جسد الإنسان بعد موته.

(٣) بزة: شارة.

(٤) الديوان ص ٢٦٣ والمغرب ٣٣٦/٢.

عليه أن يصبح غيل هذا الأسد الضرغام وغابه الملتف حجارة ملقاة على قبره تندبه. ولقد كان زهرة غضة أرجة في عنفوان شبابه، فصهرها الموت، وأبدلها من كمام الزهر حيطان ضريحه. ويقول إن كان قصره أصبح مهجور الفناء فطالما هجرت به أجسام أعدائه أرواحها وسحق ضلوعهم سحقا ذريعا، ويخال كأن الدنيا أصبحت بعده ليلا داجيا لا ينقضى أبدا وطالت ساعات السهد والغم والضيق والحزن العميق، وكأنما يذهل عن موت هذا الشاب البطل الذي تعود أن يراه ممتطيا جواده ممتشقا حسامه لحرب الأعداء، فيتساءل أين جياده، ويعجب أن يلبسه ملحدوه الترب وعادته أن يلبس الدرع ولأمة الحرب لمنازلة الأعداء منازلة ضارية. ومن أروع المرائي الأندلسية مرثية على بن حزمون للبطل أبي الحملات قائد الأعنة بلنسية وقد استشهد في بعض معاركه الضارية مع النصارى بعد أن أبلى بلاء عظيما، وجعل ابن حزمون مرثيته موشحة كأنما أراد أن تكون ندبا ونواحا على البطل الصريع، وفيها يقول^(١):

نَصَا لِبَاسَ الزَّرْدِ	وخاض موجَ الفَيْلَقِ ^(٢)
ولم يرْغُهُ عَدَدٌ	ذاك الخَمِيسِ الأَزْرَقِ ^(٣)
والحورُ تَلْتُمُ خَدَّ	أديمِ المَمْزَقِ
وكان ذاك الأسدُ	في كل خَيْلٍ يَلْتَقِي
إذا رأى الأعلاجَ وكَبِّرا	ثم أنْبَرَى يُمَاصِّعُ ^(٤)
رَأَيْتَهُم كَالدَّجَاجِ مَنْفَرًا	وَسَطَ العَرَا الوَاسِعِ

والموشحة من بحر الرجز وهو يقول إن البطل خلع عنه الدرْع وخاض دماء الكتيبة الباسلة وسط موجها المتلاطم يتقدم الصفوف مدافعا ذا ندا غير مكترث بأعداد النصارى من الإِسبان ولا برماحهم تنوشه، وأخذ يَمْزُقُهُم شَرًّا مَمْزَقٍ حتى تكاثروا عليه فخرَّ صريعا، وحفت به الحور العين تزفه إلى الفردوس تقبله وتلثم مواضع الطعنات في جسده. وكم كان هذا الأسد المغوار يقود الخيل العاديات إلى النصارى يحققهم محققا، وكان إذا نازلهم فرَّوا في غير نظام كأنهم دجاج منفَر، متناثرين في كل صَوْبٍ فرعا وهلعا، وكأنما كان قفلا كبيرا لبلنسية، يصد عن حماها العلوج النصارى منزلا بهم صواعق الموت صاعقة من بعد صاعقة إلى أن استشهد مشتريا بجهاده الفردوس ورضوان ربه. وملتقى بمحمد بن

(١) المغرب ٢/٢١٧.

(٢) الزرد: الدروع. الفيلق: الكتيبة.

(٣) الخميس: جيش الإِسبان، ووصفه بالزرق.

لزرقه عيونهم.

(٤) يماصع: يجالذ بالسيف ونحوه.

عبد الله بن أبي القاسم يرثى عالم العربية ابن الفخار الغرناطى قائلا^(١):

قَضَى مِنْ بَنَى الْفَخَّارِ أَفْضَلَ مَا جِدَ جَمِيلُ الْمَسَاعِي لِلْعَلَا جِدُّ شَائِدٍ^(٢)
أَمْوَلَايَ مَنْ لِلْمَشْكَلَاتِ يُبَيِّنُهَا فَتَجَلُّوْ عَمَى كُلِّ الْقُلُوبِ الشَّوَاهِدِ
وَمَنْ ذَا يَحُلُّ الْمُقْفَلَاتِ صَعَابَهَا وَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْدِي السَّبِيلَ لِحَائِدٍ^(٣)

وهو يصف أستاذه ابن الفخار بجده فى السعى للمعالى وحله لمشكلات النحو ومغلقاته، ملحا فى ذلك حتى تذلل وتستبين معيائها وصعابها، وكلما ذلل مسألة معبأة أو مشكلة صعبة أخذ يذلل مشاكل ومساائل أخرى أشد عسرا. ويقول أبو عبد الله اللوشى فى رثاء سلطان غرناطة أبى الوليد إسماعيل بن فرج المتوفى لسنة ٧٢٥ للهجرة: ^(٤)

كَادَتْ نَجُومُ الْأَفْقِ تَسْقُطُ فِي الثَّرَى لَمَّا شَكَّتْ شَمْسُ الْعَلَاءِ أَفْوَلَا
لَا صَمْتَ إِلَّا وَهُوَ نَارٌ فِي الْحَشَا لَا نُطْقَ إِلَّا مَا يَعُودُ عَوِيَلَا
ضَاقَتْ صُدُورُ الْخَلْقِ عَنْ أَنْفَاسِهِمْ إِذْ ضَمَّ بَطْنُ الْأَرْضِ إِسْمَاعِيَلَا

وهو يبالغ بمبالغة مفرطة إذ يقول إن النجوم فى السماء كادت تسقط فى الثرى حين أفلت شمس أميره إسماعيل، وإن الحزن عليه استحال نارا فى الحشا واستحال كل نطق عويلا له وأنيئا وضائق الصدور عن أنفاسها لوعة وأسى.

واللون الثالث من ألوان رثاء الأفراد العزاء، وهو فى أصله الصير على الموت فى الأقرباء وغير الأقرباء، ومن قديم يدعو الشعراء إليه مصورين كيف أن الموت سنة من سنن الكون، فهو الغاية والنهاية لكل إنسان، إذ الناس جميعا لابد أن يرحلوا عن دنياهم، مما دفع الشعراء - وخاصة من أخذوا بحظ من الفلسفة - إلى التفكير فى حقائق الحياة والموت والوجود والعدم، وتلتقى بآبن شهيد وقد هدّه فالج أو شلل، وطال ألمه وتزايد سقمه، فنظم رثاء لنفسه، ومما قاله فيه متعزيا متقبلا للموت عن رضا: ^(٥)

يَقُولُونَ قَدْ أَوْدَى أَبُو عَامِرٍ الْعَلَا أَقْلُوا فَقَدِمًا مَاتَ آبَاءُ عَامِرٍ^(٦)
هُوَ الْمَوْتُ لَمْ يُصَرَفْ بِأَسْجَاعٍ خَاطِبٍ بَلِغٌ وَلَمْ يُعْطَفْ بِأَنْفَاسٍ شَاعِرٍ
وَلَمْ يَجْتَنِبْ لِلْبَطْشِ مُهْجَةً قَادِرٍ قَوِيٌّ وَلَا لِلضَّعْفِ مَهْجَةٌ صَابِرٍ

(١) الكتيبة الكامنة لابن الخطيب ص ٢١٢.

(٤) الكتيبة الكامنة ص ١٧٦.

(٥) الديوان ص ١١٣ والذخيرة ٣٣٢/١.

(٢) قضى: مات. شائد: بان.

(٦) أودى: مات. أقلوا: لا تتكلموا.

(٣) حائد هنا: ضال.

يَحُلُّ غُرَى الْجَبَّارِ فِي دَارِ مُلْكِهِ وَيَهْفُو بِنَفْسِ الشَّارِبِ الْمَتْسَاكِِرِ^(١)

وهو يقول لمن سيبكونه من إخوانه: لا تبكوا ولا تقولوا مات، فالناس - مثل آبائه - جميعا يرحلون عن دنياهم. إنه كأس الموت لا بد للجميع من احتسائه، ولا يستطيع شيء أن ينحيه عن الناس لا أسجاع خطيب ولا أنفاس شاعر، ولا يفلت من شباهه قوى ولا ضعيف، ولا ملك جبار ولا أحد سكران أو غير سكران. ويقول جعفر حفيد مكى بن أبى طالب المقرئ المشهور فى رثاء عبد الملك بن سراج عالم العربية المتوفى سنة ٤٨٩ للهجرة^(٢):

الْمَوْتُ حَتْمٌ وَالنَّفُوسُ وَدَائِعُ وَالْعِيشُ نَوْمٌ وَالْمَنَى تَضْلِيلُ
لَا يَعْصِمُ الْعَصَاءُ مِنْهُ شَاهِقٌ صَعْبٌ وَلَا الْوَرْدُ السَّبْتَنَى غِيلُ^(٣)
يَهْوَى الْفَتَى طَوْلَ الْبَقَاءِ مَوْمِلًا وَلَهُ رَحِيلٌ لَيْسَ عَنْهُ قَفُولُ
يَلْهَوُ وَيَلْعَبُ مَطْمِئِنًا ذَاهِلًا وَلَهُ رَسِيمٌ نَحْوَهُ وَذَمِيلُ^(٤)

وهو يقول إن الموت حتم لا مفر منه، وما النفوس إلا ودائع له يسترجعها واحدة فى إثر أخرى، وما الحياة إلا برهة قصيرة كبرهة النوم، وما المنى إلا خُدْع يضل بها الإنسان نفسه، ولن ينجو منه أحد لا العقاب المعتصم بجبل شاهق ولا الأسد القوى الجرىء فى غيله أو غابه، وإن الفتى ليهوى طول البقاء مؤملا آمالا كبارا غير مفكر فى رحلته الكبرى التى ليس منها قفول ولا رجوع. وإنه ليلعب ويلهو مطمئنا ذاهلا عن حركته المستمرة بين عدو وإبطاء نحو الموت. واغتيل بإشبيلية ذات ليلة شاب من شبابها المأمولين يسمى محمد بن اليناقي كان من المعجبين بالأعمى التطيلي وشعره، وكان يكثر من الافتقاد له، فحزَّ فى نفسه اغتياله ونظم نونية بديعة يعزى بها أخاه أبا الحسن، استهلها على هذه الشاكلة^(٥):

خَذَا حَدَّثَانِي عَنْ قُلٍّ وَفَلَانٍ لِعَلِيٍّ أَرَى بَاقِيَّ عَلَى الْحَدَثَانِ^(٦)
وَعَنْ دَوْلٍ - جُسْنِ الدِّيَارِ - وَأَهْلِهَا فَنَيْنٌ، وَصَرَفُ الدَّهْرِ لَيْسَ بِفَانٍ^(٧)

السريع.

(٥) الديوان ص ٢٢٤.

(٦) الحدّثان: الليل والنهار.

(٧) جُسْنٌ: وَطْنٌ. صرف الدهر: أحداثه ونوائبه.

(١) المتساكر: متعاطى السكر والتظاهر به.

(٢) الذخيرة ٨١٤/١.

(٣) العصاء هنا: العقاب. شاهق: جبل سامق

الورد السبتي: الأسد الجرىء.

(٤) رسيم: عدو سريع. ذميل: سير دون

وعن هَرَمَى مصر - الغداة - أُمْتُعا بشرخ شبابٍ أم هما هَرَمَانِ

فالناس والدول جميعا لا يبقى منهم باق على الزمان، فالكل يفنى ولا تفنى كوارث الدهر ومصائبه. ويتساءل عن الهرمين الباقيين بمصر هل مُتعا بشباب حتى ناضر أو هما نشأ هرمين عجوزين لم يعرفا شبابا ولا متاعا بالحياة، ويقول إن كل شيء - حتى في الكواكب - إلى فراق، ويعود بالذكرى إلى أعزاء العرب في الجاهلية الذين طحتهم الحروب، ثم يقول:

فذلْتُ رقابٌ من رجالٍ أعرَّةٍ	إليهم تناهى عزُّ كلِّ مكان
وأبى قبيلٍ لم يصدع جميعهم	يبكر من الأرزاء أو بعوان ^(١)
ونبهنى ناع مع الصبح كلما	تشاغلْتُ عنه عن لى وعنانى
أغمض أجفانى كأننى نائم	وقد لجَّت الأحشاء فى الخفقان
أقول كأنى لست أحفل وانبرت	دموعى فأبدت ما يُجنُّ جنانى ^(٢)

فكل أعزاء العرب واراھم التراب، وكل قبائلهم تصدعت بأرزاء لا مثل لها أو مكررة أو معادة، ويقول إنه حين سمع نعى هذا الشاب كان يتشاغل عنه أملا فى أن يكون غلطا وكان ما يلبث أن يتراءى له، وهو بين الظن واليقين وأحشاؤه تخفق، ويحاول أن يكتم حزنه، غير أن دموعه انهملت فأظهرت ما يستره جنانه من الهم والغم والحزن. ويقول ابن الزقاق معزيا^(٣):

هُوَ الْقَدْرُ المحتومُ إن جاء مُقَدِّمًا	فلا الغابُ محروسٌ ولا اللَّيْثُ واثِبُ
تساقُ أَيْبَاتُ النفوسِ ذليلةً	إليه وتنقاد القرومُ المصاعب ^(٤)
وما الناسُ إلا خائضو غمرةِ الرَّدَى	فطافٍ على ظُهرِ الترابِ وراسِبُ

وهو يقول إن الموت قدر حتمى للإنسان، ولذلك حين ينزل به لا يستطيع أن يرده غيل ولا أسد متأهب للنزال، وإن الناس جميعا سادة وغير سادة ليساقون إلى ورده، ويخال ابن الزقاق كأن الناس جميعا يخوضون ماء غمرا، فطافٍ منهم لا بد أن ينشب الموت فيه أظفاره، وراسب سبق صاحبه إلى قاع الموت وقراره. ويقول ابن خفاجة فى صديق مات شابا متعزيا^(٥):

(٤) القروم المصاعب: السادة العظام.

(٥) الديوان ص ٢١٧.

(١) بكر: لم تسبق. عوان: مكررة.

(٢) الجنان: القلب والعقل.

(٣) الديوان ص ١٠٩.

إذا ارتجعتْ أَيْدِي اللَّيَالِي هِيبَاتِهَا فغَايَةُ هَاتِيكَ الْهِيَاتِ نِهَابُ
تَخَبُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَطَايَا إِلَى دَارِ الْبَلَى وَرِكَابُ^(١)
وَهَلْ مُهْجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَرِيدَةٌ تحومُ عَلَيْهَا لِلْحِمَامِ عُقَابُ^(٢)

وهو يقول إن الليالي إذا أعادت إلينا هبة سرعان ما تستردها، وكأننا غافلون، فتلك مطايا الموت تعدو بنا في كل يوم مسرعة إلى دار الفناء، وما أشبه روح الإنسان بطريدة صيد تحوم عليها عقبان الموت ونسوره. ويقول أبو الحسن سهل بن مالك راثيا ومعزيا في ابن رشد فيلسوف الأندلس المشهور^(٣):

مَضَى عِلْمُ الْعِلْمِ الَّذِي بَيَّانُهُ تَبَيَّنَ خَافِيهِ وَبَانَ طَرِيقُهُ
رَجُوعًا إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَحَقُّهُ عَلَيْنَا قَضَى أَنْ لَا تُؤَدِّي حَقُّوهُ
أَعَزَّيْكُمْ فِي الْبُعْدِ عَنْهُ فَإِنِّي أَهْنِيهِ قُرْبًا مِنْ جِوَارِ يَرْوِقُهُ
وَمَا كَانَ فِينَا مِنْهُ إِلَّا مَكَانُهُ وَفِي الْعَالَمِ الْعُلُوتَى كَانَ رَفِيقُهُ

وهو يقول إن علم العلم الذي طالما أوضح خفياته ودلّل مشكلاته مات، وليس أمامنا إلا الصبر على هذه الفجيرة الموحجة: الصبر الجميل الذي دعا إليه الذكر الحكيم بقوله: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وإن التمسك بعمرى هذا الصبر وحقوقه ليحول بيننا وبين أن نؤدى لهذا العالم العظيم ما ينبغى من العويل والبكاء. ويقول لرفاقه من تلاميذ ابن رشد: إذا كنت أعزيكم فيه فإنى أهنته بالجوار الذى يروقه، جوار الملائكة المصطفين الأخيار، وهل كان معنا منه إلا مكانه وجسده، أما روحه فكانت فى العالم الأعلى الذى صعدت إليه. ويقول ابن زمرك فى رثاء سلطان غرناطة الغنى بالله صفيه وخليفه حين توفى لسنة ٧٩٣ معزيا ابنه وخليفته يوسف^(٤)

عزَاءُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهَا مَقَادِيرُ رَبِّ الْخَلْقِ فِي الْخَلْقِ يُجْرِيهَا
هُوَ الْمَوْتُ وَرَدُّ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا أَوَاخِرُهَا تَقْفُو سَبِيلَ أَوَالِهَا^(٥)
وَمَا بَيْنَنَا حَتَّى وَمَا بَيْنَ آدَمَ أَلَا هَكَذَا سَوَى الْبَرِيَّةِ بَارِيهَا
وَفِي مَوْتِ خَيْرِ الْخَلْقِ أَكْبَرُ أُسْوَةٍ تَصْبُرُ أَحْرَارَ النُّفُوسِ وَتُسْلِيهَا

(٤) أزهار الرياض ١٥٥/٢.

(٥) تقفو: تتبع.

(١) تخب: تعدو. ركاب: مطايا معدة للركوب.

(٢) الحمام: الموت.

(٣) اختصار القدر الممل ص ٦٣.

وهو يعزى ابن الغنى بالله بأن الله قَدَّر الموت على المخلوق جميعاً، فالكل لابد أن يردوا حياضه، يتبع الآخر الأول منذ آدم إلى اليوم، وقد مات رسول الله خير البرية، وفي ذلك أكبر عزاء لك عزاء لا يماثله عزاء. وأن أن نخص محمد بن سوار، وبالمثل ابن وهبون، بكلمة موجزة.

محمد^(١) بن سوار

هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني، ولد ونشأ في أشبونة بغربي الأندلس، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته وتعلمه غير أن ابن بسام يقول إنه نظم عدة قصائد في أمراء الطوائف قالها فيهم «تجيباً لا تكسباً، وعمر مجالسهم بها وفاءً لا استجداء» مما يدل على أنه نشأ في يسار ونعمة أغنته في شبابه عن التكسب بأشعاره. ويستمر ابن بسام قائلاً إنه بعد أن خلع ابن تاشفين أمراء الطوائف لسنى ٤٨٣، ٤٨٤ حالت بابن سوار الحال وتوزعه الإدبار والإقبال، إلى أن وقع في أسر النصارى وسجن بقورية على أحد فروع نهر تاجه غربي طليطلة، وظل يستغيث بن يفتديه وينقذه من هذا الأسر وعذابه ولا مغيث إلى أن سمع باستغاثته على بن القاسم بن عشرة قاضى سلا في المغرب على المحيط، فأغاثه وافتداه، ورُدَّت إليه حريته بعد عام طويل من الأسر والعذاب، وعبر إليه الزقاق، فأظله برعايته وأسبغ عليه من نواله القمَر على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وظل الشاعر يديج فيه المدائح، وكان القاضى من المقربين ليوسف بن تاشفين، ونظن ظناً أنه وصل ابن سوار به، إذ نراه حين توفي ابن تاشفين في المحرم سنة ٥٠٠ للهجرة ينشد مرثية على قبره، قائلاً:

دَيْنِ الذِي بِنَفُوسِنَا نَفْدِيهِ
لَمْ تَرْضَ فِيهَا غَيْرَ مَا يُرْضِيهِ
تُرْدِي عَدِيدَ الرُّومِ أَوْ تُفْنِيهِ^(٢)
حَكَمَ الْقَضَاءُ بِكُلِّ مَا تَقْضِيهِ
فِي كُلِّ مَا تَخْفِيهِ أَوْ تَبْدِيهِ

اسْمَعْ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرَ الدِّينِ
جُوزَيْتَ خَيْرًا عَنْ رَعِيَّتِكَ الَّتِي
فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ مَبْرُورَةٌ
تَصِلُ الْجِهَادَ إِلَى الْجِهَادِ مُوَفَّقًا
مَتَوَاضِعًا لِلَّهِ مُظْهِرَ دِينِهِ

أسرة بنى عشرة للدكتور محمد بن شريفة: فصلة
من مجلة تطوان، العدد العاشر سنة ١٩٦٥.
(٢) تردى: تهلك.

(١) انظر في محمد بن سوار وترجمته وشعره
الذخيرة ٨١١/٢ والمغرب ٤١١/١ والمحمدون من
الشعراء للقطبي ٣٥٩ والوفاي ١٤٣/٣ وراجع

وهو يشيد بابن تاشفين صاحب موقعة الزلاقة التي أُجِّلت استرداد الإِسبَان للأندلس العربية مئات السنين. ويقول إنه ناصر الدين الذى يفديه كل مسلم بروحه ودمه، ويدعو الله أن يجزيه خير الجزاء عما بذل لرعيته في جهاده المستميت للإِسبَان وغزواته المتعاقبة واصلا الجهاد بالجهاد، إعلاء لكلمة الله في تواضع حميد. ويتوفى القاضي على بن القاسم بعد ابن تاشفين بعامين، فيقول فيه من مرثية طويلة:

العِشُّ بعدك ياعلِّى نَكَالُ لا شَيْءَ منه سوى العناء يُنَالُ
يا عِصْمَةَ الفقراءِ بل يامالهم هيهات ما للناسِ بعدك مالُ
قد كنتَ آمالى التى أنا طالبُ جَهْدِي ومَتَّ فماتتِ الآمالُ
لا الظلُّ ظلُّ بعد فَقْدِكَ يا أبا حَسَنِ ولا الماءُ الزُّلالُ زُلَالُ

وهو يقول إن العيش بعد ابن عشرة نكال وعقاب وعناء وعذاب، ويسميه عصمة الفقراء بما كان ينثر عليهم من أمواله، كما يقول إن آماله ماتت بموت ابن عشرة. ولم يعد الظل ظلا باردا بل أصبح يحموا، ولم يعد الماء الزلال زلالا عذبا، بل أصبح مرا لا يُساغ. وخلف القاضي في القضاء ابنه أبو العباس أحمد، فرعاه ووالى عليه نواله، ووالى ابن سوار له مديحه. وينشد ابن بسام له قطعة من مرثيته في صبي يسمى محمدا لعله كان ابنا لأبى العباس، كما ينشد له أبياتا في رثاء قاضيين، وربما كانا من بنى عشرة. ولعل فيها قدمنا ما يدل بوضوح على موهبته الشعرية الخصبية..

ابن^(١) وهبون

هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون، مولده ومنشؤه بُرْسية على البحر المتوسط، وهى من بنيان الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانوا يسمونها بستان شرقى الأندلس، واشتهرت بما كان يصنع فيها من أصناف الحرير والديباج. وكانت بها حركة علمية وأدبية نشطة، ويكفى أن تكون هى التى أنتجت ابن سيده أكبر لغوى أندلسى صاحب المخصص والمحكم المتوفى سنة ٤٥٨ للهجرة وكان مع إتقانه للعربية متوفرا على علوم الحكمة والفلسفة، وأكبر الظن أن ابن وهبون تتلمذ له، وقد يكون هو الذى دفعه للقراءة في كتب

للمراكشى ١٥٩ وفوات الوفيات لابن شاعر
٥١٣/١

(١) انظر في ابن وهبون وترجمته وشعره الذخيرة
٤٧٣/٢ والقلائد ص ٢٤٢ والغريدة ٩٥/٢
والمطرب ١١٨ وبغية الملتبس رقم ١١٠١ والمعجب

الفلسفة. وكانت شهرة المعتمد بن عباد قد طبقت الآفاق برعايته للشعراء، ونراه يفد على إشبيلية يريد أن يحظى بشيء من هذه الرعاية، ويلزم الأعلام الشنتمرى ويختلف إلى حلقته، ويعجب به ابن وهبون، وكان فيه - مثل ابن سيده - نزوع إلى الفلسفة، فلعله أيضا كان من أسباب اهتمامه بها. وقدم الأعلام قصيدة له إلى المعتمد بن عباد فطار بها وزيره ابن عمار، ووصله بالمعتمد، وأعجب به بدوره، فقصره على هواه، ولم يرحل إلى أمير من أمراء الطوائف سواء، وظل عنده إلا أياما كان يرحل فيها كل سنة إلى مرسية مسقط رأسه يتعهد فيها أهله، حتى إذا استنزل يوسف بن تاشفين أمير المرابطين المعتمد من عرش إمارته ونفاه إلى أغمات خرج من إشبيلية متجها إلى مرسية، وبالقرب منها سنة ٤٨٤ للهجرة لقي قطعة من خيل النصارى فاشتبك معهم، وكُتبت له - على أيديهم - الشهادة. ويتميز شعره بمسحة التأمل والبعد في الفكر والعمق فيه بتأثير قراءاته الفلسفية، وتوفي أستاذه الأعلام الشنتمرى سنة ٤٧٦ فبكاه برمئية حارة استهلها بتأملات عميقة في الحياة والموت منشدا:

نَفْسِي وَجِسْمِي إِنْ وَصَفْتُهُمَا مَعَا	أَلْ يَذُوبُ وَصَخْرَةٌ خَلْقَاءُ ^(١)
لَوْ تَعْلَمُ الْأَجْبَالُ كَيْفَ مَالُهَا	عِلْمِي لَمَا امْتَسَكَتْ لَهَا أَرْجَاءُ
إِنَّا لَنَعْلَمُ مَا يَرَادُ بِنَا فَلِمَ	تَعْيَا الْقُلُوبُ وَتَغْلِبُ الْأَهْوَاءُ
طَيْفُ الْمَنَايَا فِي أَسَالِيبِ الْمُنَى	وَعَلَى طَرِيقِ الصَّحَّةِ الْأَدْوَاءُ

وهو يقول ما الحياة؟ إن نفوسنا فيها سراب يذوب وأجسامنا صخرات ملساء لا تلبث أن تمسها يد الفناء، وحتى صخرات الجبال لو علمت - بقيقة أنها لا بد أن تتداعى يوما لما تماسكت لها أرجاء، ويقول إنا نعلم مصيرنا إلى الموت والفناء فلم نكلف قلوبنا ما تعيا به وتشقى؟ ولم تغلبنا الأهواء والشهوات؟، وتلك أطياف الموت وأشباحه تترأى لنا فيها نحاول ونحقق من أمانى، وتلك الأدوية والأمراض كأنها تنتظر الأصحاء. ويستمر في إنشاده:

ماذا على ابن الموت من إبطاره	ولقائه هل عقت الأبناء
لِمَ يَنْكُرُ الْإِنْسَانُ مَا هُوَ ثَابِتٌ	فِي طَبْعِهِ لَوْ صَحَّتْ الْآرَاءُ
دَنِفٌ يَبْكِي لِلصَّحِيحِ وَإِنَّمَا	أَمَوَاتُنَا - لَوْ تَشْعُرُ - الْأَحْيَاءُ
مَا النَّفْسُ إِلَّا شُعْلَةٌ سَقَطَتْ إِلَى	حَيْثُ اسْتَقَلَّ بِهَا الثَّرَى وَالْمَاءُ

حتى إذا خلصت تعود كما بدت ومن الخلاص مشقة وعناء

وهو يقول إن الإنسان ابن الموت فلماذا يفزع من لقائه؟ أهو ابن عاق لأبيه؟ ولماذا يتنكر الإنسان لما هو ثابت في كيانه؟ ولو أنصف الأحياء لعرفوا أنهم مرضى مرضا ثقيلا يُشفى بهم على الموت، وكأنهم هم الخليقون بالبكاء لهم، وفيهم إذن يكون على من لبوا نداء الموت المستكن فيهم؟ إنهم الأموات الحقيقيون الجديرون بالبكاء عليهم. وما النفس إلا شعلة هبطت - كما يقول ابن سينا - من العالم العلوى إلى الجسد أو بعبارة أخرى إلى التراب والماء، وما الموت إلا خلاص لها من هذا الأسر الطويل، ورب خلاص فيه مشقة وعناء. ومضى ابن وهبون بعد هذا العزاء يقول بأن ليس في الدنيا بقاء وأن الكل إلى فناء، مؤبنا الأعلم الشنتمرى أستاذة تأيينا رائعا، وهو - بحق - من شعراء الأندلس المبدعين.

(ب) رثاء الدول

هذا اللون من رثاء الدول قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، إذ نجد الأسود بن يعفر يرثى دولة آل محرق في الحيرة وحضارتهم وما شادوا من قصور الخورنق والسدير وسنداد، حيث كانوا يعيشون في ظل ملك ثابت ونعيم رافه، فزال ذلك كله، وأصبح باليا مندثرا. وحين قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاهها الشاعر أبو العباس الأعمى المكي طويلا. وسينية البحترى في إيوان كسرى حين زار أطلاله مشهورة إذ خلبت لبه نقوشه وما على حيطانه من تصاوير، فوصفه وصفا بديعا، وبكى في تضاعيف وصفه دولة الفرس ومجدها الحضارى. وحين أقنع فقهاء الأندلس يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة المشهورة بأن عليه واجبا أن ينقذ الأندلس من أمراء الطوائف بها المتعادين المتحاربين المفضين في حياتهم إلى اللهو والقصف متناسين مسئولياتهم إزاء نصارى الشمال لبأهم مقتنعا بأنه يجب أن تجتمع الأندلس تحت لواء واحد، حتى تستطيع مدنها الصمود أمام نصارى الشمال، بل حتى تذيبهم وبال غاراتهم في مواقع لا تقل عنفا عن موقعة الزلاقة. حينئذ رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد من القضاء على حكم هؤلاء الأمراء بالأندلس وعبر الزقاق إليها سنة ٤٨٣ وبدأ الجيش بغرناطة ثم بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فقاوم قليلا ولم تغنه مقاومته، واستسلم، ونفاه ابن تاشفين إلى أغات بقرب مراکش وكانت قرطبة تتبعه وعليها ابنه المأمون، وقاوم المرابطين وقتل، واستولى المرابطون على المدينة، كما استولوا على قلعة رندة من يد يزيد الراضى بعد أن لقي

مصير أخيه المأمون. واستولى المرابطون على بقية مدن الأندلس ما عدا سرقسطة إذ رأى ابن تاشفين أن تُترك لأمرائها البواسل الذين ينازلون مجاورهم من نصارى الشمال وينكّلون بهم. وأبى أمير بطليوس المتوكل عمر بن المظفر تسليم مدينته للمرابطين، وحاربهم ودارت عليه الدوائر فقتل من دونها هو وولدان له، وكان مثل المعتمد بن عباد أديبا كاتباً شاعراً، وأحالا مدينتيهما: إشبيلية وبطليوس إلى كعبة للقصاد من الأدباء والشعراء وقبلة لآمالها، فاجتمع عندهما من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء الطوائف، وبذلك أعادا سيرة سيف الدولة في حلب والرشيد في بغداد، وكتب للمعتمد أن يعيش بضع سنين، فبكى دولته، وأهم شاعر بكاهها مثله ابن اللبانة، وحرى أن نخص كلا منها بكلمة، وبالمثل بكى ابن عبدون شاعر المتوكل دولته ببطليوس، وسنخصه مثلها بكلمة موجزة.

المعتمد^(١) بن عباد

هو المعتمد محمد بن المعتضد عباد أمير إشبيلية، من سلالة النعمان بن المنذر اللخمي أمير الحيرة في الجاهلية رُزق به المعتضد سنة ٤٣١ ونشأ في الحلية والزينة والترف، وكان المعتضد أديبا مثقفا، فكان طبيعيا أن يعنى بتربيته وأن يحضر له المعلمين من فقهاء وعلماء بالعربية وكانت فيه فطنة وذكاء، وشبّ وتفتحت ملكته الشعرية. ورأى أبوه وهو لا يزال في بواكير شبابه أن يعهد إليه بحكم شلب في الجنوب الغربي للأندلس وكانت تتبعه، ونزل المعتمد فيها بقصر الإمارة المسمى بقصر الشراحيب، وتعرّف عليه سريعا ابن عمار الشلبي، وكان شابا مثله وفيه مجون، فأغواه وأغراه بالخمر والمجون والسباع، وترامت إلى أبيه أنباء لهوه، فاستدعاه في نحو العشرين من عمره إلى إشبيلية، وأخذ يدربه على الحكم. وتصادف أن تعرّف سريعا على فتاة تسمى اعتماد مولاة لرُميك من أهل إشبيلية، فاستهوته بجملها وبداهتها الشعرية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع، فاقترن بها، وهى أم أبنائه، وله فيها كثير من أشعاره، وكان أبوه قد استطاع أن يستولى بجانب شلب على مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة على زقاق جبل طارق وقرمونة في الشمال الشرقي لإشبيلية ولبلّة وباجة في غربيها، وطمح إلى الاستيلاء على مالقة سنة ٤٥٩ من يد باديس

١٠٨/٢ وما بعدها وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان المغرب ٢٥٧/٣ والوافي ١٨٣/٣ وابن خلكان ٢١/٥ وما بعدها. وديوانه نشره بالقاهرة الدكتوران: أحمد بدوى وحامد عبد المجيد.

(١) انظر في المعتمد بن عباد وترجمته وأشعاره الذخيرة ٤١/٢ وما بعدها والقلائد ٤٠ والحلة السراء ٥٢/٢ والخريدة للعماد الأصبهاني ٢٥/٢ والمعجب ١٥٨ والمطرب ١٤ وما بعدها والإحاطة

الزيرى الصنهاجى أمير غرناطة، وأرسل إليها جيشا بقيادة المعتمد فاستولى عليها سريعا، وغرّه ذلك فأفضى إلى لهوه وخمره، وأرسل باديس إليه جيشا باغته وتشتت جيشه وعاد إلى إشبيلية مدحورا. وتوفى المعتمد سنة ٤٦١ فأمسك المعتمد بزمام الحكم، وجاءه ابن عمار فاستوزره واستطاع الاستيلاء على قرطبة فى العام التالى لحكمه. وأخذ يكثر مع ابن عمار من مجالس الأنس ولياليه، كما أخذ يكثر من الإغداق على الشعراء فاجتمع ببابه منهم كثيرون عنى ابن بسام فى الذخيرة بالترجمة لغير شاعر منهم. وبينما كان يغاور جيرانه من أمراء الطوائف المسلمين أبناء دينه كان يسالم ألفونس السادس ملك قشتالة ويؤدى إليه الجزية صاغرا كل عام، وحاول ألفونس أن يسلبه بعض ممتلكاته. وكان ضغط النصارى يشتد أيضا على المتوكل صاحب بطليوس فى الغرب وعلى أمير غرناطة عبد الله بن بلقين، فأجمع أمرهم - مع الفقهاء - على استدعاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ولبّاهم وكُتب لهم معه النصر المؤزر فى الزلاقة، وعاد يوسف إلى بلاده، وعاد المعتمد وغيره من أمراء الطوائف إلى اللهو والقصف والانغماس فى اللذات، فاستغاث الفقهاء وأهل الأندلس بابتن تاشفين ثانية كى يخلص الأندلس من حكم هؤلاء الأمراء الذين مرّقوها فى يد كل منهم مرّقة مع ما يستنزفونه من طبيّاتها فى الخمر والمجون. وعبر يوسف الزقاق، واستسلم سريعا أمير غرناطة، أما المعتمد فأبى الاستسلام وطلب من ألفونس السادس المهزوم فى الزلاقة النجدة ضد ابن تاشفين والمرابطين. وكان ذلك جرّما فظيما وخطئا كبيرا لا يحق له بعده أن يظل أميرا فى موطنه، وقاوم ولم تنفعه مقاومته فاستسلم، وأمر ابن تاشفين بنفيه مع أهله إلى المغرب، فنقلوا بالسفن من إشبيلية إلى طنجة، ومنها إلى مدينة مكناس، وأخيرا إلى أغمات بالقرب من مدينة مراكش، وظل بها مع أسرته، وفيها توفيت زوجته اعتداء الرميكية، ولم يلبث أن توفى سنة ٤٨٨ للهجرة بعد نحو أربع سنوات قضاها فى منفاه. وطبيعى لشاعر مثله أن يبكى إمارته ودولته وما كان فيه من عز وسلطان وأبهة وحياة مرفهة، واسمه ملء الأذان فى الأندلس، والشعراء يغدون عليه ويروحون بفرائد من أمداهم، وهو يسبغ عليهم عطايا كأنها سحب غدقة منهلة. وكل ذلك أحمى وزال، وكأنه كان حلما واستيقظ منه على اليأس والبؤس، ويبكى ويظل يبكى ويذرف الدمع مدرارا، منشدا:

غريبٌ بأرضِ المَغْرِبَيْنِ أَسِيرٌ	سَبَّيْكِ عَلَيْهِ مِنْبَرٌ وَسَرِيرٌ
وَتَسْدُبُهُ الْبَيْضُ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا	وَيَنْهَلُ دَمْعُ بَيْنَهُنَّ غَزِيرٌ
فِياليتْ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً	أَمَامِي وَخَلْفِي رَوْضَةٌ وَغَدِيرٌ

بُمُنْبِتَةِ الزَّيْتُونِ مَوْرَثَةِ الْعُلَا تَغْنَى قِيَانٌ أَوْ تَرْنٌ طُيُورٌ
بَزَاهِرِهَا السَّامِيُّ الذَّرَى جَادَهُ الْحَيَا تُشِيرُ الثَّرِيَا نَحُونَا وَنُشِيرُ

لقد أصبح غريبا وأسيراً منفياً في المغرب وإن منبر خطابته وعرش إمارته لبيكيانه وتبكي شجاعته السيوف والرماح، ويتقاطر دمع غزير، ويتساءل هل يمكن أن ينعم ليلة بما كان فيه من بساتين ورياض بإشبيلية بلدة الزيتون والعز والعلل والقيان المغنيات الجميلات والطيور الصادحات حول قصوره: الزاهر والثريا وغيرهما مما تأتق في بنيانه. لقد تحولت كل هذه المباحج التي نعم بها المعتمد في إشبيلية إلى متاعس في أغمات، وحانت منه التفاتة فرأى قمرية تنوح بفننها وأمامها وكر أوعش به حمامتان، وكأنها تبكي أليفها فقال:

بَكَتْ أَنْ رَأَتْ إِلْفَيْنِ صَمَّهَما وَكُرُّ مَسَاءٌ وَقَدْ أَخْنَى عَلَى إِلْفِهَا الدَّهْرُ
بَكَتْ لَمْ تَرْقِ دَمْعًا وَأَسْبَلْتُ عَبْرَةً يُقْصِرُ عَنْهَا الْقَطْرُ مَهْمَا هَمَى الْقَطْرُ
وَنَاحَتْ وَبَاحَتْ وَاسْتَرَا حَتْ بِسَرِّهَا وَمَا نَطَقْتُ حَرْفًا يَبُوحُ بِهِ سِرُّ
فَمَا لِيَ لَا أَبْكِي؟ أُمُّ الْقَلْبُ صَخْرَةٌ وَكَمْ صَخْرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَجْرِي بِهَا نَهْرُ
بَكَتْ وَاحِدًا لَمْ يُشْجِهَا غَيْرُ فَقْدِهِ وَأَبْكِي لِأَلْفٍ عَدِيدِهِمْ كَثْرُ

وهو يقول إن القمرية بكت حين رأت إلفين في وكر، بينما هي فقدت إلفها، فهي تبكيه بدمع مترقق في جفونها لا يبلغ تعبيره في الحزن والشجا القطر مهما همى وسال. ويقول كأنما نواحها أراحها من سرها الدفين سر حزنها على إلفها الذي فقدته، ويخاطب نفسه لماذا لا أبكي؟ هل أنا صخرة؟ ومع ذلك فالصخر تتشقق منه - وتجري به - الأنهار والمياه الغزيرة، ولقد بكت واحدا شجاها وأحزنها فقده، وحرى بي أن أبكي الألفي وخلائي الذين يخطئهم العد. ويمر به سرب قطا فيهبج وجده ويحرك شوقه، ويتمنى لو كان مثله حرا ينطلق كما شاء، ويدعو له منشدا:

أَلَا عَصَمَ اللَّهُ الْقَطَا فِي فِرَاحِهَا فَإِنَّ فِرَاحِي خَانِهَا الْمَاءُ وَالظَّلُّ

فهو يدعو لكل قطاة أن يعصمها الله في فراحها فلا تصاب بظماً ولا بمسغبة ولا بعناء كما أصيب أولاده من بنين وبنات. وللمعتمد أشعار أخرى كثيرة تصور لوعته لفقده ملكه وحرقة فؤاده على فلذات كبده.

ابن اللبانة^(١)

هو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي الداني، من دانية على البحر المتوسط، إحدى المدن الأندلسية التي كانت مليئة بالعلماء والكتاب والشعراء، وهو منسوب إلى أمه، وكانت امرأة صدق، تشتغل ببيع اللبن، حتى غلب اسمه عليها، ونُسب أولادها إليها، وعُنت به وبتربته، فتقف الآداب العربية وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، فتردد على أمراء الطوائف، وكلهم أعجبوا بشعره. واستقر أخيراً عند المعتمد بن عباد، إذ كان أكثرهم نوالاً، وظل عنده حتى استنزله ابن تاشفين من إمارته، وأخذ بعده ينتقل في البلاد، وزاره بأغيات في منفاه، وعاد إلى الأندلس، وألف كتابه «سقيط الدرر ولقيط الزهر» وتدل نقول ابن سعيد عنه أنه كان في أخبار الشعراء، وحاضر به في المريّة بجنوبي الأندلس على المتوسط - كما يقول ابن الأبار - سنة ٤٨٦ ولا ندرى هل عاد إلى زيارة المعتمد في أغيات أو لم يعد، غير أنه لما توفي رثاه رثاء حاراً. ونراه يلحق بناصر الدولة بمبشر بن سليمان بميورقة، ويبدو أن كلا منها أهدى صاحبه خير ما عنده، أهداه ناصر الدولة الأموال وأهداه ابن اللبانة الأشعار والمدائح البديعة، وما زال ابن اللبانة يعيش في رعايته حتى توفي في الجزيرة سنة ٥٠٧. وضرب ابن اللبانة مثلاً رائعاً في الوفاء للمعتمد بن عباد، فقد بكى دولته مراراً وتكراراً، ومن أروع ما قاله من ذلك دالية، وهو يفتتحها على هذه الشاكلة:

على البهاليل من أبناء عباد^(٢)
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد^(٣)
أساود منهم فيها وآساد^(٤)
وقد خلت قبل حمص أرض بغداد^(٥)
في ضمّ رحلك واجمع فضلة الزاد
خف القطين وجف الزرع بالوادي^(٦)

تبكى السماء بدمع رانح غادي
على الجبال التي هتدت قواعدها
عريسة دخلتها النائبات على
إن يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا
ياضيف أفقر بيت المكرمات فخذ
ويا مؤمل وادبهم لتسكنه

(٣) أوتاد: جبال.

(٤) أساود جمع أسود: الأفعى الكبير. العريسة:

غيل الأسد والآساد.

(٥) حمص: إشبيلية.

(٦) خف القطين: رحل السكان.

(١) انظر في ابن اللبانة وترجمته وشعره الذخيرة

٦٦٦/٣ والقلائد ٢٤٥ والمغرب ٤٠٩/٢ والمعجب

٢٠٨ والمطرب ١٧٨ والخريدة ١٠٧/٢ والتكملة

رقم ٥١١ والقوات ٢٧/٤ والواق بالوفيات

٢٩٧/٤ وبغية الملتبس رقم ٢١٣.

(٢) رانح غادي: راجع ذاهب. البهاليل: السادة.

وهو يقول إن السماء تبكى بسحبها على السادة من بنى عباد الذين كانت الأندلس ترسو بهم كما ترسو الأرض بالجبال وإن قصورهم بإشبيلية لغابة اقتحمتها الكوارث على أسد مفترسة وحيات ضخمة سامة. ويعزى ابن اللبانة نفسه وأهل إشبيلية بأن لهم أسوة في خلع آل عباد بمن خلّعوا قبلهم من الخلفاء العباسيين. ويلتفت إلى من كانوا ينزلون بالمعتمد وآبائه طالين القرى والضيافة، فيقول لهم إن بيت الكرم والجود أغلقت أبوابه، فاستعدوا للرحيل واجمعوا بقايا الزاد إن كانت هناك بقايا، ويقول لمن كانوا يأوون إلى ظلهم رحل السكان وجف الزرع بالوادي الذي كان خصبا مرعا. ويصور مشهد المعتمد وأهله، وقد هبطوا من قصورهم لركوب السفن في نهر إشبيلية الكبير متجهين إلى طنجة وقد تجمع أهلها يودّعونهم، يقول:

نسيتُ إلا غداةَ النهرِ كونَهُمُ	في المنشآت كأمواتٍ بالحدادِ
والناسُ قد ملأوا العُبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزياد ^(١)
حُطَّ القِناعُ فلم تُستَرِ مخدرةٌ	ومُرِّقَتِ أوجُهُ تمزيقِ أبراد ^(٢)
حانَ الوداعُ فضجَّتْ كل صارخةٍ	وصارخٍ مِنْ مَفْدَاةٍ ومن فادى
سارتْ سفائنُهُم والنُّوحُ يصحبُها	كأنها إبلٌ يَحْدُو بها الحادى
كم سال في الماء من دَمْعٍ وكم حملتْ	تلك القطائعُ من قِطَعَاتِ أكباد ^(٣)

يقول إننى مهما نسيت فلن أنس رحيل المعتمد وآله في السفن، وكأنها مقابر نزلوها والناس قد ملأوا الشاطئين متعجبين لتلك اللآلئ من النساء تطفو على الماء فوق زبده ولا ترسب في القاع. ويقول إنهن سرن من قصورهن سافرات لحزنهن يلطنن ويخمشن وجوههن بأظافرهن لفجيعتهن. وضج الرجال والنساء على الشاطئين، وضج من في السفن وضج المفدون الملوحدون لهم بأيديهم، وسارت السفن يصحبها الندب والنواح كما يصحب الحداء الإبل السائرة في الصحراء، وكم سال في ماء الوادي الكبير من دمع وكم حملت تلك السفن من فلذات أكباد. والمرثية طويلة. ووفد ابن اللبانة على المعتمد في أغيات - كما يقول ابن بسام - وفادة وفاء لا وفادة استجداء، وانقطع إليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد، ويقول إنه مدحه للوفاء بأحسن مما مدحه به للعطاء، وبذلك ملأ قلوب العرب في كل مكان - إلى اليوم - عطفًا على المعتمد. وكأنما غسل بدموعه عليه

(٣) القطائع مثل المنشآت: السفن.

(١) العبرين: الشاطئين.

(٢) المخدرة: السيدة ملازمة الخدر أو البيت.

سيئات حكمه من أدائه الجزية للملك النصراني في الشمال ومحاربه لجيرانه من الأمراء المسلمين أبناء دينه وإنفاقه الأموال بسخاء على مجونه وملذاته كأنه يملك خزائن قارون ثم موقفه بأخرة من ابن تاشفين بطل الزلاقة منذ سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة، إذ استنجد ضده بألفونس السادس عدو الإسلام والمسلمين. كل هذه السيئات استطاع ابن اللبانة أن يحو دنسها عن المعتمد بعويله وتفجعه الملتاع على دولته. وكما كان ابن اللبانة شاعراً كبيراً كان وشاحاً كبيراً أيضاً، وله موشحات كثيرة مدح بها المعتمد بن عباد، وهو أحد أربعة من وشاحي الأندلس أدار عليهم ابن سناء الملك اختياراته من موشحات الأندلسيين في كتابه «دار الطراز»

ابن عبدون^(١)

هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهرى اليابرى، من يابرة غربى بطليوس، عُنى أبوه بتربيته، وطمحت نفسه إلى التلمذة على أعلام العربية من مثل الأعلام الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وعيد الملك بن سراج المتوفى سنة ٤٨٦ وأبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤. وفي الصلة لابن بشكوال أنه كان عالماً بالخبر والأثر ومعانى الحديث وأن الناس أخذوا عنه. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، فمدح المتوكل عمر بن مظفر أمير بطليوس وكان كاتباً شاعراً مع شجاعة وفروسية، وكان مثل أبيه ملاذاً لأهل الأدب والشعر، وكانت إمارته تشمل مدن يابرة وشنترين وأشبونه إلى المحيط. وأعجب المتوكل بالشاعر الشاب الناشئ في إمارته، ونفاجاً بوفود الشاعر على المعتمد ومديحه، ولم يجد لديه قبولاً لما كان بينه وبين المتوكل أمير بلده، فرجأ ظن أنه أرسله عيّناً عليه، ولو كان يعرفه ويعرف خلقه الكريم ما داخله هذا الظن. وعاد الشاعر من لدنه، فلم يَفِدْ بعد ذلك على أحد من أمراء الطوائف، واستغرقه المتوكل بنوالة وبمودته، إذ اتَّخَذَهُ جليسا ورفيقا له في زيارته لمدن إمارته، وأسبغ عليه من الود حللاً ضافية، جعلته يلهج بمدحهم ويقصر شعره عليه، حتى إذا غاضب المرابطين، وقتلهم وقُتل هو وابناه: الفضل والعباس رثاه ورثى دولته برائية مشهورة سنعرض لها عما قليل. ونراه يعلن بعد ذلك في شعره أنه لن يقدمه إلى أمير، وكأنما مات

٤٠٧ والمطرب ص ١٨٠ والمعجب للمراكشى ص ١٢٨، ١٤١، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٧ والفوات ١٩/٢ والنفع فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس).

(١) انظر فى ابن عبدون وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٨/٢ والقلاند ١٤٥ والمغرب ٣٧٤/١ والخريدة ١٠٣/٢ والصلة رقم ٨٣١ والتكملة:

الأمراء جميعاً في شخص المتوكل ومات معهم المديح. ويقول صاحب المعجب إنه كان يكتب للمتوكل أمير بطليوس ثم يقول إنه كتب بعد ذلك للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين الذي ولى إشبيلية بعد استئصال المعتمد منها مدة طويلة، ويذكر له رسالة كتب بها عنه إلى سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين بفتح مدينة شنترين، ويقول المراكشي إن ابن عبدون كتب ليوسف بن تاشفين أولابنه لا يدري والصحيح أنه إنما كتب لابنه على بعد سير بن أبي بكر، ويؤكد ذلك قول المراكشي في موضع آخر: «لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك» ثم يعددهم ويذكر من بينهم أبا محمد عبد المجيد بن عبدون. ويبدو أنه ظل كاتباً عنده إلى آخر حياته إذ يقول صاحب الصلة إنه انصرف إلى يابرة لزيارة من له بها، فتوفي فيها سنة ٥٢٩ للهجرة. ويشيد ابن بسام والفتح بن خاقان وكل من ترجوا له بأشعاره، وخاصة برائيته التي رثى فيها دولة المتوكل ببطلينوس وقد نالت شهرة واسعة مما جعل كثيرين ممن ترجوا له ينشدونها في ترجمته، وعنى بشرحها عبد الملك بن عبد الله الشلبي من أدباء القرن السابع الهجري فشرحها. ونشرها مع شرحها دوزي ثم طبعت مع الشرح بالقاهرة، وهو فيها يسوق العبرة بمن ماتوا واندثروا من عطاء الأمم وحكامها الكبار ودولها الغابرة وحيواناتها الفاتكة وطيورها الجارحة، يقول ابن بسام: «اقتفى فيها أبو محمد أثر فحول القدماء من ضربهم الأمثال في التأين والرثاء بالملوك الأعزة وبالوعول المتنعة في قُلل الجبال والأسود الخادرة^(١) في الغياض وبالنسور والعقبان والحيات في طول الأعمار». ^(٢) وهو يستهلها بقوله:

فما البكاء على الأشباح والصُور
عن نومة بين ناب الليث والظفر^(٣)
من الليالي وخاتنها يد الغير^(٤)
منا جراح وإن زاغت عن النظر
كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر^(٥)

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
أَنْهَاكَ أَنْهَاكَ - لَا أَلَوْكَ مَوْعِظَةً -
مَا لِي لِيَالِي أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَنَا
فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ
تَسُرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغُرَّ بِهِ

(٣) لا ألوك موعظة: لا أقصر في وعظك.

(٤) أقال: تجاوز وصف. الغير: أحداث الدهر.

(٥) الأيم: الأفعى.

(١) الخادرة: الساكنة. الغياض جمع غيضة؛ الأجمة.

(٢) راجع الذخيرة ٨١٨/١.

وهو يتحدث عن الدهر وأنه دائها يرسل فواجهه على المحسوس وما وراء المحسوس، فقيم الحزن على من يموتون، وهم ليسوا إلا أشباحا وصورا، ويقول إننى لا أقصر في وعظك ونهيك عن الاستئامة إلى الدهر، وهو قد أنشأ فيك نابه وظفروه. ويدعو الله أن يُقللنا وينقذنا من عثرات الليالى وأن يسلط عليها الأحداث حتى تهكها ولا تبقى فيها بقية، إذ في كل حين تصيبنا في عضو منا عزيز علينا بجراح، منها ما نراه، ومنها ما يزيغ عن البصر، وإنها إن سرّت بشيء - وهيهات - فلكى تخدعنا به، بل لكى تلسعنا من خلاله اللسعة القاضية، كالأفعى المختبئة في الزهر تلسع يد قاطفه اللسعة السامة المميتة. ويأخذ في العظة بذكر من أبادتهم الليالى والأيام من الدول العظيمة منشدا:

كم دولةٍ وَلِيَتْ بالنُّصْر خِدْمَتَهَا	لم تَبْقَ منها - وَسَلَّ دُنْيَاكَ - من خَبَر
هَوَتْ بِدَارَا وَفَلَتْ غَرْبَ قَاتِلِهِ	وكان عَضْبًا على الأَمْلَاكِ ذَا أَثَرٍ ^(١)
واسترجعت من بنى ساسانَ ما وَهَبَتْ	ولم تَدْعُ لِبْنَى يُونَانَ من أَثَرٍ
وَأَتَبَعَتْ أَخْتَهَا طُسَمًا وَعَادَ على	عَادٍ وَجَرَّهُمْ منها نَاقِضُ المَرَرِ ^(٢)
ومَزَقَتْ سَبَأً فى كل قَاصِيَةٍ	فما التَقَى رَائحُ منهم بِمَبْتَكِرٍ ^(٣)

وهو يقول: دول كثيرة أتاحت لليالى لها الظفر والرفعة، ثم عادت فهوت بها من حالق، هوت بدارا ملك الفرس، فقتله الإسكندر المقدوني، ولم تلبث أن هَدَّتْ منه، وكان سيفا قاطعا ساطعا فنلّمته وحطمته. وقد استرجعت من بنى ساسان ملوك الفرس كل ما وهبتهم من عز ومجد، ولم تدع لليونانيين شعب الإسكندر من أثر كأن لم يكونوا شيئا مذكورا. وبالمثل صنعت بقبيلتي طسم وأختها جديس في اليامة، وكرّ الدهر على عاد وجرحهم نكباته حتى محاهما محوا، ومزقت الليالى سبأ كل ممزق، ففترق أهلها في الأرض ولم يلتق منهم رائح بغاد مبكر. ويمضى ابن عبدون في الحديث عنم أهلكتهم الليالى من أعظم العرب في الجاهلية والإسلام مشيرا معهم إلى كثير من الأحداث في العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصرين الأموى والعباسى مما يدل بوضوح على اتساع ثقافته وكيف يتحول التاريخ إلى شعر وفن، ثم يخاطب المتوكل عمر وآباءه بنى المظفر أمراء بطليوس:

بنى المظفّر والأَيَّامُ ما بَرَحَتْ	مراحلاً والوَرَى منها على سَفَرٍ
سُحْقًا ليومكم يوما ولا حَمَلَتْ	بمثله ليلةً فى مُقْبِلِ العُمُرِ

(٣) مبتكر: مبكر في الذهاب ضد رائح: راجع.

(١) العضب: السيف القاطع. أثر: فرندوروق.

(٢) المر جمع مرة: القوة. ناقض المر: الدهر.

مَنْ لِلْأَسْرِ أَوْ مِنَ الْأَعْنَةِ أَوْ
وَيَحَ السَّامِحَ وَيُوحَ الْبَاسَ لَوْ سَلِمَا
مِنْ لَأَسْنَةُ يُهْدِيهَا إِلَى الثُّغْرِ^(١)
وَاحْشِرَةَ الدِّينِ وَالْدُنْيَا عَلَى عُمَرِ

وهو يقول لبني المظفر بعد أن عدد لهم ما أبادته الليالي من الدول والعظماء تلك هي الأيام مراحل، وما أشبه الناس فيها بقوافل راحلة إلى عالم الموت والفناء، ويقول: سحقا وبعدا لليوم الذي زالت فيه دولتكم ولا حملت بمثله ليلة تعسة من الليالي. ويبيكهم لعرش بطليوس وخيلها العادية وسيوفها الباترة، ويتوجع للساح وللشجاعة، ويتحسر على ما خسر الدين من جهاد المتوكل للأعداء وخسرت الدنيا من مجده وأبهة إمارته. والمرثية تعد من فرائد الشعر الأندلسي، بل الشعر العربي بعامه، وبدون ريب يُعدّ ابن عبدون من أفذاذ الشعراء الأندلسيين.

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

(أ) شعراء الزهد

الزهد من جوهر الدين الحنيف ومنذ عصر الرسول ﷺ تتألق أسماء زهاد كثيرين، زهدوا في متاع الحياة الدنيا، مؤثرين عليه ما عند الله من متاع الآخرة، مع وصلهم زهدهم بالعمل والكسب، حتى لا يعيشوا عالة على المجتمع. وتلقانا - على مر التاريخ - طوائف من هؤلاء الزهاد، وكثيرون منهم استحال زهدهم - على ألسنتهم - إلى مواظ وأشعار كثيرة. وشركهم في أشعارهم الزاهدة كثيرون من علماء التفسير والفقه والحديث النبوي وعلماء العربية، فضلا عن الشعراء الذين طالما حانت منهم التفاتات إلى مصيرهم وما ينتظرهم من الموت. ومن أجل ذلك كله أصبح الزهد غرضا كبيرا من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل بلد عربي، وتلقانا منه سيول كثيرة في الأندلس، ولن نستطيع أن نعرض منها إلا شيئا يسيرا وخاصة ما جاء على ألسنة الزهاد الحقيقيين الذين قصرُوا حياتهم - أو شطرا كبيرا منها - على النسك والعبادة. وأول من تذكره من هؤلاء الزهاد أبو وهب^(٢) عبد الرحمن العباسي القرطبي المتوفى سنة ٣٤٤ لعهد عبد الرحمن الناصر،

(١) الثغر: جمع ثغرة: أعلى الصدر. يريد: طعنه
(٢) انظر في أبي وهب وترجمته وشعره المغرب
٥٨/١ والتكملة ص ٧١٨ والنفع ٢٠٧/٣، ٢٢٦.

ويقول ابن بشكوال: كان منقطع القرين في الزهد والورع، ويذكر ابن سعيد أنه كان لا يكلم - ولا يجالس - أحدا، وكان أكثر دهره مفكرا وجهه على ركبته، ومن شعره:

أنا في حالتي - التي قد تراني إن تأملت - أحسن الناس حالا
منزلي حيث شئت من مستقر الـ أرض أسقى من المياه زلالا^(١)
ليس لي كسوة أخاف عليها من مُغير ولا ترى لي مالا
أجعل الساعد اليمين وسادي ثم أثنى - إذا انقلبت - الشمالا

وهو لا يملك منزلا يقيه البرد وينام فيه ليلا ولا ثوبا غير الثوب الذي يستر جسده ولا مالا يكتنزه، ويرى نفسه بذلك أسعد الناس لأنه لا يملك شيئا يخاف عليه من مغير أو ناهب، وحسبه جرعات من ماء عذب، وإذا نام اتخذ يمينه وساده، فإن تعب ثنى الشمال وسادا. ويقول ابن سعيد: كان إذا أصبح ونظر إلى استيلاء النور على الظلمة رفع يديه إلى السماء قائلا: اللهم إنك أمرتنا بالدعاء إذا أسفرنا^(٢)، فاستجب لنا كما وعدتنا، اللهم لا تسلط علينا في هذا اليوم من لا يراقب رضاك ولا سخطك، اللهم لا تشغلنا فيه بغيرك، اللهم لا تجعل رزقنا فيه على يد سواك، اللهم امح من قلوبنا الطمع في هذه الفانية كما محوت بهذا النور هذه الظلمة، اللهم إنا لا نعرف غيرك فنسأله، يا أرحم الراحمين، يا غياث من لا غياث له. ومن قوله:

تنام وقد أعد لك السهاد وتوقن بالرحيل وليس زاد
وتصبح مثل ما تسمى مُضيعة كأنك لست تدري ما المراد
أتطمع أن تفوز غدا هنيئا ولم يك منك في الدنيا اجتهاد
إذا فرطت في تقديم زرع فكيف يكون من عدم حصاد

وهو يقول مخاطبا: كيف تنام وقد هُيئ لك سهاد، كي تعبد الله حق عبادته، وكيف توقن بأنك راحل عن دُنياك وأنت لم تهَيِّ لنفسك زادا لرحلتك، وتصبح وتسمى لا تدري من أمرك شيئا فكيف تطمع في الفوز بقبول الله لك ورضاه عنك وأنت لم تؤد حقه من العبادة والنسك، وهل يمكن لشخص قَصُر في رعاية زرعهِ أن يحصد منه شيئا. ونلتقي في عصر أمراء الطوائف بأبي إسحق الإلبيري، وسنخصه بكلمة، وكان يعاصره الطَّيْطَل^(٣)

٧٩٧/٢ والجذوة ٢٩٤ والبغية رقم ١٢١٢ والذيل

والتكملة لابن عبد الملك المراكشي القسم الأول

من الجزء الخامس ص ١٩٥.

(١) زلالا: عذبا.

(٢) أسفرنا: أصبحنا.

(٣) انظر في الطيطل وترجمته وشعره الذخيرة

على بن إسماعيل الفهرى القرشى الأشبوني، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى، قرأ العلم بقرطبة ودرس على طائفة من علمائها وأكثر من حفظ الآداب والأشعار، وكان من الأدباء النبلاء والشعراء المحسنين سمح القريحة، مشاركاً في الحديث والفقه، أمضى في ذلك صدرا من عمره، ثم مال إلى النسك والتقشف ونظم في معانيهما أشعارا رائقة وضروبا من الحكم تناقلها الناس وحفظوها عنه. واتخذ لنفسه رابطة^(١) في رقعة من بستان له على بحيرة شقبان عُرِفَتْ برابطة الطَّيْطَل ولزم بها العبادة والنسك إلى أن توفى. ويقول ابن بسام: إن أهل أوانه كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه، ويذكر إنه نظم الدرّ المفصل في الزهد، ومن نظمه:

إِذَا سُدَّ بَابُ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ فَدَعُهُ لِأُخْرَى يَنْفَتَحُ لَكَ بِأُهَا
فَإِنَّ جِرَابَ الْبَطْنِ يَكْفِيكَ مَلْؤُهُ وَيَكْفِيكَ سَوَاءُ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا^(٢)
وَلَاتِكَ مَبْدَالًا لِعَرْضِكَ وَاجْتِنَبْ رُكُوبَ الْمَعَاصِي يَجْتَنِبُكَ عِقَابُهَا

وهو يوصى صاحبه بأن لا ييأس أبدا، فإذا سُدَّ عنه باب في الرزق فليتركه إلى باب آخر ينفتح له، وليكفه كفاف القوت فإن وعاء البطن حسبه أن يمتلئ، وما زاد عن ذلك لا يحتاجه الإنسان، وليغنه عن الأمور السيئة أن يجتنبها، حتى لا يعرض نفسه لعقاب، وليصنَّ عرضه وشرفه ويجتنب المعاصي حتى لا تصيبه أى عقوبة. ويقول:

الْمَوْتُ يَرْعَاكَ كُلَّ حِينٍ فَكَيْفَ لَمْ يَجْفُكَ الْمِهَادُ
مَا حَالُ سَفَرٍ بغيرِ زَادٍ وَالْأَرْضُ قَفَرٌ وَلَا مَرَادُ^(٣)
فَابْنِ بِهَا لِلتَّقَى بُرُوجًا تَأْمُنُ إِذَا رُوعَ الْعِبَادُ

وهو يقول إن جرس الموت يدق في كل حين، فكيف لا تُحْيِي الليل بالعبادة، وإنك لراحل مسافر إلى ربك، وهل يستطيع مسافر أن يسافر بغير مئونة وزاد، إنه يكون أشبه بمن يسافر في صحراء مجدبة ولا مرعى ولا قوت، فاتخذِ التقى والورع عُدَّتَكَ تأمن حين يعصف بك الموت الذى لا بد منه للعباد. وله وصف دقيق للنملة يصور فيها خصرها الضامر، وكأنما آخرها قطرة من قطران أو حبر أسود، تحمل قوتها مدخرة له مهتدية في ظلمة الليل إلى خرق كثقب الإبرة، لا يسمع لها أحد حركة، مسبحة ربها، وسبحانه العالم وحده بتسبيحها.

(٣) مراد بفتح الميم: مرعى.

(١) الرابطة: بيت للعبادة.

(٢) الجراب: وعاء الزاد.

وَوُلِدَ فِي عَصْرِ الطَّوَائِفِ سَنَةِ ٤٤٠ بَكَار^(١) بَنِ دَاوُدَ الْمُرَوَّانِي، وَلَحِقَ عَصْرَ الْمُرَابِطِينَ وَعَاشَ فِيهِ فِتْرَةً غَيْرَ قَصِيرَةٍ، مَوْلَدُهُ فِي شَنْتَرَةٍ مِنْ بِلْدَانِ أَشْبُونَةَ بِغَرْبِ الْأَنْدَلُسِ، دَرَسَ فِي قَرْطَبَةِ ثَمَّ اسْتَوطنَ أَشْبُونَةَ. وَيُرَوَّى ابْنُ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْإِمَامِ صَاحِبِ سَفْطِ اللَّالِي فِي أَخْبَارِ شَعْرَاءِ عَصْرِهِ الْمُتَوَفَى بَعْدَ سَنَةِ ٥٥٠ أَنَّهُ لَقِيَهُ وَكَانَ غَايَةً فِي الزَّهْدِ مَطْرَحًا لِنَفْسِهِ وَاسْتَشْهَدَ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَيَقُولُ إِنَّهُ اسْتَشْهَدَهُ مِنْ شَعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ:

يَقُ بِالَّذِي سَوَّاكَ مِنْ عَدَمٍ فَإِنَّكَ مِنْ عَدَمٍ
وَأَنْظُرْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ قَرِّ عِ السَّنِّ مِنْ فَرَطِ النَّدَمِ
وَاحْذَرْ - وَقِيْتُ - مِنَ الْوَرَى وَاصْحَبْهُمْ أَعْمَى أَصَمٍ
قَدْ كُنْتُ فِي تَيْهِهِ إِلَى أَنْ لَاحَ لِي أَهْدَى عِلْمٍ
فَاقْتَدْتُ نَحْوَ ضِيَائِهِ حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الظُّلَمِ

وهو يقول: ضع ثقتك في الله الذي سَوَّاكَ وخلقك من عدم، وفكر في نفسك وما ينبغي أن تنهض به من عبادته قبل أن تعض على أصابعك نادماً على ما فرطت في جنب خالقك. واحذر الناس واصحبهم كأنك لا تراهم ولا تسمعهم. ويقول إنه كان في تيه ضلال وظلام حالك إلى أن لاح علم الهدى فاهتدى بضياؤه. ومن الزهاد لعصر الموحدين أبو الحجاج يوسف^(٢) المَنْصَفِيُّ، مِنْ قَرْيَةِ الْمَنْصَفِ مِنْ قَرْيِ بَلَنْسِيَةِ فِي شَرْقِي الْأَنْدَلُسِ، وَيَقُولُ الْمَقْرِي: كَانَ صَالِحًا وَلَهُ رَحْلَةٌ حَجٌّ فِيهَا، وَمَالَ إِلَى عِلْمِ التَّصَوُّفِ، وَلَهُ أَشْعَارٌ حُمِلَتْ عَنْهُ، مِنْهَا قَوْلُهُ:

قَالَتْ لِي النَّفْسُ: أَتَاكَ الرَّدَى وَأَنْتَ فِي بَحْرِ الْخَطَايَا مُقِيمٌ^(٣)
هَلَا اتَّخَذْتَ الزَّادَ قَلْتَ: أَقْصِرِي هَلْ يُحْمَلُ الزَّادُ لِدَارِ الْكَرِيمِ

فَنَفْسُهُ قَالَتْ لَهُ: أَتَاكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ غَارِقٌ فِي الذُّنُوبِ فَهَلَا اتَّخَذْتَ زَادًا لِلْمَعَادِ؟ فَقَالَ لَهَا إِنَّ الزَّادَ لَا يَحْمَلُ لِدَارِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ. وَمِنْ طَرِيفٍ مَا قِيلَ حِينَئِذٍ فِي الزَّهْدِ وَالِدَعْوَةِ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ قَوْلُ الْفِيلَسُوفِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ طَفِيلٍ^(٤):

يَا بَاكِيًا فُرْقَةً الْأَحْبَابِ عَنْ شَحَطٍ هَلَا بِكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ^(٥)

(٣) الردى: الموت.

(٤) المعجب للمراكشي ص ٣١٣.

(٥) شحط: بعد.

(١) راجع في بكار وترجمته وشعره المغرب ١/٤٦٥ والنفع ٣/٣٣٤.

(٢) انظر في أبي الحجاج المنصفي وترجمته وشعره المغرب ٢/٣٥٤ والتحقفة رقم ٣٧ والنفع ٣/٣٣٦.

نورٌ تردَّدَ في طينٍ إلى أجلٍ فانحاز عُلُوًّا وخَلَى الطينَ للكَفَنِ
 ياشدُّ ما افترقا من بعدما اعتلَّقَا أَظْنَهَا هُدْنَةً كانت على دَخَنِ^(١)
 إن لم يكن في رضا الله اجتماعهما فيالها صَفْقَةٌ تَمَّتْ على غَبَنِ^(٢)

وهو يقول لمن يبكي على أحبابه حين يختطفهم الموت أتبكي لفراقهم ولا تبكي لما ينتظرك من فراق الروح للبدن، وكأنما كانت الروح نوراً تردد وقتاً في طين الجسد، ثم تسامى عنه عُلُوًّا وخَلَا للكَفَنِ، وإنها لفرقة شديدة بعد امتزاجها طول الحياة، وكأنما كانت بينها هدنة غير صافية، ويقول إن اجتماعها وامتزاجها إن لم يكن في رضا الله كان صفقة أو بيعة خاسرة.

وتكاثر الزهاد لعهد يعقوب الموحدى وكوّن منهم فرقة كبيرة جعلها بمقدمة جيشه في غزوة الأَرَك المشهورة لسنة ٥٩١ وكان يشير إليهم في الغزوة. ويقول: هؤلاء هم الجند، لا أولئك ويشير إلى العسكر. ويقول صاحب المعجب إنه حين رجع من المعركة أمر هؤلاء الزهاد الصالحين بأموال عظيمة، ومنهم من رأى قبول العطية، ومنهم من ردّها، وتساوى عنده الفريقان وقال: لكل مذهب^(٣). ومن كبار الزهاد حينئذ أبو عمران^(٤) موسى بن عمران المارتنلى وهو من مأزلة، حصن من حصون باجة، وعنه قال ابن الأبار في التكملة: كان منقطع القرين في الورع والزهد والعبادة والعزلة، وله في ذلك آثار معروفة مع الحظ الوافر من الأدب والتقدم في قرض الشعر في الزهد والتخويف، وكان ملازماً لمسجده بإشبيلية، توفي سنة ٦٠٤ عن اثنتين وثمانين سنة، ومن شعره:

إلى كم أقول ولا أفعلُ وكم ذا أحومُ ولا أنزلُ
 وأزجرُ عيني فلا ترعوى وأنصحُ نفسي فلا تقبلُ
 وكم ذا أوملُ طولَ البقا وأغفلُ والموت لا يغفلُ
 وفي كل يوم يُنادى بنا مُنادى الرّحيلِ ألا فارحلوا
 كأن بى وشيكاً إلى مَصْرعى يُساق بنعشى ولا أمهلُ

وهو يتلوم نفسه فكم ينوى الخير ولا يفعل وكم يروم العمل الطيب ولا يعمل، وكم يزجر عينه أن لا تنظر إلى المحرمات ولا تزدرج، وكم ينصح نفسه أن ترعوى

(٤) انظر في ترجمة أبي عمران المارتنلى المغرب ٤٠٦/١ والنفع ٢٢٥/٣، ٢٩٦ والتكملة ص ٤٥٧ وتحفة القادم رقم ٥٨ والفصون الياقة ص ١٣٥.

(١) هدنة على دخن: هدنة على فساد وعدم صفاء.

(٢) الغبن في البيع: الوكس والخسارة.

(٣) المعجب للمراكشى ص ٣١٣.

ولا تنتصح، وكم يؤمل في البقاء غافلاً عن الموت والموت لا يغفل، وكأنه لا يسمع منادى الرحيل، مع أنه قريباً سيرحل، ويحمل في نعشه ولا يهمل.

ومنذ عصر المرابطين نجد كثرة الزهاد تتحول إلى التصوف وعالمه، وتظل أسراب شعر الزهد الذي كان يجري على ألسنة العلماء والشعراء تنطلق في مجراها الذي بدأت مسيرتها فيه منذ عصر الدولة الأموية، من ذلك قول حازم القرطاجني^(١):

لَمْ يَدْرِ مَنْ ظَنَّ الْحَيَاةَ إِقَامَةً أَنْ الْحَيَاةَ تَنْقَلُ وَتَرْجُلُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْطَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُنْيَاهُ مَرَحَلَةً وَيَدْنُو الْمَنْهَلُ
يَحْطِي السَّعِيدُ بِهِ بِطُولِ سَعَادَةٍ وَأَخُو الشَّقَاوَةِ لِلشَّقَاوَةِ يُنْقَلُ
لَا تَبْكُ إِشْفَاقًا لِمَا اسْتَدْبَرَتْهُ وَلَتَبْكُ إِشْفَاقًا لِمَا تَسْتَقْبَلُ

وهو يقول: من الخطأ أن يظن الإنسان أن الحياة دار إقامة، فإنها دار تنقل وارتحال، في كل يوم يقطع الإنسان فيها مرحلة من حياته إلى أن تكون المرحلة الأخيرة، وينتقل إلى حياته الثانية فينتقل إما إلى سعادة ونعيم وإما إلى شقاوة وجحيم، ومن عجب أن يبكي المرء إشفاقاً على ما خلف منها وراء ظهره وحقه أن يبكي إشفاقاً على ما يستقبله في آخرته من مصير غير معروف: شقى أو سعيد. ويقول ابن خاتمة متشبهاً بعفو الله ورحمته في أول قصيدة بديوانه:

لَقَدْ فَتَحَ الرَّحْمَنُ أَبْوَابَ عَفْوِهِ لِمَنْ رَاجَعَ الذِّكْرَى وَأَقْبَلَ خَاشِياً
إِلَهِي لَا تَفْضَحْ عُوَارًا سَتَرْتَهُ فَمَا لِي مَأْمُولٌ سِوَاكَ إِلَهِيَا^(٢)
هَلَكْتُ رَدَى إِنْ لَمْ أَنْلُ مِنْكَ رَحْمَةً تَبْعُدُ رَوْعَاتِي وَتُدْنِي أَمَانِيَا
لَعَلَّ الَّذِي قَامَ الْوُجُودُ بِجُودِهِ يُعِيدُ بِحُسْنِ اللَّطْفِ حَالِي حَالِيَا^(٣)

وهو يقول إن الله - جل شأنه - فتح أبواب عفوه على مصاريعها لمن راجع نفسه وأقبل خاشياً منيباً، ويدعو الله أن يستر عيوبه ويرحمه رحمته الواسعة، ويرجوه بجوده الفياض على الوجود أن يعيد حاله حالياً مزداناً. ويستغيث لسان الدين بن الخطيب بربه منشداً^(٤):

(٣) حالياً: مزداناً.
(٤) أزهار الرياض ٢٧١/١.

(١) الديوان ص ٩٧.
(٢) العوار: العيب.

وَجَمْعٌ إِذَا مَا الْخَلْقُ قَدْ نَزَلُوا جَمْعًا^(١)
 إِذَا مَا أَسَالَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِكَ الدَّمَعَا
 وَأَنْجَحْ دُعَائِي فَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ يُدْعَى^(٢)
 أَقْلُ عَثْرَتِي يَا مَأْمُولِي وَاجْبُرِ الصَّدْعَا^(٣)

إِلَهِي بِالْبَيْتِ الْمَقْدَسِ وَالْمَسْعَى
 وَبِالْمَوْقِفِ الْمَشْهُودِ - يَارَبِّ - فِي مَنِي
 وَبِالْمَصْطَفَى وَالصَّخْبِ عَجَلْ إِقَالَتِي
 صَدَعْتُ وَأَنْتَ الْمُسْتَغَاثُ جَنَابُهُ

وهو يتوسَّل إلى الله بمقدساته: بيت القدس والمسعى بين الصفا والمروة في الحج وجمع أو المزدلفة مجتمع الحاج، وبوقفهم في مَنِيَّ متبتلين إلى ربهم، وبالرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه أن يتجاوز عن سيئاته وأن يقبل منه دعاءه، فقد جهر بذنوبه ولاذ بجنابه، وإنه ليستغيث به ضارعًا إليه أن يُقبله من عثرته ويجبر الصدع أو الشقَّ البين في أعماله. وحرئى بنا أن نتحدث عن الزاهد الكبير الإلبيري.

أبو إسحق^(٤) الإلبيري

هو أبو إسحق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، من أهل حصن العقاب بالقرب من البيرة، ولزم في نشأته فقيها ومحدثها ابن أبي زمنين المتخلف بأخلاق الصالحين المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول بعض من ترجوا له إنه كان من البكَّائين الورعين الخاشعين، ويقول ابن الأبار في التكملة إن أبا إسحق روى مصنفاته عنه مما قد يدل على أنه جلس بمجلسه لإفادة الطلاب في البيرة. وخرَّبَت سريعًا في عهد زاوي بن زيري الذي اتخذ غرناطة دار إمارة له (٤٠٣ - ٤١٠ هـ) مما جعل كثرة أهلها تهاجر إلى غرناطة، وهاجر إليها أبو إسحق، غير أنا لا نعرف تاريخ هجرته إليها بالضبط، ونظن ظنا أنه ظل بها يروى لطلاب العلم كتب أستاذه ابن أبي زمنين. ونرى أبا الحسن علي بن محمد بن توبة حين يتولى القضاء لباديس بن حبوس أمير غرناطة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) يتخذ أبا إسحق كاتبًا له. واصطحبه معه إلى المرية حين طلب إليه باديس حمل رسالة إلى أحمد بن عباس وزير

لأبن الأبار (البقية المطبوعة) ص ١٦٧ والمغرب ١٣٢/٢ وفهرسة ابن خير ٤١٨. وقد نشر الديوان في مدريد غرسية غومس وأعاد نشره وتحقيقه مع كتابة مقدمة له الدكتور محمد رضوان الداية (طبع دمشق).

(١) جمع: المزدلفة.
 (٢) الإقالة للشخص: العفو عنه والصفح والإعفاء.
 (٣) صدعت: جهرت. الصدع: الشق والكسر.
 (٤) انظر في أبي إسحق وترجمته وشعره الحميدى في المجذوة والضبي في البقية ص ٢١٠ والتكملة

زهير الصقلي أميرها، مما يدل على حسن منزلته عند القاضي وأنه ظل كاتباً له إلى أن أخذ يحمل بعنف على إسماعيل بن النغيلة اليهودي وزير الأمير باديس لتسلطه - مع من عهد إليهم بالعمل معه من اليهود - على شئون الحكم. واستطاع إسماعيل أن يستصدر أمراً من باديس بنفى أبي إسحق من غرناطة إلى البيرة، وربما عاد حينئذ إلى مسقط رأسه في العقاب. وتوفي إسماعيل بن النغيلة، وخلفه في وزارة باديس ابنه يوسف فزاد الطين بلة، وضع الناس، وكان أبو إسحق قد عاد إلى غرناطة، فألقى في أهلها قصيدة كانت أشبه بقنبلة، طالب فيها بقتل يوسف، وردّها الناس في الشوارع، وسرعان ما نشبت لсте ثورة ضارية على اليهود ألما بها في حديثنا عن الهجاء، وكان أبو إسحق قد بلغ العقد التاسع من عمره فليّ نداء ربه في نحو سنة ٤٦٠ للهجرة. ولم يحمل أبو إسحق عن أستاذه ابن أبي زمنين مصنفاته في الفقه والحديث فقط. بل حمل عنه أيضاً مصنفاته في الوعظ وأخبار الصالحين. ولا يقل عن ذلك كله أهمية حملّه عنه أشعاره الزهدية، مما غرس الزهد في نفسه مبكراً، وأتيحت له ملكة شعرية خصبة، فاستغلها في نظم أشعار زهدية كثيرة، ويقول ابن الأبار: «كان من أهل العلم والعمل شاعراً مجوداً وشعره مدون وكله في الحكم والمواعظ والأزهاد» ويقول ابن سعيد: «له ديوان ملآن من أشعار زهدية، ولأهل الأندلس غرام بحفظها» وهو غرام مرجعه إلى ما تمتاز به زهدياته من لغة ناصعة وخواطر متنوعة تمس القلوب بما تحمل من فيض المشاعر الدينية، وكأنما يستمد من نبع حماسي يتدفق في عذوبة. والديوان يستهل بتائية في مائة بيت وسبعة يفتتحها بقوله:

تَفْتُ فَوَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًا وَتَنَحَّتْ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا
وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ أَلَا يَا صَاحِبَ: أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

ويعضى أبو إسحق في القصيدة بهذه الصياغة والمعاني التي تؤثر في الأفتدة تأثيراً يملك على قارئه وسامعه كل شيء من أمره، فالدنيا عروس غادرة، والعاقل يفصل نفسه منها دون رجعة، وويح الإنسان ينام ويستغرق في نومه حتى إذا وافاه الموت انتبه بعد انخداعه. ويقول إلى كم ينخدع ولا يرعوى، وكان أولى به أن يرفض متاع الحياة الدنيا وكل ما يتصل به من طعام وشراب، فالقوت الحقيقي هو قوت الروح، وحرى به أن لا يحفل بجاه ولا ببال ولا بقصور مشيدة. ولن يضره الفقر إذا ما عرف ربه، ويقول: ما الدنيا إنها تسوء حقبة وتسروقتاً، ويحبها الإنسان مع أنه مسجون فيها وهل يحب أحد سجنه، ولا يفره طعامه فيها فستأكله حطاماً، وكل يوم يشهد فيها دفيناً، وهو لم يخلق ليعمرها،

إنما خلق ليعبرها، وحرى به أن لا يحزن على ما فات منها وأن يفرح لما فاز به في أخراه، وينصحه أن يلزم قرع باب الله فسُفِّتَحَ له يوماً، وينشد:

فلو بكتِ الدُّمَّا عَيْنَاكَ خَوْفًا لَدَنِّكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنَّا
وَمِنْ لَكَ بِالْأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ أَمِرْتُ فَمَا ائْتَمَرْتَ وَلَا أَطَعْنَا
وَتُشْفِقُ لِلْمَصْرِّ عَلَى الْمَعَاصِي وَتَرْحُمُهُ، وَنَفْسُكَ مَارِحِمُنَا
تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ فَهَلَّا عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْنَا

فلو أن الإنسان لم يعمل الصالحات الباقيات وبكى وبالج في بكائه حتى بكى دما فإن ذلك لن يتيح له الأمان مادام لم يطع أوامر ربه. ومن عجب أن يشفق الإنسان على عاصي ربه ويرق له قلبه وقلبه لا يرق لنفسه، وعجبٌ عجابٌ أن يفر من حرارة الهاجرة ولا يتخذ العدة للفرار من جهنم ولظاها المشتعل. وفي قصيدة كافية يقول للدنيا: لقد عهدنا الأم تعطف على أبنائها وأنت تعامليننا بكل قسوة ودون أى شفقة، وفرض على الأبناء أن يبروا أمهاتهم إلا أنت، فواجب عقوبتك وبغضك أشد البغض. ودائما ينصح بعمل الخير والإحسان إلى الفقراء ويخوف أشد التخويف من عذاب النار، وله قصيدة: خمسة وثلاثون بيتا ختمها جميعا بكلمة النار وفيها يقول:

وَيْلٌ لِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ
تَنْقُذُ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ كِمِرْجَلٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ

ويستمر قائلا: لا تقبل التوبة في النار، والشقى يفر من النار إلى النار، وويل له من النار، إذ لا راحة له فيها وكيف يرتاح وهو يشرب المهل فيها، ويطعم الزقوم، وتتدافع سيول النار في القصيدة حتى نصل إلى نهايتها فنطلب من الله مع أبى إسحق المعافاة والعق من النار. ومن أروع قصائد الديوان قصيدة من ثلاثة وخمسين بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة على هذا النحو:

يَا أَيُّهَا الْمُغْتَرُّ بِاللَّهِ فَرَّ مِنْ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ
وَلُذِّ بِهِ وَاسْأَلْهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ نَجَا مَنْ لَازَ بِاللَّهِ
وَقَمَّرَ لَهُ وَاللَّيْلُ فِي جُنْحِهِ فَحَبَّذَا مِنْ قَامَ لِلَّهِ
وَأَتْلَى مِنَ الْوَحْيِ لَوْ آيَةً تُكْسَى بِهَا نُورًا مِنَ اللَّهِ
وَعَفَرَ الْوَجْهَ لَهُ سَاجِدًا فَعَزَّ وَجْهَ ذَلَّ لِلَّهِ

وهو يقول: يا أيها الغافل عن ذكر ربه، فرّ من عقابه إلى ثوابه والجا إليه واسأله من فضله تنج من عذاب النار، وتهجد في آناه الليل، واتل من القرآن ولو آية يسبغ الله نورها عليك، ومَرَّ وجهك في العفر ووجه الأرض ساجدا لربك متذللا له، فعز وجهه يتضرع إليه ويخضع وينقاد. وتمضى القصيدة بهذه الروعة في الصياغة، وكل بيت يدل دلالة جديدة، ومعه جوهرة لفظ الجلالة تضىء جوانبه، وتنزل منه منزلا محكما.

(ب) شعراء التصوف

ألمنا في الفصل الأول بنشأة التصوف في الأندلس وأنها ترتبط بمحمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ وكان يجمع في عقيدته بين التصوف على طريقة ذى النون المصرى كما يقول ابن الفرضى وبين آراء المعتزلة في القول بخلق القرآن الكريم وإنفاذ الوعد والوعيد والاستطاعة مع التأويل لبعض آى الذكر الحكيم والأحاديث النبوية.^(١) وقاوم عبد الرحمن الناصر هذه العقيدة، كما مرّ بنا، كما قاومها ابنه الحكم والمنصور بن أبى عامر حاجب ابنه هشام المؤيد، وظلت مكتنة في كثير من الصدور وظل لها أنصار في عهد أمراء الطوائف، ويذكر ابن حزم منهم - كما مرّ في غير هذا الموضع - إسماعيل الرُّعَيْنَى.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أول شاعر صوفي استظهر في وضوح عقيدة التصوف مقترنة بعقيدة الاعتزال هو أبو عمر^(٢) أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيرى الأصولى المتوفى سنة ٤٢٩ للهجرة، ويقول عنه تلميذه أبو المطرف الشعبي الذى روى عنه تأليفه «إنه كان متكلماً دقيق النظر عارفاً بالاعتقادات على مذاهب أهل السنة». ويذكر ابن بسام أن أمر مدينة إلبيرة كان دائراً عليه مع زهده وورعه، بينما يذكر أبو المطرف أنه لقيه بغرناطة وفيها أخذ عنه مصنفاته، وأكبر الظن أنه ظل بإلبيرة حتى خربت بها قبيلة صنهاجة في عهد الزيريين كما مر بنا، فانتقل عنها - مع أكثر سكانها إلى غرناطة. وأشاد ابن بسام بنثره

والغرب ٩٥/٢ والصلة رقم ٨٩ وقد أسنّ تلميذه أبو المطرف عبد الرحمن ابن قاسم الشعبي واشتهر بالعلم والفضل، توفى سنة ٤٩٧. انظر الصلة: ٣٢٩.

(١) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٢٠٢ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان (طبع مدريد) ص ٢٠ وما بعدها.

(٢) انظر في أبى عمر أحمد بن عيسى الإلبيرى وترجمته وشعره الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها.

وشعره وروى له رسالة كتبها سنة ٤١٩ إلى بعض إخوانه وفيها نزعة صوفية واضحة، وسنلم بها في الفصل التالى، وينشد له ابن بسام:

شربتُ بكأسِ الحبِّ من جَوْهرِ الحبِّ رَحِيْقًا بكفِّ العَقْلِ فى رَوْضَةِ الحبِّ
وخامرَ ماءِ الرُّوحِ فاهتَزَّتِ القُوى قُوى النَفْسِ شوقًا وارتياحًا إلى الرُّبِّ
ونادى حَئيْثًا بالأُنينِ حَنيْها إلهى إلهى مَنْ لِعبدِكَ بالقُرْبِ
وخاطبه وحيًّا إليه ملىكه: سأكشِفُ - يا عَبدى لَعينِكَ - عن حُجْبى
فأعلن بالتسبيح: مثلك لم أجِدْ تعاليتَ عن كَفِّ يكافيك أوصَحْبِ

وهو يقول إنه شرب في روضة الحب الإلهى رحيقا مصفى من جوهر الحب امتزج بروحه، فحنت قوى نفسه شوقا إلى مشاهدة ربه، ونادى - وأن في ندائه - متلهفا على قربه من ربه، وتجلّى له الله رافعا ما بينه وبين عبده من حجبه، فسبح بحمده منزها له عن أن يكون له كفاء أو صحب، وكأنه يشير إلى الآيتين: ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ - ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾. والتصوف في الأبيات - كما ذكر تلميذه أبو المطرف - تصوف سنى، فيه إشارة إلى وحدة الشهود، وليس فيه إشارة إلى الاتحاد بالذات العلية الذى يؤمن به أصحاب التصوف الفلسفى. وكان يقرن إلى تصوفه إيمانه بعقيدة الاعتزال في مثل قوله:

يا مُحدِثًا للكلِّ كنتَ ولم تَزَلْ وكذاكَ رَبِّى لا يزالُ بلا مكانٍ
وقوله:

جَلَّتْ صفاتُ جلالِهِ، فجلالُهُ قد جَلَّ عن تَحْديدِ كَيْفٍ وَمَنْ وما

وهو يشير بذلك إلى ما يؤمن به المعتزلة من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فلا يحده مكان ولا زمان ولا تحصره كيفية ولا جوهر ولا عرض، تعالى جلال الله عن ذلك علوا كبيرا.

ويذكر آسين بلاسيوس - ويتابعه بالنتيا - أن مدينة المرية على البحر المتوسط في الجنوب الشرقى للأندلس أصبحت في القرن الخامس الهجرى - بتأثير آراء ابن مسرة - مركزا مهما من مراكز الصوفية القائلين بوحدة الوجود، فظهر فيها محمد بن عيسى الإلبيرى الصوفى وأبو العباس بن العريف^(١)، وما ذكرناه آنفا عن أحمد بن

(١) الوفا التفنازاني (طبع دار الكتاب اللبنانى)
ص ٧٦.

(١) انظر في ذلك بالنتيا ص ٣٢٩ وما بعدها
وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبى

عيسى الإليري المتوفى قبل ابن العريف بأكثر من قرن يدل على أن اسمه حُرِفَ عند بلاسيوس، فأصبح محمدا بدلا من أحمد، ونفس لقبه الإليري يدل بوضوح على أنه ليس من أهل المرية إنما هو من البيرة بجوار غرناطة، وفيها قضى حياته كما مرَّ بنا، وكان من أصحاب التصوف السني بشهادة أشعاره وتلميذه أبي المطرف الشعبي. أما أبو العباس بن العريف المتوفى سنة ٥٣٦ للهجرة فكان من أهل المرية حقا غير أنه لم يكن من أصحاب التصوف الفلسفي على نحو ما سيتضح في ترجمتنا له عما قليل. وكان يعاصره في إشبيلية ابن^(١) برَّجان عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي المتوفى سنة ٥٣٦ وفيه يقول ابن الأبار: «كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقيق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد في العبادة وله تأليف مفيدة، منها تفسير للقرآن لم يكمله وشرح الأسماء الحسنی» وله في التصوف كتاب عين اليقين. وكان يعاصره أبو القاسم^(٢) أحمد بن قسي، ويقول ابن حجر في لسان الميزان إنه رحل إلى ابن العريف في المرية، وعاد إلى موطنه في مارتلة بقرب باجة في غربي الأندلس وكثر أتباعه من المريدين. وحين احتدمت الثورة على المرابطين في أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجري ثار عليهم مع مُريديه وغلب على شلب ولبللة، وكاتب عبد المؤمن سلطان الموحدين ودخل في طاعته وانقلب على واليه، وحاول الاستعانة بالنصارى، وشعر بحركته بعض من معه فقتل سنة ٥٤٦. وينسب ابن حجر إليه - كما ينسب إلى ابن برَّجان - تحريفها لمعاني النصوص القرآنية وتأويلها بخلاف الظاهر، وله كتاب خلع النعلين وشرحه فيها بعد ابن عربي. وكان تصوفه هو وابن برَّجان - مثل تصوف ابن العريف - تصوفا سنيا، إذ لم ينسب إليهم جميعا مترجمهم كلاما في وحدة الوجود. وفي رأينا أن اعتناق بعض المتصوفة الأندلسيين لهذه الوحدة تأخر إلى عصر الموحدين. ومن اعتنقها حينئذ أبو عبدالله الشوذى الإشبيلي الملقب بالحلوى، ولى القضاء بإشبيلية في دولة الموحدين، ثم خلاص للتصوف ومزجه بالفلسفة، وقال بوحدة الوجود^(٣)، وأهم تلاميذه ابن دهاق إبراهيم بن يوسف الأوسى المالقي المتوفى سنة ٦١١ وفيه يقول ابن الأبار: «كان فقيها مشاوراً غلب عليه علم الكلام، فرأس فيه واشتهر به، وله تأليف منها شرح الإرشاد في علم الكلام

وبالنشأ ص ٣٣٢، ٣٧٣.

(٣) انظر في الشوذى وطريقته الصوفية وقوله بوحدة الوجود كتاب ابن سبعين ٧١ - ٧٥.

(١) انظر في ابن برجان التكملة ص ٦٢٥ وابن شاعر في الفوات ٥٦٩/١ ولسان الميزان لابن حجر (طبع حيدر آباد) ١٣/٤.
(٢) راجع في ابن قسي لسان الميزان ٢٤٧/١

لأبي المعالي الجويني إمام الحرمين، وكتاب في مسائل الإجماع وشرح على محاسن المجالس لابن العريف، سكن مرسية وتجول في غير بلد، وكان يعتقد رأى أستاذه في وحدة^(١) الوجود.

ونلتقى بمحيى الدين بن عربي، وهو أشهر متصوفة الأندلس، وسنخصه بترجمة قصيرة، وظهر في إثره ابن سبعين^(٢) عبد الحق العكي المولود بمرسية سنة ٦١٤ لأسرة كانت على حظ من الجاه والنعمة، وأكب في بدء حياته على علم المنطق والفلسفة الإلهية والعلوم الطبيعية والرياضية ونظر في أصول الدين على طريقة الأشعرية كما نظر في كتب التصوف لابن دهاق وغيره، وانتقل إلى سبتة سنة ٦٤٠، وبها أخذ يدعو لعقيدته الصوفية، وتبعه كثير من الفقراء والعباد، وتصادف أن أرسل فردريك الثاني صاحب صقلية إلى علماء سبتة أسئلة فلسفية آملًا منهم في الإجابة عليها، وانتدب ابن سبعين للرد عليها، وكانت ردوده مقنعة حاسمة، مما جعل فردريك يشكره عليها، وظل علماء الغرب يهتمون بها اهتمامًا واسعًا، وأكب حينئذ على كتب المتصوفة يستوعبها، واستقامت له في التصوف عقيدة ظل يدافع عنها بقية حياته، دافع عنها أمام علماء سبتة، حتى إذا ضيقوا عليه الخناق غادر سبتة إلى بجاية وأقام بها فترة ثم نزل تونس وجادله علماءها حتى اضطر إلى مغادرتها. ونزل القاهرة، ولم يطب له المقام - على ما يبدو - في مصر، فغادرها في أوائل العقد السادس من القرن السابع، ونزل مكة وجاور بها بقية حياته إلى أن توفي سنة ٦٦٩ وبها عُقدت صلة وثيقة بينه وبين حاكمها الشريف أبي نُعمى محمد الأول (٦٥٤ - ٧٠٢ هـ). وألف ابن سبعين مصنفات ورسائل متعددة، وأهم مصنفاته: الإحاطة وبَدَّ العارف وسماه صاحب الفوات: «ما لا بد للعارف منه» وكأنه أراد أن يشرح المراد بالعنوان، وله بجانب ذلك مصنفات في آداب السلوك والرياضات العملية، ومن أهمها رسالة العهد ورسالة الفقيرية التي يصور فيها معاني الفقر الصوفي وآدابه، وله رسائل في علم الحروف. وهو بدون ريب صاحب عقيدة صوفية تابعة فيها فرقة صوفية نسبت إليه فسميت السبعينية، وتمعنا عقيدته فيما يتصل بوحدة الوجود إذ غالى فيها غلوا مفرطا بإيمانه بالوحدة المطلقة، بمعنى أنه لا وجود سوى وجود الله فهو عين الخلق وهو عين

والبداية والنهاية ٢٦١/١٣ ولسان الميزان ٣٩٢/٣ والنفع ١٩٦/٢ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاشي ٣٢٦/٥ وشذرات الذهب ٣٢٩/٥ وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبي الوفا التفازاني.

(١) راجع في ابن دهاق التكملة (البقية المطبوعة في الجزائر) ص ٢٠٠ والإحاطة وراجع كتاب ابن سبعين (انظر الفهرس) ومقدمة ابن خلدون ١١٠٦/٣

(٢) انظر في ابن سبعين فوات الوفيات ٥١٦/١

الكون والسموات والأرض، وهو صورة كل موجود. وهو ما جعل الفقهاء والعلماء في كل مكان يأخذون على يده إذ يجعل حقيقة الوجود بين الله وعباده واحدة، فالله فقط وليس في الكون سواه، وفي ذلك يقول في كتابه الإحاطة:

من كان يُبصر شأنَ الله في الصُّورِ فإنه شاخصٌ في أنقصِ الصُّورِ
بل شأنه كونه، بل كونه كنهه لأنه جملةٌ من بعضها وطرى
إيه فأبصرنى إيه فأبصره. إيه فلم قلت لى: ذا النفع فى الضرر

والآيات تحمل فكرته، فالله ترى صورته في كل شيء: جميل وقبيح وضخم وصغير، وشأنه أو وجوده الكون، والكون كونه وحقيقته، وابن سبعين صورة منه، وكل ما في الكون من نفع وضرر وخير وشر من صور الله المنبئة في الوجود وكل موجود. وهو غلو مفرط يباعد بين صاحبه وبين الدين الحنيف مما جعل العلماء والفقهاء في عصره وبعد عصره يردون عليه ردودا عنيفة مثبتين عليه الإلحاد والزندقة. وحاول كثيرون من أتباعه الدفاع عنه وأن لكلامه ظاهرا وباطنا وأنه ينبغي أن لا يحكم عليه بظاهر أقواله. ومن اشتهر بأنه من أتباعه أبو الحسن الششتري الصوفي المعروف، وسنرى في ترجمتنا له أنه ينفصل عنه في اعتقاده بوحدة الوجود. وكأنا بلغنا هذه النظرية الذروة عند ابن سبعين، وأخذت سريعا في الانكسار، فإننا نجد كثرة المتصوفة - وخاصة في الأندلس والمغرب - تعتنق التصوف السنى.

ومن أهم المتصوفة الأندلسيين بعده ابن عباد^(١) الرُنْدَى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزى المولود بُرْنْدَة سنة ٧٣٣ وبها منشؤه ومرباه. ورحل منها مبكرا وتجوّل في بلدان المغرب، وأقام في سلا على المحيط سنوات طويلة ملازما للشيخ الزاهد الصوفى ابن عاشر أحمد بن عمر، وتحول عنه إلى فاس فاختر فيها إماما وخطيبا لجامع القرويين، ويقول صاحب نفح الطيب إنه كان صوفيا على طريقة الشاذلية، وهى من طرق التصوف السنى، وفي الجزء السادس من هذه السلسلة بمصر حديث مفصل عن هذه الطريقة وأستاذها أبى الحسن الشاذلى وتلميذه أبى العباس المرسى ومريده أو تلميذه ابن عطاء الله السكندرى. ومن أكبر الدلالة على أن ابن عباد الرندى كان شاذليا أن أهم مصنفاته شرحه كتاب الحكيم لابن عطاء الله السكندرى، وهى أقوال وخواطر وعظية بليغة. وكان يعاصره لسان الدين بن الخطيب، وله كتاب روضة التعريف بالحب الشريف، وفيه يعرض

(١) انظر فى ابن عباد الرُنْدَى الإحاطة ٢٥٢/٣.

الاتجاهات الصوفية ومسائل التصوف الكبرى من وحدة الوجود والاتحاد والحلول ونظرية المعرفة والمحبة الإلهية وغير ذلك. ونشعر أن نفسه أشربت منازع التصوف السني، وينعكس ذلك عنده في بعض القصائد وبعض المقطوعات، وهي جميعا إلى أن تكون خواطر صوفية أقرب منها إلى أن تكون تصوفا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا ينطبق ذلك على أشعاره في الكتاب وحدها بل أيضا على ما يماثلها في ديوانه: «الصيّب والجهام والماضي والكهام». وبالمثل ينطبق على ما نجد عند ابن خاتمة معاصره وغيره من قصائد وأبيات تحمل أصداء صوفية، لاتساع رنين التصوف منذ أواسط القرن السابع الهجري في كل بلد وكل دار. وحرى بنا أن نقف قليلا عند ابن العريف وابن عربي والششتري.

ابن^(١) العريف

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي، ولد بالمرية على البحر المتوسط سنة ٤٨١ وبها كان منشؤه ومرباه حفظ القرآن الكريم - مثل أترابه - في صباه، وعكف في شبابه على قراءات الذكر الحكيم والأخذ عن الشيوخ في التفسير والحديث النبوي والفقه والدراسات اللغوية والأدبية. وأقرأ الطلاب في المرية ثم في سرقسطة، وولّى الحسبة ببلنسية ويقول ابن بشكوال: «كانت له مشاركة في أشياء من العلوم وعناية بالروايات وجمع القراءات واهتمام بطرقها وحملتها». وأكبّ على قراءة كتب التصوف، وإذا هو يصبح صوفيا كبيرا، ولا يكتفى بتصوفه، بل يؤلف فيه بعض كتب^(٢)، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: «محاسن المجالس» وقد نشره آسين بلاسيوس سنة ١٩٣١ وفي نفس السنة نشر عنه دراسة في مجلة جامعة مدريد، وأعيد نشرها في أعماله المختارة، وعُني الدكتور الطاهر مكي بنقلها إلى العربية، وهو فيها يتحدث عن حياة ابن العريف وكتابه «محاسن المجالس» ويحلله تحليلا دقيقا ملاحظا أن طريقته الصوفية تقوم على الزهد في كل ما عدا الله ومحبته، بما في ذلك الزهد في المنازل الصوفية العشرة، وهي المعرفة والإرادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشوق والشكر، فلا معرفة سوى معرفة الله، ولا إرادة مع إرادته. ولا زهد في شيء، لأن الصوفي لا يتعلق

والفلسفة للدكتور الطاهر مكي (طبع دار المعارف) وترجمته فيه لدراسة آسين بلاسيوس عن ابن العريف وكتابه محاسن المجالس.
(٢) ذكر المقرئ من كتبه كتاب مطالع الأنوار ومنايع الأسرار.

(١) انظر في ترجمة ابن العريف وشعره الصلة لابن بشكوال ص ٨٤ والبغية ص ١٥٤ والمطرب ص ٩٠ والتحفة لابن الأبار رقم ٨ ومعجم الصدق ١٤ والمغرب ٢١١/٢ والنفع ٢٢٩/٣ و ٣٣١/٤
وراجع كتاب دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ

إلا بربه غير مفكر فيما سواه، ولا توكل، لأنه يتخلص من كل تدبير لنفسه راضيا بكل ما يكون من تدبير ربه، ولا صبر لأنه ليس هناك ما يحتاج إلى صبر، إذ كل ما يسوقه الله تصحبه الرأفة والرحمة، ولا حزن لأنه لا يوجد شيء مما قدره الله يوجب الحزن، ولا خوف من عذاب أو عقاب، ولا رجاء في تحقيق شيء، ولا شوق إلى أي شيء، إذ الصوفي لا يرجو ولا يشترى إلا ربه: ولا شكر إذ الصوفي لا يميز بين المنحة والمحنة أو النعمة والشدة. ومنزل واحد يتعلق به الصوفي هو المحبة للذات العلية والخلوص لله، بحيث لا يكون هناك أي شيء سواه، يقول: «إنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون الصوفي قائما بإقامة الحق له، محسا بمحبته له، ناظرا بنظره له، من غير أن تبقى منه بقية تقف على رسم أو تُناط باسم، أو تتعلق بأثر، أو توصف بنعت أو تنسب إلى وقت». وابن العريف بذلك كله يصور مدى اتصال الصوفي الحق بربه، بحيث لا يكون فيه أي شيء من فكر أو جسم سوى الفناء في الله، وهو بكل ذلك صوفي سني، ومن الخطأ الظن بأن في تصوفه شية من وحدة الوجود أو الاتحاد بالله، ومن طريف شعره الصوفي قوله:

سَلُّوا عَنِ الشَّوْقِ مَنْ أَهْوَى فَإِنَّهُمْ	أَدْنَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ وَهْمِي وَمَنْ نَفْسِي
مَازَلْتُ - مَذَسَكُنُوا قَلْبِي - أَصُونُ لَهُمْ	لَحْظِي وَسَمْعِي وَنَطْقِي إِذْ هُمْ أَنِيسِي
فَمَنْ رَسُولِي إِلَى قَلْبِي لَيْسَ أَلَهُمْ	عَنْ مُشْكَلٍ مِنْ سَوَالِ الصَّبِّ مُلْتَبِسِ
حَلُّوا الْفُؤَادَ، فَمَا أَدْنَى! وَلَوْ وَطَّنُوا	صَخْرًا لَجَادَ بِمَاءٍ مِنْهُ مُنْبِجِسِ ^(١)
وَفِي الْحَشَا نَزَلُوا وَالْوَهْمُ يَجْرَحُهُمْ	فَكَيْفَ قَرُّوا عَلَى أَذْكَى مِنَ الْقَبْسِ ^(٢)
لَأَنْهَضَنَّ إِلَى حَشَرِي بِحَبِّهِمْ	لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيمَنْ خَانَهُمْ فَنَسِي

وابن العريف يتحدث عن شوقه لربه، مع أنه أقرب إلى نفسه من وهمه وأنفاسه، ويقول إنهم مذ نزلوا قلبه يقصر عليهم لحظه وسمعه ونطقه، فهم كل أنسه. ويتساءل هل هناك من يبلغهم ما في قلبه من صابته وحبّه ويقول: ما أروحهم على فؤاده، ولو وطنوا صخرًا لتفجر منه الماء، وقد سكنوا في حشاه المضطرم بحبهم، ويعجب منهم - والوهم يجرحهم - أن يسكنوا في ناره المتقدة، ويقول إنه سيظل - إلى الحشر - وفيا بعهدهم وحبهم لا ينساها أبدا، ويقول:

قِفَا وَقَفَةً بَيْنَ الْمُحْصَبِ وَالْحِمَى نَصَافِحُ بِأَجْفَانِ الْعَيُونِ الْمَغَانِيَا^(٣)

(٣) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى. المغاني: المنازل.

(١) منبجس: منفجر.
(٢) قرّوا: سكنوا واستراحوا.

ولا تَنْسِيَا أَنْ تَسْأَلَا سَمَرَ الْهَوَىٰ متى بات من سَمَرِ الْأَسِنَّةِ عَارِيَا^(١)
 فعهدى به والماء ينسابُ فوقه سماءٌ وماءُ الْوَرْدِ ينسابُ واديا
 أقام على أَطْلَالِهِمْ ضَوْءَ بَارِقٍ من الحسن لا يُبْقَى على الأرض ساليا

وهو يطلب من صاحبيه الوقوف بمنازل محبوبه القدسية: بالمحصب في منى والحمى
 المكى ليصافح ببصره المغاني والمنازل وشجر الهوى والمحبة من الطلح الذى تعرى من
 سهامه وأسنته. ويقول إن عهده به والمطر ينسكب عليه من فوقه وماء الورد يجرى من
 تحته والنفوس معلقة بما فى الأطلال من ضياء الحسن الذى لا يستطيع أحد أن يسלוه.
 ويقول:

تمشَّى والعيونُ له سوامٌ وفى كُلِّ النفوسِ إليه حاجَه^(٢)
 وقد مُلِئتْ غلائلهُ شُعاعًا كما مُلِئتْ من الخمرِ الرُّجاجةُ^(٣)

وهو يتغزل بمحبوبه مستخدما لغة الحب الإنسانى كما استخدمها فى الأبيات السابقة،
 فقد رحل والعيون كلها متطلعة إليه، والنفوس جميعا مفتقرة إلى رؤيته، وقد ملئت غلائله
 الكونية بأشعته. ولابن العريف بجانب ذلك مدائح فى الرسول الكريم سننشد منها
 أطرافا. وقد توفى سنة ٥٣٦ للهجرة.

ابن^(٤) عربى

هو أبو بكر محبى الدين محمد بن على بن عربى الطائى، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ لأسرة
 تحظى بشيء من الثراء، وانتقل به أبوه فى صباه إلى إشبيلية، وبها نشأ نشأة علمية حفظ
 فيها القرآن الكريم، ودرس على أحد تلامذة مدرسة ابن حزم المذهب الظاهري فى الفقه،
 كما درس الحديث النبوى على شيوخه والآداب على معلميهما وكتب لبعض الولاة، وتزوج
 بمریم بنت محمد بن عبدون الباجى، وكانت صالحة ورعة، فدفعته نحو الزهد والتقشف

فى تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) ١٦٠/٢
 والكتاب التذكارى لمحبى الدين بن عربى فى
 ذكره الثوية الثامنة لميلاده (نشر وزارة الثقافة
 المصرية) وابن عربى: حياته ومذهبه لآسين
 بلاسيوس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى (طبع
 القاهرة) وبالنشيا ص ٣٧ وما بعدها.

(١) السمر: شجر الطلح.
 (٢) سوام: شاخصة ومتطلعة.
 (٣) الغلائل: جمع غلالة: الثوب الرقيق.
 (٤) انظر فى ابن عربى التكملة رقم ١٠٢٣ وميزان
 الاعتدال للذهبي ١٠٨/٣ ونفح الطيب ١٦١/٢
 والهداية والنهاية لابن كثير ٤٩/١٤ والعقد الثمين

والتصوف، فأخذ يجتمع بزهاد ومتصوفة كثيرين، في مقدمتهم الزاهد أبو عمران موسى بن عمران المارتنلي الذي مر ذكره بين الزهاد وأبو العباس العربياني المتصوف، ولزم نونة «فاطمة بنت ابن المثنى» الصوفية سنتين تابعا ومريدا، حتى إذا أشربت روحه كثيرا من الرياضات الصوفية خرج من إشبيلية يتجول في الأرض، وهو في نحو الثلاثين من عمره، واتجه إلى مرسية والمرية وهناك كتب رسالته الصوفية «مواقع النجوم» ثم رحل إلى المغرب واستقر في فاس مدة سنة ٥٩١ منصرفا إلى رياضته الصوفية. وقام بسياحات متعددة في نواحي المغرب في مراكش وغير مراكش، ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفي فترة معجبا بطريقته الصوفية. وألم بتونس وفيها صنف كتابه: «الدوائر الإحاطية في مضاهاة الإنسان للخالق». وفي سنة ٥٩٨ رحل لأداء فريضة الحج ونزل مكة وتعرف فيها على مكيين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني إمام مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، وحضر دروسه وسمع عليه الجامع الصحيح في الأحاديث النبوية للترمذي، وتوثقت بينهما العلاقة، وكانت لهذا الشيخ فتاة جميلة اسمها نظام، فشغف بها ابن عربي حين رآها ونظم فيها ديوانه «ترجمان الأشواق» متخذا منها ومن غزله فيها رمزا لحبه الرباني ومواجهه الصوفية، وكتب حينئذ كتابه: «الدرة الفاخرة» في تراجم شيوخه من الصوفية، وفيه أشاد بشيخه أبي مدين وطريقته. وبارح مكة إلى بغداد والموصل سنة ٦٠١ وأخذ يتجول في البلدان، ونجده بالقاهرة سنة ٦٠٣ وجادله فقهاؤها فيما يفهم في أقواله من فكرة وحدة الوجود واتهموه بالمروق من الدين، غير أن السلطان العادل الأيوبي حماه منهم. وابتجه إلى الأناضول ويعجب به كيكائوس ملك قونية، ويؤلف مصنفه: «مشاهد الأسرار» و«رسالة الأنوار». وينزل بغداد سنة ٦٠٨ ويلتقى بشهاب الدين السهروردي الصوفي السني، ويتوجه إلى مكة للحج سنة ٦١٠ ويؤلف شرحا على ديوانه ترجمان الأشواق يسميه ذخائر الأعلاق، وفيه يوضح المعاني الصوفية التي تضمنتها أبيات الديوان. ويعود إلى الأناضول وينزل حلب ويحتفى به سلطانها الظاهر غازي، ويؤلف كتابه: «الحكمة الإلهامية». وفي سنة ٦٢٠ يختار دمشق دار إقامة له حتى وفاته سنة ٦٣٨ وفيها ألف «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» وأذاع ديوانا له، وظل مشغولا بالتأليف حتى الأنفاس الأخيرة من حياته.

وكان ابن عربي مكثرا من التأليف حتى يقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت نحو أربعمائة، وعنده أن العلوم ثلاثة أنواع: علم العقل ويشمل العلوم المعروفة، وعلم الأحوال ويدرك بالذوق، وعلم الأسرار وهو فوق العلمين السابقين مما ينفتح به الروح القدس في الروح

ويختص به الأنبياء والأولياء. وأهم من ذلك عقيدته في وحدة الوجود، وهي التي ملأت كتاباته وأشعاره بالألغاز، واختلف إزاء عباراتها العلماء من معاصريه ومن جاء بعدهم، فمنهم من قال إن لها باطنا سوى ظاهرها وتأولها، ومنهم من قال ببروقه من الدين الحنيف لمثل قوله: «إن الحق المنزه (أى الله) هو الخلق المشبه» و«إن العالم صورة الله وهوية الله». وربما كان ابن تيمية أكثر خصومه إنصافا له إذ قال إنه أقرب الصوفية القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام، فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر ويقر الأمر والنهى والشرائع على ما هي عليه ويأمر في السلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات^(١). ويمكن أن تؤوّل العبارتان السالفتان اللتان جعلتا كثيرين يحملون عليه حملات شعواء بسببها أنه إنما يريد أن الله المنزه عن الشبه بالخلق يتجلّى فيهم كما يتجلّى في العالم بتكوينه له وخلقهم. وبالمثل عباراته الأخرى الموهمة التي إن أخذت على ظاهرها ظنّ به المروق من الدين والضلال، بينما لو أخذت بباطنها حملت على الإيمان والعرفان، وهو ما جعل كثيرين من معاصريه ومن جاء بعدهم يدافعون عنه. وقد سمع على الشيوخ بجانب صحيح الترمذى السالف صحيح مسلم وصحيح البخارى، وأجاز له السلفى فى الإسكندرية أن يحدث عنه، وأجازه ابن الجوزى فى بغداد وابن عساكر فى دمشق، وهم جميعا من كبار المحدثين فى عصره سوى شيوخ كثيرين. وبجانب هذه الشعبة الكبيرة فى عقيدته: شعبة وحدة الوجود تترأى شعبة ثانية كبيرة هى شعبة المحبة الإلهية، وقد صورها ميكرا فى ديوانه: «ترجمان الأشواق» ومن يقرؤه حسب ظاهره يظن أنه غزل صبّ عاشق لنظام - كما يقال - فتاة الشيخ مكين الدين إمام مقام إبراهيم فى الحرم المكى، إذ يصف جمالها وفتنته به ودارها والأطلال والمنازل ودلاها ومراسفها ولوعته وحرقة فؤاده بحبها وسهام عيونها وفتور أجفانها وكأننا بإزاء شاعر من شعراء الغزل العذرى على شاكلة قوله:

مَرَضَى مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ	عَلَّلَانِي بِذِكْرِهَا عَلَّلَانِي
بَأَبِي طِفْلَةً لَعُوبٌ تَهَادَى	مِنْ بَنَاتِ الْخُدُورِ بَيْنَ الْغَوَانِي
طَلَعْتُ فِي الْعِيَانِ شَمْسًا فَلَمَّا	أَفَلْتُ أَشْرَقَتْ بِأَفْقِ جَنَانِي
بَأَبِي ثُمَّ بِي غَزَالُ رَبِيبُ	يَرْتَعِي بَيْنَ أَضْلَعِي فِي أَمَانِ

فهو محب موجه الفؤاد أو هو مريض مرضا لا يرجى له منه شفاء لما وقع فى قلبه من

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية
(طبع دار المنار) ١٧٦/١.

حب هذه الفتاة أو هذه الطفلة اللعوب التي رآها تتبختر بين الغواني الجميلات. وحين رآها ظنّها شمسا فقد ملأت كل ما حوله وكل ما فيه من جنان أو عقل وغير عقل واستقر حبها في قلبه وملك عليه كل شيء من أمره. وإنه ليفدى بروحه هذا الغزال المصون الذي يرمى بين أضلعه في قلبه وسويداء فؤاده. والديوان كله - على هذا النحو - غزل وصباية لا سبيل إلى إطفائها إذ تستمد من وجد ملتانع مايزال ابن عربي يذوق ناره المحرقة، وليست نار الفتاة نظام، وإنما هي نار المحبة الربانية، وإلى ذلك يشير في الديوان منشدا:

كُلُّ مَا أَذْكَرُهُ مِنْ طَلَلٍ أَوْ رُبُوعٍ أَوْ مَغَانٍ كُلُّ مَا
أَوْ نِسَاءٍ كَاعِبَاتٍ نُهِّدُ طَالَعَاتٍ كَشْمُوسٍ أَوْدَمِي
صِفَةً قَدْسِيَّةً عُلُويَّةً أَعْلَمْتُ أَنَّ لَصَدْقِي قَدَمًا
فَاضِرِفِ الْخَاطِرَ عَنْ ظَاهِرِهَا وَاطْلُبِ الْبَاطِنَ حَتَّى تَعْلَمَا

وهو لا يذكر في القصيدة الطلول والربوع والمغاني أو المنازل والنساء المشرقات كالشموس والدمى فحسب، بل يذكر أيضا: نجداً وتهامة والسحب تبكي والزهر يبتسم والمواضع النجدية مثل الحاجر وورق الحمام وأنينها والبروق والرعود والرياح والطرق والجبال والتلال والعقيق والنقا والرُّبِّي والرياض والغياض، وكل ذلك حين يذكره صفات قدسية علوية يتخذها رموزا لبيان حبه الرباني وأسراره وأنواره في فؤاده، وهو حب يتسع به حتى ليشمل أصحاب الديانات جميعا، إذ يقول:

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلِّ صُورَةٍ فَمَرَعِي لِغَزْلَانٍ وَدَيْرٍ لِرُهْبَانٍ
وَبَيْتٍ لِأَوْثَانٍ وَكَعْبَةٍ طَائِفٍ وَالْوَاهُجِ تَوَارِقٍ وَمَصْحَفٍ قَرَّانٍ
أَدِينُ بِدِينِ الْحَبِّ أَنِّي تَوَجَّهْتُ رَكَابُهُ فَالْحَبُّ دِينِي وَإِيمَانِي

فدينه الحب الذي يسع جميع الديانات السامية والوثنية، ولعل هذه شطحة من شطحاته الصوفية، إذ لا يمكن أن يصبح الناس أمة واحدة فضلا عن أن يكون دينها المحبة. وله بجانب أشعاره موشحات صوفية، وتميزها نفس العذوبة والسلاسة اللتين نجدتهما في شعره كقوله في إحدى موشحاته:

يَقُولُ وَالْوَجْدُ أَضْنَاهُ وَالْبُعْدُ قَدْ حَبَّرَهُ
وَهَيْمُ الْعَبْدُ وَالوَاحِدُ الْفَرْدُ قَدْ خَيَّرَهُ
فِي الْبُحُوحِ وَالْكُتْمَانِ وَالسِّرِّ وَالْإِعْلَانِ فِي الْعَالَمِينَ

وفي الحق أنه كان صوفياً كبيراً، وقد لقبه تلاميذه ومريدوه بالشيخ الأكبر، وسميت طريقته الطريقة الأكبرية.

الششتري^(١)

هو أبو الحسن علي بن عبد الله النميري، ولد بقرية شُشتر من عمل مدينة وادي آش في إقليم غرناطة لأسرة ذات جاه وثراء. بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وجوده، وعنى بتفسيره والوقوف على معانيه، كما عنى بدراسة الفقه المالكي، حتى نعت بالفقيه وعروس الفقهاء. وأخذ يكبُّ في شبابه على دراسة التصوف ولقاء المتصوفة، حتى استوعب وتمثل كثيراً من الرياضات الصوفية، وسرعان ما أخذ بمبادئهم في السياحة والتجول في البلدان، فطاف ببعض البلاد الأندلسية ثم عبر الزقاق إلى البلاد المغربية، وظل بها متجولاً فترة غير قليلة، تلمذ في أثنائها لأبي مدين المتوفى سنة ٥٩٢ وربما لم يلقه، فأخذ طريقته عن تلاميذه ومريديه. وكان صوفياً سنياً، وشاعت طريقته الصوفية - منذ حياته - في البلدان المغربية، وملأت - فيما يبدو - نفس الششتري فاعتنقها. ولقي ببجاية ابن سبعين وعرف منه ابن سبعين أنه ذاهب إلى أصحاب أبي مدين فقال له: إن كنت تريد الجنة فسر إليهم وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إليّ. وظل طويلاً معجباً بابن سبعين حتى كان يعبر عن نفسه في بعض منظوماته بعبد ابن سبعين، ويقال إن ابن سبعين قال له: لن تدخل في طريق الصوفية إلا إذا تجردت من متاعك وثيابك ولبست قشبانة الصوفية (يريد رقعتهم البالية) وحملت في يدك بنديراً (يريد علم الدراويش) ودخلت السوق بهذه الصورة وبدأت بذكر الحبيب. فصنع كما رسم له ابن سبعين، وظل في السوق ثلاثة أيام يغنى بخواطر المتصوفة منشداً:

شويخ من أرض مكناس في وسط الأسواق يغنى^(٢)
اش على من الناس واش على الناس مني

واتجه إلى مصر، وأقام بالإسكندرية فترة تعرّف فيها على الشيخ أبي الحسن الشاذلي

وراجع في أشعاره وموشحاته وأزجاله ديوانه بتحقيق د. علي النشار (طبع الإسكندرية).
(٢) مكناس: مدينة بالمغرب بينها بجاية مدينة ساحلية بالجزائر.

(١) انظر في الششتري وترجمته وأشعاره وموشحاته وأزجاله نفح الطيب ١٨٥/٢، ٢٠٥ والإحاطة ٢٠٥/٤ وعنوان الدراية للغبريني ص ١٤٠ وما بعدها ونيل الانتهاج للتنكيحي والرسائل الكبرى لابن عباد الرندي (طبع فاس) ص ١٩٧

صاحب الطريقة الشاذلية وتلميذه أبي العباس المرسى وحمل عنها طريقتها، وبذلك يعترف في بعض أزجاله قائلاً: «شيوخى هم الشاذليُّ» وحجج مرارا وكان كلما حجَّ طَوْفَ العراق والشام ثم عاد إلى مصر. ويذكر مترجموه أنه لقي ابن إسرائيل تلميذ ابن عربي في الشام سنة ٦٥٠ كما لقي أصحاب عمر السهروردي البغدادي المتصوف السني المشهور مؤلف كتاب عوارف المعارف. وفي أوبة له من الشام إلى ساحل دمياط سنة ٦٦٨ توفي بقربها ودفن بمقبرتها، وقبره بها. وعليه شاهد يحمل اسمه. وكان لقاءه لابن سبعين وإعجابه به وذكره لاسمه في موشحاته وأزجاله مثنيا منها سببا في أن يظن بعض معاصريه ومن جاء بعدهم أنه كان - مثله - يؤمن بوحدة الوجود المطلقة، وهو منها براء، إذ بدأ حياته على طريقة أبي مدين المغربي الصوفية السنية، وانتقل منها في مصر إلى طريقة أبي الحسن الشاذلي الصوفية السنية، فهو صوفي سني، وفيه يقول الغبريني: «الشيخ الفقيه الصوفي الصالح العابد، من الفقراء (يريد الصوفية) المنقطعين، له معرفة بالحكمة ومعرفة بطريقة الصالحين الصوفية» ونوه به ابن عباد الرندي الشاذلي في رسائله الكبرى، كما نوه به من صوفية الشاذلية أحمد زروق شارح قصيدته:

أرى طالبا منا الزيادة لا الحُسنى بفكرٍ رمى سَهْمًا فعُدَى به عَدْنَا^(١)

إذ نقل عنه التنبكي في كتابه نيل الابتهاج نعتة له بقوله: «الشيخ العارف أحد الصوفية من أبناء الملوك ثم صار من سادات الصوفية، كان يُقرأ عليه القرآن والسنن، عارفا بالحديث، وأما علم الأسرار والأنوار والحكم والأذواق فحاز فيه قصب السبق». ويقول المقرئ فيه: عروس الفقهاء وإمام المتجربين وبركة لابسى الخرقه الصوفية.. كان مجوذاً للقرآن قائما عليه عارفاً بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال في الآفاق ولقى المشايخ، وحج حجات، وآثر التجرد والعبادات، وصنف كتباً مختلفة، منها: «العروة الوثقى» و«المقائيد الوجودية في الأسرار الصوفية» و«الرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة» و«المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية». ومن شعره قوله:

لقد تَهَتْ عُجْبًا بالتجرُّد والفَقْر فلم أُنْدَرْج تحتَ الزمانِ ولا الدَّهرِ
وجاءتْ لقلبي نَفْحَةً قُدُسِيَّةً فغَبِيتُ بها عن عالم الخلق والأمرِ
وصلتُ لمن لم أنفصلُ عنه لحظةً ونزَّهتُ من أعنى عن الوصل والهَجْرِ

(١) الحسنى وعدن: الجنة. الزيادة: مقام المحبة الصوفية.

وما الوصف إلا دونه غير أننى أريد به التشبيب عن بعض ما أدرى
وذلك مثل الصوت أيقظ نائماً فأبصر أمراً جلّ عن ضابط الحصر
فقلت له الأسماء تبغى بيانه فكانت له الألفاظ سترًا على ستر

وهو يتيه عجباً وزهوً بالاجتهاد فى العبادة والإمامة لفقراء الصوفية، فلا يهيمه أى
شئ مما يتعلق به الناس من جاه السياسة ومتاع الحياة، فحسبه نفحة قدسية امتزجت
بقلبه، فغاب عن الكون وكل ما فيه من عالم الخلق والتدبير. ويقول وصلت إلى رضوان
الله ومحبته، ويستدرك فإنه غنى عن الوصل والهجر ولا وصف يحيط به، وما تشببى وغزى
إلا بعض ما أشعر به، وكأنى مثل نائم أيقظه صوت فأبصر من جلال الله ما يجل ويعظم
عن الحصر، وحتى أسأوه الحسنى لا تجلو هذا الجلال، إذ لا تحيط به ألفاظ، بل لكأنما
الألفاظ تضيف دونه حجاباً إلى حجاب، وله فى إحدى موشحاته:

خلعت عذار عشقى فى غرامى وهمت وقد حلا عندى هيامى
بمن أهوى وكاسات المدام
مذهبى دنى لائى دغنى الهوى فنى
ببذلى فى الهوى روحى ومالى عشت فما لعدالى ومالى

وهو يقول إنه لم يعد يتحفظ أو يتحشم فى غرامه، بل لقد أصبح يتهتك فيه،
لا يستحي ولا يخجل، إذ جمح به هيامه بمن يهوى بل لقد حلاله هذا الهيام كما حلاله
الإكباب على كاسات المدام حتى ينتشى بشراب المحبة الإلهية إلى أقصى حد ممكن، وهو
ليس شراباً عادياً بل هو رحيق صاف، وهو يتخذ دونه مذهباً له حتى يهيج روحه وقلبه بهذا
الحب الربانى الذى بذل فيه روحه وكل ما يملك، فما للعدال اللائمين وماله. وقد اندلع فى
فؤاده هذا الحب وإنه ليشرب رحيقه من دَن قدسى عظيم. ومن قوله فى موشحة ثانية:

يا حبيبى بحياتك يا حبيبى
رق لى وانظر لحالى أنت أدرى بالذى بى
أنت دائى ودوائى فتلطّف يا طبيبى

وهى كلمات تكاد تطير من الفم طيراناً لحقتها وعذوبتها وسلاستها. وهذه السلسلة
والعذوبة كان يكثر إنشاد شعره وموشحاته وأزجاله فى حلقات المتصوفة من شاذلية وغير
شاذلية، ونوه بها جميعاً مترجموه، يقول الغبريني: «شعره فى غاية الانطباع والملاحظة،

وتواشيحه ونظمه الزجل في غاية الحسن» ويقول ابن عباد الرندي: «في موشحاته وأزجاله حلاوة، وعليها طلاوة».

(ج) شعراء المدائح النبوية

طبيعى أن يتغنى شعراء الأندلس بمدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، مثلهم في ذلك مثل الشعراء في جميع البلدان العربية الإسلامية، إذ هو المثل الكامل لكل مسلم في تقواه ونسكه وورعه وامتثاله لأوامر ربه. وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذى أصبحت فيه الأندلس دولاً وإمارات كثيرة، مما جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس، واستردوا طليطلة وبعض حصون وقلاع، وفرضوا على أمراء الطوائف المتنازحين إتاوات كانوا يؤدونها لهم خائعين. وهو ماجعل غير شاعر أندلسى يفرغ إلى مديح الرسول الكريم آملاً أن تستمد الأندلس منه الأيد والقوة في نضال أعدائها وأعداء الدين الحنيف. واتسع ذلك منذ القرن السادس الهجرى حتى أصبح المديح النبوى غرضاً كبيراً من أغراض الشعر الأندلسى، ونحن نجده في هذا القرن على لسان ابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ وله في مخاطبة مكة مهبط الوحي النبوى ورسولها الكريم شعر^(١) طريف، وبالمثل نجده على لسان أبى عبدالله بن أبى الخصال كاتب يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وله مع مديح الرسول مرثيتان^(٢) في مقتل الحسين بكر بلاء. ويسوق المقرئ في الجزء الأخير من كتابه نفح الطيب لابن العريف الصوفى أشعاراً نبوية يذكر أنه نقلها عن كتابه: «مطالع الأنوار ومنابع الأسرار» ومن قوله في إحداها: (٣)

وَحَقِّكَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَلْبِي يَحُبُّكَ قُرْبَةً نَحْوَ الْإِلَهِ
جَرَتْ أَمْوَاهُ حُبِّكَ فِي فُؤَادِي فَهَامَ الْقَلْبُ فِي طَيْبِ الْمِيَاهِ

فهو محب والى للرسول عليه السلام، ويستمر قائلاً إنه نال به في دنياه فرحة وسروراً، وسينال به في أخراه جاهاً ونعيماً إذ يحب محبوب الإله وصفيه، ويتذلل له في بعض مدحه قائلاً إنه عبد مسترق له ويطلب منه العتق والرضا وأن يكون له ملاذاً وملجئاً. ويختم

(٣) انظر في هذه القصيدة وتالياتها نفح الطيب

٤٩٧/٧.

(١) أزهار الرياض ١٤٧/٣ وما بعدها.

(٢) فهرست ابن خير ٤٢١.

المقرى اختياراته من كتابه بقصيدة له تفتتح جميع أبياتها بسلامة الله على النبي الهادى العظيم على هذا النمط:

صَلَّى الإِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ الْهَادِي مَا لَذَتْ الْأَرْوَاحُ بِالْأَجْسَادِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا اسْوَدَّ الدُّجَى فَكَسَا مُحَيَّا الْأَفْقِ بُرْدَ جِدَادِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا انْبَلَجَ السَّنَا فَايْبُضُّ وَجْهُ الْأَرْضِ بَعْدَ سَوَادِ

ويظل يدعو الله أن يصلى على رسوله ما هطلت السحب بالغيث وتغنى الطير على الأغصان، إذ خصه بالنور والإرشاد وختم النبوة كتابه الهادى. ولا تتضح عند ابن العريف فيما ساقه له المقرى من مديح نبوى فكرة الحقيقة المحمدية التى وجدت منذ الأزل ودارت حولها الأفلاك ودار الوجود، مما رددته بعض المتصوفة وبعض مداح الرسول فى المشرق، مما يؤكد ما قلناه من أن ابن العريف كان صوفياً سنياً. وملتقى بأبى الحسن بن لبّال وتشوقه^(١) الحار إلى الروضة المقدسة الطاهرة لزيارة سيد ولد آدم، واشتهر صفوان بن إدريس بقصره^(٢) أمداحه على آل البيت وإكثاره من تأيين الحسين، ولا بن المناصف محمد بن عيسى المتوفى سنة ٦٢٠ أرجوزة^(٣) فى مئات من الأبيات فى مديح الرسول. وملتقى بمعاصره أبى زيد الفازائى وسنخسه بكلمة.

وحين اشتد الضعف بدولة الموحدين وأخذت المدن الأندلسية الكبيرة تسقط مدينة وراء مدينة فى حجر النصارى الإسبان الشماليين تكاثر المديح النبوى إذ اتخذ الشعراء الأندلسيون أداة للاستغاثة والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوى الشريف واصفين ما يعانیه وطنهم من محن خطيرة، وسنلم بطرف من هذه الرسائل فى الفصل التالى مع الترجمة لابن الجنان المتوفى فى عشر الخمسين وستائة، وقد أنشد له المقرى فى الجزء السابع من نفع الطيب طائفة رائعة من مدائحه النبوية، ويستهلها بمخمس^(٤)، بديع جعل شطره الخامس: «صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» وفيه عرض عرضاً رائعاً سيرته المنيرة ومعجزاته الباهرة. وكان يعاصره إبراهيم^(٥) بن سهل الإشبيلي، وكان يهودياً

(٤) نفع الطيب ٤٣٢/٧.

(٥) انظر فى ابن سهل مصادره فى ص ٣٠٦

ومقدمة ديوانه لإحسان عباس طبع دار صادر بيروت.

(١) المطرب ص ٩٠.

(٢) المغرب ٢٦٠/٢.

(٣) ساهى الدرّة السّنية فى العالم السّنية. انظر

التكملة ص ٣٢٥.

كما أسلفنا، ونشأ يقرأ ويدرس مع الشباب الإشبيلي المسلم ويختلط به، وشرح الله صدره للإسلام فأعلن في بواكير شبابه إسلامه، وكان شاعراً ماهراً، وله ديوان طبع مراراً، وبه قصيدة عينية تحمل تشوقاً إلى يثرب والحجاز، وأنشد له المقرئ منظومة^(١) نبويةً بديعةً لعله استلهم فيها مخمس ابن الجنان إذ جعل شطرها الخامس الذى تدور عليه نفس شطر ابن الجنان السالف وقد ختمها بقوله:

يا شوقى الحامى إلى ذاك الحمى
فمتى أقضيه غراماً مغرماً
ومتى أعانقه صعيداً مكرماً
بضمير كل موحدٍ ملثوماً صلوا عليه وسلموا تسليماً

ولأبى الحسن الرُّعَيْنَى الإشبيلي المتوفى سنة ٦٦٦ قصيدتان حجازيتان وأخريان رباعيتان^(٢). ولحازم القرطاجنى المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى مدحتان^(٣) نبويتان بنى أولاهما على شطر له ثان من معلقة امرئ القيس وبنى الثانية بنفس النظام: شطر له وشر من لامية امرئ القيس: «ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى». ويلقانا فى كتاب الكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة مدائح نبوية^(٤) لغير شاعر مثل ابن الصائغ وأبى جعفر بن جُزَى، وله مدحة على غرار مدحة حازم القرطاجنى الثانية.

وكان قد أصبح تقليداً فى غرناطة أن يُحتفل بالمولد النبوى احتفالاً رسمياً كل عام وأن تلقى فيه مدائح نبوية. وتسمى مولدية، ولللسان الدين بن الخطيب طائفة من تلك المولديات، وهى مسجلة فى ديوانه والجزء الأول من أزهار الرياض والجزء الأخير من نفع الطيب، ودائماً يبدؤها بالحنين إلى الحجاز، ثم يتغنى بفضائل الرسول ومعجزاته الباهرة، وينهى المولدية غالباً بمديح السلطان الذى أقيم الاحتفال النبوى فى عهده، ومن تصويره لحنينه الللتاع إلى الاكتحال بروية القبر الطاهر قوله:

إذا أنت شافهت الديار بطيبةٍ
فنب عن بعيد الدار فى ذلك الحمى
وجئت بها القبر المقدس واللحدا
وأذر به دمعاً وعفر به خداً

(١) النسخ ٤٤٥/٧.

(٢) الذيل والتكملة للمراكشى القسم الأول من

الجزء الخامس ص ٣٦٤.

(٣) أزهار الرياض ١٧٨/٣ وما بعدها.

(٤) راجع الكتيبة الكامنة ص ٨٨، ١٣٤، ١٣٩.

٢٥١، ٣٠٣.

وكان يعاصره ابن جابر الوادى آشى وسنخسه بكلمة، وعاصرها ابن خاتمة وفى ديوانه مدائح نبوية بديعة، وأنشد المقرئ لابن زمرك مَوَلِدِيَّاتٍ لَهُ فى الجزء الثانى من أزهار الرياض، ومن قوله فى إحداها مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم:

وَأَنْتَ حَبِيبُ اللَّهِ خَاتَمُ رُسُلِهِ وَأَكْرَمُ مَخْصُوصِ بَزْلَفَى وَرِضْوَانِ
وَأَنْتَ لِهَذَا الْكَوْنِ عِلَّةٌ كَوْنِهِ وَلَوْلَاكَ مَا امْتَاَزَ الْوُجُودُ بِأَكْوَانِ
وَلَوْلَاكَ لِلْأَفْلَاكِ لَمْ تَجُلْ نَيْرًا وَلَا قُلْدَتْ لِبَائِهِنَّ بِشُهْبَانِ

وواضح أنه يقتبس من البوصيرى وأمثاله فكرة الحقيقة المحمدية وأن الله اصطفاه قبل نشأة الكون وأنه علة الوجود ومطلع النور فى الأفلاك، ولولاه ما سطعت فى لبائتها ومواضع القلائد من جيدها شهبانه وشعله النيرة، وحرى أن نتوقف قليلاً بإزاء أبى زيد الفازازى وابن جابر الوادى آشى.

أبو زيد^(١) الفازازى

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبى سعيد بن يَخْلُقْتَن، وُلد بقرطبة، وبها منشؤه، وبمجرد أن حفظ القرآن الكريم أكْبَّ على حلقات الشيوخ يتزود من الحديث النبوى وروايته والفقه وأصوله وعلم الكلام واللغة والنحو والأدب والشعر، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، وسال ينبوع الشعر متدفقا على لسانه، وعمل فى الدواوين الحكومية، وحظى بمكانة رفيعة عند أبى إسحق والى إشبيلية لأخيه الناصر الخليفة براكش (٥٩٢ - ٦٠٩ هـ) ولابن أخيه المستنصر (٦٠٩ - ٦٢٠ هـ) وعمل بدواوين عمه أبى العلاء إدريس فى ولايته على إشبيلية وقرطبة، وتطورت الظروف ونودى بأبى العلاء - وهو فى الأندلس - خليفة للموحدين براكش. وجاز الزقاق إلى عاصمته سنة ٦٢٦ واستقدم أباً زيد للعمل فى دواوين مراكش ولياه راضياً، ولم تكد تمضى بضعة أشهر حتى لَبى نداء ربه سنة ٦٢٧ ويقول لسان الدين بن الخطيب فى ترجمته إنه كان فاضلاً سنياً شديد الإنكار والإنجاء على أهل البدع، وكان متلبساً بالكتابة عن الولاة والأمراء ملتزماً بذلك مع كره له وحرصه على الانقطاع عنه..

ويقول لسان الدين أيضاً عن أبى زيد إنه كان آية الله فى سرعة البديهة وارتجال النظم

٥٠٧/٧ وما بعدها.

(١) انظر فى ترجمة أبى زيد الفازازى التكملة رقم

١٦٤١ والإحاطة ٥١٧/٣ ونفع الطيب للمقرئ

والنثر وفور مادة وموالاة استعمال. وله في الزهد عملان: عمل طُبع بدار إحياء الكتب العربية في القاهرة باسم «القوائد العشرية في النصائح الدينية والحكم الوعظية» ولعلها هي التي سماها لسان الدين المعشرات الزهدية. ويقول إنه افتتحها بقوله: «المعشرات الزهدية، والمذكرات الحقيقية الجدية ناطقة باللسنة الوجلين المشفقين، شائقة إلى مناهج السالكين المستبقيين، نظمها متبركا بعبادتهم، متيمنا بأغراضهم وإشاراتهم، قابضا عنان الدعوى عن مداناتهم ومجاراتهم..». والمعشرات قصائد تشتمل كل منها على عشرة أبيات فأكثر، منظومة على جميع الحروف الهجائية. وكان له بجوار هذا الديوان ديوان ثان بنفس النسق نظمه في العبادة والنسك وسماه: «المعشرات الحبيّة» وافتتحها بقوله: «النفحات القلبية، واللفحات الشوقية، منظومة على السنة الذاهين وجدا، الذائنين كمدا، نظم من نسج على منوالهم» وله يناعي ربه ويدعوه ضارعا:

إليك مددت الكف في كل شدة ومنك وجدت اللطف في كل نائب
فحقق رجائي فيك يارب واكفني شات عدو أو إساءة صاحب
وكم كربة نجيتني من غمارها وكانت شجا بين الحشا والترائب
فيامنجي المضطر عند دعائه أغثنى فقد سدت على مذاهبي
وسمى مجموعته في المذائح النبوية «الوسائل المتقبلة» وأضاف: «والآثار المسلمة المقبلة مودعة في العشرية النبوية» نظم من اعتقدها من أزكى الأعمال، وأعدّها لما يستقبله من مدهش الأحوال، وفرغ خواطره لها على توالى القواطع وتتابع الأشغال، ورجا بركة خاتم الرسالة، وغاية السؤدد والجلالة.. والله - سبحانه - ولي القبول للتوبة، والمنان بتسويغ هذه المنة المطلوبة، فذلك يسير في جنب قدرته، ومعهود رحمته الواسعة ومغفرته» ولعل هذه المجموعة هي نفسها المطبوعة في دار إحياء الكتب العربية باسم «الوسائل المتقبلة في مدح النبي ﷺ». وهي مخمسات على الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء، والمخمس قد يشتمل على عشرين دورا، وقد يقل عدد الأدوار فيه حتى أحد عشر، ومن قوله في المخمس النوني عن رسول الله:

بدا قمرا مسرا شرق ومغرب وخصت بمشواه المدينة يثرب
وكان له في سدة النور مضرب نجى لرب العالمين مقرب^(١)
حبيب فيدنو كل حين ويستدني

أرواح الشهداء والملائكة.

(١) سدة النور: يريد بها سدة المنتهى المذكورة في سورة النجم وأن عندها الجنة التي تأوى إليها

من العالم الأعلى وما هو منهم شبيه بهم في الوصف ذاك لديهم
رحيم بكل الخلق دان إليهم نصيح لأهل الأرض حان عليهم
أضاء لهم صبحاً وصاب لهم مُرناً^(١)

وهو يقول إن الرسول ﷺ قمر استضاءت بأشعة نوره المشارق والمغارب، وخُصت به داره يثرب، شرف لها ما بعده شرف، ونزل في الساء، حين صعد إليها بعراجة، عند سِدْرَةِ المنتهى، نجياً لرب العالمين مقرباً إليه حبيباً، بل أقرب محبوب إليه. وإنه لمن عالم الملائكة الأعلى وإن لم يكن منهم، لشبهه بهم في الوصف وطهارته وإنه للرحمة المسداة إلى الخلق مع النصح الخالص لوجه ربه ومع الحنو والعطف، بل إنه شمس يضيء الوجود صباحاً وينسكب عليه غيثاً غدقا. ولأبي زيد وراء هذا الديوان نبويات كثيرة أنشد منها المقرئ في النفع شذوراً، من ذلك قوله في الرسول:

تَقَدَّمَ كُلُّ الْعَالَمِينَ إِلَى مَدَى	تَظَلُّ بِهِ الْأَوْهَامُ ظَالِعَةً حَسْرَى ^(٢)
وَعَفَى رُسُومَ الْكَافِرِينَ وَأَهْلَهَا	فَلَا قِصْرٌ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ وَلَا كِسْرَى
وَحُصَّ بِتَشْرِيفٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ	بِنُورِ سَمَاءٍ نَاقَلُوهُ عَنِ الْإِسْرَا
تَرَقَّى إِلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ تَرْقِيًا	حَقِيقًا وَلَمْ يَعْبُرْ سَفِينَا وَلَا جِسْرَا
فَسَبْحَانَ مَنْ أَسْرَى إِلَيْهِ بِعَبْدِهِ	وَبُورِكَ فِي السَّارَى وَبُورِكَ فِي الْمَسْرَى

وهو يقول إن الرسول ﷺ تقدم عند ربه إلى مدى لا تستطيع الأوهام أن ترتفع إليه مهما صعدت ومهما تلهفت. وقد محا رسوم الكفار كأن لم تكن شيئاً مذكوراً، فلا كسرى إذ سُلِبت منه كل بلاده وأصبحت من ديار الإسلام، ولا قيصر فقد سُلِبت الجوهرتان المتلاثلتان في تاجه: مصر والشام. وخصه الله بتشريف على الناس ما بعده تشريف، خصه بالإسراء ليلاً إلى بيت المقدس وترقيه إلى السموات السبع ونزوله عند سدة المنتهى ينجى ربه، فسبحان الذي أسرى بعبد. مردداً بذلك ما جاء في أول سورة الإسراء. ويقول بورك في الرسول السارى وفي المسرى والإسراء. ويردد أبو زيد في مديحه النبوى معجزات الرسول المادية ومعجزته الكبرى الخارقة معجزة القرآن الكريم وبلاغته التي ليس لها سابقة ولا لاحقة، ودائماً يذكر أنه خير الأنبياء وأفضلهم، وأكثرهم برا بأصحابه، ويحمل مراراً على أعدائه من الملحدين، ويقول إنهم انحرفوا عن شاطئ النجاة فتردوا في بحار هلاك ما بعده هلاك.

(٢) ظالعة: عرجاء. حسرى: متلهفة.

(١) المزن: السحاب الغدق المطر.

ابن^(١) جابر الأندلسي

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن جابر الهواري، من أهل المرية ولد بها سنة ٦٩٨ وحفظ القرآن واختلف إلى الشيوخ من مثل ابن أبي العيش في العربية ومحمد بن سعيد الرندي في الفقه وأبي عبدالله الزواوي في الحديث. وكان كفيف البصر، ورأى أن يستتم ثقافته بالرحلة إلى الديار المصرية والشامية، وصحبه صديقه أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطي، فكان ابن جابر ينظم وأبو جعفر يكتب. وحجاً وعادا إلى الشام، وسمع ابن جابر بدمشق على شيوخ عصره، واتجه مع صاحبه في سنة ٦٤٣ إلى حلب وتغلقا شاليها حتى ماردین^(٢)، إذ يذكر ابن بطوطة في رحلته عن سلطان ماردین ابن الملك الصالح أنه كان بحرا فياضا في الكرم، يقصده الشعراء والفقراء من الصوفية فيجزل عطاياهم، ويقول إنه قصده أبو عبدالله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الكفيف مادحا، فأعطاه عشرين ألف درهم. وعاش طويلاً في حلب وتوفي بالبيرة سنة ٧٨٠. وقد أكثر من النظم في المديح النبوى، وله فيه ديوان سماه «العقدين في مدح سيد الكونين» وبالمكتبة التيمورية مخطوطة منه. وله بجانب ذلك مشاركة خصبة في الشعر التعليمي إذ نظم فيه فصيح ثعلب وكفاية المتحفظ وغير ذلك، وله بديعية اشتهرت بين البديعيات، وهي قصائد في المديح النبوى، عارض بها أصحابها - منذ صفى الدين الحلي - بردة البوصيري الميمية، وأودعوا كل بيت فيها لونا - وأحيانا لونين - من ألوان البديع، وشرحها رفيقة في رحلته أبو جعفر الغرناطي، واشتهرت باسم بديعية العميان وقد سماها: «الحلة السّيرا»^(٣) في مدح خير الورى» وفي النفع طائفة كبيرة من نبوياته، منها مقصورة في نحو ثلاثائة بيت نقتطف منها قوله:

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مُصْبِحٌ هُدًى يُهْدِي بِهِ مَنْ فِي دُجَى اللَّيْلِ مَشًى
إِنْ تَحَسَّبِ الرُّسُلَ سَمَاءٌ قَدْ بَدَتْ فَإِنَّهُ فِي أَفْقِهَا نَجْمٌ هُدًى
وإن يكونوا أَنْجَمًا فِي فَلَكٍ فَإِنَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ بَدْرٌ بَدَا

(١) ٣٧٠ - ٣٠٢/٧

(٢) ماردین: قرية بتركيا الآن.

(٣) السّيرا: المخطوطة خطوطا بديعة.

(١) انظر في ابن جابر وترجمته وشعره نكت
الهميان ص ٢٤٤ والإحاطة ٣٣٠/٣ والدرر
الكامنة لابن حجر ٤٢٩/٤ وشذرات الذهب
٢٦٨/٦ ونفع الطيب ٦٦٤/٢ - ٦٩٠.

أَحْسَنُ أَخْلَاقًا مِنَ الرُّؤُوسِ إِذَا مَا اخْتَالَ فِي بُرْدِ الصَّبَا أَوَارَتْدَى
تَقْدِيهِ نَفْسِي مِنْ شَفِيعٍ لِلرُّوَى وَقَلَّتِ النَّفْسُ لَهُ مِنْى فِدَا

وقد بدأ ابن جابر المقصورة بالغزل وضمنها في تضاعيف المديح النبوى كثيرا من الخواطر والحكم، وفصل القول في شئائل الرسول ومعراجه ومعجزاته، وتحدث عن الدهر وسطواته بأولى البأس والدول، كما تحدث عن حجه إلى البيت الحرام وزيارته بعده للرسول واكتحال عينيه بنور قبره، ويقول إنه ملاذه وعُدته وذخره لربه. وأنشد له المقرئ مدحة من غرر مدائحه للرسول ورى فيها بسور القرآن الكريم، ويقول المقرئ: لو لم يكن له في مديحه سواها لكفى، وهى تمضى على هذا النحو:

فِي كُلِّ فَاتِحَةٍ لِلْقَوْلِ مُعْتَبَرُهُ حَقُّ الثَّنَاءِ عَلَى الْمَبْعُوثِ بِالْبَقَرَةِ
فِي آلِ عِمْرَانَ قَدَمًا شَاعَ مَبْعُوثُهُ رَجَالُهُمُ وَالنِّسَاءُ اسْتَوْضَحُوا خَبْرَهُ
مِنْ مَدِّ لِلنَّاسِ مِنْ نِعْمَاهُ مَائِدَةٌ عَمَّتْ فَلَيْسَتْ عَلَى الْأَنْعَامِ مُقْتَصِرَهُ
أَعْرَافُ نِعْمَاهُ مَاحِلُ الرَّجَاءِ بِهَا إِلَّا وَأَنْفَالُ ذَاكَ الْجُودِ مُبْتَدِرَهُ

والطريف أنه يُحْكَم وضع اسم السورة في مديح البيت ويلتحم بمعناه التحاما رائعا على نحو ما نرى من ذكره في هذه الأبيات لسور الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال. وآل عمران آل السيدة مريم كما جاء في السورة، والأنعام اسم السورة وهى الإبل، والأعراف كذلك اسم السورة، وهى في البيت جمع عرف بمعنى المعروف، والأنفال اسم السورة وهى العطايا. واطردت هذه الدقة في استظهار أسماء السور الكريمة في جميع أبيات القصيدة. ويهدى في نهايتها أزكى صلواته للرسول وعثرته وصحابته، وخصوصا عشرة منهم، ويسميهم، كما يهدى أزكى تحيتين للسيدتين الكريمتين خديجة وعائشة زوجتي الرسول ﷺ ولايته فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين، ويقول انه سيظل يهدى كل من ساهم مدائحه. وله قصيدة مطولة في فضائل الصحابة العشرة وآل البيت، ولكل علم منهم في أبياتها حظ مقسوم. ونشعر دائما عنده أنه يستمد من نبع فياض لا يتوقف ولا يتقطع، بل يتدفق تدفقا غزيرا.

شعراء الاستنفار والاستصراخ

أخذت قصائد الاستنفار والاستصراخ وطلب الغوث والعون تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف، إذ انقسمت الأندلس الشاحخة في عصر الدولة الأموية إلى أندلسات ودول وإمارات كثيرة، وأخذ أولئك الأمراء يعيشون للهو والقصف، وقلما فكروا في مصير الأندلس، وكثير منهم كانوا يحملون السلاح ويسدّدونه إلى صدور جيرانهم الأندلسيين وما يلبثون أن يغمدوه حين يشهر الحرب على أحد هؤلاء الجيران أعدائهم من نصارى الشمال. وأكثر من ذلك كانوا يفدون أنفسهم وإماراتهم منهم بإتاوات سنوية يدفعونها لهم راغمين. وانتهز أولئك النصارى الفرصة وهذه الفرقة بين أمراء الطوائف فتنادوا باسترداد الأندلس، وكان أول ما حاولوا استرداده حصن بَرَبَشْتَر سنة ٤٥٦ الواقع بين مدينتي لاردة وسرقسطة ركني الثغور الشمالية، فقد حاصره النورمانديون واستولوا عليه ونكّلوا بأهله ونسائه وفتياته تنكيلا بشعا، زلزل الأندلس وأطار من أهلها الأفئدة، وكان ممن أفرغه هذا الحادث الجلل، فقيه طليطلة الزاهد عبد الله العسال، فنظم قصيدة ملتهبة يستصرخ بها أهل الأندلس وفيها يقول^(١):

ولقد رمانا المُشركون بأسهمٍ	لم تُخَطِ لَكُنْ شأنُها الإِصماءُ ^(٢)
كم موضعٍ غنموه لم يُرَحَمَ بِهِ	طِفْلٌ ولا شَيْخٌ ولا عَزَاءُ
ولكم رضيعٍ فرَّقوه من أُمِّه	فلَهْ إِيَّهَا ضَجَّةٌ وبُغَاءُ ^(٣)
ولربِّ مولودٍ أبوه مُجَدَّلٌ	فوقَ الترابِ وفرشُهُ البَيْدَاءُ
ومصونةٌ في خِدْرِها مَحْجُوبَةٌ	قد أبْرَزُوها ما لها اسْتِخْفَاءُ

وهو يقول إن المشركين رمونا بأسهم قاتلة، وغنموا مغانم ضخمة، لا تأخذهم شفقة ولا رحمة على طفل ولا على فتاة ولا على رضيع ينشد أمه ويصيح بها، ولقد هُتكت الحرم ونهبت الفتيات، والدماء هناك مطلولة، وقد رُوع سِرْبُ الله وقُلْ غَرْبه، وإن العين لتدمع وإن النفس لتتقطع. وكان ممن استشارتهم هذه النكبة وأقضت مضاجعهم الفقيه أبو حفص

(٢) الإصماء: القتلى.

(٣) بغاء: نشدان.

(١) الروض المطار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٤٠.

عمر بن الحسن الهوزنى يَرْبُ المعتضد أمير إشبيلية ورفيقه فى شبابه، فكتب إليه يستصرخه^(١)، ليرأب الصدع ويداوى الجروح، ونظم أشعارا يحض فيها الأندلسيين على جهاد العدو قبل أن يستفحل الخطب ويُعضل الداء من مثل قوله^(٢):

بَيْتُ الشَّرِّ فَلَا يَسْتَزِلُّ	طَرَقَ النَّوَامُ سَمْعُ أَزَلٍ ^(٣)
فَثَبُوا وَاحْشَوْشُوا وَاحْزَلُوا	كُلُّ مَارُزٍ سِوَى الدِّينِ قُلُّ
بَدَأَ صَعَقَ الْأَرْضَ نَشْءٌ وَطَلُّ	وَرِيَّاحٌ ثُمَّ غَيْمٌ أَبَلٍ ^(٤)
يَدُنَا الْعُلْيَا، وَهَمٌ - وَيكُ - شَلُّ	فَلَمْ اسْتَرْعَى الْأَعْزَ الْأَذَلَّ ^(٥)
عَجَبُ الْأَيَّامِ لَيْثٌ صُمِّلُ	ذَعَرَتْهُ نَعَجَةٌ إِذْ تَصِلُ ^(٦)

وهو يصرخ فى كل أندلسى أن يعزم - بقوة - على الشر، فقد صكَّ مسامع النوام ذئب فاتهم. وعليهم أن يثبوا بأعدائهم ويخشوشنوا ويتجمعوا لهم حتى يضربوهم الضربة القاضية. وإنه لينذر قومه فبدء الصواعق سحاب ينشأ وطل خفيف ورياح لينة، ثم غيم كثيف ورعود وبروق وعواصف مدمرة. ويحاول أن يملأ روح الأندلسيين حماسة ملتبهة، فيقول إننا كثرة غالبية ولنا العز والبأس والمنعة، وأعداؤنا قلة ذليلة، فكيف دَهَى الأذلاء الأعزاء واستباحوا ديارهم، ويعجب أشد العجب من أن تُفزع نعجة لا حول لها ولا قوة بصوتها اللين الرخيم أسدا ضاريا بالغ الصلابة مفرط القوة. واستطاع أبو حفص الهوزنى وأضرابه من شعراء الأندلس أن يملئوا نفوس أهل سرقسطة غضبا لإخوانهم من أهل بربشتر، فلم يدر عام حتى انقضوا على النورماندين ونكّلوا بهم، واسترجعوا بربشتر، وغسلوها من وضرهم ورجسهم.

وكان فردناند ملك قشتالة قسم دولته بين أولاده الثلاثة: شانجه بقشتالة وألفونس بليون وأشتوريش وقرسية بجليقية والبرتغال، واختصم شانجه وألفونس وانتصر شانجه ففر ألفونس إلى دير، ثم لجأ إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، وبدلا من أن ينتهز الفرصة التى أمكنته من عدوه أنزله ببلده فى قصر وأكرمه لمدة تسعة شهور، درس فيها طليطلة ومداخلها ومخارجها. واغتيل شانجه، واستدعى القشتاليون ألفونس وأصبح

(٥) شل: يريد قلة.

(٦) صمل: شديد الخلق. تصل: تصيح بصوت لين

رقيق.

(١) الذخيرة ٨٩/٢.

(٢) الذخيرة ٨٩/٢.

(٣) سمع أزل: ذئب فاتهم.

(٤) غيم أبلى: غيم ممطر مطرا شديدا.

ملكا عليهم وعلى ليون وجليقية والبرتغال. وكان أول ما أهمه الاستيلاء على طليطلة حتى يردَّ الدِّينَ الذى فى عنقه لبنى ذى النون! يقول ابن الخطيب: «وسُكِّناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذى أوجب تملك النصارى لها^(١)». ولم يلبث أن استولى عليها - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - سنة ٤٧٨ واستولى على جميع المدن والقرى التابعة لها من وادى الحجارة إلى طلييرة وشتنمية، وكان لذلك زلزلة ضخمة فى نفوس الأندلسيين، إذ استولى ألفونس لا على مدينة بل على قلعة ضخمة من أكبر قلاعهم، وانبرى شاعر كبير يحرض الأندلسيين على الأخذ بالثأر واسترداد تلك الجوهرة الكبيرة، بقصيدة تقطر غضبا وموجدة، وفيها يقول^(٢):

طَلِيْطَلَةٌ أَبَاحَ الْكُفْرُ مِنْهَا	حَمَاهَا إِنَّ ذَا نَبَأٍ كَبِيرُ
أَلَمْ تَكُ مَعْقِلًا لِلَّذِينَ صَعَبًا	فَذَلَّلَهُ - كَمَا شَاءَ - الْقَدِيرُ
فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مَصْطَفَاءَ	قَدْ اضْطَرَبَتْ بِأَهْلِهَا الْأُمُورُ
مَسَاجِدُهَا كُنَّاسٌ أَيْ قَلْبُ	عَلَى هَذَا يَقْرُ وَلَا يَطِيرُ؟!
أَذِيلَتْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ كَانَتْ	مُصُونَاتٍ مَسَاكِنَهَا الْقُصُورُ ^(٣)

والنزعة الدينية قوية فى القصيدة، إذ كانت حرب الشماليين فعلا حربا صليبية، والشاعر جزع أن يسقط هذا المعقل الكبير للدين الحنيف، ولا يهبُّ أبناؤه لحمايته واستعادته، حتى لقد أصبح دار كفر بعد أن كان دار إيمان وهداية. ولم يوف ألفونس بما عاهد عليه بنى ذى النون أمراءها وأهلها من الإبقاء على مساجدهم واحترام شعائهم الدينية، فقد أحال مسجدها الكبير كنيسة. ويستثير الشاعر حمية المسلمين لا للدين الحنيف فحسب، بل أيضا للعرض الذى طالما سُلَّت السيوف من أجله وأذيقَت الختوف، فقد أمتهنت النساء العفيفات ربّات القصور الحسان ذوات الجمال، وتحوّلن إلى خادِمات فى بيوت العلوج، وإنه لحرى أن يغلى لذلك دم كل مسلم وأن يمتشق الحسام للثأر والفتك بأعداء الإسلام، يقول:

خَذُوا ثَأَرَ الدِّيَانَةِ وَأَنْصُرُوهَا	فَقَدْ حَامَتْ عَلَى الْقَتْلَى النُّسُورُ
وَلَا تَهْنُوا وَسَلُّوا كُلَّ عَضْبٍ	تَهَابُ مُضَارِبًا مِنْهُ النَّحُورُ ^(٤)
وَمُوتُوا كُلُّكُمْ فَالْمُوتُ أَوْلَى	بِكُمْ مِنْ أَنْ تَجَارُوا أَوْ تَخُورُوا ^(٥)

(١) أعمال الأعلام ٢/٣٣٠.

(٢) نفع الطب ٤/٤٨٣ وما بعدها.

(٣) أذيلت: امتهنت. قاصرات الطرف: عفيفات.

(٤) العضب: السيف القاطع.

(٥) تجاروا: من أجاره إذا حماه. تخوروا من خار:

ضعف ووهن.

وَنَرْجُو أَنْ يُتِّحَ اللَّهُ نَصْرًا عَلَيْهِمْ إِنَّهُ نِعَمَ النَّصِيرِ

وهو يقول للأندلسيين جميعا ولأمراء الطوائف: هبوا من نومكم للأخذ بثأر دينكم ولا تهنوا بل جالدوا أعداءه مجالدة ضارية، حتى تذيبوهم وبال عدوانهم الأثيم، وإنه لعار ما بعده عار أن تسالموهم وتقبلوا إجارتهم وحمايتهم لكم فإن في ذلك هواناً لكم ما بعده هوان. ويستصرخ كل أندلسي أن ينازلهم حتى الذماء الأخير، عسى أن يُجْبَرَ العظم الكبير. ومع روعة القصيدة وامتدادها إلى نحو ستين بيتاً لم يذكر معها اسم ناظمها، وأكبر الظن أنها لزاهد طليطلة أبي محمد عبد الله العسال، ومرّبنا آفا شعره حين استولى العدو على بربشتر، ولا يعقل أن يستولى ألفونس على طليطلة بلده ولا ينظم فيها قصيدة حارة يستنفر بها الأندلسيين لاستردادها، ونظن ظناً أنه نظم في نجلتها لا هذه القصيدة فحسب، بل قصائد مختلفة يستثير بها مواطنيه كي ينقذوها من أيدي القشتاليين.

وكان يوسف بن تاشفين - كما مر بنا - حين استولى على إمارات أمراء الطوائف رأى أن يدع سرقسطة في أقصى الشمال لأمرائها من بني هود لاستبسالمهم المستمر في حمايتها أمام ملوك أراجون، حتى إذا خلفه ابنه على زين له الملتفون حوله من الفقهاء ورجال دولته أن يأخذها من أيدي بني هود، فأجبرهم على التنازل عنها، وسرعان ما أزفت الآزفة إذ حاصرها ملك أراجون سنة ٥١٢ واستولى عليها من يد المرابطين. وكان ذلك نذير شؤم، فقد استولى النصارى بعدها على الثغور المجاورة، استولوا على كُنتَده جنوبيها سنة ٥١٤ وعلى طُيلة وطرسونة غربيها سنة ٥٢٤. وفي سنة ٥٣٩ انحسر ظل دولة المرابطين عن الأندلس، وانتهاز الفرصة كثيرون من شخصياتها فسيطروا على بعض بلدانها، وسيطر من بينهم ابن همشك على جَيَّان واتخذ وزيراً له أبا جعفر الوقشي أحد رجالات الأندلس النابيين وكان شاعراً، وما زال يقنع ابن همشك بالدخول في طاعة الموحدين حتى ارتضى رأيه سنة ٥٦٢ فأرسل به إلى يوسف بن عبد المؤمن في عاصمته مراكش ليعلن إليه دخوله في طاعته، وأحسن يوسف استقباله، وله فيه غير قصيدة، ونراه في إحداها^(١) يستصرخه لجهاد النصارى في الأندلس ورد كيدهم في نحورهم، وفيها يقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُمَدُّ لِي الْمَدَى فَابْصُرْ شَمَلَ الْمُشْرِكِينَ طَرِيداً^(٢)

(١) انظر القصيدة في نفع الطيب ٤/٤٧٧ - (٢) يد لي المدى: تطول حياقي.

وهل - بعد - يَقْضَى فِي النَّصَارَى بُنْصَرَةً
ويغزو أبو يعقوبَ فِي «سَنْتَ يَا قُب»
وَيُلْقَى عَلَى إِفْرِنْجِهِمْ عِبَاءَ كُلِّكُلٍّ
يفادهم جَرْحَى وَقَتْلَى مَبْرَحًا

تفادهم لِلْمَرْهَفَاتِ حَصِيدًا^(١)
يُعِيدُ عَمِيدَ الْكَافِرِينَ عَمِيدًا^(٢)
فَيَتْرَكُهُمْ فَوْقَ الصَّعِيدِ هُجُودًا^(٣)
رُكُوعًا عَلَى وَجْهِ الْفَلَا وَسُجُودًا

وَالْوَقْشَى يَتَمَنَّى أَنْ يُدَّ لَهُ فِي عَمْرِهِ حَتَّى يَبْصُرَ جُمُوعَ الْمُشْرِكِينَ مَهْزُومِينَ مَدْحُورِينَ
مَطْرُودِينَ إِلَى أَقْصَى الشَّالِ وَقَدْ حَصَدْتَهُمْ سَيُوفُ الْمُسْلِمِينَ حَصْدًا بِقِيَادَةِ أَبِي يَعْقُوبَ
يُوسُفَ بْنَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ يَتَعَقِبُهُمْ مَنْزِلًا بِهِمُ الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ حَتَّى «سَنْتَ يَا قُوب» فِي
جَلِيلِيَّةٍ بِأَقْصَى الْغَرْبِ مِنَ مَمْلَكَةِ قِشْتَالَةَ، وَقَدْ أَصْبَحَ عَمِيدُهُمْ أَوْ مَلِكُهُمْ قَتِيلًا إِثْرَ مَوَاقِعَ
تَمَزَّقَهُمْ تَمَزِيقًا، حَتَّى لُتِمَ الْأَرْضُ بِهِمْ جَرْحَى وَقَتْلَى كُبُورًا عَلَى جِبَاهِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ رَاكِعُونَ
عَلَى وَجْهِ الْفُلُوتِ سَاجِدُونَ وَهُمْ مَجْرَحُونَ مَصْرَعُونَ. وَيَمُضَى قَائِلًا:

وَيَفْتَكُ مِنْ أَيْدِي الطُّغَاةِ نَوَاعِمًا
وَأَقْبِلُنْ فِي خُشْنِ الْمَسُوحِ وَطَالَمَا
وَغَبِرَ مِنْهُمْ التَّرَابُ تَرَائِبًا
فَحَقُّ لِدَمْعِي أَنْ يَقِيزَ لِأُزْرَقِ

تَبَدَّلُنْ مِنْ نَظْمِ الْحُجُولِ قِيُودًا^(٤)
سَحَبُنْ مِنَ الْوَشَى الرَّقِيقِ بُرُودًا
وَحَدَّدَ مِنْهُمْ الْهَجِيرُ خُدُودًا^(٥)
تَمَلَّكَهَا دُعَجُ الْمَدَامِعِ سُودًا^(٦)
تَجَاوَرُ بِالْقَدِّ الْأَلِيمِ نُهُودًا^(٧)

وَالْوَقْشَى يَسْتَشِيرُ حِمِيَّةَ يُوسُفَ بْنَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِمَا حَدَثَ مِنْ هَوَانِ النِّسَاءِ الْمُسْلِمِينَ
وَفَتْيَاتِهِمُ الْحَسَنَاتِ إِذْ تَبَدَّلُنْ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَحُلَى خَلَائِلِهِنَّ أَغْلَالُ الْقِيُودِ، بَلْ يَا لِلذَّلِّ فَقَدْ
أَلْبَسُوهُنَّ مَسُوحَ النَّصَارَى الصُّوفِيَّةِ الْخَشَنَةِ بَعْدَ أَنْ عِشْنَ يَلْبَسْنَ الثِّيَابَ الْحَرِيرِيَّةَ الْمَوْشَاةَ
الرَّقِيقَةَ، بَلْ يَا لِلْهَوْلِ لَقَدْ صِرْنَ خَادِمَاتٍ يَلْطُخُ التَّرَابُ مَوَاضِعَ الْقَلَائِدِ النَّفِيسَةِ فِي
صُدُورِهِنَّ، وَقَدْ غَاضَتْ مِنْ خُدُودِهِنَّ النَّضْرَةَ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ فِي لَفْحِ الْهَاجِرَةِ بَعْدَ أَنْ كُنْ

(١) المرفهات: السيوف. حصيدا: محصودين
كالزراع المحصود.

(٢) يريد بعميد الأولى سيد النصارى وملكهم،
وبعميد الثانية قتيلًا وأصل معناها القتل بالعمود.

(٣) كلكل: وقعة ميرة. الصعيد: وجه الأرض.
هجودا: موتى كأنهم نائمون
(٤) الحجول: الخلاخيل.

(٥) غبر: لطح بالغبار. الترائب جمع تريبة:

(٦) يريد بالأزرق الإسباني لزرقة عينيه. دعج
جمع أدعج: شديد السواد.

(٧) معاصم جمع معصم: موضع السوار في يد
المرأة. طفلة بفتح الطاء: المرأة أو الفتاة البضة

الناعمة. القد: سير من جلد.

رَبَّاتِ بِيوتِ وَفَتَيَاتِ قُصورِ مَخدُوماتِ تَحَفَّ بهنِ الفُخامةُ والجِلالُ. ويقولُ الوَقْشيُّ حقًّا
لِدَمْعِي أن يَسِيلَ مَدْرارًا لأولئكِ الحِسانِ ذِواتِ العِيونِ النِجلاءِ الدُّعجِ اللَّائِي نِشانٌ في
الحَلِيَّةِ والنِّعَمِ، فَقَدْ بَدَّلَتِ الأَساورُ والحُلَى الذَّهَبِيَّةُ في مِعاصِمِهِنَّ أَقْداً أوسَيُورا من جِلْدِ،
فِياللِّعارِ! ويا للإِسلامِ! ويا للعُروبةِ

وكان لهذه القصيدة وما يماثلها من استصراخات الأندلسيين ليوسف بن عبد المؤمن
أمير الموحدين الأثر العميق في نفسه، فدخل الأندلس في سنة ٥٦٦ على رأس مائة ألف
فارس شاكي السلاح، وسحق النصارى في غير موقعة واستردَّ كثيرا من ديار الأندلس
والقلاع والحصون، واتسعت بها مملكته. وخلفه ابنه يعقوب المنصور فمزق جموعهم في
موقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ غير أن النصر كُتب لهم في موقعة العقاب سنة ٦٠٩
لعهد ابنه الناصر. وثارت الأندلس على الموحدين، وتفككت بلدانها وتحارب أمراؤها، مما
أذن سريعا بضياح الشطر الأكبر منها، وما توافى سنة ٦٢٦ حتى يستولى النصارى
القشتاليون على مدينة ماردة في الغرب شرقي بطليوس، وفي السنة التالية يستولى
صاحب برشلونة على جزيرة ميورقة، وما تلبث حَبَّاتُ العقد ودرره أن تنفرط واحدة في
إثر أخرى، وتسقط في سنة ٦٣٣ قرطبة جوهرة الأندلس الكبرى في حجر القشتاليين،
وتنشب بأخرة من سنة ٦٣٤ موقعة أنيشة على بعد سبعة أميال من بلنسية بين رجالها
وذوى البأس والشجاعة فيها وبين ملك أرجون وجنوده، واستطاعت الكثرة النصرانية
أن تدحر الأبطال الأشداء ومن كان يلهب حماسهم من العلماء أمثال القاضي أبي الربيع
الكلاعي الذي استشهد وهو ينازل العدو منازل ضارية. ولم يلبث ملك أرجون أن حاصر
بلنسية أشهرًا متعاقبة، وشدَّ الحصار حتى أعوزت شجعانها المؤن، ولم يبق إلا الموت
جوعًا أو التسليم. ومنذ موقعة أنيشة أخذ أميرها أبو جميل زيان بن أبي الحملات
يستصرخ حكام المغرب لإغاثة ونجدة بلدته مرسلًا إليهم الوفود تلو الوفود، وكان ممن
استغاث به أبو زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس، إذ أرسل إليه وفدًا على رأسه
كاتبه ووزيره المؤرخ الأديب ابن الأبار، وسنترجم له عما قليل ملمين بقصيدته التي
أنشدها بين يديه مستنفرًا له قبل سقوط بلنسية في يد العدو. وتأثر حين سماعه القصيدة
فجهَّز أسطولًا من ثمانى عشرة سفينة محمَّلة بالمؤن والسلاح، واتجه الأسطول - مع
ابن الأبار والوفد المرافق له - إلى بلنسية، غير أن الأسطول أخفق في إيصال المؤن إلى
المحاصرين، واضطر إلى إنزالها في ثغر دانية جنوبى بلنسية. وقد ظلت المدينة تقاوم أشهرًا
طوالا حتى نفذت الأقوات واضطر أميرها وأهلها إلى التسليم في صدر سنة ٦٣٦ وكان

ذلك رُزْءًا أليما وخطبا جسيما، مما جعل كثيرين من شرقي الأندلس يستنهضون عزائم أهل المغرب وأمراتهم لاسترداد بلنسية والأخذ بثأرها، من ذلك قصيدة مطولة أنشدها المقرئ لشاعر وجه بها إلى أبي زكريا الحفصى أمير تونس، يقول فيها^(١):

نَادَتْكَ أَنْدَلُسُ فَلَبَّ نِدَاءَهَا وَاجْعَلْ طَوَاعِيَتَ الصَّلِيبِ فِدَاءَهَا
رِشْ أَيُّهَا الْمَوْلَى الرَّحِيمَ جَنَاحَهَا وَاعْقِدْ بِأَرْشِيَةِ النِّجَاةِ رِشَاءَهَا^(٢)
إِيهِ بَلَنْسِيَّةٌ وَفِي ذِكْرَاكَ مَا يُعْرِى الشُّتُونَ دِمَاءَهَا لَا مَاءَهَا^(٣)
بَأبَى مَا ذُنُ كَالطُّلُولِ دَوَارِسُ نَسَخَتْ نَوَاقِيسُ الصَّلِيبِ نِدَاءَهَا
هُبُوا لَهَا يَا مَعْشَرَ التَّوْحِيدِ قَدْ أَنَّ الْهُبُوبُ وَأَحْرَزُوا عَلَيَّاءَهَا

والقصيدة تزخر بالعاطفة الدينية، فالأندلس تستجير ضارعة من حملة الصليب الطغاة، ويتوسل الشاعر إلى أبي زكريا أن يرش جناح الأندلس المهيبض ويعقد حبلها وخبوطها بحبال النجاة وما يرسل إليها من الجيوش الجرارة. ويبكى بلنسية وما دهاها، مما يفيض المدامع لا ماء بل دماء ساخنة حارة، ويود لو فدى المآذن الدارسة بروحه، ويتحسر على ندائها: «الله أكبر» الذى نسخته نواقيس الصلبان بل محته محوا. ويستصرخ المسلمين أهل التوحيد أن يهبوا لإنقاذ الأندلس من أهل الصليب وما ينزلون بها من محن وخطوب عظام. وتسقط فى أواخر سنة ٦٣٩ مدينة شقر جنوبى بلنسية: بلدة ابن خفاجة أكبر شعراء الطبيعة فى الأندلس، ويلتاع الكاتب الشاعر ابن عميرة أحد أبنائها لسقوطها التياغا شديدا آملا فى استردادها من حملة الصليب بمثل قوله: ^(٤)

قَدْ عَادَ قَلْبِي مِنْ شَرْقِ أَنْدَلُسٍ عِيدُ أَسَى قَتَهُ وَمَا فَتَرُ^(٥)
وَدُونَ شَقَرٍ وَدُونَ زُرْقَتِهِ أَزْرَقُ يَحْكِي قَنَاهُ أَوْ أَشْقَرُ
الرُّومُ حَرْبٌ لَنَا وَهُمْ وَشَلُّ سَالِمُهُ الْوَارِدُونَ فَاسْتَبَحَرُ^(٦)
إِنَّا لَنَرْجُو لِلدَّهْرِ فَيَاةَ مَنْ أَنْابَ مِمَّا جَنَاهُ وَاسْتَغْفِرُ^(٧)
وَنَرْقُبُ الْكِرَّةَ الَّتِي أَبَدَا بِهَا عَلَى الرُّومِ لَمْ نَزَلْ نُخْبِرُ

الرباط) ص ٢٣٢.

(٥) عيد هنا: ما يعتاد الإنسان من الهموم. فتر: سكن

(٦) وشل: قليلون. استبحر: كثر واتسع.

(٧) فياة: رجعة.

(١) نفح الطيب ٤/٤٧٩.

(٢) رش من راش: أنبت الریش. أرشية جمع رشاء: الحبل.

(٣) يمرى من أمرى الناقة: أدر لبنها.

(٤) انظر: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي للدكتور محمد بن شريفه (طبع

وهو يقول إنه زار شرق الأندلس، فامتلاً قلبه مما حدث له ولموطنه «شقر» أَسَى وَغَمًا فَتَنَّهُ تَفْتِيتًا، ولم - ولن - يفتّر أو يسكن، وأين شُقر؟ وأين نهرها بزرقته وجلله السندسية؟ لقد استولى عليه شُقر من الروم زرق العيون مثل زرقه قناته، ويقول: يا للعجب ! لقد كانوا فئة معادية قليلة فسالهم الواردون على الأندلس، فإذا هم يتكاثرون ويتسع سلطانهم. وإنه ليأمل أن يتوب الدهر بما جناه على أهل الأندلس من عدوان حملة الصليب، ويسترجع طالبا الغفران. ويقول إننا لا نزال نرقب الكرة على الروم والنصر الذي وعد الله به الإسلام والمسلمين على الكفار وأهل الشرك. ويتوالى بعد ذلك سقوط المدن الأندلسية، فتسقط دانية على المتوسط سنة ٦٤٣ وجيآن شرقي قرطبة سنة ٦٤٣ وشاطبة شرقي دانية سنة ٦٤٤. وإشبيلية سنة ٦٤٥ ومرسية سنة ٦٦٤ ويصرخ أبو البقاء الرندي في نونية له مشهورة صرخة مدوية، وحرى بنا أن نتحدث بإيجاز عنه وعن ابن الأبار.

ابن^(١) الأبار

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، كان أبوه من جِلة القراء، من أهل حصن أندة من أعمال بلنسية، بارحها إليها واتخذها وطنا له ومستقرا، وبها رُزق بابنه محمد سنة ٥٩٥ للهجرة، وعنى به، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ عنه قراءة نافع مقرئ أهل المدينة المشهور، وأكْب على دراسة الحديث ورجاله والفقه والتاريخ، وأخذ يلتهم كل ما يسمعه عن الشيوخ وخاصة عن إمام بلنسية وقاضيهاء لعصره أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي، وكان ابن الأبار يعجب به إعجابا يملأ عليه نفسه، وهو الذي وجهه إلى العناية بالكتابة التاريخية عن أعلام الأندلس، واتخذ الكلاعي صفيًا له، لما رأى من ذكائه النادر، غير أنه طمح إلى العمل السياسي في دواوين الحكام، ولم يلبث والى الموحدين على

مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وشذرات الذهب ٢٩٥/٥ وراجع كتاب الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عنه (طبع بمعهد مولاي الحسن ١٩٥١) وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية عنه ومقدمة الدكتور مؤنس لتحقيقه لكتابه «الحلة السيرة» وقد عرض فيها جميع من تحدثوا عنه من المستشرقين والمعاصرين

(١) انظر في ابن الأبار عنوان الدراية للغيريني ص ١٨٣ واختصار القندح المعلق لابن سعيد ص ١٩١ والمغرب ٣٠٩/٢ وتاريخ ابن خلدون ٢٨٣/٦ وفوات الوفيات لابن شاكر ٤٥٠/٢ وبقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشي ص ٩٠ وأزهار الرياض للمقرئ ٢٠٥/٣ وما بعدها ونفع الطيب ٤٥٧/٤ وفو

مدينته محمد بن أبي حفص أن اتخذها كاتبا له، وكتب بعده لابنه أبي زيد عبدالرحمن، ويستخلص منه بلنسية أبو جليل زيّان بن مردنيش صاحب مرسية، ويظل ابن الأبار كاتبا له، وتحدث معركة أنيشة، ويستشهد فيها أستاذه الكلاعي ويندبه ويندب من استشهدوا معه ندبا حارا. وما يلبث صاحب برشلونه أن يحاصر بلنسية، وحينئذ يرسل به أميرها إلى أبي زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس على رأس وفد لطلب الغوث والمعونة، فجهّز له أسطولا محمّلا بالمؤن والأسلحة كما مرّ بنا، غير أنه لم يستطع إيصال ما يحمله إليها بسبب ما أحاطها به النصارى من حصار شديد، فانسحب الأسطول إلى دانية جنوبيها وسلّم أهلها ما حمله كما مرّ بنا. وتطورت الظروف فاستسلمت بلنسية في صدر سنة ٦٣٦ وحضر ابن الأبار عقد تسليمها وشروطه، ودانما كان أمراء النصارى حين يستولون على بلد أندلسي لا يفون بالشروط المأخوذة عليهم، وكأنما زهد ابن الأبار في المقام بالأندلس بعد سقوط مدينته، فاتجه إلى البلاد المغربية ونزل بجاية وأقام بها بضعة أشهر، ثم تركها إلى تونس، فألحقه أميرها أبو زكريا بدواوينه، فتولى بها كتابة الإنشاء والعلامة أوشارة الدولة، وهي توقيع يوضع على المكاتبات الرسمية لبيان أنها صادرة عن الدولة الحاكمة، وكان يكتبها بخطه الأندلسي، فرأى الأمير أبو زكريا أن تكتب بالخط المشرقي وأن يختص بكتابتها أحمد بن ابراهيم الغساني، وغضب ابن الأبار لذلك وظل يكتب تلك العلامة بخطه الأندلسي، مما اضطر أبا زكريا أن يعفيه من عمله فأقام ببجاية فترة حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر أبو عبد الله محمد أعاده إلى الكتابة في ديوانه ورفع إلى مرتبة الوزارة، وكانت فيه حدة لسان تنفّر الناس منه، ويقول ابن خلدون: «كان فيه أنفة وبأو (عظمة) وضيق خلق» فأوجد له أعداء ألداء، واستطاعوا أن يقنعوا المستنصر باشتراكه في مؤامرة ضده، فأمر بقتله وإحراق أشلائه وكتبه، وهكذا قتل سنة ٦٥٨ مظلوما مأسوفا عليه من معاصريه وكل من جاء بعدهم.

ويعد ابن الأبار في الذروة من مؤرخي الأندلس وعلمائها البررة الموثوق بهم ثقة لا تدانيها ثقة، وهو في مقدمة من مكّنوا الباحثين المعاصرين من الكتابة عن الأندلس وأعلامها النابيين بفضل كتبه النفيسة، وهي: التكملة في مجلدين - المعجم في أصحاب القاضي الصدفى المتوفى سنة ٥١٤ هـ - الحلة السيرة في مجلدين وتشتمل

على تراجم الأمراء والأعيان في الأندلس والمغرب - تحفة القادم في شعراء عصره - إعتاب الكتاب: عن الكتاب الذين فقدوا مكانتهم وحظوتهم عند الحكام ثم استعادوها، وبهذا الكتاب استعاد مكانته عند المستنصر، ثم غضب عليه.

وكان ابن الأبار شاعرا مجيداً، وحين حدثت وقعة أنيشة أظلمت الدنيا في عينيه لمن استشهدوا فيها من الشيوخ الجليلة وخاصة شيخه أبا الربيع الكلاعي، وكان قد بلغ السبعين من عمره، وحين سمع النفير بادر لقتال أعداء الإسلام، ولم يزل متقدماً أمام الصفوف زاحفاً إلى الأعداء مرغباً في قتالهم منادياً فيمن ينهزمون: أعن الجنة تفرون؟ وظل يعمل السيف في الأعداء حتى استشهد مع من استشهدوا من شيوخ بلنسية وشجعانها البواسل، وندبهم معه ابن الأبار بقصيدة، تشعل الحمية في قلب كل مسلم، وفيها يقول:

أَلَمَّا بِأَشْلَاءِ الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ	تَقَدَّ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمِ ^(١)
مَضَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ مَا كَأَنَّمَا	يَطِيرُونَ مِنْ أَقْدَامِهِمْ بِقَوَادِمِ ^(٢)
مَوَاقِفُ أَبْرَارٍ قَضَوْا مِنْ جِهَادِهِمْ	حَقُوقًا عَلَيْهِمْ كَالْفَرُوضِ الْوَلَوَامِ ^(٣)
أَبَيْتُ لَهَا تَحْتَ الظَّلَامِ كَأَنَّنِي	رَمِي نِصَالٍ أَوْ لَدَيْغٍ أَرَاقِمِ ^(٤)
فَوَا أَسْفَى لِلدِّينِ أَعْضَلُ دَاوُهُ	وَأَيَّاسٌ مِنْ آسٍ لِمَسْرَاهُ حَاسِمِ ^(٤)

وهو يهيب بكل مسلم أن يلم بتلك الأشلاء الطاهرة التي قطعته ومزقتها رماح النصراني وسيوفهم ويقول إنهم مضوا إلى الجهاد في سبيل الله مسرعين، كأنهم طير وأقدامهم قوادمه، حتى يؤدوا حقوق دينهم أداء المجاهدين الأبرار. وإن ذكرى الواقعة وشهادتها لتحز في نفسه، بل لكأنما رمى منها بنصال تنزف الدم من فواده، أو كأنه لدغ حيات ما تزال سمومها تسرى في شرايينه. ويتحسر للدين الحنيف في الأندلس فكأنما أنزل النصراني به داء عضالاً، لا يمكن لطبيب أن يشفيه منه أو يحسمه. وذكرنا آنفاً أنه حين قدم مع وفد بلنسية على أبي زكريا صاحب تونس أنشده قصيدة يستصرخه بها لإيقاد بلنسية ويقول ابن سعيد: عارضها كثير من الشعراء ما بين محطى ومحروم، وولع الناس

(١) تقد: تشق. القنا: الرماح. الصوارم: الحيات.

(٢) 'قدما: مسرعين. القوادم: الريشات الكبيرة.

(٣) نصال جمع نصل: حد السيف. الأراقم:

(٤) أعضل الداء: لم يمكن البرء منه. آس: طبيب.

(١) تقد: تشق. القنا: الرماح. الصوارم:

(٢) 'قدما: مسرعين. القوادم: الريشات الكبيرة.

(٣) نصال جمع نصل: حد السيف. الأراقم:

(٤) أعضل الداء: لم يمكن البرء منه. آس: طبيب.

في مقدم الجناح.

بحفظها وَلَعَ بنى تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم، ويقول المقرئ فى أزهار الرياض إنها من «غرر القصائد الطنّانة» ويقول فى النّفح: إنها «قصيدة فريدة فضحت من باراها، وكبا^(١) دونها من جاراها» وفيها يستغيث:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدُلُسًا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسًا^(٢)
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً للحادثات وأمسى جدّها نَعْسًا^(٣)
وفي بِلَنْسِيَةِ مِنْهَا وَقَرْطَبِيَّةٌ مَا يَنْسِفُ النَّفْسُ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً وللنداء غدا أثناءها جَرَسًا^(٤)
طَهَّرْ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسٌ ولا طهارة ما لم تغسل النّجسا
واملاً - هنيئاً لك التأييد - ساحتها جُرْدًا سَلاهِبٌ أَوْ خَطِيئَةٌ دُعَسًا^(٥)

وهو يقول لأبى زكريا: أدرك الأندلس بخيلك: خيل الدين الحنيف فقد تعس حظها وأصبح أهلها جزراً لسيوف النصارى. وإن ما حدث لقرطبة ويوشك أن يحدث لبَلَنْسِيَةِ لما يروع النفوس ويخفق الأنفاس، إذ أصبحت المساجد كنائس وغدا الأذان والنداء للصلاة أجراساً لنواقيس النصارى، ويقول له إنهم نجاسة ينبغي أن تظهر بلادك منهم بما تسفك من دمائهم، إذ لا طهارة ما لم تغسل النجاسة وتُمَحِّها محواً، واملاً الأرض وساحتها عليهم بخيلك وأسلحتك القاضية. وأثارت القصيدة أباً زكريا وملأت قلبه. حفيظة وحمية وموجدة، فأمر - كما أسلفنا - بإعداد أسطول محمل بالمؤمن والذخائر، وأرسل به مع ابن الأبار والوفد البَلَنْسِيّ المرافق له لإغاثة بَلَنْسِيَةِ المحاصرة، غير أن النصارى كانوا قد ضربوا حولها حصاراً لم يستطيعوا اجتيازه، وسقطت فى أيديهم المدينة.

أبو^(٦) البقاء الرُّندى

هو صالح بن أبى الحسن يزيد بن صالح بن شريف يكنى كنية مشهورة بأبى البقاء

(١) كبا: تعثر.

(٢) درس: أخلق وتقادم عهده.

(٣) جزرا: قطعاً وذبائح. جدّها: حظها.

(٤) بيع: كنائس. النداء هنا: الأذان. جرساً أى للنواقيس.

(٥) جرداً: خيلاً سابقة. سلاهيب: عادية. خطية:

رماحاً. دعساً: طاعنة.

(٦) انظر فى ترجمة أبى البقاء وشعره بقية السفر.

الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى
ص ١٣٦ ومابعدھا والإحاطة لابن الخطيب ٣/٣٦٠
ونفع الطيب للمقرئ ٤/٤٨٦ ومابعدھا وأزهار
الرياض ١/٤٧ ومابعدھا ومجلة معهد الدراسات
الإسلامية بمديرى ٦/٢١١ وكتاب تاريخ النقد
الأدبى فى الأندلس للدكتور محمد رضوان الداى
ص ٤٣٣-٤٦٠.

وكنية أخرى بأبى الطيب، ومسقط رأسه رُئده إلى الغرب من مالقة، على قمة جبل سامق يشقها نهر وينايع وتحفها وديان، مما جعلها - كما في المغرب - تُعَمَّ بالسحاب وتوشح بالأنهار العذاب، وقد رُزق أبوه به سنة ٦٠١ وكان من أهل العلم، ولذلك سلكه المراكشى بين أساتذته، وذكر منهم على بن جابر الدباج الإشبيلي الذى ظل يتصدر للإقراء بإشبيلية خمسين سنة، كما ذكر مواطن الدباج أبا القاسم بن الجدد نزيل تونس. ولم يتلمذ هذين العالمين فقط بل تتلمذ أيضا لابن الفخار الشريشى ولاين زرقون الغرناطى. ويذكر ابن الخطيب عن ابن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة أنه تتلمذ له، وكل ذلك يدل على أنهم فى طلب العلوم والآداب، واتضح ذلك فى جانبين عندهما التأليف ونظم الشعر، أما التأليف فله فيه كتاب: «روضة الأنس ونزهة النفس» ويبدو أنه كان كتاب محاضرات وطرف أدبية، وسبق أن ذكرنا فى الفصل الثانى أن له أيضا كتاب الوافى فى نظم القوافى، وأن منه مخطوطة بالمكتبة التيمورية، وأنه فى أربعة أجزاء أولها فى فضل الشعر وطبقات الشعراء وعمل الشعر وآدابه وأغراضه، وثانيها فى محاسن الشعر وفنونه البديعية، وثالثها فى الإخلال والسرقة والضرورة، ورابعها فى حد الشعر وعروضه وقوافيه وأخباره تدل بوضوح على صلته الوثيقة بمحمد بن الأحمر مؤسس إمارة غرناطة، وهى صلة جعلته يكثر من مدائحه. وكان له بجانب هذين الكتابين المتصلين بالأدب شعره ونثره كتاب فى علم الفرائض، وهو يدل - كما قال المراكشى - على أنه كان بجانب ثقافته الأدبية «فقيها فرضيا حافظا» أى محدثا ويقول إنه كان متفنتا فى معارف جليلة.

ويقول المراكشى إنه «كان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره» وإنه كتب إليه بإجازة ما رواه وألفه، ويذكر أن له فى النثر مقامات بديعة فى أغراض شتى، كما يذكر أن كلامه نظما ونثرا مدون، مما يدل على أنه خلف ديوان شعر كان معروفا فى زمنه. وقد طارت شهرة أبى البقاء الرندى شرقا وغربا لقصيدته النونية التى نظمها بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى فى يد النصارى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية وجيان ومرسية سوى ما فى حيز كل منها من مدن ومعازل وحصون مما تنخلع له القلوب والأفئدة أسى وحزنا لهذا المصير المفجع، لا مصير المدن فحسب بل أيضا مصير السكان المسلمين من رجال ونساء وأطفال ووقوعهم أسرى فى أيد لا ترحم، أيد استعبدتهم وأنزلت بهم أهوالا من العذاب لا تطاق. وكأنما ندب أبو البقاء نفسه عن أهل الأندلس يستصرخ المسلمين لنصرة إخوانهم فى الدين وإنقاذهم من يد الكافرين الآثمين، وهو يستهل قصيدته بالحديث عن الدول التى دالت، وكأنما يتأثر فى هذا الجزء من قصيدته بأبن

عبدون آملاً أن تدول دولة النصارى الشماليين، ثم ما يلبث أن يتمثل الفواجع التى نزلت بقرطبة وأخواتها الأندلسيات، وهتف:

دَهَى الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَانْهَدَّ نَهْلَانُ^(١)
فَأَسْأَلُ بَلَنْسِيَّةَ مَا شَأْنُ مُرْسِيَّةِ وَأَيْنَ شَاطِئَةٌ أَمْ أَيْنَ جِيَانُ
وَأَيْنَ قُرْطُبَةُ دَارِ الْعُلُومِ فَكَمْ مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنُ
وَأَيْنَ جِمُصٌ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزْهِ وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَأْضُ وَمَلَانُ^(٢)
قَوَاعِدُ كُنْ أَرْكَانُ الْبِلَادِ فَمَا عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ
إِنْ الْمَسَاجِدَ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسُ وَصُلْبَانُ

إن ما نزل بالأندلس ودهاها من الخطوب أمر يجلّ عن العزاء فيه، إنه لكارثة تهوى لها الجبال وتنهّد في كل أرض إسلامية، فتلك مدن كبرى برمتها ضاعت وضاعت معها قرطبة دار العلوم وإشبيلية دار الغناء والموسيقى، لقد سقطت أركان البلاد الأندلسية وقواعدها الأساسية، فهل يؤمل بعد ذلك بقاء لغرناطة وغيرها مما لا يزال فى أيدي المسلمين، لقد أصبحت المساجد وما كان يتلى فيها من قرآن كنائس تكظ بالنواقيس والصلبان، ويصرخ مستنفرا:

يَا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً كَأَنهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبَانُ
وَحَامِلِينَ سَيُوفَ الْهِنْدِ مُرْهَفَةً كَأَنهَا فِي ظِلَامِ النَّقْعِ نِيرَانُ^(٣)
فِرَاتَيْنِ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دَعَةٍ لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ
أَعْنَدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أُنْدَلُسٍ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ

وهو يصيح فى فرسان المسلمين وأبطالهم من حملة السيوف المرهفة أن يسارعوا لنجدة الأندلس، ويعجب أن يرى المسلمين راتعين فى ديارهم يعيشون فى دعة وعزة وقوة، كأن ليس عندهم خبر عن الأندلسيين وما أصابهم من محن وكوارث، لا تصيبهم وحدهم بل تصيب أيضا الحنفية البيضاء فى الصميم، فبا هذا التقاطع والتناذب وأنتم إخوان فى الدين أخوة أقوى من أخوة ذوى الرحم، إذ ليست أخوة دم بل أخوة روح وقلب وفكر وفؤاد، ويصيح جزعا:

(٢) حمص: إشبيلية.
(٣) النقع: غبار الحرب.

(١) أحد: جبل بالمدينة مشهور. نهلان: جبل بنجد.

يَا مَنْ لَذَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمْ أَحَالَ حَالَهُمْ كُفْرٌ وَطُغْيَانٌ
 بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عُبْدَانٌ
 وَلَوْ رَأَيْتَ بُكَاهِمَ عِنْدَ بَيْعِهِمْ لِهَالِكِ الْأَمْرِ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ
 يَا رَبِّ أُمِّ وَطْفَلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تَفَرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ
 وَطِفْلَةٌ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ
 يَقُودُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً وَالْعَيْنُ بَاكِئَةٌ وَالْقَلْبُ حَزَنَانُ

وهو يلتاع لوعة محرقة لهؤلاء المسلمين الذين استذلهم الكفر والطغيان بعد أن كانوا في الذروة من العز والكرامة، لقد كانوا ملوكا وأمراء، فأصبحوا عبيدا، وإنهم ليكون بكاء مرا، حين يرون أنفسهم - وقد فقدوا أعز شيء على نفوسهم، فقدوا حرياتهم - يباعون بيع العبيد. وباللهول فكم من طفل فرّقوا بينه وبين أمه كما يفرّق بين الروح والبدن، إذ لن ترى ضناها وفلذة كبدها أبدا، وكم من سيدة فائقة الحسن فاتنة كأنما هي ياقوت ومرجان يرغمها إسباني جاف غليظ على المكروه البغيض، وهي محزونة تذرف الدمع مدرارا.

والقصيدة درة يتيمة رائعة، ولروعتها أخذت الأجيال التالية تزيد عليها أبياتا تندب بها البلاد التي سقطت في أيدي النصارى الشماليين بعد وفاة أبي البقاء الرندي سنة ٦٨٤ للهجرة. وتنبيه لذلك المقرئ في نفح الطيب، إذ ذكر بعد إنشاده لها من رواية وثيقة أن بأيدي الناس منها زيادات نُدبت فيها مدن الأندلس التي ظلت تسقط حتى عهد العرب الأخير وحتى استسلام غرناطة مع غروب الشمس العربية نهائيا في تلك الديار بعد أن ظلت ساطعة في سبائها ثمانية قرون طوال.

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

كان طبيعياً أن يعنى عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس بديوان الرسائل، كما عُنِيَ به خلفاء أسرته الأمويون في دمشق، وخاصة جده هشام بن عبد الملك، وقد أسند الكتابة في ديوانه بقرطبة إلى أمية بن يزيد بن أبي حوثة، وأسندها ابنه الأمير هشام إلى محمد^(١) بن أمية المذكور، وتولى مقاليد الحكم بعده ابنه الحكم الربضي، وأسندها إلى حجاج^(٢) المغيلي، وفُطَيْس بن سليمان وفي كتاب الحلة السَّيراء أن راتبه كان خمسمائة^(٣) دينار. وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط مؤسس الحضارة الأندلسية ونُظِمها الإدارية التي استقرت منذ عهده، كما ذكرنا فيما أسلفنا، إذ اتخذ مجلس وزراء وقسم شئون الدولة في القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط، واقتضى ذلك تعدد الكتاب مع الوزراء وأصحاب الخطط مما كان له أثره في نهضة الكتابة الديوانية. ويذكر ابن حيان كتابه، ويسميه أصحاب الكتابة العليا، وهم - على التوالي - عبد^(٤) الكريم بن عبد الواحد بن مغيث مع ما كان له من الحجابة، وتوفي سنة ٢٠٩، فخلفه فيها محمد بن^(٥) سعيد الزجالي، حتى إذا توفي سنة ٢٢٨ خلفه فيها عبد الله^(٦) بن محمد بن أمية، وتوفي عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ فظل يليها - مع مرض كان ينتابه - في عهد

د. مؤنس ٣٧٣/٢.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وانظر الحلة السَّيراء ١٣٥/١.

(٥) المقتبس ص ٣٢ والمغرب ١/٣٣٠.

(٦) المقتبس ص ٣١ والحلة السَّيراء ٣٧٣/٢.

(١) انظر في محمد بن أمية وأبيه وتوليها الكتابة المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود مكي - طبع لبنان) ص ٣١ والمغرب ١/٧١.

(٢) راجع في تولى المغيلي وفطيس الكتابة للحكم الربضي المغرب ١/٤٤.

(٣) انظر الحلة السَّيراء لابن الأبار (تحقيق

محمد بن عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته سنة ٢٤٦ وكان يخلفه في الكتابة أثناء مرضه قومس^(١) بن أنتنيان النصراني وكان بليغا بصيرا بصناعة الكتابة فأسلم وحسن إسلامه، وولاه الأمير محمد الكتابة العليا، وكان قد استن في أثناء اعتناقه للنصرانية - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - الإجازة يوم الأحد، فتبعه في ذلك جميع الكتاب في ديوان الأمير محمد، وأصبحت تلك الإجازة - كما يقول ابن حيان - سنة عامة في الأندلس. وعجلت المنية بقومس، فتقلد الكتابة العليا بعده حامد^(٢) بن محمد بن سعيد الزجالي مع ما تقلد من الوزارة إلى وفاته سنة ٢٦٨. وحين أصبح صولجان الحكم بيد ابنه الأمير عبد الله اتخذ على الكتابة العليا عبيد^(٣) الله بن محمد بن أبي عبدة، ومنذ سنة ٢٨٧ يقلدها عبد^(٤) الله بن محمد بن عبد الله الزجالي، ويظل يتقلدها سنتين زمن عبد الرحمن الناصر حتى وفاته سنة ٣٠٢ فيعهد بها الناصر إلى عبد^(٥) الملك بن جهور فعبد الحميد بن بسيل فعبد الرحمن بن بدر فعيسى بن فطيس بن أصبغ بن فطيس، ونراه يحجّر عن عبد الرحمن الناصر رسالة سنة ٣٢٧ فيخليها من السجع^(٦)، مما يدل على تأخر استخدامه في الكتابة الديوانية بالأندلس، ويؤكد ذلك أننا نرى عبد الرحمن الناصر يعهد بالكتابة العليا بعد ابن فطيس إلى عبد^(٧) الرحمن بن عبد الله الزجالي سنة ٣٢٩ حتى إذا كلّفه في سنة ٣٤٥ بكتابة منشور^(٨) - على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع - يُقرأ في المساجد الجامعة بقرطبة وغيرها من مدن الأندلس ضد ابن مسرة وأتباعه أخلاه من السجع. وظلت الكتابة الديوانية تخلو من السجع في عهد ابنه الحكم المستنصر، حتى إذا كان عهد هشام ابنه وحاجبه المنصور بن أبي عامر وابنيه الحاجبين بعده المظفر والناصر رأينا السجع يشيع على ألسنة كتابهم، على نحو ما يلقانا عند ابن^(٩) بُرد الأكبر صاحب ديوان الإنشاء لعهد المنصور بن أبي عامر وابنيه وفي زمن الفتنة للمستعين (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ثم لبني حمود بعده، وتوفي سنة ٤١٨. وقد نيف على الثمانين، وله من

الرحمن الناصر فهرس المقتبس الجزء الخامس الخاص بالناصر طبع مدريد.

(٦) المقتبس ٤٣٨/٥.

(٧) المقتبس ٤٧١/٥.

(٨) المقتبس ٢٥/٥.

(٩) انظر في ابن برد الأكبر الذخيرة ١٠٣/١

والمغرب ٨٦/١ والحميدى ١١١ والصلة لابن

بشكوال ص ٤٠.

(١) المقتبس ص ١٣٨ والقضاة للخشني ص ١١٠.

(٢) المقتبس ص ٣٢، ٣٧ والمغرب ٣٣١/١.

(٣) راجع في ابن أبي عبدة الحلة السراء ١٤٦/١.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ص ١٧٢.

(٥) راجع في ابن جهور وغيره من كتاب عبد

رسالة^(١) ديوانيه عن الحاجب المظفر بن المنصور بن أبي عامر، يبرر فيها قتله لصهره ابن القطّاع:

«إنا أخذناه من الحَضِيض الأَوْهَدِ، وانتشلناه من شطف العيش الأُنكد، ورفعنا خَسِيْسَتَه، وأتممنا نَقِيصَتَه.. فلا أقرُّ لنا بحق، ولا قابل إحساننا بِصِدْق، ولا عامل رَعِيَّتنا بِرِفْق، ولا تناول خدمتنا بِحَدْق، بل أعلن بالمعاصي ونَبذ عهودنا، وخالف سُبُلنا، وكَدَّر على الناس صَفُونا»

وينتهي عصر الدولة الأموية، وتدخل في عصر أمراء الطوائف: عصر التنافس السياسي الحاد بينهم والتنافس الأدبي الحاد بين الأدباء من كُتَّاب وشعراء، ويصبح السجع أشبه بقانون عام في جميع الرسائل الديوانية الصادرة عن هؤلاء الأمراء إذ التمسه جميع كُتَّابهم في كل ما يكتبونه عنهم، التمسه أحمد^(٢) بن عباس كاتب زهير أمير المريّة على البحر المتوسط المقتول معه سنة ٤٢٩ والتمسه محمد بن أحمد البزلياني كاتب حبوس صاحب غرناطة وسنترجم له عما قليل كما التمسه أبو عامر^(٣) التاكرني كاتب أمراء بلنسية: المظفر ومبارك حتى سنة ٤١٧ ثم المنصور بن أبي عامر الأصغر أميرها بعدها، وكان يعاصره ابن برد الأصغر كاتب مَعْن أمير المرية وسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية، وعاصرها أبو محمد بن عبد البر كاتب مجاهد وابنه على أميرى دانية وسنترجم له بعد قليل. ومن الكتاب النابهين في هذا العصر أبو المطرف^(٤) بن مثنى كاتب المأمون بن ذى النون أمير طليطلة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) وأبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وكان يشاركه في الكتابة للمقتدر أبو عمر الباجي، ومنهم أيضا ابن المعلم^(٥) كاتب المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، وأبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ومحمد^(٦) ابن أين كاتب المتوكل بن الألفس أمير بَطْلَيْوس، وله رسالة عنه إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش

(١) الذخيرة ١٢١/١.

٢٠١. وتاكرنا كانت قصبة رندة.

(٤) راجع في ابن مثنى الذخيرة ٤٠٩/٣.

(٢) راجع في أحمد بن عباس الذخيرة ٦٤٣/١

(٥) راجع في ابن المعلم الذخيرة ١١٢/٢، ١١٨.

والمغرب ٢٠٥/٢ والإحاطة (طبعة عنان) ٢٦٧/١

(٦) انظر في ابن أين الذخيرة ٦٥٢/٢ والمغرب

(٣) انظر في التاكرني الذخيرة ٢٢٦/٣ والمغرب

٣٦٦/١.

٣٣٢/١ والحמידى ٥٦ وإعتاب الكتاب

يستصرخه لنجدة الأندلس ضد ألفونس ملك قشتالة ونصارى الشمال، وفيها يقول: ^(١)
«لما كان نور الهدى دليلاً، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معامك، ووقفت
على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزوك الشرك
أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما أعزل من الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء،
فقد كانت طوائف العدو المطيفة بها - أهلكهم الله - عند إفراط تسلطها واعتدائها،
وشدة كلبها ^(٢) واستشرائها، تلاطف بالاحتلال، وتستنزِل بالأموال.. ولم يزل دأبها التشطط
والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى استصفي الطريف والتلاد، واضطربت في كل جهة
نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفأهم ^(٣)، فيالله! ويا للمسلمين! أيسطو
هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكتنف هذه
الملة النصر، ألا ناصر لهذا الدين المهتمم؟! ألا حامى لما استبيح من حمى الحرم؟ وإنا
لله على ما لحق عرش الدين من ثل ^(٤)، وعزه من ذل!»

وتمضى الرسالة بهذا الاستصراخ المتقدحمة للدين الحنيف وأهله. وتوالى على ابن تاشفين
مثالها من المعتمد. وأرسل هو والمتوكل له قاضيهما مستغيثين به، كما استغاث به كثير من
فقهاء الأندلس، فخفف بجنوده وعبر بهم المجاز خفافاً وثقالاً رجالاً وركباناً، وأنزل بهم وبين
اجتمع له من أهل الأندلس بألفونس السادس ونصارى الشمال موقعة الزلاقة التي سحق
فيها أعداء الدين الحنيف سحقاً، على نحو ما مر بنا في الفصل الأول. ويرى ابن تاشفين
ببصيرته النافذة أن يرفع عن الأندلس عبء أمراء الطوائف الذين أحوالها مزقاً بينهم،
فجمع بلدانها تحت لوائه، وكان قد تعرف على أبي بكر بن القصيرة كاتب المعتمد بن عباد،
فاستدعاه إلى مراكش بعد ثلاث سنوات وعهد إليه بديوان الإنشاء، وظل يتولاه في عهد
ابنه على إلى وفاته، وسنترجم له عما قليل. وطالت مدة حكم على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧)
ومن كتب له أبو القاسم بن الجد وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية،
وأبو عبد الله محمد بن أبي الحवाल وسنترجم له عما قليل وعبد العزيز بن القبطونية
كاتب المتوكل بن الأفطس مع ابن أيمن المار. وكثر ولاية المرابطين في الأندلس وكان كل
منهم يتخذ كاتباً بليغاً ومن كتب لتمييم بن يوسف بن تاشفين وإلى غرناطة أبو الحسن

(٣) الشفار. جمع شفرة: حد السيف.

(١) الذخيرة ٦٥٣/٢.

(٢) الكلب: شدة الحرص والمعاينة، والاستشراء.

(٤) ثل: هدم.

تفاهم الاعتداء.

على^(١) بن الإمام تلميذ ابن باجة الفيلسوف، وكتب لسير بن أبي بكر وإلى إشبيلية عبد المجيد بن عبدون، وهو من كتاب المتوكل بن الأفطس ومرة ترجمته مع مراثيته المشهورة لدولة بني الأفطس، وقد كتب بعدهم للمرابطين، أولاً لسير بن أبي بكر - كما ذكرنا - ثم لعل بن يوسف بن تاشفين إلى وفاته على نحو م مرة في ترجمته.

وتخلف دولةً الموحدين في الأندلس دولة المرابطين، ويذكر صاحب المعجب كتاب حكامها ويبدأ بكتاب مؤسسها عبد المؤمن، وهم أبو جعفر أحمد^(٢) بن عطية وهو مراكشي وأبو القاسم القالمى من بجاية وعياش بن عبد الملك بن عياش القرطبي، وفي مجموع رسائل موحدية المطبوع بالرباط غير رسالة ديوانية للأولين، وهما جميعاً مغربيان. وكتب ليوسف بن عبد المؤمن عياش^(٣) والقالمى إلى أن توفي فخلفه ابن محشرة وهو من بجاية مثله. وكتب ليعقوب بن يوسف ابن محشرة كاتب أبيه وأبو عبد^(٤) الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبى المريبى المولود سنة ٥٥٠ استكتبه يعقوب سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة، وظل يلى ديوان الإنشاء لابنه الناصر ثم لابن ابنه المستنصر حتى وفاته سنة ٦١٨ وفي مجموع رسائل موحدية ثلاث رسائل، له اثنتان منها عن الناصر والثالثة عن يعقوب، وهى فى وصف غزوته الثانية للنصارى سنة ٥٩٢ بعد سحقهم فى موقعة الأرك سنة ٥٩١، وكانت وجهته طليطلة، فاستولى على كثير من الحصون حولها، وفيها يقول^(٥):

« فلما صارت البلاد كأن لم تَغْنِ، والمعقل كأن لم تُبْنَ، وعُلم أن من حيل بينهم وبين المواطن والأموال والأقوات أحياء ولكن فى عِداد الأموات، صوَّبنا على طُليطلة قاعدة الصُّفر، وأم بلاد الكفر.. وأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون. وعرفوا التخاذل من حيث كانوا يُبصرون، واستقبلتهم العِبرُ أفواجاً أفواجا، وجاءتهم النذر تأويهاً وإدلاجاً.. »

وكان أبو عبد الله محمد^(٦) بن يَخْلُفْتَن الفازازى القرطبي يعمل فى ديوان قرطبة وعُيِّن

(١) المطرب ٨٩ والمغرب ١١٦/٢

(٢) المعجب ص ٢٦٧.

(٣) لعله أبو الحسن بن عياش المذكور فى مجموع رسائل موحدية وله فيه عن يوسف رسالتان.

(٤) انظر فى كتاب يعقوب المعجب ص ٣٣٨

وراجع فى أبى عبدالله بن عياش التكملة رقم ٩٥٢

وزاد المسافر ٩٤ والمعجب ص ٣٩١، ٤٠٥.

(٥) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٦) راجع فى محمد بن يَخْلُفْتَن المعجب ص ٣٩١.

٤٠٦ والتكملة رقم ٢١٣٥.

قاضيا في مدينة مرسية، واستدعى للنهوض بالكتابة في ديوان المستنصر حين توفي ابن عياش، وظل قائما عليه في عهد العادل (٦٢١ - ٦٢٤) وتوفيا معا في سنة واحدة. وخلف العادل إدريس بن يعقوب وتلقب بالمأمون (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) وكان يحكم إشبيلية قبل ذلك وثار عليه البياسي بجيآن وقضى على ثورته وكان يكتب له حينذاك أبو زيد^(١) عبد الرحمن بن يَخْلُفْتَن المترجم له في الفصل الماضي أخو محمد المذكور آنفا، وقد استقدمه إلى مراکش ولم يكدمضى بها عدة أشهر - كما مر بنا في ترجمته - حتى توفي سنة ٦٢٧.

وكان يكتب لولاة الموحدين في الأندلس كتاب بارعون ويكفى أن نذكر أنه كتب لعثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة عبد^(١) الرحمن بن مسعدة وأخوه يحيى وابن جبير الرحالة المشهور وابن هرودس الوشاح المبدع على نحو ما ذكرنا في حديثنا عن الموشحات. وأخذت الأندلس جميعها تثور على المأمون والموحدين لضعفهم في مقاومة الأرجونيين في الشرق والقشتاليين في الشمال والبرتغاليين في الغرب. وكان أهل شرق الأندلس أول من ثاروا على الموحدين بزعامة أبي عبد الله محمد بن هود سنة ٦٢٥ تحت شعار الخلافة العباسية إرضاء للعامة، واتخذ مرسية قاعدة له ومد سلطانة على مالقة والمرية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة، وثار عليه بإشبيلية الباجي وابن صاحب الرد وابن الجدة وتوفي ابن هود سنة ٦٣٥ وثار بمرسية عزيز بن خطاب سنة ٦٣٦ وقتل بعد تسعة أشهر. ومن أكبر الثوار حينئذ ابن الأحمر محمد بن يوسف، وقد واقع ابن هود وانتصر عليه مرارا واستخلص منه غرناطة وأسس فيها دولتهم التي ظلت أكثر من قرنين ونصف. ومن كبار هؤلاء الثوار أبو جميل زيان بن مردنيش الناصر ببلنسية سنة ٦٢٦ وقد حكم أولا تحت شعار العباسيين مثل ابن هود، ثم حول الدعوة منهم إلى الحفصيين في تونس رجاء أن يدوا له يد العون ضد ملك أرجون. وقد أخذت تسقط جواهر الأندلس ومدنها الكبرى في حجور الأرجونيين والقشتاليين والبرتغاليين، وإنما ذكرنا ذلك لأن كل تائر ممن سميناهم اتخذ كاتبا بليغا، فالبياسي كتب له أبو يحيى^(٢) بن هشام القرطبي وأحببت ثورته سريعا، واعتنق النصرانية مذموما مدحورا، وكتب لابن هود أبو جعفر^(٣) أحمد بن

٣١/٧ حيث احتفظ برسالة مهمة له عن ابن هود.

(٣) راجع في أبي جعفر المغرب ١٦٤/٢ والقده

١١٤.

(١) راجع في عبد الرحمن وأخيه يحيى المغرب

١١٢/٢ - ١١٣.

(٢) انظر في أبي يحيى بن هشام المغرب ٧٤/١

واختصار القده المعل ص ٨٩ وصبح الأعشى

طلحة وابن الجنان^(١) وأبو المطرف بن عميرة، وسنترجم له، وكتب عن الباجي ابن^(٢) البناء الإشبيلي، وكتب لابن الأحمر ابن خطاب^(٣) الجبائي وأبو عبد الله^(٤) ابن الخيال، وكتب لزيان أبو المطرف بن عميرة، وابن الأبار الذي ترجمنا له في الفصل الماضي.

ومن الكتاب في دواوين بني الأحمر ابن الحكيم^(٥) كاتب الحاكم الثاني في الأسرة محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) وكتب ابن الحكيم أيضا لابنه محمد (٧٠١ - ٧٠٨ هـ). ومن كتاب بني الأحمر النابيين في القرن الثامن الهجري ابن الجيَّاب^(٦) ولسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وسنترجم له، وخلفه على ديوان الإنشاء ابن زَمْرَك، ومُرَّت ترجمته بين شعراء المديح، وربما كان أنه كتبهم في القرن التاسع الهجري أبو عبد الله^(٧) الشَّراَن محمد بن إبراهيم. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنتحدث بكلمات مجملة عن ستة من كتاب الرسائل الديوانية النابيين هم: البزلياني وأبو محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبي الخصال وابن عميرة ولسان الدين بن الخطيب.

البزلياني^(٨)

هو أبو عبد الله محمد بن عامر البزلياني المالقي، وبزليانة من قرى مالقة، وكانت مالقة تتبع غرناطة وكانت إمارة الإقليم في عصر أمراء الطوائف لبني زيري المغاربة، وأول من تولاها منهم زاوي حتى سنة ٤١٠ وتولاها بعده ابن أخيه حبُّوس بن ماكسن بن زيري، وطمحت نفس البزلياني للعمل في الدواوين بغرناطة وسبقت شهرته بإحسان الكتابة إليها فاستكتبه أميرها حبوس وأصبح رئيسا لديوانه وكتابه. وعمل بعده مع ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكانت فيه قسوة وجفوة، فرأى التحول عنه وعن دواوينه، ويقول صاحب الذخيرة إنه «ممن أدار الملوك ودبرها، وطوى الممالك ونشرها» وإنه تقلب في البلاد، وانتهى به المطاف إلى المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣ فآلحقه بدواوينه، ووصله بابنه

(٥) أزهار الرياض ٢/٢٤٠ والإحاطة ٢/٤٤٤.

(٦) الكتيبة الكامنة ص ١٨٣.

(٧) انظر في الشراَن أزهار الرياض ١/١٣٣.

(٨) راجع في ترجمة البزلياني ورسائله الذخيرة

١/٦٢٤ والمغرب ١/٤٤١.

(١) راجع في ابن الجنان ورسالة له عن ابن هود.

صبح الأعشى ٧/٣٤.

(٢) انظر في ابن البناء القدح ص ١١٨.

(٣) راجع في ابن خطاب الجبائي القدح ص ٢٢.

(٤) انظر في أبي عبد الله بن الخيال القدح ص

إسماعيل، وما تدخل سنة ٤٤٥ حتى يأمر المعتضد ابنه إسماعيل بغزو قرطبة، ولم يكن البزلياني - كما سنرى - يرتضى سياسة المعتضد في غزو جيرانه، بينما يرضخ خاضعا لنصارى الشمال، وأغوى إسماعيل بمخالفة رأى أبيه، وخوفه من إسراع باديس أمير غرناطة بنجدة بنى جهور في قرطبة، فيقع بين فكئ أسدين يمضغانه. وكان المعتضد أبوه يعامله بقسوة وفظاظة فرأى أن ينصرف من طريقه بجيشه إذ تعاضمه الهجوم على قرطبة مع قرب حلي أمرائها باديس أمير غرناطة منهم كما ذكرنا. ويقال إن البزلياني مضى في استغوائه له وإنه أشار عليه بهربه من أبيه ودبره، وتطورت الظروف، فقتل المعتضد البزلياني لما وقر في نفسه من أنه هو الذى أغواه، وقتل بعده ابنه. هكذا يقول الرواة ونظن ظنا أن المعتضد استدرج البزلياني للعمل في دواوينه، وهو يبيت له هذا المصير المحتوم، لما عرف عنه من إنجائه على أمراء الطوائف باللوم - في رسائله - منذ كان عند حبوس - على سياستهم وحريهم بعضهم لبعض واستعانتهم في ذلك بنصارى الشمال، ليغرسوا جراحهم في صدور إخوانهم المسلمين. وليس ذلك غريبا على المعتضد فقد كتب إليه أصدق أصدقائه أبو حفص عمر الهوزنى يحضه على جهاد النصارى فاستدرجه، ووضعه بأعلى محل، وعول عليه في العقد والحل، حتى إذا مضى عليه عامان باشر قتله بيده^(١)، فكان طبيعيا أن يفتك بالبزلياني، حتى لو لم يتصل بابنه إسماعيل، لحملته العنيفة على سياسته وسياسة أنداده من أمراء الطوائف، على نحو ما يتضح من رسالة أرسل بها - كما يقول ابن بسام - عن حبوس إلى يحيى بن منذر التجيبى أمير سرقسطة: وفيها يقول:

«اتصل بى ما وقع بينك وبين المؤتمن (المنصور)^(٢) الأصغر عبد العزيز) أمير بلنسية (٤١٧ - ٤٢٥ هـ.) والموفق مجاهد (أمير دانية) (٤١٣ - ٤٣٦ هـ.) وعضد الدولة (أمير إشبيلية)، وأنكم اضطُررتم إلى إخراج كل فريق منكم النصارى إلى بلاد المسلمين، فعظم قلقى، وكثر على المسلمين شفقى، فى أن يطأ أعداؤهم بلادهم، ويؤتموا أولادهم.. ولو لم تكن الفتنة - يا سيدى - إلا بين المسلمين والتشاجر إلا بين المؤمنين لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأيدنا بالمشركين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حُرمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأدَّتْنا إلى الندم مساعينا، كانت الدائرة

أَمْضُ^(١)، والحيرة أَرْمَضَ^(٢)، والفتنة أَشَدَّ، والمحنة أَهْدُ، والأعمال أَحْبَطُ، والأحوال أَسْقَطُ، والأوزار أَثْقَلُ، والمضارَّ أَشْمَلُ، والله يُعِذُّنا من البوائِقِ^(٣)، وَيَسْلُكُ بنا أَجْمَلَ الطرائِقِ.. وأنت يا سيدى للمسلمين الحِصْنُ الحَصِينُ، والسَّبَبُ المتين، والنَّصِيح المأمون، فَأَجْرِ في جَمْعِ كلمتهم والعرامة دون حَوَزَتِهِمْ^(٤)».

والبزلياني يصرخ في يحيى بن المنذر التجيبى أمير سرقسطة في أقصى الشمال، فإن أمراء الطوائف من أمثال أمير بلنسية وأمير دانية وأمير إشبيلية يوطئون النصارى بلادهم مستعينين بهم في حرب أهل دينهم وقتل الآباء وتيتيم الأطفال والأبرياء. ويقول لو كانت المحنة محاربة المسلمين بعضهم بعضا فحسب لكنت تلك قارعة عظمى وداهية كبرى، ولكن المحنة أدهى وأمر فإننا نستعين بالنصارى ونبيحهم ديارنا فيا لله ويا للمسلمين. ويستغيث بيحيى بن المنذر أن يجمع كلمة هؤلاء الأمراء، حتى يدافعوا عن حَوَزَتِهِمْ وحدود أرضهم ويرموا العدو يدا واحدة حتى لا تقوم له قائمة. ومن غريب أن هذه الصرخة دَوَّتْ في العشرينيات من القرن الخامس، وكأنها صرخة في فلاة ولا حياة لمن تنادى. ويصرخ البزلياني في رسالة ثانية وَجَّهَ بها إلى (المنصور الأصغر أمير بلنسية الذى ذكره في الرسالة السابقة)، وله يقول - فيما أظن - على لسان باديس:

«اتصل بى ما جرعتُ له من لزومك مع الموفق مجاهد وَمَنْ تبعكما من مُعَاقِدِكِما لمقاتلة المظفر أبى بكر محمد أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) ومنازلته ومقارعته واستجاشة^(٥) كل حزب منكم النصارى وطمعكم أن تمنعوا بهم ذِمَارًا، وتَقْضُوا بإخراجهم (معكم) أَوْطَارًا^(٦)، وتُدْرِكُوا بأيديهم أَوْتَارًا^(٧). ولم يَخَفْ عليك ما يتسبَّب بالفتن، من البلوى والمِحْنِ.. باخترام^(٨) الرُّجَال، وإيتام الأطفال، وإرْمال^(٩) النساء، وإحلال الدماء، وانتهاب الأموال، واعتِساف^(١٠) الأهوال، وإخلاء الأوطان، وإجلاء السكان. هذا إذا كانت الدعوة واحدة، والشرعة معاضدة، فأما إذا انساق العدو إلينا، وتطرَّق علينا،

(١) أَمْضُ: أكثر أُلّا.

(٢) أَرْمَضُ: أوجع.

(٣) بوائِق: جمع بائقة: الداهية.

(٤) الحوزة: الحمى.

(٥) استجاشة هنا: استعانة.

(٦) أَوْطَارًا جمع وطر: مأرب.

(٧) أَوْتَارًا جمع وتر: ثأر.

(٨) اخترام هنا: قتل أو موت.

(٩) أرملت المرأة: مات زوجها.

(١٠) اعتساف: ركوب.

وَضَرَى^(١) على أموال المسلمين ودمائهم، وَجَرُّوْ عَلَى قَتْلِ رَجَالِهِمْ وَسَبَى نَسَائِهِمْ، وَبَانَتْ لَهُ الْعَوْرَاتُ، وَتَحَقَّقَتْ عِنْدَهُمُ الْاِخْتِلَافَاتُ، أَحَدُوا رَحَاهُمْ^(٢)، وَاسْتَمَدُّوا مِنْ وَرَاهِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِمْ بَعْدَ يَدٍ^(٣)، وَلَا عَنْ إِخْلَاءِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بَدْءٌ، وَاللَّهُ يَحْمِيهَا مِنَ الْغَيْرِ^(٤)، وَيَكْفِيهَا سُوءَ الْقَدَرِ»

ولا تقل هذه الصرخة عن سابقتها قوة، والبزلياني يهيب فيها بالمنصور الأصغر أن لا يمضى مع مجاهد فى حشد الجيوش ضد أخيهما المظفر بن الأفطس أمير بطليوس مستعينين فى قتال أهلها المسلمين بالنصارى طامعين أن يحموا لها حماتها وأن يحققوا لها آمالها ويدركوا لها آثارها غير مراعين فى أهل دينها حقاً، إذ تقتل الرجال وتيتم الأطفال وترمل النساء وتهب الأموال وتخلو الأوطان ويحلو السكان. والطامة الكبرى أن العدو إذا جاس خلال ديارنا وتجراً على نهب أموال المسلمين وعلى سفك دمائهم وقتل رجالهم وسبى نسائهم وانكشفت له فى البلاد العورات، وتحقق مما بين أمراء المسلمين من الاختلافات والمنازعات شحذ أسلحته وأدار رضى حرب طاحنة مستمداً فيها النصارى من ورائه فى أوربا، فجاءوه من كل فج، وأصبح المسلمون ولا طاقة لهم فى نزاهم ولا قدرة، واضطروا اضطراباً إلى مبارحة الجزيرة لا يلوون. وذهبت الصرختان جميعاً هباء، وبدلاً من أن يعيها هؤلاء الأمراء الذين عاشوا للترف وأعدوا لضياغ البلاد جازاه المعتضد الباغى منهم شر الجزاء، فسفك دمه.

أبو محمد^(٥) بن عبد البر

هو أبو محمد عبد الله ابن الفقيه المشهور أبى عمر بن عبد البر النمزى القرطبى، وقد عُنى به أبوه، فخرجه على يده فى أجهل صورة علمية للشباب الأندلسى فى عصره، وتفتحت فيه مبكراً نزعة أدبية جعلته يؤثر على حلقات العلم والدراسة دواوين أمراء الطوائف، ويقول ابن بسام إنه «حلّ من كتاب الإقليم محل القمر من النجوم.. وتهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق.. ففاز به المعتضد (أمير إشبيلية) بعد طول خصام، والتفاف

(٥) انظر فى ترجمة أبى محمد ورسائله الذخيرة

١٢٥/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠٢/٢ والقلائد ١٨١

والصلة رقم ٦٠٦ وبغية الملتبس رقم ٩٦٥

وإعتاب الكتاب ٢٢٠ والخريدة ١٦٦/٢، ٤٥٩/٣.

(١) ضرى: اجتراً.

(٢) الرضى هنا: رضى الحرب.

(٣) يد هنا: طاقة، قوة.

(٤) غير الدهر: أحداثه وتقلباته.

زحام، فأصاخ أبو محمد لمقاله، وتورط بين حباله وحباله» وأصبح من كُتّاب ديوانه، ولا نعرف الأسباب التي جعلت ابن زيدون يَغصّ - كما يقول ابن بسام - بمقامه معه في حضرة المعتضد، إذ أخذ يوغر صدره عليه، ومضت الأيام. وشعر أبو محمد بتغير المعتضد عليه، وكان سفاكا للدماء، فأخذ في اقتناء الضياع والديار حتى يوهمه بأنه لن يفارق عمله عنده، ويبدو أنه أرسل إلى أبيه يطلعه على موقف ابن زيدون وزير المعتضد - وموقف المعتضد نفسه منه - وأنه يخشى مغبة مكثه عنده، فربما فتك به كما فتك بكثيرين. وكان أبوه قد استوطن دانية وطاب له المقام عند أميرها مجاهد، فخفّ إلى المعتضد، وخلصه من يديه، وانصرف به محفوا بالتجلة والإكرام، يقول ابن بسام: «وجعل أبو محمد بن عبد البر بعد نجاته من المعتضد يتنقل في الدول كالبدر يترك منزلا إلى منزل.. وكتب عندنا عن أكثر ملوك الطوائف» وأكبر الظن أن ابن بسام بالغ في قوله إنه تنقل بين ملوك الطوائف وكتب عند أكثرهم، فإنه هو نفسه لم يَرَوْ له رسائل ديوانيه إلا عن المعتضد وعلى بن مجاهد أمير دانية بعد أبيه مجاهد (٤٣٦ - ٤٦٧ هـ) وكأنه صَحِب أباه إلى دانية، فوظفه على بن مجاهد رئيسا لديوانه وكتّابه، وظل يعمل فيه، حتى توفي سنة ٤٥٨ وحرزن أبوه لفقده، ولعل ذلك ما جعله يتحول عن دانية إلى شاطبة، شرقيها، وبها توفي. وقد أورد ابن بسام لأبي محمد رسائل ديوانية كثيرة عن المعتضد وعلى بن مجاهد، ومن أطرفها رسالة عن ابن مجاهد وقد زفّ ابنته إلى المعتصم بن صامح أمير المرية، وفيها يقول:

«أُنْفِذَتِ الْهَدِيَّةُ (العروس).. وأنا أسأل الله في متوجّجها ومُنْقَلِبا الرعاية الموصولة بك، والكفاية المعهودة منك، حتى يَفِيءَ^(١) عليها ظُلك، ويَبُوئُها^(٢) مَثَوَى الحفاوة محلّك، ويحميها حَوْزُك ومكانك، ويؤويها عِزُّك وسُلْطانك، ثم حَسْبِي عليها كرمك وكَنَفُك^(٣)، وخليفتي عليها بَرُّك ولُطْفُك.. وإنك - واللّهُ يَبْقِيكَ ويُعْلِيكَ، ويشدُّ^(٤) قَبْضَتَكَ على رقاب أمانيك وأراجيك - دُخْرُ الأبد، وعَتَادُ الأهل والإخوان والولد، وعندك ثمرة النفس وقلْدة الكبد، فارقتُها عن شدة ضنّانة، وأسلمتها بعد طول صيانة، ومازُفْتُ إلا إلى كريم يحملها محمّل الأمانة، ويقضى فيها حقّ الديانة، ويرعى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابها عن ملئها ومنشئها، وهو حُكْمُ الله الواجب، وقدره الغالب، وسُنَّتُهُ المشروعة، ومَشِيئَتُهُ المتبوعة»

(٣) الكف: الحفظ والجناح.

(٤) يشد: يقوى ويحكم.

(١) يَفِيء: ينبسط.

(٢) يَبُوئُها: ينزلها.

وحدثت في سنة ٤٥٦ نكبة عظيمة، فإن النورمانديين في الشمال الغربي لفرنسا تجمعوا وتجمعت معهم شراذم من فرنسا وأوروبا لحرب المسلمين في الأندلس، مكوّنين حملة صليبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ باركها البابا إسكندر الثاني، واختارت الحملة جبال البرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وحاصرت مدينة وشقة في أقصى الشمال الشرقي لإسبانيا، ولم تستطع اقتحامها، فاتجهت إلى مدينة برّيشتر إلى الشمال الشرقي من سرقسطة، وحاصروها أربعين يوما، واضطر أهلها إلى التسليم لنقص القوات والمثونة، ففتكوا بهم فتكا ذريعا وانتهكوا نساءهم وسبوا عشرات الألوف من غلمانهم وفتياتهم، وحملوا من الكسوة والفرش والأمتعة خمسمائة حمل، كل ذلك والمقتدر أمير سرقسطة قد وكلهم إلى أنفسهم وقعد عن النفير لهم. وزر لا يماثله وزر، وقد شركه فيه أمراء الطوائف جميعا، إذ لم ينهض أحد منهم للدفاع عن برّيشتر. ويعلى ابن حيان تلك الكارثة بعليتين: علة صمت الفقهاء لأكلهم على موائد هؤلاء الأمراء وتقية وخوفا منهم، والعلة الثانية، وهي الأفدح، أن الأمراء استناموا إلى التناذب والتنافر، ويسميهـم «أمراء الفرقة الهمل» ويعجب أن لا تنبههم هذه اللطمة الضخمة إلى جمع الكلمة ووقوفهم صفا واحدا ضد العدو الكاشر عن أنيابه، وأن يكون كل ما دفعتهم إليه حفرة الخنادق حول مدنها وتعلية الأسوار وتوثيق البنيان. وأطارت النكبة أفئدة المسلمين في الأندلس وتزلزلت بهم الأرض، وتجمعوا في السنة التالية بقيادة المقتدر بن هود أمير سرقسطة وكأنما أراد أن يغسل عنه عار نكوله عن إغاثة أهل برّيشتر، وسرعان ما أجيل السيف في النصارى المعتدين واستوصلوا أجمعين ورُدّت برّيشتر إلى المسلمين فغسلوها من رجس الشرك - كما يقول ابن حيان - وجلوها من صدا الإفك^(١). وإنما قدمنا كل ذلك لتتضح لنا صرخة ضخمة وجّهها أبو محمد بن عبد البر في شكل منشور وُزِع في كل مدن الأندلس، مما دفع أهل الجهاد في كل مكان منها إلى حمل سلاحهم واستردادها سريعا هذا الاسترداد المشرف، وقد جعل المنشور على لسان أهل برّيشتر وعنوانه - كما يقول ابن بسام -:

«من الثغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بَعْرِوة الدين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتآلفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سنة

(١) انظر في تصوير ابن حيان لموقعة برّيشتر

الرسول، محمد نبي الرحمة، وشفيع الأتة، إلى مَنْ بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين، وحُماة المسلمين، ورعاة الدين، من الرؤساء والمرءوسين»

والمنشور كان طويلا مما جعل ابن بسام يقتطف منه فصولا، وقد مضى أبو محمد يصور ما نزل بأهل بربرشتر من الأهوال التي تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان، ومن قوله في بعض فصوله مستثيرا مستنفرا بما يوجع القلوب سماعه من انتهاك النساء والدين:

«إنا لله وإنا إليه راجعون - على ما رأت منا العيون - من انتهاك النعم المدخرات، وهتك ستر الحرم المحجبات، والبنات المخدرات، ولو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانكم في الدين، وقد غلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأثخنتم الجراح، وعشت بهم زرق الرماح، وقد كثر الضجيج والوعيل والنواح... ومصاحف تمزق، ومساجد تحرق، ولا الأخ يلبى أخاه، ولا الابن يدعو أباه، ولا الأب يدنى بنيه، (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ولا المرضعة تلوى (تعطف) على رضيعها، ولا الضجيعة ترثي لضجيعها.. وقد سبقت النساء والولدان، ما بين عارية وعريان، ومشيجة الرجال مقرئين في الجبال، مصفدين في السلاسل والأغلال.. والجوامع، والصوامع، بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مطبقة^(١) بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضا من شيعة الرحمن، والكفر يضحك ويُنكى^(٢)، والدين ينوح ويُنكى، فيا ويلاه! ويا ذللاه! ويا كرباه! ويا قرآناه! ويا محمداه! ولو شهدتم - معشر المسلمين - ذلك لطارت أكبادكم جَزعا، وتقطعت قلوبكم قطعاً، واستعذبتكم طعم المنايا، لموضع تلك الرزايا، ولهجرت أسيافكم أغمادها، وجفت أجفانكم رقادها، امتعاضا لعبدة الرحمن، وحفظة القرآن، وضعة النساء والولدان، وانتقاماً من عبدة الطغيان، وحملة الصلبان»

والرسالة - بهذا النمط - تشعل الحماسة في النفوس الخادمة حمية للدين الحنيف وما حُرّق من مساجده وصوامعه وما مُزّق من قرآنه ومصاحفه، ولنساء المسلمين وما انتهك من حرمااتهم وما ساموهم به من أسر وسباء، بل من عرى وعذاب أليم، ومن بقى من الرجال أوثقوا في السلاسل والأغلال. ويقول أبو محمد: إن

مادّهي بربشتر إنما هو رمز لما أصاب الأندلسيين في عهد أمراء الطوائف من تقاطع وتنابد ويدعو إلى التواصل والألفة، حتى يتدارك الأندلسيون ما يوشك أن يصيبهم من هلاك مدمر، يقول متحسراً:

«ولو كان شملنا منتظماً، وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سَهْمٌ، ولا سَقَطَ لنا نَجْمٌ^(١)، ولا ذُلٌ لنا حِزْبٌ، ولا فُلٌ لنا غَرْبٌ، ولا رُوعٌ لنا سِرْبٌ، ولا كُدْرٌ لنا شِرْبٌ^(٢)، ولكُنّا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين، فالحذرَ الحذرَ! فإنه رأس النظر، من بركانٍ تطاير منه شرٌّ مُلتهب، وطوفانٍ تساقط منه قَطْرٌ مُرهب، قلما يُؤْمَنُ من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق، فتنبّهوا قبل أن تُنبّهوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم»

ولم تذهب صرخة أبي محمد أدرج الرياح، فسرعان ما حمل الأندلسيون أسلحتهم كما ذكرنا، وهاجوا العدو في برشتر وردوا كيده في نحره مستأصلين له إلا ما باعوه ببيع الرقيق من الأبناء والعيال. وكان حرباً بأمراء الطوائف بعد تلك الكارثة المروعة أن يأتلّفوا ويتحدوا ضد نصارى الشمال، ولكنهم عادوا إلى فرقتهم كما عادوا إلى استخذائهم من دفع الإتاوات السنوية لأولئك النصارى مع تسديدهم الرماح والسيوف إلى صدور إخوانهم من المسلمين إلى أن ضاعت طليطلة، ولولا أن تدارك يوسف بن تاشفين الأندلس لسقطت مدنها في حجور النصارى واحدة إثر أخرى.

أبو بكر^(٣) بن القصيرة

هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الوَلْبِي الإشبيلي المعروف بابن القصيرة، نشأ في إشبيلية، وفتحت موهبته الأدبية في عهد المعتضد أمير إشبيلية، وفطن له - كما يقول ابن بسام - ابن زيدون وزيره، فنبه عليه المعتضد آخر دولته، فألحقه بديوانه، وتعرّف

(١) يقال لم يسقط لهم نجم كناية عن غلبتهم وظفرهم الدائم.

(٢) الشرب: مورد الماء.

(٣) انظر في ترجمة ابن القصيرة ورسائله الذخيرة ٢٣٩/٢ والمغرب ١/٣٥٠ والقلاند ١٠٤ والصلة رقم ١١٣٧ والمطرب ٨١ والمعجب ٢٢٧ والإحاطة

٥١٦/٢ وإعتاب الكتاب ٢٢٢ والوافي ٣/١٢٨ والخريدة ٣/٣٨٣ والذيل والتكملة ٦/٢٢٧ ووثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين في المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد وما بها من رسائل ابن القصيرة مع تحليل د. محمود مكى لها.

حينئذ بالمعتمد وأعجب كل منها بصاحبه، حتى إذا استولى على صولجان إشبيلية بعد أبيه رفعه إلى مرتبة الوزارة، مع إسناد الكتابة إليه، وله عنه في الذخيرة غير رسالة، وعهد إليه غير مرة بالسفارة بينه وبين جيرانه من أمراء الطوائف، حتى إذا استولى ألفونس ملك القشتاليين على طليطلة، وشدد عليه فيما كان يأخذ من المعتمد من إتاوات سنوية استصرخ - وبالمثل المتوكل أمير بطليوس - يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لكي يقدم بجيشه إلى الأندلس نجدة لها ضد ألفونس ومطامعه، وكان أبو بكر بن القصيرة هو الرسول أو السفير الذي حمل رسالته إلى يوسف واستغاثته. ولَبَّاهُ ولَبَّى المتوكل وفقهاء الأندلس، فعبر بجنوده المجاز، وأنزل - يعاونه الأندلسيون وأمرأؤهم : المعتمد وغيره - بألفونس وقعة الزلاقة المشهورة في رجب سنة ٤٧٩ وفيها سحق جيش ألفونس سحقاً كاد لا يبقى منه ولا يذر. وتطورت الظروف فاستولى ابن تاشفين - نزولاً على إرادة الأندلسيين وفقهائهم - على إمارات الطوائف جميعاً ماعدا سرقسطة في الشمال إذ تركها لبني هود، لما رأى من إحسانهم لحمايتهم ودفاعهم عنها ضد النصارى، وأخذ المعتمد معه أسيراً إلى أغمات كما مر بنا في غير هذا الموضع. وطبيعى أن يبتعد أبو بكر بن القصيرة عن حكام إشبيلية الجدد من المرابطين، ويظل على ذلك نحو ثلاث سنوات، ويقاجأ في سنة ٤٨٧ باستدعاء يوسف له كي يتولى ديوان الإنشاء عنده بمراكش وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسباط قد توفى، ويبدو أنه كان يعجب بابن القصيرة والرسائل التي حملها إليه على لسان المعتمد، وأصبح منذ هذا التاريخ رئيس ديوان الإنشاء ليوسف بن تاشفين حتى وفاته سنة ٥٠٠ وظل قائماً على هذا الديوان زمن على ابنه حتى وافاه القدر سنة ٥٠٨ بمراكش.

وتحتفظ الذخيرة - كما ذكرنا آنفاً - بكثير من الرسائل التي كتبها على لسان المعتمد بن عباد، ولعل أهمها الرسالة التي فصل فيها القول في هزيمة ألفونس بالزلاقة، وكان جيشه قد دُمِّر، وبلغ من كثرة قتلاه أن كان الناس يتخذون من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليها ويشكرون الله على حسن صنيعه، ومن قول ابن القصيرة في الرسالة المذكورة ببعض فصولها بلسان المعتمد.

«قد علم ما كنا - قبل - مع عدو الله أذ فونش قَصَمَهُ الله - من تَطَاطُونا واستعلائه، وتقامئنا وانتِخائِهِ^(١)، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به

(١) تقامؤ: تصاغر وتذل. انتخاء: تعاظم.

فَنَاءً، إِلَى أَنْ سَنَى^(١) اللَّهُ تَعَالَى مِنْ اسْتَصْرَاحِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرِ الدِّينِ، أَبِي يَعْقُوبَ يَوْسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ - أَيْدَهُ اللَّهُ - مَا سَنَى، وَأَدْنَى مِنْ نَائِي دِيَارِهِ وَشَحَطَ^(٢) مَزَارَهُ مَا أَدْنَى.. ثُمَّ أَجَازَ - عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ - يَرِيشَ^(٣) وَيَبْرَى، وَسَارَ قُدَمًا^(٤) يَخْلُقُ وَيَقْرَى^(٥). وَاتَّفَقَ رَأَيْنَا بَعْدَ تَشَاوُرٍ عَلَى قَصْدِ قُورِيَّةَ (بِالْقُرْبِ مِنْ مَارِدَةِ شَرْقَى بَطْلَيْوَسَ) - حَرَسَهَا اللَّهُ - وَسَمِعَ الْعَدُوَّ - لَعْنَهُ اللَّهُ - بِذَلِكَ فَقَصَدَ بِمُحْتَشِدِهِ إِلَيْهَا فِي جِيُوشٍ تَمَلَأَ الْفُضَاءَ، وَتَسَدَّ الْهَوَاءَ، وَتَمَنَعَ أَنْ تَقَعَ عَلَى مَا تَحْتَ رَايَاتِهِ ذُكَاءً^(٦)، قَدْ تَحَصَّنُوا بِالْحَدِيدِ مِنْ قُرُونِهِمْ إِلَى أَقْدَامِهِمْ، وَاتَّخَذُوا مِنَ السَّلَاحِ مَا يَزِيدُ فِي جَرَاتِهِمْ وَإِقْدَامِهِمْ، وَدَعَاهُ تَعَاظُمُهُ إِلَى مُوَاجَهَةِ سَبِيلِنَا، وَحَمَلَهُ نَفْجُهُ^(٧) وَتَهَوُّرُهُ عَلَى السَّلُوكِ فِي مَدْرَجِ سَيُولِنَا، وَدَنَوْنَا إِلَيْهِ بِمَحَلَّاتِنَا، وَأَطْلَلْنَا عَلَيْهِ بِرَايَاتِنَا، وَتَنَادَى الْمُسْلِمُونَ بِشَعَارِهِمْ^(٨) الْمَنْصُورِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ فِي حَالٍ مُؤَذِّنَةٍ بِالظُّهُورِ وَالْوُفُورِ، وَتَوَاقَفَ قَلِيلًا الْجَمْعَانِ، وَتَجَاوَلَ مَلِيًّا^(٩) الْفَرِيقَانِ، ثُمَّ صَدَقَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ، وَنَاصِرُ الدِّينِ - أَيْدَهُ اللَّهُ - الْحَمْلَةَ، وَصَدَّمَ فِي جَمْعٍ لَمْ يَكُنْ عِدَدُ الْجَمْلَةِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَنْ وَلَّوْا الْأُدْبَارَ، وَاتَّبَعْتَهُمْ خَيْلُ الْمُسْلِمِينَ تَقْتَلُهُمْ فِي كُلِّ غَوْرٍ وَنَجْدٍ^(١٠)، وَتَقْتَضِي أَرْوَاحَهُمْ عَلَى حَالِينَ مِنْ كَالِيٍّ وَنَقْدٍ^(١١)، وَلَمْ يَخْلُصْ مِنْهُمْ عَلَى أَيْدَى الْمُتَّبِعِينَ - أَجْرَهُمُ اللَّهُ - إِلَّا مِنْ سَيْلَتِهِمُ الْبُعْدَ، وَيَأْتِي عَلَى حُشَاشَتِهِ^(١٢) الْجَهْدُ... وَلَمْ يُصَبَّ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَفَرَّهِمُ اللَّهُ عَلَى هَوْلِ الْمَقَامِ، وَشِدَّةِ الْاِقْتِحَامِ، كَثِيرٍ، وَلَامَاتٍ مِنْ أَعْلَامِهِمْ تَحْتَ تِلْكَ الْجَوْلَةِ إِلَّا عِدَدَ سِيرٍ، وَإِنْ كَانَ أَذْفُونَشَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - لَمْ يَمِتْ تَحْتَ السِّيُوفِ بِدَدًا^(١٣)، فَسَيَمُوتُ لَا مُحَالَةَ أَسْفًا وَكَمَدًا، وَنَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى مَا يَسِّرُ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ الْجَلِيلِ وَسَنَاهُ، وَمَنْحَهُ مِنْ هَذَا الصُّنْعِ الْجَمِيلِ وَأَوْلَاهُ..»

وليت ابن بسام روى هذه الرسالة كاملة حتى تتراءى وقعة الزلافة المجيدة بكل تفاصيلها، والمعتمد يعترف في مقدمتها باستخذائه^(١٤) أمام ألفونس وتصاصره وشعوره

(٩) مليا: زما غير قليل.

(١٠) الغور: المنخفض من الأرض. النجد:

المرتفع منها.

(١١) الكالي: المؤجل. النقد: الحال، يقصد القتل

السريع والقتل المؤجل مشيرا بذلك إلى أسراهم.

(١٢) الحشاشة: بقية الروح.

(١٣) بددا: قطعا.

(١٤) الاستخذاء: الخضوع والذل.

(١) سنى: فتح.

(٢) شحط: بعد.

(٣) يريش ويبرى: يضر وينفع.

(٤) قدما: مسرعا.

(٥) يخلق ويقرى. يقرر الأمر ويمضيه.

(٦) ذكاء: الشمس.

(٧) نفجه: فخره بما ليس عنده.

(٨) شعارهم: الله أكبر.

بالمذلة والهوان مع التزامه بما كان يدفعه له سنويا من إتاوات. ويقول إنه كان دأبه ودأب أمراء الطوائف من حوله الإذعان لنصارى الشمال، بينما كان دأب النصارى التسلط ونهب الحصون والقلاع، بل لقد نهب ألفونس طليطلة الجوهرة الكبرى، والمعتمد وأمثاله من أمراء الطوائف في غفلة يعمهون. وقبض الله للمسلمين هناك ابن تاشفين، فقلّم أظفار ألفونس وردّ كيده في نحره ونحر أتباعه مذمومين مدحورين على نحو ما يصور ابن القصيرة في رسالته. واحتفظت الذخيرة برسالة لابن القصيرة على لسان يوسف بن تاشفين وجّه بها إلى أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين حين ولاه القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ وله يقول:

«اَسْتَهْدِ اللهَ يَهْدِكَ، واستعن بالله يُعْنِكَ، وتولّ القضاء الذي ولّاه الله بجدٍّ وحزمٍ، وجلدٍ وعزمٍ، وأمضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنة نبيه، ولا تبال برغم راغم، ولا تشفق من ملامة لائم.. وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلّموا لك في كل حق تمضيهِ، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيهِ، ونحن أولا وكلهم آخرا مذ صرت قاضيا سامعون منك، غير معترضين في حق عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق».

وواضح أن ابن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الرعية جميعا، ويقول إنه ليس للجماعة المرابطين في الأندلس من أولى العقد والحل الحق في أى اعتراض يوجهونه إليه أو إلى قضائه، ويوسف بن تاشفين نفسه أولا ثم المرابطون جميعا مذ صار قاضى الجماعة في قرطبة قد أصبحوا خاضعين له ولأحكامه. وهو جانب مشرف في القضاء الإسلامى، نجده في كل مكان، ونقصد استقلاله وأن مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من السلطان. وقد نشر الدكتور محمود مكى مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى في عهد علي بن يوسف بن تاشفين في المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة في المجموعة إلى الثالثة عشرة، والسابعة في ترتيب المجموعة أشبه بمنشور وجهه إلى أهل الأندلس بلسان علي بن يوسف، وكان في زيارة لقرطبة، وفيه ينصح الأندلسيين بطاعة الوالى وأن لا يعصوا له أمرا قائلا:

«إنه النائبُ عنا فى تدبيركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، وقد فوّضنا

إليه ذلك وأفرَدناه بالنظر في دَقِّه وجُلِّه^(١)، وقُلِّه وكُثْره^(٢).. وما فعل من ذلك كُلِّه فنحن فعلناه، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه، ولا نوقف ما أمضاه، ولا نُمضي ما وقَّعه وأباه، ولا نرى في أحد منكم إلا ما يراه، ولا نتولاه كائننا ما كان إلا أن يتولاه، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه، بلساننا يتكلم، وعما في جَنَاننا^(٣) يترجم، وعلى ما يوافقنا يُسدى ويلحم^(٤)».

وفي رأينا أن هذه قسوة في معاملة الرعية، وواجب الحاكم الأعلى مثل علي بن يوسف أمير المرابطين أن يأخذ الرعية بالحلم، وأن يوصى ولاته بمعاملتها بالعدل الذي لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يسمعوا إلى شكواهم وأن يفتحوا أبوابهم لكل متظلم أو مظلوم في الرعية. وتخلو بعض السطور في رسائل ابن القصيرة من السجع، وهو ما جعل عبد الواحد المراكشي يقول عنه: «كان ابن القصيرة على طريقة قدماء الكتاب من إثثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء». وهذا الحكم إنما يصدق فقط على بعض سطور تتخلل أحيانا رسائله المسجوعة.

ابن أبي الخصال^(٥)

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقي الشَّقُورِيُّ المعروف بابن أبي الخصال، المولود سنة ٤٦٥ بفرغليط إحدى قرى شقوره من إقليم جيان غربي مرسية. سكن قرطبة، ودرس على شيوخها، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفنتا في العلوم مستبحرا في الآداب واللغات، عالما بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسير والأشعار. ويضيف ابن بشكوال إلى ذلك أنه «كان مفخرة وقته وجمال جماعته، حسن العشرة، واسع المبرة، من

(١) دقه: دقيقه. جلّه: كبيره.

(٢) قلّه: قليله. كثره: كثيره.

(٣) الجنان: العقل.

(٤) يسدى ويلحم: يصيب ويحكم.

(٥) انظر في ترجمة ابن أبي الخصال ورسائله

الذخيرة ٧٨٦/٣ والمغرب ٦٦/٢ والقلائد ١٧٥

والصلة رقم ١١٨٧ والبنية رقم ٢٨٢ والمطرب

١٨٧ والمعجب ٢٣٧ وفهرست ابن خیر ٣٨٦،

٤٢٠ ومعجم الصنفی ١٤٤ والخريدة ٤٤٩/٢

والإحاطة ٣٨٨/٢ وصبح الأعشى ٤١٣/٢،

٥٣/٨، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٦٣/١٤

وراجع أربع رسائل ديوانية له في وثائق تاريخية

جديدة عن عصر المرابطين في المجلدين السابع

والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في

مدريد بتحقيق وتحليل د. محمود مكي. وفي معهد

المخطوطات بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية

مخطوطة له بعنوان ترسل الفقيه الكاتب ابن أبي

الخصال.

أهل الخصال الباهرة والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، حلو الكلام أحد رجال الكمال، وله تأليف حسان» منها كتاب «سراج الأدب» وكتاب «ظل الغمامة وطوق الحمامة» في مناقب من خصَّه الرسول عليه الصلاة والسلام من صحابته بالكرامة، وأحلَّه بشهادته الصادقة دار المقامة. وكان كاتباً بليغاً وشاعراً محسناً، وله قصيدة طويلة في نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب». وله بجانب ذلك رسائله الديوانية والشخصية البديعة، ويقول صاحب المعجب: «له ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثلاً يحتذونه، ونصبوه إماماً يقتفونه» ويقول صاحب المطرب إن نظمه الرائق وترسله الفائق يقع في خمس مجلدات.

ولم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وأول مرابطي التحق بديوانه محمد بن الحاج القائد المرابطي والي يوسف بن تاشفين على قرطبة، وكان يسند إليه أحياناً قيادة الجيوش التي تنازل نصارى الشمال، وولاه في سنة ٤٩٧ على غرناطة، وعزله عنها في السنة التالية، إذ أبقاه للجيوش المحاربة. وحين تحولت مقاليد الحكم بعد يوسف إلى ابنه على ولاه على فاس سنة ٥٠١ وعلى بلنسية سنة ٥٠٣ وظل ينازل ألفونس ملك أراجون بالقرب من سرقسطة محامياً عنها ومدافعاً حتى وفاته سنة ٥٠٨. وإنا ذكرنا ذلك كله عن محمد بن الحاج، لأننا نظن أن ابن أبي الخصال ظل كاتباً له حتى مطلع القرن الخامس الهجري، وحتى استدعاه على بن يوسف أمير المرابطين للعمل في ديوانه بمراكش، وسرى عما قليل أنه كتب عنه رسالة سنة ٥٠٧ ولا نعرف بالضبط متى استدعاه أو متى بدأ العمل في هذا الديوان. ويقول ابن بسام: إنه كاتبه سنة ٥٠٣ ليرسل له مقتطفات من نثره وشعره يسجلها في كتاب الذخيرة، ويذكر أنه أرسل له هذه الرسالة وهو مجتاز بإشبيلية في جملة العسكر، وإذا عرفنا أن على بن يوسف قاد جيشاً في تلك السنة اتجه به إلى طليطلة وفتح عدة مدن وحصون بينها طلبيرة رجحنا أن يكون ابن أبي الخصال رافقه في جملة هذا العسكر أو هذا الجيش وكان معه ابن حمدين قاضى قرطبة، وربما التحق فعلاً بديوانه في هذه السنة أو قبلها بقليل. وظل يحظى عند على بن يوسف بمنزلة أثرية، وعين أخاه أبا مروان معه في الديوان، وما زالوا يكتبان عن على، وهو راض عنها كل الرضا حتى غزا ألفونس المحارب رزمير صاحب أراجون في الشمال إقليم بلنسية سنة ٥٢٣ ونهضت له منها حشود ضخمة من الأندلسيين ومن المرابطين، والتقى الجمعان عند قلعة قليرة بمقربة من جزيرة شقر، وكانت الدائرة على المرابطين والأندلسيين، وفقدوا اثني عشر ألفاً بين قتيل وأسير يقول ابن القطان: «وبلغ ذلك على بن يوسف فغاضه، وأمر

بالكتابة إلى جنود لمتونة (المرابطين) في بلنسية بالخزى، فكتب ابن أبي الخصال عنه إليهم بكل تنكيل وخزى^(١) «وأفحش أبو مروان عليهم في رسالته بقوله في بعض فصولها: «أى بنى اللثيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزيّفكم الناقد^(٢)، ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضائنا لها حالبٌ قاعد، لقد آن أن نوسّعكم عقابا وأن لا تلوثوا^(٣) على وجه نقابا، وأن نعيدكم إلى صحرائكم، ونطهر الجزيرة من رُحَصائكم^(٤)». وهى مبالغة في الإفحاش على جيش المرابطين المجاهد في الأندلس، مما أحق على بن يوسف، فأخر أبا مروان عن كتابته. ويقول صاحب المعجب: إن على بن يوسف راجع أبا عبد الله بن أبي الخصال فيما كتب أخوه وأن أبا عبد الله استغفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش» وأخوه إنما توفى سنة ٥٣٩ مما يدل - فى رأينا - على أن على بن يوسف لم يقبل استقالتهما من ديوان الكتابة وأنها ظلا يعملان فيه حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ على الأرجح، وربما عملا فيه بعد وفاته إلى أن توفى أبو مروان، فعاد أبو عبد الله إلى قرطبة، ولازم داره بها حتى توفى سنة ٥٤٠.

ولأبى عبد الله رسائل شخصية ومواعظ ووصف نثرى للطبيعة ومقامة، وسنعرض لكل ذلك فى غير هذا الموضع، وحسبنا الآن أن نعرض لرسالتين اخترناهما من رسائله الديوانية كتب أولاهما فى سنة ٥٠٧، وهى موجهة إلى أهل الأندلس للحض على الجهاد وإعلامهم أن أمير المسلمين على بن تاشفين عزم على خوض معارك ضارية مع النصارى الشالين وفى فاتحتها يقول:

«كتابنا - أعزكم الله - بتقواه، وكنفكم بظل ذراه، ووفر حظوظكم من حُسناه، من حضرة مراكش - حرسها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سَبْع وخمسمائة بين يدى حركتنا يَمُن الله فاتحتها وعُقبها، وقد قرَعنا الظَنائيب^(٥)، وأشرَعنا الأنايب^(٦)، وضمَرنا اليَعاسيب^(٧)، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاص نية، وصدق حمية،

(١) راجع قسما من نظم الجمان لابن القطان تحقيق د. محمود مكى (طبع الرباط) ص ١١٠ وما بعدها.

(٢) الناقد: الصيرفى الذى يميز النقد الحق من الزائف.

(٣) تلوثوا: تضعوا اللثام شعار لمتونة على

وجوهكم.

(٤) رحضاء: عرق الحمى، والكناية واضحة.

(٥) قرع الظنايب: كناية عن الإسراع للحرب.

(٦) الأنايب: الرماح.

(٧) اليعاسيب: الخيل.

فِي نَصْر دِينِ الْإِسْلَام، وَمَنْعَ جَانِبِهِ أَنْ يُضَامَ، أَوْ يَنَالَهُ مِنْ عَدُوهِ اهْتِضَامٌ^(١)، وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا قَدْ بِالْغَنَاءِ فِي الْإِحْتِشَادِ وَالْإِسْتِعْدَادِ، وَاسْتَنْهَضْنَا مِنَ الْأَجْنَادِ، مَا يُرَبِّي عَلَى الْحَصَى وَالتَّعْدَادِ، فَإِنَّا نَعْتَقِدُ اعْتِقَادَ يَقِينٍ، بِقَوْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ ﴿قُلْ مَا يَعْزُوكُمْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾ أَنْ اسْتَفَارَ الدَّعَاءُ، وَاسْتَفْتَحَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ، بِخَالِصِ الثَّنَاءِ، مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ، وَأَنْجَحِ الدَّوَاءِ، فِيمَا أَعْضَلُ^(٢) مِنَ الْأَدْوَاءِ».

وكانت هذه السنة حقاً من السنوات التي أبلى فيها المرابطون بلاءً عظيماً في قتال نصارى الشمال سواء نصارى أراجون أو برشلونة أو القشتاليين. وإنه لما يحمد لهم ولعلى بن يوسف أنهم ظلوا لا يغمدون سيوفهم أبداً وظلوا يواجهون أعداءهم منزليين بهم ضربات قاصمة، وكان النصارى أحياناً ينتصرون في بعض الوقائع، ولكن سرعان ما كان المرابطون يأخذون ثأرهم، ويكيلون لهم الصاع صاعين. وفي أثناء ذلك كتب المعاهدون من النصارى من أهل الذمة - وخاصة في غرناطة - إلى الملك النصارى ألفونس بن رذمير ملك أراجون يدعونه للاستيلاء على ما بيد أهل الأندلس من البلدان، فلباهم في أواخر شعبان سنة ٥١٩ وقاد جيشاً كثيفاً اخترق البلاد من سرقسطة إلى غرناطة، وهاجم كل ما في طريقه من بلدان مثل دانية ومرسية ووادي آش وحاصر غرناطة غير أنه اضطر إلى فك الحصار عنها، وكان قد واقعه المرابطون بجوار اليُسانة بالقرب من قرطبة ولم يكتب لهم النصر، ومضى على وجهه مخترباً إقليم البُشُرَات ومالقة إلى البحر المتوسط، واتجه إلى الشمال عائداً إلى موطنه^(٣). وكان قد ظل في هذه الحملة نحو سنة يبعث في الأندلس مما أغضب أهلها أشد الغضب، وخاصة على المعاهدين من أهل الذمة الذين يعايشونهم لا لأنهم كاتبوا ملك أراجون فحسب بل أيضاً لأنهم كانوا يشدون أزره أينما توجه ويدلونه على عورات البلاد ويبدلون له كل عون. وكان يزيد في غضبهم شيء من تقاعس تميم بن يوسف بن تاشفين وإلى غرناطة وقرطبة في تلك السنة. وانتدب أبو الوليد بن رشد الفقيه الكبير جد الفيلسوف ابن رشد نفسه للوفود على أمير المرابطين على بن يوسف بمراكش وإطلاعه على صنيع المعاهدين من أهل الذمة واستدعائهم لملك أراجون وعونهم له في حملته مما نقضوا به العهد الموثق بينهم وبين

(١) اهتضام: ظلم. ١١٤/١، والحلل الموشية ٧٥ وتاريخ الأندلس في

عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ترجمة عنان

ص ١٤٦.

(٢) أعضل: أعجز. الأدوية: الأمراض.

(٣) انظر في هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان)

المسلمين «وأفتى بتغريبهم عن أوطانهم»^(١) ووعدته على بن يوسف أن يأخذ بفتواه، وأمر ابن أبي الخصال أن يكتب إلى أهل الأندلس - وخاصة أهل غرناطة وقرطبة - يطمئنهم بأنه سيتخذ من الإجراءات ما يرضيهم، وصدع ابن أبي الخصال بأمره، وكتب إليهم رسالة ضافية جاء فيها:

«وَقَدْ إِلَيْنَا، وَوَرَدَ عَلَيْنَا، الْفَقِيهُ الْأَجَلُ الْمَشَاوِرُ أَبُو الْوَلِيدِ بْنِ رُشْدٍ، فَبَسَطَ لَدَيْنَا شَأْنَ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ - كُلَّهَا اللَّهُ - وَجَلَّاهُ، وَوَصَفَ مِنْ حَالِهَا مَا أَصَحَّخْنَا لَهُ حَتَّى اسْتَوْفَاهُ، وَجَالَ بِمِيدَانِ الْبَيَانِ أَفْصَحَ مَجَالٍ، وَعَرَضَ الْأُمُورَ فِي مَعْرِضِهَا بِأَبْلَغِ مَقَالٍ.. وَلَنْ نَأْلُو^(٢) جَهْدًا مَبْذُولًا، وَجِدًّا حَفِيلًا، وَعَزْمًا لَا نَائِيًا وَلَا كَلِيلًا^(٣)، فِيمَا نَنْدَرُأُ وَنَنْدَفَعُ، وَنَذُودُ عَنْ حَوْزَةِ^(٤) الْمَلَةِ وَنَمْنَعُ، وَنَذَابُ لَذَلِكَ الْمَذَابِ الْحَثِيثِ^(٥)، نَتَّبِعُ الْقَدِيمَ فِيهِ بِالْحَدِيثِ، وَنَنْصِبُ لَهُ النَّصَبَ الَّذِي لَيْسَ حَبْلُهُ السَّحِيلُ^(٦) وَلَا النَّيْكِثُ^(٧)، وَلَا يَشْغَلُنَا عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنْ أَهَمَّ، بَلْ نَصْرِفُ نَحْوَ جَنَابِكُمْ الْحَزْمَ الْأَتَمَّ الْأَهَمَّ، وَجَهْدَ الْكِفَايَةِ مَا دَهَمَ حَادِثَ أَلَمٍ، فَاسْتَشْعِرُوا أَنْ أُمُورَكُمْ إِذَا نَظَرَ اهْتِبَالُنَا^(٨)، وَمَنْ آكَدَ مُوَكَّدَاتِ أَشْغَالُنَا، وَقَدْ عَايَنَ الْفَقِيهُ الْأَجَلُ الْمَتَقَدِّمُ الذِّكْرَ، حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، وَسَيَبْلُغُكُمْ ذَلِكَ عَنْهُ فَلَا تَكُونُوا فِي رَيْبٍ مِنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُنَا عَلَى مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ، وَيَمْنَحُنَا مِنْ تَأْيِيدِهِ مَا يُعِزُّ الْإِسْلَامَ وَيُقِيمُ مِنْ أَوْدِهِ^(٩)، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ، وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ».

وفعلاً نفذ على بن يوسف فتوى الفقيه ابن رشد، فأمر في رمضان من سنة ٥٢٠ بإجلاء المعاهدين من النصارى الذين نقضوا العهود الموثقة إلى مكناسة وسلا وغيرهما من بلدان المغرب، وعزل أخاه تميمًا عن غرناطة وقرطبة لتقصيره إزاء حملة ابن رزمير. وإذا كان المرابطون قصروا - أو أخذ عليهم شيء من التقصير - في مواجهة ابن رزمير فإنهم طالما أبلوا في منازلة النصارى الشماليين وأبلى معهم تميم كما حدث في موقعة أقليمش التي انتصروا فيها على جيش ألفونس السادس ملك قشتالة، وفيها كان مصرع ابنه شانجه. وواضح مما اخترناه من كتابات ابن أبي الخصال الديوانية أنه كان كاتبًا مجيدًا يحسن انتخاب الكلم في نسق محكم من السجع الرصين.

(٦) السحيل: المقتول على قوة واحدة قتلا

خفيفاً.

(٧) النكيث: المنقوض المشعث، ضد المقتول.

(٨) اهتبالنا: اغتنامنا الفرصة.

(٩) أوده: اعوجاجه.

(١) الإحاطة ١١٩/١ - ١٢٠.

(٢) نألُو جهداً: نقصر في جهد.

(٣) كليلًا: ضعيفًا.

(٤) حوزة الملة: حدودها وجوانبها.

(٥) الحثيث: السريع.

ابن عميرة المخزومي^(١)

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزومي من سلالة خالد بن الوليد، وُلد سنة ٥٨٢ هـ بجزيرة سُقُر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع الجهات، ولذلك سميت جزيرة، وطالما تغنى أبناؤها - من أمثال ابن خفاجة - بجمال طبيعتها. وعنى به والده منذ نعومة أظفاره، فأدخله كتاباً حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الشعر، ثم دفعه إلى حلقات بعض الشيوخ، حتى إذا أيفع وشبُّ أرسل به إلى بلنسية لينهل من حلقات حافظها وفقهها وقاضيا أبي الربيع الكلاعي، وفيها أخذ يختلف إلى حلقات غيره من العلماء وخاصة حلقة ابن نوح الغافقي شيخ العربية وقواعدها النحوية. ودفعه شغفه بالاستزادة من العلم إلى الرحلة في طلبه عند بعض العلماء المشهورين لأيامه، فرحل إلى شاطبة ونهل من حلقتي شيخها أبي عمر الشاطبي وقاضيا أبي الخطاب بن واجب، ورحل إلى دانية للأخذ عن ابن حوط الله الأنصاري، ونزل مرسية وأخذ عن شيخها عزيز بن خطاب، وسمع عليه كتاب المستصفي في علم الأصول للغزالي وبعض كتب الصوفية. وطمحت نفسه مبكراً إلى أن يكون من أصحاب الجاه، وكانت فيه نزعة أدبية هيأته ليكون شاعراً، ولم يلبث أن عمل بديوان أبي عبد الله بن أبي حفص الموحدى حاكم بلنسية حوالى سنة ٦٠٧ هـ وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره. وظل بهذا الديوان سنوات متعاقبة، ونراه في سنة ٦١٧ هـ بإشبيلية، ولعله كان يريد العمل بدواوينها، وظل بها فترة اختلف فيها إلى حلقة الشلوبيين إمام العربية بالأندلس في عصره. وعاد إلى بلنسية، وكان قد وليها للموحدين سنة ٦٢٠ هـ أبو زيد بن أبي عبد الله بن أبي حفص فالحقه بديوانه مع صديقه ابن الأبار، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ هـ ثار على أبي زيد زيان بن أبي الحملات بن مردنيش واستولى منه على بلنسية، وظل ابن عميرة يعمل في ديوان زيان حتى أواخر سنة ٦٢٨ هـ وأحس من زيان شيئاً من

٣٧/٧، ٩٤، ٩٨، ١١٠، ١١٦، ١٤٩/٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ٣٠١/٩، ٣٠٦/١٠ وراجع كتاب «أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي: حياته وآثاره» لمحمد بن شريفة (طبع الرباط) وتحفظ الخزانة العامة في الرباط بمخطوطتين من رسائله.

(١) انظر في ابن عميرة وترجمته ورسائله معجم أصحاب الصدفى ص ١٦٣ وتحفة القادم رقم ٩٢ واختصار القدر المعلى ص ٤٢ والمغرب ٣٦٣/٢ وجذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٧٢ وعنوان الدراية للغبريني ص ١٧٨ والإحاطة ١٧٣/١ ونفع الطيب ٢٧٢/١ وصبح الأعشى ٥٣٤/٦.

الوحشة، فترك بلنسية إلى بلدته جزيرة سُقُر، وكان سلطان ابن هود أمير مُرسية قد اتسع، فكتب له فى سنة ٦٢٩ وعيَّنه ابن هود قاضيا فى شاطبة، جامعا له بين القضاء والكتابة كما تدل على ذلك بيعة طويلة كتبها باسم ابن هود عن نفسه وعن أهل شاطبة فى الأندلس للمستنصر العباسى مع بيعة الناس فيها أيضا له ولأبنه ولأبائه للعهد من بعده. وابن هود فيها يغفلن ولاءه وطاعته للخليفة العباسى استكمالا لثورته على الموحدين وما يدعون من خلافتهم. وربما ظل يجمع بين عمله فى الكتابة لابن هود وقضاء شاطبة. وتوفى ابن هود سنة ٦٣٥ وخلفه عمه واستولى منه على الحكم عزيز بن خطاب، واتخذ ابن عميرة كاتباً له، وقتل ابن خطاب. وكان ملك أراجون قد استولى على بلنسية، وقبله بقليل استولى ملك قشتالة على قرطبة، وشعر ابن عميرة أن مستقبل الأندلس مظلم، فرأى الهجرة منها إلى المغرب، وعبر الزقاق، ونزل سبتة عند واليها ابن خلاص فرحب به، ولم يلبث أن لقي الخليفة الموحدى الرشيد فى مدينة الرباط حين زارها، وصحبه معه إلى حاضرة مملكته: «مراكش» وألحقه بدواوينه، ولبث بها ابن عميرة قليلا، إذ عينه الرشيد قاضيا فى سلا والرباط. وتوفى الرشيد سنة ٦٤٠ فأقره أخوه السعيد على عمله، ثم نقله إلى مكناسة، ونراه فيها يكتب باسم أهلها بيعة لسلطان تونس أبى زكريا الحفصى، ويبدو أنه إنما أغراه بذلك أنه رأى بوضوح أن دولة الموحدين تحتضر، وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة. وعاد إلى سبتة يكتب لحاكمها. وفى سنة ٦٤٦ تحوّل إلى أبى زكريا سلطان تونس ودولته الحفصية، ونزل بجاية وأفضال أبى زكريا تتوالى عليه. ولم يلبث أبو زكريا أن توفى سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر، فاستقدمه إلى تونس، وولاه القضاء فى قسنطينة وغيرها، ثم استخلصه لنفسه مستشارا وأنيسا، وغمره بأفضاله إلى أن توفى سنة ٦٥٨ للهجرة.

وطبيعى أن تكون لابن عميرة رسائل ديوانية كثيرة، إذ كتب لحكام بلنسية من الموحدين وخاصة لأبى زيد الموحدى، وكتب بعده لحكامها: زيان بن مردنيش التأثير عليه وابن هود أمير مرسية وعزيز بن خطاب صاحبها والرشيد الموحدى، ومن أقدم رسائله رسالة كتبها عن أبى زيد الموحدى أمير بلنسية إلى المستنصر الموحدى سنة ٦٢٠ يستأذنه فى وفود أمير نصرانى عليه من أراجون يسمى: «پلاسكو أرتال» كان وصيا على ملكها خايمى، ولما استبد بالملك اختلف معه ونفاه فلجأ إلى بلنسية، واستقبل بالترحيب على أمل كاذب أن يكون فيما بعد عوناً لحاكم بلنسية فى حروبه ضد ملك أراجون. وصوّر ابن عميرة هذا الأمل المخطئ وأمر هذا اللاجئ فى رسالته، وقد احتفظ القلقشندى فى الجزء

السادس من صبح الأعشى بشرط كبير منها، وفيها يقول عنه ابن عميرة:

«كان له في البلاد الأرغونية زعامة في شأوها»^(١) برز، ولغايتها أحرز، وكان قد كفل صاحب أراجون في الزمان المتقدم كفالة دار أمرها عليه، وألقى زمامها إليه. ثم إنه حط من رتبته، وتأكدت المبالغة في نكبته.. والظاهر من حنقه على أهل أراجون وشدة عداوته لهم، وما تأكد من القطيعة بينه وبينهم، أنه إن صادف وقت فتنة معهم ووجد ما يؤمله من إحسان الأمر العالى - أيده الله - فينتهى من نكايتهم والإضرار بهم إلى غاية غريبة الآثار، مفضية به إلى درك النار، وكثير من زعماء أراجون ورجالها أقاربه وفرسانه وكلهم - في حبله - حاطب^(٢)، وإلجاده - متى أمكنه - خاطب».

وكان أبا زيد ومن حوله لم يأخذوا درسا من التجاء ألفونس القشتالى إلى طليطلة حين حاربه أخوه شانجه وانتصر عليه وفر منه إلى دير، ولجأ إلى المأمون أمير طليطلة فرحب به وبالف في إكرامه تسعة شهور متعاقبة، عرف فيها مداخل حصن طليطلة العتيد ومخارجه، فلما توفى أخوه وأصبح ملكا على قشتالة لم يكن له هم إلا الاستيلاء على طليطلة، واستولى عليها، وكان ذلك بدء ضياع الأندلس منذ هذا التاريخ، وهو درس كان ينبغي أن لا ينساه أبو زيد، وخطأ أكبر الخطأ أن يفتح حكام بلدة صدورهم وبلدهم لأعدائهم ظانين أنهم يستطيعون أن يحيلوهم أصدقاء أو ما يشبه الأصدقاء، وما أبعد هـما أن يصبح العدو صديقا فما بالك إذا كان العدو محاربا لك، ولكن هكذا قدر لبلنسية أن يحكمها غير ليس عنده بصر بالأمور وأن يجد في كنفه «پلاسكو» الأرجونى عدوه الأمان والضيافة لمدة عامين متعاقبين، ويرجع إلى بلده، ويعود منها بعد قليل مع ملكها بجيش يستولى به على بلنسية بعد تنكيله بأهلها تنكيلا شديدا.

ونفق قليلا عند البيعة للخليفة العباسى المستنصر التى أشرنا إليها والتي كتب فيها ابن عميرة رسالة طويلة بعقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء لهذا الخليفة والبيعة لنفسه ولابنه وليا للعهد من بعده، وهو يستهلها بحمد الله والصلاة على رسوله بهذا النمط:

«الحمد لله الذى جعل الأرض قَرارا، وأرسل السماء مِذرارا، وسخر ليلاً ونهارا، وقدر آجالا وأعمارا، وخلق الخلق أطوارا، وجعل لهم إرادة واختيارا، وأوجد لهم تفكراً

(١) شأوها هنا: سلطانها.

(٢) يقال حطب فى حبله إذا أعانه ونصره.

واعتباراً، وتعاهدهم برحمته صغاراً وكباراً، نحمده حمد من يرجو له وقاراً، ونبرأ ممن عانده استكباراً، وألحد في آياته سفاهة واغتراراً، وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجاراً، السامى فخاراً، رفع الله من شريعته للأمة مناراً، وأطفأ برسالته للشرك ناراً، حتى علا الإسلام مقداراً، وعزَّ جاراً وداراً، وأذعن له الكفر اضطراراً، واستسلم ذلَّة وصغاراً، فمضى وقد ملأ البسيطة أنواراً، وعمَّها بدعوته أنجاداً وأغواراً، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة وأثماراً. فجزى الله أفضل ما جزى نبياً مختاراً، ورسولاً اجتباة اختصاصاً وإيثاراً، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثاراً واختباراً، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصاراً، صلاة نوالها إعلاناً وإسراراً، ونرجو بها مغفرة ربنا إنه كان غفاراً»

وواضح أن ابن عميرة التزم في سجع هذه القطعة التي استهل بها البيعة حرف الراء، وهو جانب يشيع شرقاً وغرباً حتى لنجد الرسالة يُختار لها أحياناً حرف بعينه، وكان الحريرى قد ابتدأ ذلك برسالتين التزم في إحداها السين وفي الثانية الشين، فأخذ المحصكى وبعض الكتاب في الشرق يحاكيه في هذا الصنيع، وبالمثل أخذ بعض الكتاب في الأندلس يحاكونه فيه ببعض رسائلهم الشخصية دلالة منهم على مهارتهم الفنية، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجانب في عرضنا للرسائل الشخصية عند ابن عميرة وغيره من الكتاب. وله فصول وكلمات وعظية على طريقة ابن الجوزى كما ذكر ذلك ابن عبد الملك في ترجمته له بكتابه «الذيل والتكملة»، وله مؤلفات مختلفة منها تعليقات على كتاب المعالم للفخر الرازى وتعقيب على كتاب التبيان في البلاغة لابن الزمكافى، ومنها كتاب في تاريخ ثورة المريدين على دولة المرابطين وكتاب عن كائنة ميورقة واستيلاء ملك أراجون عليها. وبالحزنة العامة بالرباط مخطوطتان من رسائله.

لسان^(١) الدين بن الخطيب

أكبر كتاب غرناطة والأندلس في أزمنتها الأخيرة، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣ للهجرة لأسرة يمنية بلوشة على نهر شنيل بالقرب من غرناطة، وكان أبوه من أهل العلم والأدب، فعين بدواوين غرناطة عند أمرائها بنى

٣٣٢/٧ وأزهار الرياض ١٨٦/١ وما بعدها
والجزءين الخامس والسادس من نفع الطيب وكتاب
الاستقصا للسلاوى (طبع الدار البيضاء) ١٢/٤
وفي مواضع متفرقة وراجع كتابه: أعيال الأعلام: =

(١) انظر في ترجمة لسان الدين التعريف بابن
خلدون ورحلته شرقاً وغرباً (طبع لجنة التأليف
والترجمة والنشر) ص ١٥٥ وما بعدها وصيح
الأعشى للقلقشندى ٥٣٦/٦ وتاريخ ابن خلدون

الأحمر، وبها نشأ لسان الدين، وعُني أبوه بتربيته، فبعد حفظه للقرآن الكريم ألحقه بحلقات علماء العربية والدراسات الإسلامية، وطمحت نفسه لمعرفة علوم الأوائل فلزم يحيى بن هذيل أهم علمائها في زمنه. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وأخذ في مديح السلطان أبي الحجاج يوسف (٧٣٣-٧٥٥) وهو أهم سلاطين بني الأحمر في القرن الثامن الهجري، ويُعدّ مؤسس قصر الحمراء المشهور بما أضاف إليه من غرفه وأبهائه الفخمة. وأعجب السلطان بأشعار لسان الدين فألحقه بدواوينه، وأخذ يلزم أبا الحسن بن الجياب رئيس ديوان الكتاب وشيخ العدوتين: الأندلس والمغرب في النثر والنظم وسائر العلوم الأدبية، وعُني بالأديب الشاب، وما زال يعمل معه حتى توفي سنة ٧٤٩ فولاه السلطان أبو الحجاج رئاسة ديوان الكتاب بعده، وتوفي السلطان سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه الغنى بالله، فازدادت حظوته عنده ورفعته إلى مرتبة. الوزارة. ونشبت ثورة ضد سلطانه واضطر إلى اللجوء إلى السلطان أبي عنان المريني بفاس سنة ٧٦٠ وصحبه لسان الدين هناك ولم يلبث أن جال في بلاد المغرب واستقر بمدينة سلا زمنا، وعاد سلطانه إلى عرشه بغرناطة سنة ٧٦٣ فاستدعاه وألقى إليه بمقاليده الحكم، ولقبه بذي الوزارتين: السيف والقلم، وانفرد بالحل والعقد فترة، ثم أخذ يشعر بدسائس كثيرة من حوله، فخشى على نفسه مغبة ذلك، فجمع حقائقه سنة ٧٧٢ وتوجه إلى السلطان عبد العزيز المريني بفاس فأكرمه. ولم يهدأ خصومه بغرناطة وفي مقدمتهم تلميذه ابن زمرك وقاضى غرناطة أبو الحسن النباهي ودسّوا عليه عند الغنى بالله أنه يحرض سلطان فاس على غزو الأندلس وضم غرناطة إليه ووصموه بالزندقة لما ذكر في كتابه: «روضة التعريف» من عقيدة التصوف الفلسفية وما يتصل بها من الحلول وغير الحلول، ورفع ذلك إلى السلطان عبد العزيز المريني فأبى تسليمه مبرئًا له مما وصموه به.. ولم يلبث السلطان أن توفي سنة ٧٧٤ واضطربت الأمور في فاس، وتولى سلطنتها - بمساعدة الغنى بالله - أبو سالم المريني سنة ٧٧٦ ولم يلبث أن أودع ابن الخطيب السجن إرضاء للغنى بالله. ولم يكتف تلميذه ابن زمرك بذلك، إذ قدم إلى فاس وعقد محاكمة لأستاذه في مجلس السلطان

عباس (طبع بيروت) ونفاضة الجراب في كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس (طبع الإسكندرية) وكتابه في التصوف: روضة التعريف بالحب الشريف (طبع بيروت) وديوانه الشعري: الصيب والجهايم (طبع الجزائر).

= القسم الثاني (طبع الرباط) ص ٢٦١ وما بعدها وكتابتها الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٣٣ ولللسان الدين أعمال كثيرة منها الإحاطة في أخبار غرناطة (طبع دار المعارف) والكتيبة الكامنة في معاصريه بالمائة الثامنة تحقيق د. إحسان

أبي سالم وعرض عليه بعض كلمات كتبها في مصنفه «روضة التعريف» تتصل بآراء الصوفية المتفلسفة من مثل الحلول والاتحاد، وأعلن النكير عليه موبخا له، ونقل إلى السجن، وأخذ القوم يتشاورون فيه وأفاتهم بعض الفقهاء قصار النظر بقتله، ودُسَّ إليه في السجن من قتلوه خنقا، وألقيت جثته على قبره، ويقال إنه أضرمت عليه نار فاحترق شعره واسودت بشرته، ووُورِيَ التراب. وعجب الناس في فاس وفي غرناطة من هذا التمثيل الشنيع، وعدّوه من هنات ابن زمرَك تلميذه العاق.

ولم يكن ابن الخطيب متصوفا فضلا عن أن يكون متصوفا فلسفيا كما حاول ابن زمرَك أن ينعتة بذلك كذبا عليه واقتراء، إنما كان كاتباً موسوعياً كما تشهد بذلك مصنفاته الكثيرة، وقد كتب في التصوف كتابه «روضة التعريف» لشيوع التصوف في زمنه بالأندلس وخاصة بالمغرب، ولو كان متصوفا حقاً لهجر الدنيا وعاش في زاوية - أو ضرب في الأرض - ناسكاً مثل ابن عربي وابن سبعين والششتري. ولا نخليه من ميول إلى الزهد والتصوف كما تدل على ذلك أشعاره ولكن هذا شيء والتصوف الحقيقي شيء آخر، وفيه يقول المقرئ: «هو لسان الدين وفخر الإسلام بالأندلس في عصره الطائر الصيت المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها» ويقول ابن خلدون في وصف براعته الأدبية: «كان آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب لا يساجل مداه، ولا يُهتدى فيها بمثل هده». ومما قيل فيه: «كاتب الأرض إلى يوم العرض». وله - بجانب ديوانه: الصيِّب والجهم - مقامة بناها على المفاخرة بين سلا في المغرب ومالقة في الأندلس وثلاث رحلات منها رحلتان في وصف البلدان وصف فيها بلدان الأندلس والمغرب هما: «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» في وصف بعض البلدان الأندلسية الشرقية، و«معيّار الاختبار في ذكر أحوال المعاهد والديار» في وصف بعض البلدان المغربية والأندلسية. وهذه الأعمال منشورة وكذلك رحلته نفاضة الجراب، وسنعرض لكل ذلك في موضع آخر. ونقف قليلا عند رسائله الديوانية.

وعادة إذا كانت الرسالة الديوانية موجهة إلى أحد السلاطين ممن يلقبون أنفسهم بالخلافة مثل سلاطين تونس أو يكتفون بالسلطنة فقط مثل سلاطين بني مرين أن تذكر لفظ الخلافة أولاً أو يذكر لفظ المقام أو المقر ويطيل لسان الدين في هذا الوصف، ثم يذكر ألقاب الخليفة أو السلطان المرسل إليه، كما يطيل في الدعاء له ولدولته ويذكر السلطان

المكتوب عنه، ويتبع ذلك بالتحميد والصلاة على رسول الله والرضا عن صحابته، ويذكر المكان الذي كُتبت فيه الرسالة ثم يأخذ في بيان المقصود منها ويختتمها بالدعاء. ومن خير ما يصور ذلك كله من رسائله الديوانية رسالة له عن سلطانه الغنى بالله إلى سلطان تونس الملقب بالخليفة، جوابا عن كتاب وصل منه مصحوبا بهدية من الخيل والرقيق، ولروعتها البيانية رواها ابن خلدون في كتابه التعريف والقلقشندى في صبح الأعشى، وهو يستهلها على هذا النمط:

«الخلافةُ التي ارتفع في عقائد فضلها الأصلُ القواعدُ الخلافُ، واستقلت مباني فخرها الشائع وعِزُّها الذائع على ما أسَّسه الأسلافُ، وجب لحقُّها الجازم وفَرْضُها اللازم الاعتراف، ووسعتُ الآملين لها الجوانبُ الرَّحْبِيَّةُ والأكنافُ، فامتزاجنا بعلاتها المُنِيف وولانها الشريف كما امتزج الماءُ والسُّلافُ، وثناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العَمِيم كما تأرَّجت الرياضُ بالأفواف^(١)، لما زارها الغمام الوكَاف^(٢)، ودعاؤنا بطول بقائها واتصال علانها يسمو به إلى قَرَع أبواب السموات العلا الاستشراق، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العَميمة لا تحصره الحدود ولا تدرُّكه الأوصاف، وإن عَدَّر في التقصير عن نَيْل ذلك المرام الكبير الحقُّ والإنصاف».

ولعل بلاغة لسان الدين قد اتضحت في هذه القطعة، إذ ينعت فيها الخلافة التونسية نعوتا بديعة، ويدعها لا يأتي من انتخاب ألفاظها ذات الرونق والحسن فحسب، بل يأتي أيضا من أسجاعها الطويلة التي يتلافى طولها بما يجري في تضاعيفها من أسجاع داخلية على نحو ما نرى في تقابل السجعتين: «فخرها الشائع» و «عزها الذائع» في السجعة الثانية وبالمثل تقابل السجعتين في السجعة الطويلة الثالثة إذ يقول: «لحقها الجازم، وفَرْضها اللازم». وبنفس النمط تلاقى «المنيف والشريف» في السجعة الخامسة، و «الكريم والعَمِيم في السجعة السادسة». ويكثر ذلك في الرسالة طلبا لاكتمال الجرس حتى تلذ الأسباع لذة موسيقية، وهي لذة تقترن بمحسنات البديع، إذ تتوالى الجناسات في السجعات الداخلية، كما تتوالى التصاویر، ففضل الخلافة أصيل القواعد، ومباني فخرها وعزها استقلت وارتفعت، وامتزاج السلطان الغنى بالله وحواشيه بشرفها امتزاج الماء بالسلاف، وثناؤهم عَطِرٌ كشدی الرياض في الأزهار غِبُّ الغيث المدرار. وأخذ بعد ذلك في نعت الخليفة نفسه وآبائه الأبحاد، وامتد نعتة نحو أربعة عشر سطرا، ثم ذكر الغنى بالله مع

(١) الأفواف: الزهر.

(٢) الوكَاف: المدرار.

طائفة من النعوت، ومع سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسماّت الأسحار، وأطال في التحميد والصلاة على رسول الله والدعاء للخلافة، كما أطال في وصف الرسالة وحاملها والهدية النفيسة من الخيل فرسا فرسا، واستطرد إلى ذكر الخيول والأفراس المشهورة عند العرب، ويعود إلى ذكر رسول الخليفة أو سفيره مطريا مثنيا، ثم يأخذ في وصف جهاد سلطانه الغنى بالله لنصارى الشمال ومنازلته لهم في مدن كثيرة، من ذلك منازلته لهم في جيّان وكانت قد سقطت في أيديهم سنة ٦٤٣ للهجرة ويصف تلك المنازلة بقوله:

«وهذه المدينة هي الأمّ الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود، وكُرْسِيّ الملك، ومجنيته^(١) الوسطى من السُّلْك، غابُ الأسود، وجُحْرُ الحَيّات السود.. ولما أكتبنا^(٢) جوارها، وكدنا نلتمح، نارها، تحركنا إليها ووشاحُ الأفق المرقوم^(٣) يزهر النجوم قد دارَ دائرُهُ، واللَّيْلُ من خوف الصباح على سطحه المستباح قد شابت غدايرُهُ.. ولما فشا سرُّ الصباح، واهتزّت أعطاف الرايات بتحيات مبشرات الرياح، أطللنا عليها إطلال الأسود على الفرائس، والفحول على العرائس.. ودفعوا من أَصْحَر^(٤) إليهم من الفرسان، وسبق إلى حَوْمة الميدان، حتى أجحروهم^(٥) في البلد، وسلبوهم لباسَ الجلد، في موقف يُذهل الوالد عن الولد، صابت^(٦) السهامُ فيه غماما، وطارَت كَأَسْرَابِ الحَمَام تَهْدِي حِمَاما^(٧)، وأضحت القَنَا قِصْدًا^(٨)، بعد أن كانت شهابا رَصْدًا».

والقطعة زاخرة بالجناسات والتساوير، فجيّان أم ولود، وجنة من جنان الأندلس ولساكنيها النار ويثس القرار. وقد دنوا منها في أخريات الليل ووشاح الأفق المرصع بالنجوم يوشك أن يغيب والليل من خوف الصباح يوشك أن يشيب، ولم يلبث الصباح أن أخذ يذيع أسرارهِ بينما تهتز الأغصان بتحيات الرياح مبشرة لهم بالظفر على الأعداء، وهبطوا عليهم كالأسود الكواسر، ولم يلبثوا أن دخلوا في جحورهم فرارا من الموت الزوَام وما ينزلون بهم من غمام السهام وصواعق الموت، وتكسرت الرماح التي كانت تحميمهم، وخروا صرعى مجذّلين.

(١) مجنية واسطة السلك: الجوهرة بجانب

الجوهرة الوسطى الفريدة في العقد.

(٢) أكتبنا: قاربنا.

(٣) المرقوم: الموسم والمنقوش.

(٤) أصحر: برز.

(٥) أجحر: أدخل.

(٦) صاب: انصب.

(٧) الحمام بكسر الحاء: الموت.

(٨) قصد جمع قصدة: قطعة.

ويكثر ابن الخطيب - كعادة أهل الأندلس في زمنه وقبل زمنه - من الكتابة عن سلطانيه أبي الحجاج وابنه الغنى بالله إلى الرسول ﷺ متوسلين إليه بالشفاعة في تحقيق أمانيتهم الدنيوية في النصر على الأعداء وأمانيتهم الآخروية في الغفران والرضوان، مع تصوير جهادها الدائب في نصرة الإسلام والذب عن حياضه في الأندلس. ويفيض المقرئ بكتابه نفع الطيب في الحديث عن شيوخه وتلاميذه وأولاده وهو بحق مفخرة من مفاخر الأندلس حُسن أداء وروعة بيان.

٢

الرسائل الشخصية

طبيعى أن يعنى الكتاب بهذه الرسائل منذ عنايتهم بالرسائل الديوانية معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم من ثناء وشكر وعتاب واستعطاف واعتذار وتهنئة وشفاعة واستمناح وتعزية، وليس بين أيدينا نصوص منها قبل عصر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع إذ احتفظ ابن بسام في الذخيرة بطائفة من الرسائل الديوانية التي صدرت من دواوينه على لسان ابن برد الأكبر وابن دراج شاعره وساق للأخير رسالة شكر لمن أنقذه من ضنك حياته، وهو يصف فيها ما كان قد نزل به من الضنك والبؤس بعد أن كان في ثراء وحال حسنة قائلاً^(١):

«كنت قد نشأت في مَعْقِل من الْعَفَا^(٢) والْوَفَر، مُحَدَقًا بِسُورٍ من الأَمْنِ والسُّتْرِ، حتى أُرْسِلَ إِلَيَّ سلطان الفقر، رسولاً من نُوبِ الدهر، يريد استنزالي إليه، وخضوعي بين يديه، فأبيت من ذلك عليه، فغزاني بكتائب من النَوَائِبِ، تسير تحت أَلْوِيَةِ المصائب، تُهْرِقُ بِسُيُوفِ الرُّزَايَا، وتُشْهَرُ أَسْنَةُ المَنَايَا، يرمون عن قِيسَى الأَوْجَالِ، ويضربون طُبولِ الذُّعْرِ وسوء الحال، بأَيْدٍ باطِشَةٍ لَا تَكِلُ، وبِصَائِرٍ ثَابِتَةٍ لَا تَمَلُ».

والرسالة مبنية على السجع، مبالغة في التألق، وقد اختيرت فيها الألفاظ وامتلأت بالتصاوير، مما يؤكد شيوع التنميق في الرسائل الشخصية منذ أواخر القرن الرابع الهجري على نحو ما أخذ يحدث في الرسائل الديوانية عند ابن دراج نفسه وعند ابن برد

(١) الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) ٦٢/١.
(٢) العفا هنا: كثرة الخير وطيب العيش.

الأكبر، وتلتقى بأخرة من العصر الأموي بآبن شهيد الكاتب البارع المتوفى سنة ٤٢٦ وقد ترجم له ابن بسام فى ذخيرته، وذكر له طائفة كبيرة من رسائله الشخصية، وهو يطيل فيها طولاً شديداً، ونسوق له قطعة من رسالة أطنب فيها ما وسعه الإطناب كتب بها إلى صاحب بلنسية شاكراً معتذراً عن الإمام ببابه لتعلقه بقرطبة مع ما أصابها من الفتنة ومن التخريب والهدم والحرق، يقول^(١):

«قد كان أقلّ حقوق مولاى أن أقف ببابه، وأخيم بفنائنه، وأهدى إليه الشكر غُضاً، وأنثر عليه المدح بضاً^(٢)، ولكنى ممنوع، وعن إرادتى مَقْمُوع، يملكنى سلطان قدير، وأمير ليس كمثله أمير، شىء غلب صبر الأنقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطل يلعب بالحق، ليبين ضعف البشر، وتلوح قدرة مصرف القدر، والذى أشكو منه أغرب الغرائب، وأعجب العجائب، بث شاغل، وبرح^(٣) قاتل، وصبر يغيض^(٤)، ودمع يفيض، لعجوز بخراء^(٥)، سهكة درءاء^(٦)، تدعى قرطبة:

عجوز لعمر الصبا فانيه لها فى الحشا صورة الغانية

طاب لى الموت على هواها، ولذ عندى سقى دمي لثراها». وله من رسالة يصور فيها أحد الأبطال المنازل لجيوش الأعداء من نصارى الشمال^(٧):

«واصل الجهاد، واستأصل الكفر والعناد، واتخذ ظهر الجواد بيتاً، وظلّ اللواء كميناً^(٨)، واستبدل من نقر الكران^(٩) قرع الطبول، ومن نغم القيان شجاً الصهيل، ومن وجبة^(١٠) المعازف لجب الخيول، يمشى فى الهجير^(١١)، ويسرى^(١٢) فى الزمهرير، ويحن إلى الأذان والتكبير، فى خطة إبليس، ومصدق النواقيس».

وستترجم لابن شهيد فى مطلع الحديث عن الرسائل الأدبية، ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف ومن أوائل من نلقاه فى هذا العصر ابن برد الأصغر كاتب مَعْن بن صُباح أمير

(٨) الكمين من الخيل: الأشقر ضارباً إلى

السواد.

(٩) الكران: العود.

(١٠) وجبة: صوت.

(١١) الهجير: القيظ وسط النهار.

(١٢) يسرى: يسير ليلاً. الزمهرير: البرد

الشديد.

(١) الذخيرة ٢٠٧/١.

(٢) بضاً: ناضراً.

(٣) برح: عذاب.

(٤) يغيض: يغيب.

(٥) بخراء: رائحة فمها كريهة.

(٦) سهكة: كريهة الرائحة. درءاء: ساقطة

الأسنان.

(٧) الذخيرة ٢٢٧/١.

المرئية، وقد أطلال ابن بسام في ذكر تحميداته، وذكر طائفة من رسائله في العتاب والاستزارة وله رسالة في ذم صديق، ويقول ابن سعيد في المغرب إنها من أبدع ما قيل في ذم مؤاخ، ومن قوله فيها: ^(١)

«خَلَيْتُ عَنْهُ يَدِي، وَخَلَّدْتُ قِلَاهُ خَلْدِي، بَيَّضُ الْأَنْوَقِ ^(٢) مِنْ رِفْدِهِ أَمَكْن، وَصَفَا الْمُشَقَّر ^(٣) مِنْ خَذِّهِ أَلَيْن، نَزَرَ النِّوَال، رَثَ الْمَقَال، أَحَادِيثُ وَعْدُهُ لَا تَعُودُ بِنَفْع، وَلَا هِيَ مِنْ غَرَبٍ وَلَا نَبْع ^(٤)، عَلَى وَجْهِهِ مِنَ التَّعْبِيسِ قُفْلُ ضَاعِ مِفْتَاحِهِ، وَلَيْلُ مَاتِ صَبَاحِهِ، غَنِيٌّ مِنَ الْجَهْلِ، مَفْلَسٌ مِنَ الْعَقْلِ، تَتَضَاعِلُ النِّعَمُ لَدَيْهِ، وَتَقْبَحُ مَحَاسِنُ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، غِرْبَالُ حَدِيثٍ إِذَا وَعَى سِرًّا قَطَرَ مِنْهُ، كَيْدُ الزَّمَانِ عَلَيْهِ قَاسِيَةٌ، وَنِعْمَ اللَّهُ لَهُ نَاسِيَةٌ، قَصِيرُ عَمْرِ الْوَفَاءِ لِلْإِخْوَانِ، عَوْنٌ عَلَيْهِمْ مَعَ الزَّمَانِ، مَرْبٌّ لِأَطْفَالِ الْإِخْنِ، مُخَيٍّ لِأَمْوَاتِ الدَّمَنِ ^(٥)، رَقَدَتْ مَلَأَ عَيْنِي فِي قَرَشِ الْقَلَى ^(٦) لَهُ وَشَرِبْتُ زُلَالًا ^(٧) مَاءَ الْعَزَاءِ عَنْهُ»

ولابن برد رسالة وجه بها إلى أبي الوليد بن جهور أمير قرطبة (٤٣٥ - ٤٦١ هـ) جعل موضوعها مجلسا للرياحين وأنوار البساتين أخذت فيه تتفاوض وتتجاوز في أيها أجمل في صورته وأعقب في رائحته ثم قام من بينهم خطيب، ففضل الورد على سائر الأزهار لحرمة معللا لذلك بأن الحمرة لون الدم والدم صديق الروح. وكان بالمجلس من رؤساء الأزهار والرياحين النرجس الأصفر والبهار والبنفسج والخيري، فأدوا للورد شهادتهم بتقدمه، ونسوق منها شهادة النرجس إذ يقول ^(٨):

«وَالَّذِي مَهَّدَ لِي جِجَرَ الثَّرَى، وَأَرْضَعَنِي ثَدْيَ الْحَيَا ^(٩)، لَقَدْ جِئْتُ بِالشَّهَادَةِ أَوْضَحَ مِنْ لَبَّةٍ ^(١٠) الصَّبَاحِ، وَأَسْطَعَ مِنْ لِسَانِ الْمَصْبَاحِ، وَلَقَدْ كُنْتُ أُسِرُّ مِنَ التَّعَبُّدِ لَهُ وَالشَّغْفِ بِهِ، وَالْأَسْفَ عَلَى تَعَاقُبِ الْمَوْتِ دُونَ لِقَائِهِ. مَا أَنْحَلُ جَسْمِي، وَمَكَّنُ سَقَمِي، وَإِذْ قَدْ أَمَكْنُ الْبَوُحَ بِالشَّكْوَى، فَقَدْ خَفَّ ثِقْلُ الْبَلْوَى»

وتتوالى شهادة البنفسج والبهار ^(١١) والخيري، ثم تعقد الأزهار العزم على كتابة عقد

(١) الذخيرة ٥٠٤/١ والمغرب ٨٩/١.

(٢) واضح أن بيض الأنوق مثل لبيان الاستحالة.

(٣) المشرق: حصن في البحرين اشتهر صفاء

أو صخره بشدة الصلاة، ويريد أن صديقه صفيق.

(٤) الغرب والنيع: شجر تتخذ منه السهام.

(٥) الدمن: جمع دمنة: الحقد.

(٦) القلى: الكراهية.

(٧) الماء الزلال: العذب الصافي السلس.

(٨) الذخيرة ١٢٧/٢.

(٩) الحيا: المطر.

(١٠) اللبة: موضع القلادة من العنق.

(١١) زهر البهار أصفر ويشبه زهر النرجس.

بذلك ويكتبون رقعة بتحالف الرياحين جميعا على أنها أعطت للورد قيادها وملكتها أمرها، واعترفت بأنه أميرها المقدم لخصاله والمؤمّر لسوابقه، وهى لذلك تلتزم له بالسمع والطاعة والرق والعبودية. وربما كنى بالورد عن أمه في أن يكون وزيرا لابن جهور مفضلا له على كل من حوله. وقد طارت شهرة هذه الرسالة وحاكها غير كاتب، ومن حاكوها معاصر ابن برد حبيب صاحب كتاب فصل الربيع وسنترجم له عما قليل، أما ابن برد فسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية.

ويكتظ كتاب الذخيرة لابن بسام بالرسائل الشخصية يدبجها كتاب الدواوين والوزراء والشعراء وينمقونها صورا مختلفة من التتميق، ومن روى له كثيرا من رسائله الشخصية أبو محمد بن عبد البر الذى ترجمنا له بين كتاب الرسائل الديوانية، وله رسائل كثيرة فى الشفاعات والوسائل والمودة وفى التهنية والتعزية، من ذلك تعزيتة لأب فى فتي له استشهد فى قتال أعداء الدين الحنيف، وفيها يقول ^(١):

«كُتِبَتْ عَنْ قَلْبٍ يَقْشَعُرُّ، وَنَفْسٍ بَيْنَ ضُلُوعِهَا لَا تَسْتَقِرُّ، لَخَيْرِ الرُّزْءِ الْهَاجِمِ، وَالنَّبَأِ الشَّنِيعِ الْكَالِمِ.. فَيَا لَهَا حَسْرَةً مَا أَنْكَاهَا ^(٢) لِلنَّفُوسِ، وَجَمْرَةً مَا أَذْكَاهَا ^(٣) فِي الْقُلُوبِ. وَرَوْعَةً مَا أَفْتَتَاهَا لِلْأَعْضَادِ، وَلَوْعَةً مَا أَحْرَاهَا عَلَى الْأَكْبَادِ:

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ غَيْرَ أَنَّنَا أَقْمَنَا قَلِيلًا بَعْدَهُمْ وَتَقَدَّمُوا

ولقد خرج من بيته مجاهدا، وعن جَمَى الدين ذائدا، فوقع أجره على الله.. وأنت الطَّوْدُ المَوْفَى ^(٤) عَلَى كُلِّ هَضْبَةٍ، المَعْلَى عَلَى كُلِّ فَرْحَةٍ وَكَرْبَةٍ. وَاللَّهِ - يَا سَيِّدِي - فِي نَفْسِكَ الْعَزِيزَةِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا كَامِنٌ رَزْءٌ ^(٥) يَفْدَحُ، أَوْ أَنْ يُوهِنَ مِنْهَا بَاطِنُ أَسَى يَفْدَحُ»

وكان يعاصر أبا محمد ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير المتوفى سنة ٤٦٩ وقد ترجم له ابن بسام ترجمة ضافية، وسنترجم له فى غير هذا الموضع، وروى ابن بسام له رسائل شخصية بديعة، وفى إحداها يقول مهنئا بعض العمال بخلاصه من نكبتة ^(٦):

«كُتِبَ عَنِ نَفْسٍ قَدْ أَشْرَقَ وَجْهُ صَبَاحِهَا، وَهَبَّتْ رِيَّاحُ ارْتِيَاكِهَا، بِمَا طَلَعَ عَلَيْنَا مِنْ

(٤) الموفى: المشرف.

(٥) رزء: مصيبة.

(٦) الذخيرة ١/٥٨٤.

(١) الذخيرة ٣/٢١٩.

(٢) ما أنكأها: ما أنكأها أى ما أشد جرحها

والمها.

(٣) ما أذكأها: ما أحرأها.

البشائر السارة بخلاصك، وجميل انفكاكك، على حين بلغت قلوب الأوداء الحناجر، وكادت موارد الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمت فيك، بإساءتها إليك، كل مُتَنَسِّبٍ إلى فضل، مُتَّسِمٍ باسم نُبُل، وإن كانت قد أصابت فيك سواد ناظرها الذي تضىء به وتتجمل، وسخت منك بحلى جيدها الذي يحق به أن تبخل.. وقد صادفت منك الإبريز^(١) الذي لا يزيده السبك إلا تمحيصا، والمبرز الذي لا يعقبه تحول الأحوال نكوصا، تتلقى الخطوب بصدر وساع^(٢)، وصبر منفسح الباع، وتسبر^(٣) الدهر بمسبارها، وتعرف من مكنونه حقيقة إirاده وإصداره».

ونلتقى بآبن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وسنخصه بكلمة، وكان يكتب للمقتدر أيضا أبو عمر^(٤) الباجي المتوفى سنة ٤٧٥ وروى له ابن بسام رسالة على لسان زهر البهار وجه بها إلى المقتدر بن هود مزدلفا إليه آملا أن تكون له الخطوة الكبرى بين كتابه ووزرائه كما للبهار بين نواوير الربيع وفيها يقول^(٥):

«أطال الله بقاء المقتدر مولاي وسيدى ومُعَلِّى حالى ومقيم أودى^(٦)، وأعاذنى من خيبة العناء، وعصمنى معه من إخفاق الرجاء، ولا أشمت بى عدوا من الرياض يناصبنى^(٧)، وحاسدا من النواوير يراقبنى، وقد علم الورد موقع إمارتى، وغنى بلطيف إيمائى عن عبارتى.. وقد أتيت فى أوانى، وحضرت وغاب أقرانى، ولم أخل من خدمتك رتبتي ومكانى.. فهل لمولاي أن يُحسن إلى صنيعا، ويكرم النور جميعا، ويُدنينى فأرقى إلى أختى الثريا سريعا، فى مجلس قد أخلصته سحائبه، وأفرغت الحسن عليه والطيب ضرائبه^(٨)، وجهك بذره، وغررتك فجره، وأخلاقك زهره، وتناوك دُرّه وعطره»

والباجي يجعل البهار فوق الورد وجميع الأزهار مصورا بلسانه مطامحه فى التقدم عند المقتدر فى مجالس تدبيره وأنسه على جميع كتابه ووزرائه. ولمواطنه كاتب المقتدر حسداى^(٩) - وكان يهوديا وأسلم وحسن إسلامه - رسالة مماثلة كتب بها إلى المقتدر على

(١) الإبريز: الذهب الخالص.

(٦) أودى: اعوجاجى.

(٢) وساع: متسع.

(٧) يناصبنى: يفادبنى.

(٣) تسبر: تختبر. مسبار: آلة الاختبار.

(٨) ضرائبه: طبائعه وسجاياه.

(٤) انظر ترجمة الباجي فى القلائد ١٠٢ والذخيرة

(٩) راجع ترجمته فى القلائد ١٨٣ والذخيرة

٤٥٧/٣ والحريدة ٤٨/٢ والمغرب ٤٤١/٢.

١٨٦/٢ والحريدة ٣١٣/٢ والمغرب ٤٠٥/١.

(٥) الذخيرة: ١٩٤/٢.

ومن شعراء العصر الذين عنى ابن بسام برواية طائفة من رسائلهم الشخصية البديعة ابن الحداد الذى مضت ترجمته بين أفذاذ الشعراء فى العصر، وتم رسائله عن أنه كان مثقفا ثقافة واسعة بالأدب العربية ومايطوى فيها من أعلام وأمثال وأشعار، وعلوم الأوائل ومايطوى فيها من فلسفة وغير فلسفة، ومن طريف رسائله فى الشكر والإخاء^(٢) :

«يا سيدى الذى هو قَسِيمٌ ذاتى إن تحققت الذوات والنحائر^(٣)، وشقيقُ نفسى إن تبينت الخلائق والغرائز، ومن أبقاه الله بقاءَ الفرقدين^(٤) فى تدبير السعدين. بيننا من التحام المقة^(٥)، واستحكام الثقة، ما أربأ^(٦) به عن تضمين الصّحائف، ولو قُدت من السّوالف^(٧)، وأنزّهه عن اشتمال المداد، ولو كان من دم الفؤاد، فصفاؤنا شمسيّ النقاء، ووفائنا فلكيّ البقاء، ولا تُضمّن الطروس، إلا ما لحقه الدروس. وكتابى هذا إثر إتحافك لى بكتابين كالنيرين، فإن كان القمر ويوح^(٨)، لإنارة اللوح، فهذان، لجلاء الأذهان».

ومن الكتاب المبدعين أبو عبد الرحمن بن طاهر، وسنخسه بكلمة، وكان يعاصره أبو الحسين^(٩) سراج بن عبد الملك بن سراج اللغوى الفقيه الكاتب المتوفى سنة ٥٠٨ وله رسالة طريفة بناها على الدعابة فى الشفاعة لشخص يسمى بالزريزير مستغلا اتفاق اسمه مع اسم طائر الزُرزور على هذا النمط^(١٠) :

«يَصِلُ بالكتاب - وصلَ الله عُلوّك، وكَبَتَ عدوّك - شَخْصٌ من الطيور يُعرَفُ بالزُّرْزِيرِ أقامَ لدينا أيامَ التَّحْسِيرِ^(١١)، وزمانَ التبليغِ بالشُّكْرِ^(١٢)، فلما وافى ريشه، ونبتَ بأفراخه عُشوشه، أزمعَ عنا قُطوعا^(١٣)، وعلى ذلك الأفق اللّذَن تدلّيا ووقوعا، رجاء أن

(١) الذخيرة ٤٧٠/٣.

(٢) الذخيرة ٧٠٤/١.

(٣) النحائر: الطباع.

(٤) الفرقدان: نجمان قريبان من القطب.

(٥) المقة: المحبة.

(٦) أربأ به: أنزّهه.

(٧) السوالف جمع سالفة: جانب العنق.

(٨) النيران: الشمس والقمر يوح: الشمس.

اللوح: الهواء بين السماء والأرض.

(٩) انظر ترجمته فى الذخيرة ٨٢١/١ والمغرب

١١٦/١ والصلة ٢٢٢ والمطرب ١٢٣ والحريدة

٤٨٤/٢ ومعجم الأدباء ١١/١٨١.

(١٠) الذخيرة ٣٤٧/٢.

(١١) التحسير: سقوط الريش العتيق.

(١٢) الشكير: صغار الريش. التبليغ: الاكتفاء.

(١٣) قُطوعا: طيرانا.

يَلْقَى فِي تِلْكَ الْبَسَاتِينَ مَعْمَرًا^(١) وَعَلَى تِلْكَ الْفُصُونِ حَبًّا وَثْمَرًا، وَأَنْتَ بِجَمِيلِ تَأْتِيكَ، وَكَرَمِ مَعَالِيكَ، تَصْنَعُ لَهُ هُنَاكَ وَكُونًا^(٢)، وَتَسْتَمِعُ مِنْ نَعْمِ شُكْرِهِ عَلَى ذَلِكَ أَغَارِيدَ وَلُحُونًا، دُونَ أَنْ يَلْتَقِطَ فِي فَنَائِكَ حَبَّةً، أَوْ يَسْتَرْطَ^(٣) مِنْ مَائِكَ نُغْبَةً^(٤)».

وطارت الرسالة في الأندلس وحاول غير أدیب محاکاتها لِمَا فِيهَا مِنْ دُعَابَةٍ مُسْتَمْلِحَةٍ، إِذْ صَوَّرَ سَرَّاجٌ مَا كَانَ فِيهِ هَذَا الشَّخْصُ مِنْ ضَيْقٍ جَعَلَهُ يَلْتَمِسُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ لِصَاحِبِهِ بِالزَّرْزُورِ حِينَ يَنْحَسِرُ عَنْهُ رِيْشُهُ الْعَتِيقُ وَلَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا الرِّيشُ الْقَصِيرُ، حَتَّى إِذَا كَثُرَ رِيْشُهُ صَمَّمَ عَلَى الْقَطْوَعِ أَوْ الرِّحِيلِ أَمْلًا أَنْ يَنْزِلَ عَلَى أَفْقِ هَذَا الْجَوَادِ وَيَجِدَ عِنْدَهُ مَنْزِلًا وَحَبًّا وَثْمَرًا وَوَكُونًا أَوْ عَشْوَشًا يَأْوِي إِلَيْهَا مُتَغْنِيًا بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ. وَيَنْصَحُهُ أَنْ لَا يَجِدَ فِي فَنَائِهِ حَبَّةً يَلْتَقِطُهَا وَلَا جَرْعَةً مَاءٍ تَبْلُّ رِيقَهُ. وَمِمَّنْ حَاوَلَ مُحَاكَاتَةَ سَرَّاجِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي هَذِهِ الدُّعَابَةِ الطَّرِيفَةِ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ^(٥) الْعَزِيزِ بْنِ الْقَبْطُورَةِ كَاتِبٌ عَلَى بْنِ يُونُسَ بْنِ تَاشَفِينِ الْمُتَوَفَى حَوَالَى سَنَةِ ٥٢٠ لِلْهَجْرَةِ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي رِسَالَتِهِ^(٦):

«يَصِلُ بَكْتَابِي - وَصَلَ اللَّهُ سَعُودَكَ - مِنَ الطَّيْرِ نَطَاقٍ، مِنْ غَيْرِ ذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ^(٧).. مَهْدَتَهُ الْعَدَارَى الْحُجُورُ، وَالْحَقْفَةُ الشُّعُورُ، وَرَبَّتُهُ بَيْنَ التَّرَائِبِ وَالنُّحُورِ، وَعَلَّلَتْهُ بِالرُّضَابِ^(٨)، وَسَقَتْهُ بِأَفْوَاهِهَا الْعَذَابُ، أَقَامَ عِنْدَنَا زَمَانًا، لَا يَتَأَلَفُ إِلَّا رَنْدًا^(٩) أَوْ بَانًا، يَتَدَرَّجُ فِي الْبَسَاتِينَ، يَتَطَلَّبُ الْعِنَبَ الْمُتَنَتَّقِيَّ وَالتِّينَ، فَذَكَرْتَ لَهُ يَوْمًا وَالْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ، أَرْضَكَ الْمَيْثَاءَ^(١٠) ذَاتَ الشَّجَرِ وَالْعَيُونِ، فَصَفَّقَ جَنَاحًا، وَاهْتَزَّ ارْتِيَا حَا، وَسَأَلَنِي إِلَى مَجْدِكَ كِتَابًا فَأَنْتَلْتُهُ مَا ابْتَغَى، وَقُلْتَ: سَلِمْتَ أَخَا الْبَيْغَا، وَبُلِّغْتَ الْمَدَى، وَجُنِّبْتَ مِنْ حَرَّةِ الْمَدَى^(١١) وَأَخَذَ الْكِتَابَ بِمَنْقَارٍ، وَصَفَّقَ بِرِيْشِ الْجَنَاحِينَ سُورًا وَطَارَ، وَأَنْتَ بِسَيَادَتِكَ تَبْسُطُ لَهُ فِي بَسَاتِينِكَ، وَتَفْرِشُ لَهُ مِنْ وَرْدِكَ وَيَاسَمِينِكَ»

وكان يعاصر ابن القبطورنة أبا القاسم بن الجحد، وسنخسه بكلمة، وعاصرهما ابن عبدون الشاعر الفذ الذي ترجمنا له بين شعراء الرثاء، وقد عمل في دواوين المتوكل

(١) معمرًا: منزلا.

(٢) وكونا جمع وكن: عش الطائر.

(٣) يسترط: يتلع.

(٤) نغبة: جرعة.

(٥) راجع ترجمته في الذخيرة ٧٥٣/٢ والمغرب

(٦) والتكملة رقم ١٧٤٣ والقلائد ١٤٨.

(٧) الذخيرة ٧٥٨/٢.

(٨) ذوات الأطواق: الحمام.

(٩) الرضاب: الرقيق المرشوف والعسل.

(١٠) الرند: شجر طيب الرائحة. البان: شجر

يشبه به الحسان في الطول واللين.

(١١) الميثاء: اللينة الطيبة.

(١٢) المدي، جمع مدية: السكين.

بيطليوس ثم في دواوين المرابطين، وله رسائل يخطب فيها ودّ أبي القاسم بن الجد، وفي إحداها يقول^(١) :

«إن تعذر لقاء، فقد انتشر ثناء، امتلأت الأرض منه والسماء، ووَصَفَ عَزَّ الأوصافَ
وغلبها، وهزَّ الأعطافَ وجذبها، وذَكَرُ مَلَأَ الآذانَ حُلِيًّا، والآنافَ رِيًّا^(٢)، والأفواه أَرِيًّا،
ونُبِلَ جَلَّتْ مطالعُهُ دِياجِي الأوهام، وَرَوَتْ مواقعُهُ صَوَادِي^(٣) الأوهام.. والله دهرُ أطلعكَ
أفقه، ووقتُ وَسِعَكَ طَلْقُهُ^(٤)، ما أكرمَ طبيعته، وأضخمَ دَسِيعَتَهُ^(٥)، وأعقبَ في الآنافِ
شَمِيمَهُ، وأرقَّ على الأنفاسِ نَسِيمَهُ.. وأنا أخطبُ إلى عِمَادِي - أدام الله عزَّته - مودَّتَهُ
عَقِيلَةً^(٦)، وأجعلُ رَجْمِي^(٧) : الأدبَ والنسبَ وسيلةً، وأبذلُ من تحلية حَمْدِي وشكْرِي
مَهْرًا، وأبني لها بين سَحْرِي ونَحْرِي^(٨) قَصْرًا.. والله - جَلًّا وعلا - يُعِينُنِي على فَرَضِهِ
أُوْدِيهِ، وَقَرَضِهِ أَقْضِيهِ».

وللأعمى التطيلي الشاعر معاصره رسالة عتاب بديعة لمن خدمه الزمان وأقبل عليه
السلطان، وله يقول مترفعا عن بره وعونه: «إني أبيت ظمآن، ولا أبيت خزيان، وأحتمل
الحرمان. ولا أحتمل الهوان^(٩)». وكان يعاصره ويعاصر ابن الجد ابنُ خفاجة شاعر
الطبيعة المبدع الذي مرت ترجمته، وكما كان يبدع في وصفها شعرا كان يبدع في وصفها
نثرا، وله من رسالة يصف نزهة مع بعض رفاقه غِبَّ مطر^(١٠) :

«لما أَكَبَّ الغَمَامُ إِكْبَابًا، لم أَجِدْ معه إِغْبَابًا^(١١)، واتصل المطر اتصالا، لم أَلْفِ معه
انفصالا، أذن الله تعالى لِلصَّخْوِ أَنْ يُطْلَعَ صَفْحَتُهُ، وينشر صَحِيفَتُهُ، فَفَشَعَتِ الرِّيحُ
السحاب، كما طوى السجل الكتاب، وطفقت السماءُ تخلع جِلْبَابَهَا، والشمس تحط
نِقَابَهَا، وتطلَّعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تَحَلَّتْ، وقد تَجَلَّتْ، ذهبتُ في لُئمةٍ من
الإخوان نستبق إلى الراحة رَكْضًا، ونَطَوِي للتفرُّج أَرْضًا، وننشر أرضًا، وتردَّدنا بتلك
الأباطح نتهادي^(١٢) تهادي أغصانها، ونتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم، أثناء ذلك

(٧) رحم: قرابة.

(٨) السحر: الرثة. النحر: أعلى الصدر.

(٩) الذخيرة ٧٢٩/٢.

(١٠) الذخيرة ٥٤٣/٣.

(١١) إغبايا: انقطاعا.

(١٢) نتهادي: نتايل.

(١) الذخيرة ٦٧٠/٢.

(٢) ريا: شذى.

(٣) صوادي: عطاش.

(٤) طلقة: شوطه.

(٥) دسيعته: طبيعته وشيمه.

(٦) العقيلة: السيدة الكريمة.

المنظر الوَسِيم، ترأسلُ مَشَى، على بساط وَشَى، وأَجَلْنَا النظر في نهر صافى لُجَيْنٍ^(١) الماء، كأنه مجرَّةُ السماء، مؤتلقِ جَوْهَرِ الحَبَابِ^(٢)، كأنه من ثغور الأحاب. وحضرنا مُسَمِّعٌ^(٣) يجرى مع النفوس لَطَافَةً فهو يعلم غرضها وهوأها، ويغنى لها مُقْتَرَحَهَا وَمُنَاهَا: يحرِّك - حين يَشْدُو - ساكناتٍ وَيَبْتِغُ الطَّبَائِعَ لِلسُّكُونِ»

ولا بن خفاجة - بجانب ذلك - رسائل في التهادى وفي العتاب وفي الشفاعة، وفي التهاني وفي التعازي، وهي مبثوثة بترجمته في الذخيرة، وله يتفجع على شهيد بإحدى رسائله^(٤):

«قَمَرٌ فَضْلٌ سار إلى سِراره^(٥)، ووُسْطَى عِقْدٍ أَخَذَ في انتشاره، وصَبَاحٌ جَذَلٌ^(٦) أسرع في انطوائه، ومصباح أمل عَجَلٌ بانطفائه، فقبحاً لدنيا قَصَفْتَهُ أَنْضَرُ ما كان غُصْنًا، وكَسَفْتَهُ أَقْمَرُ^(٧) ما كان حسناً. وصار مفقوداً، كأن لم يكن مشهوداً، ومنشوداً^(٨) كأن لم يكن موجوداً. وقد وجدتُ لذلك وَجْداً لا يسمعه الصُّدْرُ، ولا يقاومه الصُّبْرُ، وأَوَّاراً^(٩) لا تَطْوِيهِ أحناءُ الضلوع، ولا تُطْفِئُهُ أَحْسَاءُ^(١٠) الدموع. وكأنَّ كل ذلك لما انقضى، فمضى، خيال ألم ثم تولَّى، وغمامٌ أَظْلٌ ثم تَجَلَّى».

ومن معاصري ابن خفاجة أبو عبد الله بن أبي الخصال أهم الكتاب في دواوين المرابطين بأخرة من أيامهم، وتحفظ المجلدات الثامن والتاسع والرابع عشر من صبح الأعشى بطائفة من رسائله الشخصية بين شكر وتهنئة بقدم وتعازي في وزير وبنت وأخ وزوجة وشفاعة ووصف لغيث بعد جذب وما أعقبه من تغنى الطيور فرحاً بجمال الطبيعة وازديانها بروائع الأزهار من نرجس وغير نرجس، واحتفظ له ابن بسام بطائفة أخرى من رسائله في ذخيرته، من بينها رسالتان وَجَّهَ بها إلى ابن بسام ردّاً على رسالة كان أرسلها إليه في طلب بعض شعره ونثره ليضمّنه الذخيرة، وهو في أولاهما يعتذر عن تلبية طلبه في تواضع جم إذ ليس له من الشعر والنثر - كما يقول - إلا ما يعد من سَقَطِ المتاع. ويبدو أن ابن بسام ألح عليه في الطلب فاضطر أن يلبيه بقليل من شعره قائلا إنه

(١) اللجين: الفضة.

(٢) الحباب: الفقاقيع تلمع فوق سطح الماء.

(٦) جذل: سرور.

(٧) أقمر: أضوأ.

(٨) منشودا: مطلوباً.

(٩) الأوار: حر النار.

(١٠) أحساء هنا: يناع.

(٣) مسم: مغن.

(٤) الذخيرة ٥٥٧/٣.

(٥) السرار: آخر ليلة في الشهر.

يربأ بقدر الذخيرة عن مثل هذه النفث الأخيرة، ويعتذر بأنه يخط ما خطه من هذا الشعر في ليلة قاسية البرد، ويمضى في تصويرها قائلا^(١):

«إني خططتُ والنوم مُغازل، والقرُّ مُنازل، والريِّح تلعب بالسراج، وتصول عليه صَوْلَةُ الْحَجَّاجِ^(٢)، فَطَوْرًا تَسُدُّهُ سِنَانَا، وَتَارَةً تُحَرِّكُهُ لِسَانَا، وَأَوْنَةً تَطْوِيهِ حَبَابَةُ^(٣)، وَأُخْرَى تَنْشُرُهُ دُوَابَّةٌ، وَتَقِيمُهُ إِبْرَةً لَهَبٍ، وَتَعْطِفُهُ بُرَّةً ذَهَبٍ، أَوْ حُمَةً^(٤) عَقْرَبٍ، وَتَقْوِسُهُ حَاجِبَ فِتْنَةٍ، ذَاتَ غَمَزَاتٍ، وَتَسْتَلُّ رُوحَهُ مِنْ ذُبَالِهِ، وَتَعِيدُهُ إِلَى حَالِهِ، وَرَبِّمَا نَصَبْتَهُ أَذْنَ جَوَادٍ أَوْ مَسَخَتْهُ حَدَقَ^(٥) جَرَادٍ.. فَلَا حَظَّ مِنْهُ لِلْعَيْنِ، وَلَا هُدَايَةَ فِي الطَّرْسِ لِلْيَدَيْنِ، وَاللَّيْلُ زَنْجِيٌّ^(٦) الْأَدِيمُ تَبْرِيٌّ^(٧) النُّجُومِ، قَدْ جَلَّلْنَا سَاجَهُ^(٨)، وَأَغْرَقْنَا أَمْوَاجَهُ، وَلَوْ نَظَرْتَ فِيهِ الزَّرْقَاءَ^(٩) لَا كَتَحَلْتَ، أَوْ خُضِبْتَ بِهِ الشُّبِّيَّةَ لَمَا نَصَلْتَ^(١٠)، وَالْكَلْبُ قَدْ صَافَحَ خَيْشُومَهُ ذَنْبَهُ، وَأَنْكَرَ الْبَيْتَ وَطَنُيَّهِ^(١١)، وَالتَّوَى التَّوَاءَ الْحُبَابِ^(١٢)، وَاسْتَدَارَ اسْتِدَارَةَ الْحَبَابِ، وَجَلَّدَهُ الْجَلِيدَ، وَضَرَبَهُ الضَّرِيبَ^(١٣)، وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ الصَّعِيدَ^(١٤)، فَجَمَاهُ مَبَاحٍ، وَلَا هَرِيرَ وَلَا نُبَاحٍ، وَالنَّارُ كَالصَّدِيقِ أَوْ كَالرَّحِيقِ^(١٥)، كِلَاهُمَا عَنَقَاءُ مُغْرَبٍ^(١٦)، أَوْ نَجْمٌ مُغْرَبٌ».

والرسالة وصف شعري بديع لهذه الليلة من ليالى الشتاء الباردة بردا شديدا فى الأندلس والرياح تقصف، والليل داج معتم، والسراج تقبضه الريح وتبسطة، وقد يضيء ويستعرض، وقد يتضاءل حتى يصبح إبرة أوبرة، وقد يستطيل حتى كأنه سنان أو لسان، وقد يتقوس حتى كأنه حاجب أو يتلوَّى كأنه عقرب. ويستمر ابن أبى الخصال فى وصف الليلة الباردة وما أضفى عليها من أخيلته الرائعة. وليستتم صورة بردها الشديد وصف كلبا مقرورا مدَّ عليه الثلج رواقه، حتى لم يعد يبصر طنب بيته والتف ذنبه على خيشومه

السواد.

(١) الذخيرة ٧٩٢/٣.

(٢) يريد الحاجج الثقفى وفتكاته بأعدائه.

(٣) حباية: فقاعة الماء.

(٤) البرة: الحلقة توضع فى أنف البعير، وبها شبه الكاتب لسان الشمعة. حمة العقرب: إبرته.

(٥) أذن جواد أى مستعرضا مثلها. حدق جراد أى ضئلا كنقطة مداد.

(٦) زنجى الأديم: أسود الجلد.

(٧) تبرى: ذهبى.

(٨) جللنا: غطانا. الساج: شجر خشبه شديد

(٩) زرقاء اليمامة: اشتهرت بحدة نظرها.

(١٠) نصلت: بهت.

(١١) الطنب: الحال تشد بها الخيمة والخباء.

(١٢) الحباب بالضم: الأنفى. وبالفتح: فقاقيع

الماء.

(١٣) الضريب: التلج.

(١٤) الصعيد: وجه الأرض.

(١٥) الرحيق: الصافى من الخمر والشراب.

(١٦) عنقاء مغرب: طائر خرافى.

أوخرطومه، وتقرّص وتكوّم كالأفعوان، وكاد يتجمد، فحسّو الجو من فوقه إبر من الثلج اللاسع، وأرضه قوارير من الجليد اللاذع، وجفّ ريقه في حلقة فلا هريز ولا نباح، ولا نار لمصطل، فالرياح العاصفة لها بالمرصاد حتى لكأنها الطائر الخرافي المسمى عتقاء مغرب.

ونغضى في عصر الموحدين، ونلتقى فيه بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ الماز ذكره بين شعراء الغزل والمدائح النبوية، وله من رسالة يهني بها أبا القاسم بن بقى حين تولى خطة القضاة سنة ٥٩٢ وفيها يقول^(١):

«حُسْنُ الأيام وجمالها، ومآل الآمال وثَمَالُها^(٢)، وبَصَرُ المعارف وسَمْعُها، وواحدُ الفضائل وجمعها، أبو القاسم بن بقى بن مخلد، بُورِكَ في والدٍ وما ولد:

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحَى نوراً ومن فلق الصّباح عُموداً ..
نفع الحقُّ به عِلَلُه، ونفعُ غُلَلِه^(٣).. عِمادى الأكرم، ومَلادى الذى أنفخ من حدّه فى ضَرَمٍ^(٤)، وأحلّ من الاختصاص به محلّ الحرَم، تخيرتُ علاه ومن أخَصَبَ تخيرٌ وما كنتُ إلا كالغريب ارتاد الجوار، والمحلّى انتقى المِعْصَم حين صاغ السّوار.. والله - تعالى - يديم مدة قاضى الجماعة الأسرى^(٥)، وكلّم حمّده أسيرٌ من الأمثال وأسرى^(٦)، ونِعِمُّ الله سبحانه عليه تترى، وما يريه من نعمة إلا هى أكبر من الأخرى». والتورية واضحة بين الأسرى وأسرى، وهى تكثّر فى نثر الأندلس وشعرها منذ هذا التاريخ.

ولسهل بن مالك - بأخرة من عصر الموحدين - رسائل شخصية بديعة، وسنخسه بكلمة، ولأبى عبد الله بن الجنان المترجم له بين شعراء المدائح النبوية من رسالة يعزى بها أبناء سهل حين توفى استهلها بقصيدة أو بمرثية طويلة وفيها يقول^(٧):

«يا له حادثاً، جمع قديماً من الكُروب وحادثاً، ومُصاباً، جرّع أَوْصاباً، وأضحى كلُّ به مُصاباً، لا جرم أنى شربت من كأسه مُسْتَفْظَعُها، وشرقتُ^(٨) بها وبدمعى الذى ارفض^(٩) معها، فغالت خَلْدى، وغالبت جَلْدى، حتى غبتُ عنى، ولم أدر بالآمى التى تعنى.

(٥) الأسرى: الأشرف.

(٦) أسرى: أسير ليلاً.

(٧) بقية السفر الرابع الماز أنفا ص ١١٥.

(٨) شرقت: غصبت.

(٩) ارفض: تفرق وتبدد.

(١١) بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة

تحقيق د. إحسان عباس ص ١٤١.

(٢) ثمالها: ملجأها.

(٣) نفع غلله: شفاه.

(٤) ضرم: وقود النار.

وبكيتُ حتى خشيت البكاء أَنْ يُعْشِيَنِي^(١)، وَغَشِيْتُ^(٢) إِذْ غَشِيَنِي^(٣) مِنْ ذَلِكَ الْيَمِّ^(٤) مَا غَشِيَنِي، «وظَلَلْتُ لَقَى^(٥)» أَيْنَمَا شَاءَ التَّرْحُ يَلْقِينِي، فتارة يُفْنِينِي، وتارة يُبْقِينِي.. ويا ليت شعري إِذْ أَفَادُوا الْمَاءَ طَهَارَةً زَائِدَةً بِغَسَلِ جَلَالِهِ، هَلْ حَنَظُوهُ بِغَيْرِ ثَنَائِهِ أَوْ كَفَّنُوهُ فِي غَيْرِ خِلَالِهِ، ويا ليت شعري إِذْ اسْتَقَلَّ بِهِ نَعْشُهُ الْأَشْرَفُ، تُرْفِرُفْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَيُظَلُّهُ الرَّفْرَفُ، هَلْ رَأَوْا قَبْلَهُ حَمْلَ الْأَطْوَادِ^(٦)، عَلَى الْأَعْوَادِ، وَسِيرَ الْكَوَاكِبِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْمَوَاكِبِ، وَلِمَ آثَرُوا عَلَى نَفُوسِهِمْ، وَرَضُوا الْأَرْضَ مَغْرِبًا لِأَنْوَارِ شَمْسِهِمْ؟ هَلَا حَفَرُوا لَهُ بَيْنَ أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ، وَجَعَلُوا الصَّفِيحَ ضَرِيحَ الْحُبِّ وَالْوَلُوعِ.. وَهَبَ اللَّهُ لَكُمْ فِي مُصَابِكُمْ صَبْرًا عَلَى قَدَرِهِ، وَسَكْبَ دِيمٍ مَغْفَرَتِهِ عَلَى مَثْوَى فَقِيدِكُمْ وَقَبْرِهِ..»

وَأَخَذَ الْكِتَابَ فِي الْأَنْدَلُسِ مِنْذَ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهَجْرِيِّ عَلَى لِسَانِ أَبِي الْمَطْرَفِ بْنِ عَمِيرَةَ الَّذِي تَرَجَمْنَا لَهُ بَيْنَ كِتَابِ الدَّوَاوِينِ وَغَيْرِهِ يَتَصَنَعُونَ فِي كِتَابَاتِهِمْ بِالْمَاعَاتِ وَإِشَارَاتٍ إِلَى الْأَمْثَالِ وَإِلَى مَسَائِلِ الْعُلُومِ وَمِصْطَلَحَاتِهَا عَلَى نَحْوِ مَا نَقَرْنَا مِنْ رِسَالَةِ لِأَبِي الْمَطْرَفِ حِينَ أَعْلَمَهُ صَدِيقُ نَبَأِ اسْتِيلَاءِ الرُّومِ عَلَى بِلَنْسِيَّةٍ، فَقَالَ مَتَحَسِّرًا^(٧):

«بِاللَّهِ أَيُّ نَحْوٍ نَحْنُو، أَوْ مَسْطُورٌ نُنْثِبُ أَوْ نَمْحُو، وَقَدْ حُذِفَ الْأَصْلُ وَالزَّائِدُ، وَذَهَبَتِ الصَّلَةُ وَالْعَائِدُ.. وَذَهَبَتْ عَلَامَةُ الرَّفْعِ، وَفُقِدَتْ نُونُ الْجَمْعِ، وَالْمَعْتَلُّ أَعْدَى الصَّحِيحِ، وَالْمِثْلُ أَرْدَى الْفَصِيحِ.. وَمَالَتْ قَوَاعِدُ الْمَلَّةِ، وَصِرْنَا جَمْعَ الْقِلَّةِ، وَظَهَرَتْ عَلَامَةُ الْخَفْضِ، وَجَاءَ بَدَلُ الْكُلِّ مِنَ الْبَعْضِ».

وَوَاضِحٌ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ مِصْطَلَحَاتِ النَّحْوِ اسْتِغْلَالًا وَاسْعًا فِي التَّوْرِيَةِ عَمَّا أَرَادَ مِنْ تَصْوِيرِ بَوَسِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ إِزَاءَ مَا يَسْقُطُ مِنْ بِلْدَانِهِمْ فِي حَجَرِ نَصَارَى الْإِسْبَانِ، وَأَضَافَ إِلَى التَّوْرِيَّاتِ بِمِصْطَلَحَاتِ النَّحْوِ تَوْرِيَّاتٍ بِيَعُضِ كُتُبِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ، وَأَقْصَدَ كِتَابِي الصَّلَةِ وَالْعَائِدِ وَهَمَا مِنْ كُتُبِ التَّرَاجِمِ وَمِنْ مِصْطَلَحَاتِ الذَّمِّ أَيْضًا وَأَشَارَ مَعَهَا إِلَى تَغْلِبِ الْمَسِيحِيِّ عَلَى الْعَرَبِيِّ بِكَلِمَتِي الْمِثْلُ وَالْفَصِيحِ مَوْرِيًا بِهَا عَنْ كِتَابَيْنِ لِفُغُوَيْنِ هُمَا مِثْلُ قَطْرٍ وَفَصِيحٌ ثَعْلَبٌ، وَمَعْرُوفٌ أَنَّ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَدَلِ عِنْدَ النَّحَاةِ بَدَلُ الْكُلِّ مِنَ الْبَعْضِ. وَبِجَانِبِ هَذِهِ الْإِشَارَاتِ وَالْإِلْمَاعَاتِ إِلَى مِصْطَلَحَاتِ الْعُلُومِ وَكُتُبِهَا الَّتِي يَحَاكُونُ بِهَا تَمَلُّحًا

(٥) لقي: مطروحا مهملا.

(٦) الأطواد: الجبال.

(٧) الإحاطة ١/١٧٣.

(١) يعشيني: يعميني البكاء.

(٢) غشيت: أغشى على.

(٣) غشيني: غطاني وحواني..

(٤) اليم: البحر يريد بحر الحزن.

أبا العلاء المعري في نثره وشعره على نحو ما أوضحنا ذلك عنه في كتابينا عن الفن ومذاهبه في الشعر والنثر العربيين. وأخذت تشيع في الرسائل مع المحسنات البديعية - وخاصة التورية - عقد يصعب بها الكتاب الممرات إلى صنع الرسائل، على نحو ما صنع المشاركة من ذلك منذ الحريري صاحب المقامات، إذ كان يلتزم في بعضها أن تكون كلماتها غير منقوطة أو تكون إحدى الكلمات منقوطة وتالياتها غير منقوطة وكثير مثل ذلك عند المشاركة كما كثر أن يلتزم حرف بعينه في كلمات الرسالة أو كلمات العهد على نحو ما صنع ابن الجنان إذ التزم في عهد أن يكون السجع فيه جميعه حاء مع إردافها بالألف مثل صلاحا، فلاحا^(١). والتزم في رسالة له العين في جميع ألفاظها، ويقول ابن عبد الملك المراكشي إنها «شاعت في الأندلس، وتنقلت شرقا وغربا» وراجعه أبو الحسين الرعيّني برسالة مماثلة، وردّ عليه ابن الجنان أيضا برسالة على غرارها، مما دفع أبا المطرف بن عميرة أن يكتب إلى الرعيّني برسالة نونية ملتزما النون في جميع كلماتها^(٢). ومن الحق أن كتاب الأندلس كانوا من البراعة في الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنع وما يشاكله دون أن يجور على إبداعاتهم الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهج به دائما من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع العناية دائما بجمال الجرس وحسن الأداء. وظل ذلك ماثلا في كتابات الكتاب بغرناطة طوال إمارتها من أواسط القرن السابع الهجري إلى أن خرج منها العرب بأخرة من القرن التاسع، ويزخر كتاب الإحاطة بكثير من الرسائل الشخصية للكتاب الغرناطيين وفي مقدمتهم ابن الخطيب مؤلفه، وقد ختمه برسالتين راسل بهما ابن خلدون صديقه، واحتفظ ابن خلدون له بطائفة من رسائله إليه في كتابه «التعريف» وفي إحداها يرحب بمقدمه إلى غرناطة قائلا^(٣):

«لو خُيرتُ أيها الحبيب الذي زيارته الأمانةُ السنيةُ والعارفةُ الوارفةُ^(٤)، واللطيفةُ المُطيفةُ، بين رَجْعِ الشبابِ يقطرُ ماء، ويرِفُ نَماء، ويغازلُ عيونَ الكواكبِ فضلا عن الكواكبِ إشارة وإيماء.. وبين قدومك لما اخترتَ الشبابَ وإن شاقني زمنُه وأجرتُ سحابَ دمعي دِمْنَه^(٥)، فالحمد لله الذي رَفَى جنونَ اغترابي، وملكني أزمَةً أراي» وكانت بينها مودة وثيقة، وأن أن نترجم لبعض كتاب الرسائل الشخصية المبدعين: حبيب وابن الدباغ وأبي عبد الرحمن بن طاهر وأبي القاسم بن الجد وسهل بن مالك.

(٣) التعريف بابن خلدون ص ٨٢ وما بعدها.

(١) الإحاطة ٣٥٢/٢ - ٣٥٣.

(٤) العارفة: العطية. الوارفة: الواسعة المبهجة.

(٢) انظر في هذه الرسائل المراكشي (تحقيق د.

(٥) الدمن: آثار الديار، والاستعارة واضحة.

إحسان عباس) ٣٢٧/٥ وما بعدها.

حبيب^(١)

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، من أهل إشبيلية، كانت له ولأبيه قدم في الرياسة عند المعتضد أميرها، ولقبه الضبي بالوزير الكاتب، وقال فيه ابن بسام: «كان شديد سهم المقال، بعيد شأو الروية والارتجال.. ولو تحاماه صرف الدهر، وامتد به قليلا طَلَقُ^(٢) العمر، لسدَّ طريق الصباح، وغبَّر في وجوه الرياح، إذ توفي ابن اثنتين وعشرين سنة» وانفرد ابن سعيد بقوله إن المعتضد قتله، والراجح أنه توفي شابا معتبطاً بغير علة قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكان - كما يقول ابن الأبار - آية في الذكاء والفهم والבלغة وتجويد الشعر على حدائثه سنة. وله كتاب البديع في وصف الربيع جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة في الربيع ومشاهده وأزهاره ورياحينه، قال في فاتحته:

«فَصُلِّ الربيع آرَجٌ وَأَبْهَجٌ، وَأَنْسٌ، وَأَنْفَسٌ، وَأَبْدَعٌ، وَأَرْفَعٌ، مَنْ أَنْ أَحَدٌ حُسْنُ ذَاتِهِ، وَأَعَدَّ بَدِيعَ صِفَاتِهِ.. وهو مع صفاته الرائقة، وَسِمَاتِهِ الشَّائِقَةِ، وَأَلَانِهِ الْفَائِقَةِ، لَمْ يُعَنَّ بِتَأْلِيفِهِ أَحَدٌ، وَلَا أَنْفَرَدَ بِتَصْنِيفِهِ مَنْفَرَدٌ».

وقد جمع حبيب في كتابه أروع ما للأندلسيين في وصف الربيع سواء ما نظموه فيه خاصة وما أودعوه مقدمات مدائحهم، وأضاف إلى ذلك بعض ما كتبوا فيه رسائلهم من وصف الأزهار، وأشاد برسالة ابن برد إلى أبي الوليد بن جهور وما بثه من حوار فيها بين خمسة نواوير هي الورد والنرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري النمام واعتراف النواوير الأخيرة بفضل الورد وكتابتها عهدا أو وثيقة بذلك على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع. وأردف حبيب رسالة ابن برد برسالته إلى المعتضد حاكاه فيها مفضلا البهار على الورد مع وصفه لسبعة من نواوير الربيع، وهو يستهل رسالته بإنكاره لتفضيل ابن برد الورد عليها في رسالته، يقول:

«أَوَّلُ مَنْ رَأَى ذَلِكَ الْكِتَابَ (رسالة ابن برد في تفضيل الورد) وعاین الخطاب، نواویرُ فصل الربيع التي هي جيرة الورد في الوطن، وصحابته في الزمن، ولما قرأته

بیرس طبع الرباط سنة ١٩٤٠. وطبع في السعودية

بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

(٢) طلق: شوط.

(١) انظر في ترجمة حبيب الذخيرة ١٢٤/٢

والجدوة ١٥٢ والبغية رقم ٥٣٤ والتكملة (البقية

الجديدة) ص ٢١٩ والمغرب ٢٥٠/١. وراجع

كتابه: «البديع في وصف الربيع بتحقيق هنري

أَنكَرْتُ مَا فِيهِ، وَبَنَتْ عَلَى هَدْمِ مَبَانِيهِ، وَنَقَضَ مَعَانِيهِ، وَعَرَفْتُ الْوَرْدَ بِمَا عَلَيْهِ، فِيمَا نُسِبَ إِلَيْهِ.. وَكَتَبْتُ إِلَى الْأَقْحَوَانِ وَالْخَيْرِيِّ الْأَصْفَرِ كِتَابًا قَالَتْ فِيهِ: لَا نَدْرِي لِأَيِّ شَيْءٍ أُوجِبْتَ الْأَزْهَارَ تَقْدِيمَهُ، بِمَا غَيْرُهُ أَشْكَلُ لَهُ وَأَحَقُّ بِهِ وَهُوَ نَوْرُ الْبَهَارِ، الْبَادِي فَضْلُهُ بَدْوُ النَّهَارِ، وَالَّذِي لَمْ يَزَلْ عِنْدَ عُلَمَاءِ الشُّعْرَاءِ، وَحُكَمَاءِ الْبُلَغَاءِ، مُشَبَّهًا بِالْعَيُونِ الَّتِي لَا يَحُولُ نَظَرُهَا، وَلَا يَحُورُ حَوْرُهَا، وَأَفْضَلُ تَشْبِيهِهُ لِلْوَرْدِ، بِنُضْرَةِ الْخَدِّ، عِنْدَ مَنْ تَشِيْعُ فِيهِ، وَأَشْرَفُ الْحَوَاسِّ الْعَيْنُ، إِذْ هِيَ عَلَى كُلِّ مَنْوَلٍ عَوْنٌ، وَلَيْسَ الْخَدُّ حَاسَّةً، فَكَيْفَ تَبْلُغُهُ رِثَاسَةٌ:

أَيْنَ الْخَدُّودُ مِنَ الْعَيُونِ نَفَاسَةً وَرِثَاسَةً لَوْلَا الْقِيَاسُ الْفَاسِدُ»

وَاسْتَمَرَ حَبِيبٌ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ طَوِيلًا، وَخَتَمَهَا بِمُبَايَعَةِ الْأَزْهَارِ لِلْبَهَارِ بِتَفْضِيلِهِ عَلَى الْوَرْدِ. وَلَهُ مِنْ رِسَالَةٍ إِلَى أَبِيهِ:

«لَمَّا خُلِقَ الرَّبِيعُ مِنْ أَخْلَاقِكَ الْغُرِّ، وَسَرَقَ زَهْرَهُ مِنْ شَيْمِكَ الزُّهْرِ، حَسُنَ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْظَرُهُ، وَطَابَ فِي كُلِّ سَمْعٍ خَبَرُهُ، وَتَاقَتْ النُّفُوسُ إِلَى الرَّاحَةِ فِيهِ، وَمَالَتْ إِلَى الْإِشْرَافِ عَلَى بَعْضٍ مَا يَحْتَوِيهِ مِنَ النُّورِ الَّذِي كَسَا الْأَرْضَ حُلَلًا، لَا يَرَى النََّاظِرُ فِي أَثْنَانِهَا خِلَالَ، فَكَأَنَّهُمَا نَجُومٌ نُشِرَتْ عَلَى الثَّرَى، وَقَدْ مُلِئَتْ مِسْكًَا وَعَنْبَرًا، إِنْ تَنَسَّمْتَهَا فَارِجَةٌ، أَوْ تَوَسَّمْتَهَا فَبَهْجَةٌ، تَرُوقُ الْعَيُونُ أَجْنَاسُهَا، وَتُحْيِي النُّفُوسَ أَنْفَاسُهَا.. فَأَوْجِدْ لِي سَبِيلًا إِلَى إِعْمَالِ بَصَرِي فِيهَا، لِأَجْلَوْ بِصِيرَتِي بِمَحَاسِنِ نَوَاحِيهَا، فَالْنُّفُوسُ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ، وَمَنْ أَجَمَّهَا^(١) فَهُوَ السَّدِيدُ الرَّشِيدُ».

وَوَاضَحَ فِي الرِّسَالَةِ لَطْفَ الْإِبْنِ لِأَبِيهِ، مَعَ حَسَنِ تَأْتِيهِ وَجَمَالِ وَصْفِهِ لِلرَّبِيعِ وَشُغْفِهِ بِمُشَاهَدَةِ نَوَاحِيهِ الْبَدِيعَةِ. وَلَهُ مِنْ رِسَالَةٍ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ يَسْتَدْعِيهِ لِلْمُتَعَةِ مَعَهُ وَالْأَنْسَ بِهِ فِي مَنْظَرِ فَاتِنٍ مِنْ مَنَاظِرِ الرَّبِيعِ، يَقُولُ:

«قَدْ عَلِمَ سَيِّدِي أَنَّ بَمَرَّاهُ يَكْمَلُ جَذَلِي، وَيَدْنُو أَمْلِي، وَقَدْ حَلَلْتُ مُحَلًّا عَنِّي الْجَوْ بِتَحْسِينِهِ، وَانْفَرَدَ الرَّبِيعُ بِتَخْصِينِهِ، فَكَسَاهُ حُلَلًا مِنَ الْأَنْوَارِ، بِهَا يَنْجَلِي صَدَأُ الْبَصَائِرِ وَالْأَبْصَارِ، فَمَنْ مَكْمُومٌ^(٢) يَغِيبُ مِسْكُهُ، وَلَا يَمْنَعُهُ مَسْكُهُ، وَمَنْ بَادٍ يَرُوقُ مُجْتَلَاهُ، وَيَفُوقُ مُجْتَبَاهُ، فِي مَرَّاهُ وَرِيَّاهُ، فَتَفْضُلُ بِالْخُفُوفِ^(٣) نَحْوِي لِنَجِدَّ مِنَ الْأَنْسِ مَغَانِي^(٤) دَرَسْتُ،

(١) أَجَمَّهَا: أَرَا حَاجَتَهَا.

(٢) الْخُفُوفُ: الْإِسْرَاعُ.

(٣) مَكْمُومٌ: أَيُّ زَهْرٍ مُسْتَوْرٍ فِي كَمِّهِ.

(٤) مَغَانِي: مَنَازِلُ. دَرَسْتُ: عَفْتُ وَذَهَبْتُ أَثَرَهَا.

ونفك من السرور معاني أَشَكَلْتُ وَأَلْبَسْتُ^(١) ونشكر للربيع، ما أَرَانَا من البديع»
والرسالة كسابقتها جمالَ صياغة وحسنَ أداء، وهى تصور - مثلها - تعلقه بالطبيعة
فى أعيادها وأعراسها أيام الربيع، مما جعله يصنف فيه كتابه «البديع» متنقلا بين مشاهد
وأزهاره ونواويره وما صاغ فيها هو وشعراء موطنه من أوصاف رائعة.

ابن^(٢) الدباغ

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ الوزير الكاتب، نشأ
بسرْقُسطة، وعمل بدواوينها وقرَّبه المقتدر بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) حتى أصبح
من وزرائه، وأحسَّ منه جفوة، وخشى أن يسطو به ويبطش، فخرج عنه، ونزل
بالمعتمد بن عباد فى إشبيلية، فأجزل قِراه، وخصَّه بحظ من دنياه، وجعله مكان سرِّه
ونجواه. وسفر بينه وبين المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس حين كان بياطرة.
وحدثت مشادة بينه وبين ابن عمار قرينه فى وزارة المعتمد، وبلغه أنه قدح فيه بمجلس
المعتمد، وخشى مغبة ذلك، فلحق بالمتوكل أمير بطليوس فرحب به، ويبدو أنه لم يكن
موطأ الكنف فى العشرة، إذ لم يلبث أن فسد ما بينه وبين وزير المتوكل أبى عبدالله بن
أمين، واشتعلت بينهما نار ملأ الأفق شعاعها، وأخذ بأعتان السماء - كما يقول ابن
بسام - ارتفاعها، فكرَّ راجعا إلى سرْقُسطة، وبعد فترة قليلة قتل ببستان من بساتينها.

ويبدو أن ابن الدباغ كان شديد الضجر بالناس كثير الظنون بهم أو قل سيئ
الظنون، فبنا به مقامه عند المقتدر بن هود ثم عند المعتمد والمتوكل بن الأفطس، وربما
دفعه إلى ذلك تشاؤم شديد جُبِلت عليه نفسه. وهو من كتاب عصر أمراء الطوائف
الناهين، وفيه يقول ابن بسام: «فما انتخبته من نظمه ونثره ما يشهد بفضله، ويدل على
نبيله». ومضى ابن بسام يعرض طرائف من رسائله امتدت إلى نحو ستين صحيفة، جميعها
غُرر ودُرر، وأكثرها فى ذم الزمان ومعاصريه وتعذر آماله فيه، من ذلك قوله فى بعض
رسائله:

«كتابى وعندى من الدهر ما يهدُّ أيسرُّه الرَّوَاسِي، ويفتت الحجرَ القاسى.. ومن
أقلها قلبُ محاسنى مساوى، وأوليائى أعادى، وقصدى بالِبَغْضَةِ من جهة المِمْقَةِ^(٣)،

(١) قسم شعراء المغرب والأندلس - طبع الدار

التونسية) ٣٨٧/٣

(٢) المقة: المحبة.

(١) أشكلت وألبست: اشتبهت وانبهت.

(٢) انظر فى ترجمة ابن الدباغ الذخيرة ٢٥١/٣

والقلائد ص ١٠٦ والمغرب ٤٤٠/٢ والخريدة

واعتمادى بالخيانة من حيث الثقة.. وقد غرَّ علىَّ حتى شرايى، وأوحشنى حتى ثيابى،
فها أنا أَنُهم عيائى، وأُسْتَرِيبُ من بَيائى، وأجنى الإساءة من غُرْسِ إحسانى..
وما أصنع؟ وقد أبى القضاء إلا أن أقضى عمرى فى بوس ولا أنفك من نحوس..
لست أشكو إلا زمانى وقُعودَه بجَدِّى^(١)، وقبيح آثاره عندى، يخضنى بمزية حِرْمان،
ويتوخانى بِفَضْلَةِ عُدْوان، ويجعلنى نَضَبَ سَغيه، وغرضَ رَمِيه، ومكان أذائته وبُغيه..
ما أجد إلا من يَنْلُبُ، ولا أمرٌ إلا بمن يتجهَّم ويقطَّب..
وسبحان من جعل الدنيا دارَ كَرْبٍ ومِحنة، لكل ذى لُبٍّ وفطنة، ومقام تنعم وترف، لكل ذى خِسة ونَطفٍ^(٢)..
وما أظن أن لُدْجى حالى أنبلاجا، ولا لَكْرِبة نفسى انفراجا، ولا إخال غمرات الهمِّ تنجلي،
ولا مُدَدَ النحوس تنقضى، ومَنْ كانت له من الدنيا حُطوة يصطفِها، ومكانة يستقر فيها،
فليس لى منها إلا أن أرى كيف تنقسم رُتبها وتتناوب، وتتنازع نِعْمُها وتُتجاذب، وتُغْتَمُّ
فوائدها وتتناهب، حتى كأنى جئت على العدد زائدا، ولم أكن عند القسمة شاهدا،
وما أقول هذا قول ساخط، ولا أياس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح
العليل فى أنة، واستغاث المتوجع إلى رَنَّةٍ^(٣)، وخفف عن المصدور نفث^(٤)، ونفس من
وجَدَ المكروب بَثَّ^(٥)..

وهو يطيل فى مثل ذلك صادرا عن قريحة أدبية خصبة، وكأنما سيول الكلام العذب تفل
عليه من كل صوب، وهو يختار أسلس الألفاظ وأحلاها فى الجريان على الألسنة
ومصافحة الأسباع والقلوب، مما يصور براعة أدبية حقيقية، إذ يمتع دائما بألفاظه ومعانيه
الألسنة والآذان والأذهان. وله من تهنئة:

«قد كنت - أعزك الله - متمنيا لهذه الأيام، كما يُتمنى فى المَحَلِّ^(٦) صَوْبُ الغمام،
ومنتظراً لظهورك فيها، كانتظار النفس أعذب أمانيتها، ولما أطلعت طلائعها السعد،
واستمرَّ بك الارتقاء والصعود، قلت لنفسي بُشراك، أسعفك الدهرُ بمناك، وسرَّك فى
بعض أعزتك وأرضاك، وأذنى فى الإصغاء، إلى ما يطرأ من الأنباء، وكلما قيل فرع^(٧)
من الجاه ذروة، واستجدَّ من العزِّ كُسوة، سرَّت العِزة فى خَلْدِي^(٨)، وطالت^(٩) على
النوب يدى»

(٥) البث: ما يبسه المكروب والمحزون تخفيفا عنه.

(٦) المحل: الجذب.

(٧) فرع: علا.

(٨) الخلد: البال والفكر.

(٩) طالت: غلبت وتفوقت.

(١) جدى: حظى.

(٢) نطف: عيب.

(٣) رنة: صيحة.

(٤) نفثة المصدور: ما يخفف به عن صدره

المريض.

وبهذا البيان الخلاب لانزال نقرأ في رسائل ابن الدباغ معجبين، ونأسى لمصيره، وكان حريا بأحد الثلاثة: المقتدر بن هود والمعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس أن يرفق به ويعرف له فضله ومنزلته الأدبية الرفيعة، فيقبله من أضرار تشاؤمه وعثرات بؤسه بما يُسدل عليه من صفو الحياة ورخاء العيش مما يبذل قنوطه من معاصريه رجاء ويأسه منهم أملا وخوفه ثقة واطمئننا، غير أن أحدا منهم لم يحاول إنقاذه من محتته، بل جميعهم تركوه يتجرع غُصَص الضَّيم والحرمان في غير شفقة ولا رأفة.

أبو^(١) عبد الرحمن بن طاهر

هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، من بيت ثراء وشرف وفضل بمدينة مرسية في شرقي الأندلس، وهو بيت كان ينتمي إلى قبيلة قيس بن عيلان في الجزيرة، وكان يعتز بقيسيته وعروبته. ولما انتشرت الأندلس وتوزعت بلدانها بأيدي أمراء الطوائف دعا أبوه أحمد بن طاهر لنفسه في بلده مرسية، فاجتمع أهلها على طاعته، وازدهر إقليم أهلها بجميل سيرته. وكان قد رُزق بابنه أبي عبد الرحمن محمد حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، وشبَّ فأعان أباه في حكمه إلى أن توفي سنة ٤٥٥ فخلفه على مرسية، وانتهج سيرته، فاستقام له حكم أهلها، وكأنهم لم يفقدوا أباه. وكان من أهل العلم والأدب البارع إذ عنى أبوه بتربيته، وكان يتقدم أمراء الطوائف في بلاغة الكتابة، وكانت رسائله متداولة لما تتميز به من حسن الأداء، ولابن بسام تأليف خصها به سباه «سلك الجواهر من ترسل ابن طاهر» وترجم له في الذخيرة ترجمة ضافية.

وكان ابن طاهر جوادا ممدحا، ينتجعه الشعراء والأدباء فيجزل لهم العطاء، وانتجعه ابن عمار الذي مرت ترجمته بين الشعراء أيام خموله، فرحب به وأكرمه، وجزاه على إكرامه وترحيبه جزاء سنَّار، إذ عرف في مقامه بضيافته ضعف جنده وعورات بلده، فلما تطورت به الظروف، وأصبح وزيرا ومستشارا للمعتمد بن عباد أمير إشبيلية زين له الاستيلاء من يد ابن طاهر على مرسية، وما زال يُغريه بفتحها وأن ذلك لن يكلفه مئونة كبيرة حتى استجاب وأعدَّ له جيشا جرارا لفتحها، وفي طريقه إليها اتخذ قائدا لعسكره عبد الرحمن بن رشيق، ولم يلبث أن انتزعها من يد ابن طاهر سنة ٤٧١ وزجَّ به في سجن

والحلة السيرة ١١٦/٢ والذيل والتكملة للمراكشي ٥٩٠/٥ والخريدة ٣٦٣/٣ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ٢٣٢.

(١) انظر في ترجمة أبي عبد الرحمن بن طاهر الذخيرة ٢٤/٣ - ١٠٣ والقلائد: ٥٨ والمغرب ٢٤٧/٢ وبغية الملتبس رقم ٢٣ والمعجب ١٨٠

بحصن قريب من مرسية يسمى «مُنْتْ أقوط» وسوّلت له نفسه أن يخلع ولاءه للمعتمد ويستقل بمرسية، فسَلَط عليه قائده عبدالرحمن بن رشيق، فاستخلصها منه. وتوسط لديه أبو بكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية، كي يرد إلى ابن طاهر حريته، فردّها عليه. وعاش ابن طاهر بقية حياته ببلنسية مبعّجلاً معزّزاً، وشهد محنة المسلمين بها سنة ٤٨٧ على يد الفارس الإسباني المغامر السيد الكنيطور، ووقع - بعد بلاء مبرور في حربته - بأسره، وافتدى وأطلق سراحه، ولم يرح ببلنسية إلى أن استردها المرابطون سنة ٤٩٥. ومدّ له في البقاء إلى أن توفي ببلنسية سنة ٥٠٨ للهجرة.

وهذه الحياة الطويلة التي امتدت بابن طاهر إلى نحو تسعين عاماً أمضى منها فترة معاوناً لأبيه في حكم مرسية وفترة ثانية في حكمها وفترة ثالثة قصيرة معتقلاً ثم فترة طويلة ببلنسية معزّزاً موقراً. وهذه الحياة المديدة أتاحت له أن تتكاثر المكاتبات بينه وبين أمراء الطوائف، يخطبون وداده، وهو تارة يشكر، وتارة يعاتب أو يشفع أو يعزى أو يهنئ، وقد اهتزّ هزة عنيفة لأوائل حكمه مرسية حين نكل النورمانديون بأهل بربرشتر في الشمال الشرقي لسرقسطة سنة ٤٥٦ وأنزل بهم مذبحة - كما مرّ بنا - تقشع لهولها الأبدان وسبى منهم خمسة آلاف من النساء والعداري وباعهم في الأسواق بيع الإماء، وما إن علم بذلك حتى ضاقت به الأرض بما رحبت، وأخذ يكتب لأقرانه كي يكيلوا للعدو الغاشم الصاع صاعين، ومن قوله في وصف هذا الحادث المروع:

«خطب أطار الألباب، وطأطأ الرقاب، وقطع الآمال والهمم، وأسلم من الذلّة والقلّة إلى ما قَصَم، فما شئت من دمع مسفوحٍ مُراقٍ، ونَفْسٍ متردّدةٍ بين لَهَاءٍ وتَرّاقٍ^(١)، وأسى قد قرع حُصَيَّاتِ القلوب فرَضُها^(٢)، وعدل عن المضاجع بالجنوب فأقَضُها^(٣)». ويقول من رسالة أخرى مستنفراً للجهاد:

«لَيَنْدُبِ الإسلام نادب، وليبْكُ له شاهدٌ وغائب، فقد طُفِّي مصباحُه، ووُطِّي سَاحُه، وقُصَّ جَنَاحُه، وهِيضُ^(٤) عَضْدُه، وَغِيضُ ثَمْدُه^(٥)، إلى الله نَفْرَعُ، وإليه نَضْرَعُ، في طارق الخطب ومُنتابه، ولا حول ولا قوة إلا به، فهو كاشفُ الكروب، وناصرُ المحروب».

(١) التراقي: جمع ترقوة: أعلى الصدر. اللهاة: (٣) أقضها: جعلها لا تريح النائم بجنبه فيها.
(٤) هيض: تحطم.
(٥) غيض ثمده: جفّ ماؤه القليل.
(٢) رضها: دقها.
أقصى سقف الحلق.

وحين رُدَّتْ إليه حريته وأُطلق من معتقله بفضل وساطة أبي بكر بن عبد العزيز الوزير بيلنسية واستجاب إلى رغبته في المقام عنده كتب وهو في طريقه إليه رسالة يقول في فصل منها:

«كتابي وقد طَفَلَ^(١) العَشِيُّ، وسالَ بنا إليك المَطِيُّ^(٢)، ولها من ذكرك حادٍ، ومن لُقْيَاكِ هادٍ، وسنوافيك المساء، ونَغْتَفِرُ للزمان ما قد أساء، ونَرُدُّ ساحةَ الأمن، ونشكر عَظِيمَ ذلك المَنِّ، فهذه النفس أنت مُقِيلُها^(٣)، وفي بَرْدِ ظِلِّكَ يكون مَقِيلُها^(٤)، فَلَلهُ مَجْدُكَ وما تَأْتِيهِ، لازلْتَ للوفاء تُحْيِيهِ وتَحْوِيهِ»

وكانت في ابن طاهر دعاية لم تفارقه حتى في أيام محنته بالاعتقال، وله في ذلك - كما يقول ابن بسام - عدة نواذر أحر من الجمر وأدمغ من الصخر، ويروى منها أن ابن أخت لعبد الرحمن بن رشيق كان ذا لحية طويلة، وطلعة ثقيلة، وقف عليه يوما في اعتقاله، فجعل يتفجع له ويتوجع، ويتملق معه ويتصنع، فقال له ابن طاهر: خلاصي بيدك إن شئت، فإنك لو أخرجتني في لحيتك لتخلصت ولم يرني أحد. وكتب إليه رجل يترهده، وأطال الوعظ وردد، وهو يعرف أنه على الضد من وعظه، فأجابه:

«ورد كتابك فوعظ وذكر، ونصح فبَصُر، ونَبِهَ من سِنَةِ الغفلة، واغترار المَهْلَةِ، وحذَّر من يوم النَّدَامَةِ، وبَعَثَ يوم القيامة، فبرحمك الله من هادٍ وخائف معادٍ، ومبتغي إرشادٍ، وداعٍ إلى صلاح وسداد، لقد حرَّكت أنفُسًا قاسية، وهزرت جَنَدَلَةً راسية، ومَعُولُكَ دونها نابٍ، لا يؤثر فيها بِظُفْرِ ولا نابٍ»

ودائما يسيل الكلام على لسان ابن طاهر في خفة ورشاقة وعذوبة، وفي الذخيرة من ذلك بدائع وروائع يقول ابن بسام بعقبها: «أبو عبد الرحمن أكثر إحسانا، وقد وهب الطروس من ألفاظه ما يفضح العقود الدرِّيَّة، وتُعَسِّس^(٥) معه الليالي البَدْرِيَّة».

(٣) مُقِيلُها: منَحِيها أى عما كانت فيه من اعتقال.

(٤) مُقِيلُها: مكان راحتها.

(٥) تُعَسِّس: تظلم.

(١) طفل العشي: مال للغروب العشى وهو آخر

النهار.

(٢) المطي: الإبل.

أبو^(١) القاسم بن الجد

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى، من أسرة بنى الجد، من بيوتات لُبلة غربى إشبيلية وإشبيلية نفسها، وفي كتاب المغرب ترجمات لغير فقيه وأديب من هذه الأسرة، وقد أكبَّ في نشأته على كتب الفقه والحديث والأدب، وأخذ اسمه يلعب بين أقرانه في إشبيلية، فاختره المعتمد بن عباد أميرها وزيرا لابنه الراضى حين ولّاه مدينة الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب، وظل معه حين ولّاه مدينة رُنْدَة غربى مالقة إلى أن استنزل منها المرابطون سنة ٤٨٤ وفتكوا به. وعاد أبو القاسم إلى بلده: لُبلة فولّوه خُطّة الشورى ومقاليد الفتوى، وهو مع ذلك يساجل إخوانه ويراسلهم ويخطب مودتهم، وخاصة أبا بكر بن القصيرة رئيس الديوان براكش منذ سنة ٤٨٧ ليوسف بن تاشفين ثم لابنه على. ويبدو أن ابن القصيرة استدعاه ليعمل معه في هذا الديوان، ولا نعرف تاريخ هذا الاستدعاء، وأكبر الظن أنه استدعاه منذ عهد يوسف بن تاشفين حتى إذا توفى ابن القصيرة سنة ٥٠٨ أسندت إلى ابن الجد رئاسة الديوان براكش إلى أن توفى سنة ٥١٥ للهجرة.

وقد استهل ابن بسام ترجمته بقوله: «قريع^(٢) وقتنا، وواحد عصرنا، ممن استمرى^(٣) أخلاف النظم والنثر، فدُرّت له بالبيان أو بالسحر.. ورؤيدك حتى ترى الصبح كيف يُسفر، وثَبَّج^(٤) البحر كيف يزخر. وهو على نباهة الذكر، وعلو القدر، وشرف المحل من فهر^(٥)». وتلا ابن بسام ذلك بطائفة من رسائله، ونقرأ من بينها رسالة كتب بها إلى صديقه رئيس دواوين المرابطين: ابن القصيرة، وقد تصادف أن كان على مسافة قريبة منه، ولم يتفق لهما لقاء، وفيها يقول:

«لم أزل - أعزك الله - أستنزل قربك براحة الوهم، من ساحة النجم، وأنصب لك شرك المني، فى خُلُس الكرى. وما ظنك بى وقد نزلت على مسافة يوم، وطالما نفر عن

(٢) قريع: سيد.

(٣) استمرى أخلاف النظم: احتلب ضرع.

(٤) ثَبَّج البحر: وسطه.

(٥) فهر: قبيلة قرشية.

(١) انظر في ترجمة أبى القاسم بن الجد الذخيرة

٢٨٥/٢، ٣٤٧ والصلة ص ٥١٦ والمطرب

ص ١٩٠ والمعجب ص ٢٣٧ والقلائد ١٠٩

والذيل والتكملة للمراكشى ٣٢٦/٦ والمغرب

٣٤١/١ والحريدة ٣٩٣/٣ وإحكام صناعة الكلام

لابن عبد الغفور الكلاعى ص ١٨٥.

خيالى نوم، ودنوت حتى هممت بالسلاام، وقد كان من خُدَع الأحلام.. وما كان على الأيام لو غفلت قليلا، حتى أشفى بلقائك غليلا.. ولئن أقعدتني بعوائقها عن لقاء حر، وقضاء برٍّ فما تحيَّفتُ (تنقصت) ودادى، ولا ارتشفت مدادى، ولا غاضت (نقصت) كلامى، ولا أَحَفَّتْ (استأصلت) أقلامي، وفى الكتاب بُلْغَةُ الوطر، وُيَسْتَدَلُّ على العين بالأثر.. وإن فرغتَ للمراجعة ولو بحرف، أو لمحة طرف، وصلتَ صديقا، وبَلَلْتَ ريقا، وأسديتَ يدا، وشفيتَ صدًى (عطشا)، لا زالت أياديك بيضا، وجاهك عريضا، ولياليك أسحارا، ومساعيك أنوارا».

ويبدو أنه كتب لابن القصيرة هذه الرسالة حين كان يتولى ديوان الإنشاء بمرakash للمرابطين، وقد تولاه منذ سنة ٤٨٧. كما أسلفنا حتى وفاته سنة ٥٠٨ ونراه فيها يشير - من طرف خفى - إلى تمنيهِ أن يستدعيه صديقه للعمل معه فى ذلك الديوان، ولا تخفى سطور الرسالة مراده وأنه يأمل لو رُدَّ عليه بكتاب يحقق له أمنيته. وقد صاغ الرسالة صياغة بديعة، مع لطف الأخيطة ودقة المعانى ومع حسن الأداء. ولانلبث أن نقرأ له رسالة فى وصف مطر بعد جذب شديد، وفيها يقول:

«لما استرابتُ جِياضَ الوهاد، بعهود العهد^(١)، وتأهَّبتُ رياضُ النِّجاد، لبرود الحداد، واكتَحَلْتُ أَجْفانَ الأزهار، بِإِثْمِ^(٢) النَّقْعِ المثار، وتعلَّطْتُ الأنوار، من حُلِيِّ الدَّيْمَةِ المِذْرار، أرسل الله تعالى بين يَدَيَّ رحمته رِيحًا بليلةَ الجناح، سريعة الإلقاح، فنَظَّمْتُ عقودَ السَّحاب، نَظَّمَ السَّحاب^(٣)، ولم تلبث أن انتهكت رُواقها^(٤)، وأنبتك^(٥) وَشِيكا نطاقتها، وانبرت مدامعها تبيكي بأجفان المشتاق، غداةَ الفراق، فاستغربت^(٦) الرياضُ ضحكا ببيكائها، واهتزَّت رُفاتُ^(٧) النَّباتِ طَرَبًا لتغريد مُكائنها^(٨)، فيا بَرْدَ موقعها على القلوب والأكباد، ويا خلوص رِيِّها إلى غُلُلِ النفوس الصَّواد^(٩)، كأنما استعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشَّفت رُضابًا^(١٠) من الثَّنايا العذاب، أو تحمَّلت ماءَ الوصال، أو

(١) العهد: المطر.

(٢) إثم: كحل. النقع: الغبار.

(٣) السحاب: القلادة من الأزهار.

(٤) الرواق: مقدم البيت

(٥) انبتك: انقطع

(٦) استغرب فى الضحك: بالغ فيه

(٧) رفات: حطام

(٨) المكاء: طائر له تغريد حسن

(٩) ربا: شربها حتى الامتلاء. الغلل: جمع غلة:

شدة العطش الصوادى. العطشى.

(١٠) الرضاب: الريق المرشوف.

سَرَتْ عَلَى أُنْدَاءِ الْأَسْحَارِ وَرِيحَانِ الْآصَالِ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا انْسَكَبَ قَطْرُ،
وَانْصَدَعَ فَجْرٌ، وَتَوَقَّدَ قَبَسٌ، وَتَرَدَّدَ نَفْسٌ».

ولعل صوت ابن الجد اتضح، فهو صوت يفيض بألحان عذبة يأخذ بعضها بتلايبب بعض لما تتميز به من عذوبة ورشاقة، وهو صوت يتخايل أو يتجسد في تصاوير متتابعة، فيمتع النفس بنغماته وأخيلته البديعة. وله من رسالة يخطب فيها وداد أديب وأخوته:

«إن كانت المداخلة بيننا لم يُفْتَحْ لها باب، ولا علقَتْ بها أسباب، ولا رُمِيَ لنا في محْصَبِهَا^(١) جِارٌ، ولا عَطَفَ بنا نحو كعبتها اعتبار، فقد جمعنا في معرف^(٢) المعرفة معارف، وضمَّنا من معالم العلم معاهد ومآلف، وشجَّنا^(٣) بيننا من أواصر الأدب أنساب، وضربت علينا في مدارج الطلب قِباب، ولا غرو من تدانى القلوب على تنائى الديار، وائتلاف النفوس مع اختلاف النجار^(٤)، فربما أَلَفَ تشاكل الشيم والأخلاق، بين مستوطن الشام وساكن العراق. على أنى لا أدعي ربتك في فنون العلم والآداب، ومن يُضاهي محل الفرق^(٥)، بمنبت الغرقد، لكنى وإن لم أعدَّ في رعيك، فعندى من بضائع الكلم ما ينفق في سوقك، بقيت حلية للدهر فائقة، وغرَّة في وجد الزمن رائقة».

وعذوبة الكلم وحلاوة الصوت وسلاسة الجرس ونعومته، كل ذلك تغرق الآذان في أنغامه مع ما يسوق من أطيايف وخيالات رائعة. وكان فيه ميل إلى الدعابة، مما جعله يعارض أبا الحسين بن سراج في رقعته التي مرت بنا والتي شفع فيها عند بعض ذوى الجاه والثراء لرجل يسمى الزريزير مستعيراً له بعض الصفات المتصلة بالطيور كالريش والعش والشكير والتحسير، وعلى غرار رقعة ابن سراج يقول في رقعته:

«لئن سُمِّيَ بِالزُّرْزِيرِ، لَقَدْ صُغِرَ لِلتَّكْبِيرِ، ولما طار ببلاد الغرب ووقع، وزَقَا فى أكنافها وصَقَعَ^(٦)، وعاین ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، فى تلك البطون، والمتون، ولم يجد بها قراراً، أزمع عنها فراراً. واستخفه هائجُ التذكار، نحو تلك الأوكار،

(١) المحصب: موضع رمى الجمار بنى.

(٢) المعرفة: الموقف بعرفات، والاستعارة واضحة.

(٣) وشجَّنا: تشابكت.

(٤) النجار: الأصل والحسي.

(٥) الفرقد: النجم القطبي: الغرقد شجر قصير

فروعه شائكة.

(٦) زقا: صاح. صقع: ذهب فى كل وجه.

حيث يكتسى ريشه حريرا، ويحتشى جَوْفَهُ بَرِيرًا^(١)، ويحتسى قَرَا حَا نَمِيرًا^(٢)، فخذهُ إِلَيْكَ، نازلا لَدَيْكَ، ماثلا بين يَدَيْكَ، يترنم بالثناء، ترنم الذَّبَابُ فِي الرُّوْضَةِ الْغَنَاءِ. وَلَنْ يَعدَمَ فِي جَنَابِكَ حَبًّا نَثِيرًا، وَخَصْبًا كَثِيرًا، وَعُشًا وَثِيرًا^(٣)».

والدعابة لطيفة والصياغة بدیعة، ويقول ابن بسام في ختام ترجمته له إن كلامه أبهى من النجوم وأبهى، وأسرى من النسيم وأسير» لما يُشيع به من صياغة تأخذ بمجامع القلوب

سهل^(٤) بن مالك

هو سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأزدي، من أسرة علمية غرناطية ذات جاه وثناء، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشي: «كان من أعيان مصره وأفاضل عصره تفننا في العلوم وبراعة في المنثور والمنظوم، محدثا مجودا للقرآن متقدما في العربية، وافر النصيب من الفقه وأصوله، كاتباً مجيد النظم في معرب الكلام وهزله ظريف الدعابة مليح التندير» ويقول ابن سعيد في القدح المعلى: «لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها في العلم والوجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار، وبرع في العلوم الحديثة والقديمة وبلغ بين نظرائه مبلغ الكمال»، وصنف في العربية كتابا مفيدا رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه، وله تعليقات نافعة على كتاب المستصفي في الأصول للغزالي.

ولما ثار محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل بمدينة مرسية سنة ٦٢٥ وملك قرطبة وإشبيلية وغرناطة بلغه أن سهل بن مالك يتندر به وبرجاله، وكان مطبوعا على النادرة ظريفا خفيف الروح، ولكن ابن هود لم يحتمله فغربه عن غرناطة ببلدته إلى مدينة مرسية، وظل بها حتى توفي ابن هود سنة ٦٣٥ وصارت غرناطة إلى الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة فعاد إليها، وظل في جاه بها وبلوغ أمنية حتى توفي سنة ٦٣٩ للهجرة عن سن عالية وراثه تلميذه ابن الجنان رثاء حارا.

وكان سهل شاعرا كما كان ناثرا، ونثره يبذ شعره ويدل على عمق فكره واصطباغه

ابن الأبارص ٧١٢ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ٦٠ وزاد المسافر رقم ٢٣ وابن فرحون والذيل والتكملة للمراكشي (بقية السفر الرابع) ص ١٠١ والإحاطة ٢٧٧/٤.

(١) البرير: ثمر الأراك.

(٢) يحتسى: يتجرع. قراحا غيرا: ماء صافيا زاكيا.

(٣) وثيرا: وطيئا.

(٤) انظر في ترجمة سهل بن مالك التكملة لتلميذه

بأصباغ الفلسفة. وكان من تلاميذ ابن رشد، وعنه أخذ العلوم القديمة، وكان شديد الشغف به والإعجاب بفلسفته وفكره، فلما توفي سنة ٥٩٥ أظلمت الدنيا في عينيه وكأنما طعن في كبده فأمسك بالقلم وكتب إلى بنيه يعزيهم - وقد حَزَّ في نفسه الجزع وعَضَّها الوجع - تعزية ملتاع أَضْرَمَت اللوعة ناراً في فؤاده، وفيها يقول:

« لا أقول كفى ولا أستشعر صَبْرًا، وقد أُسْكِن نورَ العِلْمِ قبرًا، بل أُغْرِقُ الأجفان بمائها، وأستوهب الأشجان غَمْرَةً ^(١) غَمَّائِها، وأتهالك تهالك المجنون، وأستجير من الحياة بِرَيْبِ المَنُون، وأنافرُ السلوِّ منافرة اليقين لوساوس الظنون. وهو الخطبُ الذي نَفَى الهُجُودَ ^(٢)، وألزم أَعْيُنَ الثَّقَلَيْنِ أن تجود، وبه أعظم الدهرُ المصاب، وفيه أخطأ سَهْمُ المَنية حين أصاب، والدهرُ يَسْتَرْجِع ما وهب، كان الصُّفْرُ ^(٣) أو الذَّهَبُ، ولا غرو أن دَهَمَ ^(٤) الرُّزْءُ، يؤود ^(٥) الفلكَ الدائر منه الجُزْءُ.. وإنا لله لفظَةٌ أوليها، وأتبعها زَفَرَةٌ تليها، ولقد بحثت الأيام عن حَتَفِها بِظُلْفِها، وَسَعَتْ على قدمها إلى رَغَمِ أنفِها، حين أَتَلَفَت الواحد يزن مائة ألفِها، فَمَنْ لَبِثُ الوَصْلِ وَلِرَعَى الوسائل ^(٦)؟ وإلى من يُلْجَأُ في مُشْكلات المسائل؟ ومن المجيب إذا لم يكن المسئول بأعلم من السائل؟ اللهم صَبْرنا على فَقْدِ الأُنس بالعلم، وأدِلنا ^(٧) من خُفوف الوله بوقارِ الحِلْم، وأخلفه في بنيه وعامة أهليه بِشَبِيهِه، ما أوليته في جِوارِكِ المقدَّس وتُوليهِه »

والتعزية طويلة، وجميعها - على هذا النحو - توجَّع وتَفَجَّع لهذا الرزء الفادح الذي نزل بالأندلس لفقد فيلسوفها العظيم منقطع القرين: ابن رشد. وكتب صديق لسهل يعزيه عن محتته بنفيه إلى مُرْسِيَةِ وغربته، فردَّ عليه برسالة يقول فيها:

« أنا أستوهبُ لك أيها الشيخ الأخُ الجليلُ عافيةً لا تَعْفُو ^(٨) بالأسْنِ الحُساد، ولا تَقْفُو ^(٩) موادَّها أَعْيُنُ السَّعة البِغاة الذين ما لهم مَقْعَدٌ إلا بالمرصاد، وأتنبى على كرم طباعك بوصول رسالتك التي طلعت على ليلي البَهِيم ^(١٠) صَباحًا، وأدارت عليَّ من التسلَّى والتعزَّى أقداحًا.. ويعلم الله أيها العَلَمُ علما وفهما، أني لولا مخاطبتك ومِثَالُكَ ^(١١)

(١) غمرة غمائها: شدة شدائدها.

(٧) أدلنا: انصرنا.

(٨) تعفو: تنطمس.

(٢) المهجود: النوم.

(٩) تقفو هنا: تحيط بها.

(٣) الصفر: النحاس.

(١٠) البهيم: المظلم.

(٤) دهم: فجأ. الرزء: المصيبة.

(١١) مثالك: يريد مثال مخاطبه وشخصه.

(٥) يؤود: يثقل ويجهد.

(٦) الوسائل: الصلات.

لَمْتُ أَسْفًا وَغَمًّا، وَلَسْتُ - عَافَاكَ اللَّهُ - بِذِي سِجْنٍ وَلَا قِيودٍ، وَلَكِنْ مَعَاشِرَةٌ مِنْ لَا يَشَاكُلُ عَقَبَةَ كُؤُودٍ^(١)، وَلَعَلَّهَا ذَنْوِبٌ تَمَحَّصٌ، وَسَبْكٌ يُصَفَّى بِهِ الْإِنْسَانُ وَيُسْتَخْلَصُ، وَقَدْ شَكُونَا لَوْ أَنَّ الشَّكَاةَ تُسْمَعُ، وَدَعَوْنَا لَوْ أَنَّ الدَّعَاءَ - عِنْدَ مَنْ لَا يَقْبَلُهُ يَنْفَعُ».

وسهل يومئ في أول رسالته إلى ما صنعه به أهل الحسد والعداوة مما انتهى به إلى النفي عن بلده، ويعبر عن ألمه وحزنه لهذا النفي مع الثناء على صديقه والشكر على رسالته التي أثلجت صدره وفتحت له من التسلي والتعزى أبوابا كانت مغلقة، فخففت من أسفه وغمه. ويقول المراكشي عنه إنه كان كريم النفس فاضل الطبع نزيه الهمة حصيف الرأي وجيها مبرورا معظما عند الخاصة والعامة.

٣

الرسائل الأدبية

مما تميَّز به النثر الأندلسي كثرة الرسائل الأدبية فيه، وكانت تسعف الكتاب في ذلك ملكات أدبية خصبة، وهي تلاحظ بوضوح في كثير من رسائلهم الشخصية إذ نرى الكاتب يتحول برسالته في المودة والإخاء أو في العتاب أو في الرثاء إلى الاتساع والامتداد بها صفحات تلو صفحات. وكان من آثار كثرة الحروب عندهم مع نصارى الشمال كثرة الرسائل الطويلة التي تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها، وفي كتاب الذخيرة لابن بسام رسائل كثيرة في كل ذلك، وخاصة مع موقعي بَرَبَشْتَر سنة ٤٥٦ والزلاقة سنة ٤٧٩. وتكثر عندهم الرسائل الشخصية التي تتخذ الطبيعة موضوعا لها، وألمنا فيما أسلفنا برسائل بارعة على لسان الأزهار عند ابن برد وحبيب وأبي عمر الباجي، ومررنا أن لابن الجدد رسالة بارعة في وصف مطر بعد قحط شديد، وأن لابن أبي الخصال رسالة في وصف ليلة شديدة البرد نوه بها السابقون، ولابن خفاجة أكثر من رسالة في وصف الطبيعة، وبالمثل لكتاب غرناطة وفي مقدمتهم ابن الخطيب رسائل متعددة في وصف الطبيعة. وكان للأندلسيين ميل واضح إلى الدعابة والفكاهة، وهما يتضحان في كثير من رسائلهم الشخصية، على نحو ما يلقانا عند محمد بن مسعود القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري وكان شاعرا يتصعلك في شعره على

(١) كؤود: صعبة.

طريقة الأدبائية أصحاب الكُذبة ممن يصفون في أشعارهم بؤسهم وحرمانهم وما يسود حياتهم من ضنك وفقر وإقلال طلبا للنوال، وكان له ابن رحل إلى غربي الأندلس وعرف أنه عاش هناك للمجون والشراب فكتب إليه رسالة طويلة حاكي فيها الجاحظ مستمدا من رسالته التربيع والتدوير وما فيها من هزل، وقد ذكر منها ابن بسام فصولا في ترجمته له^(١). ولأحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية المقتول معه سنة ٤٢٩ رسالة هزلية بديعة في وصف رسول بكتاب أرسله إليه أبو المغيرة بن حزم، ورد على رسالته أبو المغيرة مستوحيا شيئا من هزله^(٢)، وسنلم لابن شهيد برسالته: التوايع والزوايع وما فيها من سخرية وأيضا بالرسالة الهزلية لابن زيدون. ويذكر ابن بسام لابن طاهر الذي ألمنا به طائفة من رسائله في الدعابة والهزل، ومرت بنا رسالة أبي الحسين سراج بن عبد الملك في الشفاعة التي بناها على الدعابة لشخص يسمى الزريزير مستغلا في وصفه طائر الزرزور، وكأنه هو نفس هذا الطائر، وطارت شهرة الرسالة - كما أسلفنا - في الأندلس وحاكاها كثيرون من أعلام الكتابة بغرض الفكاهة والدعابة. وهو جانب واسع في الرسائل الشخصية الأندلسية مثل وصف الطبيعة والجهاد والحرب. وحرى بكل جانب من هذه الجوانب أن تُجمَع رسائله مع مقدمة تحليلية توضح روعته الأدبية، وحسبنا الآن أن نلم ببعض رسائل أدبية اشتهرت للأندلسيين.

رسالة التوايع والزوايع لابن شهيد

ابن شهيد^(٣) هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي القرطبي، فهو من أصل عربي، كان جده الأعلى عبد الملك بن شهيد وزيرا للأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) ووز ابنه أحمد لعبد الرحمن الناصر ولقبه بذى الوزارتين ومر بنا في الفصل الأول ذكر هدية نفيسة له إلى الناصر تدل على أنه كان من أكثر أهل قرطبة ثراء، وولد له في سنة ٣٢٣ ابنه عبد الملك وأصبح فيما بعد وزيرا للمنصور بن أبي عامر، وولاه على الولايات الشرقية: بلنسية ومرسية مدة تسع سنوات، وعاد مضيفا منها إلى ثرائه

(١) الذخيرة ٥٤٩/١.

(٢) الذخيرة ٦٤٥/١ وما بعدها.

(٣) انظر في ترجمة ابن شهيد اليتيمة ٣٥/٢.

والجزدة ١٢٤ والمطمح ١٦ والذخيرة ١٩١/١ -

٣٣٦، ٤٣٧ والبغية رقم ٤٣٧ والخريدة ٥٥٥/٢

ومعجم الأدباء ٢١٨/٢ وابن خلكان ١١٦/١

والواقى للصفدى ١٤٤/٧. ونشر شعره يعقوب

زكي بالقاهرة وشارل بلا في بيروت وللأخير

محاضرات عنه بجامعة عمان.

الموروث عن أبيه ثراء واسعاً، واصطفاه المنصور بن أبي عامر لنفسه مستشاراً وجليساً. ونقل سكناه إلى جواره. وكان قد رُزق بابنه أحمد سنة ٣٨٢ فنشأ في نعيم نشأة مترفة وضاعف ترفها رعاية ابن أبي عامر وحظياته له، فكان لا يزال يغدو ويروح إلى قصوره مختلطاً بأحفاده. وعنى أبوه بتربيته. ومنذ نعومة أظفاره كان عنده نهم للأدب والمعارف، يقول في فواتح رسالة: التوابع والزوابع: «كنت أيام كُتِّبَ الهجاء أحن إلى الأدباء وأصبو إلى تأليف الكلام. فابتعت الدواوين وجلست إلى الأساتيد، فنبض لى عِرْق الفهم، ودرّ لى شِرْيَان العلم.. فطعنتُ ثغرة البيان دراكاً، وأعلقت رِجْل طيره أشراكاً، فانتالت لى العجائب وانهاالت على الرغائب». ويضيف إلى ذلك في إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وكيمياء وحكمة. وبينما هو غارق في النعيم وفي تثقيف نفسه إذ النكبة تحل بأسرة ابن أبي عامر سنة ٣٩٩ وكان قد توفي منذ سبع سنوات. وولى الحجابة المظفر ابنه فسعدت الأندلس والرعية به، غير أن القدر لم يمهله، فتوفي سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه الناصر عبد الرحمن وكان نحساً على نفسه وانهمك في الشرب والزندقة والطعن في الدين الحنيف، فقتل سريعاً. وانفتح باب الفتنة التي قضت على الدولة الأموية ودُمِّرَت فيها قرطبة وأحرقت المدينتان المحدثتان بجوارها: الزهراء والزاهرة، وسُفكت الدماء بقرطبة وظلت تنزف طويلاً. وترك ذلك آثاراً عميقة في نفس ابن شهيد فقد اندكت صروح آماله ومطامحه، وداخله أسى عميق لما نزل بمدينته وبأسرة بنى أبي عامر، ولما رأى في أثناء ذلك من انتهاك القيم واختلال الموازين، فأكبَّ على كثوس الخمر واللذات يغرق فيها همومه محاولاً أن ينساها أو يتسلى عنها، وأتى له، إذ كانت تتجدد كل يوم، فكيف يحتمل الحياة إنه ليس أمامه إلا أن يسرف على نفسه في الخمر وما يتصل بها من اللذات، لعلها تخفف عنه محنته وما يُطبّق عليه من أحزان. وتصادف أن أصابه الصمم مبكراً، فتضاعف حزنه وهمه، وتضاعف إقباله على الخمر والمجون حتى ليقول ابن حيان: «غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياح دين ولا مروءة حتى أسقط شرفه ولم يُقَصِّر عن ارتكاب قبيحة» ويقول ابن بسام: «كان بقرطبة في رفته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك في بطالته وأحطَّ الناس في هوى نفسه وأهتكمهم لعرضه وأجرأهم على خالقه». وكان الشعر قد انتال على لسانه مبكراً، كما أخذت تظهر مخايل نبوغه الأدبي، وسرعان ما أصبحت داره منتدى لأترابه من الشباب القرطبيين المتأدين أمثال ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة عبد الوهاب وابن برد الأصغر وأبي عامر بن المظفر بن أبي عامر وابن عمه المؤتمن عبد العزيز. ويقدم غير مدحة

للخليفة المستعين الأموي (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ويشكو له ممن يتهمون به بسرقه الشعر كذبا وهتاناً. وفتك بالمستعين قائده على بن حمود الحسني واستولى على صولجان الخلافة وانعقدت صلة بين ابن شهيد وكاتبه أبي جعفر اللمائي، وفتك بابن حمود غلبانه سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه القاسم وخلعه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود سنة ٤١٢ وكان قد اتخذ وزيرين أبا عبد الله بن الفرضي وابن فتح جعفر بن محمد وأفسدا العلاقة بينه وبين ابن شهيد مما جعله يزجّ به في غياهب السجن فترة ظل فيها يستعطفه حتى رد إليه حرته.

وكان ابن شهيد يختلف إلى مجالس أبي العباس بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ وفيها انعقدت صلة بينه وبين ابنه أبي بكر وكان مثله رقاعة وخلاعة، وتعرف على ابن الحناط الكفيف الذي كانت ترعاه أسرة بنى ذكوان، واصطدم به، وربما كان من أسباب ذلك أنه كان يوالى بنى حمود ويقدم إليهم مدائحه بينما كان ابن شهيد يوالى بنى أمية، وأيضا ربما رجع ذلك إلى المنافسة الأدبية، فنشبت بينها مناقضات نظما ونثرا استمرت طويلا. ولم يكن يؤذيه شيء مثل اتهامه بالسرقه في شعره ونثره، ويلفه أن أبا بكر محمد بن القاسم إشكمياط (في كتاب المغرب: إشكنهاط) يتهمه بالسرقه في نثره، فكتب إليه محققا رسالة عنيفة، قال فيها: «لأقطعن حبالك هاجرا، ولأتركن ليلك ساهرا». ويصبح صديقه الأمير عبد الرحمن بن هشام الأموي خليفة في سنة ٤١٤ ويتلقب بالمستظهر، ويتخذه مع صاحبه ابن حزم وزيرين، وأحسّ ابن شهيد أن الدنيا تبتسم له بعد طول العبوس، غير أن ابتسامتها سرعان ما غاضت بعد سبعة وأربعين يوما، إذ خلف المستكفي الأموي المستظهر، وعادت الهموم تطبق عليه. وكان يحيى بن على بن حمود قد انسحب إلى مالقة، ففكر ابن شهيد أن يهاجر إليها كما تدل على ذلك قصيدة في ديوانه، ونظن أنه زار حينئذ مجاهدا أحد فتيان العامريين الصقالبة وكان قد أسس له إمارة في دانية بشرقى الأندلس سنة ٤١٢ غير أنه ازورّ عنه فيها يبدو لاختلاف مسلكهما في الحياة، إذ لم يكن مجاهد يأخذ نفسه بشيء من اللهو، بل على العكس كان منصرفا إلى الجد والعناية بالعلماء والقراء. وعاد ابن شهيد إلى قرطبة ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن قدم إليها بجنوده من مالقة واستولى على أزمة الأمور بها سنة ٤١٦ وقدم إليه ابن شهيد بعض مدائحه غير أن وزيريه ابن فتح وابن الفرضي ظلا يغلقان أبوابه في وجهه. واستدار العام، فانصرفت قرطبة عن ابن حمود وبايعت لأموى هو الخليفة المعتد وظل بعيدا عنها ينتقل في الثغور نحو ثلاث سنوات. وكان صديق ابن شهيد المؤتمن العامري أصبح أميرا على بلنسية منذ

سنة ٤١٧ فتراسلا مرارا، وألحَّ عليه المؤمن أن يترك قرطبة إلى بلنسية، فاعتذر إليه بشعر رقيق يصور فيه شغفه بقرطبة مع ما أصابها من المحن والخطوب والدمار وتفجع لها وتوجع في أسى مرير. ويقرِّبه الخليفة المعتدَّ ويتخذُه جليسا وسرعان ما يتقوض حكمه وتتقوض معه الدولة الأموية سنة ٤٢٢ ويستولى على مقاليد الأمور بها أبو الحزم جهور. وفي سنة ٤٢٥ يزور أمير المرية زهير الصقلبي - من فتيان بنى عامر - قرطبة ومعه وزيره وكتابه أبو جعفر أحمد بن عباس وكان فيه عجب شديد، فاصطدم به ابن شهيد وهجاء هجاء مقدعا. ويصاب في أواخر هذه السنة بفالج ويقاسى منه لمدة سبعة أشهر أهوالا ثقالا حتى ليفكر في الانتحار كما ذكر في بعض شعره، ويلبى داعي ربه في جمادى الأولى سنة ٤٢٦، وصلى عليه - وأقام مراسم دفنه - أمير قرطبة أبو الحزم جهور، ويكثرُ البكاء والعيول على قبره وتُنشد مرثاة متعددة لصديقه ابن برد الأصغر وغيره.

وهذه حياة ابن شهيد، وهى حياة امتلأت بغيوم الهموم مع ما امتاز به من تفوق في الأدب نثرا وشعرا، وفيه يقول ابن حيان مؤرخ الأندلس: «إذا تأملتُه ، وكيف يجرُّ في البلاغة رُسْنه، قلت عبد الحميد في أوانه، والجاحظ في زمانه.. وله رسائل كثيرة في أنواع التعريض والأهزال قصار وطوال برز فيها شأوه، وأبقاها في الناس خالدة بعده» وقال عنه الفتح بن خاقان في المطمح: «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، ولا ينسَّق ما نسَّق من درِّ البيان وُجْانه» وقال فيه ابن بسام: «نادرة الفلك الدُّوار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جدَّ فزئير الأسد الضرغام، نظَّم كما اتسق الدر على النحور، ونثرُ كما خلط المسك بالكافور». وقد سقطت من يد الزمن أعماله ولولا ما احتفظ به ابن بسام وأصحاب الكتب الأدبية من أشعاره لضاع هذا الكنز النفيس من منظوماته، وأيضا لولا ما احتفظ به ابن بسام من رسائله وخاصة من رسالته التوابع والزوابع لفقد النثر الأندلسى دررًا بديعة من لآلئه وروائعه.

وابن بسام لم يحتفظ برسالة التوابع والزوابع جميعها، إنما احتفظ ببعض فصولها، وما جاء في صدرها من مخاطبة ابن شهيد لصديق له هو أبو بكر بن حزم، وتصادف أن كان لأبي محمد بن حزم أخ يتفق مع هذا المخاطب في اسمه توفي سنة ٤٠١ فظن بعض الباحثين أنه هو المخاطب، ورتبوا على ذلك أن ابن شهيد ألف رسالته وهو شاب، ولو أنهم رجعوا إلى الحميدى في الجذوة لوجدوه ينص على أنه شخص آخر، إذ يقول: «يحى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب.. وهو الذى خاطبه أبو عامر بن شهيد

برسالة التوابع والزوابع التي سماها شجرة الفكاهة، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم». وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن شهيد أنشد في الرسالة قطعة من رثائه لوزير الخليفة المستظهر حسان بن مالك المتوفى - كما جاء في كتاب الصلة - سنة ٤١٦، تعين أن تكون الرسالة كتبت في هذه السنة على الأقل أو بعدها في إحدى السنوات التالية القريبة. وبذلك يسقط كل ما ذهب إليه الباحثون من أن الرسالة ألّفت قبل هذا التاريخ.

والتابع في الرسالة الجنّي والزوبعة الشيطان، وابن شهيد يذكر في صدرها لصديقه أبي بكر بن حزم أنه أُرْتِجَ عليه ذات يوم في شعر كان ينظمه، فترأى له تابعه من الجنّ على فرس أدّهم، فأجازه، واستحلفه من هو فقال: زهير بن نُمَيْرٍ من قبيلة أشجع في الجن، وكان في الجن قبيلة تقابل قبيلة ابن شهيد: أشجع في الإنس، وتحدثا حيناً، ثم علّمه أبياتا إذا أراد استحضره، وأوثب الفرس جدار الحائط وغاب عنه، فكان كلما أُرْتِجَ عليه أنشد الأبيات المذكورة فمثل تَوًّا. ولما تأكدت صحبته له عرض عليه أن يلتقى معه توابع الشعراء والكتاب وزوابعهم فاستأذن له شيخه الجنّي، وأذن له، فأركبه معه على متن جواده، وسار بهما كالطائر يقطع الجوَّ فالجوّ والدَّوَّ (الفلاة) فالدَّوَّ حتى لمح ابن شهيد أرضاً لا كأرض الإنس متفرّعة الشجر عطرة الزهر، وقال له تابعه تلك أرض الجن، وطلب منه ابن شهيد أن يلتقى صاحب امرئ القيس «وأمال التابع عنان الجواد إلى واد من الأودية به دَوْحٌ تنكسر أشجاره وتترنم أطيّاره، وصاح تابعه على تابع امرئ القيس قائلاً: «يا عُنَيْبَةُ بن نوفل، بسقط اللّوى فَحَوْمَلٍ (وهما موضعان بعلقة امرئ القيس) يوم دَارَةَ جُلْجُلٍ (أيضا في المعلقة) إلا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعت من الإنسى وعرفتنا كيف إجازتك له؟ فظهر لهما فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحياً صاحبك أهذا فتاهم؟ قال زهير هو هذا. وأى جَمْرَةٍ (يشيد بابن شهيد) يا عُنَيْبَةُ، فقال لابن شهيد: أنشد، فقال: السيد أولى بالإنشاد، فتطامح (ارتفع) طَرْفُهُ، واهتزَّ عِطْفُهُ، وقبض عِنانُ الشُّقْراء (فرسه) وضربها بالسوط، فسمت تحضّر (تثب) طَوْلاً عِنا، وكرّ فاستقبلنا بالصَّعْدَةِ (القناة) هازِلاًها، ثم رَكَزها، وأنشده إحدى قصائد امرئ القيس حتى أكملها، ثم قال لابن شهيد: أنشد، فهم إزاء روعة قصيدة امرئ القيس بالحِصَّة (النكول) ثم اشتدت قُوَى نفسه وأنشده قصيدة يعارض بها قصيدته، فلما انتهى منها تأمله تابع امرئ القيس مُعْجَباً به، ثم قال له: اذهب فقد أجزّتك وغاب عن بصره. وسأله تابعه زهير: من تريد بعده، فطلب

لقاء صاحب طرفة، فقطع معه وادى عتيبة، وركضا جوادهما حتى انتهيا إلى غِيْضَةٍ. ويصف ابن شهيد الغِيْضَةَ وأشجارها ولقائه فيها بعنتر بن العجلان تابع طرفة، ويحاوره وينشده عنتر قصيدة لطرفة ويعارضها بقصيدة بدبعة، ويصيح عنتر معجبا بقصيدته، ويحيزه، ويغيب عنه. ويلتقى ابن شهيد مع صاحبه بتابع قيس بن الخطيم شاعر يثرَب ويتحاوران ويتناشدان الشعر ويحيزه. ويترك توابع شعراء الجاهلية إلى شعراء العصر العباسي. ويلتقى بصاحب أبي تَمَام، وينشده ابن شهيد أشعارا مختلفة له منها مراثيه للوزير حسان بن مالك. ويلتقى بتابع البحتري، ويتناشدان الشعر ويحيزه.

ويسأل ابن شهيد صاحبه أن يلقاه بصاحب أبي نواس وينقل لنا صورة من منازل خمره وسكره، إذ بوادى الجن منازل مماثلة لمنازل أبي نواس في دُنْيَا الْإِنْس، فهذا دَيْرُ حَنَّة الذي كان كثيرا ما يختلف إليه، وَيَشُقُّ سَمْعَ ابن شهيد قَرُوعُ النواقيس، ويحجاب مع تابعه أديارا وكنائس وحانات حتى ينتهيا إلى دَيْرٍ عَظِيمٍ تَعْبَقُ روائحه وتفوح نوافحه، ويقف صاحبه زهير بيباه ويصيح سلام على أهل دَيْرِ حَنَّة، ويسأله ابن شهيد هل صِرْنَا بِذَاتِ الْأَكْبَرِاحِ (ساحة يخرج إليها الرهبان في أعيادهم وطالما تغنى بها أبو نواس) ويحبيه: نعم، وتقبل نحوهما الرهايين وفي أوساطهم الرِّثَانِيرُ المشدودة وقد قبضوا على العكاكيز، يبض الحواجب واللُّحَى، وقالوا لصاحبه ما بُغَيْتَكَ؟ فقال حُسَيْنُ الدَّنَانِ تابع أبي نواس، فقالوا إنه في شرب الخمر، منذ أيام عشرة، ونزلوا بابن شهيد وتابعه إلى بيت اصطفت دنانه وحولها غزلانه، وفي فُرْجَتِهِ شَيْخٌ طَوِيلُ الْوَجْهِ واللحية افترش أَضْغَاثَ (أخلاط) زهر، وَاَتَكَأُ عَلَى زِقِّ خمر، وييده طاسُ خمر كبير، فصاح به زهير: حَيَّاكَ اللهُ أَبَا الْإِحْسَانِ، فأجاب بجواب لا يُعْقَلُ لَغْلَبَةِ الخمر عليه، فقال زهير لابن شهيد: اقْرَعُ أذن نشوته. بإحدى خمرياتك فإنه ربما تنبه لبعض ذلك، فصاح ابن شهيد ينشده إحدى خمرياته، فصاح تابع أبي نواس وسأله أأشجعي كأنه لا يحسن مثل هذه الخمرية إلا ابن شهيد الأشجعي، وأجابه ابن شهيد: أنا ذاك، فاستدعى ماء قَرَأَحًا، فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليه مِنْ حاله، وأنشده قصيدة أبي نواس:

يَا دَيْرَ حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الْأَكْبَرِاحِ مَنْ يَصْحُ عَنْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي

وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طَرَبًا، وسأله تابع أبي نواس أن ينشده من شعره، وقام حسين يرقص ببعض شعر ابن شهيد ويردده، وقال له: هذا والله شيء لم نلهمه نحن وقبَل بين عينيه وأجازه. وسأل زهير ابن شهيد مَنْ تريد بعد ذلك؟ فقال له: تابع

أبى الطيب المتنبي، ولقيه فارساً على فرس بيضاء كأنه قضيبٌ على كتيب، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عذبةً صفراء، فحيّاه زهير، فأحسن الردَّ نظرًا من مُقَلَّةِ شَوْسَاءٍ مضمومة أجفانها استعلاءً قد مُلئتَ تَيهًا وعُجْبًا، واستنشد ابنَ شهيد فأنشده بعض أشعاره، ولما انتهى قال لزهير إن امتد به شَوُطُ العُمر فلا بد أن يَنْفُثَ بدرر، وما أراه إلا سَيُخْتَضِرُ (يموت شابًا) بين قريحة كالجَمَرِ وهَمَّةٌ تضع أحمصه (باطن قدمه) على مفرق البدر، ويجيزه. وكأنما كان تابع المتنبي يقرأ فى صفحة القدر، إذ تنبأ له أن يحطم الموت غصنه اليافع بعد سنوات معدودة، وحطمه.

وسأل ابن شهيد زهيراً بعد لقائه بالمتنبي أن يلقاه بتوابع الكتاب - ويسميهـم الخطباء - وركضا الجواد طاعنين فى مطلع الشمس، ومالا إلى توابعهم بمرج دَهْمَانٍ وإذا بنادٍ عظيم جَمْعهم، والكلُّ منهم ناظر إلى شيخ أصْلَع جاحظ العين اليمنى على رأسه قَلَنْسُوَّةٌ بيضاء طويلة، فسأل ابن شهيد زهيراً عنه فقال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عتيبة، فقال ابن شهيد: بأبى هو ليس رغبتى سواء وغير صاحب عبد الحميد الكاتب فقال له إنه ذلك الشيخ الذى إلى جنبه. وعرف عتبة بابن شهيد، فقال له: إنك حائكٌ للكلام مجيد، لولا أنك مُغْرِى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر، فاعتذر له قائلاً إنه يعرف فضل الازدواج والمماثلة (خاصة أسلوب الجاحظ وعبد الحميد الكاتب) غير أنه عدم ببلده قُرْسان الكلام. ويسوق حَمَلَةً عنيقة على كُتَابِ زمنه مستخدماً أسلوبيهما من الازدواج والمماثلة، ويقرأ لهما رسالة طويلة مسجوعة فى الحَلَوَاءِ، يصف فيها طائفة منها، من مثل الخبيص والزلاية، ويستحسنانها قائلين إن لَسَجِهِ موضعاً من القلب ومكاناً من النفس، مع حلاوة اللفظ وملاحة السياق. ويذكر أن له أنه بلغهما أن من أبناء جنسه من يطعن على أدبه، وسألاه مَنْ أشدهما فى الطَّعْنِ والإجْحاف بحقك، فيذكر لهما ثلاثة هم أبو محمد وأبو بكر وأبو القاسم، ولا نعرف شخصية أبى محمد، إذ تكتنى بهذه الكنية لزمته غير واحد، وأما أبو بكر فأكبر الظن أنه إما أبو بكر بن حزم، الذى ذكر فى مطلع الرسالة أنه يتهمه بأن شيطاناً يجرى على لسانه ما يخرج عن قدرة الإنس، وإما أبو بكر محمد بن قاسم المعروف بإشكميّاط الذى مر بنا فى حياته أنه اتهمه بسرقة فقر نثره الحسان من سابقه، وأما أبو القاسم فذكر ابن شهيد بعد سطور قليلة أنه أبو القاسم الإفليلى، ويهتف صاحباً الجاحظ وعبد الحميد بتابعه أنفِ الناقَةِ بن مَعْمَرٍ، وينهض لهما جِنًى أَشْمَطُ (دبّ الشيب فى شعره) رُبْعَةً وارمُ الأنفِ (متكبر شامخ بنفسه) يتظالَّعُ (يتعارج) فى مشيته كاسراً لطرفه، وزاويّاً لأنفه.

وكان الإفليلي قد تصدّر في قرطبة، يقرئ علم الأدب ويختلف الطلاب إليه، وكان مع علمه باللغة والنحو يتكلم في معاني الشعر والبلاغة والنقد، واستكتبه المستكفي في خلافته ثم أعفاه لخلو كلامه من حُسن البيان والبلاغة. ويتهم تابعه أنف الناقة ابن شهيد بنقص اطلاعه، ويطلب إليه أن يناظره على كتاب سيبويه وشرح ابن درستويه، فيسخر ابن شهيد منه ويقول الإفليلي بلسان أنف الناقة إنه أبو البيان، فيهزأ به قائلا إنه لا يحسنه. ويطلب إليه أنف الناقة مثالا، فيصف له بُرغوثا وثعلبا وصفا رائعا. يلتفت إليه تابع بديع الزمان زبدة الحقب فيطلب إليه أن يصف جارية ويعجب بوصفه، ويذكر له زبدة الحقب وصف البديع للماء ويقول له إنه من العُقم أو المعجز، فيعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء، ويمتليء زبدة الحقب غيظا، فيضرب الأرض برجله، فتتفرج عن هُوّةٍ يغيب فيها. ويشتدّ غيظُ أنف الناقة تابع الإفليلي، فيطلب إليه أن ينشد بعض أشعاره، وينشد أشعارا بديعة متحدّيا له، وتُصبح فتيان الجن إعجابا واستحسانا، وتعلو أنف الناقة الكآبة، ويحاول فتى من الجن أن يصلح بينهما، فيأبى ابن شهيد لما يتتبع الإفليلي في دروسه لزلة قد تمر به في شعره أو نثره، فيهتف بها بين تلاميذه ويجعل وقوفه عليها مفخرة من مفاخره. فيقول له الفتى الجنى إن الشيوخ قد تزل أحلامهم في النُدرة، ويقول ابن شهيد: بل إنها المرة بعد المرة. وما يلبث صاحبها الجاحظ وعبد الحميد الكاتب أن يشهدا له بأنه شاعر وناثر، وينفض الجمع، والكل ممتلىء إعجابا به. ويقول ابن بسام إنه امتد بعد ذلك بابن شهيد الكلام في باب التوابع والزوابع، ومدّ فيه أطناب (أسباب) الإطناب والإسهاب، ولذلك وقف دون الغاية، وقطع قبل النهاية. وكنا نتمنى أن لا يقطع ابن بسام وأن لا يقف، بل كنا نتمنى أن يورد التوابع والزوابع بحذافيرها، لأنها طرفة رائعة من طرف النثر الأندلسي، وهي طرفة بديعة النسق في الصياغة والرونق في العبارة دون سجع ولا ما يشبه السجع إلا ما جاء عفواً.

وأضاف ابن شهيد في الرسالة إلى هذا الباب الخاص بلقائه لتوابع الكتاب والشعراء بابا تذاكر فيه مع زهير تابعه ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن أحسن منهم الأخذ للمعنى ومن قصّر فيه، ويعرض لبعض المعاني ومن تداولوها، ويتمثل له جنى يسمى فاتك بن الصَّقْعَب ويتحاور معه ويجرى على لسانه بعض أبيات من سينية غزلية له، ويسأله فاتك هل جاذبت أحدا فيجيبه نعم أبا الطيب المتنبي، وينشده من ذلك بعض أشعاره فيصيح فاتك صيحة منكّرة من صياح الجن إعجابا واستحسانا. وكان بقربه جنى ضخم هو فرعون بن الجون، أخذ يتحداه بأشعار رائعة للمتنبي، فأنشده ابن شهيد بعض أشعاره

البدیعة وهرته، فأخذ يسأله عن أشعار لأبيه وأخيه وعمه وجده وجد أبيه، وابن شهيد يذكر له قائله منهم، حينئذ أقسم أن لا يعرض له أبداً، وشهد له بعراقته في الكلام، وكأنما ألقمه حجراً بشعره وشعر آبائه فتضاءل وغاب عن بصره.

ويُتبع ابن بسام ذلك بفصل آخر من فصول الرسالة أو قل بمشهد نرى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير بأرض الجن يستعرضان أندية أهل الآداب، وإذا هما يشرفان على أتان من حمر الجن وبعض بغالهم وتعرضت لابن شهيد الأتان تحكمه في شغرين لحمار وبغل من عشاقهم اختلفت التوابع من الجن فيهما، وتقدمت إليه بغلة شهباء عليها جلها (غطاؤها الصائن لها) ويرقعها، وأنشدته الشغرين ففضل شعر البغل وقال: كان أنف الناقة أجدر مني بالحكم، وقالت له البغلة: أما تعرفني؟ فقال لها: لو كانت بك علامة، فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة أبي عيسى والخال على خدّها، فتباكيا طويلاً، وأخذوا في ذكر أيامها، وسألته: ما فعل الأحبة بعدها؟ أهم لا يزالون على العهد؟ فقال: شاخ الفتيان، وتنكرت الخلآن، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة، وحالوا عن العهد، ونسوا أيام الود. وكانت بقربهم إوزة بيضاء شهلاء في مثل جثمان النعامة، ويسأل ابن شهيد زهير عنها، فيقول له إنها تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف، ويتحاور معها مثنيا عليها، فمرة تسبح ومرة تطير، ومرة تنغمس في الماء ومرة تخرج منه، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها ورفرفت بمجذافها (بجناحيها) واستقبلته مع صاحبه جاثية (قائمة على مؤخرتها) كصدر المركب، ثم سأله ماذا يُحسن؟ فقال لها من الشعر أو النثر، فقالت له إنما أريد النحو والغريب تريد أن تتهمه بأنه لا يحسنها، ويطلق الحوار معها واصفاً لها بالحمق وأنها في حاجة إلى عقل التجربة إذ عدت العقل الطبيعي، ويسألها أيهما أفضل: الأدب أم العقل؟ وتجيبه العقل، فيقول لها إذا ظفرت منه بحظ فناظري حينئذ في الأدب. وكان الإوزة بذلك تأخذ صفة الإفليلي بشهادة تحديها لابن شهيد بإحسان النحو والغريب اللذين كان الإفليلي يشتهر بهما. وبذلك نفهم كلمة ابن بسام عن الرسالة لابن شهيد وتكرار ذكر الإفليلي فيها بأنه هو الذي به ابن شهيد عرض، وجعله الغرض، وكأنما أنشأها من أجل الرد على ما وسمه به في بعض دروسه من زلات وعثرات، مما جعله يعرض في الباب الأول من الرسالة روائع شعره ونثره على توابع الشعراء والكتاب الناهين مقارنة إلى قصائد أصحابهم، وإذا هم يبهرون بشعره ونثره دائماً ويمجزون، محاولاً بذلك أن يسقط نقد الإفليلي له. ثم أخذ يعرض جانباً من

تداول المعاني بين الشعراء ومن قدرته على نقد الشعر وتذوقه ليبرهن على أنه يبذل الإفليلي في انتقاد الشعر وتذوقه والوقوف على المعاني التي يشترك فيها الشعراء ويتداولونها، وكان تابع الكاتب والشاعر في الشطر الأول من الرسالة يتمثل له بشرا سويا، وتشكّل له في الشطر الثاني على صورة بعض الحيوانات والطيور مستمدا في ذلك كله من قصص الجن عند العرب.

وقرن كثير من الباحثين^(١) هذه الرسالة لابن شهيد إلى رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ومنهم من ذهب إلى تأثر أبي العلاء بابن شهيد، ومنهم من ذهب إلى أن ابن شهيد هو الذي تأثر بأبي العلاء، وكلا الرأيين يجانبه الصواب، وحقا الرسالتان رحلتان فيما وراء الواقع، لكنها بعد ذلك تتباينان في موضوعيهما، فرحلة أبي العلاء تدور على عقيدة إسلامية هي عقيدة المعاد وما يتصل به من أهوال الحشر والصراف ونعيم الجنة وعذاب النار ولقاء بعض من غُفر لهم من الشعراء واللغويين في الفردوس ورؤية إبليس وبشار وأضرابه من الزنادقة في الجحيم. أما رحلة التوابع والزوابع لابن شهيد - كما مرّت بنا - فتدور على ما شاع على ألسنة العرب في عصرهم الجاهلي الوثني من تصور شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم. وواضح من موضوع الرحلتين أنها لا يلتقيان أى التقاء وأن من الخطأ كل الخطأ أن يحاول باحث تبين أثر لإحداها في الأخرى. وذكرنا من قديم في كتابنا «الفن ومذاهبه في النثر العربي» ثم في كتابنا «المقامة» أن الذي أوحى إلى ابن شهيد برحلته في أرض الجن ووديانها إنما هو بديع الزمان وما قرأه في مقامته الإبلسية عن لقاء عيسى بن هشام لإبليس في واد من وديان الجن وتحاورها وإنشاد إبليس له أشعارا جاهلية، ثم عرض عليه أن ينشده من شعره، فأنشده إبليس قصيدة لجرير، وعجب عيسى من انتحاله قصيدة جرير، ولم يلبث إبليس أن قال له: «ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أملت على جرير هذه القصيدة، وغاب عنه، وكأنما ابتلعه الأرض. وفي نفس رسالة التوابع والزوابع ما يؤكد الصلة بين ابن شهيد وبديع الزمان في مقامته، إذ نرى ابن شهيد يعرض على تابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب رسالة طويلة في ألوان من الحلواء أراد بها محاكاة بديع الزمان في مقامته المضيرية. وما يلبث ابن شهيد أن يذكر أنه لقي تابع بديع الزمان المسمى زبدة الحقب، ويقترح

للدكتور هيكل ص ٣٨١.

(١) راجع بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف (طبع القاهرة) ص ٤٨ والأدب الأندلسي

عليه وصف جارية ويصفها، ويعجب زبدة الحقب بوصفه، ويسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء، ويقول له إنه وصف معجز، ويعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء يبهره. وفي ذلك كله ما يقطع بأن المقامة الإبلسية لبديع الزمان هي التي ألهمت ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وأوحت بها إليه. ويتردد في كتابي الجدوة للحميدى والمغرب لابن سعيد اسم كتاب لابن شهيد سماه حانوت عطار ويبدو من نقولهما عنه أنه ترجم فيه لأدباء الأندلس في عصره وقبل عصره ترجمات قصيرة ذكر فيها بعض أخبارهم وما استطرفه من أشعارهم مع بعض نظرات نقدية.

رسائل ابن بُرد^(١) الأصغر

ابن بُرد الأصغر هو أبو حفص أحمد حفيد أبي حفص أحمد بن بُرد الأكبر الذى ولى ديوان الإنشاء للمنصور بن أبى عامر، وكتب بعده لابنيه المظفر والناصر. ثم كتب لسليمان المستعين الأموى وللأمراء الحموديين، ويترجم له ابن بسام فى الذخيرة، ويشيد ببيانه وبلاغته قائلاً إنه «أسمع الضمّ بياناً، واستنزل العُصم إبداعاً واستحساناً» ويتلو ذلك بطائفة بديعة من رسائله. وحين رُزق ابنه محمد بولده أحمد توسم فيه النجاة منذ نعومة أظفاره، فعنى بتربيته وتخريجيه فى الأدب نثره وشعره، وفى ذلك يقول الحفيد ابن برد الأصغر، كما روى ابن بسام عن كتاب له سماه «سر الأدب وسبك الذهب»: «وكان جدى أحمد بن برد - رحمه الله - بطول ممارسته لهذه الصناعة قد اقتعد سنّامها، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وإنى وافقت أول معالجتى لها آخر أيامه خلا أنه قد كان أقبسنى مصابيح من وصاياها فيها، ووطأ لى مراكب من دلائله إليها، وضرب لى صُوى (أعلاماً) من هداياته نحوها أفاد الله بها نفعاً». ويقول ابن بسام إن بنى برد ينتمون إلى بنى شهيد بالولاء، ولعلنا بذلك نفهم ما كان ينعقد من صلة وثيقة بين ابن برد الأصغر وابن شهيد، ويتضح ذلك فى جوانب من أخبار ابن شهيد، وحين توفى بكاه - كما أسلفنا - بكاء حاراً. وليس بين أيدينا أخبار عن نشأة ابن برد الأصغر إلا الخبر السالف عن عناية جده به ورعايته له. ونرى ابن بسام يذكر أنه حين اتخذ المستظهر الأموى فى سنة ٤١٤ ابن

وأخباراً متفرقة عنه فى ٣٥٨/١، ٧٧١، ٧٨٧
وراجع رسالته فى تفضيل الورد على سائر الأزهار
فى ١٢٧/٢ وراجع ٨١٩/٣.

(١) انظر فى ترجمة ابن برد الأصغر الجدوة
للحميدى: ١٠٧ والطمح: ٢٤ والبغية رقم ٣٥٤
والمغرب ٨٦/١ ومعجم الأدباء ١٠٦/٢ والذخيرة
٤٨٦/١ - ٥٣٥

شهيد وزيرا كتب له ابن برد ولم يوضح ابن بسام هل هو ابن برد الأصغر أو هو جده ابن برد الأكبر، وبالمثل يقول إن أبا القاسم الإفليلي كتب للخليفة المستكفي بعد ابن برد في نفس السنة ولا يذكر هو الأصغر أو الأكبر، وأكبر الظن أنه الأصغر، وكأنه كتب للمستظهر في الأشهر التي تولاها ثم كتب فترة للمستكفي بعده ولم يلبث أن أعفاه. وقد ظل ابن برد الأكبر حيا حتى توفي بسرقة عن ثمانين عاما سنة ٤١٨ ويبدو أنه رحل إلى تلك البلدة في الشمال لما سمع من كرم منذر التجيبى أميرها وهبته لقصاده أموالا عظيمة. ويقول ابن برد الأصغر إن صروف الأيام باكرته بعد مصابه في جده ويبدو أن الدنيا ظلت لا تبتسم له فترة غير قليلة كما يبدو أن أبواب دواوين قرطبة ظلت مغلقة دونه في عهد جهور حين أصبح حاكمها المتصرف في شئوننا منذ سنة ٤٢٢ ولعل سبب ذلك عمله في دواوين الخليفين الأمويين: المستظهر والمستكفي. ومن المؤكد أنه ظل بقرطبة حتى وفاة ابن شهيد سنة ٤٢٦ ويقول المؤرخون أنه رحل منها إلى مجاهد الصقلي أمير دانية (٤١٢ - ٤٣٤ هـ) وسنراه يوجه إليه أولى رسائله الأدبية الخاصة بالسيف والقلم وربما حنَّ إلى قرطبة ورفاقه فيها وعاد إليها، وقد يدل على ذلك أن نجد ابن زيدون حين سجنه جهور سنة ٤٣٢ يوجه إليه قصيدة كى يشفع له عند جهور أو عند ابنه أبي الوليد. وربما كان بقرطبة حين خلف أبو الوليد أباه سنة ٤٣٥ ومَرَّت بنا رسالته البديعة إليه بتفصيل الورد على سائر الأزهار، ولعله كان يرمز إليه بالورد وأنه يفضل جميع أمراء الطوائف. وكان المظنون أن يظل بقرطبة، غير أننا نراه يؤثر المقام بالمرية عند أميرها معن بن صَاح (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) الذى عرف له فضله، فاتخذَه وزيرا له، وإليه قدم ابن برد كتابه: «سر الأدب وسبك الذهب» وافتتح ابن بسام ترجمة ابن برد بصدر هذا الكتاب وقد نوه فيه برعاية جده له وتخريجها كما مرَّ بنا، وأثنى ثناء غامرا على معن بن صَاح ورعايته للعلوم وفنون الآداب، وما أسبغ عليه من شرف المرتبة الرفيعة. وضَمَّن الكتاب رسائله السلطانية والإخوانية وطَرَّز أبوابه بأبيات من الأشعار المحتوية على الحكم الجارية مجرى الأمثال. ومن المؤكد أنه قضى الشطر الأخير من حياته في ظل هذا الأمير، ويقول الحميدى فى الجذوة إنه رآه فى المرية مرارا بعد الأربعين وأربعمئة، ولا ندرى هل لحق عصر المعتصم بن معن بن صَاح (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ) أو أن القدر لم يمهله حتى عصره، أو حتى إذا كان أمهله فإنما أمهله إلى فترة قصيرة، ويشيد به ابن بسام قائلا:

«كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث

فيها بسحره، وأقام من أودها (اعوجاجها) بناصع نظمه، وبارع نثره». وأتبع ذلك بفصول من تحميداته ورسائله الديوانية والشخصية وطائفة من أشعاره في النسيب وغيره، وألحق أديب بترجمته في الذخيرة من قديم ثلاثا من رسائله الأدبية في: السيف والقلم، والنخلة، وأهّب الشاء، وقدم لها بقوله إنها من بدائع العُقم (التي لا مثيل لها) المستنزلة للعُصم (النوادر) ويقول إن ابن بسام لم يتجاف عنها غضا منها، ولكن ربما أعجله القدر أو لم يسمح له بها الزمن، وحرى أن نلّم بها في إجمال.

(أ) رسالة السيف والقلم

كتب ابن برد بهذه الرسالة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد أمير دانية مناظرا بين السيف والقلم متقدما مناظرتها بالثناء عليهما معاً فهما مثل جوادين سبقا في حلبة أو غصنين نُسقا في تربة، بل هما مثل نجمين أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق، غير أنهما جرّرا أذيال الخيلاء تفاخرا، وادعى كل واحد منهما أن له الفوز على صاحبه وامتد بينهما الجدل والخصام، فقاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الخصال. وبدأ القلم فقال:

﴿نَ. والقَلَمُ وما يَسْطُرُونَ﴾ فجلّ من مُقسّم وعزّ من قَسَم، لقد أخذت الفضل برُمته، وقُدّت الفخر بأزمته. فقال السيف: عُدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أسرّ ولكن أعلن، قيمة كل امرئ ما يُحسِن، إن عاتقا حَمَلَ نِجَادِي (حمائل سيفي) لسعيد، وإن عَضُدًا بات وسادي لسديد، أفصح والبطل قد خَرَسَ، وأبْتَسَم والأجل قد عَبَسَ. فقال القلم: الحق أبلج (مضى) والباطل لَجَلَجَ (أعرج) أَجْلَبَ الْغِنَى من ضروعه، وأجتنى الندى (الجود) من فروعه، وهل أنا إلا قُطْبٌ تدور عليه الدول، وجوَادٌ شَأُوهُ (شَوْطُهُ) يدرك الأمل، شفيح كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه فقال السيف: يا الله! استنتت الفِصال (أولاد النوق) حتى القَرَعَى^(١)، ورَبٌّ صَلَفٍ تحت الرَّاعِدَة^(٢). لقد تحاول امتدادا بباع قصيرة، وانتفاضا بجناح كسيرة، أُمُتْعِرَب (دخيل في العرب) والفِلسُ ثمنك، وكل بقعة وطنك؟ إن الملوك لتبادر إلى دَرْكِي، ولتتحاسد في ملكي، ولتتوارثنى على النسب، والتغالي فيّ على الحسب، فَتُكَلِّلَنِي (فتتوجني) المرجان، وتُعِلَّنِي الْعِقيان^(٣)، وتلحفني بحمائل

والصلف: قلة المطر أى أنها متوَع مع كثرة ما تحمل من المطر.

(٣) العقيان: الذهب. تنعله هنا: تكسو غمده.

(١) مثل يضرب لمن يفعل ما ليس له بأهل والاستئنان هنا: العدو. وهو يشير إلى أن الفصال إذا عَدَّت حاكنتها أخواتها المصابة بالقرع.

(٢) مثل يضرب للبخیل. والراعدة: السحابة.

كخمائيل. فقال القلم: أَسْتَعِذُ بِاللَّهِ مِنْ خَطْلٍ أُرْعِيَتْ فِيهِ سَوَامَكَ (إِبْلَكَ) وَزَلَلٍ افْتَتَحَتْ بِهِ كَلَامَكَ، إِنْ اِزْدَرَاكَ بِتَمَكُّنٍ وَجِدَانِي، وَبِخُسْ أُمْنَانِي، لِنَقْصٍ فِي طِبَاعِكَ، وَقِصْرٍ فِي بَاعِكَ، أَلَا وَإِنَّ الذَّهَبَ مَعْدَنَهُ فِي الْعَفْرِ (التراب) وَهُوَ أَنْفُسُ الْجَوَاهِرِ، وَالنَّارُ مَكْمَنُهَا فِي الْحَجَرِ، وَهِيَ إِحْدَى الْعُنَاصِرِ، وَإِنَّ الْمَاءَ - وَهُوَ الْحَيَاةُ - أَكْثَرَ الْمَعَايِشِ وَجِدَانًا، وَأَقْلَهَا أُمْنَانًا، وَقَلَمًا تَلْقَى الْأَعْلَاقَ النَّفِيسَةَ إِلَّا فِي الْأَمَكْنَةِ الْخَسِيسَةِ. فَقَالَ السِّيفُ: جَعَجَعَةً رَحَى لَا يَتَّبِعُهَا طَحْنٌ (دَقِيقٌ) وَجَلْجَلَةٌ رَعْدٌ لَا يَلِيهَا مُزْنٌ، وَجَهٌ لَثِيمٌ، وَجِسْمٌ سَقِيمٌ، وَدُمُوعٌ سِجَامٌ، كَأَنَّهُنَّ سُخَامٌ (فَحْمٌ) فَهَبٌ مِنْ نَوْمِكَ، وَأَفْطِرٌ مِنْ صَوْمِكَ، إِنِّي لَوْ اِنتَضَيْتُ (سُلَّلت) وَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَمْ يَنْظُرْ وَقْتُ تَجَلِّيْهَا^(١)، أَوِ السُّنُونُ مَجْدِيَّةٌ أُيْقِنَ بِالْحَيَاةِ (بِالغَيْثِ) رَاعِيَهَا. أَكْرَعُ (أَشْرَبُ) يَوْمَ الْوَعَى فِي لَبَّةِ الْبَطْلِ (أَعْلَى صَدْرِهِ) فَأَعُودُ كَالْخَدِّ كُسَى صَبَغَ الْخَجَلِ».

ولما كثر تعارضهما، وطال تناظرهما، ولم يَتَّيْنِ أَحَدُهُمَا كَهَامَا (كَلِيلَا) بَادِرَا إِلَى السَّلَمِ يَعْقِدَانِ لَوَاءَهُ، قَائِلَيْنِ إِنْ مِنَ الْقَبِيحِ أَنْ تَتَشَتَّ أَهْوَاؤُنَا وَتَتَفَرَّقَ آرَاؤُنَا وَقَدْ جَمَعَنَا اللَّهُ فِي الْمَأْلَفِ الْكَرِيمِ، وَقَالَ الْقَلَمُ إِنْ مِمَّا نُبْرَمُ بِهِ عَقْدُنَا، وَنَنْظُمُ عَقْدُنَا إِنْ حَالَتْ حَالُ، وَكَانَ لِلدَّهْرِ انْتِقَالُ، أَنْ نَخْطُ كِتَابًا مُصِيبًا، يَكُونُ لَنَا مَنَابَا وَعَلِينَا رَقِيًّا، فَقَدْ يَدْبُ الدَّهْرُ بِعَقَارِبِهِ، بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَقَارِبِهِ، وَاخْتَارَ الْقَلَمُ أَنْ يَكُونَ الْعَقْدُ شَعْرًا، لِأَنَّهُ شَدُوُّ الْحَادِي، وَزَادَ الرَّائِحَ وَالْغَادِي. وَسَجَلَهُ فِي قِطْعَةٍ شَعْرِيَّةٍ بَدِيعَةٍ. وَوَضَحَ مَا امْتَازَ بِهِ ابْنُ بَرْدٍ الْأَصْغَرَ فِي تِلْكَ الْمُنَازَرَةِ بَيْنَ السِّيفِ وَالْقَلَمِ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى صَوْغِ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ فِي لِسَانِي الْخَصْمَيْنِ الْمُتَنَازِرَيْنِ، إِذْ مَا زَالَ يُؤَلِّفُ لِكُلِّ مِنْهُمَا حُجْجًا يُدْلِي بِهَا مَعَ نَقْضِهِ لِحُجْجِ مَنَافَسِهِ. وَطَبِيعِي أَنْ لَا نَنْقُلَ تِلْكَ الْمُنَازَرَةَ بِحِذَافِيرِهَا، فَقَدْ اجْتَرَأْنَاهَا مَكْتَفِينَ بِمَا نَقْلْنَاهُ مِنْهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَةِ ابْنِ بَرْدٍ فِي تَوْلِيدِ الْأَفْكَارِ وَالْبَرَاهِينِ وَفِي صَوْغِ الْكَلَامِ وَحَوْكَةِ حَيَاكَةِ تَمُوجِ بِالْعَذُوبَةِ، إِذْ كَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَصْطَفِي أَلْفَاظَهُ وَكَيْفَ يَلَاثِمُ بَيْنَهَا مَلَاءِمَاتٍ مُوسِيقِيَّةٍ بَدِيعَةٍ.

(ب) رسالة النخلة

هي رسالة عتاب لصديق سبق أن عاتبه في العام الفارط على كتمانته لِرُطْبِ نخلة، وهي تُعدُّ بالأندلس إحدى الغرائب وفريدة العجائب، ويقول إنه سأله من جَنَاهَا قَلِيلًا، فَقَالَ لَهُ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّ لَكُمْ بِهِ هَذَا الْكَلْفَ لَأَمْسَكْتَهُ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّهُ فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ إِنْ شَاءَ

(١) يشير إلى كثرة الغبار في الحرب حين تسَلُّ السيوف وتكر الخيل.

الله يكون غلَّتكم وعتادا نفيسا لكم وذُخْرا حبيسا عليكم، ويمضى ابن بُرد قائلا له: «رسمنا تلك العِدَّة في سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حَفْظَةَ خواطرنا، أما أنت فهَلَّت عليها التراب، وأسلمتها إلى يد البلي، حتى إذا أخذت النخلة زُخْرُفَهَا وازَّيْنَتْ زِينَتَهَا، وبلغت غايتها، وأشبع القمر صَبْغَهَا، وأحكمت الشمس نُضْجَهَا، جنيتها على حين نَامَ السَّمَار، وغفلت الجارةُ والجار، وأُثِّتَ بها إِيَابَةُ الأسد بفريسته.. ولما رأينا طلائع الرُّطْب في الأسواق، والجنِّي من بواكير النخيل على الأطباق، هَزَّتْ جوانحنا ذكرى العِدَّة، وقلقل أحشاءنا حذر الخيبة، فركضنا الدوابَّ إلى حُرْمَتِكَ^(١)، وجعلنا نسرع طمعا في لقائك»

ويذكر ابن بُرد لصاحبه أنهم حين وصلوا إلى مَحَلَّتِهِ لقيهم فتى ظريف، فسألهم عن مقصدهم، فقالوا له: إن جارك وصديقنا وعدنا منذ عام أن يسهم لنا في جَنَى نخلة لديه، لم تتشقق تربة هَجَر المشهورة على الخليج العربى بتمرها عن مثلها، ولا آوت قمارئى (حَمَام) البصرة إلى نظيرها، فجاءوها ليأكلوا منها ويعلموا أن قد صدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين. ويقول ابن بُرد:

«قال الفتى بالإخوانى فى الخيبة أنا ساكنٌ فى المحلة التى مَنَبَتْ هذه النخلة فى ساحتها وقد صَرَمَهَا (قطعها) منذ خمسة عشر يوما، وقد كنت قبل صَرَمِهَا أَمْنَحُهَا نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رَأَتْ الطيرُ وهى على سَعْفِهَا ما أوصلُ إليها من لحظاتي، وأتابع عليها من زَفَرَاتِي، رَمَتْنِي بِأَفْرَادٍ مِنْ رُطْبِهَا أُحَلِّى مِنْ شِفَاهِ الْعَذَارَى، وأنا اليوم أبكى رُبْعًا خَالِيًا».

ويتجه ابن برد بالحديث إلى صاحبه قائلا: ما هذه الخيانة للعهد، ويسأله شيئا مما ادخره منها لأعياده واعدًا له أن يناصروا عنه أعداءه برا وبحرا وأن لا يعصوا له أمرا. ويصف له شيئا من كلام العرب فى النخل وبدء نباته والبلح وتلون حالاته وبعض منظومهم فيه لعله يذيب من جموده ويولد عَقِيم جوده، ويورد عليه ما أثر من قول الرسول ﷺ: «نعمت العمة لكم النُّخْلَة» ويقول: «ليس من حقِّه أن يستبدَّ بخيرها ويمسك معروفها عنهم، ويختم الرسالة بقوله: «نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بُخْلِكَ نوالا، ويمطلك إعجالا». وهى رسالة طريفة بما فيها من فكاهة ومن قدرة على التصوير ومن سلاسة فى التعبير.

(١) الحرمة: ما لا يحل انتهاكه من صحة أو حق.

(ج) رسالة أَهْبُ الشَّاء

سَمَّى ابن برد هذه الرسالة: «البديعة في تفضيل أَهْبُ (جلود) الشَّاء على ما يُفْتَرَشُ من الوطاء» وهو فيها يردُّ على من لأمه على استخدام أَهْبُ (جلود) الشَّاء في الجلوس شتاء وصيفا دون وَطِيءِ الْفُرْشِ ورافهها من قِطْعِ الْبُسْطِ والسجاجيد والحشايا. وهو في فاتحتها يدعو الله أن يلهمه الرشاد ويمنحه الصواب ويعرِّفه بركة التواضع وينفّره من الكبر، ويطلب في المقدمة، ثم يقول للأنثى:

«عَبْتَنِي - أَعَزَّكَ اللهُ - بارتخاص الأشياء في الشراء، وقلت لَمْ تَوْثِرْ ذَلِكَ إِلَّا لِلْوَمِ الخليفة، والهمة الدقيقة، وربما مالت نفسُ الحريص إلى الرخيص.. وسأفسح للكلام ميدانا، وأثر عليك من الألفاظ مُرْجَانًا، وأعاطيك من سُلَاف (خمر) المعاني أَكْوَآبًا، وَأَشْمَكُ من روض البيان آسًا.. جَلَّ ماله عبتَ وفيه قلت ورددت، وبه أبدأت وأعدت، من إيثاري في الصيف والشتاء أَهْبُ (جلود) الشَّاء، ومراوحتي منها في البرد والحر، بين الْبَطْنِ والظهر. وأُتِ بساط مثلها أدل علي التواضع وأعربُ عن القناعة وأدفا في السَّيْرَةِ (الغداة الباردة) وألين في الْمَسِّ وأخف في الْحَمْلِ وأمكن للنَّقْلَةِ وأوفق لمقدار الحاجة وأجدر بطول المتعة وأبقى على حدث الدهر، وأغني عن تكلف التَّبْطِينِ ومراعاة أوقات الترقية. ولا تحوجك إلى خِيَاطٍ ينازلُك في السَّوْمِ (الثمن) ويُخْجَلُك أُمَامَ الْقَوْمِ، وَيُنْتِجُ جَبِينَك (يجعله يرشح) بعرق الاختلاف إليه، وذَلَّ التكرار عليه، وهو متبجِّح (متمكن) في دكانه، ومشتغل عن سوء مقامك باستطابة محادثة صبيانه، فتشمت العدو بنفسك، وتبدي ما كان مستورًا من حالك، وهذه (الأهب) بأنفسها مكتفية، وعن سواها مستغنية، مع صيانة المروءة ووقاية ماء الْوَجْنَةِ، إن قَلَبْتَهَا لظهورها شتوت على وَثَارَةٍ^(١)، أو صرفتها لبطونها صِفَتْ في لُدُونَةٍ».

ويذكر ابن برد أن من يطلبها يشتريها في الأضحية تقربًا إلى ربه وطلبًا لكرام ثوابه، ويقول إن رخص ثمنها فضيلة لها مع قلة المئونة والكلفة، ويذكر أن من فضلها أن جعل الله من جنسها كبشا فداء إسماعيل ابن خليله إبراهيم، وسماه في تنزله ذِبْحًا عَظِيمًا. ويقول لصاحبه إن الصوف زى النَّسَّاك والمنقطعين للعبادة، وقد استخدمها المعلمون لأنها الأرق والأرخص والأوفق. ويختتم هذه الرسالة الطويلة بالنصح لعائيه أن لا يستقبل

(١) يشير إلى فروة هذه الجلود من الصوف. والوثارة: الفراش الوثير: الوطء الناعم.

بالذم من يفترشها مغتبطا بها، إذ لا يفترشها إلا الشيوخ الجلة من العلماء ذوى المهابة والوقار، يقول:

«لا تجد مفترشا لها إلا شيخا رائع الوَسامة، أبيض الشَّعْرة، أنس إخوانه، وحلَسَ (ملازم) أسطوانه^(١)، قد حفظ المسائل وملاً من إجازات الشيوخ الخزائن، تقصده الفتيات والفتيان، وتقذيه الجارات والجيران، ويتنافس في حضوره أيام الرِّفَاف، ويختص بصدور المجالس وطببات الصحف، أو معلماً.. قد ائتمنته الملوك على ثمار قلوبها وعماد ظهورها وقطع أكبادها، يقعد عنده الوراقون، ويتحاكم إليه في الخطوط الناسخون، فإذا كانت أيام الأخمسة والجمعات أطال قلنسأته^(٢)، ووالى الزيارة بمنسأته^(٣)، وسار مهينما^(٤) بتسيحه وتقديسه وتهليله وتحميده، يزور الإخوان والمعارف، والكل هَشَّ إليه، مقبل عليه. فإن عارضت هذا الجنس ضاقت عليك الأرض، وأخوك من صدقك، ومحبك من نصحك».

والرسالة تصوّر قدرة ابن برد على صنع الأدلة والبراهين بحيث يأخذ على عائبه في استخدام جلود الشياه كل المسالك، فهي تدل على فضيلتي التواضع والقناعة بالقياس إلى البسط والسجاجيد الفاخرة والحشايا الثمينة المزدانة. وما يميزها دفء فروتها في الشتاء القارس، وليوتنها في المسّ وخفتها في الحمل والانتقال من موضع إلى موضع. ثم هي لا تحتاج مثل الحشايا والبسط إلى تبطين كما لا تحتاج إلى ترقيع. ثم يعرض ابن برد صورة الخياط، وهو يساوم صاحب الحشية أو السجادة في أجرة الترقيع والتبطين مخجلاً له أمام الناس، ويتفقان على الأجر. وما يزال الخياط يرجىء إنجازَه لما يراد منه من تبطين أو ترقيع، ويظل صاحب الحشية أو السجادة يتردد عليه، وجبينه يرشح عرقاً من ذل التكرار عليه، والخياط - مع إلحاحه عليه - منصرف عنه مع سوء وقفته أمامه، مشغول بمحادثة صبيانه أو عماله وكأنما يجد في ذلك متعة له. وهى صورة بديعة تدل على روعة خيال ابن برد مع جمال الصياغة، وهو جمال يطرد في نثره لما يعمه من نقاء في اللفظ وصفاء وعذوبة.

(٣) المنسأة: عصا غليظة تكون مع الراعى يهش

بها على غنمه.

(٤) مهينما: هامسا.

(١) يريد أنه عالم يلزم عمودا في المسجد يلقي

محاضراته عنده ويتحلق حوله الطلاب لشهرته.

(٢) قلنسأت: جمع قلنسوة.

رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية

ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي، القرطبي، وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل في الفصل الرابع، وقلنا هناك إن حادثين كبيرين أثرا في حياته، أولها تبادلها في شبابه الحب مع الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفي واتصال هذا الحب بينها فترة ثم هجرها له إلى الأبد بسبب ما لاحظته من مغالته إحدى جوانبها، وقيل بل بسبب نقده لبعض شعرها، وقد يكون للسببين جميعا. وظل ابن زيدون يبكي حبها ووصلها طويلا، وكلفت بعده بشخص كان يختلف مع غيره من شباب قرطبة إلى مُنتداهها هو ابن عبدوس، وهو موضوع رسالة ابن زيدون الهزلية. والحادث الكبير الثاني الذي كان له تأثير في حياته، هو سخط أبي الحزم جهور أمير قرطبة عليه والزجّ به في غياهب السجون مما جعله يستعطفه مرارا إلى أن عفا عنه وردَّ إليه حرّيته بشفاعة ابنه أبي الوليد، وفي استعطافه كتب رسالته الجدية، وحرى بنا أن نتحدث عن الرسالتين جميعا: الهزلية والجدية.

(أ) الرسالة^(١) الهزلية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس منافسه في حبها متهمًا به ساخرًا منه سخريات لاذعة، وما يمضي القارئ فيها حتى يشعر بوضوح أنه استوحى فيها رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التي سخر فيها من كاتب معاصر له يسمى أحمد بن عبد الوهاب كان يكثر من ذمه وثلبه، فوصفه بأنه مربع مدور، وظل في نحو خمسين صفحة من القطع الكبير يخلع عليه صورا ساخرة من الجمال وصورا أخرى ساخرة من المعرفة، تتخذ شكل أسئلة في تاريخ العرب والأمم القديمة وفي العلوم كيمياء وغير كيمياء وفي الحيوان والجماد وفي الفلسفة والمنطق مع سؤاله عن أساء كثيرين من الرجال عربا وغير عرب في ميادين الثقافات المختلفة. وكأن ابن زيدون رأى أن يجاريه في رسالته، إذ مضى على شاكلته يكثر من أساء الرجال وما يتصل بهم من التاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة في أن يكون لرسالته سماتها الخاصة لا في طريقة عرضه لأساء الرجال بها فحسب، بل أيضا بما أكثر فيها من ضرب الأمثال ونثر

ابن زيدون. ومرت مصادر ابن زيدون في ترجمته بالفصل الماضي.

(١) انظر هذه الرسالة وتعليقنا عليها في كتابنا عن ابن زيدون (طبع دار المعارف) وراجع شرح ابن نباتة لها في كتاب: سرح العيون شرح رسالة

الأبيات وجلب الأشرطة، مما جعل الرسالة في حاجة شديدة إلى التعريف بما عدد فيها ابن زيدون من الأعلام وأخبارهم ومن الأمثال والأشعار المنتثرة، وتجرد لذلك ابن نباتة في شرحه لها، وهو يستهلها على هذه الشاكلة:

«أما بعد أيها المصابُّ بعقله، المورِّطُ بجهله، البَيِّنُ سَقَطُهُ، الفاحشُ غَلَطُهُ، العاثرُ في ذَيْلِ اغتراره، الأَعْمَى عن شمس نهاره، الساقطُ سُقُوطِ الدُّبَابِ على الشراب، المتهافَتُ تهافَتَ الفَرَّاشِ في الشُّهابِ (الضوء).. وإنك راسلتني مستهديا من صلتى ما صَفِرَتْ (خلت) منه أيدي أمثالك، مرسلا خليلتك مرتادة وقد أعذرتْ (جهدت) في السفارة لك، وما قَصُرَتْ في النياحة عنك، زاعمةً أن المروءة لفظُ أنت معناه، والإنسانية اسمُ أنت جِسْمُهُ وهَيُولاه (مادته) قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرتَ بالكمال، واستعليتَ في مراتب الجلال، واستوليتَ على محاسن الخلال، حتى خيلتُ أن يوسفَ عليه السلام حاسنُكَ (بارك في الحسن) ففَضَضْتُ منه، وأن امرأةَ العزيز رأتُكَ فسلتُ عنه، وأن قارونَ أصابَ بعضُ ما كُنَزْتُ، وكسرى حَمَلَ غاشيتُكَ (مظلتك) وقيصَرَ رعى ماشيتك، والإسكندرَ قَتَلَ دارا في طاعتك».

ويظل ابن زيدون يورد على ابن عبدوس رجالا وأعلاما تاريخيين عديدين، مدعيا أن جميعهم تصرفوا عن إرادته محاولين الزلفى إليه من مثل أردشير ملك الفرس القديم وجذيمة الملك العربي الجاهلى. ويقول له إن شيرين زوجة أبرويز نافست ابنته بوران فيه وفي حسنه، وكليبا إنما حمى إجماء بعزته، ومهلها أخاه إنما طلب ثأره بهمته، وحاتما إنما جاد بأمواله والسُّلَيْكُ بن السُّلَكة العداء الجاهلى إنما عدا على قدميه، وسحبان البليغ إنما كان يتكلم ببيانه، وأن الحجاج إنما تقلد ولاية العراق بحظه، والمهلب القائد الأموى إنما ظفر بالخوارج الأزارقة بقوته. وليس هناك فيلسوف لليونان أو عالم لهم - ويعدهم - إلا صدر عن فكره، وبالمثل ليس للعرب مفكر ولا فيلسوف مشهور إلا منحه القدرة على ابتداعه، وما بلغاؤهم بالقياس إليه؟ إن عبد الحميد الكاتب بارى أقلامه وسهل بن هرون مدون كلامه والجاحظ مستمليه، وبالمثل الفقهاء الكبار من أمثال الإمام مالك. بل هو الذى أقام البراهين ووضع القوانين وحدَّ ماهية الأشياء وبينَ الكيفية والكمية وناظر في الجوهر والعرض وفرَّق بين الصحة والمرض. حتى إذا بلغ ابن زيدون من ابن عبدوس كل ما أراد من سخرية أخذ يكويه بسياط هجائه معددا صفاته الذميمة، وكأنما جمع كل مثلبة. وتتوالى المثالب، فهو خسيس أرعن مفرط الحمق سيئ الإجابة والسمع، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كلامه تمتمة وبيانه فهفهة، ودينه زندقة، وباقل المشهور بالعى

عند العرب بليغ بالقياس إليه، ووجوده عدم، والاغتيال به ندم، والخيبة منه ظفر والجنة معه سقر، وأين هو من ولادة؟ إن الشرق والغرب لا يجتمعان ولا يتقاربان. ويجعلها تهدده وتتوعده بسوء المصير حتى كأنما يطلب حَتْفَه، ويقول له على لسانها مقارناً في سخرية شديدة بينه وبين من يختلفون إلى ندوتها من نوابع الشباب الأفذاذ.

«النار، ولا العار، والمنية، ولا الدنية، والحرّة تجوع ولا تأكل بِنْدِييها، وما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، فإنما يتيمّم من لم يجد ماءً.. ولعلك إنما غرّك مَنْ علمتْ صَبَوْتِي إليه وشهدتْ مُسَاعَفَتِي له من أقمار العصر، ورِيحانِ المصر، الذين هم الكواكب علُوْهُمْ، والرياض طيب شيم.. ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكألو شيطنة (التنوء) في العظم منهم. وإن كنت إنما عطرت أردانك (أكمامك) وجررت سروالك، واختلت في مشيتك، وحذفت فضول لحيتك، وأصلحت شارتك، ومططت حاجبك، ورققت خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعا في الاعتداد منهم، فظننت عجزاً، وأخطأت الغرض».

وتضى ولادة قاتلة لابن عبدوس في سخرية مرة: فلو أن عمرو بن هند ملك الحيرة أعطاه بُرْدِيَه وحلّته مارية بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالقرطين اللذين أهدتها إلى الكعبة، وقلّده عمرو بن معد يكرب الفارس القديم سيفه الصمصامة، وحمله الحارث بن عباد سيد وائل في الجاهلية على فرسه النعامة، ما شكت فيه ولا أخفى ذلك كله أصله ونسبه، وهل يجتمع لها فيه إلا خلتان سيئتان: كأردأ التمر وسوء كَيْلِه وهل يقترن عليها به إلا ما اقترن على عامر بن الطفيل الذي دعا عليه الرسول ﷺ فاقرنت غُدّه في رقبته بموته ميتة ذليلة في بيت سلوئية. وتقول له هازئة به ساخرة إنه كان أجدر به أن يقدر الأمر تقديرًا دقيقًا فلا يكلف نفسه ما لا يستطيعه، حتى لا يكون مثله مثل الكلبة برأقش التي غزا أصحابها قوم فلم يعرفوا مكانهم ونبحت فدلّتهم، وضرب العرب بها المثل في الشؤم، فقالوا «دَلْتُ على أهلها برأقش». ويختم ابن زيدون الرسالة قائلاً على لسانها: «قد أعذرتُ إن أغْنَيْتُ شَيْئاً، وأسْمَعْتُ لو ناديتُ حَيّاً، وإن بادرتُ بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة كنت قد اشتريت العافية لك بالعافية منك، وإن أنشدت:

لا يُؤسِّنكَ من مخدرة قول تغلظه وإن جرحاً^(١)

فعدت لما نهيت عنه، وراجعت ما استعفيت منه بعثت من يزعجك إلى الخضراء

(الريف) دفعا ويستحثك نحوها وَكُزًّا (ضرب) وَصَفْعًا، فإذا صرَّت إليها عبث أكاروها (فلأحوها) بك، وتسَلَّطَ نواطيرها (متعهدو بساتينها) عليك بما قَدِّمْتَ يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك».

وبدون ريب بلغ ابن زيدون في هذه الرسالة الذروة بالسخرية من ابن عبدوس، وقد أصبح في يده كُلُّبَة تارة يعلو به فيرفعه إلى السموات العليا في القوة والسلطان والعلوم والفلسفة والبيان والبلاغة وتارة يسقط به فيهوى من حائق إلى الحضيض والدرك الأسفل. وهو في كل ذلك يزدري عقله وعلمه وأدبه وفكره وهيئته وكل ما يتصل به. ويسوق ابن زيدون للإغراق في السخرية به أعلام التاريخ القديم والإسلامي وأعلام الفلسفة والعلوم والبيان العربي، وكأنه هو الذي نفت فيهم كل ما امتازوا به. واستكثر في الرسالة من الأمثال ومن نثر الأشعار، وهو لا يطرف فيها بذلك فقط، بل يطرف أيضا بالألفاظ الجارحة الموجعة الملأى بسموم التهكم.

(ب) الرسالة^(١) الجديدة

كتب ابن زيدون هذه الرسالة يستعطف بها أبا الحزم جهورًا أمير قرطبة حين ألقى به في غياهب السجن ووراء قضبانه، لما قيل من نهيه عقارًا لبعض مواليه، وقيل - وهو الأصح - بل لما دُسَّ عليه عند جهور من اشتراكه ضده في مؤامرة فاشلة، وظل يديج فيه القصائد ويرسل إليه الشفعاء، وهو لا يعفو عنه ولا يصفح، فدبَّج له هذه الرسالة الرائعة مستهلا لها بقوله:

«يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادى عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، أبقاك الله ماضى حَدِّ العَزْم، ثابتَ عَهْدِ النعمة، إن سلبتني - أعزَّك الله - لباسَ إنعامك، وعطَّلتني من حَلَى إيناسِك، وأظمَّأتني إلى برود (بارد) إسعافِك، ونَفَضْتُ بى كَفَّ حياتك (رعابتك) وغضضت عني طُرفَ حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمُّ ثنائى عليك، وأحسَّ الجمادُ باستنادى إليك، فلا غَرَوَ قد يغصُّ بالماء شاربُه، ويُقتل الدَّواءُ المستشفَى به، ويؤتَى الحذرُ من مأمنه.. وإنى لأتجلَّد وأرى الشَّامتين أنى لرَيْبِ الدَّهر لا اتَّضَعُّعُ، فأقول: هل أنا إلا يدُ أَدَمَها سِوارُها، وجَبِينُ عَضِّهِ إكْلِيلُه، ومشرفى أَلصقه بالأرض صَاقِلُه، وسَمْهَرِيٌّ^(٢) عرضه على النار مُثَقِّفه..

كتابه: «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون».
(٢) المشرقي: السيف. السمهري: الرمح.

(١) انظر في هذه الرسالة وتعليقنا عليها كتابنا
عن ابن زيدون، وراجع شرح الصفدي لها في

وهذه النكبة سحابة صَيْفٍ عن قليل تَقْشَعُ، ولن يَرِيَنِي - من سيدى - أَنْ أَبْطَأَ سَيْبُهُ
(عطاؤه).. فأبْطَأَ الدَّلَاءُ فَيَضَا أَمْلُوهَا، وأثْقَلَ السَّحَابُ مَشِيًّا أَحْفَلُهَا (أملؤها) وأنْفَعُ الْحَيَا
(الغيث) ما صادف جَذْبًا، وألْذُ الشَّرَابِ ما أصاب غَلِيلاً».

وابن زيدون - فى مطلع رسالته - يسترحم جهورا مستعطفا، فطالما أثنى عليه وطالما ظن
أنه سيسبغ عليه نعمه، فإذا هو ينزل به عقابا أليها. ويتجلد للنكبة، ويحاول أن يسرى عن
نفسه، ويخال كأنه يد أدامها سوارها أو جبين عضه تاجه أو سيف ركزه صاقله فى الأرض
أو رمح سوءه على النار صانعه. ويمنى نفسه بأن نكبته سحابة صيف ستجلى ويعود إلى
سماء الود الصَّحْوِ والصفاء، وإذا كان عطاء جهور على ثنائيه ومديحجه أبطأ فإن أبطأ الدلاء
فيضا أغزرها وأثقل السحاب مسيرةً فى السماء أملوها، وأنفع الغيث ما صادف أرضا
مجربة، وألذ الشراب ما صادف نفسا ظامئة، ويستمر فيهمون من ذنبه مخاطبا جهورا
بقوله:

«ليت شعري ما هذا الذنب الذى لم يَسْعُهُ عَفْوُكَ، والجهل الذى لم يأت من ورائه
حِلْمُكَ.. وما أرانى إلا أُمِرْتُ بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لى نوح: اركب
معنا فقلت: (ساوي إلى جبل يعصمني من الماء)، وأُمِرْتُ ببناء الصَّرح (لعلى أطلع إلى
إله موسى) وعكفت على العجل، واعتديت فى السَّبْتِ، وتعاطيت فَعَقَرْتُ، وشربت من
ماء النهر الذى أبتلي به جنود طالوت، وعاهدت قريشا على ما فى الصحيفة، وانخذلت
بثلث الناس يوم أحد، وتخلّفت عن صلاة العصر فى بنى قُرَيْظَةَ، وجئت الإفك على
السيدة عائشة الصَّدِيقِيَّة، وأنفت من إمارة أسامة، ومزّقت الأديم^(١) الذى باركت يد الله
عليه، وضحيّت بالأشْمَط^(٢)، وَرَجَمْتُ الكعبة».

وهو يقول كأننى اقترفت كبيرة مثل كبيرة إبليس حين استكبر وأبى السجود لآدم
معلنا عصيانه لربه، أو ارتكبت ما ارتكبه ابن نوح حين عصى أمر أبيه فلم يركب معه فى
السفينة فكان من المغرّقين، أو كأنه ارتكب جريرة فرعون حين أمر وزيره هامان أن يبنى
له صرحا لعله يرى إله موسى، أو جريرة بنى إسرائيل حين عبدوا العجل وحين اعتدوا
فى يوم السَّبْت فصادوا فيه، أو جريرة عاقر ناقة صالح (قدمدم عليهم ربهم بذنبهم)
وأهلكهم، أو جريرة جنود طالوت الذى حرّم عليهم الشرب من نهر فخالفوه، أو جريرة

(٣) راجع الكعبة المحجّاج فى حرّبه لابن الزبير.

(١) يشير إلى مقتل عمر بن الخطاب.

(٢) الأشمط: عثمان بن عفان.

من تعهدوا لقريش بما في الصحيفة التي كتبوها من مقاطعة الرسول وأصحابه، أو جريرة أبي بن سلول حين انخذل بن معه من المنافقين عن رسول الله يوم أحد، أو جريرة من تخلفوا عن صلاة العصر مع الرسول في بني قُرَيْظَةَ من اليهود، أو جريرة من شاركوا في حادثة الإفك والبهتان على زوج الرسول السيدة عائشة بنت الصديق، أو جريرة من أنفوا من تولية أسامة الصحابي الجليل على رأس جيش، أو جريرة قاتل عمر بن الخطاب أو جريرة قتلة عثمان بن عفان، أو جريرة رَجَمَ الْحَجَّاجَ للكعبة، إلى عظام أخرى ذكرها لا يُعَدُّ ذنبه بجانبها شيئا مذكورا. ومضى ابن زيدون يقول إنه لا ذنب له إلا وشاية مشاء بنميم، ويُشهد الله أنه ما غشَّ جهورا ولا انحرف عنه ولا عاداه بعد أن تشيع له وأصبح في عداد خاصته مما سَوَّلَ لحساده أن يوغروا صدره عليه بوشاياتهم وغنائمهم الدنيئة، يقول:

«كيف لا تتضرمَّ جَوَانِحُ الأكفاء (النُّظَرَاء) حَسَدًا لى على الخصوص بك، وتتقطع أنفاسُ النُّظَرَاءِ منافسةً فى الكرامة عليك؟ وكيف وقد زاننى رَسْمُ خدمتك، وزهانى وِسْمُ نِعْمَتِكَ، وأبليتُ البلاءَ الجميل فى سِماطِكَ (صَفِكَ) وقمتُ المقامَ المحمودَ على سِماطِكَ.. وهل لَيْسَ الصَّبَاحُ إلا بُرْدًا طَرَزْتُهُ بفضائلك، وتقلدتُ الجوزاءَ إلا عِقْدًا فصلته بمآثرِكَ، واستمَلَى الربيعُ إلا ثناءً ملأته بمحاسنك، وبِثَّ المسكُ إلا حديثًا أذعته فى محامدِكَ؟ ما يومٌ حلِيمَةٌ بِسِرٍّ. ولم أَكُكْ سَلِيبًا، ولا حَلَيْتُكَ عُظْلًا، ولا وَسَمْتُكَ غُفْلًا بل وجدتُ أَجْرًا وَجِصًّا فَبَنَيْتُ، ومكانَ القولِ ذا سَعَةٍ فَقُلْتُ. حاشَ لك أن أَعَدَّ من العاملة الناصبة، وأكون كالذبالة المنصوبة تضيء للناس وهى تحترق، فلك المثل الأعلى وهو بك، وبى فيك، أولى».

وهو يقول لجمهور إنه من الطبيعى أن تضطرم جوانح النظراء حسدا وتتقطع أنفاسهم غيظا لمنزلتى منك وقد ازدنت بخدمتك وازدهيت بنعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى صفك ونصرتك وقمت المقام المحمود على سِماطك، أنثر بين يديك خِلع مدائح المضية بفضائلك، وعقود ثنائى المنظومة بدرر مآثرِكَ، ولكأنا عطرُ الربيع إنما يفوح بمحاسنك وشذى المسك إنما يُذيع أحاديث محامدِكَ، ويقول: ما يوم حلِيمَةٌ بِسِرٍّ أى أن ذلك كله مشهور، ويصيح إن جهورا لم يكن سَلِيبًا أو عاريا فكساه ولا عُظْلًا غير مزدان فحلَّاه ولا غفلا غير معلم فوسمه وأبداه، بل لقد وجد أَجْرًا وَجِصًّا فبنى وشاد قصائده، ويقول حاش لجمهور أن أَعَدَّ عنده من العاملة الناصبة إشارة إلى آية التنزيل: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ وأيضا حاش لجمهور أن يعده كالذبالة أو فتيلة

السراج تضيء للناس وهي تحترق وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وتَعَزُّ على ابن زيدون نفسه، فيقول إنه لن يصبر على الذل والهوان، ويقول إن الأدب خير وطن للأديب وإنه لا يُجْفَى في أى مكان ينزل به فأينما توجّه ورد أعذب منهل وضوحك قبل إنزال رحله، وأعطى حكم الصبى على أهله. وكأنه يلمّح بأنه سيفارق وطنه قرطبة إلى من يعرف له حقه ويقدر أدبه. وتهدأ نفسه فيعود إلى صوابه، ويعلن محبته لوطنه وأنه لا يؤثر عليه أى وطن كما لا يؤثر على أبى الحزم جهور أى أمير، ويأخذ في استعطافه حتى يعفو عنه ويصفح عن زلته، يقول:

«إن الوطن محبوبٌ، والمنشأ مألوفٌ، واللييبُ يحنُّ إلى وطنه حنينَ النَّجِيبِ (البعير) إلى عَظَمَتِهِ (مَبْرَكِهِ) والكريم لا يجفو أرضاً فيها قَوَائِلُهُ (داياته) ولا ينسى بلدًا فيها مَرَضَعُهُ. هذا إلى مغالاتي بِعَقْدِ جِوَارِكِ، ومنافستي فى الحِطِّ من قَرَبِكِ، واعتقادي أن الطمع فى غيرك طَبِيعٌ (دناءة) والغنى من سواك عَناءٌ، والبذل منك عَوَزٌ (فاقة) والعَوَضُ لَفَاءٌ (خِسَّة). وما هذه البراءة ممن يتولَّاك؟ والميل عَمَّنْ لا يميلُ عنك، وهَلَّا كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاكَ لمن رضاه لك».

ويظل ابن زيدون إلى نهاية الرسالة يستعطف أبا الحزم جهورا كي يرد إليه حرите، ويضيف إليها قصيدة استعطاف بديعة، ويختمها بقوله لجهور: «هَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، واشْفَعْ نعمةً بنعمة، ليتأتى لك الإحسان من جهاته، وتسلك إلى الفضل من طُرقاته». والرسالة تكتظ بالأمثال وبالأحداث التاريخية فى عهود الرسل وفى الإسلام، كما تكتظ باقتباسات من القرآن الكريم والأشعار مع حُلِّ كثير منها، ومع رهافة الشعور ودقة الحسِّ وصفاء الذوق فى انتخاب ذلك كله وفى اختيار الألفاظ والتنسيق بينها تنسيقا بديعا. ولكثرة ما فى الرسالة من أمثال العرب ووقائع التاريخ والأشعار احتاجت إلى الشرح وشرحها الصفدى، وسمى شرحه «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون» وواضح من كلمة المتون التى اختارها اسما لكتابه أنه شَعَرَ أن الرسالة تشبه المتون لكثرة ما فيها من الأمثال وغير الأمثال، مما يحتاج إلى تفسير وفضل بيان، وهى - كأختها السالفة - آية بديعة من آيات النثر الأندلسى.

رسالة ابن غرسية في الشعوبية والردود عليها

ابن غرسية^(١) هو أبو عامر أحمد بن غرسية، كان من أبناء نصارى البشكنس في شمالي إسبانيا، سبى صغيراً - كما يقول ابن سعيد - وأدبه مجاهد مولاه ملك دانية والجزر المقابلة لها في البحر المتوسط شرقي الأندلس (٤٠٥ - ٤٣٦ هـ) وكان مجاهد من فتيان المنصور بن أبي عامر الصقالبة الذين دان لهم شرقي الأندلس في أوائل عصر أمراء الطوائف أثناء الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية. ولما رأى براعة ابن غرسية البشكنسي في العربية والكتابة ألحقه بدواوينه، وأخطأ جولدتسيهر في مقاله عن الشعوبية الإسبانية، فظن أنه كان في خدمة المعتصم ابن صمّاح التجيبى أمير المريّة (٤٤٢ - ٤٨٤ هـ). وله رسالة يذم فيها العرب ويفخر بالعجم كتب بها لا إلى أبي عبد الله بن الحداد شاعر المعتصم بن صمّاح كما ظن جولدتسيهر وبروكلمان، وإنما إلى أبي جعفر أحمد بن الجزار كما جاء عند ابن سعيد، وذكره ابن بسام باسم ابن الخراز وهو تصنيف بدليل هجاء ابن غرسية له الذى أنشده ابن سعيد في ترجمته إذ هجاه بأنه سليل أسرة كانت تحترف الجزارة. ويقول ابن بسام إنه خاطب برسالته الأديب أب جعفر بن الجزار معاتباً له لتركه مدح مجاهد (الصقلبي أمير دانية) واقتصره على مدائح ابن صمّاح التجيبى (العربي) الذى كان أميراً للمرية في حياة مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ هـ وهو معن بن صمّاح مؤسس دولة الصمّاحية بالمرية (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) لا ابنه المعتصم كما ظن ابن سعيد ومن ظن ظنه من المستشرقين. والرسالة تشغل في الذخيرة نحو تسع صفحات، ونقتطف من فقرها قوله:

«سلام عليك ذا الرّويّ المروّى الموقوف قريضه على حلّة بجّانة أرش اليمن^(٢).
بزهد الثمن.. ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما ألجأوك إلى الخبط في الآل^(٣)، مه، مه^(٤)»

عبد السلام هرون وبها ملخص لمقال جولدتسيهر المذكور. وراجع في أبي جعفر أحمد بن الجزار الذى كتب إليه ابن غرسية بالرسالة وأنه من أسرة كانت تحترف الجزارة المغرب ٣٥٥/٢ - ٣٥٦.

(٢) ذا الروى: القصيد. حللة بجّانة: سكانها وهى بجوار المرية. أرش هنا: اقليم.

(٣) الآل الأولى: الأهل والأصل. والثانية:

النسب.

(٤) مه: كُفّ.

(١) انظر في ابن غرسية ورسالته الذخيرة ٧٠٤/٣ وما بعدها والمغرب لابن سعيد ٤٠٦/٢ وبحثاً لجولدتسيهر عن «الشعوبية عند مسلمى الأندلس في مجلة الجمعية الألمانية الشرقية المجلد ٥٣ ص ٦٠١ - ٦٢٠ (طبع ليبزج) وتاريخ الأدب الأندلسى عصر أمراء المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٤١/٥ والمجموعة الثالثة من نواذر المخطوطات للأستاذ

مَنْ أَحْجَوكَ إِلَى رُكُوبِ الْمَهْمَةِ^(١) وَإِذَا يَمَّتْ بطن تَبَالَةَ تَتَبَالَهُ، وَصَرَتْ ضَغْثًا عَلَى إِبَالَةٍ^(٢).. وَأَحْسَبُكَ أَنْ أُرْزِيتَ، وَبِهَذَا الْجِيلِ النَجِيبِ (يقصد مجاهد أو الصقالبة) أَزْدَرِيتَ، وَمَا دَرِيتَ أَنَّهُمُ الصُّهْبُ الشُّهْبُ لَيْسُوا بِعَرَبٍ، ذَوِي أَيْتُقٍ جُرْبٍ، بَلْ هُمُ الْقِيَاصَةُ الْأَكَّاسِرَةُ، بِهِمْ لَا رُعَاةَ شُؤْيَهَاتٍ وَلَا بِهِمْ^(٣)، شُغِلُوا بِالْمَآذَى وَالْمُرَّانِ، عَنِ رَعَى الْبُعْرَانِ^(٤)، وَيَجْلِبُ الْعَزُّ عَنْ حَلْبِ الْمَعَزِ، جَبَابِرَةُ قِيَاصِرَةٌ، صُقُورَةٌ غَلِبَتْ عَلَيْهِمْ شُقُورَةٌ، صُقُورَةُ الْخُرْسَانِ^(٥)، لَكِنَّهُمْ خَطْبَةٌ بِالْخِرْصَانِ، أَرُومَةٌ رُومِيَّةٌ وَجَرْتُومَةٌ صُفْرِيَّةٌ.. فَلَا تَهَاجِرْ بَنِي هَاجِرٍ، أَنْتُمْ أَرْقَاؤُنَا وَعَبْدَتُنَا، وَعَتَقَاؤُنَا وَحَفْدَتُنَا، مَنَّا عَلَيْكُمْ بِالْعِتْقِ، وَأَخْرَجْنَاكُمْ مِنْ رِبْقِ (كرب) الرِّقِّ، وَالْحَقْنَاكُمْ بِالْأَحْرَارِ فَغَمَطْتُمْ النِّعْمَةَ، فَصَفَعْنَاكُمْ صَفْعًا، يَشَارِكُ سَفْعًا، اضْطَرَّكُمْ إِلَى سُكْنَى الْحِجَازِ وَأَلْجَأَكُمْ إِلَى ذَاتِ الْمَجَازِ^(٦).. وَإِذَا قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ، وَأَخَذَتْ فِي اتِّسَاقٍ، وَقَرَعَتْ الظَّنَائِبِ، وَأَشْرَعَتِ الْأَنْبَائِبِ، وَقَلَّصَتِ الشِّفَاهِ، وَفَرَّ الْهَدَانُ فَاهَ، وَوَلَّى قَفَاهُ، أَلْفَيْتَهُمْ ذَمَرَةَ النَّاسِ^(٧) عِنْدَ احْمِرَارِ الْبَاسِ، الطَّعْنُ بِالْأَسْلِ، أَحْلَى عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَسَلِ، تَزْدَانُ بِهِمُ الْمُحَافِلُ وَالْجَحَافِلُ، كَوَاكِبُ الْمَوَاكِبِ، قُبُولٌ، عَلَى خِيُولٍ، كَأَنَّهُمْ فَيُولٍ، نَجُومُ الرُّجْمِ مِنَ الْعَجْمِ، ضَرَاغِمَةُ الْأَجْمِ، تَبَحَّيْحَتْ عَنْهُمْ سَارَةُ الْجَمَالِ وَالْكِمَالِ، رَبَّةُ الْإِيَاةِ^(٨).. دَوَّخُوا الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، فَاسْتَوْطَنُوا مِنَ الْمَجْدِ الذَّرْوَةَ وَالْغَارِبَ غَنُوا بِالْإِسْتَبْرَقِ (الحَرِيرِ) عَنِ الْبَتِّ (الكِسَاءِ) الْمَجْمُوعِ مِنَ النُّعِيجَاتِ طَعَامُهُمُ الْحَنِيزُ (اللَّحْمُ الْمَشْوِيُّ) لَا الْهَبِيدَ (الْحَنْظَلُ) بُسْلُ (شَجْعَانُ) لَا حُرَّاسَ

العرب. عبدة وحفدة: عبيد وخدم. سفعا: لطمًا على الوجوه. ذات المجاز: سوق في الجاهلية كانت بقرب مكة.

(٧) قامت الحرب على ساق: اشتدت، وكذلك قول العرب قرعت الظنائب وأشرفت الأنابيب. الهدان: الجبان. ولَّى قفاه: انهزم. ذمرة: يحثون على القتال. الأسل: الرماح.

(٨) الجحافل: الجيوش الضخمة. قُبُولٌ: جمع قيل: ملك. الرجم: الشهب: يتساقطون على الأعداء مثلها. الأجم: جمع أجمة غيل الأسد وهي الشجرة الملتفة. تبحيحت عنهم: ولدتهم في عزة وسارة زوجة النبي إبراهيم أم إسحق. الإيافة هنا: الحسن.

(١) المهمة: الفلاة.

(٢) تبالة: بلدة صغيرة باليمن يشير إلى أصل الأسرة الصادحية التجيبية اليمنية. ضغت على إبالة: مثل بضرب للبلية فوق البلية.

(٣) الصهب الشهب: ذوو الوجوه المشربة حمرة يريد العجم من صقالبة وغير صقالبة. بهم: بضم الباء فرسان حرب، وافتحها صفار الغنم.

(٤) الماذى: السيوف. المران: الرماح. البعران: جمع بعر.

(٥) صقورة: جمع صقر. شقورة: حمر. الخرسان: الصقالبة. كانوا يلقبون أيام الدولة الأموية بالخرس لعجمة لسانهم، ويقول إنهم فصاح بالخرسان أى الرماح.

(٦) هاجر زوجة إبراهيم: أم النبي إسماعيل أصل

مُسْلٍ (جريد النخل) ولا غَرَّاسُ فُسل (صغار النخل).. فكُفَّ أيها الشَّانِ، فلهم عظيم الشَّانِ واليَدُ الطَّوْلَى إذ تَخْلُصُوكُم من يد الحُبْشَانِ.. رَسَخَتْ في المجد أصولنا وفروعنا، وَمَنْ يَطُولُنَا، وكل الْوَرَى قد شمله فضلنا وطَوْلُنَا^(١)، ذوو الآراء الفلسفية والعلوم المنطقية حملة الأسترلوميقي والجومطريقي، والعَلَمَةُ بالأرتماطيقي وأنولوطيقي والقَوَمَةُ بالموسيقى والبوطيقا^(٢)، والنَّهْضَةُ بعلوم الشرائع والطبائع، والمهرة في علوم الأديان والأبدان، ما شئت من تدقيق، وتحقيق، حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لا على وصف الناقاة الفَدْنِيَّة (الضخمة).. فلا فخر معشر العُرْبَانِ العِرْبَانِ، بالقديم المَفْرَى الأَدِيم^(٣)، لكن الفخر بابن عَمَّنَا (يريد الرسول صلى الله عليه وسلم)، الذي بالبركة عَمَّنَا، الإسماعيلي الحسب، الإبراهيمي النسب الذي به إنما انتشلنا الله تعالى وإياكم من العَوَايَةِ والعَمَايَةِ، ولا غَرَّوْ أَنْ كَانَ مِنْكُمْ حِزْبُهُ وَسِيرُهُ، ففي الرُّغَامِ يُلْفَى تَبْرُهُ^(٤).. وينوه بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

«الله مما قد بَرَا صفوةً وصفوةُ الخَلْقِ بنو هاشمٍ
وصفوة الصَّفوة من بينهم محمدُ النورُ أبو القاسمِ

بهذا النبي الأُمِّيُّ أفاخرُ مَنْ يفخر، وأكثرُ جميع من تقدم وتأخر، المنيف (الرفيع) الطرفين، الشريف السَّلَفَيْنِ، المتلقَّى بالرسالة، والمنتقى للأداء والدلالة، أصلى عليه عدد الرَّمْلِ، ومَدَّد التَّمْلَ، وكذلك أصلى على واصلِ جناحه، سيوفه ورماحه، صحابته الكرام، عليهم من الله أفضل السلام».

وابن غرسية يفتح رسالته بالسخرية من أبي جعفر بن الجزار الذي يقف قريضة وشعره على نَزْلَةِ بجاية والمرية بإقليم اليمن في شرقي الأندلس مختصاً به عرب الأسرة الصُّمَادِحِيَّة أمراء المرية وما والاها دون مجاهد الصقلبي ذى الأصل الشريف والنسب الرفيع، ويأخذ في التهكم بآبن الجزار والتهجم على العرب، فهو قد تعلق بآل أو بسراب، ويمَّ وجهه نحو تبالاة اليمنية، فتباً له لقد أصابه البله، وأصبحت محنته محنتين. ويعجب أن

(١) الغارب: الكاهل يربد مادون الذروة. الشان

الأولى: الشانء: المبعض الحاقدا. الطولى: سابعة

التم. ويشير: بالحيشان إلى حكمهم اليمن فترة

قبل الإسلام. يطولنا: يفوقنا. الطول: الفضل.

(٢) الأسترلوميقي: علم الفلك. الجومطريقي:

الهندسة. الأرتماطيقي: الرياضة. أنولوطيقي:

القياس المنطقي. البوطيقا: الشعر.

(٣) المَفْرَى الأَدِيم: الممزق جلده.

(٤) العَوَايَةِ والعَمَايَةِ: الضلال. حِيزُهُ وسيرُهُ:

حسنه وبهاؤه. الرُّغَام: التراب. التبر. فتات

الذهب.

يزرى ابن الجزار على مجاهد وقومه الصقالية. ويبدو أنه كان قد هجاه، فأخذ يشيد به
 وبقومه الصَّهْب حمر الوجوه، ويقول إنهم ليسوا بعرب ذوى نوق جُرْب. ويضم إليهم
 العجم قاطبة، ويقول إنهم ملوك قياصرة وأكاسرة، فرسان لا رعاة أغنام ولا غارسو
 زروع يعيشون للحرب وحمل السلاح. ويستغل ما قيل من أن هاجر أم إسماعيل كانت
 جارية لسارة زوجة أبيه إبراهيم، فيزعم أنهم منوا على العرب بنعمة العتق ونعمة الحرية،
 وأسكنوهم الحجاز إشارة إلى نزول هاجر وابنها إسماعيل بمكة. ويطنل في الحديث عن
 فروسية العجم وبطولتهم في الحرب وانشغالهم بالسيوف عن الملاهى وربات الأقرات
 أو الشنوف. ويقول إن لباسهم الإستبرق لا الصوف وطعامهم اللحم المشوى لا الخنظل
 ولا الضب، وسكناهم القصور لا الخيام وبيوت الشعر. ويفخر على العرب بأن الفرس
 من العجم خلصوا اليمن من يد الحبش أيام الجاهلية، كما يفخر بأمر العجم سارة ويتغنى
 بجماها وكماها. وأيضا يفخر بأن العجم أصحاب العلوم الفلسفية والفلكية والهندسية
 والرياضية والمنطقية والموسيقية والشعر، لا أصحاب النوق الفدنية الضخمة. وابن
 غرسية في كل ذلك يستمد من أصحاب الشعوبية في القرن الثانى والثالث بالعصر
 العباسى، وكانت أهم مطاعنهم على العرب - كما أوضحناها في كتاب العصر العباسى
 الأول - أنهم كانوا فى الجاهلية بدوا رعاة أغنام وإبل، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة
 ولا مدينة ولا علوم، فأين هم قديما من ملك الأكاسرة والقيصرة؟ وأين هم من علوم
 الفرس واليونان والرومان. وكان الشعوبيون يصدرون فى ذلك عن بغض للإسلام،
 ولذلك اقترنت الشعوبية عند كثير منهم بالزندقة والإلحاد فى الدين الحنيف. وشعوبية
 ابن غرسية فى رسالته لا تقترب بالإلحاد ولا بزندقة، ومع أنه شعوبى ذميم يعلن فى نهاية
 رسالته تمجيده للرسول ﷺ ولصحابته.

وليس بين أيدينا فى الأندلس أعمال صدرت عن نزعة الشعوبية سوى هذه الرسالة
 لابن غرسية، وحقا هناك كتاب صُنّف قبلها سُمي: «الاستظهار والمغالبة على من أنكر
 فضل الصقالية». ومن المؤكد أن نزعة الشعوبية فى الأندلس كانت نزعة فردية، ولم
 تتحول - كما تحولت فى القرنين الثانى والثالث بالعراق - إلى نزعة اجتماعية تقوم على
 معاداة العرب والإسلام. ولم تكد رسالة ابن غرسية تُشعلها حتى انطفاأت، بل لقد أطفأها
 هو نفسه فى نهاية رسالته إذ أعلن تمسكه بالدين الحنيف وإشادته بالرسول وصحابته من
 المهاجرين والأنصار. ومع ذلك نجد ردودا عليه، لكن لا بأبحاث مطولة تهدم الشعوبية،
 كما نرى عند الجاحظ وابن قتيبة مما عرضناه مفصلا فى حديثنا عن تاريخ الأدب العربى

بالعصر العباسي الثاني وإنما برسائل تنقض مزاعمه نقضا حمياً للعرب والعروبة. وفي الذخيرة لابن بسام ثلاث رسائل منها رسالة لابن الدودين وثانية لعبد المنعم بن من الله القروي، وثالثة لشخص يسمى ابن عباس لم يوضح هويته ابن بسام. وظلت ردود تدبج في القرن السادس الهجري، منها رد لابن أبي الخصال باسم: «خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسية الفاسق». وسقط هذا الرد من يد الزمن كما سقط رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسى، ورد عبد المنعم بن الفرس، ورد عبد الحق بن فرج، ووصلنا رد أبي يحيى بن مسعدة المعاصر لعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين وكذلك رد أبي الحجاج يوسف البلوي المتوفى سنة ٦٠٤ إذ سجله في موسوعته: ألف باء، وهو يكثر فيه من الشعر. ونقف قليلا عند الردود الثلاثة الأولى ورد أبي يحيى بن مسعدة.

وأولى الرسائل الثلاث عند ابن بسام رسالة أبي جعفر^(١) أحمد بن الدودين البيلنسي، ويقول ابن بسام إنه أملاها عليه بالأشبونة سنة ٤٧٧ وهو يفتتحها بسبب ابن غرسية مع تهديد شديد ومع هجاء قومه من العجم هجاء مقذعا أشد الإقذاع رادا كل مثلبة للعرب في رسالة ابن غرسية إلى محمدا لهم وكل محمدا للعجم إلى مثلبة، ومن قوله فيها:

«أخسأ أيها الجهول المارق، والمرذول المنافق، ثكلتك أمك، حبرت يحبرك لذهاب خبرك، ومشتت^(٢) في قرطاسك لمشق رأسك، وما حقيقة جوابك على خطل خطابك إلا سلبك عن إهابك (جلدك) وصلبك على بابك، وأقسم ببارئ النسم، وناشر الأثم من رفات الرمم.. لأخلدنك سمرًا غابرا، ومثلا سائرا، أو تحترم بزئارك^(٣) وتلحق بأديارك، مآلك، ومقر آلك، أسرتك الأرذلين، وعترتك الأنذلين الصهب (الحر) أكلة الجيف.. وأما فخرك بربة الإيالة (سارة) فياليتها حين ولدتك ثكلتك، فلقد سربلتموها عارا مجددا، وعصبت بها شنارًا (عارا) مخلدا، حين ختمت^(٤) عن الكفاح، حذر الصوارم والرماح، فأسلمتم لعداتها، من بناتها، كل طفلة رداح^(٥)، جائلة الوشاح^(٦)، ذات ثغر

(١) انظر في ترجمة ابن الدودين ورسائله الذخيرة

٧٠٣/٣ وما بعدها وراجع ترجمته في المغرب

٣٢٢/٢ ورسائله في مجموعة هرون.

(٢) مشقت: طعنت. مشق: طعن وقطم.

(٣) الزنار: حزام كان يشده النصارى في

أوساطهم تمييزا لهم.

(٤) ختمت: جبنتم ونكلتم.

(٥) طفلة: ناعمة. رداح: ضخمة الردف.

(٦) جائلة الوشاح: كناية عن دقة الخصر.

كالأقاح، وُغَرَّة كالصباح.. ووصفك قومك بأن ليسوا حَفَرَةً أَكْرَ^(١)، ولا حَفَرَةً عَكَرَ^(٢)،
الله أجل الأكر أن يحفروها، والعكر أن يحفزوها، لكنهم خَفَرَةً جَحْشان، وحَفَرَةً كهوفٍ
وغيران^(٣)، اتخذوها مَخْبَأً من قبائل العُربان، وملجأ من وَقَعَ الصَّوارم والمُمران، فعل
الخِزَّان^(٤) واليرابيع والجُرْذان. وأما وصفك قومك أنهم مُجَدُّ، نَجَدُّ، فهيئات تلك صفات
قومنا العرب أولى اللِّسَن والبيان والإِسْهاب فى الصواب، والحكمة وفصل الخطاب،
أُنْدِيتهم عِراضُ المنيَّة، وأرْدِيتهم بِيضُ المشرقية، ولَبَّوسهم مضاعفة الماذية^(٥)،
مجالسهم السُّروج، وريحانهم الوَشِيج^(٦)، مُناهم، تعجيل مَناياهم، أسودُ الأَغِيال^(٧)،
حُماة الأشبال.

والرسالة الثانية عند ابن بسام فى الرد على ابن غرسية رسالة^(٨) أبى الطيب
عبد المنعم بن من الله القروى، دخل الأندلس، ودرَّس الحديث فى شرقها إلى أن توفى
سنة ٤٩٣، وكان أديبا شاعرا، واطلع على رسالة ابن غرسية فاستثارتها، وكتب نقضا لها
رسالة سماها «حديقة البلاغة ودوحة البراعة، المورقة أفنانها، المثمرة أغصانها بذكر المآثر
العربية ونشر المفاخر الإسلامية والردُّ على ابن غرسية فيما ادعاه للأُمم الأعجمية» وهى
تتد فى الذخيرة إلى نحو خمس وعشرين صحيفة، ويقول له فى مطالعها:

«أخبرنى عنك أما كانت للعرب يدٌ تشكرها، ومِنَّةٌ تذكرها؟ أما جَبَرَتْ نقيصتك؟
أما رفعتْ خسيستك؟ ألم تُرَبِّك فينا وليدا؟ ألم تتخذك بها تليدا؟^(٩) ألم تُعَنَ بتخريجك
وتدريجك؟ أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أسَلَقْتُكَ^(١٠) عقبَ اللُّكنة، حتى إذا اشتدَّ
كاهلك، وقوى ساعدك، كفرتْ نعمتها لديك، ونثرتْ عِصمتها من بين يديك.. وهات أرنا
مفاخرَك نُرَك مساخرك، أنت صاحبُ الشَّهْبِ الصُّهْبِ أين أنت عن السُّمْرِ القُمرِ^(١١)،
البيضِ غُرًّا وصِفاحا^(١٢)، الدُّعج عيونًا ورماحا، البُلج^(١٣) وجوها وسماحا؟ سَعروا

٧٢٢/٣ - ٧٤٦ وراجع فيه الصلة: ٣٧١ وانظر فى

رسالته المجموعة الثالثة من نواذر المخطوطات

لهرون.

(٩) تليدا هنا : مقبلا.

(١٠) أسلقتك: أتاحت لك السليقة العربية.

(١١) القمر جمع أقر: المشرق الوجه.

(١٢) الصفاح: السيوف.

(١٣) البلج: المشرقون.

(١) أكر: حفر.

(٢) عكر: إبل.

(٣) جحشان: جمع جحش. غيران: جمع غار.

(٤) الصوارم: السيوف. المران: الرماح. الخزان:

أولاد الأرناب. الجرذان: الفئران.

(٥) المشرقية: السيوف. الماذية: الدروع.

(٦) الوشيج: الرماح.

(٧) الأغيال: جمع غيل: بيت الأسد.

(٨) انظر فى ترجمة ابن من الله ورسالته الذخيرة

(أوقدوا) عليكم نارَ الحرب، بتلك الأثنيَّ الجُرب، فكسروا أكاسرتكم، وقصروا قياصرتكم، فسفكوا دماءهم، وأباحوا أحماءهم^(١)، وأخمدوا نارَ صَوْلَتهم، ومحووا آثارَ دولتهم، وطهَّروا الأرضَ المقدَّسةَ من أنجاسكم والمسجدَ الأقصى من أُرْجاسكم. وَيَحْك بِمِ آثَرْت (فُضِلْت) وبمن كَاثَرْت (فَخَرْت) أما استحييتَ مما انتحيتَ؟ هل كانت العرب إلا كَنَزَ عِزٍّ وَذُخْرُ فخر، وخبيثةٌ ذَخَرها الله إلى الوقت المحتوم ليختار منها صَفِيَّه، وميزَها ليميز منها حَفِيَّه. يمشى أحدهم إلى الموت ثابتةً وَطْأَتُه، فسيحةٌ خُطُوَتُه، شديدةٌ سَطُوَتُه، لَبَقًا بتصريف القنَاةِ بنائه، بصيرا بمهيج الدارعين سنائه.. أليس شعَارُكم: الهَرَبُ، الهَرَبُ، هذه العرب.. وما تركوا من الأعاجم عاجما، ولا ناجما، وساروا يَذْبَحُونَ البرَّ ذبحا، وَيَسْبَحُونَ البحرَ سَبْحا، حتى طَرَقَكم طَارِقُهُم^(٢) في هذا الطَّرَفِ، ورشَقَكم راشِقُهُم في هذا الهدف، وملكوا أرضَكم بساحتِها، وأحاطوا بها من ناحيتِها، سلبوها بأقطارها وحلبوها من أشطارها».

ويطيلي ابن من الله في الفخر بدول العرب قبل الإسلام، وبشجاعتهم وفروسياتهم، وما يزال يتتبع مفاخر العجم عند ابن غرسية ناقضا لها حتى في العلوم. وبنوه بعلم العرب في الفلك والطب وبراعتهم في الغناء والموسقى. ويضع له أمام عينيه فخر العرب برسولها محمد سيد ولد آدم الذي به بَزَّت الأمم، ويطلب إليه أن يتوب توبة تهديه وتنجيهِ. والرد الثالث الذي ساقه ابن بسام يذكر أنه اقتبس من كتاب^(٣) لابن عباس رد فيه على ابن غرسية، ولا يعرفنا بشخصية ابن عباس هذا، وحديثه يدور على الهجاء المقذع ولا يخرج عما رأينا في الرسالتين السالفتين من نقض مزاعم ابن غرسية نقضا يصيب قومه العجم في الصميم.

ومثل هذه الردود في الرد المفحم على رسالة الشعوبية لابن غرسية رسالة^(٤) أبي يحيى ابن مسعدة، وهو يستهلها بهجاء شديد فابن غرسية غَثِث (لا خير فيه) أبقِ وَقَاح لثيم الجدود. وبعد قَرَعَ صَفَاه، وَصَفَع قفاه، ينتقل إلى الحديث عن دين العجم وأقانيمه الثلاثة وعقيدة التثليث وينكر أن يكون إبراهيم الخليل أباً للعجم أو تكون سارة زوجته أمًّا لهم

(١) أحماء: جمع حمى.

(٢) راجع في أبي يحيى بن مسعدة ورسالته المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون.

(٣) أحماء: جمع حمى.

(٤) تورية لطيفة عن طارق بن زياد فاتح الأندلس.

(٥) انظر الذخيرة ٧٤٦/٣.

أو تكون هاجر أمةً لسارة. وينقض على ابن غرسية كل ما أشار إليه من خبر أو أسطورة تتصل بالعرب، ويشويه ويشوى العجم معه بسياط من أهاجيه، ويتهم على ما افتخر به من علوم الأعاجم، ويقول إنه كفخر الجارية يهودج سيدتها، إذ العلوم التي ذكرها إنما هي علوم اليونان والفرس والكلدان. ويتهم على موسيقاهم التي يندبون بها في نواحهم ويقصفون عليها في أعيادهم. ويفخر بانتصار العرب على الفرس والروم في القادسية واليرموك. ويتمدح بما يجلبه العجم للعرب من القيان والدنان، كما يتمدح بشغف العرب بالمرأة وما لهم فيها من الغزل الرقيق مع ما يميزهم من الشجاعة والإقدام حتى ملكوا الأرض، وتلك منازلهم منها بمكان الغرة. ويقول ابن مسعدة: كفى ابن غرسية والعجم أن في العرب رسول الله هادينا ومرشدنا سيد البشر وشفيع هذه الأمة وسفير يوم العرض وإمام أهل السموات والأرض، وبه يفاخر العرب البشر، وينظرون الشمس والقمر. ويشيد ابن مسعدة في ختام الرسالة بآبن تومرت داعية الموحدين وخليفته عبد المؤمن بن علي مؤسس دولتهم في المغرب والأندلس.

وواضح - مما تقدم - أن الشعوبية في الأندلس لم تؤيدها إلا رسالة وحيدة لابن غرسية البشكنسي، وكأنها شيء عارض أو كأنها حجر ألقى في بحر لجي للعروبة، فلم تترك أثراً وراءها سوى ما كان من كثرة الردود عليها طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهي كثرة تدل - دلالة بيّنة - على تعمق نزعة العروبة في الأندلس وأن الأندلسيين كانوا يستشعرونها دائماً بقوة، أما ما نقرؤه أحياناً عن عالم أندلسي أو أديب هناك من أنه كان شعبياً فإنما كان يوصف غالباً بذلك لنزعة وطنية تجعله يشيد بأبناء وطنه لا لنزعة شعوبية معادية للعرب. وقد ظلت الأندلس بعيدة عن استشعار تلك النزعة كما ظلت بعيدة عن استشعار نزعة الزندقة والإلحاد المعادية للإسلام.

رسائل نبوية ومواعظ

(أ) رسائل نبوية

للأندلسيين كتابات كثيرة في مناقب الرسول ﷺ، على شاکلة كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض حافظ المغرب والأندلس المتوفى سنة ٥٤٤ ولسنا نريد الحديث عن مثل هذه الكتابات الجليلة إنما نريد أن نتحدث عن رسائل نبوية كثيرة صور فيها الأندلسيون شوقهم الحار لاكتحال عيونهم برؤية الروضة الشريفة

ضارعين إلى صاحبها عليه السلام أن يكون شفيعهم إلى غفران ربهم يوم القيامة، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. ومنذ أواخر عصر أمراء الطوائف تتكاثر الرسائل النبوية إذ أخذ الكتاب في الأندلس يستشعرون محنة بلدهم وما يتهددها من الأخطار فبثوا شكاوهم إلى الرسول ﷺ في رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الشريف وتوسل ضارع لشفاعته يوم الحشر الأكبر. وأخذوا - مع تقدم الزمن - يضمنون رسائلهم بعض الأحداث في الأندلس آملين من الرسول الغوث والعون على أعدائهم وأن تدور عليهم الدوائر. ومن طريف ما نقرأ في تلك الرسائل رسالة لأبي القاسم بن الجدد المتوفى سنة ٥١٥ هـ ومرت بنا ترجمته، وله رسالة نبوية كتبها على لسان صديق صدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه السلام، وقد امتلأ قلبه شوقا إلى العودة لزيارة الروضة الشريفة، مؤملا في شفاعته، والحشر في عداد زمرة وجماعته، وفيها يقول ابن الجدد: (١)

«صلوات الله على خاتم الرُّسل وناهج السُّبل، وناسخ جميع المِلل.. وعليه من لطائف التسليم ما يُربى على عدد النجوم، ويُرَى بالمِسك المختوم، وَيَقْضَى باتصاله رضا الحي القيوم.. ولما صدرت يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صدري، وغشيتني من نور برهائك ما بهر لُبِّي، وعمر قلبي، لحقني من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أودع جَوَانِحِي التهابا، وأوسع جَوَارِحِي اضطرابا، وأشعر أُملي عَوْدًا إلى محلِّك المعظم وإيابا، وكيف لا أحنُّ إلى قريبك، وأتהלَّك في حُبِّك، وأعفر خدِّي في مقدسِ تربك، وبك اقتديت فاهتديت، وكيف لا يتحرَّك نحوك نزاعي، ويتأكَّد انقطاعي، وبك استشفاعِي، وإليك مَفْرَعِي يوم الداعي، فلا تنس لي - يا رسول الله - عِيادِي بك وليادِي، واذكرني في اليوم العظيم المشهود، عند حَوْضِكَ المورود، وظِلِّكَ الممدود، ومقامِكَ المحمود».

والرسالة تصور هذا الشوق المضطرم في قلب كل مسلم ليسعد بزيارة الروضة الشريفة ويتملى بنورها الباهر. وما إن يعود زائره إلى موطنه حتى يضطرم شوقه من جديد لينعم بزيارته آملا أن يكون له حظ في شفاعته صفى الرحمن وحببيه المصطفى من خلقه. ويذكر ابن خير الإشبيلي في فهرسته أن لابن السيد البطليوسي عبدالله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ هـ رسالة كتب بها إلى قبر الرسول ﷺ، وبالمثل ذكر ابن خير أن لابن أبي الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ - ومرت ترجمته - رسالة كتب بها متوسلا إلى قبر الرسول.

(١) انظر الرسالة بترجمة ابن الجدد في الذخيرة

ومعها مقطوعة شعرية، كتبها بلسان أحد الزمى (المقعدين) آملا في شفائه، فلما وضعت عند القبر الشريف برئ المقعد بإذن الله وببركة رسوله الأمين. وتظل هذه الرسائل النبوية تكتب من الأندلس وترسل إلى الروضة النبوية طوال الحقب الأندلسية التالية، ويلقانا من كتاب هذه الرسائل ابن الجنان وسنخسه عما قليل بترجمة. وكان يعاصره أبو الحسن^(١) الجياني على بن محمد الأنصارى الذى تولى القضاء ببعض نواحي إشبيلية، واستكتبه آخر أمراء الموحدين: الرشيد (٦٢٩ - ٦٤٠ هـ) وظل يتولى الأعمال السلطانية حتى توفى سنة ٦٦٣ للهجرة، وله رسالة بارعة كتب بها إلى الروضة الشريفة وفيها يقول^(٢):

«إلى سَيِّدِ المرسلين، ورسولِ رب العالمين، الذى جُعِلَتْ له الأرض مَسْجِداً وطهوراً، وكان - ولم يزل - منتقلاً من صلب آدم نورا.. المصطفى المختار الذى انشق له القمر، ودان له الأسود والأحمر، ولاح النور الإلهى من قَسَماته، وعَرَفَه الكهنة والأخبار قبل كونه بِسِمَاتِهِ، بُشِّرَى الكليم^(٣) الميمون النقية^(٤) والطليعة، المشير إلى الأصنام فخرتْ صَريعة.. من العبد المذنب الذى ثَبُتَتْهُ الأقدار، وعاقه الفلك المُدار، عن الحلول بمشاهدك الكريمة، والمُثول فى معاهدك التى هى لِصَادِى الأمل أَنْقَعُ ديمة^(٥).. كَتَبْتُهُ، وأنا أَتَنَفَّسُ الصُّعْدَاءَ^(٦)، وأناجى بل أَعْْبِطُ أهل زيارتك السعداء، وللزُّفَرَاتِ تصعدُ وانحدار، وللعبيرات تردُّد فى الجفن وانهمار، وكيف أُلذَّ حياةً ولم أعبر لزيارتك سَبَسَباً^(٧) ولا لُجَّة، ولا أقمت على دعوى الشوق إليك بُرْهانا ولا حُجَّة، لَأَتِمَّ مواطئى سَعَى فيها بالوحي الروح الأمين، وتخطى عَرَساتها^(٨) سَيِّدُ المرسلين كيف لى أن أمرُغَ الخَدَّ فى عَبيْر ثَرَاهَا، أو أبلغَ الجَدَّ^(٩) الأعظم عندما أراها، اللهم ياربَّ أَنْجِذْ عبدك المسىء وأعنه على أداء الفريضة، وطَيِّبْ قلبه بانتشاق ريح طَيِّبة^(١٠)، ولا تجعل أمله فيك ورجاءه فى كرمك إلى إخفاقي وخيبة»

والرسالة طويلة، وقد ذكر فيها أبو الحسن الجياني طائفة من المعجزات النبوية. ويقف

(٦) الصعداء: المشقة. يتنفس الصعداء: يتنفس نفساً ممتداً.

(٧) السبب: الفلاة.

(٨) عَرَساتها: ساحاتها.

(٩) الجد: الحظ.

(١٠) طيبة: المدينة.

(١) انظر فى ترجمة أبى الحسن الجياني الذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٨٧/٥ وما بعدها.

(٢) انظر الرسالة عند المراكشى ٢٨٨/٥.

(٣) الكليم: موسى عليه السلام.

(٤) النقية: الطبع والسجية.

(٥) صادى: عطشان. ديمة: سحابة هائلة.

على باب الروضة الشريفة مسترحما لذنبه شفيح المذنبين يوم الهول الأكبر الذى تغذى بحبه طفلا وشابا وكهلا، وإنه ليأمل فى اللقاء بحبيبه، وفى فؤاده لوعة لا تنطفئ وفى عينيه دموع لا تجف، وإنه ليتمنى لو طيَّب وجناته بتراب طيبة وتحقق له هذا الأمل العظيم. ويدعو ربه ضارعا أن ينيله أداء فريضة الحج وزيارة الرسول الكريم حتى يفوز بسعادة ما تماثلها سعادة.

وتسقط حينئذ مدن الأندلس العظمى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وطليلة وبطليوس فى حجر حملة الصليب الشماليين، ونرى هذه الرسائل النبوية الموجهة إلى الروضة الشريفة تضم إلى تصوير التعلق بالرسول والشغف بزيارته والتوسل إلى شفاعته تضرعا إليه كى ينصر المسلمين فى الأندلس على أعدائهم الشماليين، ومن خير ما يمثل هذه الرسائل رسالتان^(١) للسان الدين بن الخطيب كتبهما إلى الرسول عليه السلام على لسانى سلطانى الأندلس أبى الحجاج يوسف الغالب بالله (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) وابنه محمد الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) وربما كانت رسالته الأولى أروع من أختها الثانية، وقد افتتحها بقصيدة بديعة، يصور فيها الشوق الذى أضنى أبا الحجاج لزيارة قبر الرسول ﷺ، ويفخر بأن جده سعد بن عباد كان من أنصار دينه الحنيف. ويعتذر بتقصيره عن زيارته باشتغاله بجهاد الجلائقة والقشتاليين حملة الصليب الشماليين، وتلى ذلك الرسالة، وهى طويلة، ويفتحها لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج بقوله:

«إلى رسول الحق، إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق، والحائز فى ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء.. نبي الهدى الذى ختم به الرسالة ربّه، وجرى فى النفوس مجرى الأنفاس حُبّه، الشفيق المشفق يوم العرض، المحمود فى ملاء السماء والأرض.. فائدة الكون ومعناه، وسرّ الوجود الذى بهر سنّاه، من الأنوار من عنصر نوره مستمدة، والآثار تخلّق^(٢) وآثاره مستجدة، من طوى بساط الوحي لفقده، وسد باب الرسالة والنبوة من بعده».

وهذه القطعة الرائعة فى تمجيد الرسول يغمسها ابن الخطيب فى فكرة الحقيقة المحمدية

صبح الأعشى ٤٦٩/١٤.

(٢) تخلق: تبلى.

(١) انظر فى الرسالتين الإحاطة (طبعة عنان)

٥٢٧/٤ وما بعدها، وراجع فى الرسالة الأولى

التي رَدَّدها بعض الصوفية ذاهبين إلى أن الروح المحمدية سبقت في الوجود صورة محمد الجسدية، وهو بذلك يسبق آدم، بل يسبق جميع الكائنات وكأنه مبدأ الرسل وخاتمهم، بل مبدأ الوجود جميعه، فكل نور في الكون مستمد من نوره ومستعار منه. ويستمر ابن الخطيب في هذا التمجيد متحدثا عن معجزات الرسول، قائلا إن الرسالة من عتيق شفاعته وعبد طاعته. ويصور تشوق أبي الحجاج إلى الاكتحال بمشهد روضته الشريفة، حتى يطفئ غلته ويسكن لوعته، ويعتذر بجهاده لحملة الصليب وما يلقي في هذا الجهاد هو وجنوده من أهوال تعوقه عن أن يشد الرحال إلى الروضة العبقرة الطاهرة، يقول:

«عاقنتي عن زيارتك العوائقُ إذ أصبحتُ بين عدوٍّ تتكاثفُ أفواجهُ، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عَجَاجُهُ»^(١)، في طائفة من المؤمنين بك وطَّنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وَعَلَيْكَ لَبَوسُهُمْ، واستعذبوا في مَرْضَاةِ الله تعالى وَمَرْضَاتِكَ بُوسُهُمْ، يطيطون من هَيْعَةٍ^(٢) إلى أخرى، ويتلفَتون والمخاوفُ يُمْنِي وَيُسْرَى، ويقارعون - وهم الفئة القليلة - جموعًا كجموع قيصر وكسرى، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العُلْيَا، فيأله من سِرْبٍ مَرُوعٍ، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصِيبَةٌ حُمِرَ الحواصل^(٣)، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل^(٤)، والصليب قد تمطى ومدَّ ذراعيه.. وما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوبُ حتى تكاد تراه العيون إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله وقد أبلَّينا العُذْرَ، وأعملنا في سبيل الله وسبيلك البِيضَ والسُّمْرَ^(٥)، وأرغمنا الكُفْرَ».

وهذه القطعة من الرسالة تصور الجهود المضنية التي كان يبذلها مسلمو الأندلس في جهاد حملة الصليب، وقد جاءهم - كالذرَّ عند انتشاره - من شمالي إسبانيا ومن البلدان الأوربية، يريدون أن يقتلعوهم من البقية الباقية من ديارهم. وتستبسل الفئة القليلة أمام تلك الجموع الغفيرة نحو ثلاثة قرون متطاولة، بائعة أنفسها لربها متزاحمة على حياض الاستشهاد لنصرة دينه حتى تكون كلمته هي العليا، وحملة الصليب ما ينون يغيرون وما تنى سحب سيوفهم تتجمع فوق ديارهم وأوكار أفلاذ أكبادهم، والفئة القليلة تنازلهم مستميتة نزالا ضاريا وكثيرا مادقت أعناقهم دقا. والرسالة الثانية للسان الدين كتبها

(١) عجاجة: غباره.

الطيران.

(٢) هَيْعَة: صيحة.

(٣) المناصل: جمع منصل: السيف.

(٤) حمير الحواصل: تشبيه لأطفال غرناطة بصغار

(٥) البِيض: السيوف. السمر: الرماح.

الطير حين تكون حمراء الحواصل ولا تستطيع

سنة ٧٧١ بلسان السلطان الغنى بالله، كما ذكرنا، وفيها يصور للرسول الكريم تنكيهه بحملة الصليب في غير موقعة بعونه وجاهه، مع الاعتذار عن شد الرحال إليه لانشغاله بجهد الطغاة البغاة. وكانت توجه إلى الروضة الشريفة من أطراف العالم الإسلامي رسائل نبوية مماثلة لما قدمناه ممجدة له ومتشفعة إليه في الأغراض الدنيوية والأخروية، غير أنها كثرت في الأندلس لبعد الديار واتصال الحروب هناك مع أعداء الدين الحنيف، وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند ابن الجنان.

ابن الجنان^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المعروف باسم ابن الجنان، من أهل مرسية في شرقى الأندلس نشأ بها وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات شيوخها ونهل منها كل ما استطاع من علوم دينية وآداب عربية، وفيه يقول ابن الخطيب: «كان محمد راوية ضابطا، كاتباً بليغا وشاعرا بارعا» ويقول الغبريني: «كان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان فقيها وكاتباً بارعا وأديبا». وكان مفرطاً في القصر حتى يظن مبصره أنه طفل ابن ثمانية أعوام. ولفضله وأدبه استكتبه المتوكل بن هود حين ملك مرسية سنة ٦٢٥. وضاق بهذا العمل فتركه وحين تمكن العدو من قبضته على مرسية، سنة ٦٤٠ خرج منها واستقر بمدينة أريولة شمالي مرسية. وسمع به ابن خلاص صاحب سبته على الزقاق، فاستدعاه، ولبى دعوته، وأكرمه وحظى عنده، ونراه يتوجه إلى مدينة بجاية بإفريقية ويستقر بها إلى أن لبى نداء ربه في عشر الخميس وستائة.

وكان ابن الجنان شاعرا مبدعا كما كان كاتباً محسناً، ويقول ابن الخطيب «له في الزهد ومدح الرسول ﷺ بدائع، ونظم في المواعظ للمذكرين كثيرا» وأنشد المقرئ له في الجزء السابع كثيرا من مدائحه النبوية، وهو يسترسل فيها متحدثاً عن شمائل الرسول وخصاله الكريمة ومعجزاته الباهرة ونبوته وقدسيته ومرتبته العليا بين الرسل وشفاعته لأمته يوم الحشر، وينشد له المقرئ خمسا نبويا طريفا يستهله على هذا النحو:

الله زاد محمداً تكريماً وحباهُ فضلاً من لدنه عظيماً
واختصه في المرسلين كريماً ذا رافةٍ بالمؤمنين رحيماً
صلوا عليه وسلموا تسليماً

للغبريني ٢١٣ ونفع الطيب ٤١٥/٧ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة ابن الجنان ورسائله ومواعظه ومدائحه النبوية الإحاطة ٣٤٨/٢ وعنوان الدراية

ويضيف إلى هذا الدور في الخمس نحو ثلاثين دورا، والمخمس يسيل سلاسة وعذوبة، وأدواره تختتم بقوله: «صلوا عليه وسلموا تسليما». ولا تقل روعة عن مدائح ابن الجنان للرسول عليه السلام رسائله ومواعظه النبوية. ومن أروعها رسالة احتفظ بها المقرئ كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، وفيها يقول:

«السلامُ العميمُ الكريمُ، والرحمةُ التي لا تَبْرَحُ ولا تَرِيمُ^(١)، والبركةُ التي أولها الصلاةُ وآخرها التسليمُ، على حضرةِ الرُّسالةِ العامَّةِ الدعوةِ والنبوةِ، المؤيدةِ بالعِصمةِ والأيدِ والقوةِ، ومثابةِ البرِّ والتقوى، فهي لقلوبِ الطيبين صَفًا ومَرَوَةً^(٢) مَقَرَّ الأنوارِ المحمديةِ، والبركاتِ السَّرمَديَّةِ، أُمَّتَعِ اللهُ الإسلامَ والمسلمين بحراسةِ أضوائها، وكَلَاةٍ^(٣) ظلالها العليةِ وأُفَيَانِهَا^(٤)، وأقر عَيْنَ عَبْدِهَا بِلَثَمِ ثَرَاهَا، والانخراطِ فِي سِلْكِ مَنْ يَراها. السلامُ عليك يا محمد، السلامُ عليك يا أحمدُ، السلامُ عليك يا أبا القاسمِ سلامَ مَنْ يَمُدُّ إِلَيْكَ يَدَ الغريقِ، ويرجو الإِنقاذَ ببركتك من نَكَدِ المضيقِ، ويتَقَطَّعُ أَسْفًا ويتَنَفَّسُ صُعْدًا^(٥) كلما ازدلف^(٦) إليك فريق، وعَمَرَتِ نحوكَ طريق، ولا يَفْتَرُ صلاةَ عليك له لسان ولا يجفُّ ريق: كتبته يا رسول الله وقد رحل المجذون وأقمت، واستقام المستعدون وما استقمت، وبينى وبين لَثَمِ ثَرَاكَ النَبِيُّ، وَلَمَحَ سَنَاكَ المَحْمَدِيُّ مَفاوِزُ وكلما رُمْتُ المَتَابَ رُدِدْتُ، وكلما يَمُمْتُ البابَ صُدِدْتُ.. وَحَقُّكَ وهو الحقُّ الأكيدُ والقسمُ الذي يبلغُ به المُقسَمُ ما يريد، ما وَخَدْتُ^(٧) إليك رِكَابًا، إلا وللقبِ إِثْرُها التهابُ، وللدمع بعدها سَحٌّ وانسكاب، وباليَتْنِي مَن يَزورُكَ معها ولو على الوَجْتَيْنِ، ويحييكَ بين رِكَبِها ولو على المُقْلَتَيْنِ.. ثم السلامُ ورحمةُ اللهِ تعالى وبركاتهُ عليك يا سَيِّدَ الخلقِ، وأقربَهُم من الحقِّ، ومن طَهَّرَ اللهُ تعالى مَثْواه وَقَدَّسَهُ، وبناه على التقوى والرضوانِ وَأَسَّسَهُ، وآتاه من كلِّ فضلِ نَبِيٍّ أعلاه وَأَسْنَاهُ وَأَنفَسَهُ.. كتبهُ عبدك المستمسكُ بِعُرْوَتِكَ الوُثْقَى، اللانِدَ بِحَرَمِكَ الأَمْعَ الأَوْقَى، المتأخِّرُ جِسمًا المَتَقَدِّمُ نَظْمًا، والسلامُ عليك يا رسولَ اللهِ ﷺ تسليما كثيرا ورحمةَ اللهِ تعالى وبركاتهِ».

والرسالة توج بالعذوبة في اللفظ والصياغة، مع ما تصور من لواجع الشوق المضطرم في صدر ابن الجنان لزيارة قبر الرسول القدسي ولثم ثراه العطر والإمام بفنائه السنِّي

(١) تريم: تبرح.

(٢) السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج

(٣) يتنفس صعدا: يتنفس مع مشقة ووجع.

(٤) فروضه والتشبيه واضح.

(٥) ازدلف: دنا وقرب.

(٦) وكذا: أسرعت.

(٧) وكذا: أسرعت.

(٨) كلاة: حفظ.

وإن قلبه ليتقطع أسى وإنه ليتنفس الصعداء حين يرى الحجاج الأندلسيين من دونه يسرون في قوافلهم إلى بيت الله الحرام وزيارة الرحمة المهداة للأمة الذي أرسله الله نورا وضاء للعالمين. ويفضى ابن الجنان إلى أسى ولوعة عميقين، حتى يشعر كأن الدنيا تحولت من حوله إلى سجن رهيب وأغلال وأصفاد، فلا يستطيع فكاً ولا لحاقاً بالقوافل المتجهة إلى الأراضى المقدسة في الحجاز. ويذرف الدمع مدراراً، ويتمنى لو زار الرسول ﷺ لا على قدميه بل على وجنتيه، حتى تكتحل عيناه بسنى النور المحمدى. وروى المقرئ له موعظة بديعة في فضل الرسول وما أنعم الله به على البشر من رسالته الزكية وما أجرى عليه من معجزات فيها الآيات الكُبر والدلالات الواضحة الغرر، ويتلو المقرئ هذه الموعظة بموعظة ثانية يتحدث في نهايتها عن مصاب المسلمين بوفاة الرسول ﷺ وكيف عزَّهم الصبر، يقول: «وهل يسوغ الصبر الجميل في فقيد بكته الملائكة وجبريل، وكثر له في السموات السبع النحيب والويل، وانقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل؟. ويصور ابن الجنان كيف عمَّ حينئذ الحزن والاكتئاب، وكأنما دموع الصحابة السحاب، ويقول إن الله عزَّ شأنه سينجز وعده له بالشفاعة وقيامه المقام الموعود على الحوض يوم القيامة منادياً في الناس هلموا إلى لتطفئوا حرارة العطش الملتهب في الصدور، ويتجه ابن الجنان إلى ربه داعياً:

«اللهم أسقنا من حَوْضه المورود، وشرفنا بلوائه المعقود، وشفِّعه فينا في اليوم المشهود، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللحود، وانفعنا بمحبته ومحبة آل وصحابته الرُّكع السُّجود، واجعلنا معهم في الجنة دار السلام ودار الخلود».

وبهذه اللغة الصافية التي تموج بالركة والعذوبة والتي تلي الألسنة حين تنطق بها والأسباع حين تنصت إليها كان ابن الجنان يتمتع القلوب والأفئدة.

(ب) مواعظ

كانت الأندلس - مثل غيرها من البلدان الإسلامية - تكثر فيها المواعظ الدينية شفهية ومكتوبة، وكان من أهم البواعث لذلك الخطابة في المساجد أيام الجمعة والعيدين واستشعار الخطباء هناك لخطابة الرسول والخلفاء الراشدين ومن تلاهم من جلة الخطباء والوعاظ ممن حكى الجاحظ وعظهم وخطابهم في كتابه البيان والتبيين، وكثير هم الأندلسيون الذين تُذكر في تراجمهم أن لهم خطبا ومواعظ مدونة، وأشهر خطباء الدولة

الأموية بالأندلس ووعاظها منذر بن سعيد، وسنخسه بكلمة. وكان يحدث كثيرا أن يتأخر المطر الذي يبعث الحياة في الوديان والسهول والزروع، فكان الناس يجتمعون في المساجد لصلاة الاستسقاء، ويقف بينهم الخطيب واعظا مذكرا بنعم الله عليهم مفيضا في الحديث عن الإنابة إلى الله، داعيا الله دعاء مكررا: أن يرسل عليهم الغيث. وفي الكثرة الكثيرة من تلك الصلوات كانوا يغاثون ولا ينصرفون من المساجد إلا وأحذيتهم في أيديهم من كثرة السيول التي تدافعت من السماء. ويتوقف أصحاب كتاب التراجم مرارا وتكرارا في ترجماتهم للقضاة ممن كانت تسند إليهم خطابة الجامع الكبير، ليحدثونا عن صلاتهم مع أهل قرطبة لاستئصال الغيث، وبينما الخطباء يلحون بالدعاء كان الناس يكثررون من الضجيج والابتهاال، وتشملهم رحمة الله فتنعقد السحب وتبرق وترعد وهطل الغيث مدرارا.

وبجانب هؤلاء الخطباء الوعاظ ومواعظهم وأدعيتهم كان هناك زهاد أثرت عنهم مواعظ وأدعية كثيرة مثل أبي وهب العباسي المعاصر لمندر بن سعيد المتوفى سنة ٣٤٤ المار ذكره. ويدور بنا الزمن دورة ونصبح في عصر أمراء الطوائف، ونلتقى فيه بمواعظ كتابية تحبر فيها رسائل بديعة. وهي رسائل وعظية تتقدم خطوة - إن لم تكن خطوات - نحو المتاع الروحي والشوق إلى اللقاء الرباني والانقطاع إلى النسك والعبادة للحى القيوم عن كل متاع دنيوى. ونحس كأن الأنـدلس أخذت تتجه بقوة إلى النزوع الصوفى على نحو ما يلقانا في رسالة كتبها الفقيه أحمد بن عيسى الإلبيرى سنة ٤١٦ إلى بعض إخوانه، وكان من أفراد الزهاد، وفيها يقول لصاحبه^(١):

«هَيَّاكَ يَدُ الْقُدْرَةِ هَيْئَةً رُوحَانِيَّةً، وَأَحْيَاكَ رُوحَ الْقُدُسِ حَيَاةً إِلَهِيَّةً، وَأَبْسُتَكَ الشَّرِيعَةَ لِبَاسَ التَّقْوَى، وَرَأَسْتَكَ الطَّبِيعَةَ بِرِيشِ النُّهَى^(٢)، حَتَّى تَطِيرَ مَعَ الرُّوحَانِيِّينَ فِي مَجَالِ الصَّدِّيقِينَ إِلَى مَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ، فَتَذُوقَ بَرْدَ عَيْشِ النِّعَمِ، وَتَلْذَّ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْقَيُّومِ، وَتَشْتَاقَ إِلَى لِقَاءِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ.. وَإِنْ لَهِىَ يَا أَخِي عِبَادًا أَقَامَ أَرْوَاحَهُمْ بِقَيُّومِيَّتِهِ عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَمَشَتْ بِأَقْدَامِ الصَّدِّيقِ إِلَى الْحَقِّ، فَدَنَتْ مِنْهُ وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ عَلَى جَلَالِهِ، فَبِاتَسَاعِ كَمَالِهِ، فَضَعُفَتْ لِكِبَرِ سُلْطَانِهِ، ثُمَّ أَفَاقَتْ بِالْإِسْلَامِ وَنَظَّتْ بِالْإِيمَانِ، وَاتَّصَلَتْ بِالْقُرْآنِ، وَعَلَّمَهَا فَفَازَتْ بِالْحِكْمَةِ، وَانْقَطَعَتْ إِلَيْهِ بِالْكَلِيَّةِ، وَدَانَتْ لَهُ بِالْحَنِيفِيَّةِ،

(١) راجع في النص الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها. (٢) النهى: العقل.

فَأَوَاهَا إِلَى كَنَفِهِ، وَنَعَمَهَا بِطَرَائِفُ تَحْفِهِ، وَأَطْلَعَ لَهَا السَّرَّ، وَأَكْمَلَ لَهَا الْبِرَّ، فَحَيَّيْتُ بِقُرْبِهِ، وَشَرِبْتُ بِكَأْسِ حُبِّهِ».

والنزعة الصوفية ماثلة في الرسالة، وهي تعد مقدمة لما سيكون من ازدهار التصوف في زمن المرابطين والموحدين إذ يظهر فيه كثرة ممن أُشربوا كأس المحبة الإلهية من أمثال ابن العريف وابن عربي والششتري، ومرت لهم في الفصل الماضي ترجمات تعرّف بمنزعتهم الصوفي وأهم آثارهم وفيها وعظ كثير. وإذا تركنا المتصوفة وعظهم إلى الوعظ العام وأهله وجدنا من أدباء الأندلس الذين يجمعون بين نظم الشعر وكتابة النثر طائفة تحاكي أبا العلاء المعري في كتابه الوعظي: «ملقى السبيل» وقد جعله على الحروف الأبجدية، وعادة يذكر سجعات قليلة ويتلوها بأبيات بنفس معناها، وربما كان ابن أبي الحصال الذي ترجمنا له في هذا الفصل أول من حاول محاكاته في هذا الاتجاه^(١)، وكثر بعد ذلك من عارضوه فيه من مثل أبي القاسم السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وسُمي معارضته له باسم: «حلية النبيل في معارضة ملقى السبيل»^(٢) وعارضه سليمان بن موسى الكلاعي المتوفى شهيدا سنة ٦٣٤ باسم «مفاوضة القلب العليل ومنازمة الأمل الطويل بطريقة أبي العلاء في ملقى السبيل»^(٣) وغيرهم كثير. ونستطيع أن نقول إن معارضة أبي العلاء في وعظه بملقى السبيل كانت أشبه بجدول انبثق من نهر الوعظ الكبير. وملتقى في عصر المرابطين بأبي بكر الطرطوشي وسنخصه بكلمة.

وكان ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ قد أشاد في رحلته - كما مر بنا - بابن الجوزي ومواعظه، وحملها عنه بعض الأندلسيين وأكبَّ عليها غير أديب أندلسي يحاكيها على نحو ما يلقانا عند أبي المطرف بن عميرة المترجم له بين الكتاب والمتوفى سنة ٦٥٨ إذ يقول المراكشي: «له فصول وعظمية على طريقة الإمام أبي الفرج بن الجوزي» وله قوله من عظة^(٤).

«يَا أَعْمَى الْهَوَى غَابَ عَنْكَ وَضَحُ النَّهَارِ، طَالَتْ غَيْبُتُكَ عَنَا فَأَيَّ يَوْمٍ تَكُونُ فِي الزَّوَارِ، الْعَمْرُ قَدْ مَضَى وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَأَنْتَ تَعِيشُ بِالْمُنَى وَالتَّعْلِيلِ»، أين الإخوان

(٣) الذيل والتكملة للمراكشي بقية السفر الرابع ص ٨٦.

(٤) كتاب أبي المطرف بن عميرة ص ٣٠٤.

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسي: عصر المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧.

(٢) الإحاطة ٤٧٩/٣ وصحفت فيها لفظة «ملقى».

والأتراب، طاحوا^(١) والله وأكلهم التراب، بينما البلبل يغرد إذ نعب الغراب وفجأت الفجيجة فما لذ النوم ولا ساع الشراب».

وكان نبعا فياضا في الوعظ مما جعل بعض الوعاظ يستعينون به فيما يعظون به الناس. وملتقى بكثير من المواعظ في دولة بني الأحمر بغرناطة، ومن كبار الوعاظ في دولتهم ابن الزيات الكلاعي المالقي المتوفى سنة ٧٢٨ وله في الوعظ كتاب «شدور الذهب في ضروب الخطب»، وروى له لسان الدين بترجمته في الإحاطة عظة ألغى الألف من حروفها وفيها يقول:

قد نصحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتم لو كنتم تعلمون، ونصرتكم لو كنتم تبصرون،
وذكرتم لو كنتم تذكرون، وظهرت لكم حقيقة نشركم^(٢)، وبرزت لكم خبيثة حشركم،
فلم تركضون في طلق^(٣) غفلتكم، وتغفلون عن يوم بعثكم، وللموت عليكم سيف
مسلول، وحكم عزم غير مفلول^(٤)، فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه، ويخبر بجميع كسبه،
ويفرق بينه وبين صاحبه، ويعدم نصرة حزبه، ويشغل بهمهم وكرهه، عن صديقه وتربه».

ويسترسل في مثل هذا الوعظ البسيط الذي ينزل عن اللسان لحفته ولعدوبته، ولعله من أجل ذلك كان مجلس وعظه يغص بالناس ويزدهمون عليه لساع مواعظه. وحرى بنا الآن أن نقف قليلا عند الواعظين الجليلين: منذر بن سعيد وأبي بكر الطرطوشي.

منذر بن سعيد البلوطي^(٥)

هو أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبد الله، ولد سنة ٢٦٥ بموضع في نواحي قرطبة يسمى فحص البلوط فنسب إليه، وأقبل منذ نعومة أظفاره على الدراسات الدينية واللغوية وبز فيها أقرانه بقرطبة، وفي سنة ٣٠٨ رحل إلى المشرق للحج والتلقى عن علمائه، وعاد إلى قرطبة يحمل عن محمد بن المنذر النيسابوري كتابه الإشراف المؤلف في اختلاف الفقهاء سمعه منه بمكة، ويحمل أيضا كتاب معجم العين المنسوب إلى الخليل سمعه على أبي العباس بن ولاد بمصر، غير كتب أخرى في اللغة والفقه والحديث. وأهم

٣١٩ وابن الفرضي رقم ١٤٥٢ والبيعية رقم ١٣٥٦

والجدوة ٣٢٦ والمطمح ٢٧ ومعجم

الأدياء ١٧٤/١٩ وإنباه الرواة ٢٢٥/٣ وأزهار

الرياض ٢٧٢/٢ ونفع الطيب (انظر الفهرس).

(١) طاحوا: هلكوا.

(٢) نشركم: بعثكم.

(٣) طلق: شوط.

(٤) مفلول: مثلول الحد.

(٥) انظر في ترجمة منذر ومواعظه طبقات الزبيدي

من ذلك أنه حمل مذهب داود الظاهري وكتبه وظل يؤثره ويحتج لمقالته، مع أنه كان قاضيا في بعض مدن الأندلس، والقضاء فيها كان مالكيًا يلتزم القضاة فيه بمذهب مالك وفتاويه وفتاوى تلاميذه المصريين، واشتهر منذر بأنه إنما كان يأخذ بالمذهب الظاهري في نفسه فإذا جلس للحكومة والقضاء بين الناس قضى بينهم وحكم بمذهب مالك الذي استقر عليه العمل في الأندلس. وثقف في رحلته الاعتزال كما ثقف المذهب الظاهري، وكان يحتاج له كما يحتاج للمذهب الظاهري دون إفراط، مع الأخذ بالسنة والورع والرد على أهل الأهواء والبدع. وفي سنة ٣٣٠ أتيحت له فرصة عظيمة عندما أقيم بقصر الناصر في قرطبة حفل استقبال ضخم لسفير بيزنطة الذي جاءه يحمل إليه بعض الهدايا من لدن الإمبراطور، وتقدم ابنه وولى عهده الحكم إلى أبي على القالى العالم اللغوى المشهور، وكان قد وفد على قرطبة ودوت شهرته في الأندلس، فسأله أن يلقي خطبة أمام أبيه يبين فيها فخامة الخلافة الأموية بالأندلس وما تهباً للناصر من توطيد الحكم في بلده، فقام القالى وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، وأرتج عليه وانقطع عن الكلام، فلما رأى ذلك منذر - وكان حاضرا - قام فوصل افتتاحه بخطبة طويلة بليغة على غير أهبة مفتتحا لها بقوله:

«أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقالًا، وليس بعد الحق إلا الضلال، فافقهوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت.. وإني أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافته أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم».

ومضى يتحدث عن تلافى الناصر للفتن التي كانت عمت آفاق الأندلس، وفصل القول في انتصاراته وفتوحاته وعدالته وما حظيت به الدولة لعهد من مكانة جعلت الروم يخطبون مودتها. وينصح الناس بالتزام الطاعة لخليفتهم وابن عم نبيهم الناصر، ويختتم خطبته بالحمد لله والاستغفار. وبهرت الخطبة المجتمعين وخرجوا يتحدثون عن بلاغة منذر وحسن بيانه وثبات جنانه، وأعجب به الناصر إعجابا شديدا، فولاه الصلاة والخطابة بمسجده الجامع في مدينته الزهراء التي بناها بجوار قرطبة، ثم ولاه قضاء الجماعة، فأصبح قاضى القضاة في الأندلس جميعا، وظل على ذلك في حكم الناصر وحكم ابنه الحكم إلى أن توفي سنة ٣٥٥. وكان الناصر قد مضى في بناء مدينته الزهراء وتأثق فيها

ما وسعه التأنق على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع، فرأى منذر أن يتناوله في خطبة الجمعة بالموعظة الحسنة رجاء إنابته ورجوعه عن هذا السرف المفرط.

وابتداً منذر موعظته بقول الله تعالى شأنه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ^(١) آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ^(٢) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ثم قال: ولا تقولوا: ﴿سِوَاءَ عَلَيْنَا أُوْعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ﴿فَمَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وما زال يصل ذلك بكلام مؤثر في ذم تشييد البنيان وزخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، واستشهد بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانِهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ومضى منذر يدعو إلى الزهد في الدار الفانية والإعراض عنها وطلب ما عند الله من فراديس الجنان وأسهب في ذلك حتى تأثر المستمعون وضجوا بالبكاء، ودعوا الله تائبين مستغفرين وبكى الناصر واستعاذ من سخط الله وغضبه. ولمنذر مصنفات من أهمها: «أحكام القرآن» وكان شاعراً، أما العظات فلعل واعظاً في وطنه لم يبلغ فيها مبلغه في زمنه، وكانت له خطب مجموعة ومتداولة في الأندلس تحمل وعظاً كثيراً، ومن عظاته قوله:

«حتى متي وإلى متى أعِظُ غيري ولا أَعْظُ وأُزَجِرُهُ ولا أَزْدَجِرُ، أدُلُّ على الطريق المُسْتَدِلِّينَ، وأَبْقِي مُقِيمًا مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾. اللهم فَرِّغْنِي لِمَا خَلَقْتَنِي لَهُ، وَلَا تَشْغَلْنِي بِمَا تَكْفَلْتَ لِي بِهِ، وَلَا تَحْرِمْنِي وَأَنَا أَسْأَلُكَ وَلَا تَعَذِّبْنِي وَأَنَا أَسْتَغْفِرُكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

أبو^(٣) بكر الطُّرُوشِي

هو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الطُّرُوشِي الأندلسي ولد في سنة ٤٥١ بطرطوشة في أعلى الشرق من الأندلس على البحر المتوسط، ويعرف بابن أبي رندقة، ويبدو أنها كنية شهر بها فيما بعد، وقد تخرج على يد أبي الوليد الباجي بسرقسطة، أحد

٥١٧ وبغية الملتبس رقم ٢٩٥ والمغرب ٢/٤٢٤

وابن خلكان ٤/٢٦٢ والديباج المذهب ٢٧٦ وغير

الذهبي ٤/٤٨ وأزهار الرياض ٣/١٦٢ والشذرات

٦٢/٤ وحسن المحاضرة ١/١٩٢.

(١) ريع: المرتفع من الأرض وكان الناصر قد بنى

الزهاء بضاحية قرطبة على جبل العروس.

(٢) مصانع: مبان من القصور والحصون.

(٣) انظر في ترجمة الطرطوشي ومواعظه الصلة

كبار المالكية في أواخر عصر أمراء الطوائف إن لم يكن أكبرهم، وقد أخذ عنه مسائل الخلاف وغيره من كتبه الكثيرة وأجاز له روايتها عنه. ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ وحجَّ ودخل بغداد والبصرة، وسمع من جُلَّة الشيوخ في البلدتين، وسكن الشام مدة ودرَّس بها، ثم سكن مصر واستقر بثغر الإسكندرية إلى أن توفي بها سنة ٥٢٠ هـ. وكان ورعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير، ودخل على الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) فوعظه حتى بكى، وكان مما وعظه به:

«إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَنْ كان قبلك، وهو خارجٌ عن يدك بمثل ما صار إليك فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله - عز وجل - سائلك عن النِّقير^(١) والقَطْمِير^(٢) والفتيل، واعلم أن الله - عز وجل - آتى سليمان بن داود مَلِكَ الدنيا بحدافيرها فسخر له الإنس والجنَّ والشیاطین والطيرَ والوحشَ والبهائمَ، وسخر له الريحَ تجري بأمره رخاءً^(٣) حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عزَّ من قائل: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فما عدَّ ذلك نعمة كما عدتموها، ولا حَسِبَهَا كرامة كما حسبتوها، بل خاف أن يكون ذلك استدراجا من الله عز وجل، فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فافتح الباب، وسهِّل الحِجَابَ وانصُرِ المظلوم».

وللطروشى مؤلفات مختلفة منها الكتاب الكبير في مسائل الخلاف وكتاب مختصر تفسير الثعالبي وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي، وأشهر كتبه كتاب سراج الملوك الذي ألفه للمأمون البطائحي وزير الفاطميين بعد الأفضل بن بدر الجمالي (٥١٥ - ٥١٩ هـ) وهو وعظ للملوك والحكام وبيان لما ينبغي أن يتحلوا به من الأخلاق والسياسة الرشيدة في الحكم، ويبين في مقدمته منهجه فيه وغايته قائلا:

«جمعتُ محاسنَ ما انطوى عليه سِرُّ مُلُوكٍ سِتٍّ من الأمم، وهم العرب والفرس والروم والهند والسُّند والسندهند، فنظمت ما ألفت في كتبهم من الحكمة البالغة والسِّير المستحسنة والكلمات اللطيفة والظريفة المألوفة.. إلى ما رأيته وجمعته من سِير الأنبياء عليهم السلام وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى

(١) النِّقير: ما نقر في نواة التمر، والقَطْمِير:

النواة والمراد أنه يُسأل عن أصغر الأشياء.

القشرة الرقيقة على النواة، الفتيل: الخيط في شق

(٢) رخاء: لين.

عليه القرآن العزيز الذى هو بَحْرُ العلوم ونبوُعُ الحكم ومعدنُ السياسات ومَعَاصُ الجواهر المكنونات.. الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة».

وقد جعل الطرطوشى الكتاب فى أربعة وستين بابا خصَّ أولها بمواعظ الملوك وثانيها بمقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وتتوالى الأبواب فى الخصال التى ينبغى أن يتصف بها الحكام والقضاة وغيرهم ممن يلون شئون الناس، ومن قوله فى الباب الأول واعظا للملوك:

«اعتبر بمن مضى من الملوك والأقوال، وخَلَا من الأمم والأجيال، وكيف بُسِطَتْ لهم الدنيا وأنسَتْ لهم الآجال، وانفسح لهم فى المنى والآمال، وأمدوا بالآلات والعدُد والأموال، كيف طحنهم بِكَلْكَلِهِ المَنُون^(١)، واخذعهم بزخرفه الدهر الخُنُون، وأسكنوا بعد سعة القصور بين الجنادل والصخور.. أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وإدبارها فجعية، ولذاتها فانية، وتبعتها باقية، فاعتنم غفوة الزمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزوّد من يومك لغدك، ولا تنافس أهل الدنيا فى خفض عيشهم ولين رياشهم^(٢) ولكن انظر إلى سرعة ظَنهم وسوء مُنقلبهم»

ولم يكد يترك الطرطوشى خبرا أو عظة للرسول عليه السلام والرسل الكرام والخلفاء الراشدين ومن عاصروهم وجاءوا بعدهم من الزهاد والأتقياء البررة والعبّاد والصالحين الأطهار إلا دَوَّنَهَا فى كتابه مع ما ساقه فى تضاعيفه من عظاته التى تموج بها صفحاته. وهو بحق فى الذروة من الوعظ والإرشاد للناس جميعا حكاما وغير حكام.

٤

أعمال نثرية

تتميز الأندلس بنفوذها إلى أعمال نثرية بديعة سقط كثير منها من يد الزمن، وبقيت منها إلى اليوم بقية رائعة، بين اعترافات عاطفية كما فى طوق الحمامة لابن حزم، وكتابات تاريخية كما فى المقتبس لابن حيان والذخيرة لابن بسام، ومذكرات لسيرة ذاتية كما فى مذكرات عبد الله بن بُلُقَيْن أمير غرناطة، وقصص خيالية فلسفية كقصّة حى بن يقظان لابن طفيل، وحرى بنا أن نلم بهذه الأعمال فى كلمات مجملة.

(١) الكلكل: الصدر والمراد الثقل. المنون: (٢) الرياش: الأثاث الفاخر.

الموت.

طوق الحمامة لابن حزم

ابن حزم^(١) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، من أسرة كانت تنتسب إلى جد فارسي من موالى بني أمية وزعم ابن حيان أن أسرته إسبانية من عجم لبلة وأنها حديثة العهد بالإسلام، فجده الأدنى أول من أسلم من آبائه. ويبدو أنه لم يعرف جذور أسرته معرفة دقيقة، إذ تجمع كتب التراجم على سلسلة من النسب له، يتصل فيها أجداد مسلمون حتى ينتهوا به إلى جد فارسي أعلى كان مولى ليزيد بن أبي سفيان، ويقول صاحب المعجب إنه قرأ هذه السلسلة بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه، ونصَّ ابن حزم على نسبته الفارسية وولائه لبني أمية قائلا:

سَمَا بِي سَاسَانَ وَدَارَا وَبَعْدَهُمْ قُرَيْشُ الْعَلَاءِ أَعْيَاصُهَا وَالْعَنَابِسُ

وهو في الشطر الأول ينسب نفسه إلى دارا وملوك الفرس الساسانيين، وفي الشطر الثاني ينتمى بالولاء إلى بني أمية، وكان لأمية ستة أبناء من العنابسة وخمسة من الأعياص. وسنعرف عما قليل عن ابن حزم كيف كان يأخذ نفسه بالصدق والتدين العميق، مع ما يضاف إلى ذلك من أنه لا يوجد أى مبرر لكى يرجح نسبته إلى عجم الفرس على نسبته إلى عجم الإسبان، مع ما ضم إلى ذلك من اعترافه بالولاء لبني أمية، وظل مشايخا لهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وربما كان ذلك ما أثار ابن حيان ضده، محاولا أن يخلعه من ولائه وولاء أبيه للأمويين.

ومقدماته لما نشر من رسائله وكتاب ابن حزم: حياته وعصره لمحمد أبى زهرة ودراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة للدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وابن حزم صورة أندلسية للدكتور الحاجرى وابن حزم الأندلسى: حياته وأدبه للدكتور عبدالكريم خليفة. وفي كتاب طوق الحمامة انظر مقدمته في تحقيق الدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وعرضه فيها لآراء المستشرقين وما ذكره في هوامش تحقيقه للكتاب من تأثيرات موضوعاته في الأدب الإسباني. وانظر كتاب ألوان للدكتور طه حسين (الطبعة السادسة في دار المعارف) ص ٩٩ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة ابن حزم ودراسته الحميدى فى الجذوة ص ٢٩٠ والذخيرة ١٦٧/١ والمطمح ص ٥٥ والبقية للضبى ص ٤٠٣ والصلة ٤٠٨ والمعجب ٩٣ وطبقات الأمم لصاعد ص ١١٧ والمغرب ٣٥٤/١ ومعجم الأدباء ٢٣٥/١٢ والقفطى فى تاريخ الحكماء ص ٢٣٢ وابن خلكان ٣٢٥/٣ والذهبى فى تذكرة الحفاظ ٣٤١/٣ وعبر الذهبى ٢٣٩/٣ وابن شاکر فى الفوات ٢٧١/٢ والشذرات ٢٩٩/٣. وكتبت عن ابن حزم دراسات كثيرة، وراجع فيه تاريخ الفكر الأندلسى لبالنشیا ص ١٤، ٧٤ - ٧٧، ٢١٣ - ٢٣٩، ٤٢٦ وكتابات د. إحسان عباس فى تاريخ الأدب الأندلسى: عصر سيادة قرطبة ص ٢٤٥ - ٢٦٤

وكانت أسرة ابن حزم تعيش في قرية تملكها تسمى مُنت ليشم من قرى مدينة لُبلة على بعد خمسين كيلو متراً غربى إشبيلية، وبها وُلد أبوه أحمد، ورحل منها مبكراً إلى قرطبة، ليحرز لنفسه ما استطاع من الثقافة، وسرعان ما لَمَعَ بين أقرانه بقدرته الأدبية وبلاغته ومعرفته بالتاريخ. وتعرّف عليه ابن أبى عامر حاجب الخليفة المؤيد أثناء الطلب والتلمذة، وكان يعجب به، فاتخذهُ وزيراً له سنة ٣٨١ مما جعله يسكن في الجانب الشرقى من قرطبة بناحية الزاهرة مدينة أبى عامر ومجمع قصوره. وأقصاه فترة عن وزارته للنظر في كُور غربى الأندلس، ثم أعاده إلى الوزارة. وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه حين مغيبه عن قرطبة، ووزر من بعده لابنه عبد الملك المظفر. ورزقه الله بابنه على سنة ٣٨٤ ووكّل تربيته في صباه إلى جوارى قصره وكُنَّ على حظ كبير من الثقافة الأدبية - شأن أمثالهن من الجوارى في قرطبة ومدن الأندلس - وفي ذلك يقول ابن حزم في كتابه «الطوق»: «لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى، لأنى رُبيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حَدِّ الشباب وحين أبقل وجهى (نبت الشعر فيه) وهنَّ علُمْنى القرآن وروينى كثيراً من الأشعار ودربننى في الخط». وجعلته هذه النشأة يستشعر مبكراً عاطفة الحب لمن كن في سنه من الجوارى، ويقول في الطوق إنه أحب حينئذ جارية شقراء فها استحسّن بعدها سوداء الشعر أبداً. وظل يختلط بهؤلاء الجوارى ويعيش معهن كما يقول إلى حد الشباب وحتى أصبح يافعا في سن الثانية عشرة أو بعدها بقليل إذ يذكر أن أباه اصطحبه إلى مجلس الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٦. ولم يلبث أن أخذ يتلمذ للشيوخ وفي مقدمتهم ابن الجسور المتوفى سنة ٤٠٠ وعنه أخذ الحديث النبوى وتاريخ الطبرى وكان لا يزال في سن مبكرة. وكثيراً ما كان يرافق أباه في مجلس وزارته ويستمع إلى مادحيه من الشعراء ويحفظ بعض أشعارهم، وكان أبوه لا يزال يسكن الجانب الشرقى من قرطبة، حتى إذا بدأت الفتنة الكبرى سنة ٣٩٩ رأى أن يتحول عن دوره المحدث في هذا الجانب إلى دورهم القديمة في الجانب الغربى من قرطبة، وكان الخليفة المؤيد هشام قد عُزل وأعيد سريعاً، فاتهمه بمساعدته للنائرين ضده واعتقل وأُغرم إغراماً مالياً فادحاً، وتوفى سنة ٤٠٢.

وظل الفتى على في هذه الأثناء يتابع دروسه على الشيوخ وقراءاته. ويتزوج من جارية له كَلَفَ بها تسمى نَعْمًا كانت غاية في الحسن خُلُقاً وخُلُقاً، ولم يلبث القدر أن فجعه فيها وهو دون العشرين فالتاع لوعة شديدة، حتى ليقول إنه أقام بعدها سبعة أشهر لا يتجرد

عن ثيابه حزنا عليها ولا تفتر له دعة، ويقول إنه لم يطب له عيش بعدها. وكانت أحواله المادية قد تبادت في السوء بعد وفاة أبيه ففارق قرطبة سنة ٤٠٤ إلى المرية عند حاكمها خيران أحد فتيان المنصور بن أبي عامر، ووُشى به إليه فاعتقله أشهراً ثم ردَّ إليه حريته فبارح المرية إلى حصن القصر وظل به أشهراً وغادره إلى بلنسية وأميرها مبارك والمظفر من فتيان العامريين، إذ سمع أنها يشايعان أموياً بايعاه بالخلافة وتلقب بالمرتضى، فأسرع إليهما، ولم يلبث أن زحف معها بالمرتضى إلى غرناطة للاستيلاء عليها سنة ٤٠٩ والانقضاض منها على قرطبة التي كانت قد أصبحت في قبضة القاسم بن حمود. ولم يتحقق الحلم، فقد هُزم المظفر ومبارك وقتل المرتضى. وعاد ابن حزم إلى قرطبة، ورأى دورهم وأكثر دور الأمويين والعامريين أصبحت أطلالا دائرة فبكأها طويلاً، وتفرغ لالتهام العلوم من لغوية ودينية وفلسفية. وفي سنة ٤١٤ تولى زمام الخلافة صديقه المستظهر الأموي فاتخذهُ وزيراً له مع خذنه ابن شهيد، وسرعان ما يقتل المستظهر بعد نحو شهر ونصف من خلافته، ويُعتقل الخليفة الجديد المستكفي ابن حزم فترة، وتردَّ إليه سريعاً حريته.

وعرف ابن حزم أنه لم يخلق للسياسة، ففارقها إلى غير مآب، وانقضَّ على المعارف من كل لون انقضاض الوحش على فريسته، بحيث أصبح أكبر عقل مفكر أهداه عصر أمراء الطوائف إلى الإسلام والعروبة، وفيه يقول ابن حيان: «كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة» ويقول ابن بشكوال في كتابه الصلة: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار» ويقول ابنه الفضل: إن مجموع مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والتاريخ والنحل والملل والنسب والأدب والرد على معارضيه نحو أربعمائة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة. وبدأ حياته مالِكياً ثم انتقل إلى مذهب الشافعي فترة ثم تركه في أوائل الثلاثينيات من عمره إلى مذهب داود الظاهري، وتنقل في مدن الأندلس يناضل عنه ويكتب فيه بحيث أصبح إمامه الحقيقي، كما كان يناضل عن الإسلام أرباب الملل من اليهود والنصارى. وتتعدد مؤلفاته تعدداً واسعاً، منها في الفقه كتاب الإبطال في مناقشة الأصول الخمسة عند الشافعية والحنفية وهي القياس والرأي والتعليل والاستحسان والتقليد محاولاً نصرة مذهبه الظاهري، وكتاب الإيصال في فقه الحديث وفيه يورد أقوال الصحابة والتابعين في مسائل الفقه مع بيان الحجة لكل رأى،

وكتاب المحلّى فى المذهب الشافعى، وكتاب مراتب الإجماع، وكتاب حجة الوداع. ومنها فى التاريخ جوامع السيرة النبوية وكتاب جبهة الأنساب ورسالة نقط العروس ورسالة فضل الأندلس وهى تسجل ما لعلمائها وأدبائها من مصنفات وأعمال. ومنها فى المنطق كتاب التقريب لحدوده. ومنها فى تاريخ الأديان كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وهو به يعد واضح علم المقارنة بين الأديان الذى لم يعرفه الغرب إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، وفيه يبين بأدلة دامغة كيف حُرِّفت الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى مبطلا لآرائهم العقيدية، ويعرض فى تفصيل لأركان العقيدة الدينية القوية (عقيدة الإسلام) من التوحيد والإيمان والوعد والوعيد والقدر والإمامة، مما انتفع به فيما بعد توماس الإكوينى فى كتابه خلاصة علوم الدين. ومن كتبه النفيسة فى الأصول كتابه الإحكام فى أصول الأحكام» ومرّ بنا فى الفصل الثانى أنه أشار فى مقدمته إلى القرابة اللغوية بين العربية والسريانية والعبرية وأن العربية الشامية العدنانية لغة مضر وربيعة تخالف العربية الجنوبية لغة حمير اليمنية. وبذلك يعد - كما أسلفنا - واضح الأساس لعلم فقه اللغة المقارن فى العربية كما وضع علم الأديان المقارن قبل أن تعرفها أوروبا بقرون. ومن المؤكد أن كتبه كانت فى مقدمة الكتب التى عنيت مدرسة طليطلة منذ القرن الثالث عشر الميلادى بترجمتها إلى اللاتينية. وله رسائل كثيرة نشر منها الدكتور إحسان عباس طائفة، ومن أهم رسائله رسالته فى الأخلاق والسير ومداواة النفوس، وقد حققها الدكتور الطاهر مكى ونشرها بدار المعارف، وبها مبادئ تتصل بسيرته وسيرة الناس فى عصره، وفيها يصور الفضائل والرذائل الخلقية مضيئا إليها بعض اعترافات فى تواضع وإخلاص، ويبدو أنها مما ترجم من آثاره إلى اللاتينية، إذ نجد على مثالها أو قريبا منها مقالات فى الأخلاق لبيكون المعروف بصلته بترجمات طليطلة. وظل ابن حزم يطوف بदन الأندلس ناشرا علمه ومذهبه الظاهرى فى الفقه، وله مناظرة مشهورة مع الفقيه المالكى أبى الوليد الباحى فى جزيرة ميورقة سنة ٤٥٢. وكان إتهام المالكية لايزالون ينفرون من كتبه، مما جعل المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يأمر بحرق طائفة منها لقصر نظره. ورأى بأخرة العودة إلى قرية آبائه مت ليشم، ويبدو أنه كان يعود إليها قبل ذلك كثيرا وبها توفى سنة ٤٥٦.

وكتابه طوق الحمامة فى الألفة والألاف ألفه فى سكناه بشاطبة سنة ٤١٨ أو ٤١٩ وموضوعه دراسة الحب العذرى ويستهل حديثه فيه بأن الحب ظاهرة إنسانية لم يسلم منها حاكم ولا محكوم، ويعرفه بأنه اتصال بين أجزاء النفوس فى الطبيعة الإنسانية فى أصل

عنصرها الرفيع ويريد به عالم النفوس العلوى قبل حلول النفوس في الأجساد في عالم الأرض السفلى. ويحدث هذا الاتصال حين يكون بين النفوس ائتلاف ومشاكله فيكون الحب، أما إذا كان بينها انفصال وتباين فيكون البغض. والحب بذلك إنما يكون بين النفوس لا بين الأجسام. ويوزع ابن حزم كتابه على ثلاثين بابا، منها عشرة في أصول الحب وعلاماته وصوره كمن أحب في النوم أو بالوصف أو من نظرة واحدة أو مع المطاولة أو مع التعريض بالقول أو مع الإشارة بالعين أو بالمراسلة أو بالسفير والرسول. ومنها اثنا عشر بابا في أعراض الحب المحمود والمذموم، وهى أبواب الصديق المساعد والوصل وطى السر والكشف أو الإذاعة والطاعة والمخالفة وحب صفة في المحبوبة والقناعة والوفاء والغدر والضنا والموت. ومنها ستة أبواب في آفات الحب، وهى أبواب العاذل والرقيب والواشى والهجر والبين والسلو، ثم بابان في قبج المعصية وفضل التعفف. وجميع هذه الأبواب تُعرض لا في كلام نظرى بل من خلال الواقع والتجربة والمشاهدة أو بعبارة أدق من خلال اعترافات صريحة منتهى الصراحة لابن حزم ومعاصريه عن الحب دون أى مواربة أو خجل يحجبان الحقيقة، فالحقيقة دائما مكشوفة كالشمس. وفي تضاعيف ذلك ما لا يكاد يحصى من حقائق النفس في الحب وترهاتها، مع أشعار لابن حزم تصور تلك الحقائق. وكأنه كان يريد بالكتاب تربية الفتاة والفتى بالأندلس موطنه ليكون حبهما حبا نقياً بريئا من كل دنس. ومن اعترافاته عن نفسه في الحب قوله في باب السلو:

«وإني لأخبرك عنى أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة جارية نشأت فى دارنا، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غاية فى حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخُفرتها ودمايتها، عديمة الهزل، منبعة البذل، فقيدة الذام^(١)، قليلة الكلام، غضيضة البصر، شديدة الحذر، نقيّة من العيوب، دائمة القُطوب^(٢)، حُلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض.. لا تقف المطامع عليها، ولا معرّس^(٣) للأمل لديها.. على أنها كانت تُحسنُ العود إحسانا جيدا، فجنحتُ إليها، وأحببتها حبا مفرطا شديدا، فسعيتُ عامين أو نحوهما - أن تجيبنى بكلمة، وأسمع من فمها لفظة، غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعى، فما وصلتُ إلى شىء من ذلك البتة فلمعهدي بِمُصْطَنَع^(٤) كان فى دارنا.. تجمعتُ فيه دَخَلْتَنَا^(٥) ودَخَلَتْ أُخَى: من النساء ونساء فتياننا ومن لاث^(٦) بنا من خدمنا ممن يخف موضعهُ ويلطفُ محلّه، فلبثتُ صدرا من

(١) الذام: العيب. (٢) القطوب: العيوب. (٣) معرّس: مكان. (٤) مصطنع: وليمة. (٥) الدخلة: من يكثر دخولهم على قوم منهم أو ليسوا منهم. (٦) لاث: اختلط.

النهار ثم تنقلن إلى قَصْبَةٍ^(١) كانت في دارنا مُشْرِفة على بستان الدار، ويُطَّلَع منها على قرطبة وفحوصها^(٢) مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب^(٣) وأنا بينهن. وإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه، أنسا بقربها، متعزضا للدنو منها، فما هى إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره مع لُطْف الحركة. فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال^(٤) إلى غيره. وكانت قد علمت كَلْفى بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وكن ينتقلن من باب إلى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطَّلَع من غيرها عليها. واعلم أن قيافة^(٥) النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج^(٦) فى الآثار. ثم نزلن إلى البستان، فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيداتها فى سماع غنائها، فأمرتها، فأخذت العود، وسوته بخفر وخجل لا عهد لى بمثله، وإن الشئ ليتضاعف حسنه فى عين مُستحسنه، ثم اندفعت تغنى بأبيات للعباس بن الأحنف.. ولعمري لكان المضراب كان يقع على قلبى، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا».

ويمضى ابن حزم فيذكر أن خطوبَ الفتنة الكبرى بقرطبة فرقت بينه وبين هذه الجارية إلى أن رآها بعد بضع سنوات فى جنازة لبعض أهله باكية نادية، فاثارت فيه وجدا دفينا وحركت ساكنا وذكَّرتَه عهدا قديما وحبا تليدا ودهرا ماضيا وجددت أحزانه، وما كان نسي، وزاد الشجا وتوقدت اللوعة. واضطُرَّ إلى فراق قرطبة سنة ٤٠٤ فغابت عن بصره نحو خمسة أعوام، وعاد فنزل على بعض أهله فرآها وما كاد يميزها فقد غاض الحسن وذهبت نضارتها لفقدائها الصيانة التى كانت لها فى قَصْرِ أبيه وأيام عزه، ويقول إنه مع ذلك لو أنالته أقلَّ وصل وأنست له بعض الأُنس لجنَّ طربا أو لمات فرحا، غير أن هذا النفار منها هو الذى أتاح له الصبر والسُّلوى مع ما ظل يطوى فى نفسه من عذاب حبه وآلامه.

وبمثل هذا التصوير الواقعى القصصى الصريح المرسل فى غير تكلف لسجع أو غير سجع يتحدث ابن حزم عن الحب العذرى العفيف وتجاربه فيه وتجارب معاصريه وما له

(٤) الزوال: التحول.

(١) قصبه: غرفة أو غرف مشرفة فى الدار.

(٥) القيافة: المعرفة القائمة على التتبع.

(٢) فحوص قرطبة: ضواحيها.

(٦) مدلج فى الآثار هنا: متعمق فى تتبع الآثار.

(٣) شراجيب: قوائم.

من سلطان على النفوس وما يثير فيها من آلام وشكوك، وما له من ضحايا، وما يحدث فيه من العتاب والخصام والصلح والتواعد على اللقاء ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان إلى غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى في شبابه. وفي حديثه عن السعادة بالوصل يقول إنه «الحياة المجددة» ويقول الدكتور الطاهر مكى في هامش تحقيقه للكتاب إن هذه العبارة لفتت عامة المستشرقين لأنها تتطابق مع نفس العنوان الذى اختاره دانتي الإيطالى (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) لكتابه La Vita Nova الرائع، وهو على غرار طوق الحمامة، طاقة طريفة من أقاصيص الحب ومقطعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى مما يؤكد معرفته بالطوق. ولا يشك آسين بلاسيوس - كما ذكر بالنشيا - فى معرفة دانتي بالتراث الأدبى الأندلسى، ويشير الدكتور الطاهر مكى أيضا فى هامش الكتاب إلى تأثير بعض موضوعاته فى الروايات الإسبانية. ويذكر ابن حزم قصة فى باب «القنوع من المحبوب بأى شئ» عن امرأة فى صقلية شاهدت شابا فى غاية الجمال بأحد المتنزهات، فسارت خلفه تنتظر إليه، فلما بعد أنت إلى المكان الذى أثر فيه مشيه وجعلت تقبل الأرض فى مواقع قدميه، ويقول بالنشيا إن شاعرهم الإسبانى المبدع «ماثياس» حاكى هذه القصة بنفس الصنيع. ويبدو أنه كان لطوق الحمامة ترجمة لاتينية مبكرة وأخرى إلى الإسبانية.

كتابة التاريخ والتراجم الأدبية

(أ) المقتبس لابن حيان

هو أبو مروان^(١) حيان بن خلف بن حيان، وقد وزر خلف للمنصور بن أبى عامر (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) وبعد وفاته وزر لابنه المظفر عبد الملك (٣٩٢ - ٣٩٩ هـ) وظل بقرطبة طوال اندلاع فتنتها (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ). وتوفى سنة ٤٢٧ هـ. ورُزق بابنه حيان سنة ٣٧٧ وعنى بتربيته، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه الصلة من شيوخه ثلاثة هم الفقيه المحدث عمر بن نابل واللغوى النحوى ابن أبى الحباب والعالم اللغوى المشهور صاعد البغدادى وجميعهم توفوا بين سنتى ٤٠٠ و ٤٠٣ للهجرة، مما يدل على أن ابن حيان اكتملت له ثقافته وهو فى نحو العشرين، وكان منهما بقراءة الكتب فعكف عليها يستوعبها وخاصة

وابنه محمد (طبع بيروت) وتاريخ الفكر الأندلسى
لإلانيا ص ٢٠٨ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين فى
الأندلس للدكتور حسين مؤنس (طبع مدريد)
ص ١٠١.

(١) انظر فى ابن حيان وترجمته الذخيرة ٥٧٣/١
والجذوة: ١٨٨ والبغية رقم ٦٧٩ والصلة رقم ٣٤٢
وراجع دراسة د. محمود مكى فى مقدمة نشره لقطعة
المقتبس الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم الرضى

كتب التاريخ. وظل بعد وفاة أبيه لا يبرح قرطبة حتى وفاته سنة ٤٦٩ وليس بين أيدينا ما يدل على أنه عمل في دواوين الدولة حتى نهاية عهد أبي الحزم جهور سنة ٤٣٥. ويبدو أنه كان له ولأبيه من قبله ما كفل لهما الحياة الكريمة، ونرى أبا الوليد حين يخلف أباه جهورا يلحقه بدواوينه ويفرض له راتباً واسعاً. وذكر مترجموه أنه لقب بلقب صاحب الشرطة، واستظهر الدكتور محمود مكى أن يكون هذا اللقب أسبق عليه رسمياً فقط دون أن يتولى القيام على الشرطة بقرطبة. وحين قسم أبو الوليد بن جهور الحكم في إمارته قرطبة بين ولديه عبد الملك وعبد الرحمن، وجعل لعبد الملك أمر قرطبة نفسها، وكان سىء التدبير حاصره المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، مما جعله يستنجد بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وانتهز المعتمد الفرصة فاستولى على تلك الإمارة سنة ٤٦٣ ونفى منها أبا الوليد وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن كما مر بنا في غير هذا الموضع، ونرى ابن حيان يهنئه بهذا الفتح، كما نراه يوثق علاقته بأبي بكر بن زيدون وزير المعتمد، وفي الذخيرة رسالة له يشكره فيها على ما أرسله إليه من القمح والزيت والدهن، وظلت العلاقة وثيقة بينها إلى وفاة ابن حيان. ويذكر له الدكتور محمود مكى ثلاثة كتب تاريخية بجانب المقتبس هي:

- ١ - أخبار الدولة العامية: دولة المنصور وابنيه المظفر عبد الملك والناصر.
- ٢ - كتاب المتين ويبتدئ بتاريخ الفتنة سنة ٣٩٩ إلى نحو سنة ٤٦٣.
- ٣ - وكتاب البطشة الكبرى وهو في خلع المعتمد بن عباد لأبي الوليد بن جهور عن قرطبة ونفيه مع ولديه عبد الملك وعبد الرحمن إلى جزيرة شلطيّش في الجنوب الغربي للأندلس.

ونظن ظناً أن أخبار الدولة العامية لم تكن كتاباً مستقلاً عن كتاب المتين، بل كانت أجزاءه الأولى، وبالمثل كتاب البطشة الكبرى كان جزءاً في كتاب المتين، إذ يقال إنه كان في ستين مجلدة. وكأن ابن حيان إنما كان له في رأينا كتابان في تاريخ الأندلس كتاب المقتبس وكتاب المتين، وقد سقط كتاب المتين من يد الزمن بسبب ضخامة حجمه، وفي كتاب الذخيرة والجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى والمغرب لابن سعيد وكتب ابن الأبار نقول منه كثيرة. وبقيت من المقتبس خمس قطع أو قل خمسة أجزاء: جزء يضم إمارة الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦هـ) وشطراً من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وقد تملكه المستشرق بروفنسال ورجع إليه مراراً في كتابه «تاريخ

إسبانيا الإسلامية» ومصير هذا الجزء بعد موت بروغنسال غير معروف. وجزء ثان يضم بقية إمارة عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٤ هـ) نشره الدكتور محمود مكى بيروت. وجزء ثالث يضم إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) نشره الراهب ملتشور أنطونيا بباريس، ويعيد نشره الآن الدكتور مكى. وجزء رابع نُشر بمدير يد باسم الجزء الخامس نشره شالميتا مستعينا بكورينطى وصيح، ويضم الشطر الأكبر من خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). ثم جزء فى أحداث خمس سنوات من خلافة المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) نشره بيروت الدكتور عبد الرحمن الحجى. ويتميز ابن حيان فى المقتبس بأنه يضم فى تاريخ كل حاكم أموى إلى الأحداث المرتبة على السنوات معلومات مهمة عن شخصية الحاكم والأحوال الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية فى عهده مع تراجم مفصلة للوزراء فى أيامه وللقواد والقضاة والعلماء والكتاب والشعراء. وبذلك يجمع المقتبس تاريخ الأندلس الثقافى والاجتماعى والعمرانى والاقتصادى إلى تاريخها السياسى. ونذكر قطعة من حديث ابن حيان فى الجزء الخاص بالناصر عن غزوته لمدينة بنبلونة قاعدة مملكة نبالرة فى بلاد البشكنس.

«فى سنة اثنى عشرة وثلاثمائة غزا الخليفة الناصر لدين الله إلى دار الحرب - دمرها الله - غزوته المعروفة ببَنْبُلُونَة: بلد أعداء الله الكفرة البشكنس، وسلك فى سفره هذا طريق الشرق، وتمنع من النزول إليه والغزو معه محمد بن عبد الرحمن، وكان بمدينة العسكر من أحوال^(١) بَلَنْسِيَة، فنازل حصونه ووطئ بساطه وأوقع به.. ودخل بجموعه بلاد المشركين ببَنْبُلُونَة بأنفذ عزم وأؤكد حزم وأقوى نية فى الانتقام لله تعالى ولدينه من الأرجاس^(٢) الكفرة واحتل من أول بلدهم حصن قلهرّة، وكان العليج شأنجه^(٣) أميرهم - لعنه الله - قد أخلاه فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه. ثم انتقل منه إلى موضع يُعرف بقنطرة البّة وكانت حوله حصون منيعة قد أخلاها الكفرة، وخلفوا فى بسائطها^(٤) جميع أمتعتهم وأطعمتهم، إذ أعجلوا عن انتقالها ولجأ علوج منهم بأهليهم وأولادهم إلى ثلاثة غيران^(٥) فى شفير جُرف^(٦) على النهر، فلم يزل المسلمون

(١) أحوال: نواحي.

(٢) الأرجاس جمع رجس: القذر.

(٣) العليج: الكافر الفظ، وشأنجه: حاكم

البشكنس (٢٩٣-٣١٤ هـ).

(٤) بسائطها: أراضيها المبسوطة.

(٥) غيران جمع غار: المنخفض من الأرض.

(٦) شفير: جانب. جرف: شق الوادى.

يَتَوَقَّلُونَ^(١) إِلَيْهِمْ فِيهَا، وَيَتَسَوَّرُونَ^(٢) عَلَيْهِمْ مِنْ أَعَالِيهَا، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ تِلْكَ الْغِيرَانَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلُوا الْعُلُوجَ وَسَبَّوْا الذَّرَارَى وَغَنَمُوا الْأَمْتَةَ، وَهَدِمَتْ حِصُونِ الْكُفْرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي تِلْكَ الْجَهَةِ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا صَخْرَةٌ قَائِمَةٌ. ثُمَّ تَنَقَّلَ النَّاصِرُ لَدَيْنَ اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْمَحِلَّةِ^(٣) بَعْدَ أَنْ أَقَامَ فِيهَا يَوْمًا إِلَى حِصْنٍ فَالْجُشَّ فَاضْرَمَتْ نَارًا أَرْبَابُضَهُ^(٤) وَاسْتَقْصِيَتْ زُرُوعُهُ وَنَعِمَهُ بِالنَّسْفِ وَالِاسْتِثْصَالِ.. ثُمَّ اسْتَعَزَّمَ عَلَى الْإِيغَالِ فِي بِلَدِ الْكُفْرَةِ وَالِاقْتِحَامِ لِسُرَّوَاتِهِ^(٥) وَالتَّوَصَّلَ إِلَى مَوْضِعٍ قَرَارِهِمْ وَمَجْتَمَعِ كُفَارِهِمْ وَنِكَايَتِهِمْ فِي عُقْرِ^(٦) دَارِهِمْ وَمَكَانٍ أَمْنِهِمْ.. وَأَمَرَ بِتَبْعِيَّةِ الْكُتَّابِ وَتَرْتِيبِ الْمَقَانِبِ^(٧) وَشَكَّ^(٨) الْعَسْكَرَ.. وَارْتَحَلَ النَّاصِرُ لَدَيْنَ اللَّهِ بَيْنَ أَجْبَلٍ^(٩) شَامَخَةٍ، وَشَوَاهِقٍ مَنْقُطَةٍ، وَالْجِيُوشِ لَا تَمُرُّ بِمَوْضِعٍ إِلَّا اضْطَلَمَتْهُ^(١٠) وَنَسَفَتْ زُرُوعَهُ، وَأَفْسَدَتْ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ أَكَلُهُ وَهَدِمَتْ قُرَاهُ وَحُصُونَهُ، إِلَى أَنْ بَلَغَ مَدِينَةً بَبْلُونَةَ الَّتِي إِلَيْهَا يُنْسَبُ الْإِقْلِيمُ، فَأَصَابَهَا خَالِيَةٌ مُقْفِرَةٌ، فَدَخَلَهَا النَّاصِرُ لَدَيْنَ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَجَالَ فِي سَاحَاتِهَا وَأَمَرَ بِهَدْمِ جَمِيعِ مَبَانِيهَا وَتَخْرِيبِ كَنِيسَةِ الْكُفْرَةِ الْمَعْظُمَةِ وَمَوْضِعِ بَيْعَتِهِمْ^(١١) وَمَكَانِ مَنْسُكِهِمْ فَجُمِعَتْ الْأَيْدِي عَلَيْهَا، حَتَّى جُعِلَتْ قَاعًا صَفْصَفًا.^(١٢) وَتَقَتْلُ النَّاصِرُ لَدَيْنَ اللَّهِ، وَكَانَ فِي مَرِّهِ فَجٌّ^(١٣) ضَيْقُ الْمَسَالِكِ وَعَرٌّ الْمَجَازِ.. وَتَظَاهَرَ^(١٤) أَعْدَاءُ اللَّهِ لِأَهْلِ السَّاقَةِ^(١٥) مُتَسَنِّمِينَ^(١٦) فِي جَبَلٍ شَاهِقٍ، مَلْتَمِسِينَ الْفُرْصَةَ، فَنَهَضَتْ الْخَيْلُ إِلَيْهِمْ سَرِيعًا، فَكَشَفْتَهُمْ وَهَزَمْتَهُمْ، وَقَتَلَتْ طَائِفَةً مِنْهُمْ، فَانْقَشَعُوا^(١٧) مُذْبِرِينَ لَاثْنَيْنِ لَا يُلُوءُونَ وَلَا يَعْرِجُونَ، وَتَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ بِعِزَّةِ الْقَهْرِ وَسُورَةِ^(١٨) النَّصْرِ».

وهذا الأسلوب الأدبي الخافق بالحَيوية البارِع في تصوير المواقع الحربية يمضى ابن حيان في المقتبس وغيره من كتبه التاريخية، وكأنه يستمد من معين لغوي وأدبي لا ينضب،

-
- | | |
|---|---------------------------------|
| (١) يتوَقَّلون إليهم: يأتونهم من الأعلى. | (١٠) اصطلمته: استأصلته. |
| (٢) يتسَوَّرون: يتسلقون. | (١١) بيعتهم بكسر الباء: معبدهم. |
| (٣) المحلة: الموضع. | (١٢) صفصفا: لا نبات فيه. |
| (٤) الأرباض جمع ربض: ما حول الحصن أو المدينة. | (١٣) فج: طريق. |
| (٥) سروات البلاد: أوساطها وأعاليها. | (١٤) تظاهر: تجع. |
| (٦) عقر دارهم: وسطها. | (١٥) الساقة: مؤخرة الجيش. |
| (٧) المقانب جمع مقنب: جماعة الفرسان. | (١٦) متسنمين: محتلين ومختفين. |
| (٨) شك العسكر: حمله للسلح. | (١٧) انقشعوا: انسحبوا وتفرقوا. |
| (٩) أجبل: جمع جبل. | (١٨) سورة هنا: مجد. |

معين يرفده بكل ما يريد من كلم ومن صور دالة بحيث يستوى له نسق أسلوب محكم بألفاظه التي يرصفها في يُسر متلاحقة بجزالتها وورصاتها ونصاعتها وأى نِصاعة؟ لكأنما كانت الألفاظ محتبئة في أكامها اللغوية الأدبية، حتى جاء ابن حيّان، فتفتحت له أكامها وانقادت إليه مهيتة له هذه الرُوعة في اختيارها ونسج تعبيراتها مع الرونق الذي يلذ العقل والشعور، وهو رونق لا يستعين عليه بشيء من تزاويق المحسنات البديعية التي أخذ يصطنعها بعض كتّاب عصره، ولا شيء من السجع إلا ما جاء عفوا، مثله في ذلك مثل ابن شهيد وابن حزم ولا إفراط في السرد التاريخي ولا تفريط، بل سرد مقتصد يؤدي المعاني بدقة، مع إحكام التصوير النفسي والاجتماعي لمن يترجم لهم من الأمراء والوزراء والقضاة وأصحاب المناصب الرفيعة والنساء والجواري. ودائما يذكر بجانب محاسن الشخصية ومناقبها ما قد سُجِّلَ عليها من معاييب ومساوئ. وكثيرا ما يسوق قصصا ممتعة تتمم ملامح الشخصية أو تخفف عن القارئ جفاف التاريخ على نحو ما يلقانا في الصفحات الأولى من الجزء الخاص بالناصر وحديثه في مطلعته عن حَظِيَّتِهِ مرجان أم ولى عهده المستنصر وكيف سَلَبَتْهُ من ابنة عمه الحرّة وأوقعتها في شباك سُخْطِهِ بدهائها ومكرها حتى منتهى حياتها. وهي قصة طريفة بما تصور من مكر النساء وكَيْدِهِنَّ وما يتخذن لذلك من بعض الحيل الخادعة. وفي الحق أن كتابات ابن حيّان في المقتبس وغيره طرازٌ من الكتابة التاريخية الأدبية لا مثيل له قبله ولا بعده.

(ب) الذخيرة لابن بسام

هو أبو الحسن علي^(١) بن بسام التغلبي الشنتريني من شَنَتَرَيْن في أقصى الغرب على نهر تاجه بالقرب من مصبه في المحيط الأطلسي عند أشبونة، وُلِدَ بها قبيل سنة ٤٦٠ لأسرة على شيء من اليسار، وعُني بتربيته أبوه، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، ونراه في صحبة مَنْ ببلدته من الأدباء وَمَنْ يحيطون بالمتوكل أمير بطليوس عاصمة إقليمه

وفي أثناء تحريره لها ٤٥٢/٢ و ٧٨٧/٣ و ٧/٤ وانظر إحكام صنعة الكلام للكلاعي (تحقيق رضوان الداية) ص ١٣٣ إذ يذكر إرسال ابن خفاجة له طائفة كبيرة من شعره ونثره. وقد حقق الدكتور إحسان عباس الذخيرة ونشرها نشرة علمية محققة في ثمانية أجزاء.

(١) انظر في ابن بسام وترجمته رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٤٥ وكتابه المغرب ٤١٧/١ ومعجم الأدباء ٢٧٥/١٢ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٠٨/٦ ومقدمته لكتابه الذخيرة وراجع في محاورته مع ابن عيودون ١٤٤/١ وفي لقائه لابن الدودين ٧٠٣/٣ وفي عمله بدواوين إشبيلية ٢٠/٤ وفي ابتداء تأليفه للذخيرة ٦٥٤/٣

والوافدين عليه الملمين به مثل الشاعر ابن عبدون، وله معهم مطارحات. وينزل أشبونه سنة ٤٧٧ ويلتقى بأديبها ابن الدودين ويكتب عنه طائفة من نظمه ونثره، مما يدل على أنه أخذ يشغف بالتعرف على أدياء موطنه منذ شبابه وتدوين بعض أشعارهم ورسائلهم. وأكثر نصارى الشمال من الإغارة على بلدته، مما جعله يهاجر منها - كما ذكر في مقدمته للذخيرة - مروّع السُّرب، بعد أن استنفد الطريف والتلاد، مما اضطره إلى التقلب في البلاد. ولم يتجه إلى عاصمة إقليمه بطليوس، وإنما اتجه إلى إشبيلية عاصمة بني عباد، وبها كان أكبر حشد حافل بالأندلس حينئذ من الكتاب والشعراء، ويقول ابن سعيد في كتابه الرايات إنه اتخذها موطناً له، ويذكر ابن بسام إنه خدم في بعض أعماها السلطانية، ولعله بدأ ذلك بأخرة من عهد المعتمد بن عباد. ولم يلبث أن أظله فيها عهد المرابطين وأميرها ابن أخى يوسف بن تاشفين الذى مهد له سلطانه على الأندلس: سير بن أبى بكر، وقد ظل يلى إشبيلية - فيما يقال - سبعة وعشرين عاما. ويشيد ابن بسام في مقدمته للذخيرة بعهده وبما أسبغ عليه وعلى الأدياء من العطاء الوفر، ولم يسمه، ولكن من الواضح أن هذا الثناء المستطاب على من خلف في حكم إشبيلية والبلاد إنما يريد به سير بن أبى بكر. ويقول إنه قدّم إلى حضرته الذخيرة مطرّزا لها باسمه حتى تجوب به الآفاق. ويبدو أنه كان يترك إشبيلية فترات، ثم يعود إليها من حين إلى حين كما يبدو أنه استعفى من الأعمال السلطانية منذ أخذ يجمع عزمه على تحرير الذخيرة مكتفيا بما كان يغدقه عليه الكتاب والشعراء ممن يريدون أن يحظوا بشرف ذكرهم فيها وما وفره من بيع نسخها أو إهدائها لهواة الأدب ومحبيه، ولا شك في أن سير بن أبى بكر أعطاه في نسخته مبلغا ضخما من المال، أكبر الظن أنه كفل له عيشة طيبة إلى أن توفى سنة ٥٤٢ للهجرة.

وكتاب الذخيرة حققه الدكتور إحسان عباس في ثمانية مجلدات، وقد ترجم فيه ابن بسام لشعراء عصر أمراء الطوائف وأوائل عصر المرابطين وكتبها ترجمات ضافية، وشفع ذلك بأخبار سياسية واجتماعية عن الأمراء والحكام وأهل الأندلس ومعاركهم مع نصارى الشمال. وقسم الكتاب أربعة أقسام: قسم لقرطبة وما يصاحبها من مَوْسطة الأندلس، وقسم لإشبيلية وأهل الجانب الغربى حتى ساحل البحر المحيط، وقسم لأهل الجانب الشرقى من دانية وبلنسية إلى الثغر الأعلى، ثم قسم رابع خاص بالوافدين على جزيرة الأندلس من المشرق والبلاد المغربية. وهو حين يعرض كاتباً أو شاعراً أو أميراً أو وزيراً لا يكتفى بكلمات مجملة أو مقتطفات شعرية ونثرية قليلة بل يعتمد إلى التفصيل وذكر الدقائق مستعينا بمؤرخ عصر الطوائف ابن حيان في كتابه المتين وبقدرة تحليلية

وبيانية على حشد كل ما يجلو ملامح من يتحدث عنهم من الأدباء ورجال السياسة والحكم، وهو بذلك يختلف اختلافاً بينا عن الثعالبي في يتيمة والعماد الأصبهاني في خريدته، إذ لا يرصف حشوداً من الثناء والإطراء لا تكشف شخصية من يكتب عنه كما يصنعان، بل يجلو شخصيته جلاء تاماً، على الرغم من أنه يعتمد في كتابه على السجع مثلها، غير أنه سجع لا يستر حقائق الشخصية، بل يعرضها في ضياء غامر، ولنضرب لذلك مثلاً، هو ترجمته للشاعر أبي عبد الله بن الحداد الذي مرت ترجمته بين شعراء المديح وهو يفتتحها على هذه الشاكلة^(١):

«كان أبو عبد الله هذا شمسَ ظهيرةٍ، وبحرَ خَيْرٍ وسيرةٍ، وديوانَ تعاليمٍ مشهورةٍ، وضَح في طريق المعارف وضوح الصُّبح المتهلَّل، وضُرِبَ فيها بِقَدْح ابن مُقْبِل^(٢) إلى جلالَةِ مَقْطَعٍ، وأصالةٍ مُنْزَعٍ، ترى العلمَ يَنُمُّ على أشعاره، ويتبيَّن في منازعه وآثاره، وله في العَروض تأليف، وتصنيف مشهور معروف، مَزَج فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الخَليلية، وردَّ فيه على السَّرْقُسطِيّ المنبوز بالحمار^(٣)، ونقض كلامه فيما تكلم عليه من الأَشطار. وأصل أبي عبد الله من وادي آش إلا أنه استوطن المَريَّة أكثرَ عمره، وفي بني صُمادح معظمُ شعره، ومع ذلك طُوِّبَ عندهم هنالك، ولِحَقَ بشعر بني هود، وله فيهم أيضاً غيرُ ما قصيدٍ، وهو القائل بعد خروجه من المَريَّة من قطعة فلسفية:

لَزِمْتُ قَنَاعَتِي وَقَعَدْتُ عَنْهُمْ فَلَسْتُ أَرَى الْوَزِيرَ وَلَا الْأَسِيرَا
وَكُنْتُ سَمِيرَ أَشْعَارِي سَفَاهَا فَعَدْتُ لِفَلَسَفِيَّاتِي سَمِيرَا

وكان قد مُنِيَ في صباه بصبيَّة نصرانية ذهبَتْ بُلْبُهُ كُلُّ مذهب، وركبَ إليها أصعَبَ مَرَكَب، فصرف نحوها وَجَهَ رِضاه، وحكَّمها في رأيهِ وهَوَاه، وكان يسمِّيها نُويرَةَ كما فَعَلَ الشعراءُ الظرفاء قديماً في الكناية عنِّ أَحَبَّوه، وتغيَّر اسمُ مَنْ عَلِقَوه. وقد كتبت في هذا الفصل بعض ما قاله فيها من مُلَحِه، ورائق أوصافه ومِدَحِه، وبعض سائر شعره، بعد تقديم فصول من نثره ما يُقرُّ بتفضيله، ويشهد له بجَمَلَةِ الاحسان وتَفْصِيلِه».

والتعريف بابن الحداد مثل بقية الذخيرة مسجوع، والسجع فيها دائماً لا يبهيم شخصيات الشعراء والكتاب بل يوضحها توضيحاً تاماً على نحو ما نرى الآن في السجع

(١) الذخيرة ٦٩١/١.

(٢) هو سعيد بن فتحون وانظره في الجذوة ٢١٦

والذيل والتكملة ٤٠/٤.

(٣) قدح ابن مقبل: سهم فائز من سهام الميسر.

الذى قدّم به ابن الحداد، إذ يجلو ملامحه وثقافته جلاء تاما، فهو عربي الأصل من قيس، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل وتتم عن ذلك أشعاره، وله في علم العروض كتاب ردّ فيه على الفيلسوف السرقسطى الملقب بالحمار محتجا للخليل بن أحمد واضح هذا العلم بما ذكره عن الأعاريض المهمة وقد ألمنا بذلك في ترجمة ابن الحداد. ويذكر أن مسقط رأسه مدينة وادي آش إلى الشمال الشرقي من غرناطة وأنه استوطن المرية، وعاش بها سنوات متوالية يمدح بنى صامح أمراءها، وأنه حدث ما عكر صفو علاقته بأمرها المعتصم وسيذكر فيما بعد بالترجمة أنه اعتقل أخاه سنة ٤٦١. ويقول إنه ولّى وجهه إلى بنى هود بسرقسطة، ويذكر فيما بعد بالترجمة أنه عاد ثانية إلى المرية «وحسن بعدُ بها مَثَوا، وأكرمهم المعتصم وأجزل قِراه» وظل بالمرية إلى أن توفي بها سنة ٤٨٠. ويعرض علينا في الترجمة قطعة كبيرة من نثره ورسائله، ثم يعرض علينا طرائف من شعره، ويقتطف من غزله بُنْوَيْرَةَ قطعة بديعة ويقول إن اسمها الحقيقي جميلة، وكان أهلها سموها باسم عربي، ثم يذكر مقتطفات من مدائحه في المعتصم بن صامح منذ سنة ٤٥٥، ولا يتجلى لنا ذوقه الأدبي في جمال اختياراته من شعر ابن الحداد فحسب، بل أيضا تتجلى لنا قدرته النقدية إذ يرُدُّ بيتا لابن الحداد إلى أصله عند المعري، ويقول إن النابغة الذبياني سبق المعري إلى معناه وإن عبد الجليل بن وهبون الشاعر يشترك مع ابن الحداد فيه ويذكر لأبي وَجْزَةَ السَّعْدِي الأُمَوِي بيتا يتعلق بالمعنى. وينشد لابن الحداد قصيدة ثانية ويلاحظ صلةً بين بيت له وبيتين للمتنبي ويذكر أن المتنبي ألم في بيتيه ببيتين لمسلم بن الوليد وأن مسلما مسبوق في بيتيه ببيتين للمعري. وتلقانا مثل هذه التعليقات النقدية في الذخيرة مرارا وتكرارا. وأشار ابن الحداد في مدحة للمعتصم إلى قصة القارظين في الجاهلية فاستطرد ابن بسام يقصها استرواحا للقارئ. وبذلك تكاملت ترجمة ابن الحداد سواء في سيرته وحبه في مطالع شبابه لنويرة أو في ثقافته أو في نثره أو في شعره وطرائفه وبدائعه في مديح المعتصم والمقتدر بن هود.

ويقول ابن بسام في القسم الأول بحديثه عن أشعار بنى الطنبى (٥٤٤/١) إنه صان كتابه عن ذكر الهجاء المقذع إلا أن يكون من مليح التعريض، وكأنه أراد به منحيّ أخلاقيا وإن لم يطبقه بدقة أحيانا. ويمتزج هذا المنحى عنده بمنحى ديني إذ نراه في القسم الثاني بترجمته للشاعر ابن وهبون (٤٧٨/٢) يحمل على الشعر الفلسفي المتأثر بمنزع المتنبي وأبي العلاء، وهو تشدد أكثر مما ينبغي. وبحقّ حمل في القسم الأول بترجمة الوزير ابن الشاه (٨٤١/١) على الاستعارات البعيدة التي يمجّها الذوق كأن يجعل شاعر

للكلام كيسًا محلَّ عَقْدِهِ، ويجعل شاعر تان للبلوى برَّصًا ويجعل شاعر ثالث للمهابة فأسًا. وكان له ذوق أدبي مصفى أحال به الذخيرة إلى متحف رائع يوج بالاستعارات والأخيلة المبتكرة ولَمَّ البديع الرائعة بل إنه يوج بفرائد لا تحصى للأندلسيين من الشعر والنثر، ويكفى أنهم يبلغون في الكتاب أكثر من تسعين بين شاعر وكاتب، ولم يكد ابن بسام يترك لأحدهم عملاً أدبياً أبدع فيه إلا عرضه حتى يصور بدقة ما ذكره في مقدمة الكتاب من تفوق الأندلس في الأدب وأنها منه في الأفق الأعلى.

وفي الحق أنه لولا الذخيرة لظل الأدب الأندلسي بروائع الباهرة شعرا ونثرا محجوبا عن الباحثين ولما استطاع أحد أن يكتب تاريخه. وذكر ابن بسام في بعض الصحف أنه ابتداء تحرير الذخيرة بقرطبة سنة ٤٩٣ وقال إنه كان لا يزال معنيا بتحريرها سنة ٥٠٠ وأنه بدأ الكتابة في قسمها الرابع سنة ٥٠٢ ويبدو أنه كان لا يزال يعيد النظر في بعض فصولها، إذ نراه في ترجمته للكاتب ابن أبي الخصال يذكر أنه لم يجد لديه في سنة ٥٠٣ شيئاً من ترسله، فسأل بعض إخوانه أن يخاطبه ليرسل إليه بعض نماذج من أدبه. وبدون ريب اقتضت الذخيرة من ابن بسام جهوداً مضنية في سنين متطاولة، وهي جهود تنوء بها العصبه أولو القوة.

مذكرات عبد الله بن بُلُقَيْن

هو عبد الله^(١) بن بُلُقَيْن بن حَبُوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى القيروانى آخر أمراء بنى زيرى لعهد الطوائف. شاد لهم هذه الإمارة بغرناطة وإلبيرة زاوى بن زيرى في زمن الفتنة، وظل يلى شئونها حتى سنة ٤١٠ وخلفه ابن أخيه حبوس بن ماكسن حتى سنة ٤٢٩ وقام عليها بعده ابنه باديس حتى وفاته سنة ٤٦٥ وورثها بعده ابن أخيه عبد الله بن بلقين وهو فى الثامنة من عمره، وحاز حظاً من العربية والثقافة غير أنه لم يكن على نصيب من السياسة والمهارة فى تدبير الحكم، فاتخذ وزراء أغماراً غير مجربين مثل سِجاجة الصنهاجى، ويقول ابن الصيرفى المؤرخ إنه كان جباناً هَيَّاباً مغمداً السيف، فكان طبيعياً أن ترتعد فرائضه كلما ذكر ألفونس السادس أمير قشتالة، وقد فرض عليه

وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ والبيان المغرب لابن عذارى. ومذكرات الأمير عبد الله منشورة بدار المعارف فى القاهرة.

(١) انظر فى عبد الله بن بلقين المغرب ١٠٨/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبعة بروكسسال) ٢٣٣/٢ وما بعدها والإحاطة ٣٧٩/٣

عشرة آلاف دينار يدفعها سنويا. وكان طبيعيا أن يهمل لعبور يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بجنوده إلى الأندلس ومواقعته ألفونس في الزلاقة وسحقه لجيشه سحقا كاد لا يبقى منه ولا يذر. وعاد يوسف إلى المغرب، وعاد أمراء الأندلس إلى المناقشات فيما بينهم ومدّ أيديهم إلى ألفونس السادس، كل يستعديه على أخيه، واستغاث الفقهاء في الأندلس ثانية بيوسف. وأخذ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وعبد الله بن بلقين وغيرها يحاولون استصراخ ألفونس خشية أن يفكر يوسف في عزلهم وضم الأندلس إلى سلطانه. وعرف يوسف ما يبيتون وخشي على الأندلس من الضياع، فعبّر إليها سنة ٤٨٣ وبدأ بغرناطة وأميرها عبد الله بن بلقين، وكان لا يزال يعد جيشه للقاء يوسف كما كان يفاوض ألفونس ويرسل إليه هدايا نفيسة ويطمعه بأموال كثيرة ليمد له يد العون، ونصحه خلاصاؤه أن يلقي ابن تاشفين وكان قد أصبح على مسافة فرسخين من غرناطة، فلقبه مترجلا مرحبا سائلا العفو، فأمنه على نفسه وأهله وطيب خاطره، وصور كل ما كان بالقصر وكل ما ملك عبد الله وأمه من أموال. وأمر يوسف بتوزيع كل ذلك على قواده ولم يستأثر منه بشيء. ونفى عبد الله إلى المغرب الأقصى مع مشيعين يؤنسونه في الطريق ويتكفلون أموره، وكتب إليه يوسف: «لا أنساك ما بقيت» وأنزله بأغمار، وأسعفه - كما يقول ابن الخطيب - في رغباته، فعاش معيشة كريمة، ورزق ولدين وبنات، وترك لهم - حين توفي - مالا جمّا.

وكتب عبد الله في أثناء منفاه بأغمار كتابا باسم «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة» وكانت قد حُفظت منه نسخة تنقص بعض الأوراق، فنشرها المستشرق بروغنسال باسم «مذكرات الأمير عبد الله». وهو في الفصول الأولى من الكتاب يحكى مقدّم بني زيري الإفريقيين أو التونسيين إلى الأندلس وتأسيس زاوى بن زيري لإمارتهم في غرناطة وتدبير حبوس بن ماكسن بعده في تنظيم حكمها وإدارته وميراث ابنه باديس الإمارة بعده واستيلاءه على مالقة وتفويضه شئون الحكم إلى وزيره اليهودي ابن النغريّة وازدياد نفوذ النساء في القصر ومؤامرات ابن النغريّة وإفساده الحكم وقتل صنهاجة له واستيلاء باديس على جيان. ثم تتعاقب ثمانية فصول في الحديث عن إمارته، وفيها يتحول الكتاب إلى مذكرات حقيقية، مستهلاها بالحديث عن أحداث الأندلس وتمزقها أمام ألفونس السادس وغاراته المتلاحقة على غرناطة وغيرها مما أدى إلى استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨ ثم ما كان من استصراخ الأمراء والسفارات لابن تاشفين وعبوره إلى الأندلس واشتراك الأمير عبد الله في موقعة الزلاقة معه مجاهدا بماله

وجنوده، ورجوع يوسف إلى المغرب واضطراره إلى العودة، ومبارحة الأندلس وعودة أمرائها إلى الخلاف. ويحاول أن يبرر نقضه لما عاهد عليه ابن تاشفين وأخذه في اختزان الأقوات وبناء الأسوار وإعلاء الأبراج استعداداً لمنازلته وحربه، والسوءة الكبرى أنه عقد معاهدة مع ألفونس السادس التزم فيها بأداء الجزية له سنوياً، ويقول إن ابن تاشفين علم بجميع ما صنع، فأرسل إليه يهدده وكتب إليه عبد الله يبرر مسلكه، ويعرض بعض الأحداث في إمارته وبعض الشئون الشخصية والأحوال الاجتماعية. ويفصل الحديث في عبور ابن تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٨٣ للم شعثها ويصور مثل جيشه أمام غرناطة وأحوالها وانصراف الناس والجند عنه واضطراره إلى التسليم وما كان من نفيه إلى المغرب الأقصى ومن عزل بقية أمراء الطوائف. وينهى المذكرات بطائفة من تأملاته وأحاديث عن نفسه وعن أولاده. والمذكرات طرفة نفيسة بما تصور من الانحلال السياسي والاجتماعي والأخلاقي في الأندلس زمن أمراء الطوائف مما أدى إلى سقوط طليطلة في حجر ألفونس السادس وخنوع أمرائها له وانعكاس الموقف السياسي والحربي فلم يعد نصارى الشمال يؤدون الجزية لحكام الأندلس كما كان الشأن في العصر الأموي، بل أصبح حكام الأندلس وأمراؤها يؤدون الجزية لألفونس، وأوشكت الأندلس جميعها أن تسقط في حجره لولا أن تداركها ابن تاشفين فقلّم أظفار ألفونس في الزلافة وردّه إلى وكره خاسئاً مدحوراً. ولا تصور المذكرات الانحلال الذي عمّ الأندلس فحسب، بل تصور أيضاً غرناطة وجميع أحوالها في عهد بنى زيرى وخاصة في عهد أميرها عبد الله، كما تصور فساد حكمه ومنازعاته مع جيرانه ومحاولاته في التواطئ المزرى مع ألفونس السادس أمير قشتالة عدوه ضد ابن تاشفين منقذ الأندلس من براثنه. وعبثاً يحاول تبرير فساد سياسته التي أدت إلى ضياع إمارته وعزله، ونفيه إلى أغمات. ومع نفاسة هذه المذكرات عبثت بها يد بروغنسال محققها إذ لم يكن يحسن العربية فامتلاّت بتصحيفات لا تكاد في أحوال كثيرة توجد بينها مسافات في السطور والكلمات. ونسوق من المذكرات قطعة من حديث عبد الله عن أهل غرناطة حين اقترب منها ابن تاشفين وانفضاض كل من فيها من الجند والناس عنه حتى العبيد من الصقالبة وغيرهم وحتى الخدم من النساء والغلمان، يقول^(١):

«أما الجند من البربر فكانوا مغتربين بهم (بالمغاربة) طامعين في الزيادة على أيديهم

(١) المذكرات ص ١٥ وصححنا النص في غير موضع.

للجنسية، واتفق رأيهم على أن لا يلقوه بـجحد^(١) وقدّموا كتبهم بالطاعة، وراجعهم عليها، يعدمهم بأن يبيقهم في أماكنهم على أفضل ما كانوا عليه.. وأما مَنْ كان من التجار وأهل البلد فكانوا على نية أنهم مع من انتصر ولا طاقة لهم بالحرب، ولا هم أهلها، وأكثرهم خرج من البلدة يقول: «لأى وجه نَحْتَمِل الحصار؟ تاجر هنا أو صانع، كما في غيرها. وأما الرعية فبخ، بخ، ذلك ما كانت تبغى طمعا منها في الحرية وأنها لا يلزمها غير الزكاة والعُشْر. وأما العبيد والصقالبة، فالعبيد الأعلاج (الأفظاظ) أول من عصا، رجوا أن يكونوا عنده في أعلى مرتبة. حتى الخدم من النساء والخصيان كل طامع في إقبال الدنيا عليه والخروج عن ثقاف (قيد) القصر إلى راحة التسريح والاستهتار بالرجال وما أشبه ذلك. وجعفر الخصي منهم وليبب كانا زعيمى المداخله ورأسا الفتك، يقولان: «نحن لا ولد لنا ولا تالد^(٢)» فعلى أى شيء نصير^(٣) إلى القتال؟ وما عسى نطمع إن نصير إليه؟ هل تحصل لنا سلطنة أو قيادة أو قضاء أو فقه؟ إنما نحن بمنزلة العيال، من سبق^(٤) استمتع بنا وكنا عنده من جملة الفقيء، نُرزق كسائر الكسب، فلا نضيع، تعالوا بنا نقدّم لأنفسنا، ووردت عليهم كتب أمير المسلمين بالإنزالات القويّة والمثاقيل والمراتب العالية، يعدمهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم^(٥) له».

وعبد الله يقول إن جيشه وهو من البربر اغتبط بالمرابطين لأنهم بربر مغاربة مثله، ولما رجوا من زيادة رواتبهم، لذلك قرروا أن لا يلقوا ابن تاشفين بإنكار لصنيعه وما كان من إنقاذه للأندلس، وأرسلوا إليه يعلنون طاعتهم، فكتب إليهم برضاه عنهم وأنه مبقهم في أماكنهم وزائدهم في رواتبهم. وأما التجار والصناع فهم مع من انتصر، وأما الرعية فابتهجت بمقدم ابن تاشفين، لما كان يثقل عليهم عبد الله من ضرائب متنوعة تارة باسم ألفونس السادس وتارة باسم حاجة الجيش والدولة بجانب زكاة العين وعشر الزرع. وفعلا بمجرد أن استسلم عبد الله لابن تاشفين أسقط عن الرعية تلك الضرائب مكفيا بزكاة العين وعشر الزرع، وانفض عن عبد الله سريعا العبيد والصقالبة آملين أن يجدوا عند ابن تاشفين مرتبة أعلى، ومثلهم الخدم من النساء والخصيان طامعين في إقبال الدنيا عليهم. ويصور موقف الخصيان على لسان خصيين كبيرين، قالوا إننا لا نعد أنفسنا شيئا إنما نحن لمن غلب، وأرسلوا هما وأضرابها الكتب إلى ابن تاشفين، وردّ عليهم بأنه

(١) في الأصل: بجحد. نكران للحق.

(٢) في الأصل: تلد. والتالد: القديم والموروث من

(٣) يريد: انتصر.

(٤) في الأصل: تلد. والتالد: القديم والموروث من

(٥) في الأصل: وإسلامهم لنا.

المال.

سيعطيهم ما أملوه من مثاقيل الدراهم والرواتب والمراتب العالية. وهكذا تلفت عبد الله حوله فلم يجد له ناصرا، مما جعله يسارع إلى تسليم نفسه لابن تاشفين. والمذكرات تضى على هذه الشاكلة في لغة بسيطة لا سجع فيها ولا تكلف إلا ما دخلها من تصحيقات، ويقول محققها إنه نقلها عن نسخة محفوظة بجامع القرويين بفاس، وحرى أن يعيد نشرها محقق من أبناء الضاد يتقن العربية وقراءة خطها الأندلسي.

قصة^(١) حى بن يقظان لابن طفيل

مر بنا في الفصل الثانى تعريف قصير بابن طفيل بين فلاسفة الأندلس مع ذكر أهم المصادر لترجمته، وهو فى الذروة من الفكر الأندلسي، عاش فى القرن السادس الهجرى (٥٠٦ - ٥٨١ هـ) ونريد الآن أن نفصل الحديث فى قصة أدبية فلسفية قيّمة له هى قصة حى بن يقظان، وهى قصة فلسفية صوفية تثبت أنه لا تقاطع بين العقل والشرعية أو الفلسفة والدين، وهو فيها يحكى بالتفصيل قصة حى ونشأته فى جزيرة مهجورة من جزر الهند تحت خط الاستواء، ويقول إنه اختلف فى تكوينه، فقيل إنه تولد - دون أم وأب - من طينة تخمّرت بالجزيرة على مر السنين، وقيل إنه ابن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يتلىء بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بحجة أنه لا يجد لها زوجا كُفْتًا، فتزوجت سرا من قريب لها يسمى «يقظان»، وحملت منه بجنين، ولما وضعته خشيت أن ينكشف سرها، فوضعتة فى تابوت أحكمت إغلاقه، واستودعته أمواج اليم، فألقت به فى تلك الجزيرة وسمعت صياحه ظبية فقدت وليدها، فعظفت عليه، وظلت ترضعه وصارت له كأمه، ونما الطفل العريان وأخذ يتحول تدريجا إلى معرفة كل ما حوله. وتنقل به ابن طفيل من المهد إلى الصبا إلى الشباب، وهو يلاحظ ويجرب ويتأمل، نافذا إلى كل المعارف، من خلال فكر مستبصر. وما إن يصل إلى سن الثلاثين حتى يحيط بالطبيعة من حوله، وحتى يستغلها لغذائه ولكل حاجاته بدءا بتحريك يديه واستخدامها وستر سوءته ومعرفة الصيد، والنار واستخدامها فى إنضاج السمك واللحم، واتخاذ المخزن لحفظ ما يفضل من غذائه، والتفت إلى فرق ما بين النبات والحيوان فى الحركة وارتفاع الهواء

وإيران ص ٦٤٤ وما بعدها وانظر فى قصة حى بن يقظان لابن طفيل وترجماتها بروكلمان وبالنشيا ص ٣٤٨ و ٦٠١ ومقدمات أحمد أمين لطبعة دار المعارف وكتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٩٩ وما بعدها.

(١) طبعت قصة حى بن يقظان بمصر مرارا وفى دمشق وآخر طبعتها بالقاهرة طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٩ ومعه نفس القصة لابن سينا وللسهروردى وانظر فيها كتابنا عصر الدول والإمارات الجزء الخاص بالجزيرة العربية والعراق

واللهيب إلى أعلى وانحدار الماء إلى أسفل، ولاحظ أن كل ما في الطبيعة خاضع لقانون الكون والفساد، وعرف أرفع حقائق الطبيعة. وطال به التأمل في ملكوت السموات والأرض، وهداه تفكيره إلى أن كل ما في الوجود لا بد له من خالق لا يستغنى عنه، وأحس حاجته إلى مشاهدته وما ينبغي أن يكون عليه من طهارة جسده وصفاء نفسه حتى يتحد به. وتعبّد لذلك في غار الأيام ذوات العدد وصام أربعين يوما. وظل يستغرق في تأملاته منفصلا عن العالم الخارجى وعن جسده وحواسه حتى غاب عن كل ما حوله غيبات متصلة، وأصبح لا يحس شيئا سوى واجب الوجود، وكأنما فنى فيه عن ذاته، فليس في الوجود إلا الواحد الأحد، وكأنما هما شيء واحد أو كأنما ذاته هي ذات الحق. وكان يفيق من حاله تلك المتصلة بالعالم الإلهي البرئ من المادة ويعود إلى العالم الحسى مرارا وتكرارا، وأحس أنها عالمان مختلفان تمام الاختلاف: عالم يقوم على الكشف والذوق ويصيب الإنسان فيه ما يشبه السكر والإغماء، وعالم يقوم على المنطق والعقل والمحسوسات المادية.

وحين بلغ خمسين عاما من عمره نزل جزيرته من جزيرة مجاورة رجل تقى يسمى أبسال وصلته - كما وصل أهلها - تعاليم النبوة، وتعرف على «حى» وعلمه اللغة والكلام، وعجب أن وجد في الطريق الفلسفى الذى سلكه «حى» تعليلا علويا لرحلة العقل من عالم الحس إلى عالم الدين الروحى الذى اعتقده ولجميع الأديان المنزلة، وعرض عليه أن يأخذه إلى جزيرته التى يحكمها صديقه سلامان حتى يرى أهلها ما اكتشف من الحقائق العليا، وقبّل عرضه ونزل معه تلك الجزيرة وأخذ يحدث أهلها عن العالم الإلهي الذى يتحد فيه الإنسان بربه ولا يرى في ذاته ولا في الوجود سواه، غير أن الناس لم يفهموا ما يتحدث عنه، وكلما زاد في الحديث ازدادوا نبواً ونفارا، إذ تهالكوا على الشهوات وجمع حطام الدنيا، وأصبحت لا تنجع فيهم الموعظة ولا الكلمة الطيبة، فقد ألفتهم عن ذكر الله تعالى الدنيا، مما جعل مخاطبتهم عن طريق التذوق الروحى لا تمكن، فحسبهم ما تخاطبهم به شرائعهم حتى يستقيم معاشهم، لذلك اعتذر «حى» لسلامان وأصحابه عما تكلم به معهم، ونصحهم بالتمسك بديانات آبائهم وأعمالها الظاهرة فإن ما وراءها من الاتصال بالعالم الإلهي والذات الإلهية فوق حاجتهم ومداركهم. وقرر مع صاحبه أبسال العودة إلى الجزيرة المهجورة لينعما فيها بحياة المكاشفة الإلهية. ونقطة من القصة قطعة يصور فيها «حى» أنه ما زال يحاول الاتصال بواجب الوجود معرضا عن جميع المحسوسات، مستغرقا في مشاهدته، واستطاع بجهاده أن تغيب عنه جميع

الذوات إلا ذاته فإنه كان لا يزال يشعر بها، وكان يدرك في وضوح أن هذا الشعور شوب يشوب المشاهدة الإلهية المحضة، وما زال يجاهد في الاتحاد بربه يقول:

«ما زال يطلبُ الفناءَ عن نفسه والإخلاصَ في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك، وغابت عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوى المفارقة للمواد والتي هي الذوات العارفة بالموجود، وغابت ذاته في جملة تلك الذوات وتلاشى الكل واضمحل وصار هباءً منثوراً ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود، واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولا تعلق قلبك بوصف أمر لم يخطر على قلب بشر فإن كثيراً من الأمور التي قد تخطر على قلوب البشر يندثر وصفها فكيف بأمر لا سبيل إلى خطوره على القلب ولا هو من عالمه ولا من طوره.. ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلاً. وأقول إنه لما فنى عن ذاته ولم ير في الوجود إلا الواحد الحق القيوم وشاهد ما شاهد، ثم عادَ إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حاله تلك التي هي شبهة بالسُّكر فخطر بباله أنه لا ذات له يغير بها ذات الحق تعالى وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق وأن الشيء الذي كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة، بل ليس شيء إلا ذات الحق، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراها يظهر فيها، فإنه وإن نسب إلى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس، وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه لما قد كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تتكرر بوجه من الوجوه».

وابن طفيل في هذه القطعة من قصته يصور تصويراً رائعاً شعور المتصوفة بانغماسهم في ربهم وفنائهم فيه. ولروعة القصة ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة، ومن أقدم ترجماتها ترجمة بوكوك لها في أوكسفورد إلى اللاتينية بعنوان الفيلسوف الذي علم نفسه بنفسه مع نصها العربي سنة ١٦٧١ وترجمت إلى الهولندية سنة ١٦٧٢ وترجمها أوكللي إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨ وعلى ضوئها كتب دانييل ديفو قصته: «روبينسن كروزو». وترجمها إلى الألمانية إنجهورن سنة ١٧٨٢ وترجمها يونس بويجس إلى الأسبانية سنة ١٩٠٠ وترجمها بتروف إلى الروسية سنة ١٩٢٠ وترجمها بالنثيا إلى الإسبانية سنة ١٩٣٤ وأعاد ترجمتها سنة ١٩٤٨ وترجمها إلى الفرنسية ليون جوتييه سنة ١٩٠٠ ثم أعاد ترجمتها سنة ١٩٣٦ وزعم المستشرق الإسباني المعاصر غرسية غوميس في بحث نشره

عن القصة بمدريد سنة ١٩٢٦ أنه وجد بمكتبة الإسكوربال في مخطوط موريسكى يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي قصة بعنوان قصة الصنم والملك وابنته، وزعم أنها كانت شائعة بين الموريسكيين (بقية المسلمين في الأندلس) ورأى أنها تلتقى بقصة حى بن يقظان وبالفصول الأولى من قصة الكريتيكون لجراثيان اليسوعى الأرجونى التى نشرت فى منتصف القرن السابع عشر، فقد وجد قصة الصنم تقول إن الأميرة بنت الملك حُجزت عن الناس فى مَحْبَس لتنجو من طالع سىء، واستسلمت فى مَحْبَسها لابن الوزير وحملت منه ووضعت وليدها فى صندوق من الخشب وألقت به فى اليمِّ، فحملته الأمواج إلى جزيرة نما فيها واهتدى ببصيرته إلى بدائع خلق الله، وبدلا من أن يقول إن القصة الموريسكية وقصة جراثيان استضاءتا بقصة ابن طفيل السابقة لهما بأربعة قرون أوتزید زعم زعما غريبا هو أن ابن طفيل كان قد عرف أصل القصة الموريسكية عند أجداد الموريسكيين المسلمين من معاصريه، وأنها ألهمته حينئذ قصته: حى بن يقظان. وكل ذلك لينفى عن ابن طفيل أصالته فى قصته العالمية الفريدة، وقد نقض رأيه جوتييه فى ترجمته المجددة لقصة حى بن يقظان سنة ١٩٣٦ قائلا بحق: إنه لا علاقة بين مضمون قصة حى بن يقظان والقصة الموريسكية. وقد افترض غرسية أن القصة لم تعرف فى المحيط الإسباني إلا بعد ترجمتها إلى اللاتينية فى القرن السابع عشر! وكان ينبغى أن ينبه ما بينها وبين قصة الكريتيكون المطبوعة فى القرن السابع عشر من تشابه إلى أن الأقرب إلى المنطق وطبائع الأشياء أن تكون قصة حى بن يقظان مما ترجمته مدرسة طليطلة إلى القشتالية أو الإسبانية القديمة فى القرن الثالث عشر الميلادى أو قبله أو لعلها ترجمت قديما إلى اللاتينية، وعلى ضوء إحدى الترجمتين كتبت قصة الكريتيكون. وأيضاً كان جديرا بغرسية أن يصل بين قصة ابن طفيل وقصتي ابن سينا اللتين أشار إليهما ابن طفيل فى مقدمته لقصته وهما قصة حى بن يقظان وقصة سلامان وأبسال وما تصوران من غلبة العقل على القوى البدنية وغلبة الذات الإلهية على العلل الكونية، ويؤكد هذه الصلة أن شخصيات أبسال وسلامان وحى بن يقظان عند ابن سينا هى نفس شخصيات قصة حى بن يقظان عند ابن طفيل. وأكثر من ذلك يشير ابن طفيل فى مقدمة قصته صراحة أنه يتابع ابن سينا فى نزعه الصوفية التى بثها فى كتابه أسرار الحكمة المشرقية التى تقابل الحكمة اليونانية. وأيضاً فإنه تابع ابن باجة - الذى نوه به مع ابن سينا فى مقدمة القصة - فى كتابه تدبير المتوحد الذى يتحد فيه - كما مر بنا فى الفصل الثانى - عقل الفيلسوف بالعقل العلوى الفعال مباشرة واصلا بذلك ابن باجة بين الفلسفة والدين، ولكن دون نزوع إلى التصوف كما يقول ابن طفيل فى مقدمته للقصة.

ولا علاقة أى علاقة بين قصة ابن طفيل ومذهب الأفلاطونية الحديثة كما ظن بالنشيا وغيره، وأيضاً لا علاقة بين يقظان فى القصة والمسيح، فيقظان ليس هو الله ولا حى ابن الله كما ظن بالنشيا ظناً مخطئاً، ومعاذ الله أن نصل بين قصة ابن طفيل والمسيحية بأى وجه من الوجوه، والقصة تزخر بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الإسلامية الصوفية. وكان حرياً بغرسية وغيره أن يردوا عناصر الإطار فى القصة إلى ما ذكره ابن طفيل نفسه من أنه استوحى فكرة ميلاد «حى» بدون أم ولا أب فى إحدى جزر الهند مما جاء عند المسعودى من أن بين تلك الجزر جزيرة يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يشمر نساء. أما تصوره بأن طينا تخمر وتخلق منه «حى» فقد استوحى فيه مثل قوله تعالى عن أصل خلق الإنسان من طين: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين). وأما على التقدير الثانى وهو أنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة يملكها رجل شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعصلها ومنعها من الأزواج إذ لم يجد لها كُفُلاً، وكان له قريب يسمى «يقظان» فتزوجها سرا وحملت منه ووضعت طفلاً، ولما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعت فى تابوت أحكمت زِمَّهُ (إغلاقه) وخرجت به فى أول الليل إلى ساحل البحر وقذفت به فى اليمِّ فحملته أمواجه إلى ساحل تلك الجزيرة فإن ابن طفيل يستلهم القسم الأول من هذا الخبر للمولود مما ردّته بعض كتب التاريخ العربى من خبر هرون الرشيد مع أخته العباسة ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى من أنه كان لا يستطيع الصبر عن لقائهما، فقال لجعفر أزوجه لك ليحل لك النظر إليها ولا تقربها، فقال: نعم. فزوجها منه، وكانا يحضران معا، وكان الرشيد يتركها فحملت العباسة من جعفر، وخافت الرشيد فسيرت ابنها مع حواضن إلى مكة. والصلة واضحة بين ميلاد حى سراً من أخت الملك وميلاد ابن العباسة سرا من أخيها الرشيد ومحاولة كل منها تهريب مولودها، واستلهم ابن طفيل فى وضع أم حى له فى تابوت والقذف به فى يَمِّ نقلته أمواجه إلى جزيرة ما جاء فى القرآن الكريم عن أم موسى حين وضعت وخافت عليه من فرعون ومَلَّته أن يقتلوه - وكانوا يقتلون أبناء اليهود الذكور ويستحيون بناتهم الإناث فأوحى الله إليها - كما جاء فى سورة طه - ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ونفس الصيغة القرآنية نجدها عند ابن طفيل حين يقول عن أم حى: «وضعت ابنها فى تابوت ثم قذفت به فى اليمِّ فاحتمله إلى ساحل الجزيرة» وهو تطابق واضح مع العبارة القرآنية. وبذلك كله يتضح أن عناصر الإطار القصصى فى قصة حى بن يقظان عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة.

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

فن المقامات من أهم فنون النثر العربي، وقد ابتكره بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨-٣٩٨ هـ) نافذا فيه إلى أقاصيص تصور الأدباء السيارين المسمين في عصره بالساسانيين المحترفين للكُذبة أو الشحاذة الأدبية متخذاً له أدبياً شحاذاً، أو متسولاً كبيراً، هو أبو الفتح الإسكندري، ومعه راويته عيسى بن هشام. وبديع الزمان يصور حيل أبي الفتح في استخلاص الأموال والمطاعم من أيدي الناس بفصاحته وخلاصة منطقته في أسلوب قصصي يشيع فيه الحوار. وطارت شهرة مقامات البديع في العالم العربي ونزلت قرطبة فيما نزلت من بلدانه، ونرى ابن شهيد المار بنا يستوحى - كما ذكرنا - من إحدى مقامات البديع، وهي المقامة الإبليسية، رسالته التوابع والزوابع التي بناها على لقائه في وادي الجن لشرططين الشعراء والكتاب، ولقى بينهم شيطان بديع الزمان. وليس ذلك فحسب فإننا نراه - كما مرّ بنا - يحاكيه في وصفه للحلواء ببعض مقاماته كما يحاكيه في وصفه الرائع للماء. ويعرض علينا ابن بسام في ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذي أراده بديع الزمان إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية، وإنما تصف موضوعاً أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات.

وأولى المقامات الثلاث مقامة أبي حفص^(١) عمر بن الشهيد الذي لقيه الحميدى في المريّة سنة ٤٤٠ وهو من شعراء أميرها المعتصم بن صامح (٤٣٩-٤٨٤ هـ) ومقامته أشبه بوصف رحلة له وصفا أدبياً طريفاً، فيه غير قليل من الدعابة، وقد استهلها بنعى حال الكتابة في عصره وأنها أصبحت صنعة ممتهنة. ويكتفى ابن بسام بعرض فصول منها، وفي أحد الفصول يصف ابن الشهيد الربيع وصياح الديك في السحر، وفي فصل ثان يصف منزل بدوى دخله مع صاحبه «فهش البدوى وبش، وكَنَس منزله ورش، وصير عياله

الجزوة للحميدى ص ٢٨٣ والبغية ص ٣٩٤
والمغرب ٢/٢٠٩.

(١) انظر في أبي حفص بن الشهيد ومقامته
الذخيرة ١/٦٧٠ وما بعدها، وراجع في ترجمته

إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية». ويتحدث عن أثاث بيته حديثا فكها، ويقول إنه حاول أن يكرمهم فدعا صبياناه ليمسكوا بديك هَرَم، ويستغيث بهم الديك ويتشفع - في حوار طويل - بهرمه وأنه أصبح لضعفه ونحوه أشبه بالأدوية منه بالأغذية، ويرقون له. ويقدم إليهم البدوى بعض الطافه معتذرا ويقبلون عُذْرَه ويرحلون سحرا عنه. وينزل مع صحبه قرية مسيحية سمعوا فيها صَوْت الناقوس وألوا بدِير راعهم ما فيه من شمس وأقمار ولا سيوف إلا من مُقْل ولا تُرُوسَ إلا من خَجَل، فنزلوا فيه وشربوا من الدنان ما أسكرهم ثم شدوا الجياد عنه رَكْضاً فمروا بكنيسة متهدمة ويبكى ابن الشهيد أطلالها وما كان فيها. ويفضى مع صحبه إلى مروج بها قطعان من السائمة، ويصيدون كثيرا من طير البرك، وينقش على مرمره بيضاء مقطوعة شعرية يصور فيها البرك ومياهاها وما صادوه من طيرها. ويستأنفون السِيرَ ليلا، ويلقاهم شاب فارس ممتطيا جوادا ومُتَقَلِّدا حُساما، آيَق من أهل حصن لنصارى مَرَّوا به، معلنا إليهم أنه عَبْد الصَّلِيبَ وَقَرَعَ الناقوسَ إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام، ويشهد أن الله إله واحد، ليس له وَلَدٌ ولا والد. وبذلك تنتهى المقامة وهى أشبه بنزهة متعددة المشاهد.

والمقامة الثانية عند ابن بسام مقامة أبي الوليد^(١) محمد بن عبد العزيز المعلم أحد وزراء المعتضد أمير إشبيلية وكُتَّابه، وقد انتقى منها ابن بسام فصولا وأولها يستهله ابن المعلم بالحنين إلى ماضٍ نعم فيه برفاهية العيش، ثم دار به الدهر من نعيم إلى شظف شديد، وما يلبث أن يقول إن البشير قرع بابه حاملا إليه كتابا من أمير، فلبَّاه، حتى إذا مثل بين يديه أسنعه مدحة فيه ثم تلاها بنثر مُقَرَّط في الثناء عليه من مثل قوله: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزاهر، والأسد الخاير^(٢)، والبحر الزاخر، أوهب الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر.. أعطر من العنبر، فى كل منبر، وأفوح من المسك الذكى، فى كل ندى» ومضى فى مثل هذا الثناء حتى استطير الأمير فرحا، وازدهى مَرَحًا، وقام إليه فقبل بين عينيه. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه برسالة فى مديح أمير، وربما كتب بها إلى المعتضد أميره.

والمقامة الثالثة عند ابن بسام مقامة أبي محمد^(٣) بن مالك القرطبي، وقد ساق فى

(٢) الخادر: المقيم بعينه.

(٣) انظر فى أبي محمد بن مالك ومقامته الذخيرة ٧٣٩/١ وما بعدها وراجع فى ترجمته القلائد ١٧٠.

(١) انظر فى ابن المعلم ومقامته الذخيرة ١١٢/٢ وراجع الجذوة ص ٦٥ والبغية ص ٩٤ والمغرب ١١٢/١.

ذخيرته بعض فصولها، وابن مالك يديرها على مديح المعتصم بن صُباح أمير المرية ويُغرق في مديحه إغراقاً شديداً، ونراه يُطيل في وصف فتوحه وانتصاراته في الحروب ووصف جيشه وأسلحته من الدروع والسيوف والرماح والخيول مظهراً في هذا الوصف غير قليل من البراعة، ولا يزال ينثر عليه ثناءه من مثل قوله: «جَدَّبُ وربيع مُعَرِّق، وليل ونهار مشرق، فيه الصَّابُ والعسلُ والسَّهْلُ والجبل، ثالثُ القمرين وسراج الخافقين^(١)، وعماد الثَّقَلَيْنِ، المعتصم بالله ذو الرياستين». ويشكو للمعتصم عَوَزَ أهله وضيق ذات يده، وأنه لولا ما يُقَيِّده من أقرخ كزُغَبِ القَطَا لتقدم في صفوف جُنْدِه تارة محارباً وتارة خطيباً محمّساً أو مُهادِناً. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه بقصيدة مدح طويلة دبَّجها فى المعتصم بن صَباح

وعلى هذا النحو نفقّد المقامة التى تقوم على الكُذْبة والشُّحادة الأدبية فى عصر أمراء الطوائف، ويظهر الحريرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) ويؤلف مقاماته فى أواخر القرن الخامس وسرعان ما تُدَوَّى شهرتها فى العالم العربى ويؤمُّه الرواة من كل مكان يأخذونها عنه، وأمه من الأندلس فى فواتح القرن السادس الهجرى أبو^(٢) القاسم عيسى بن جَهْور القرطبى وأحمد بن محمد بن خلف الشَّاطِبي وأبو الحجاج يوسف القُضاعى البُلَنَسِيّ والحسن بن على البَطْلِيُوسِيّ، وجميعهم حملوا مقاماته إلى الأندلس وأخذها عنهم تلاميذ كثيرون ومضوا بدورهم يدرسونها لطلابهم، وأخذ نفر من دارسيها هناك يتجرّد لشرحها، منهم عبد^(٣) الله بن ميمون العبْدَرى القرطبى المتوفى سنة ٥٦٧، ومنهم أبو العباس^(٤) أحمد الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ وقد صنع لها ثلاثة شروح: كبير طُبِعَ بمصر مراراً فى جزئين، ثم أوسط وأصغر. ومعروف أن مقامات الحريرى تقوم - مثل مقامات يديع الزمان - على الطريقة الساسانية أو الشُّحادة الأدبية، وقد بلغ الحريرى بفنّها الذروة.

وإذا رجعنا إلى ما أُثر من مقامات عند الأندلسيين بعد مدارستهم لمقامات الحريرى وجدنا المقامات تأخذ نهجين: نهجها المار فى القرن الخامس الهجرى القائم على الوصل بينها وبين أغراض الشعر من مديح وغيره وكذلك بينها وبين أغراض الرسائل من وصف بعض المشاهد والبلدان. ونهج جديد يستوحى الحريرى فى مقاماته الساسانية القائمة على

(١) الخافقان: المشرق والمغرب، والثقلان: الإنس والجن.

(٢) انظر فى ترجمة أبى القاسم بن جهور وزملانه التكملة رقم ٣٥ ورقم ٧٢٧ ورقم ٢٠٧٦.

(٣) انظر ترجمة العبدرى فى المغرب ١/١١١.

(٤) راجع فى الشريشى التكملة ١١٢ والنفع

١١٥/٢ والمنهل الصافى ١/٣٥٤.

الكُذْبِيَّة والشحاذة الأدبية، ومن النهج الأول المقامة الدُّوْحِيَّة لمحمد^(١) بن عياض اللَّبْلِيَّ المتوفى سنة ٥٥٠ وموضوعها الغزل، وذكر ابن سعيد في المغرب فاتحتها، والمقامة العِيَاضِيَّة لمحارب^(٢) بن محمد بن محارب الوادى آشى المتوفى سنة ٥٥٣ وهى فى مديح القاضى عياض، ومقامة فى هجاء بعض أعيان مالقة لعل^(٣) بن جامع الأوسى، والمقامة النَّخْلِيَّة لأبى الحسن النباهى المالمقى المتوفى بأخرة من القرن الثامن وهى مفاخرة بين النخلة والكرمة. ولللسان الدين بن الخطيب مقامة فى السياسة، وهى أشبه برسالة أو مبحث فيما ينبغى أن يكون الحاكم عليه من نشر العدل فى رعيته وتعهده المجاهدين فى سبيل الله وأن لا يعولوا فى كسبهم إلا على مغائهم كالجوارح لا تَطْعَمُ إلا من صَيَّدها وما يقع فى مخالبتها، ويلمُّ بسياسة العمال فى ولاياتهم وأن تقوم على الحق ودَحْضُ الباطل، وكل ذلك على لسان شيخ فارسى ناصح لهرون الرشيد ويوصيه بعبارة البلدان والتمسك بالشرعية. والرسالة حرية بأن تقرر برسائل السياسة عند ابن المقفع. ولللسان الدين غير مقامة فى وصف رحلات له فى بلدان الأندلس والمغرب الأقصى، وهى أشبه بالرحلات منها بالمقامات ولذلك سنتحدث عنها بين رحلات الأندلسيين. وحوالى منتصف القرن التاسع الهجرى يشتهر - فى أيام الأندلس الأخيرة - عمر الزُّجَّال، وقد روى له المقرئ مقامتين أولاهما مقدمة لقصيدة هزلية طويلة، وثانيتهما فى أمر الوباء الذى ألم بغرناطة زمن أميرها الغنى بالله، وهو فيها ينكر على قصر الحمراء بغرناطة إبقاءه فيه على السلطان مع تفشى الوباء، ويقول إنه ينبغى أن يتحول عنه إلى مالقة التى كانت تتبع حينئذ غرناطة.

ونترك هذه المقامات التى تستوحى مقامات عصر أمراء الطوائف الشبيهة بالرسائل الأدبية إلى مقامات الكدية والشحاذة الأدبية التى تستوحى الحريرى فى مقاماته أو أقاصيصه الساسانية التى رواها الحارث بن همام عن بطلها أبى زيد السروجى. وأول ما يلقانا من ذلك المقامات للزومية للسرقسطى، وهى خمسون مقامة، وسنخصها بحديث مستقل. وكان يعاصره الكاتب أبو عبدالله بن أبى الخصال الذى مرت ترجمته والمتوفى سنة ٥٤٠ وله مقامة^(٤) ساسانية جعل بطلها نفس بطل مقامات الحريرى: أبى زيد السروجى، كما جعل الراوى لها نفس راوية تلك المقامات: الحارث بن همام. وتبدأ المقامة

(١) انظر ترجمة ابن عياض فى المغرب ٣٤٤/١

الأول من السفر الخامس ص ٢٠٢.

والتكملة ص ٢٣٣.

(٤) انظر فى مقامة ابن أبى الخصال تاريخ الأدب

(٢) التكملة ص ٤٠٧.

الأندلسى: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور

إحسان عباس ص ٣١٦.

(٣) راجع ترجمته فى الذيل والتكملة: القسم

بمنظر في الريف والناس متجمعون حول أبي زيد السروجي، وهو يستحثهم على الجود والسخاء وهم يحذفونه بالدرهم، وهو يتلقف ولا يتوقف. وعرفه الحارث ونصحه أن يبيت بمنزله خشية اللصوص ويلبى دعوته، ويطعم عنده الطعام المرىء، حتى إذا أصبح الحارث وجده غادر المنزل تاركاً له رقعة فيها ثلاث قصائد. ويبحث عنه ويعرف أنه ذهب إلى حانة. وتطيل المقامة في وصف الخمر والشاربين ومن في الحانة من الجوارى والغلمان. ويقضى البطل وروايته فيها يوماً هنيئاً، وتنتهي المقامة بمقطوعة شعرية.

وتنوه كتب التراجم بمقامات لغير أديب، ولكن لا ندرى هل هي كمقامات عصر أمراء الطوائف أو هي تستلهم الحريري في مقاماته الساسانية، ومن أهم المقامات التي استلهمته مقامة العيد لعبد^(١) الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي المتوفى سنة ٧٥٠ وهو من أهل مدينة بَلِّش، وكانت مجاورة لمالقة، وهي مقامة خاطب فيها الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجديه أضحية، وهو فيها يحكى قصة ساساني من أهل الكدية أو الشحاذة الأدبية، ويستهلها بأن الرجل دخل داره ليتناول شيئاً من الطعام فقالت له زوجته لم جئت؟ لا طعام لك عندي إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فكر في العيد وأنت قد نسيت، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن لأبحث لك عما ذكرت، وأخذت تقول له إنك لن تأتى بشيء وأخذت تهوّن من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صغار الغنم من الذئاب عداً يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل الرفاق، ويخترق الأسواق، إلى أن مرَّ بقَصَاب (جَزَّار) وبين يديه عَنَز، وسأله أن يبيعه منه ويمهله في الثمن، وباعه له مؤجلاً بعشرين ديناراً، وانحدر معه لِدُكَّانٍ موثَّق يكتب لها عقد البيع. وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد شَرَد، فأخذ ينادى في الأسواق والأزقة مَنْ رأى عَنَزاً، وإذا برجل فخار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العنز، والعنز يدور في الدهليز ويحطم ما بقي من الطواجن والقدور. وطلبه المحتسب (شرطي السوق) وصاحب الدهليز أمامه يبكي، ولم يَعمَ عنه إلا بعد أن أدَّى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجّه به مع الجمال إلى داره ولم تبق في الرِّقَاق عجوز إلا وصلت لتراه، وتسأله بكم اشتراه، والأولاد يدورون به، أما رَبَّة البيت، فبادرت زوجها تقول: «ليس في البيت خَل ولا زيت، ومتى تُفرح زوجتك، والعنز أضحيّتك، واقلة سَعِدِها، وأخلف وَعِدِها، وما حَبَسَكَ عن الكِبَاش السَّمان» وتأخذ في وصف الكباش السمين الذي كانت تريده، فيقول لها: وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة

وما بعدها.

(١) راجع في ترجمة عبد الله الأزدي ومقامته

الإحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق عنان) ٤٢١/٣

المعرفة، فتقول له عند مولانا ومأوانا الرئيس الأعلى، ويفيض في مديح الرئيس أبي سعيد بن نصر.

والمقامة مسجوعة سَجْعًا عذبا، وهي تصوّر جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطي، تصوّر رية البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته حتى إذا أحضر لها ما تريد عادت فازرّت به، وتصور القصاب في زيه وقد شدّ في وسطه منزرة وقصّر ثوبه وكشف عن ساقيه وشمر ساعديه، وتصور جشعه في البيع. وترينا نظام التوثيق وكتابة العقود في الأندلس وما كان يشيع هناك من صناعة الفخار، والمحتسب ومن يساعده من الأمناء ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كل ما يرون. وهي مقامة بديعة.

المقامات اللزومية للسرّقسطي

هو أبو الطاهر^(١) محمد بن يوسف التميمي السرقسطي الإشركوني نسبة إلى إشركونه: حصن من أعمال تطيلة في الثغر الأعلى. ويبدو أنه نشأ في سرقسطة، ولذلك نسب إليها وقيل إنه من أهلها. ويقول ابن بشكوال إنه سكن قرطبة، ولا نعرف بالضبط هل سكنها بعد أخذ النصارى لسرقسطة سنة ٥١٢ أو قبل ذلك وأكبر الظن أنه بارح سرقسطة مبكرا للقاء الشيوخ الناهيين في الأندلس، إذ تذكر كتب التراجم أنه أخذ عن ابن السيد البطليوسي بيلنسية وعن أبي بكر بن العربي بإشبيلية وعن أبي علي الصدي بمرسية سنة ٥٠٨ وعن أبي محمد الرُّكْلِي بشاطبة، واستقر بقرطبة وتصدر فيها لإقراء الأدب واللغة. ونوهت كتب التراجم بأستاذيته لكثيرين من علماء الأندلس في العربية في مقدمتهم ابن مضاء صاحب كتاب الرد على النحاة. ولم تذكر كتب التراجم تاريخ مولد السرقسطي وذكرت أنه توفي بقرطبة سنة ٥٣٨ للهجرة. ومن آثاره كتاب المسلسل في غريب لغة العرب وهو منشور بالقاهرة، ومقاماته اللزومية أروع آثاره، ومن أروع ما قدمت الأندلس للأدب العربي من أعمال أدبية.

الطوائف المرابطين ص ٣١٧. وقد نشر مقاماته نشرة علمية محققة الدكتور بدر أحمد ضيف في الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية).

(١) انظر في أبي الطاهر السرقسطي الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥ والتكملة لابن الأبار رقم ٥٥٤ ومعجمه ص ١٤٤ وما بعدها والإحاطة ٥٢١/٢ وتاريخ الأدب الأندلسي: عصر أمراء

وقد وضع السرقسطى مقاماته في محاذاة مقامات الحريري وعلى غرارها من اتخاذ بطل لها من أبطال الشحاذة الأدبية هو الشيخ أبو حبيب في محاذاة بطل مقامات الحريري: أبي زيد السروجى واتخذ له راوية هو السائب بن تمام في محاذاة راوية مقامات الحريري: الحارث بن همام. وذكر مع السائب في تسع مقامات راوية يحدث عنه هو المنذر بن همام. وجعل السرقسطى مقاماته خمسين بعدد مقامات الحريري وبنائها مثله على عَرَضِ حَيْلِ شحاذ أدبى كبير هو الشيخ أبو حبيب ويرقّمها مثله من المقامة الأولى إلى المقامة الخمسين، غير أنه يختلف عن الحريري في أنه لا يعطى لكل مقامة لقباً خاصاً بها يميزها ما عدا أربع عشرة منها فقط هى التى ميزها بالألقاب. والشيخ أبو حبيب سدوسى من عمان وكثيراً ما يظهر فى ثياب خَلَقَة وأسْهال، منكرًا لشخصه على طريقة الحريري. وهو دائماً واعظ يزهّد الناس فى الحياة ويحثُّهم على عَوْنِهِ لما يرون من سوء حاله، ويُلْقون إليه بالدرهم والدنانير، أو يبدلون له المأكّل والطعام، متخذاً دائماً حيلة أو موقفاً، به يستدرّ عطفهم. وكثيراً ما يشترك معه فى الموقف أو الحيلة راويته السائب أو ابنه حبيب أو ابنته التى يتخذ منها جارية يبيعها ويأخذ ثمنها، ثم يتضح أنها حرّة، فيظفر بالثمن، وتُردّ إليها حريتها، حيلة من حيلة.

ومقامات السرقسطى مبنية على السجع مثل مقامات الحريري، غير أنه اقتدى فيه بأبى العلاء المعرى فالترّم فى نسجه مالا يلزم من تعدد قوافى السجع أو نهاياته مشروطاً على نفسه أن تكون من حرفين أو أكثر. ولا يكتفى بتصعيب الممرات إلى سجعاته فى بعض مقاماته، إذ نراه فى المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعاتها ثلاثية ولذلك سماها المثلثة مفتتحاً لها بقوله: «أقمت فى غَزَنَة^(١)، فترشفت من مائها أى مزنة، وتوطأت من أكنافها كل سهلة وحرّنة» وسمى تاليتها المرصّة لأنه لم يكف فى سجعاتها بالاتفاق فى حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر كقوله فى مطلعها: «حسنت إلى الوطن المحبوب، ونزعت إلى العطن^(٢) المشبوب، حيث مآرب الشباب وملاعب الأحباب» وسمى الثامنة عشرة المدبّجة، لأنه جعل الكلمات فى كل سجعتين تتقابل فى نهاياتها وتتبادل، على شاكلة قوله فى وعظها: «وسامك^(٣) الساء ورافعها، وسامك الدماء ودافعها، إنك فى حَبائل الرّزايا لمضطرب، ومن مناهل المنايا لمقترّب». واشترط على نفسه فى المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعاتها بحرف الهمزة ولذلك سماها

(٣) سامك: رافع.

(١) غزنة: مدينة فى أفغانستان.

(٢) العطن: مبرك الإبل.

الهمزية، واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سماها البائية، وسمى الرابعة والثلاثين الجيمية لاختتامه سجعاتها بحرف الجيم والخامسة والثلاثين الدالية لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع نفس الصنيع في السادسة والثلاثين فاختم سجعاتها بالنون وسماها النونية. ونحس غير قليل من التكلف في هذه المقامات الخمس لبناء السجعات فيها على حرف واحد. وكذلك الشأن في المقامات الأربع التالية وأولها وثانيتهما على نسق الحروف الهجائية وثالثتها ورابعتهما على نسق حروف أبجد المعروفة، ولكن من الحق أن سجعاته في المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنن في الوعظ والوصف ونسج الكلام.

ويتنقل السرقسطى ببطل مقاماته بين بلدان كثيرة فيها عدا المقامتين الثلاثين والخمسين، فقد استعرض في أولهما على لسان البطل مميزات أنبه الشعراء في الجاهلية وعصر المخضرمين والعصرين: الأموى والعباسى، وخصّ الثانية - وهى المقامة الخمسون - بالحوار في النظم والنثر بين ابن البطل حبيب وابن ثان لم يظهر إلا في هذه المقامة اسمه غريب، وبينما ينتصر حبيب للشعر ينتصر غريب للنثر، حتى إذا اشتد بينهما الخصام، تدخل بينهما أبوهما الشيخ أبو حبيب للوثام، مبينا أن لكل من الشعر والنثر مجاله، والإحسان أنواع وضروب، حتى إذا اقتنع المتحاوران بكلامه أوصاهما - كما أوصى الحريرى ابنه في مقامته الأخيرة - أن يقوما على حرفة الكدية وأن لا يصطحبا إلا الجواد ولا يرحلا إلا بزاد. ومثل هاتين المقامتين في العناية بموضوع محدد المقامة التاسعة عشرة، وهى في وصف الخمر وحاناتها. ودائما ينتقل الشيخ أبو حبيب في مقاماته من بلد إلى بلد في العالم الإسلامى منكرا لشخصه متحولا من حيلة إلى حيلة ومن صيد إلى صيد، وفي كل صيد وحيلة يعرفه السائب بعينه ويكشف حقيقته وسره. ولم ينزل في الأندلس سوى جزيرة طريف ونزل في المغرب طنجة والقيروان، ونزل في مصر الإسكندرية ودمياط وفي الشام فلسطين وحلب. ونزل في أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية مثل عدن والشحر وظفار وزبيد والبحرين واليمامة، ونزل بالعراق في بغداد وواسط والأنبار والرقة وحران، ونزل بإيران في الأهواز وأصبهان والريّ ومرو، وتوغل في بلاد الترك إلى الكرج وصول وغزنة. ولا يكتفى السرقسطى بإنزال بطله في البلدان الإسلامية والضرب في الصحارى والقفار، إذ رأى أن يخوض به البحار وأن يضم إلى رحلاته البرية كما صنع الحريرى رحلات بحرية تأثر فيها بما كتبه أصحاب تلك الرحلات، على نحو ما يلقانا في المقامة الرابعة والأربعين وسماها العنقاوية نسبة إلى

العَنْقَاءُ أَتَى الرُّخَّ، وَهَما طائران خرافيان ضَخْمان يتردد ذكرهما في أحاديث بَحَّارة العرب عن رحلاتهم في أعماق البحار والمحيطات مبالغين في وصف ضخامتهما وقوتها الحارقة وحملها لمن تحطمت سفنهم إلى البرِّ والبلاد المأهولة، على نحو ما نقرأ عند الرُّبَّانِ بُزْرُك بن شهریار من بَحَّارة القرن الرابع الهجرى في كتابه: «عجائب الهند: برّه وبحره وجزائره» إذ يقول إن الرُّخَّ أنقذ سبعة غرقت سفينتهم في جزيرة بقرب الهند ويروى عن بعض الملاحين أنه رأى ريشة من ريشه تسع خمسا وعشرين قرية من قرب الماء! كما يذكر أن بحارة وقع في سفينتهم عيب اضطرهم أن يقدّموا بها إلى جزيرة صغيرة رأوها في طريقهم، فنزلوا بها وأصلحوها عيب سفينتهم وعنّ لهم أن يوقدوا نارا لبعض أغراضهم، فأحسوا الجزيرة تتحرك من تحتهم، فأسرعوا بالنزول إلى سفينتهم، وتولنتهم الدهشة، إذ رأوا الجزيرة تغوص في الماء وعرفوا أنها سلحفاة كانت طافية على وجه الماء وأحست النار فغاصت. وإنما ذكرت هذه السلحفاة الضخمة الخرافية والرخ الخرافى قبلها لأن من يقرأ مقامة السرقسطى العنقاوية لا يشك في أنه قرأ كتاب بُزْرُك بن شهریار، وأنه استمد منه حين جعل بطل مقامته وراويته يلجّجان في رحلة بحرية، «ويخرجان إلى جزيرة عَرِيضة وأرض أريضة»^(١)، ولا ألباب ولا أفكار، ولا عرفان ولا إنكار، إلى أن استيقظا من تلك الغمرات، وصحّوا من تلك السُّكرات، فعلمّا أن الجزيرة حيوان بحرى أَصْحَر^(٢)، ثم أَبْحَر، وَشَمَسَ، ثم قَمَسَ^(٣) في الماء وانغمس» والسرقسطى يشير بهذا الوصف للحيوان إلى أنه سلحفاة، فإنها حيوان بحرى يرى إذا نزل إلى الماء قصدا للاستراحة من طول المقام في البر طفا على وجهه. وما يلبث السرقسطى أن يقول إن بطل المقامة وراويته «أظْلَتْهُما ظِلَّةٌ ظَلِيلَةٌ وسحابة بَلِيلَةٌ». وتهبط السحابة إلى الأرض وإذا هى الرخ قَرُخ العَنْقَاء، ويطيل السَّرْقُسطى في وصفه وكيف تعلقا بأطراف ريشه يقول السائب الراوى.

«ثم لما صَدَعَ الفجر ووضَحَ، واخْضَلَّ^(٤) النَّدى وَنَضَحَ، سار فى الهواء سَيْراً رَفِيقاً^(٥)، وجعل السحاب يسايرنا رَفِيقاً، تَخَفُّقُ تحتنا البُروق، وتتطلع إلينا المغاربُ والشروق، إلى أن فارقتنا البحار، وعلمنا أنه الإصحار^(٦)، ولما يَحِنُّ من ليلنا

(٤) اخضل: ابتل.

(١) أريضة: حسنة الم رأى.

(٥) رفيقا: لينا متندا. رفيقا التالية: صاحباً.

(٢) أصحر: برز في الصحراء أو الأرض.

(٦) الإصحار: يريد الأرض.

(٣) شمس: نفر. قمس في الماء: غاص.

الإسحار^(١). ثم أخذ في الانصباب إلى أرض ذات أشجار وأنهار، ورياض مونة وأزهار، فخيرنا أنها من أرياف النيل وشطوطه، ومجاريه وخطوطه، فحمدنا الله على نعمائه، وتقلبنا بين أرضه وسمائه».

ولا يلبث الشيخ أبو حبيب أن يعظ الناس ويرفدوه بالصّلات الحقيّة، والهبات الخفيّة وهو دائما يضمن مقاماته مواعظ خلقية وينهى المقامة بشعر، وقد يكثر منه في تضاعيفها. ويعود السرقسطى في المقامة السابعة والأربعين إلى الحديث عن رحلة في جزائر الهند لبطل مقاماته وراويته، غير أن الراوى لا يُفصى فيها إلى وصف تلك الجزائر ولا إلى شيء من العجائب البحرية هناك إذ شغل عن ذلك بقضاء ليلة ماجنة مع البطل في مجلس غناء. وكأنما كان السرقسطى مطلعاً على شيء من الغيب، إذ جعل البطل في المقامة الحادية والأربعين يتعيش من دُبِّ يُراقصه ويؤمر عليه ويلاعبه، ومعروف أن رمز مدريد في عصرنا إنما هو الدبّ. وفي الحق أن المقامات اللزومية للسرقسطى أروع المقامات الأندلسية التي حاكت مقامات الحريري بعده، وكانت حرية بأن يتجرّد لها شارح مثل الشريشى موطنه، وكأنما ينطبق عليه المثل: لا يطرب الزامر أهل بلده.

وحرى بنا أن نعرف أنه كان للمقامات تأثير واضح في الأدب الإسباني إذ نشأ على غرارها في منتصف القرن السادس عشر الميلادى لون من الفن القصصى ازدهر خلال القرن التالى يصف حياة المشرّدين والمتسولين ويقوم على الشحاذة أو الكُذبة، سُميت أقاصيصه باسم «الأقاصيص البيكارسية» وسُميَ بطلها باسم «البيكارو» ودائماً نشأته متواضعة ويعانى من آلام المسغبة والبطالة، فيتخذ التسوّل حرفة له يكسب بها قوته مستخدماً في ذلك حيلةً والأعيب شتى تماماً كالشيخ أبى زيد السروجى في مقامات الحريري وكالشيخ أبى حبيب في مقامات السرقسطى، مع صبغ كلامه مثلها بصبغة وعظية خلقية^(٢).

(ب) الرحلات

لعل مسيرة قوافل الأندلسيين إلى مكة سنوياً لأداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوى الشريف هى التى جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار فى العالم الإسلامى وما وراءه من

والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٨٨ وما بعدها.

(١) الإسحار: السير فى السحر.

(٢) انظر فى ذلك د. مكى فى كتاب أثر العرب

بلدان وشعوب في آسيا وأوروبا وخاصة في أنحائها الشرقية لاكتشاف المجهول من تلك الشعوب وما بديارهم من ظواهر كونية. وأيضاً فإن تعدد مراكز الثقافة في العالم العربي وفي الأندلس نفسها منذ عصر أمراء الطوائف حبَّب الرحلة إلى المشغوفين بالعلم والعلماء، على نحو ما نجد في عصرنا عند شبابنا العلميين من شغفهم بالرحلة إلى الغرب للتزود منه في جميع ضروب العلم والمعرفة. ولا ننسى السفارات الخارجية التي كان يرسل بها حكام الأندلس وخاصة في عصر أمراء الطوائف إلى إخوانهم من الأمراء في الأندلس أو إلى نصارى الشمال أو إلى حكام إفريقيا ومصر والشام، وحتى في أيام الأندلس الأخيرة إلى الدولة العثمانية. وكثرت الرحلات والسفارات الداخلية زمن أمراء الطوائف للتشاور في أمر خطير من أمور السياسة والحكم كما كثرت رحلات حكام غرناطة والمغرب لتفقد شئون البلاد والرعية. ومن السفارات الداخلية سفارة الكاتب محمد^(١) بن مسلم الداني عن إقبال الدولة على بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف من مثل المعتصم بن ضُمادح أمير المريّة والمعتضد أمير إشبيلية حين نازعه المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) أمير سرقسطة في أحد الحصون، فكتب إلى أغلب قائد ابن مجاهد وواليه على مبورقة يصف له أحداث سفارته في رسالة طويلة سماها «طَيُّ المراحل» قال ابن بسام إنه اقتضب من فصولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة. وفي فواتحها يتحدث محمد بن مسلم عن صداقته لأغلب وشوقه للقاءه، ويذكر دعوة إقبال الدولة لإخوانه من أمراء الطوائف لإنجاده، ونداءه عليهم لإمداده فاستغشوا بأكمامهم وجعلوا أصابعهم في آذانهم. ويقتطف ابن بسام من رسالته قطعاً بديعة في وصف الطبيعة، وأخرى في وصف ما كان ينغمس فيه أمراء الطوائف من ترف بالغ، إذ بنوا - من عرق الرعية - القصور المشيدة، وألحقوا بها حدائق بهيجة، ويصور كيف كان يطفأ عليهم بصحاف من فضة وذهب، وحين يتوضئون تجميهم طَسَّاسٌ^(٢) من التبر وأباريق رُصِّعت بالدر وللشَّراب حجر خاصة وكأن الأطباق فيها مُقل الجفون مُلئت من قُرَّة العيون وكان الكتوس مرَّاشف الحور تُمزج بحَبَاب الثغور. ومن تصويره لقرطبة حين مرَّ بها ورأى ما نزل بها من الدمار والذل والهوان قوله: «كثيراً ما كنت أَقْتَرِحُ إتيانها وإن كانت على هَرَم، وأتمنَّى وقفةً فيها ولو على قَدَم،

(١) انظر في الداني الذخيرة ٤٢٧/٣ والمغرب (٢) طساس: جمع طست.

وأرغب [فى] زيارتها ولو لِمَأمًا، وأودُّ رؤيتها ولو مِنَّامًا، لألمح دارَ الخلافة، وأرى بَيْتَ الرئاسة، وجعلتُ أسلك فى منازل المدينة، وأنظر فى تلك المشابه المُبينة، فإذا رُسومها قائمةُ الأعلام، ونُصبُها ماثلةُ الشكل والقيام.. ووقفت بالقصر المروانى وانتبذت إلى المُنتزه العبدِ الرُحمانى^(١)، فإذا الثلاثُ الأثافى^(٢) والديارُ البلاقع^(٣)، وقيل هنا كانت قصورهم وهناك هى قبورهم، قد صارت معاقلمهم ترابا، ومساكنهم يَبَّابًا^(٤)..

ويطيل فى تصوير مجد قرطبة أيام بنى أمية ويبكيها بكاء مؤثرا ويصور جامعها وقبابه ومقصورتها الفخمة وزخارفها البديعة، والمحراب والمصحف العثمانى بجانبه، وكأنما بيده ريشة يرسم بها لوحات بديعة. ويختتم الدافى رسالته بزيارته للمعتضد فى إشبيلية وبيان مدى ترحيبه به وما أغدق عليه من التحف والطرف.

ويتكاثر الرحالة الأندلسيون منذ القرن السادس الهجرى ومن أهمهم أبو حامد^(٥) الغرناطى (٤٧٤ - ٥٦٤ هـ) شُغف بالرحلة وتجوُّل فى إفريقيا وزار صقلية سنة ٥١١ ومنها رحل إلى مصر وزار الشام والعراق، وتحوّل إلى نواحي البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغّل فى بلاد الصُّقالبة والبُلغار وعلى ضفاف نهر الفُولجا، وصعد إلى أقصى الشمال فى روسيا، وسجل مشاهداته فى كتابه «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب» وله كتاب سباه «تحفة الكبار فى أسفار البحار» ونشر سيزاردويلر بمذريد ما شاهده فى شرقى أوروبا، وهو يكثر فيه من ذكر الخوارق والعجائب الخرافية، غير أن به من حين إلى حين بعض حقائق ومشاهد بديعة كمشهد الزُحلوقة يتزحلق بها الناس على الثلج فى روسيا يقول:

«الطريق هناك فى أرض لا يفارقها الثلج أبدا، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحا (زُحلوقة) ينحُتونها، طول كل لوح باعٌ وعرضه شبرٌ، ومقدّم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض، وفى وسط اللوح موضع يضع الماشى فيه رجله، وفيه ثقب، وشَدّوا فيه سيورا

فيران لتحقيق كتابه تحفة الألباب ومقدمة سيزار دويلر لتحقيقه قطعة من كتابه «المغرب عن بعض عجائب المغرب» وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى تعريب الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم (طبع لجنة التأليف) ص ٢٩٥ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين لمؤنس ص ٣٠٣ وكتابتنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٥١ وما بعدها وبالنشأ ص ٣١٢.

(١) نسبة إلى عبد الرحمن بن الناصر أهم حكام البيت الأموى بقرطبة.

(٢) الأثافى: جمع أنفية، والثلاث الأثافى: ثلاثة أحجار توضع عليها القِدْر، وكانت القبائل تتركها وراءها حين ترحل عن الديار.

(٣) البلاقع: المقفرة.

(٤) يبابا: خرابا.

(٥) انظر فى أبى حامد ورحلته مقدمة جبريل

من جلود قوية يشدونها على أرجلهم. ويقرن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان في رِجْلَيْهِ بشندال (حبل) طويل مثل عنان الفرس، يمسكه في يده الشمال، وفي يده اليمنى عَصًا بطوله، وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحدا أن يمشى هناك البتة، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد البتة، وأى حيوان يمشى عليه يَفُوصُ في ذلك الثلج فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب، فإنها تمشى عليه بخفة وسرعة». وهى صورة من الترحلق قديمة شبيهة أدق الشبه بصورة الترحلق الحديث الذى تُعقد له المسابقات سنويا في البلاد الأوربية.

ونلتقى بعد أبى حامد الغرناطى من رخالة الأندلس بابن جبير، وسنفرد له مع رحلته كلمة، ويلقانا من رحالة العصر الغرناطى القاضى أبو البقاء^(١) البلوى خالد بن عيسى وسمى رحلته «تاج المفرق في تحلية علماء إفريقيا والمشرق» وقد لقي فيها كثيرين من العلماء وروى عنهم، بدأها في ١٨ من صفر سنة ٧٣٠ وظل يلقي العلماء سنوات ويأخذ عنهم، ونزل تونس وعينّه أميرها كاتباً في ديوانه زمناً يسيراً، ثم عاد إلى بلده فعين بها قاضياً. ويقول لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة إنه حجّ وقيدّ عن العلماء، ورحلته في سفرٍ وصف فيه البلادَ ومنّ لقي بفصول، جلب أكثرها من كتابات العماد الأصبهاني وصفوان بن إدريس. ولابن جابر الوادى آشى الذى مرت ترجمته في الفصل الماضى رحلة دون فيها ما اكتسبه من الفوائد الأدبية أثناء أسفاره الطويلة.

ويلقانا ابن^(٢) الحاج النميرى المولود سنة ٧١٣ لأسرة كريمة وقد عنى أبوه بتربيته حتى إذا كانت سنة ٧٣٤ عُيّن كاتباً في ديوان أبى الحجاج يوسف الأول أمير غرناطة، وفي سنة ٧٣٧ رحل لأداء فريضة الحج، ونزل في عودته بقسنطينة سنة ٧٣٩ وخدم أمراءها الحفصيين، ثم تركهم وخدم أبا الحسن المريني حتى سنة ٧٤٧ إذ رأى العودة إلى أداء

ص ١٤ والمنهل الصافي لابن تغرى بردى ٦٦/١
وجذوة الاقباس لابن القاضى ص ٨٧ ونثير
فرائد الجمان لابن الأحمر ص ١١٣ ونفع الطيب
١٠٩/٧ ورحلة: «فيض العباب» حققها الدكتور
محمد بن شقرون ونشرها في الرباط.

(١) انظر في أبى البقاء ورحلته الإحاطة ٥٠٠/١
ونيل الابتهاج (طبع فاس) ص ٩٩ والكتيبة
الكامنة ص ١٣٤.

(٢) راجع في ابن الحاج النميرى الإحاطة
٣٤٢/١ والكتيبة الكامنة ص ٢٦٠ ونيل الابتهاج

فريضة الحج وعاد فخدم الحفصيين سنة ٧٥٠ وبعد سنتين اعتزل للعبادة بتلمسان وأُجبر في سنة ٧٥٧ على خدمة السلطان أبي عنان وجعله رئيس ديوان الكتبة. وأُفلت عند موته وعاد إلى غرناطة فُعِين قاضيا إلى وفاته بعد سنة ٧٧٤ وكان شاعرا مجيدا في الشعر الغنائي والتعليمي. ويقول ابن الخطيب في الإحاطة له رحلة «فيض العُباب وإحالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب» وقد حققها ونشرها بالرباط - كما ذكرنا في الهامش - الدكتور محمد بن شقرون، ووضع بين يديها مقدمة قيمة. وهى في وصف رحلة السلطان أبي عنان المريني من فاس إلى سَلا والعودة منها ثم إلى قسنطينة والزاب والعودة منها عن طريق الصحراء. والرحلة وثيقة تاريخية مهمة عن فتح بن مرين لقسنطينة وعناية وتونس وبيعة البلدان المغربية لأبي عنان، وقد كتبها ابن الحاج بأسلوب أدبي التزم فيه السجع وبعض المحسنات البديعية مع العناية باستخدام التورية والتصنع للمصطلحات العلمية وبعض الألفاظ الغريبة مما أشاع غير قليل من التكلف في صياغة الرحلة.

ولصديقه ابن الخطيب معاصره الذى مرت ترجمته بين كتاب الرسائل الديوانية رحلات بديعة في بلدان الأندلس والمغرب، وأول ما نقف عنده رحلته^(١) مع أميره أبي الحجاج يوسف الأول في تفقده لبعض الثغور الشرقية لإمارته سماها: «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف» وقد سار موكب أبي الحجاج فيها تلقاء الشمال الشرقى من العاصمة غرناطة إلى وادى آش فالبيرة. ويعود الموكب من طريق آخر مارا بثغر المَرِيَّة على البحر المتوسط. وكانت زيارات الأمير أبي الحجاج لها ولغيرها من المدن أشبه باستعراضات عسكرية، يشترك فيها جند الأمير مع أهل البلدة إذ كانت بلاد الإمارة الغرناطية أشبه برباطات حربية، فكل من فيها حاملو سلاح. ويقول ابن الخطيب إن النساء في هذه الاستعراضات كن كثيرات، وكن يحمين الرجال ويحيين الرجال، ونظن ظنا أن كثيرات منهن كن سافرات إذ عرفت الأندلس - كما مر في غير هذا الموضع - السفور مبكرا.

ولابن الخطيب رحلة ثانية سماها «معيار الاختيار في ذكر الأحوال والديار» ويسميتها مقامة وليست مقامة بل رحلة كسابقتها وصَف فيها أربعا وثلاثين مدينة من مدن إمارة

(١) انظر في هذه الرحلة وتاليتها كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. مختار العبادي.

غرناطة وبعض مدن المغرب الأقصى مثل مكناسة. والمقامة مسجوعة مثل سابقتها، وتصور في تلك المدن عمراتها ونشاطها الثقافى وكل ما بها من صور الحياة، مع ذكر محاسن كل مدينة وما قد يكون فيها من مساوئ. وله رحلة طويلة لم يكتبها سجعاً مثل الرحلتين السالفتين بل كتبها مرسلّة غير مسجوعة، وصف فيها المغرب الأقصى ومدنه سهاها «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» وكانت في أربعة أجزاء، سقط منها ثلاثة من يد الزمن وبقي الجزء^(١) الثانى وهو يفتتح هذا الجزء بالصعود إلى جبل هِنْتَاة بمنطقة أطلس ويزور هناك قبر السلطان أبى الحسن المرينى ويفيض في الحديث عن أحوال قبيلة هنتاة. ويزور أغوات وقبر المعتمد بن عباد بها ويحييه بقصيدة ويلم بمراكش وغيرها من المدن في طريقه إلى مدينة سَلا على المحيط، ويذكر كل ما في تلك المدن من مساجد ومكتبات ومدارس. ورحلات ابن الخطيب عامة تكتظ ببيان أحوال المدن الأندلسية والمغربية الاجتماعية والثقافية.

ونلتقى بأخرة من زمن دولة بنى الأحمر في غرناطة بالقَلْصادى على بن محمد القرشى البَسْطى (٨١٥ - ٨٩١ هـ). الذى مرّ ذكره في الفصل الثانى بين علماء الرياضة، وله رحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، سهاها: «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب» حققها وقَدَّم لها ونشرها بتونس الأستاذ محمد أبو الأجفان، وهو لا يتوسع - باستثناء مكة ومناسك الحج - في وصف البلدان التى نزّلها ذهاباً وإياباً في رحلته إلى الحجاز، بل يلمّ بها في إيجاز شديد، ليحدثنا عن الشيوخ الذين تتلمذ لهم فيها، وخاصة في تلمسان وتونس والقاهرة، ويبلغون عنده ثلاثة وثلاثين شيخاً. والكتاب أشبه بكتب الفهرسة والبرامج منه بكتب الرحلات، وهى كتب اشتهرت بها الأندلس من قديم، وفيها يذكر مؤلفوها شيوخهم وما سمعوه منهم وأخذوه عنهم من مؤلفات. وحرى بنا الآن أن نتحدث عن رحلة ابن جبير.

(١) نشر هذا الجزء د. مختار العبادى بالقاهرة.

رحلة ابن جبير

هو محمد^(١) بن أحمد بن جبير الكناfi البلبسى المشهور باسم ابن جبير، أصل أسرته من مدينة شاطبة، وُلد بلبسية سنة ٥٣٩ وقيل سنة ٥٤٠ وسمع في نشأته من أبيه وعلماء موطنه وأكبَّ على دراسة الفقه، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وطمح إلى العمل في الدواوين، وألحقه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن حاكم غرناطة لأبيه عبد المؤمن ثم لأخيه يوسف حتى وفاته سنة ٥٧٢. وكان عثمان شغوفا بالأدب، وخفَّ على نفسه ابن جبير فكان يحضره مجالس شرايه وعيَّثا حاول أن يقنعه بالشراب معه، إذ كان يعافه تدينا، وذات يوم أقسم عليه ليشرب سبعا، ونزل مضطرا عند إرادته وشرب سبع كتوس، فملأ أبا سعيد الكأس دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك في حجره، فحملها إلى منزله، وصمم أن يجعل كفارة شربه الخمر الحجَّ بتلك الدنانير، حتى إذا كانت سنة ٥٧٨ باع ملكا له تزوَّد به للحج، وفصل من غرناطة في شوال، وركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصدا إلى الإسكندرية ونزل بها واتجه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ومنها إلى عيذاب حيث عبر البحر الأحمر إلى جدة، وقصد من فوره مكة، وأدى فريضة الحج، وزار القبر الشريف بالمدينة، ثم اتجه إلى الكوفة فبغداد فالموصل وبلدانه. وهو في كل تلك البلدان يكثر بعض الوقت ويدوِّن ما شاهده فيها من مساجد ومدارس وغرائب، ونزل الشام وكان لحملة الصليب فيها مستعمرات، فجاس خلال ديارهم وسجَّل كثيرا من أحوالهم. وركب البحر المتوسط من عكا على سفينة مسيحية عائدا إلى موطنه. وأملت السفينة بصقلية فنزل فيها وتجوَّل في بلادها، ورجع إلى السفينة، ونزل منها في قرطاجنة بساحل الأندلس في ١٥ من المحرم سنة ٥٨١

ورحلة ابن جبير تقصُّ ما شاهده في البلدان التي زارها ونزل بها في صورة مذكرات يومية، ومع كل بلدة وكل مشهد التاريخ باليوم والشهر، ويبدو أنه كتبها في أوراق منفصلة، وكان الموت عاجله قبل أن يجمعها نهائيا، فجمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وأثر من نشرها في العصر الحديث

ص ٢٩٩ وبالنشيا ص ٣١٦ ودائرة المعارف الإسلامية في ابن جبير وكتابتها: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٧٠-٩٤. والرحلة طبعت مرارا في ليدن والقاهرة.

(١) انظر في ترجمة ابن جبير ورحلته المغرب ٣٨٤/٢ والإحاطة ٢٣٠/٢ ومقدمة رايت لتحقيقه لرحلته بلندن ومقدمة دى خويه لطبعتهما في ليدن وكتاب د. مؤنس ص ٤٣٧ وكراتشكوفسكى

من المستشرقين والعرب أن يطلقوا عليها اسم «رحلة ابن جبير». وله رحلتان بعد هذه الرحلة حجّ في كل منها، والسبب في أولاهما أنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٢ واستيلائه عليه من أيدي الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور تلك الأماكن وعلم الإسلام يرفرف عليها، وارتحل لذلك سنة ٥٨٥ وعاد سنة ٥٨٧ إلى غرناطة وسكنها ثم سكن مالقة ثم سبتة منقطعا إلى إسحاق الحديث النبوى وروايته. وكان قد تزوج من أم المجد عاتكة بنت أبي جعفر الوقشى وزير ابن همشك أمير جيان قبل دخوله في طاعة الموحدين، وكان كلفا بها، وتوفيت فعظم وجده عليها، ونظم فيها - بجانب ديوانين له أحدهما في الشكوى من إخوان الزمان - ديوانا سباه: نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح». ولكى يخفف عن نفسه حزنه عليها رحل رحلته الأخيرة لأداء الحج سنة ٦١٤ وجاور بمكة فترة، ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأدركته فيها منيته في نفس السنة، ويغلب أن يكون مسجد سيدى جابر بها مسجده وأن تكون العامة حرّفت اسمه مع الزمن.

والرحلة مكتوبة بأسلوب مرسل تشيع فيه السهولة والسلاسة والعذوبة، مما جعلها نسيجة وحدها - كما يقول ابن الخطيب - كما جعلها تطير كل مطار، ونشعر في أحيان كثيرة كأنما بيده ريشة يبدع بها لوحات رائعة كما في تصويره للإسكندرية حين نزها ومبانيها وأسواقها وشوارعها ومنارها العجيب وما بها من مساجد ومدارس وبيوت لطلاب العلم. ويقول إنه بمجرد أن ينزل بها طالب علم من الأقطار النائية يجد مسكنا والعالم الذى يدرس عليه والراتب الذى يرتفق به. وينزل القاهرة ويصف القلعة والأهرام وأبا الهول، ويرسم مشهد الحسين حفيد الرسول عليه السلام في لوحة باهرة. ويطيل في وصفه للهارستان بالقاهرة وما به من خزائن الأدوية والأسرة كاملة الكسوة للرجال وما اتخذ فيه من قسم خاص بالنساء وقسم على مقاء يره شبابيك من حديد للمجانين. وينزل مدينة قوص ويصف الحياة فيها كما يصف مدينة عيذاب على البحر الأحمر ويقول في بحرها جزائر بها مغاص للؤلؤ نفيس. ويركب البحر إلى جدة وينزل مكة، ويرسم المسجد الحرام في لوحة باهرة، تجمع كل تفاصيله بأركانه وأبوابه وكل ما يغشى جوانب فيه من ذهب وفضة وستور حريرية وما به من مقام إبراهيم المغطى بالفضة ومن حوائط رائعة الترصيع والتجزيع وقبابٍ بديعة وسوارٍ وأعمدة بديعة التركيب. وتشغل هذه اللوحة صفحات متصلة من الرحلة لا تترك شيئا في المسجد ولا في ظاهره ووسطحه إلا تقيده. ويرسم لوحة باهرة لمسجد الرسول عليه السلام كاللوحة التى رسمها للمسجد الحرام،

ومن قوله فيها عن الروضة المقدسة: (قبر الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر) والمنبر الشريف:

«الروضة المقدسة مع آخر الجهة القبليّة مما يلي الشرق.. وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتّى تصويره ولا تمثيله. وجميع سَعَتِها من جميع جهاتها مائتا شبر واثنتان وسبعون شبرا، وهى مؤزّرة بالرخام البديع النّحت، الرائع النّعت، وينتهى إزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرا، وعليه من الجدار المكرّم ثلث آخر قد علاه تَضْمِيخُ المسك والطّيب، والذي يعلوه من الجدار شبّابيكٌ عودٍ متصلة بالسّمك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بَسْمَكِ المسجد. وإلى حيز إزار الرخام تنتهى الأستار، وهى لازَوْرْدِيَّةُ اللون.. وفى الصفحة القبليّة أمام وجه النّبي ﷺ مسمارٌ فضيٌّ، هو أمام الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام، وإلى قدميه ﷺ رأسُ أبي بكر الصديق رضى الله عنه، ورأس عمر الفاروق مما يلي كتفى أبي بكر الصديق رضى الله عنها، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبي بكر، ثم إلى وجه عمر. وأمام هذه الصفحة المكرّمة نحو عشرين قنديلا معلقة من الفضة، وفيها اثنتان من الذهب. وعن يمين الروضة المكرّمة المنبر الكريم، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة، وهو مرخّم كله، وارتفاعه نحو القامة أو أزيد، وسعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجة ثمانية، وله باب على هيئة الشّبّاك مقفل، يفتّح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف، والمنبر مغشّى بعود الآبنوس، ومقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر، قد طُبّق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه، فيُدخل الناس أيديهم إليه ويتمسّحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم».

ويسترسل ابن جبير فى وصف المسجد وقبلته وما على جدارها من الفسيفساء بهذا المتصوّر البارع الدقيق. ويذكر أن المؤذن الراتب فيه من أحفاد بلال مؤذن الرسول رضى الله عنه، ويصف مشاهد المدينة. ويبارحها إلى الكوفة، ويصل إلى بغداد، ويصور بعض المجالس العظيمة لعلمائها ووعاظها وخاصة ابن الجوزى إمام عصره فى الحديث والوعظ، وفى وصف إحدى مواظمه يقول:

«أتى فيها برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا، وذابت بها الأنفس احتراقا، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النّشيج، وأعلن الثائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، فشهدنا هولا يلا

النفوس إنابةً وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازات الفقر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة».

ويصف بغداد ومساجدها ومبانيها وأسواقها ومحالها، ويغادرها إلى الموصل فحلب، وتروعه مبانيها وقلعتها وجامعها والمدرسة الملحقة به وكأنها في الحسن روضة تجاور أخرى. ويصل دمشق جنة المشرق وعروس المدن، وتروعه بساتينها المحدثه بها إحداق الهالة بالقمر وما يمتد بشرقيها من غوطتها الخضراء بحللها السندسية البديعة، وينوه بحسنها، ويقول صدق القائلون عنها: «إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسامتها (تقابلها) وتُحاذيها». ويطيل الوصف لمسجدها الأموى العظيم وما به من عُد وقباب وأبواب وما عليها من نقوش وما يمتد على حيطانه وسقوفه من الفسيفساء البديعة وما به من مقاصير وغرائب التصاوير. ويفيض في الحديث عن مشاهد دمشق وأسواقها ومدارسها ومارستانها وما بها من خانقاهات للمتصوفة. وأشاد بأعمال صلاح الدين الأيوبي في الشام، كما أشاد بها في الإسكندرية والقاهرة، ونوه بانتصاراته على الصليبيين، وتغلغله في ديارهم، ولاحظ أن تجارهم وتجار المسلمين يقدون ويروحون في الدارين: دار الإسلام ودار حملة الصليب دون أى اعتراض، والحرب مع ذلك قائمة بين الفتنين والتجار في عافية. ويُبهر من ميناء عكا مع التجار النصارى في إحدى سفنهم المعدة لسفر الخريف، وكانت متجهة إلى مَسِينَة في صِقْلِيَة، فنزل بها وتجوّل في بلدانها، وكان المسلمون قد فتحوا تلك الجزيرة في مطالع القرن الثالث الهجرى وعربوها لمدة قرنين ونصف إذ فتحها النورمان، وكان ملوكهم الأولون يحتضنون الثقافة العربية ويرعون علماءها، ويجلسون منهم مجلس التلاميذ، مما أتاح لصقْلِيَة حينئذ أن تصبح مجازاً لعبور الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا وخاصة في عهد روجر الثانى وابنه غليوم اللذين طبعاً حياة الدولة في أيامها بالطوابع العربية الإسلامية، ويصور ذلك ابن جبير في حديثه - برحلته - عن غليوم الذى زار الجزيرة في عهده، فيقول عنه:

«هو كثير الثقة بالمسلمين، وساكنٌ إليهم في أحواله والمهمٌّ من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخه رجلٌ من المسلمين.. ومن عجيب شأنه المتحدّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته (في أول رسائله) - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - «الحمد لله حقّ حمده»، وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكراً لأنعمه». وأما جواريه وحظاياه في قصره

فمسلمات كلهن، يقول: ومن أعجب ما حاثنا به خديمه: يحيى بن فتيان الطراز أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره، فتعود مُسلمة، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة، وهُنَّ على تكتم في ذلك كله، وهُنَّ في فعل الخير أمور عجيبة.. وأما فتياهن الذين هم عُيُون دولته وأهل عيالته في ملكه فهم مُسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً (طلباً للأجر) ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلفاً، ولهم في فعل الجميل أخبارٌ مأثورة». وهى وثيقة تاريخية مهمة فيما كان من تعاون بين النورمان النصارى والمسلمين في أيام ملوكهم الأولى بصقلية. ويتنقل ابن جبير في الجزيرة، ومما يذكره عن نساء النصارى في «الرم» العاصمة أنهن كن يلبسن نفس زى المسلمات ويتحجبن مثلهن منتقبات بالنقب الملونة كما يتزين على طريقتهن، ويقول إنهن فصيحات. ومع ذلك كله يقول ابن جبير إن راية الإسلام ستتكس هناك وسيصبح كل ما للمسلمين من مساجد وغير مساجد هناك أثراً بعد عين، وصدق حدسه. وقد أبحر من صقلية إلى قرطاجنة على الشاطئ الأندلسى ومنها إلى غرناطة. والرحلة - بحق - ممتعة لا بأسلوبها الأدبى المرسل البليغ فحسب، بل أيضاً بملاحظات ابن جبير الدقيقة المتنوعة.

خاتمة

تحدثنا - في الصحف الماضية - عن كثرة العناصر المكونة لسكان إيبيريا وأنها ظلت تستقبل عناصر متنوعة من القارات القديمة الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآسيا، ومن قديم ظلت تستقبل حضارات الفينيقيين واليونان والقرطاجينيين والرومان دون أن تضيف شيئاً يميزها في تاريخ الحضارة الإنسانية، وغزاها القوط المتبررون في القرن الخامس للميلاد وقضوا - أو كادوا يقضون - على كل ما وفد عليها من تلك الحضارات. ومرّ بنا فتح العرب لإيبيريا سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م والجهود التي بذلها موسى بن نصير وطارق بن زياد في فتحها حتى خليج بسكاي وجبال البرينيه التي تفصلها عن غالة (فرنسا). ولم تكد تمضي أربع سنوات حتى أصبحت إيبيريا من جنوبيها إلى شاليها تدين بالولاء لدمشق كإقليم من أقاليم الدولة الأموية. ويُسندعى الفاتحان العظيمان إلى دمشق بأخرة من سنة ٩٥ للهجرة ولا يعودان إليها. واستوطن الجيش الفاتح من العرب والبربر أواسط إيبيريا وجنوبيها، وسموا ديارهم - بل إيبيريا جميعها - باسم الأندلس أخذاً من كلمة «قندالس» سكانها في الجنوب. وتدخل الأندلس في عصر الولاة منذ سنة ٩٥ إلى سنة ١٣٨ وأبلى نفر من ولاتها - حتى سنة ١١٦ - بلاء حسناً في غزو غالة (فرنسا) ويفرضون على إقليم سبتمانية بجنوبيها ولاءه للعرب، وتتقدم جيوشهم مراراً على نهر الرون وفي اتجاه بواتييه إلى الشمال وليون إلى الجنوب، وتدب العصبيات - بل تضطرم - بين قبائل العرب القحطانية والمضرية، وبين العرب والبربر، فيتوقف هذا المد العظيم، ولولا ذلك لفتح العرب شطراً كبيراً من أوروبا الغربية.

ويقيض لانتشال الأندلس من العصبيات المحتدمة فيها عبور عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٣٨ للهجرة بحر الرقاق إليها وإعلانه فيها ميلاد دولة أموية غربية تخلف دولة آبائه في دمشق التي قضى عليها العباسيون قضاء مبرماً سنة ١٣٢ للهجرة. ويأخذ هو وأبناؤه وأحفاده الذين امتد حكمهم للأندلس نحو ثلاثة قرون في تأسيس حضارة أندلسية عربية باهرة، وقد أخذت تلك الحضارة في التكامل لعهد عبد الرحمن الأوسط الذي أنشأ للدولة أسطولا يحمي موانئها على المحيط الأطلسي

والبحر المتوسط، ووضع لحكم البلاد نظاما إداريا حضاريا، إذ اتخذ لها مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحضرة، وأضاف إليه هيئات - باسم خطط - للإشراف على مصالح الرعية. وبلغت الأندلس الذروة في المكانة السياسية والحضارية لعهد عبد الرحمن الناصر الذي فرض سلطانه على المسيحيين في الشمال. وما يليث عهد الدولة الأموية أن ينتهى بفتنة كبرى ظلت نحو عشرين عاما. وينشأ عصر أمراء الطوائف، وفيه تنقسم الأندلس إلى أندلسات، وبعبارة أخرى إلى إمارات كثيرة، ويتنافس الأمراء في الإكثار مما يحيط بهم من شعراء وعلماء وكتاب، وتتفق سوق الأدب والعلم، وتهبط كفة الحكم والسياسة إلى أدنى مستوى، إذ يعيش الأمراء للترف واللهو وكل فنونه، ويتناحرون فيما بينهم، على حين يركعون - خانعين - للمسيحيين الشماليين، مما جعل ألفونس السادس ملك قشتالة ينقض على طليطلة واسطة عقد الأندلس سنة ٤٧٨ للهجرة ويستولى عليها، حتى إذا لم يبق منزع في قوس الصبر لا للفقهاء ولا للرعية ولا للأمراء اللاهين استصرخوا جميعا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب، فعبر إلى الأندلس سنة ٤٧٩ وسحق جموع ألفونس السادس في الزلاقة سحقا ذريعا، وتطورت الأمور سريعا، وأظل لواء المرابطين الأندلس جميعا. وتضعف دولتهم بعد نحو نصف قرن ونيف، وتعود الأندلس في بعض أجزائها إلى التفكك، وتنداركها دولة الموحدين، وتظل تحميها إلى أوائل العقد الثالث في القرن السابع الهجرى، ومن مفاخرهم تدمير أميرهم يعقوب الموحدى لجيش ألفونس الثامن في موقعة الأرك سنة ٥٩١. وتعود الأندلس منذ سنة ٦٢٣ إلى التفكك، وتقع كثرة من مدنها العريقة في حجبور المسيحيين الشماليين، ويستطيع ابن الأحمر سليل سعد بن عبادة الصحابي الجليل أن يستنفذ إمارة غرناطة له ولأسرته لأكثر من قرنين ونصف إلى أن سلم أبو عبد الله الصغير مفاتيح المدينة لفرناند وزوجته إيزابيلا سنة ٨٩٧ للهجرة.

وذكرنا ما تم في المجتمع الأندلسي من مزج سريع بين المسلمين من العرب والبربر وبين المسيحيين ومن دخلوا في الإسلام منهم وأبنائهم، وكانت حياة المسيحيين حياة متبدية بها غير قليل من الشظف، بينما أخذ المسلمون الأندلسيون يتحولون إلى حياة حضارية، وخاصة منذ عهد عبد الرحمن الأوسط لشغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما جعل التجار يحملون إليه كثيرا من أدواتها، وساعد على اكتمال الحضارة الأندلسية في عهده وفود زرياب تلميذ إسحق الموصلى - أكبر الموسيقيين في عهد الرشيد - على قرطبة، ومكن له عبد الرحمن - إلى أقصى حد - من إحداث نهضة موسيقية في الأندلس بإنشائه

له معهدا موسيقيا تخرج فيه كثيرون، قادوا بالأندلس الحركة الغنائية والموسيقية قيادة بدیعة. ولا یقف أثر زریاب عند هذا الجانب، بل یتسع لیشمل الجوانب الحضارية المادية. فی المأكّل وملبس الجنسین وتزینها فی الهیئة والمظهر، وأیضا فی اتخاذ الریاش الفاخر. وأخذ عبد الرحمن الأوسط وأبناءؤه یعنون ببناء القصور والتأقی فی أثارها وزینتها، ولا یبنی حفیده الناصر قصرا فحسب بل یبنی مدینة عظیمة هی مدینة الزهراء. ومن یتابع ابن بسام فی وصفه لبعض قصور أمراء الطوائف مثل قصر المکرّم لبنی ذی النون یظن کأنها من قصور ألف لیلة ولیلة الخیالیة، وما یزال قصر الحمراء بغرناطة إلى الیوم یشهد بما بلغتة الحضارة المادية فی المعمار إلى أوج لم تعرفه الأندلس قبل العرب وبعدهم إلى الیوم.

وكان للمرأة فی هذا المجتمع الأندلسی الحضاری مكانة عظیمة جعلتها تحظى من الحرية بما لم تحظ به أختها فی المشرق حتی كان بینهن كاتبات مشهورات للخلفاء الأمویین، وكان بینهن عالمات مقرئات ومحدثات وطبیبات، وكان بینهن سیدات مجتمع راقیات كصواحب الصالونات بفرنسا فی القرنین السابع عشر والثامن عشر وكان هن - مثلهن - غیر قليل من التأثير فی الحیة الأدبیة.

ولم تعرف الأندلس التشیع إلا قلیلا وعند أفراد محدودین، وظلت النزعة الأمویة تغلب علیها بعد سقوط الدولة الأمویة، وعرفت الأندلس الزهد وتألّق فیها أسماء زهاد كثیرین، كما عرفت التصوف منذ القرن الرابع الهجری وأنجبت فیة مشاهیر مثل ابن عربی وابن سبعین والششتری.

ولم یكن لإیبیریا دور علمی فی العصور القدیمة، والعرب هم الذین بدأوا فیها الحركة العلمیة بعلومهم اللغویة والدینیة، وعَمِلَ عبد الرحمن الأوسط على السعة بهذه الحركة، إذ أدخل علیها بقوة العناية بعلوم الأوائل من ریاضة وطب وصیدلة، وجلب كتب تلك العلوم من بغداد. وبلغ الناصر وابنه الحكم المستنصر بالحركة العلمیة الغایة المأمولة باستدعاء العلماء من المشرق وإجزال العطاء لهم وجلب المخطوطات النفیسة فی مختلف العلوم والآداب، مما أتاح لدراسة علوم الأوائل الازدهار منذ القرن الرابع الهجری، مع ما أضاف إليها علماء الأندلس من إضافات باهرة على مر العصور، وتلمع فی الریاضة أسماء مسلمة المجریطی والزرقالی والبِطْرُوجی والرّقْوَطی، وتلمع فی الطب أسماء الزهراوی وبنو زهر وابن رشد، وفی الصیدلة أسماء الغافقی وابن العوام وابن البیطار

وفي الفلسفة أساء ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وفي الجغرافية أساء الرازي وأبي عبيد البكري وابن غالب وابن سعيد.

وينشط علماء النحو واللغة مبكرين، ويؤلف الزبيدي كتابا في طبقاتهم حتى زمنه في القرن الرابع الهجري، ويبلغون عنده نحو مائة عالم نحوي ولغوي، ومن أشهرهم الرباحي راوي كتاب سيبويه عن أبي جعفر النحاس المصري ومنذر بن سعيد راوي معجم العين للخليل بن أحمد عن ابن ولاد المصري، والزبيدي نفسه صاحب الكتاب السالف، وأبو بكر بن القوطية وابن الإفليلي وابن سيده والشتنمري وابن الطراوة وعيسى الجزولي وابن عصفور وابن مالك وابن حيان. وتنشط مباحث البلاغة على يد أمثال ابن الكتاني المتطبيب وحبيب والكلاعي والمواعيني وابن رشد وأبي البقاء الرندي، وبالمثل تنشط الكتابات النقدية عند ابن شهيد وابن خفاجة وابن بسام وحازم القرطاجني.

وينقل القراء مبكرين عن ورش المصري قراءته وتشيع في الأندلس، ومن أشهر علماء القراءات هناك القضاعي والظلمنكي ومكي بن أبي طالب وأبو عمرو الداني والشاطبي وابن حيان. وتعني الأندلس بتفسير القرآن مبكرة، وتلمع فيه أساء بقي بن مخلد وابن أبي زمنين وابن عطية والقرطبي وابن حيان. ويتكاثر المحدثون من أمثال ابن وضاح وقاسم بن أصبغ والحميدى وابن قرقول وابن الخراط وابن القطان. ويتكاثر الفقهاء كثرة مفرطة وخاصة على مذهب مالك، وتدور فتوى فقهاءهم وقضاتهم عليه وعلى حَمَلَة مذهبه المصريين وخاصة عبد الرحمن بن القاسم، ومن أشهرهم شَبُطون وعيسى بن دينار ويحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب وابن عتبة وابن عبد البر وأبو الوليد الباجي وابن رشد الجد. ويلقانا غير فقيه للشافعية من مثل ابن الخراز والأصيلي. وينشط المذهب الظاهري هناك، ومن كبار أتباعه منذر بن سعيد وابن حزم وابن حوط الله. وعرفت الأندلس الاعتزال عند أمثال عبد الأعلى بن وهب وابن مسرة ومنذر بن سعيد وإسماعيل الرعيني، كما عرفت المذهب الأشعري عند محمد بن خلف.

وكان للمؤرخين نشاط واسع في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري، ومنهم من كتب في التاريخ العام مثل عبد الملك بن حبيب وعريب وابن الخطيب، ومنهم من كتب في تاريخ الأندلس مثل أحمد الرازي وابنه عيسى وابن القوطية وابن حيان ويحيى بن الصيرفي وابن صاحب الصلاة وأبي الحجاج البياسي وابن الخطيب. ومنهم من كتب في

السيرة النبوية مثل ابن حزم وابن عبد البر والكلاعي وابن سيد الناس. ومنهم من كتب في تراجم الأدباء والعلماء من كل صنف. ومنهم من كتب في الأنساب مثل ابن حزم وفي تراجم الصحابة مثل ابن عبد البر. ومنهم من كتب في التراجم الأندلسية العامة مثل ابن الفرضى وصاعد والحميدى وابن بشكوال والضى وابن الأبار والملاحى وابن الزبير وابن الخطيب. ومنهم من كتب في تراجم الفقهاء والقضاة مثل ابن عبد البر أحمد بن محمد والخشنى والنباهى، ويشتهر في الترجمة للأطباء ابن جلجل وللغويين والنحاة الزبيدى وللأدباء من شعراء وكتاب ابن دحية والفتح بن خاقان وابن بسام وابن الأبار وابن سعيد وابن الخطيب وابن الأحمر.

وأخذتُ أبحث بحثاً تحليلياً تاريخياً في نشاط الشعر والشعراء موضحاً كيف أن أهل الأندلس تمثلوا العربية تمثلاً قوياً، وشركهم المسيحيون في هذا التمثيل، حتى إن جمهورهم هجر لغته اللاتينية الدارجة، وأصبحت العربية لسانه ومهوى فؤاده وأداة تعبيره عن مشاعره وأفكاره، حتى ليعلن ذلك أحد قساوستهم متحسراً ومتعجباً أشد العجب من هجران الشباب المسيحي للغة وطنه الرومانسية وتمثله للعربية معجباً بها وبأدبها أشد الإعجاب، محاولاً بكل ما استطاع أن يتقنها. ويقول القس إن كثيرين من الشباب أتقنوها وكتبوا بها أشعاراً ورسائل بديعة. ويشهد لكلامه أننا نجد فعلاً بين المسيحيين الإسبان من بلغوا من إتقان العربية والقدرة على التعبير الدقيق بها أن عُيِّنوا كتّاباً في دواوين الدولة، وبذلك وبأدلة أخرى مؤيدة أضفناها ما ينقض نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في حياتهم اليومية لهجة رومانسية من اللاتينية الدارجة، وما كانت الأندلس بدعاً من الأقاليم العربية، فقد ظهرت فيها جميعاً عاميات دخلتها في جميع البلدان العربية ألفاظ من لغاتها الأصلية التي كانت متداولة فيها، وبالمثل كانت تشيع في الأندلس عامية عربية تسربت إليها ألفاظ من اللاتينية الدارجة على نحو ما حدث في عامية الشام ومصر وغيرها من البلدان العربية.

وعاشت الفصحى بجانب هذه العامية الأندلسية العربية معيشة مزدهرة شأنها في ذلك نفس شأنها وازدهارها في جميع الأقطار العربية، وتدل على ذلك دلالة بيّنة كثرة الشعراء في كل بلد بالأندلس حتى في الريف وبين أهل القرى، وهى كثرة تأخذ في الاتضاح منذ القرن الثالث الهجرى، وتتسع سعة شديدة في عصر أمراء الطوائف، إذ تعدد الأمراء الذين يغدقون عطاياهم على الشعراء. ويظلون يتكاثرون في اطراد طوال العصور التالية.

واستطاعت الأندلس في أثناء هذا النشاط الشعري الواسع أن تنفذ إلى ابتكار فن شعري جديد هو فن الموشحات، وحاول بعض المستشرقين الإسبان مثل غرسيه غوميس أن يقولوا إنها نشأت من المزج بين الشعر العربي وبين بعض الأغاني الرومانسية في اللاتينية الإسبانية الشعبية، وليس في أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا عن طريقها هذا المزج. والصحيح - كما أثبتنا بأدلة متعددة - أن الموشحات إنما هي صورة أندلسية تطورت عن أصول مشرقية هي المسمطات، وكان أول من أحدثها عربي هو مقدم بن معافى، وأعطائها صورتها النهائية بعده عريبان هما الرمادى الكندى وعبادة ابن ماء السماء الأنصارى. وعرضنا وأشارنا إلى طرائف من الموشحات على مر الأزمنة مع الترجمة لثلاثة من الوشاحين البارعين هم ابن عبادة القزاز ويحيى بن بقى وابن زهر، والممنا بالأزجال وذهبنا مع ابن خلدون إلى أنها نشأت بعد الموشحات مع الاستشهاد ببعض روائعها ومع الترجمة للزجال الفذ ابن قزمان. ثم أخذنا في دراسة أغراض الشعر دراسة تاريخية نقدية تحليلية تعقبنا فيها كل غرض وأهم شعرائه على مر التاريخ، وبدأنا بشعراء المديح مع نماذج من مدائحهم ومع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وصنعنا نفس الصنيع بشعراء الفخر مع الترجمة لثلاثة من أفذاذهم، وبالمثل لشعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، ولأصحاب الشعر التعليمى مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعلى نحو ما عُرض من روائع الأغراض الشعرية السالفة عُرضت روائع الغزل على مر العصور مجسدة الشأو البعيد الذى بلغته الأندلس في تلك الروائع، إذ تمثل شعراؤها إلى أقصى حد ما في الحب العذرى العربى القديم من حنين ملتان وحُب ظامئ لا ينطفئ أواره، مع ما يلاحظ من أن ناظميه يعكسون مشاعرهم على عناصر الطبيعة من حولهم. وتبادلهم المرأة الأندلسية - مع ما يحفها من عفة ووقار - حبا بحب. ويشترك معهم في الغزل الفقهاء والفلاسفة هناك، مما أتاح للغزل في الأندلس سموا بعيدا على نحو ما يتضح عند من ترجمنا لهم وخاصة ابن زيدون ولادة. وتلتقى بشعراء الطبيعة والخمر، وتبلغ الأندلس في شعر الطبيعة ذروة لعل إقليبا عربيا لم يبلغها على مر العصور، وتوضح ذلك غاية التوضيح النصوص والتراجم المختارة وخاصة تراجم ابن مقانا وابن خفاجة وابن سفر. ويلقانا شعراء الرثاء للأفراد وفي مقدمتهم ابن وهبون وتأملاته البديعة في حقائق الحياة والموت، وشعراء الرثاء للدول الغاربة في الأندلس وفي مقدمتهم ابن اللبانة وابن عبدون. ونقرأ خواطر بديعة لشعراء الزهد والتصوف، وتتيح الأندلس للتصوف الفلسفى ازدهارا عظيما على نحو ما هو معروف عن متصوفها ابن عربى. وتزدهر فيها

المدائح النبوية ازدهارا رائعا على نحو ما يلقانا عند ابن جابر الوادى آشى. ومنذ سقطت طليطلة فى القرن الخامس يستصرخ الشعراء العرب ومواطنيهم لاستنقاذ مدنها من أيدي حملة الصليب، ويتعالى الصراخ فى القرن السابع الهجرى وبعده، على نحو ما يلقانا عند ابن الأبار وأبى البقاء الرندى.

وازهرو النثر فى الأندلس ازدهارا لا يقل عن ازدهار الشعر فيها، ويتضح ذلك فى كثرة كتاب الرسائل الديوانية على مر العصور، وفى مقدمتهم البزليانى وأبو محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبى الخصال وابن الخطيب، كما يتضح فى كثرة كتاب الرسائل الشخصية وفى مقدمتهم حبيب وابن الدباغ وابن طاهر وابن الجدد. ونفذ الكتاب المبدعون هناك إلى رسائل أدبية بارعة، منها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المستوحاة من إحدى مقامات بديع الزمان، مع بث روح وفكر جديدين فيها، ومنها رسائل ابن برد الأدبية، وإحداها وهى فى تفضيل أهب (جلود) الشياه على البسط مستوحاة من رسالة سهل ابن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ التى يحتج فيها للبخل ضد الكرم، ومنها الرسالة الهزلية لابن زيدون وأختها الجديدة، وأولاهما مستوحاة من رسالة الترييع والتدوير للجاحظ مع اختلاف الموضوع، ومنها رسالة ابن غرسية الدميعة فى الشعوبية والردود عليها، ومنها الرسائل النبوية البديعة على نحو ما يلقانا عند ابن الجنان، ومنها مواعظ مؤثرة مثل مواعظ منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى. وملتقى بأعمال نثرية متنوعة وفى مقدمتها كتاب طوق الحمامة لابن حزم الفقيه المبدع، وهو يحتفظ بتجاربه وتجارب معاصريه فى الحب العذرى مع الشهادة الناطقة بازدهار هذا الحب العفيف الطاهر فى الأندلس. وملتقى بالمقتبس لابن حيان وهو طراز فى الكتابة التاريخية لا نظير له فى كتابة التاريخ عند العرب، ومثله الذخيرة لابن بسام فى كتابة التراجم الأدبية وعرض ما لأصحابها من روائع شعرية ونثرية. وتلقانا مذكرات لأمير غرناطى هو عبد الله بن بلقين، كما تلقانا قصة حى بن يقظان لابن طفيل، وهى قصة طفل ألقى به بعد مولده فى جزيرة مهجورة، فنبته ظبية فقدت رضيعها وأرضعته، ونما وأخذ عقله ينمو معه ويرصد كل ما حوله حتى إذا بلغ الثلاثين أخذ يدرك حقائق الأشياء شأن الفلاسفة، وشعر أن للكون خالقا وأخذ يشعر برغبة شديدة للاتصال به، وبعد محاولات شتى استطاع الاتحاد بربه. وبذلك يثبت ابن طفيل أن التأمل العقلى الخالص المفضى إلى الفلسفة مثله مثل الإيمان عن طريق الأنبياء فى أن كلا منهما يودى إلى نفس الغاية وهى الاتحاد الصوفى بخالق الكون ومنشئه. وقد ثبت ثبوتاً بيناً أن عناصر القصة عناصر

عربية إسلامية خالصة، وقد أثرت في الأدب الإسباني إذ استُوحيت منها قصة موريسكية هي قصة الصنم والملك وابنته وقصة (الكريتيكون) للكاتب الإسباني اليسوعي جراثيان المنشورة في منتصف القرن السابع عشر، وأثرت القصة آثاراً مختلفة في الآداب العالمية على نحو ما هو معروف عن قصة روبنسن كروزو لكتبتها الإنجليزى دانييل ديفو.

ويعرض الفصل بعد ذلك فن المقامات في الأندلس وسلوك بعض أصحابه مسلك الحريرى في مقاماته القائمة على الكُدية والشحاذة والتفاح باللسج والتعابير الأنيفة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقتى وبيان التزامه فيها ما لا يلزم من تعدد الحرف في قوافى السجع محاكاة لأبى العلاء في لزومياته، وتغلغله يبطل مقاماته في أعماق المحيطات بالإضافة إلى ما تنقل بينه من البلدان العربية. وذكر - في إجمال - ما أثر به فن المقامات في الأدب الأندلسى إذ نشأت على غراره في القرن السادس عشر للميلاد وخلال القرن السابع عشر قصص سميت بالقصص البيكارسية، وبطلها «البيكارو» يتجرّع - كبطل المقامات - آلام البؤس والفقر، ويعيش على التسول والشحاذة متوسلاً إلى ما يكتسبه عن طريقهما بحيلٍ وخدعٍ شتى يستحوذ بها على إعجاب الناس فيوسعون حفاوة وعطاء.

وتحدث الفصل عن رحلات الأندلسيين وبواعثها الكثيرة لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، وللإمام بمراكز الثقافة في المشرق والأخذ عن الشيوخ: أخذ المؤلفات والإجازات، وللسفارة إلى ممالك النصارى في الشبال وأصحاب الإمارات المختلفة في الأندلس ولمرافقه حكام غرناطة وسلاطين المغرب في رحلاتهم، وللفرجة على ما وراء البلاد العربية في آسيا وشرقى أوربا واكتشاف المجهول في تلك الديار النائية من الأمم وظواهر الكون. ومن أطرف تلك الرحلات رحلة أبى حامد الغرناطى إلى بلاد البلغار والصقالبة وروسيا، ورحلة ابن جبير في البلدان العربية، وتتميز بدقة الوصف وجمال السرد والأسلوب المرسل العذب.

فهرس

صفحة

مقدمة ٥

الفصل الأول السياسة والمجتمع

- ١ - التكوين الجغرافي والبشرى ١٣
- ٢ - الفتح - عصر الولاة ١٦
- (أ) الفتح ١٦
- (ب) عصر الولاة ٢٠
- ٣ - الدولة الأموية ٢٣
- ٤ - أمراء الطوائف - المرابطون - الموحدون - بنو الأحمر في غرناطة ٣٥
- (أ) أمراء الطوائف ٣٥
- (ب) المرابطون ٣٩
- (ج) الموحدون ٤٢
- (د) بنو الأحمر في غرناطة ٤٤
- ٥ - المجتمع ٤٦
- الحضارة ٤٧
- الغناء ٥١
- المرأة ٥٢
- ٦ - التشيع - الزهد والتصوف ٥٤
- (أ) التشيع ٥٤
- (ب) الزهد والتصوف ٥٥

الفصل الثاني

الثقافة

- ١ - الحركة العلمية ٥٩
- ٢ - علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا ٧٢
- (أ) علوم الأوائل ٧٢
- (ب) الفلسفة ٨٢
- (ج) علم الجغرافيا ٨٨
- ٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ٩١
- ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ١٠٦
- ٥ - التاريخ ١٢٣

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

- ١ - تعرب الأندلس - كثرة الشعراء ١٢٧
- (أ) تعرب الأندلس ١٢٧
- (ب) كثرة الشعراء ١٣٧
- ٢ - الموشحات والأزجال ١٤٦
- (أ) الموشحات ١٤٦
- ابن عبادة القرظار ١٥٥
- يحيى بن بقى ١٥٧
- أبو بكر بن زُهر ١٦٠
- (ب) الأزجال ١٦٣
- ابن قزمان ١٦٨
- ٣ - شعراء المديح ١٧٢
- ابن عبد ربه ١٨٨

١٩٠	ابن دراج القسطلی
١٩٤	ابن عمار
١٩٧	ابن الحداد القیسی
٢٠٠	الأعمی التطیلی القیسی
٢٠٤	الرُّصافی محمد بن غالب
٢٠٧	ابن زَمْرَك
٢١٠	٤ - شعراء الفخر والهجاء
٢١٠	(أ) شعراء الفخر
٢١٦	سعید بن جودی السعدی
٢١٨	عبد الملك بن هذیل
٢٢٠	یوسف الثالث
٢٢٢	(ب) شعراء الهجاء
٢٣٠	یحیی الغزال
٢٣٣	السُّمَیْسر
٢٣٤	الیکّی
٢٣٦	علی بن حَزْمُون
٢٣٨	٥ - الشعراء والشعر التعليمی
٢٤٥	أبو طالب عبد الجبار
٢٤٩	حازم القرطاجنی

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

٢٥٦	١ - شعراء الغزل
٢٧٧	الرّمادی الکندی
٢٨٠	الشریف الطلیق المروانی
٢٨٥	ابن الزقاق اللّخمی
٢٨٨	أبو جعفر بن سعید وحفصة الركونیة

صفحة

- ابن خاتمة ٢٩١
- ٢ - شعراء الطبيعة والخمر ٢٩٣
- عبادة بن ماء السماء الأنصاري ٣٠٨
- عبد الرحمن بن مقانا ٣١٠
- علي بن حصن ٣١٢
- أمية بن أبي الصلت ٣١٤
- ابن خفاجة ٣١٧
- محمد بن سفر ٣٢٢
- ٣ - شعراء الرثاء ٣٢٣
- (أ) رثاء الأفراد ٣٢٣
- محمد بن سوار ٣٣٥
- ابن وهبون ٣٣٦
- (ب) رثاء الدول ٣٣٨
- المعتمد بن عباد ٣٣٩
- ابن اللبانة ٣٤٢
- ابن عيدون ٣٤٤
- ٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ٣٤٧
- (أ) شعراء الزهد ٣٤٧
- أبو إسحق الإلبيري ٣٥٣
- (ب) شعراء التصوف ٣٥٦
- ابن العريف ٣٦١
- ابن عربي ٣٦٣
- الششتري ٣٦٧
- (ج) شعراء المدائح النبوية ٣٧٠
- أبو زيد الفازازي ٣٧٣
- ابن جابر الأندلسي ٣٧٦
- ٥ - شعراء الاستنفار والاستصراخ ٣٧٨
- ابن الأبار ٣٨٥

الفصل الخامس

النثر وكتابه

- ٣٩٢ - الرسائل الديوانية
- ٣٩٨ البزلياني
- ٤٠١ أبو محمد بن عبد البر
- ٤٠٥ أبو بكر بن القصيرة
- ٤٠٩ ابن أبي الخصال
- ٤١٤ ابن عميرة المخزومي
- ٤١٧ لسان الدين بن الخطيب
- ٤٢٢ ٢ - الرسائل الشخصية
- ٤٣٥ حبيب
- ٤٣٧ ابن الدباغ
- ٤٣٩ أبو عبد الرحمن بن طاهر
- ٤٤٢ أبو القاسم بن الجد
- ٤٤٥ سهل بن مآلك
- ٤٤٧ ٣ - الرسائل الأدبية
- ٤٤٨ رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد
- ٤٥٨ رسائل ابن بُرد الأصغر
- ٤٦٠ (أ) رسالة السيف والقلم
- ٤٦١ (ب) رسالة النخلة
- ٤٦٣ (ج) رسالة أهب الشاء
- ٤٦٥ رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية
- ٤٦٥ (أ) الرسالة الهزلية
- ٤٦٨ (ب) الرسالة الجدية
- ٤٧٢ رسالة ابن غرسية في الشعوبية والردود عليها

صفحة

٤٧٩	رسائل نبوية ومواعظ
٤٧٩	(أ) رسائل نبوية
٤٨٤	ابن الجنان
٤٨٦	(ب) مواعظ
٤٨٩	منذر بن سعيد البلوطي
٤٩١	أبو بكر الطرطوشي
٤٩٣	٤ - أعمال نثرية
٤٩٤	طوق الحمامة لابن حزم
٥٠٠	كتابة التاريخ والتراجم الأدبية
٥٠٠	(أ) المقتبس لابن حيان
٥٠٤	(ب) الذخيرة لابن يسام
٥٠٨	مذكرات عبد الله بن بلقين
٥١٢	قصة حنّ بن يقظان لابن طفيل
٥١٧	٥ - المقامات والرحلات
٥١٧	(أ) المقامات
٥٢٢	المقامات الزومية للسرقسطي
٥٢٦	(ب) الرحلات
٥٣٢	رحلة ابن جبير
٥٣٧	هامة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثانية عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة
لعصر بني أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية
في النقد الأدبي
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة
- فصول في الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية
البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة السابعة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

- في الدراسات القرآنية
سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
العصر الجاهلي
الطبعة الثانية عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي
الطبعة الحادية عشرة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسي الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسي الثاني
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات (١)
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات (٢)
مصر - الشام
الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات (٣)
الأندلس
الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة الثامنة ٣٤٠ صفحة

● تجديد النحو

الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً

مع نهج تجديده

الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات

● الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

في مجموعة نوايغ الفكر العربي

● ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

● الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

● النقد

لطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

في التراث المحقق

● المغرب في حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

● كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

● الدرر في اختصار المغازي والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦

في سلسلة «اقرأ»

● العقاد

الطبعة الرابعة

● معي (١)

الطبعة الثانية

● البطولة في الشعر العربي

● معي (٢)

الطبعة الأولى

الطبعة الثانية

● الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية

١٩٨٩ / ٣٨١٧	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٦٥-٠-٥	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٢٣٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)